شعر الصراع
بين الإسلام وخصومه
في عصر النبوة

الطبعة الأولى

٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١١/٩/٣٦٠٩)

٨١١,٩٢

عبهري، كمال جبري

شعر الصراع بين الاسلام وخصومه في عصر النبوة / كمال جبري عبهري / عمان:

دار الجنان للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

( ) ص

ر.أ: (٣٦٠٩/٩/ ٢٠١١).

الواصفات: الشعر العربي// العصر الحديث

- ❖ اعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
- ❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978 – 9957 – 551 – 25 - 4

دار الجنان للنشر والتوزيع

المركز الرئيسي (التوزيع - المكتبة) المملكة الأردنية الهاشمية

تلفاكس٢/٠٠٩٦٢٦٤٦٥٩٨٩١ ص. ب ٩٢٧٤٨٦ الرمز البريدي

مكتب السودان ــ الخرطوم ٠٠٢٤٩٩١٨٠٦٤٩٨٤

E- mail :dar_ jenan@yahoo.com

شعر الصراع
بين الإسلام وخصومه
في عصر النبوة

تأليف

الدكتور كمال جبري عبهري

الإهــــــــــــداء

إلـــــى

رُوحَيْ أمي وأبـي اللـذين قـضى الله – جلَّ وعـزَّ – أن أُحـسن إليهمـا ، وألاّ أنهرهمـا ، وأن أكون بَرَّاً بهما ، وأن أقـول لهمـا قـولاً كريمـاً ، وأخفض لهمـا جنـاح الـذل من الرحمة ، وأقول ربّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً ، فقد نما غرسهما واستغلظ واستوى على سوقه ، وأينَعَ وطـاب ، وحـانَ قطافه ، فإلى روحهما أهدي هذا الكتاب الذي يؤرخ لسيرة الرسول الأدبية ، ولجهاده في سبيل الله الذي أرسله بالحق رحمة للعالمين ، فهـو ثمرة طيبة من ثمار غرسهما .

د. كمال عبهري

فهرست الموضوعات

المقدمة

موضوع هذا الكتاب ((شعر الصراع بين الإسلام وخصومه في عصر النبوة))، وهو بحث معنيّ بكشف أحداث ذلك الصراع الذي احتدم بين الإسلام ومناوئيه عندما ظهرت الدعوة إلى الإسلام، وبإلقاء الضوء على الدور الذي شارك فيه الشعر في ذلك الصراع.

ومما دفعني إلى دراسة شعر هذه الفترة، أنه شعر يرصد أحداث فترة تُعَدُّ – بحق – من أخطر فترات تاريخ أمتنا وأكثرها حَرَجاً، ذلك، أن مصير الأمة كان مرتبطاً بمصير هذه القيم الجديدة التي جاء بها الإسلام.

على أن هناك سبباً آخر، وهو سبب مرتبط بِنَقْصِ الدراسات الجادَّةِ التي تناولت شعر الفترة، فهي دراسات مختصة بسيرة شاعر، أو طائفة من الشعراء الذين عاشوا في عصر الصراع، أو تناولت جانباً معيناً من جوانب الحياة الأدبية لذلك العصر.

وحين عكفت على دراسة شعر الصراع، تَبَيَّنَ لي أن هذا الشعر مرتبط بالأحداث التاريخية، ومتصل بالدين الإسلامي الحنيف، ومن هنا، كان لابد من أن أسلك في دراستي هذه سبيلين متوازيين:

أولهما: يمضي إلى دراسة هذا الشعر، ويرصد الأحداث التي سجلها، وهذا يعني أن الجانب التاريخي في هذا البحث، لا يُستطاع تجاوزه، أو تجاهله وإغفال أثره وتأثيره.

والثاني: يذهب إلى الوقوف على هذا الشعر، وبذل الجهد في تَنْقِيتِهِ مما لحق به من شوائب الانتحال والوَضْع، والطمس واختلاط النسبة، بفعل عوامل وظروف كثيرة، سنعرض لها في مواضعها.

وكان طبيعياً أن نقف في أثناء بحثنا عند المصادر التي عنيت برواية هذا الشعر وحفظه، فتكشّف لنا أن أهم هذه المصادر جميعاً، هو كتاب السيرة النبوية الذي صنّفه عبد الملك ابن هشام، فقد حفظ لنا هذا الكتاب قدراً كبيراً من شعر الصراع، وثمة مصدر آخر، كان ذا قيمةٍ ظاهرة في نقل أحداث فترة الصراع، ورواية بعض أشعارها، ذلك هو كتاب ((**تاريخ الأمم والملوك**)) لمحمد بن جرير الطبري. ويليه ((**أنساب الأشراف**)) للبلاذري الذي يحتفظ بثروة طائلة من شعر الفترة وأخبارها.

وتطلَّبت طبيعة البحث منا أن نقف وقفةً طويلة عند المصادر التي تعقَّبَتْ أخبار شعراء الفترة، ورصدت جوانب معينة من حياهم، **كالأغاني** لأبي الفرج الأصبهاني، وكتب تراجم الصحابة كالطبقات الكبرى والاستيعاب وأُسْد الغابة والإصابة التي عرضت بعض الجوانب الهامة

لشخصيات الشعراء والأعلام الذين كان لهم دَوْرُهُمْ في الصراع، وورَد ذِكْــرهُمْ في النــصوص الشعرية.

وتبين لنا في أثناء البحث، أنَّ هنالك ثلاثة أطراف في الصراع، وأن كل طرف منها قد شارك في أحداث الصراع مشاركةً جادةً، وأول هذه الاطراف هم المسلمون، وثانيها مشركو مكة، وثالثها هي القبائل العربية الأخرى واليهود.

وكان من الطبيعي أن يتصدّى شعراء كل طرفٍ للدفاع عن معتقداهم وأفكــارهم، ومهاجمــة خصومهم والنيل منهم. ومن هنا، فسوف نجد أنفسنا بإزاء ثلاث طوائف من الــشعراء: شــعراء المدينة، وشعراء مكة، وشعراء القبائل واليهود.

ووجدنا أن الصراع قد اتَّخذ مَظْهَرَيْنِ مُتَمَيِّزَيْنِ: مظهراً حربياً تمثَّل في الغزوات والمعارك الــتي دارت رحاها بين أطراف الصراع على أرض الجزيرة. ومظهراً فكرياً تجلّى في التصدي للخــصوم وتفنيد مزاعمهم، والترويج للمباديء والمعتقدات التي يؤمن بها كل طرفٍ مــن هــذه الأطــراف المتصارعة.

وقد واكب الشعر هذه الغزوات وسجّل أَحـداثها، ورصد أخبارها. ولذلك، ســوف تحظــى الغزوات بنصيب وافر من هذه الدراسة. وسبب ذلك، أنها كانت الحــافز الرئيــسي إلى القــول، والعامل الأساسي في تنشيط الثروة الأدبية عند شعراء الصراع.

ولما كانت الفترة التي عاشها شعراء الصراع فترة حربٍ واقتتال، كان بديهياً أن يتميز الــشعر الذي صدر عنهم بموضوعات معينة ذات صلة وطيدة بالغزوات وظروفها وأحداثها. وكان بديهياً أيضاً أن تغيب موضوعات أخرى لا تَمُتُّ لظروف الحرب بسبب، كموضوع الغزل مثلاً.

وسوف نرى أن هذه الموضوعات تَتَّسِمُ بسمات عامة تَسِمُها – في معظمها – وتُفــرد لــشعر الصراع – من ثَمَّ – شخصية متميزة تميزه عن أقرانه من الشعر العربي.

وبهذا، فقد رأينا أنَّ دراستنا لشعر الصراع ينبغي أنْ تتوزَّعَ على فصول خمسة، يتصدَّرها تمهيد، وأن ينفرد التمهيد بالدراسات السابقة لبعض جوانب الفترة، وبموقــف الإســلام مــن الــشعر والشعراء.

التمهيد

الدراسات السابقة

حين عكفت على دراسة الفترة التي نشب فيها الصراع بين الإسلام وخصومه في عصر النبي الكريم، وجدت أنها فترة غنية بالثروة الأدبية. وحين جئت أتعرف على الدراسات التي تناولت هذه الفترة، والجهود التي بذلت في سبيل ثروتها الأدبية، وجدت أنها قليلة. وهي - على قلتها – لم تستهدف دراسة الفترة لذاتها، وإنما تناولت جانباً منها، أو درست ظاهرة من ظواهرها، أو عالجت بعض أحداثها الهامة. واتخذت بعضها من الفترة جسراً تعبر عليه من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي، وأنصبَّ جهد بعضها الآخر على دراسة الشعراء البارزين فيها، وكأنْ لم يكن لهذه الفترة التاريخية الخطيرة من المكانة والاعتبار ما يستحق الوقوف عندها، والتفرغ لدراستها دراسة شاملة تتناول جميع جوانبها، وتتعرف اتجاهات شعرها وظروفه وخصائصه الأدبية.

وحين ذهبت أتلمس الأسباب التي صرفت الدارسين عنها، وجدتُ أن أولها هي تلك الفكرة الخاطئة التي شاعت في أوساط الباحثين، وهي فكرة تزعم أن الدعوة الإسلامية قد ناوأت الشعر، وأن القرآن الكريم قد حارب الشعراء، وهاجمهم في أكثر من موضع[1] ناظرين إلى آيات سورة الشعراء التي تقول: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ دون النظر إلى هذه الإستثناء الذي جاء بعدها في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وثاني هذه الأسباب أن الفترة تقع بين فترتين كبيرتين وغنيتين بالثروة الأدبية، هما: الفترة الجاهلية والفترة الأموية، فعدُّوها لذلك فترة انتقال قصيرة من عصرٍ إلى عصر. وما دامت الظواهر الأدبية لا تظهر ولا تتكامل في فترات الانتقال فقد صدّوا عنها وأهملوها. بل وذهبوا إلى أكثر من ذلك فَعَدُّوها هي والفترة التي عاشها الخلفاء الراشدون ضمن الفترة الأموية، فكان نتيجة لذلك أن طُمِسَت معالمها الأدبية، وأصبحت لا تثير الاهتمام والانتباه.

---

[1] . الكفراوي. الشعر العربي بين التطور والجمود، ٣٩.

وثالث هذه الأسباب، هي عبارات الشك في بعض شعر الفترة التي أثبتها بعض القدماء في كتبهم وبخاصة ما ورد منها على بعض صفحات السيرة، التي اتخذ منها بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم من أمثال مرجليوث، وبلاشير[1] سبيلاً إلى التشكيك في جميع ما روى ابن إسحاق من شعر السيرة، وقرروا أنها وضعت من أجل الكتاب. وهذه الأسباب وغيرها جعلت الباحثين ينصرفون عن الفترة ويتهيبون من دراستها.

ومع وجود هذه الأسباب فقد قامت هناك دراسات حول شعر الفترة، لعلَّ أولها تلك الدراسة التي قام بها نالينو في كتابه ((**تاريخ الآداب العربية**)) فقد قام بتصنيف الشعراء – تبعاً لمواقفهم من الإسلام – إلى ثلاثة أصناف:

أولها: الشعراء الذين قالوا الشعر في مدح النبي سواء أسلموا أم لم يسلموا، مبيناً أن أكثرهم وأشهرهم من أهل المدر الذين كانوا يفدون في الجاهلية على الملوك، ككعب بن زهير والأعشى وحسان بن ثابت.

وثانيها: الشعراء الذين قالوا الشعر في رثاء قتلى الكفار وهجاء النبي، وأغلبهم من أهل مكة وأشهرهم: عبد الله بن الزبعري، وضرار بن الخطاب الفهري، والحارث بن هشام بن المغيرة، وأبو سفيان بن حرب.

والثالث: الشعراء الذين أسلموا ولم يهتموا في أبياتهم بأمور النبي والدين، وهم اكثر شعراء أهل البادية كمتمم بن نويرة اليربوعي وأبي محجن الثقفي، وجرول بن أوس الحطيئة، والشماخ بن ضرار الذبياني، وأخويه مزرّد وجزء، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي والهذليين: أبي خراش خويلد بن مرة وأبي ذويب خويلد بن خالد.

وقد أغفلت هذه الدراسة حشداً كبيراً من الشعراء الذين شاركوا في الصراع فلم تحفل بذكرهم، ومن هؤلاء: كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة الأنصاريان اللذان شاركا مشاركة فعالة في الصراع مع المشركين، وأغفلت كذلك شعراء المهاجرين في مدينة الرسول كأبي أحمد بن جحش وأخيه عبد الله، وعبد الله بن الحارث السهمي، وغيرهم، وتجاوزت شعراء آخرين – غير هؤلاء وهؤلاء – شارك شعرهم في الصراع، منهم المكّيون كأبي سفيان بن الحارث، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وعمرو بن العاص وغيرهم، ومنهم من كان بالطائف كأمية بن أبي الصلت ومالك بن

[1] . ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي، ٣٥٢. تاريخ الأدب العربي ، ١٨٣ – ١٨٤.

عوف النصري، ومنهم شعراء اليهود مثل: كعب بن الأشرف وسماك وغيرهما، أما النساء الشواعر فلم نجد لهن ذكراً في هذه الدراسة.

ومع ما في دراسة نالينو من نقصٍ وتقصير إلا أنها كانت دراسة رائدة فتحت عيــون البــاحثين على أهمية الفترة، فاستتبعتها دراسات أخرى تناولت كل منها جانباً معيناً منها.

من تلك الدراسات ما قام به الدكتور احمد الــشايب في كتابيــه ((**تــاريخ الشعر السياسي**)) و ((**تاريخ النقائض في الشعر العربي**)) ففي الباب الثاني من الكتاب الأول تناول دراسة الشعر في صدر الإسلام، فكشف عن ملاحظات قيّمة منها: اتجاه الشعر في هذه الفترة إلى القرى كالمدينة ومكــة والطائف، واستيقاظ الشاعرية القرشية، وانقسام شعراء القبائل إلى فئتين: إحداها مع الرســول - صلى الله عليه وسلم - والأخرى عليه، ومشاركة النساء في مجال الصراع. كما عــرض لموقــف اليهود من الإسلام، وأورد في أثناء حديثه شواهد شعرية لبعض شعراء الصراع وشواعره، ولاحظ كذلك كثرة الشعر المنحول الذي حمل على شعراء هذه النهضة الدينية من مدرستي: مكة والمدينة، وأشار إلى طمس الشعر الذي هُجِيَ به الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون.

وعندما تناول الناحية الفنية، لاحظ اختلاف تأثير الإسلام في أساليب الشعراء المخضرمين الذين ظهر عليهم وهم يقولون الشعر كالحطيئة ولبيد والخنساء وكعب بن زهير وحسان بن ثابت، ثم قام بتقسيم فنون شعر الفترة إلى قسمين: ضعيفٍ غثّ ٍ وقويّ ٍ وأورد بعض النماذج الشعرية ثم قــام بتحليلها.

وصفوة القول، فإن الأستاذ الشايب قد نهج في تفسير شعر الفترة نهجين متقابلين: اتجــه الأول منها إلى هدف هذا الشعر وغايته الذي أُنشيء في سبيله، أياً كان هذا الهدف، حزباً سياسياً أو قبيلاً عربياً أو شعباً أجنبياً أو مذهباً حكومياً.

واتَّجَهَ الثاني إلى فنونه المعروفة كالفخر والحماسة والوصف والهجاء والنسيب، ورأى أنها تتجه إلى شخص أو قبيلة أو حزب أو أمة، تصور ما لها وما عليها في رأي التــاريخ الحقيقــي أو رســم التصوير الخيالي.

أما كتابه ((**تـاريخ النقـائض في الشعر العربي**)) فاسمه يدل عليه، إذ هو دراسة تاريخية للنقائض من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، وقد خصص الباب الثاني من الكتاب لدراسة النقائض في صدر الإسلام، ثم قام بتقسيمه إلى ثلاثة فصول تناول في أولها: عصر النقائض الإسلامية الأولى، فرأى أن

هذه النقائض تتغير معانيها وموضوعاتها وأساليبها وغاياتها، ولكنه مع ذلك رأى أنها تشبه النقائض الجاهلية من وجوه أخرى، ثم عرض لموقف القرآن من المناقضة، وأوضح دوره في ذلك.

وأفرد الفصل الثاني لدراسة النقائض والغزوات، فاتَّبعَ في دراسته التسلسل التاريخي، حيث بدأ بغزوة بدر وانتهى بغزوة حنين، ثم تحدَّث في نهاية الفصل عن الوفود والمناقضة، وخصص الفصل الثالث للدراسة الفنية فاعتبر أن فترة البعثة امتدادٌ لعصر الجاهلية فنياً، ولاحظ أن أسلوب التناقض فيها ما بين جاهلي محافظ وآخر مضطرب، وثالث: مبعوثٌ بعدما كان خافتاً.

ودراسة الأستاذ الشايب – على خطورتها – دراسة مجملة، فرضتها عليه طبيعة بحثه، ثم لم تدرس الفترة لذاتها وإنما تناولتها من خلال عرضها التاريخي للشعر السياسي، وشعر النقائض فاكتفت بإبراز أحداثها الهامة والحديث عن شعرائها المشهورين.

وتناول الدكتور شوقي ضيف شعر الفترة في أكثر من كتاب، فذكر في الجزء الأول[1] من كتابه ((**الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية**)) الحرب اللسانية بين شعراء الأَنصار وشعراء مكة ولاحظ أن هذه الحرب قد توقفت بعد الفتح واختتم حديثه عن الفترة بأن الشعر قد ضعف بسبب إقلاع بعض الشعراء عن قوله وانصراف الناس عنه إلى الفتوح وتمصير الأمصار، إلا طائفة قليلة أخذت تقوله كما كانت تفعل في الجاهلية وعلى رأسهم الحطيئة.

وتطرق إلى شعر الفترة في الجزء الثاني[2] من الكتاب نفسه، فرأى أن الصراع بين الإسلام وخصومه قد اتخذ مظهرين: أولهما حربيٌّ في بدر وأحد والخندق وغيرها من الغزوات، والثاني أدبيٌّ في أهاجٍ كانت مكة والمدينة جميعاً تتقاذفان سهامها ونيرانها، ثم ذكر أهم الشعراء والشواعر الذين شاركوا في الصراع دون أن يذكر شيئاً من أشعارهم، فيما عدا بيتين لعبد الله بن الزبعري ومقطوعة لقتيلة بنت النضر، ثم قرَّرَ بعد ذلك كثرة الشعر وغزارته، واستمراره على ذلك في عصر صدر الإسلام.

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذا القول يناقض ما سبق أن قاله في الجزء الأول من الكتاب.

وفي التمهيد لكتابه ((**التطور والتجديد في الشعر الأموي**)) تحدث عن شعر الفترة حديثاً مجملاً قرَّر فيه بأن الشعر في عصر النبوة قد تأثر بالإسلام بقدر محدود، وأَرجع سبب ذلك إلى تمسك شعراء العصر بالمثالية الجاهلية في النظم والصياغة والتفكير مما أبقى على فنون الشعر على أسلوبها الجاهلي

---

[1] . انظر كتاب: الشعر الغنائي في المدينة.

[2] . انظر كتاب: الشعر الغنائي في مكة.

سواء في الهجاء أم في المديح ودلّلَ على صحة رأيه بمديح كُلٍّ من كعب بن زهير وحسان بن ثابت للنبي الكريم.

وخصص بعض الفصل الثالث من الكتاب الأول من كتابه ((**العصر الإسلامي**)) لدراسة شعر الفترة، فأشار إلى كثرة الشعر والشعراء وذكر بعض شعراء المعارضة الذين وقفوا في وجه الإسلام من قريش واليهود وبعض القبائل ثم عرض لبعض فنون هذا الشعر وبخاصة المديح والرثاء فأورد نماذج شعرية لبعض الشعراء في مديح الرسول الكريم ورثائه، وفي رثاء قتلى المسلمين والمشركين، وانتهى من دراسته هذه إلى القول بأن الشعر في عصر الرسول الكريم كان كثيراً، وأن بعض هذا الشعر منحول، وختم حديثه بقوله[1]: **((..** وحينما يُصَفَّى ويُقابَلُ عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم، نجدنا أمام ملحمة ضخمة تَعاوَن في صُنْعِها عشرات من الشعراء والشاعرات**))**.

ودراسة الدكتور شوقي لشعر الفترة دراسة موجزة وهي على إيجازها لم تقصد الفترة لذاتها، وإنما عرضت لها في صفحات قليلة من كل كتاب، تناولت فيها أهم شعرائها، كما تناولت بعض ظواهرها كظاهرة الانتحال، وظاهرة ازدهار الشعر أو ضعفه. أما الشعراء المغمورون، وأما خصائص هذا الشعر وبعض موضوعاته، ومدى تصويره للأحداث، فلا نجد لها ذكراً في هذه الدراسات.

ومن أشد هذه الدراسات صلة بالفترة، تلك الدراسة التي قام بها الدكتور يحيى الجبوري في كتابيه: ((**شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه**)) و ((**الإسلام والشعر**)) ففي الكتاب الاول نهج في دراسة شعر المخضرمين نهجين: أولهما: دراسة هذا الشعر من حيث موقفه من الإسلام، ومن حيث البيئة، والثاني دراسته زمنياً.

وحين عرض لبيئات شعر المخضرمين رأى أنها تنحصر في المدينة ومكة والطائف والبادية والقرى اليهودية، فوقف عند كثير من شعراء هذه البيئات، مبيناً أثر الإسلام في أشعارهم، وحين قام بدراسة هذا الشعر زمنياً، خصَّ الشعر زمن الرسول بالفصل الأول من الباب الرابع، فدرس هذا الشعر دراسة موضوعية مبيناً مدى تصويره للغزوات الكبرى كبدر وأحد والخندق والفتح وحنين، وللأحداث الهامة كالوفود ووفاة الرسول ويوم السقيفة.

---

[1]. العصر الإسلامي، ٥٣.

ولاحظ من خلال دراسته أن هناك ثلاث ظواهر تبدو على شعر الفترة هي: ضعفه وطمسه والشك فيه، ثم الْتَمسَ الأسباب التي أدت إلى ذلك.

وعلى أهمية هذه الدراسة، فإن منهجها في البحث قد ألزمها بتعقب شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، فصرفها هذا المنهج عن دراسة شعر الصراع بين الإسلام وخصومه دراسة مستانية مقصودة لذاتها، فأغفلت لذلك، ذكر بعض الشعراء المشهورين كأبي طالب ابن عبد المطلب، وكثيراً من الشعراء المغمورين، كما أغفلت مبلغ تصوير هذا الشعر لكثير من الأيام والغزوات، كيوم الرجيع ويوم بئر معونة وغزوة بني النضير، وبدر الآخرة ومؤتة وغيرها. ومدى تصويره لبعض الأحداث الهامة كالبيعة والهجرة. وصرفها منهجها أيضاً عن معالجة خصائص شعر الصراع معالجة عميقة فعرضت لهذه الخصائص عرضاً موجزاً، وتخفَّفَتْ من الحديث عمّا جَدَّ من موضوعاته الشعرية، وصمتت عن ذكر أشكاله وأوزانه وصوره.

أما في كتابه الثاني ((**الإسلام والشعر**)) فقد عرض لموقف الإسلام من الشعر فلاحظ أنَّ هذا الموقف قد سار في مرحلتين زمنيتين، أولاهما: قبل الفتح حيث دفع الإسلام الشعر في سبيل أهدافه وأَشركه في الصراع الحربي بين مكة والمدينة، فشجعه ووجهه وسدَّدَ خُطاه.

وثانيهما: بعد الفتح حيث نهى فيه نزعته الهجائية أو العودة إلى ذكر الشعر الذي من شأنه أن يبعثَ الضغائن، ويثير الأحقاد كالذي قيل بالأمس القريب بين شعراء مكة وشعراء المدينة.

وقد رأى أن الشعر في عصر النبوة كان مزدهراً واستدل على ذلك بقيام فنّ المناقضات الحربية، وفنِّ الرثاء الذي تثيره الحرب، ثم فنَّ الحماسة الذي ينظمه كل من المنتصرين والمنهزمين. ومن الناحية الفنية زعم أن الشعر في هذه الفترة إنما هو جاهلي لبس لباس الإسلام؛ لأن شعراء الصراع لم يهجروا ما درجوا عليه من نهج وأسلوب قديمين.

وحين كتب الدكتور محمد محمد حسين عن الهجاء الديني في كتابه ((**الهجاء والهجاؤون في الجاهلية**)) لم يقصر اهتمامه على فن الهجاء الذي تمّثلَ في شعر الحطيئة وحسان بن ثابت فحسب، وإنما عني بدراسة الشعر ومدى تأثره بالإسلام، فرأى أن الإسلام لم يتمكن من الإجهاز على العصبية القبلية المتأصلة في نفوس العرب أو حتى دحرها فقد استمرت عند الأعراب خاصة، ودلَّلَ على مذهبه هذا بسلوك الوفود مع الرسول وبعصبية حسان اليمنية وشطحاته في الإسلام، وبحركة الردَّة.

وعندما عالج الناحية الفنية لاحظ – أول ما لاحظ – أن شعراء المسلمين ومنهم حسان لم يستطيعوا أن يصوغوا المعاني الإسلامية في أشعارهم إلا بطريقة متكلفة قوامها نقل الآيات ونظمها نظماً فاسداً، ثم وازن بين أسلوب الهجاء في القرآن الكريم، وأسلوب الهجاء عند الشعراء، فوجد أن الأول يقوم على قِيَمٍ أخلاقية واجتماعية جديدة ويلتزم الحجج المنطقية والاستشهاد بالتاريخ في تصوير ضلال المنافقين والمعوقين بينما بقي الثاني يصطنع الأسلوب القديم في نهش الأعراض وقَذْفِ الناس بأحسابهم وأنسابهم.

وهناك دراسات سريعة موجزة تناولت جوانب معينة من الفترة، أو عالجت موضوعات وثيقة الصلة بها، من تلك الدراسات مقالات الأستاذ محمد أحمد خلف الله التي جمعها في كتابه ((**دراسات في الأدب الإسلامي**))، وقد تحدث في أحد فصوله عن أدب الجهاد في سبيل الله فعرض فيه لآيات الجهاد التي نزلت في سرية عبد الله بن جحش وفي غزوتي بدر وأحد ثم قام بتحليلها مبيناً ما فيها من روعة الفنّ وجمال التعبير وقوة الأداء.

وخصص فصلاً آخر تحدث فيه عن حسان بن ثابت في جاهليته وإسلامه فكشف عن جهوده في سبيل الدين الإسلامي والعمل على نشره.

وعرضَ طه إبراهيم لشعر الفترة في كتابه ((**تاريخ النقد الأدبي عند العرب**)) فقرر أن الشعر في صدر الإسلام كان ضعيفاً. وحدَّدَ طه الحاجري في كتابه ((**في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية**))وَضْع الشعر في عصر صدر الإسلام وعيَّن وجهته وخصائصه وظروفه، فلاحظ أن الأحداث الإسلامية قد أثرت عليه، ورأى أن النظام الجديد قد أضعفه، وأرجع سبب ذلك إلى سيطرة روح الجهاد على الحياة الإسلامية التي استغرقت جميع الهمم، واستحوذت على جميع القوى.

وعالج الدكتور نجيب البهبيتي في كتابه ((**تاريخ الشعر العربي**)) وَضْعَ الشعر في عصر صدر الإسلام بسرعة وإيجاز شديدين، فلاحظ ما اعتراه من ضعف وهزال، وأشار إلى أثر القرآن في ذلك.

وتناول الدكتور ناصر الدين الأسد قضية الشكّ في صحة الشعر الإسلامي في كتابه ((**مصادر الشعر الجاهلي**)) فعرض – أول ما عرض – لشكوك القدماء كابن سلام وابن هشام وابن النديم في الشعر الذي ورد في السيرة، وسجَّل مآخذهم على ابن إسحاق ثم بحث قضية الوضع والاختلاق في الشعر الجاهلي والإسلامي عند القدماء والمحدثين وأورد الردود التي قامت حولها.

ولدى دراسة الدكتور سيد حنفي لحسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم تنـاول جانباً من الحياة الإسلامية في عصر النبوة، فأشار إلى صلة المدينة بالإسلام، وإلى صلة حسان بالدين الجديد، ثم عرض لشعر حسان الإسلامي، ورصد دوره في الصراع بين المدينة ومكة.

وقبل أن نختتم الحديث عن الدراسات السابقة للفترة يجدر بنا أن نشير إلى كتاب ((**ديوان كعب بن مالك الأنصاري**)) للدكتور سامي العاني، فبالرغم من أن هذه الدراسة معنية بدراسة كعب إلا أنها تناولت البيئة المدنية في ظل الإسلام. وحين عرضت لشعر كعب كشفت عن اختلاط شعره بشعر غيره، وبخاصة حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة لأنهما اشتركا معه في أغلب مناسبات شعره ثم وقفت عند الحملات والانتقادات التي تعرض لها الشعر الذي ورد في سيرة ابن إسحاق، فحاولت أن تدفع التهمة عن شعر كعب الذي ورد فيها.

أما بعد، فهذه أهم الدراسات التي قامت ولها صلة بشعر الصراع في عصر النبوة سـواء مـن قريب أم من بعيد. وقد بذلتُ جهدي في أن أوردها موجزة إيجازاً مفهماً، على أن ألاّ يجور علـى نصيب هذه الدراسات من البحث والدراسة.

أما دراستنا هذه فتضطلع بدراسة شعر الصراع في عصر النبوة، وقد رأت أن ظـواهر هـذا الشعر جميعها من ضعفٍ وقوةٍ، أو انتحال واختلاط، وأن اتجاهاته ومذاهبه وخصائصه كل ذلـك مرتبط بالأحداث الهامة في هذا العصر، فقد شهد العصر ظهور الدين الإسلامي، وشهد قيام الدولة الإسلامية في المدينة وشهد كذلك الصراع الدامي بين الإسلام والكفر. وحملت سنوات الـصراع كثيراً من الأحداث التاريخية الكبرى، وانتصر فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - على خصومه ومناوئيه جميعاً، فلابد إذن من أن ننظر إلى شعر العصر من ناحية ارتباطه بالمبدأ الإسلامي الجديـد سواء أكان ذلك في خدمته والدعوة له ومهاجمة مناوئيه، أم في معارضته ومعاداتـه والوقـوف في سبيله، فالشعر كله إنما قيل بسبب هذا الدين السماوي الجديد.

أما الأحداث السياسية التي شهدها الجزيرة العربية في عصر النبوة، فإن الشعر قـد واكبـها، ورصد أخبارها، فقد كانت الغزوات والسرايا هي البيئة الصالحة التي نما فيهـا، ووُلـدت فيهـا موضوعاته وفنونه، كما كانت الغذاء الدسم الذي أَمَدَّه بالحيوية والقوة، فالأحداث التاريخية — ولا شك — أثَّرت في الشعر والشعراء قوة وضعفاً وازدهاراً وخمولاً وشكّاً وضياعاً واختلاطاً، ومن هنا فلا يمكن أن ندرس هذا الشعر بمنأى عن الأحداث.

أما بيئات هذا الصراع فهي المدينة ومكة والطائف والقرى اليهودية وسائر الجزيرة العربية، وأما أطرافه، فالمسلمون – مهاجرين وأنصاراً – في المدينة من جهة، وقريش واليهود وسائر العرب من جهة أخرى. وعلى هذا فإن شعر الصراع قد سار في اتجاهات عدة، ومثَّل بيئات مختلفة. وعلى هذا، فلابد من ملاحقته واستقصائه لرصد اتجاهاته وميوله وأهدافه وغاياته، والوقوف على خصائصه وقيمه وطوابعه، والنظر في مدى قدرته على نقل الواقع الذي وُجد فيه، ومدى نجاحه في أداء دوره والاضطلاع بمهمته، وتصوير الأحداث التي واكبها.

فدراسة شعر الصراع إذن مرتبطة بالدين الإسلامي ،كما هي مرتبطة بالأحداث التاريخية التي نتجت عن هذا الدين فغيَّرَت، وجه الحياة العربية وطرق التفكير فيها.

ولكن هذا الشعر كان – ولا يزال – يعيش حياة الشك والاختلاط والضعف والضياع. وعلى هذا، فإن منهجنا في تناوله يقوم على النظر لملاحظات العلماء السابقين الأثبات، وأخذ تنبيهاتهم بعين الاعتبار، ومناقشة هذه الملاحظات والتنبيهات قبل إثبات النتائج، فلا يمكن أن نطمئن بحال إلى شعر نبَّه على زيفه الأقدمون الثقات، وحام الشك من حوله.

أما الرواة المتهمون فنقبل رواياتهم بعد تعقبها وتمحيصها والتحقق من إسنادها – إن وجد – أو موافقتها لرواية راوية ثقة. ونقوم بعرض الشعر على الأحداث الإسلامية، والأحداث التاريخية ،فإن وافقها قبلناه وبنينا عليه النتائج والأحكام وإلا رفضناه، كما نعمد إلى موازنة هذا الشعر بما صحَّ من شعر كل شاعر، وبما يتوفر بين أيدينا من دواوين، فإن لم يوافقه، أعرضنا عنه وتركناه. وسوف نحاول عرض الشعر الذي اختلطت نسبته على المصادر التي عُنيت برواية شعر الصراع ،ثم نقوم بالتحقق من قائل النص الحقيقي، وأصالة هذا النص لفترة الصراع ،فما صحَّت لنا نسبته أو ثبتت لدينا أصالته قبلناه.

ونعلن بعد هذا كله ،أن ما نتوصل إليه من نتائج وأحكام ليست يقينية أو قاطعة، لأن اليقين والقطع لا يتوفران في مثل هذه الدراسات، وفي مثل هذه الفترة الدقيقة من التاريخ التي نتناولها بالبحث والدراسة، وبخاصة بعد أن رأينا أن الشك والضياع ظاهرتان ملازمتان للشعر في هذه الفترة، وإنما تبقى أحكامنا – في نظرنا – صحيحة حتى يطرأ من الأبحاث العلمية ما يثبت تقصيرها أو زيفها.

وقبل أن نتناول هذا الشعر بالدراسة نقف عند الإسلام لنستطلع رأيه في الشعر والشعراء ثم نمضي بعد ذلك على طريق البحث لنستكمل ملامح الصورة الأدبية لهذه الفترة.

مصادر شعر الصراع

شهدت فترة الصراع في عصر النبوة نهضة أدبية قوية، اضطلعَ بها كثير من الشعراء والشواعر الذين عاشوا الفترة، وشهدوا أحداثها، وشاركوا فيها مشاركة فعالة ومباشرة.

وعلى الرغم مما تعرض له شعر هذه الفترة من الضياع والتفريط، فإن المصادر الإسلامية القديمة قد احتفظت بكمية وافرة منه. وحين قمنا باستقراء هذه المصادر، والبحث عما ورد فيها من شعر الصراع، وجدنا أن ما فيها من هذا الشعر يختلف قلة وكثرة تبعاً لموضوعاتها ومناهج أبحاثها، وأول هذه المصادر:

أولاً: المصادر الدينية

ونعني بها كتب التفسير والحديث وغيرها من الكتب الوثيقة الصلة بالأبحاث الشرعية، وقد وجدنا أن كتب التفسير من أكثرها احتفالاً بإيراد الشعر، إذ يستعين به المفسر لتسهيل مهمته في تبسيط معنى الآيات، وشرح ما غمض من الألفاظ. ويستشهد به على مناسبة معينة كنزول بعض الآيات، أو في أثناء الحديث عن الجهاد، وما إلى ذلك. ويورد المفسر في العادة بيتاً أو بيتين للشاعر، وقد يورد له في بعض الأحيان عدة أبيات، إذا كان ذلك يخدم غرضه، أو يرضي ذوقه.

ومن كتب التفسير التي أفدنا منها: **الجامع لأحكام القرآن** لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، فقد أورد لنا شعراً لزهاء أربعة وثلاثين شاعراً وشاعرة من شعراء الصراع، وذلك للتدليل على صحة مذهبه في التفسير، أو بمناسبة ذكره لنزول بعض الآيات.

والشعر الذي أورده القرطبي لم يكن ليتجاوز البيت الواحد أو البيتين للشاعر إلا في القليل النادر، فقد رأيناه في بعض الأحيان يثبت النص كاملاً[١] وكان حسان أوفر شعراء الصراع حظاً عنده، فقد أورد له ما يقرب من سبعين بيتاً.

وتبرز قيمة كتابه في أنه حفظ لنا نصوصاً من شعر الصراع لم نجدها في كثير من مصادر هذا الشعر الرئيسية ككتب السير والتاريخ[٢].

أما كتب الحديث فهي أقل حظاً من سابقتها، إذ لم نجد فيها إلا شعراً قليلاً، لأن عناية الجامع كانت منصبة على جمع الأحاديث فحسب، فهو لا يورد الشعر إلا إذا كان جزءاً من حديث. ومن هذه الكتب،

---

[1] . الجامع لأحكام القرآن/ ١٢/ ٢٠٠ ، ١٨/٧ ، ٤٦/٣ ، ٢٧٨/٤ ، ٥٩/٨ ، ٦٥، ٦٦ ،١٧٩/٨.

[2] . الجامع لاحكام القرآن/ ١٧١/١٧، ١٦٢/١ ، ٢٤٥/١٠، ١٤٦/١٣، ١٤٧.

كتاب المسند للإمام أحمد بن محمد بن حنبل (ت: ٢٣١هـ)، و**كتاب الجامع الصحيح** للإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت:٢٥٦ هـ)، و**كتاب الصحيح** لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري (ت: ٢٦١ هـ).

وقد حملت لنا هذه الكتب شعراً لبعض شعراء الصراع، المكثر منهم والمقل، والمشهور منهم والمغمور. وكان صحيح البخاري أكثرها رواية لهذا الشعر، فهو قد روى ستة عشر نصاً لثلاثة عشر شاعراً. وتكتفي هذه الكتب – في الغالب – برواية بيت أو أبيات قليلة، وقد يطالعنا جامع الحديث برواية النص كاملاً [١] أو بإيراد أبيات كثيرة منه[٢] أحياناً. ومما تجدر الإشارة إليه أن كتب الحديث هذه قد عنيت برواية شعر المسلمين، فقلَّ أن تجد فيها نصاً لشاعر من شعراء أطراف الصراع الأخرى[٣].

ومن المصادر الدينية التي أفدنا منها أيضاً كتاب ((**الأحكام السلطانية**)) لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، وكتاب ((**أسباب النزول**)) لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت:٤٦٨هـ)، فقد أثبت النيسابوري عشرة نصوص من شعر الصراع في أثناء حديثه عن مناسبات نزول بعض الآيات الشريفة، أكثرها لحسان ابن ثابت، بينما أورد الماوردي تسعة عشر نصاً لجميع أطراف الصراع، منها نصوص لم ترد في السيرة، وفي كثير غيرها من مصادر شعر الصراع[٤]

وتبرز قيمة الكتب الدينية في أن أكثرها يورد الشعر مشفوعاً بالسند، كما أن مؤلفيها يتحرون الصدق والأمانة والتحوط في جمع مادتهم. ومن هنا فنحن نطمئن إلى ما ورد فيها من شعر الصراع أكثر من اطمئناننا إلى ما ورد منه في الكتب الأخرى. ولكن قلة ما حملته لنا من شعر الصراع، لم تغننا عن البحث في مصادر أخرى غيرها.

---

1 . مسند أحمد ١٢١/١١.

2 . صحيح مسلم ١٦٥/٧. صحيح البخاري ٨٣/٥ ، ١١٣.

3 . صحيح مسلم ١٩٥/٥.

4 . الأحكام السلطانية/ ٣٩، ١٣٥.

المصادر اللغوية

ونقصد بها كتب النحو والمعاجم اللغوية. ولدى استقرائنا بعض هذه المصادر، تبين لنا أن كمية الشعر التي وردت فيها أقل مما ورد في غيرها. ويبدو ذلك واضحاً في كتب النحو، فالنحوي حين يورد شعراً، لا يعنيه قائله، ولا يجهد نفسه بالتحري عنه، والتحقق من نسبته. وكل ما يعنيه أن يكون هذا الشعر مما يجوز الاستشهاد به، ومن هنا، نراه أحياناً يورد بيت الشعر دون أن يذكر قائله، وقد يضطلع تلاميذه أو شُرَّاح كتابه بهذه المهمة، فيوضحون البيت الشاهد وينسبونه إلى قائله.

ومن هذه الكتب ((**الكتاب**)) لعمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه **(ت:١٧٩هـ)** و ((**خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**)) لعبد القادر بن عمر البغدادي **(ت:١٠٩٣هـ)**. وقد أورد سيبويه أبياتاً كثيرة من شعر الصراع، ولكن الأبيات التي أوردها كانت مفردة، لأن عنايته منصرفة إلى إثبات البيت الشاهد على المسألة النحوية التي يبحثها. أما البغدادي، فقد كان عالماً بالأدب والتاريخ والأخبار، مولعاً بالأسفار، فاجتمعت له من ذلك مكتبة عامرة. قال في مقدمة كتابه[1]: **((**وكنت ممن مرن في علم الأدب حتى صار يلبيه من كثب، وأفرغ في تحصيله جهده، وبذل فيه وكده وكدَّهُ، وجمع دواوينه، وعرف قوانينه، واجتمع عنده بفضل الله من الأسفار ما لم يجتمع عند أحد في هذه الأعصار، فشمرت عن ساعد الجِدِ والإجتهاد، وشرعت في شرحها على وفق المنى والمراد**))** وعلى هذا فلم يقصر عنايته على النحو فحسب، وإنما مال إلى الاستطراد فأغنى كتابه ببعض ما فقد من الروايات والمصنفات، وضمنه كثيراً من شعر الفترة وأخبارها، وأورد فيه تراجم دقيقة لأكثر من ثلاثين شاعراً من شعراء الصراع، وأبدى ملاحظات قيّمة على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والتوثيق. ومن هنا تبرز قيمة كتاب الخزانة عندنا على الرغم من أنه جاء متأخراً، وأَنّ كثيراً مما ورد فيه من شعر الفترة يفتقر إلى السند.

أما المعاجم اللغوية، فتعتمد رواية الشعر لشرح بعض الألفاظ، وإزالة ما فيها من غموض. ومن هذه الكتب ((**جمهرة اللغة**)) و ((**الاشتقاق**)) لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي **(ت:٣٢١هـ)** و **((**لسان العرب**))** لجمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري **(ت:٧١١هـ)**. وقد أورد ابن دريد في كتابيه شعراً كثيراً لشعراء الفترة، أكثره لحسان ابن ثابت، إلا أن ما ورد في كتابيه أقل مما ورد في

---

[1]. الخزانة ٢/١/١.

اللسان. ولكن اللسان يحتاج إلى قراءة مستأنية لاستخراج جميع الأبيات التي تتصل بالفترة، ويسهل الأمر لو أشتمل هذا المعجم الضخم على فهارس لأبيات الشعر التي يضمها.

وتبرز قيمة المعاجم في الأبيات المفردة التي تنتشر على صفحاتها، ومن هذه الأبيات ما يبدو أنه مبتسر من قصائد أو مقطوعات ضلت طريقها إلينا[١].

وربما يشير المعجم إلى المناسبة التي قيل فيها البيت[٢]، أو المقطوعة[٣]، أو يوضح جانباً من جوانبها الغامضة.

والمصادر اللغوية بوجه عام لم تكن تعنى بغير البيت الواحد إلا في القليل النادر. ومن هنا لا نعتبرها مصدراً أساسياً من مصادر شعر الصراع، كما أن ما فيها من شعر يفتقر إلى التوثيق – ويتم ذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية الموثقة – ولكنه بالرغم من ذلك قد يكشف لنا جوانب غامضة عند عرضه على الشعر الذي ورد في المصادر الأخرى.

المصادر الأدبية

وهذه المصادر كثيرة ومتنوعة، منها:

الكتب العامة: كـ ((**البيان والتبيين**)) لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت:٢٥٥هـ) و ((**الكامل**)) لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت:٢٨٦هـ) و((**العقد الفريد**)) لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت:٣٢٨هـ) و((**نهاية الأرب في فنون الأدب**)) لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت:٧٣٣هـ) و((**صبح الأعشى**)) لأحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله القلقشندي (ت:٨٢١هـ). وقد حملت لنا هذه الكتب كثيراً من شعر الصراع، فأورد الجاحظ ما يزيد على عشرين نصاً، وأورد المبرد أكثر من خمسة وعشرين نصاً. ولكن النويري كان أكثر هؤلاء جميعاً رواية لشعر الصراع، فهو قد أثبت في كتابه أكثر من مائة نص، منها حوالي ثلاثين نصاً لشعراء القبائل التي وفدت على الرسول الكريم في العام التاسع للهجرة.

---

[1] . جمهرة اللغة/٢/١٢٠ ، ١/١٤٧/١٨٨.

[2] . نفسه/٢/٣٠٣ ، ١/٦٤ – ٣١٤.

[3] . اللسان/ مادة "كفأ".

وقد نهج مؤلفو هذه الكتب إلى التنويع والنقل، ومالوا إلى الاستطراد، ولم يغفل بعضهم نقد الشعر الذي يورده[1] أو يبين رأيه في صحته ،ولكن أكثرهم لا يكلف نفسه عناء البحث والتمحيص والتثبت من صحة ما يروي. ومرد ذلك أن الشعر عندهم لم يكن غاية تقصد، وإنما هو وسيلة تلتمس لغيرها من الغايات، فهو يساق حيناً للاستدلال والاحتجاج، ويساق حيناً آخر للاستشهاد والتمثل، وتقوية الخبر وتزيينه[2]. وعلى هذا فسبيلنا إلى دراسة ما ورد فيها من شعر الصراع، أن نقوم بجمعه ثم نرجعه إلى أصوله في الدواوين الموثقة الموجودة بين أيدينا، أو نعرضه على محك النقد والتمحيص، ونعرضه على ما صح لنا من شعر الشاعر، فإن وجدناه مشابهاً له، وحاملاً لروح الفترة قبلناه، وإلا رفضناه.

كتب التراجم

منها: كتاب ((**طبقات الشعراء**)) لمحمد بن سلام الجُمحي **(ت:٢٣١هـ)** وكتاب ((**الشعر والشعراء**)) لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري **(ت:٢٧٦هـ)**، وكتاب ((**الأغاني**)) لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني **(ت:٣٥٦هـ)**، وكتاب ((**معجم الشعراء**)) لأبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني **(ت:٣٨٤هـ)**. وتعنى هذه الكتب –أكثر ما تعنى– بالترجمة للشعراء، ودراسة حياتهم وبيئاتهم وأشعارهم. فمحمد بن سلام – مثلاً – قام بتقسيم الشعراء الجاهليين والإسلاميين إلى طبقات، وأشار إلى شعر القرى كالمدينة ومكة والطائف، فترجم لبعض شعراء هذه القرى الذين شاركوا في الصراع كشعراء، المشركين في مكة، وشعراء المسلمين في المدينة، كما ترجم لبعض شعراء اليهود ككعب بن الأشرف، والربيع بن أبي الحقيق، وبعض شعراء القبائل كأمية بن أبي الصلت، وكعب بن زهير، ولبيد بن ربيعة والنابغة الجعدي، وحرص أن يورد لكل شاعر ترجم له من هؤلاء عدة أبيات. وتبرز قيمة الكتاب في تنبه مؤلفه للشعر المنحول، وحرصه على التنبيه عليه[3] ومحاولته تمييز غثه من سمينه[4]

---

[1] . رسائل الجاحظ/١/٣٦٤ ، البيان والتبيين/١/٢٩١.

[2] . ناصر الدين الأسد/ مصادر الشعر الجاهلي/ ٦١٣.

[3] . طبقات الشعراء /٨٤ ، ٩٥.

[4] . نفسه /٩٦.

ورد الكثير منه[1]. ويعتبر الكتاب مستنداً نافعاً لما حمل لنا من ملاحظات قيمة، وبسبب ضياع المصادر السابقة عليه ولأهميته، اعتمد عليه بعض العلماء كأبي الفرج الأصبهاني وغيره.

وترجم ابن قتيبة في كتابه ((**الشعروالشعراء**)) لستة عشر شاعراً من شعراء الصراع كلهم من شعراء القبائل، ما عدا حسان بن ثابت الأنصاري. والكتاب فقير في تراجمه، فهو قد أغفل ذكر شعراء مكة، وشعراء اليهود، وبعض شعراء المدينة كعبدالله بن رواحة ،وكعب بن مالك، كما أن رواياته غير مسندة، ومن هنا كانت إفادتنا منه قليلة.

ويعد كتاب الأغاني من أكثر هذه الكتب أهمية وشهرة، فقد احتفظ لنا بشعر كثير فقدنا السبيل إليه، وبأخبار نقلها عن مصادر لم تصل إلينا. والكتاب يتناول الأغاني العربية، كما يتناول الآثار والأَخبار والسير والأشعار المتصلة بأيام العرب وغيرها، وقصص الشعراء في الجاهلية والإسلام.

وقد ساق أبو الفرج من الكتب التي سبقته أطرف ما فيها من أشعار، وساقها بأسانيدها التي ترجع بها إلى مصادرها ورواتها الأوائل كابن الكلبي، وخالد بن كلثوم، وأبي عمرو الشيباني، والأَصمعي، وأبي عبيدة، ومن خلفوهم من جلة العلماء والرواة والمصنفين. وربما يصل أحياناً إلى الرواة الأعراب من أبناء القبيلة، ولكنه مع ذلك لا يورد للشاعر قصيدة كاملة، بسبب ميله إلى الإيجاز، وحرصه على تقديم الأحسن[2].

وأبو الفرج راوية ثقة، وله ذوق عالم ناقد بصير. ومن هنا، كان حريصاً على فحص مادته وتمحيصها، محتاطاً إزاء رواته أشد الحيطة، فمن عرف بكذبه نبّه عليه وردَّ روايته. وكان إذا شك في أبيات للشاعر يقوم بعرضها على ديوانه، مبالغة منه في الدقة والتحري. وحرص على إثبات ما تعدد من روايات للخبر الواحد.

وقد ترجم في الأغاني لنيف وثلاثين شاعراً وشاعرة من شعراء الصراع، أثبت لبعضهم أكثر من نص واحد، وانفرد أحياناً برواية شعر لهم لم نجده عند كثيرين ممن سبقوه[3] كما أرخ لبعض الغزوات – كغزوتي: بدر وأحد – واورد بعض الأشعار التي قيلت فيهما.

---

[1]. نفسه/ ٩٨.

[2]. بلاشير/ تاريخ الأدب العربي/١٤٥.

[3]. الأغاني /١/ ١٠ – ٤/ ٣٤ ، ٣٥ – ٢١/١٤.

أما كتاب ((**معجم الشعراء**)) فهو من المختصرات التي عنيت بالترجمة للشعراء الجاهليين والإسلاميين مرتبة حسب حروف المعجم. وقد حمل لنا ترجمة مختصرة لستة وثلاثين شاعراً من شعراء الصراع ،أورد لكثيرين منهم أبياتاً قليلة، واكتفى بذكر بعضهم دون أن يثبت لهم شعراً[١]. وتبرز قيمة الكتاب في أنه أمدّنا بشعر لم نجده في السيرة[٢].

كتب النقد

وكتب النقد التي أفدنا منها: كتاب ((**نقد الشعر**)) لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي **(ت:٣٣٧هـ)**، وكتاب ((**الصناعتين**)) لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري **(ت:٣٩٥هـ)**، وكتاب ((**العمدة**)) لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني **(ت:٤٦٣هـ)**. فقد عرض كل منها لذكر شعر الفترة، ولكن ذلك لم يكن يتعدى البيت الواحد أو البيتين يوردها المؤلف في مجال النقد والموازنة. وقلَّ أن نجد أحد هذه الكتب يعمد إلى إثبات النص كاملاً[٣].

والعمدة أكثر هذه الكتب احتفالاً بفترة الصراع، فقد صدَّره مؤلفه بالحديث عن موقف الإسلام من الشعر والشعراء، ونثر فيه بضعة عشر نصاً لبعض شعراء فترة الصراع، ومعظمها مبتسرة من قصائد أو مقطوعات.

وكنا نظن أن المصادر الأدبية ستكفينا مؤونة البحث والاستقصاء، باعتبارها معنية – كما يدل اسمها – برصد الشعر، ودراسة الشعراء، ولكن تبين لنا – بعد البحث والتحري – أن عنايتها منصبة على شعر البارزين من الشعراء، وقد دفعتنا قلة ما فيها من شعر الصراع، وتكرار هذا الشعر في أكثرها إلى البحث عن مصادر أخرى تكون أكثر عناءً.

---

1. معجم الشعراء/٢٣٩ ، ٢٥٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥.
2. نفسه /١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٥٤ ، ٣٤٤ ، ٤٣٩ .
3. العمدة/١/١٣ – ٣١.

وحين وقفنا على هذه المصنفات، وجدنا أنها أكثر المصادر الْتِصَاقاً بموضوع بحثنا، فهي من أوفر المصادر أخباراً، وأغزرها شعراً. ولكنها في الوقت ذاته أكثر المصادر احتواءً على الشعر الموضوع، فقد كان بعض المؤرخين في حاجة إلى الشعر للاستشهاد به على ما يوردون من قصص، ولتزيين ما ينقلون من أخبار. ومن هذه المصادر: كتاب ((**المغازي**)) لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي **(ت:٢٠٧هـ)** و**((أنساب الأشراف))** لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري **(ت: ٢٧١هـ)**، و((**تاريخ الرسل والملوك**))لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري **(ت:٣١٦هـ)** و((**الكامل في التاريخ**)) لأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير **(ت: ٦٣٠هـ)**، و((**إمتاع الأسماع لما للرسول من الأنباء والأموال والحضرة والمتاع**))لتقي الدين أحمد ابن علي المقريزي **(ت: ٧٣٢هـ)**، و((**البداية والنهاية**)) لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي **(ت: ٧٧٤هـ)**. وغيرها.

وقد انصبت عناية الواقدي على الأخبار التاريخية، ولكنه مع ذلك أثبت خمسة وعشرين نصاً لجميع اطراف الصراع. وإلى جانب حرصه على السند فقد حرص أحياناً على إبداء الملاحظات، والتعقيب على بعض الأشعار التي يوردها[1]. وقد وجدنا أن بعض الشعر الذي ورد في كتابه مختلط بالخبر، وبعضه مختل الوزن، ومرد ذلك – فيما نظن – يرجع إلى عدم عناية النساخ والمدونين.

وجمع البلاذري في أنساب الأشراف بين التاريخ والتراجم، وتشابك الأنساب والأدب، فروى كثيراً من الأشعار في سياق الأخبار المسندة التي رواها. وقد حظي شعر الصراع بعنايته واهتمامه، فأثبت منه ما يقرب من ثمانين نصاً مشفوعة بالأسانيد. ويبدو أنه قد صرف همه إلى رواية شعر المسلمين، وشعر المشركين المكيين، أما شعر اليهود وشعر القبائل فلم يحظيا إلا بالقليل من عنايته، فما أثبته من هذا الشعر في كتابه لا يكاد يتجاوز عشرة نصوص[2].

وتبرز قيمة أنساب الأشراف في أنه نقل لنا شعراً كثيراً لم نجده في بعض المصادر السابقة عليه والمعاصرة له.

---

[1] . المغازي/١٩١ ، ٣٤٤.

[2] . أنساب الأشراف/ ١/٥٤، ١٣٥ ، ١٤٦ ، ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ .

ويعتبر ((**تاريخ الرسل والملوك**)) مجموعة من الوثائق الأولية المدونة بطريقة الإسناد، فقد نهج فيه الطبري إلى إسناد كل واقعة – حيثما تيسر ذلك – إلى شاهد عيان أو إلى شخص معاصر انتهت روايته إليه عبر سلسلة من الرواة[١]. وقد وشح هذه الوثائق والأخبار – بكثير من عيون الشعر، فروى سبعين نصاً من شعر الصراع ما بين قصيدة ومقطوعة وأرجوزة، وزعها على جميع أطراف الصراع، إلا أنه خص شعراء المسلمين وحدهم بنصفها تقريباً، وخصَّ شعراء القبائل الوافدة بقسم منها.

ويعتبر الكتاب ذا أهمية خاصة عندنا، لأن مؤلفه ضمّنه نصوصاً من شعر الصراع تحرَّج غيره من روايتها[٢] وأودعه من الشعر ما انفرد بروايته من بين معاصريه وبعض السابقين عليه[٣]، وروى فيه بعض المنقضات الشعرية التي تقاذف بها شعراء المسلمين والمشركين[٤].

وأورد كل من ابن الأثير في كتاب ((**الكامل**))والمقريزي في ((**إمتاع الأسماع**)) وابن كثير في ((**البداية والنهاية**)) نصوصاً كثيرة من شعر الصراع، إلا أنهم نقلوا هذه النصوص عمن سبقوهم من رواة هذا الشعر. وابن كثير أكثر هؤلاء العلماء رواية لشعر الصراع فقد أثبت في كتابه معظم الشعر الذي أورده ابن هشام في السيرة، وحرص على إثبات الملاحظات التي أبداها ابن هشام على الشعر المروي عن ابن إسحاق، غير أنه انفرد ببعض الملاحظات، كما أعلن عن تركه لبعض الأشعار تجنباً للإطالة، وامتنع عن رواية شعر اليهود، وشعر المشركين الذي فيه كفر بواح.

ومن أهم المصادر التاريخية وأقدمها كتاب ((**سيرة الرسول**)) لأبي محمد عبد الملك ابن هشام بن أيوب الحميري (ت:٢١٨هـ). والكتاب من تصنيف محمد بن إسحاق ابن يسار (ت: ١٥٠هـ) ثم روي عنه بأكثر من طريق، وقد رواه ابن هشام بوساطة أبي محمد زياد بن عبد الله العامري البكَّئي الكوفي (ت:١٨٣هـ). ويعتبر من أقدم كتب السيرة التي حفظتها لنا الايام. ويبدو على صاحبه من طابع الجِدّ والأمانة والرغبة الشديدة في التحفظ – في كثير من الروايات والأشعار – تأثماً وتقوى، مما يحمل على الإكبار والتقدير.

---

1. روم لاندو / الإسلام والعرب / ٣٠٣.
2. تاريخ الطبري/٢/٤٨٨ ، ٥٢٥.
3. تاريخ الطبري/٣/٥٤١ ، ٢ /٥٣٣ ، ٨٦ ، ٥٩١ .
4. تاريخ الطبري/٣/١١٦ – ١١٨ ، ٤٨٤ ، ٥٢٣ ، ٥٤٨ – ٢/١١ ، ١٣ .

وقد سرد ابن هشام أحداث السيرة وأشعارها عن الرواة الثقات، وعما اطَّلَعَ عليه من المدونات، وحفظ لنا في الكتاب أكبر كمية من الشعر يمكن أن يحويها كتاب واحد. غير أنه شكَّ في كثير مما رواه ابن إسحاق من هذا الشعر، فانطلق يلتمسه عند أهل العلم والدراية كأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة، وخلف الأحمر، ويونس النحوي، وغيرهم من الرواة الأثبات، ثم اضطلع بمهمة تنقيته من الوضع والانتحال ما وسعه ذلك، فقام برد الكثير منه، وامتنع عن رواية بعضه، وأثبت بعض الآراء النقدية على بعض ما أثبت منه في كتابه. وتعتبر دراسته للشعر دراسة رائدة، واعتمدها كثير من العلماء من بعده، وسوف نقف على دراسته لشعر السيرة تفصيلاً في نهاية هذا الفصل.

وطبع كتاب السيرة طبعات متعددة – اعتمدت منها طبعة مصطفى السقا وزملائه – وليس بين أصولها ما هو أقدم من نسخة الروض الأنف للسهيلي. وقد أخذ عن ابن هشام جميع من ترجموا للسيرة من بعده كالخشني وابن كثير وغيرهما.

ومن هذه المصادر أيضاً كتاب ((**الروض الآنف**)) لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (ت:٥١٨هـ). وقد برز جهد السهيلي في شرحه للشعر الذي ورد في كتاب السيرة النبوية لابن هشام، وأعلن عن ذلك بقوله: ((وغرضنا في شرح هذه الأشعار الواردة في كتاب السيرة أن نشرح منها ما استغلق لفظه جداً، وأغمض إعرابه، ولكني لا أعرض لشيء من أشعار الكفرة التي نالوا فيها من رسول الله، إلا شعر من أسلم وتاب))[١].

ولم تقتصر عناية السهيلي على شرح الشعر فحسب، بل أثبت في كتابه شعراً كثيراً لم يورده ابن هشام في السيرة، فأورد نيفاً وعشرين نصاً، بعضها لم نجدها في كتب غيره من العلماء الذين رووا شعر الصراع أو قسماً منه[٢].

وهناك مصادر تاريخية أخرى لا تقل أهمية عما سبق وذكرناه، من حيث احتفالها بشعر الصراع وروايته، وهي كتب الطبقات: مثل كتاب ((**الطبقات الكبرى**)) لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع (ت: ٢٣٠هـ)، وكتاب ((**الاستيعاب في معرفة الأصحاب**)) لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت:٤٦٣هـ)، وكتاب ((**أسد الغابة في معرفة الصحابة**)) لأبي

---

1 . الروض الأنف/٢/٥٧.

2 . الروض الأنف/٢/٣٥٩ ، ١/١٨٦ – ٨٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، وكتاب ((الإصابة في تمييز الصحابة)) لأبي الفضل أحمد علي ابن محمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ).

ويعتبر كتاب الطبقات الكبرى من أهم هذه الكتب جميعاً، والسبب في ذلك يرجع إلى أنه أقدمها، وأن مؤلفي هذه الكتب قد اعتمدوا عليه وأخذوا عنه. وقد قام ابن سعد بالترجمة للصحابة والتابعين، وحرص في أثناء هذه الترجمة على أن يورد مقطوعة أو أكثر للصحابي الشاعر. وكان علمه هذا نافعاً لنا، فهو قد حفظ في كتابه ما يزيد على ستين نصاً من شعر الصراع. وتبرز قيمة كتابه في أنه حمل إلينا أكثر من عشرين نصاً في رثاء الرسول الكريم، وأمدّنا أيضاً بفيض من شعر الوفود.

أما كتب الطبقات الأخرى: كالاستيعاب، وأسد الغابة، والإصابة، فقد روى كل منها ما يزيد على مائة نص من شعر الصراع. وميزة هذه الكتب أنها غنية بشعر القبائل التي وفدت على رسول الله بعد الفتح، وأغناها جميعاً بهذا الشعر كتاب الإصابة فقد حفظ لنا منه ما يقرب من ستين نصاً.

وكتب الطبقات بوجه عام تخلو من شعر اليهود، فلم نجد فيها إلا نصاً واحداً[1]، وهذا أمر طبيعي، لأن عنايتها منصبة على ذكر صحابة الرسول الكريم، والتعريف بهم.

وتعتبر المصادر التاريخية نافعة لنا حينما نتناول ما ورد فيها من شعر الصراع بالنقد والتمحيص.

المصادر الجغرافية

ومن هذه المصادر التي أفدنا منها: كتاب ((**صفة جزيرة العرب**)) لأبي محمد الحسن ابن أحمد بن يعقوب (ت: ٣٣٤هـ)، وكتاب ((**معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**)) لأبي عبيد الله عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت: ٤٨٧هـ) وكتاب ((معجم البلدان)) لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت: ٦٢٦هـ).

وهذه المصنفات تترجم لمواضع كان بعضها مسرحاً لأحداث الصراع، وحين يتحدث المصنف عن الموضع يضمن حديثه بعض الشعر الذي قيل فيه، غير أنه لا يروي النص كاملاً —

---

[1]. الاستيعاب/٢/٧٨٦.

إلا في القليل النادر - [1] وغنما؟؟ يكتفي برواية بيت أو بيتين منه ، وربما زاد على ذلك أحياناً.

والبكري أكثر هؤلاء المصنفين عناية بشعر الصراع، فقد أورد منه نيفاً وأربعين نصاً، خصَّ حسان بن ثابت وحده بخمسة عشر نصاً منها.

كما أنه أكثرهم دقة ودراية بالشعر، يدل على ذلك أنه كان يقوم بنقد الشعر وتمحيصه والتنبيه على زائفه في بعض الأحيان.

على أن هذه الكتب بأنواعها المختلفة ليست بطبيعتها مصدراً أصيلاً من مصادر الشعر التي يمكن أن يعتمد عليها، وإنما المصدر الأصيل الذي يصح للباحث المحقق أن يطمئن إليه ويعتمده هو هذه الدواوين الشعرية التي اقتصرت على الشعر نفسه واتخذته غاية لذاته، وأفرغ جامعوها وشراحها جهدهم في التثبت من صحة كل قصيدة، بل كل بيت، والتحقق من نسبة كل ذلك إلى شاعره ،ودفع ما لا تثبت لهم صحته او نسبته، والنص عل ما يشكون فيه منه[2].

ولكن ما بين أيدينا من دواوين لم تحفظ لنا سوى شعر القلة القليلة من شعراء فترة الصراع، ذلك أنه لا يوجد لدينا سوى ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، وهو من شعراء المدينة الذين كانوا ينافحون عن رسول الله، وديوان كعب بن زهير ولبيد ابن ربيعة، والأعشى البكري، وهم من شعراء البادية، وديوان أمية بن أبي الصلت الثقفي وهو من شعراء الطائف.

وسوف نرى في الفصول اللاحقة أن هؤلاء الشعراء قد تفاوتوا في مشاركتهم في الصراع، وأنه لم يشارك منهم مشاركة جدية وحاسمة غير حسان بن ثابت.

وأما جمهرة الشعراء الذين شاركوا في الصراع – كشعراء المشركين من قريش وسائر القبائل واليهود – فكان حظهم من العناية والاهتمام قليلاً، بحيث ذهب عنا كثير من شعرهم، وما بقي لهم لا يكاد يمثل واقعهم تمثيلاً صحيحاً ودقيقاً، كما أنه لا يستوي إلى أن يجمع في ديوان لقلته.

ومن هنا، فليس أمامنا سوى قبول الشعر الوارد في هذه المصادر والاستشهاد به على أنه وثيقة حية من وثائق فترة الصراع بعد إخضاعه للدرس والتمحيص، والتنبيه على المصنوع منه – إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً أو وجد الدليل – في موضعه من هذا البحث إن شاء الله.

---

[1] . معجم ما استعجم ٥١٢/٢ ، ٧٠/١ ، معجم البلدان/٨٥/٦ .

[2] . ناصر الدين الأسد/ مصادر الشعر الجاهلي /٦١٤.

الرواية والرواة

عندما أظل الإسلام جزيرة العرب، اندفع المسلمون خارجها يلبون نداء الجهاد، إرضاء لله ونشراً لدينه، وحملاً لدعوته إلى الدنيا كلها. وكان طبيعياً أن ينصرف المسلمون عن أمور الدنيا، وأن يتخففوا من كل ما يشغلهم عن نيل إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، فانصرفوا عن الشعر ولهوا عن روايته حيناً قال ابن سلام[1]: ((قال عمر بن الخطاب: كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد، ولهت عن الشعر وروايته)).

ولكنهم مع ذلك ظلوا على ولعهم به، واحتفائهم بسماعه وإنشاده، فقد كان الرسول الكريم يسمعه ويثيب قائليه، وكان عمر بن الخطاب يحبه ويستنشده. أنْشِدَ ذات مرة قصيدة أبي قيس ابن الأسلت التي على العين وهو ساكت، فلما انتهى المنشد إلى قوله[2]:

الكيس والقوة خير من الإ   شفاق والفَهَّةِ والهاعِ

أعاد عمر البيت وجعل يردده ويتعجب منه، ثم كتب إلى أبي موسى الأشعري: مُرْ مَنْ قِبَلَكَ بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب.

ومع احتفال الخلفاء بالشعر، لم يُعنَ أحد من الناس بكتابته وتدوينه على الرغم من انتشار الكتابة وذيوعها، ومردُّ ذلك أن قلوب الناس وعقولهم ومشاعرهم كانت مشدودة إلى القرآن، والعناية بحفظه وتفسيره. ولكن الرواية ظلت قائمة فاستمر الناس على رواية الشعر والأخبار والأنساب والأيام، يدلّ على ذلك قول حسان بن ثابت[3]:

وقد سارت قوافٍ باقيات   تناشدها الرواة بكل وادي

بل نجد أنهم توسعوا في رواية بعض هذه الفنون أول عهدهم بالإسلام، لمعالجة الحجة في الردّ على المشركين ممن كانوا يهاجون شعراء النبي - عليه السلام - فكان عمر بن الخطاب مثلاً أروى الصحابة للشعر[4].

---

[1]. طبقات الشعراء/ ١٧.

[2]. العمدة /١/١٥

[3]. الديوان/ ١٩٩.

[4]. الرافعي/١/١٨٦.

وعندما انتقل الحكم إلى بني أمية، وازداد الإسلام رسوخاً في النفوس، قوي عود الشعر واشتد، وأخذ العرب يقبلون عليه، يسمعونه في سوق المربد، ويسمعونه من الأعراب الوافدين من جوف البادية. فلم يكن عجيباً إذن، أن ينصرفوا لقوله وإنشاده، وأن يحرصوا على روايته ونقله.

وأول من روى شعر الشعراء هم الشعراء أنفسهم، ثم أقاربهم وأبناء قبيلتهم. مثال ذلك أنه لما مات حسان أوقد ابنه عبد الرحمن ناراً، حتى إذا اجتمع عليه الحيُّ قال: قد قلت بيتاً فخفت أن يسقط بحدث عليّ فجمعتكم لتسمعوه، فأنشدهم[1]:

وإن امرأً نال الغنى ثم لم ينل صديقاً ولا ذا حاجةٍ لزهيدُ

وكان عمر بن الخطاب قد قال يوماً لمن حضره من المسلمين في المدينة: ((إني قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً، دفعاً للتضاغن عنكم وبثّ القبيح فيما بينكم، فأما إذْ أبوا فاكتبوه واحتفظوا به، فدوَّنوا ذلك عندهم، فكانت الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه[2].

وشارك الصحابة والتابعون في رواية شعر الفترة، إما لعلاقة هذا الشعر بحديث شريف، وإما لصلته بحادث تاريخي في عصر النبوة. ويبدو ذلك واضحاً في الكتب التي حفظت لنا الإسناد مرفوعاً إلى عصر الشاعر. جاء في تاريخ الطبري[3]: قال أبو جعفر – يعني نفسه – حدثنا أبوكريب قال: حدثنا جعفر بن عون العمري قال: حدثنا إبراهيم بن إسماعيل عن عمرو – أو عمر – بن أسيد عن أبي هريرة... ثم أورد الشعر.

وجاء في طبقات ابن سعد قال[4] أخبرنا عفان بن مسلم قال: أخبرنا يلم بن غزوان قال: أخبرنا ثابت البناني عن أنس بن مالك... وأورد الشعر.

وبقي العرب يتناقلون شعر الفترةوغيرها بالرواية الشفوية خلال القرن الأول الهجري، وعندما بدأ تدوين الشعر في القرن الثاني، لم تبق الرواية على أصالتها وجديتها، بل تسرّب إليها شيء من الوضع والتزيُّد. وبخاصة عند ظهور طائفة من الرواة المحترفين للشعر في مكة

1. ديوان حسان/١٩٨.
2. الأغاني /٤/ ٥ -٦.
3. تاريخ الطبري/٢/٥٤٠.
4. الطبقات الكبرى /٣/٥٢٩.

والمدينة ودمشق والبصرة والكوفة، فظهر كثير من الـــرواة – مـــا بـــين حفظـــة ونـــاقلين ومستشهدين – وأصبح الشعر تجارة رابحة يُعْتَدُّ بها، وصناعة يُتَكَسَّبُ من امتهانها. ومن هنـــا أخذ بعض الرواة يخترعون الأشعار وينسبونها إلى مَنْ شاءوا من شعراء الجاهلية وغير الجاهلية، ثم يطرحونها في سوق العلم ويعرضونها على العلماء طمعاً في الكسب والارتزاق. وتلك طبيعة الإنسان مهما اختلفت ظروفه، وتنوَّعتْ بيئته، ومهما كان حظه من الحضارة والرقيّ.

وقامت – إلى جانب هؤلاء – طائفة من الرواة العلماء في النصف الثاني من القرن الثـــاني الهجري[1] من أمثال أبي عمرو بن العلاء وحماد الرواية والمفضل الضبي وخلف الأحمر وغيرهم، فكانوا الطبقة الاولى من العلماء الذين عرفتهم العربية في تاريخها الحافل، فتلقّوا تراث الجاهلية الذي وصلهم بعضه مدوناً في دواوين كاملة، وبعضه مدوناً في صحف متفرقة، وبعضه عـــن طريق الرواية الشفوية، فقاموا بتمحيصه ودراسته بأمانة، وحرصوا على أن تكون حـــصيلتهم منه خالية من الكذب والتلفيق ثم بلغوه لمن جاء بعدهم، فحمله عنهم علماء الطبقة الثانيـــة. ومع ذلك كان لابد من أن يختلفوا، لأنه وقع لبعضهم من الصحف المكتوبـــة أو الـــدواوين المدونة أو الرواة من الشيوخ العلماء، ومن الأعراب الفصحاء ما لم يقع لغيره. ثم كان لكـــل طائفة من هؤلاء العلماء منهج في الأخذ والتلقي. ولكن هذا الخـــلاف في المـــصادر أولاً وفي المنهج ثانياً، لم يمنع العلماء من أن يأخذ بعضهم عن بعض، ومن أن يرحل علمـــاء المـــصر إلى المصر المجاور[2] ليأخذوا منهم، ويرووا عنهم، ثم ينقلوا ما يتقنوا صحته إلى تلاميذهم، ويكتبوه فيما يجمعوه من دواوين[3].

وانقسم العلماء إلى مذاهب، فوجد مذهب الكوفة، ومذهب البصرة، ومـــذهب بغـــداد، والمدينة، وصار لكل مذهب تلاميذ يتعصَّبون لمذهبهم وشيوخهم، ويوثقون روايتهم، ويطعنون في شيوخ المذاهب الأخرى، ويتهمونهم بالوضع والاختلاق.

وكان التنافس بين البصرة والكوفة شديداً، والخلاف محتدماً من عدة نواحٍ. فمن الناحيـــة الحزبية فالكوفة علوية، والبصرة عثمانية. ومن الناحية العنصرية فأكثر أهـــل الكوفـــة مـــن اليمانيين، وأكثر أهل البصرة من المضريين. ومن الناحية العلمية، فأهل الكوفة أصحاب فقـــهٍ

---

[1] . بلاشير/ تاريخ الأدب العربي/١٢٢.

[2] . الأسد/ مصادر الشعر الجاهلي/ ٤٧٧ – ٤٧٨.

[3] . مصادر الشعر الجاهلي/٤٧٨.

وحديثٍ وقراءة، وأهل البصرة أصحاب علوم وفلسفات، لأنهم أكثر اختلاطاً بالأجانب من أهل الكوفة، وأكثر حرية في اعتناق المذاهب المختلفة، وأسرع إلى الأخذ من الثقافات الأجنبية لتوافر مصادرها عندهم، وكثرة انتقالاتهم للكسب والتجارة.

والكوفة – مع ضعف الاتصال بين عناصرها العربية وعناصرها الأجنبية – أكثر تحرجاً من أهل البصرة في الأخذ بثقافات الأجانب، ولكثرة من فيها من الصحابة والتابعين، ومن الفقهاء وأهل الدين.

هذه العوامل أحكمت أسباب الاختلاف بين المصرين، فكان من نتائج هذا التنافس أن كانوا يتناظرون في مجالس الخلفاء حين تجتمع وفودهم في دواوينهم. وكان الخلفاء يستمتعون بهذا النوع من المناظرات، وربما ظاهروا فريقاً على فريق، لأسباب تدعوهم إلى ذلك[1] وتناولت هذه المناظرات نواحي عدة،ومن بينها الناحية الثقافية. ومن هذه الناحية مناظراتهم في الشعر وحفظه وروايته.

وما دمنا قد عرضنا للرواية بشكل عام، نرى أن نعرض للرواة الذين اضطلعوا برواية شعر الفترة لنتبين حظهم من التوثيق والتجريح، لأن ذلك يساعدنا على أن نحكم – ولو حكماً تقريبياً – على مدى نصيب هذا الشعر – بشكل عام – من الثقة والصحة. وسوف ننهج في دراستنا لهؤلاء الرواة نهجاً زمنياً حسب سنوات وفاتهم، دون مراعاة تقسيم المذاهب، لأن رواة الخبر الذي يتضمن الشعر، فيهم الكوفي والبصري والبغدادي، وغيرهم، ولكننا مع ذلك سنشير في أثناء حديثنا إلى المذهب الذي ينتسب إليه الراوية.

ورواة شعر الفترة كما وجدناها في الكتب التي عني أصحابها بذكر الأسانيد كالطبقات الكبرى وأنساب الأشراف وتاريخ الطبري والأغاني وغيرها، هم:

الشعبي (ت:١٠٤ أو ١٠٥ هـ)[2]

هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد الحميري الشعبي الكوفي، تابعي جليل القدر، ومن رجال الحدبث الثقات[3]. روى عن علي بن أبي طالب وعائشة أم المؤمنين، وأبي هريرة[4]، وسعد

---

1. مهدي المخزومي/ مدرسة الكوفة /٦٦.
2. مختلف في وفاته – انظر الأعلام للزركلي /٤/١٨.
3. الزركلي/ الأعلام/ ٤/١٨.
4. الحديث والمحدثون/١٩٦ ، السنة قبل التدوين/٥٢٣.

بن أبي وقاص، وزيد بن ثابت، وعبادة بن الصامت، وأبي موسى الأشعري، والمغيرة بن شعبة، وأبي سعيد الخدري، وأم سلمة، وغيرهم[1].

وروى عنه كثيرون كسماك بن حرب، والأعمش، ومنصور، وعبد الله بن عون، وشعبة بن الحجاج[2].

كان فقيهاً بارعاً، وإماماً حافظاً، يضرب المثل بحفظه. سئل يوماً عما بلغ إليه حفظه فقال[3]: ((ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته)). وروي عنه أنه قال[4]: ((لست لشيء من العلوم أقل رواية من الشعر، ولو شئت لأنشدت شهراً ولا أعيد بيتاً)).

اتفق العلماء على إمامته وثقته[5]. قال سفيان بن عيينة: ((لم يُدْرَكْ مثل ابن عباس في زمانه، ولا مثل الشعبي في زمانه، ولا مثل الثوري في زمانه))[6] وقال مكحول: ((ما رأيت أعلم من الشعبي))[7] وقال ابن سيرين لأبي بكر : ((الزم الشعبي فقد رأيته يُستفتى والصحابة متوافرون)) وأثنى معاصره على علمه وتواضعه وفضله وأخلاقه[8]. وقد روى شعر كعب بن مالك الأنصاري وغيره[9].

الزهري (ت:١٢٤هـ)

هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب القرشي الزهري المدني، أحد الأعلام بالشعر والأنساب والسيرة، وقيل: إنه أول من ألف في السيرة[10].

1 . السنة قبل التدوين/٥٢٢.
2 . نفسه/٥٢٢.
3 . الأعلام/٤/١٨.
4 . العقد الفريد/٣/١٣٥.
5 . الحديث والمحدثون/١٩٧.
6 . سِيَر أعلام النبلاء/٣/٢٣٦.
7 . الحديث والمحدثون/١٩٧.
8 . السنة قبل التدوين/٥٢٣.
9 . العاني: ديوان كعب بن مالك/١٦٠.
10 . الرسالة المستظرفة/٧٩ – ٨٠.

سمع من بعض الصحابة، وروى عنهم، منهم: عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وسهل بن سعد، والمسور بن مخرمة[1]. وروى عن كبار التابعين كسعيد بن المسيّب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وابن الزبير، وأبان بن عثمان، وغيرهم[2].

وروى عنه خلق كثير من مختلف الأقاليم الإسلامية، وأكثر عنه الحجازيون والشاميون، ومن أشْتُهِرَ من روى عنه: عطاء بن أبي رباح، وأبو الزبير المكي، وعمر ابن عبد العزيز، وعمرو بن دينار، وصالح بن كيسان، ومالك بن أنس، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة[3]، ويونس والأوزاعي وابن إسحاق، وزيد بن أسلم[4].

واشتهر الزهري بسعة معارفة وكثرة حفظه. قال الليث: ((ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب، يحدّثُ في الترغيب فتقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب قلت: لا يُحْسِنُ إلا هذا، وإن حدَّث عن القرآن والسنة كان حديثه نوعاً جامعاً))[5]. وقال أيوب: ((ما رأيت أعلم من الزهري، وكان إذا أقبل على كتبه لم يلتفت إلى شيء)). وقال عمر بن عبد العزيز: ((لم يبق أعلم بسنة ماضيه من الزهري))[6]. وقال ابن سعد: ((قالوا[7]: وكان الزهري ثقة، كثير الحديث والعلم والرواية فقيهاً جامعاً))[8]. وقال الجاحظ: ((الذين بثّوا العلم في الدنيا أربعة قتادة، والزهري، والأعمش، والكلبي))[9] وقال ابن حبان: ((وكان من أَحفظ أهل زمانه، وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار))[10].

---

1. السنة قبل التدوين/٤٨٩.
2. الذهبي: تاريخ الإسلام/٥/١٣٦.
3. السنة قبل التدوين/٤٩٨
4. الذهبي: تاريخ الإسلام/٥/١٣٦
5. نفسه /١٣٧.
6. ابن العماد: شذرات الذهب/١/١٦٣
7. يعني بهم أهل العلم ممن يثق بهم ابن سعد
8. تهذيب التهذيب/٩/٤٤٨.
9. البيان والتبيين/١/٢٤٢
10. السنة قبل التدوين/٤٩٩

اتفق العلماء على ثقته[1]. قال أبو حاتم ..... : ((أثبت أصحاب أنس الزهري[2])) وقال ابن المديني: ((دار علم الثقات على ستة: فكان بالحجاز عمرو بن دينار والزهري، وبالبصرة قتادة ويحيى بن أبي كثير، وبالكوفة أبو إسحاق والأعمش))[3] وروى الأوزاعي عن سليمان بن حبيب المحاربي قال: ((قال لي عمر بن عبد العزيز: ((ما أتاك به الزهري عن غيره فشدَّ يديك بـــه))[4]. وقال موسى بن إسماعيل: ((شهدت وهيباً وبشر بن المفضل وغيرهما، ذكروا الزهـــري فلـــم يجدوا أحداً يقيسونه به إلا الشعبي))[5] وروي عن الزهري أنه قال: ((فوالله لو ناداني منادٍ مـــن السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت))[6].

وقد لخص الطبري دور الزهري بقوله: ((كان محمد بن مسلم الزهري مقـــدماً في العلـــم بمغازي رسول الله، وأخبار قريش والأنصار، راوية لأخبار رسول الله وأصحابه))[7].

وعلى الرغم من هذا الإجماع على توثيق الزهري، فإن جولد تسمر قد اتهمه بوضع بعض الأحاديث إرضاء لصديقه عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي[8]. وقد قام الـــدكتور محمـــد عجاج الخطيب بالرد عليه، وأورد من الأدلة ما يدحض بها المزاعم التي بـــسطها بـــين يـــدي اتهامه[9].

وكان الزهري ذواقاً للشعر[10]، محباً له، مولعاً به، واشْتُهِرَ بتضلعه فيه[11]. روى ابن المبارك عن يونس قال: ((قلت للزهري: أخرج لي كتبك، فأخذ بيدي فأدخلني ثم قال: يا جارية هاتي

---

1. الحديث والمحدثون/١٧٤
2. السنة قبل التدوين/٤٩٧.
3. الذهبي: تاريخ الإسلام/٥/١٤٤
4. نفسه/١٤٤
5. نفسه/١٤٩
6. هوروفيش/المغازي الأولى ومؤلفوها/٥٨
7. عبد العزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب/٨١.
8. السنة قبل التدوين/٥٠٣
9. نفسه/٥٠٤ – ٥١٤.
10. هوروفيش: المغازي الاولى ومؤلفوها/٦٨
11. نشأة علم التاريخ عند العرب/٩٥

تلك الكتب، فأخرجت صحفاً فيها شعر، وقال: ما عندي إلا هذا))[1] وقال حماد بن زيد: ((إن الزهري كان يقول بعد أن يروي الحديث: هاتوا من أشعاركم وأحاديثكم، فإن الأذن مجاجة، والنفس حمضة))[2].

ابن إسحاق (ت:١٥٠ أو ١٥١هـ)

هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المدني القرشي مولى آل مخرمة ابن المطلب بن عبد مناف، كان بحراً من بحور العلم ذكياً حافظاً طَلاَّبَةً للعلم إخبارياً نسّابة، علاّمة[3]. قال أبو جعفر النفيلي: ((حدثني عبد الله بن فائد قال: كنا نجلس إلى ابن إسحاق، فإذا أخذ في فنٍّ من العلم ذهب المجلس في ذلك الفن)) وقال الزهري: ((لا يزال بهذه الحَرَّة – يعني المدينة – علم ما دام بها ذاك الأحول – يريد محمد بن إسحاق –[4])). وقال شعبة: ((لو كان لي سلطان لأمَّرتُ ابن إسحاق على المحدثين))[5].روى عن سعيد بن أبي هند، والمقبري، وعطاء، والأعرج، ونافع[6] وأخذ عن هشام ويحيى ابني عمروة، وعمر بن عبد الله ابن أخي عمروة محمد بن جعفر أخي عمروة، وأكبر أساتذته هو الزهري[7].

وروى عنه الحمادان، وإبراهيم بن سعد، وزياد البكّائي، ومسلمة الأبرش، ويزيد بن هارون، وخلف[8].

وثَّقه غير واحد، ووهَّاه آخرون منهم مالك بن أنس، وهشام بن عمروة. ويبدو أن تجريحه لا يخلو من الهوى والغاية، فأبو عبد الله البخاري لم يذكره في كتاب الضعفاء له[9]. وربما يكون تجريحه لأنه رمي بالقدر والتشيع. قال ابن عيينة: ((رأيت ابن إسحق في مسجد الخيف فاستحييت أن يراني معه أحد، اتهموه بالقدر)). وقال محمد بن عبد الله بن نمير: ((رُمي بالقدر

1. الذهبي: تاريخ الإسلام/٥/١٤٥.
2. المغازي الأولى ومؤلفوها/٦٨
3. شذرات الذهب/١/٢٣٠.
4. ميزان الاعتدال/٣/٤٧٢
5. نفسه/٣/٤٧٣.
6. نفسه/٤٦٨
7. المغازي الاولى ومؤلفوها/٨٨
8. ميزان الاعتدال/٣/٤٦٨.
9. ميزان الاعتدال/٣/٤٧١

وكان أبعد الناس منه))[١]. وقال علي بن المديني: ((حديثه عندي صحيح. قيل له: فكلام مالك فيه؟ قال: مالك لم يجالسه ولم يعرفه وأي شيء حدث في المدينة؟ قلت: فهشام بن عروة قد تكلم فيه؟ قال الذي قال هشام ليس بحجة، لعله دخل على امرأته وهو غلام فسمع منها، وإن حديثه ليتبين فيه الصدق))[٢].

والذين وثقوا ابن إسحاق كثيرون، قال أحمد بن حنبل: ((وهو حسن الحديث)) وقال ابن معين: ((ثقة وليس بحجة)) وقال شعبة: ((وهو صدوق))[٣] وكذلك قال أبو زرعة[٤] وقال الذهبي((هو حسن الحديث، صالح الحال صدوق))[٥] ولم يتخلف الرواية له له الثقات، روى له الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة، واستشهد به البخاري في مواضع[٦]، وأخرج له مسلم خمسة أحاديث في المبايعات[٧].

وقد جمع ابن إسحاق المادة التي رواها له أساتيذه من السيرة في روايات، وزادها بالأقوال الكثيرة التي جمعها بنفسه، وأخذ بعضها عن أقارب الرجال والنساء الذين اشتركوا في الحوادث، وفي عرض حسن التنظيم لحياة النبي - عليه السلام -. وقد أدخل في هذا العرض قوائم ووثائق، وأشعار أخذ جزءاً منها من أساتيذه والجزء الآخر جمعه بنفسه[٨].

وأدخل المتقدمون على ابن إسحاق –فيما أدخلوه من الأخبار والوثائق النثرية في مجموعاتهم - كثيراً من الأشعار، وبكن أحداً ؟؟؟منهم لم يدخلها بالقدر الكبير الذي أدخله ابن إسحاق. وقد أخذ بعض القصائد الخاصة بحوادث الفترة المدنية من أستاذه عبد الله ابن أبي بكر[٩].

---

[1]. نفسه/٤٦٩

[2]. نفسه/٤٧٥

[3]. نفسه/٤٦٩

[4]. نفسه/٤٧٢

[5]. ميزان الاعتدال/٢/٤٧٥

[6]. مقدمة الناشرين: السيرة/ق١/١٧

[7]. ميزان الاعتدال/٣/٤٧٥

[8]. هوروفيش: المغازي الأولى ومؤلفوها/٩٤

[9]. نفسه/٩١

وأخذ عليه بأنه كانت تعمل له الأشعار ويؤتى بها، ويُسأل أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل[1]، واعترف هو نفسه بذلك، فكان يعتذر منها بأنه لا علم له بالشعر وإنما يؤتى به فيحمله[2].

ولا يوجد ما يدعو إلى الشك في صحة كثير من القصائد التي ذكرها ابن إسحاق، وخاصة التي تتصل بحوادث المدينة، وكثير منها كان معروفاً بصحته في عهد ابن هشام لدى علماء الشعر. ولم يكن ابن إسحاق يتمسك بصحة كثير من الباقي على الإطلاق، ولكنه لم يقم بأبحاث خاصة في صحتها لم يعتد العلماء المحترفون القيام بها،ولا تمسه مسألة صحتها مسًّا خاصاً، فهو استشهد بهذه الأشعار على قدر ظهورها له جديرة بالاستشهاد، لأنها تنفع في تزيين القصة، ولأن إدخال القصائد في الأخبار النثرية، كان من الأمور المتبعة في الفن المأثور القديم عن القصاص العرب. ويكشف ابن إسحاق عن نزاهة غير عادية في إدخال القصائد حتى ليسمح لخصوم النبي - عليه السلام - بإدخال الأشعار التي نظموها دون حرج، وفي بعض الأحوال يرى ابن هشام أن من الضروري التلطيف من حدة عبارات هؤلاء الشعراء[3].

خلف الأحمر (ت:١٨٠هـ)

هو خلف بن حيان الأحمر أبو محرز مولى بلال بن أبي بردة، من رواة البصرة المشهورين، ومن أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيده[4]. قال له قائل: ((إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك، قال له: إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته فقال لك الصراف إنه رديء، هل ينفعك استحسانك له؟))[5].

اختلف القدماء في أمر خلف، فكانوا ما بين مُتَّهِمٍ ومُوَثِّقٍ. قال ابن سلام: ((اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقهم لساناً. كنا لا نبالي إذا أخذنا عن خبر أو أنشدنا ألا نسمعه من صاحبه))[6]. وقال السيوطي: ((كان راوية ثقة علامة، يسلك مسلك

---

1 .الفهرست/١٣٦

2 .طبقات الشعراء/٧

3 . المغازي الأولى ومؤلفوها/٩٣

4 . المعارف/العقد الفريد/٣/١٣٤ ، ٥٤٤.

5 . طبقات الشعراء/٧

6 . نفسه/٧

الأصمعي حتى قيل: هو معلم الأصمعي. وهو والأصمعي فتقا المعاني، وأوضحا المذاهب وبيَّنا المعالم))[1].

وكان الأخفش يقول: لم يدرك أحد أعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمعي[2]. أما ابن النديم فقال فيه: كان أفرس الناس لبيت شعر، وكان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم[3].

وقال أبو الطيب في مراتب النحويين: كان خلف الأحمر يُضْرَبُ به المثل في عمل الشعر، وكان يعمل على ألسنة الناس، فيشبه كلّ شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه، ثم نَسَكَ، فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة فعرَّفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس[4] وبذل له بعض الملوك مالاً عظيماً على أن يتكلم في بيت شعر شكّوا فيه، فأبى ذلك[5].

ويبدو التناقض شديداً بين الموثقين والمتهمين، بل هو واضح في رواية أبي الطيب نفسه، فهي تتهمه أولاً، ثم تعود فتوثقه، فهل بعد النسك والتقوى من دليل على صدق وأمانة وتحوُّط؟

ومما يدل على ثقة خلف وصدقه، أن أهل الكوفة كانوا يقرأون عليه أشعارهم[6]، وأن الأصمعي كان يتعلم منه نقد الشعر[7]، وأن ابن سلام كان ياخذ عنه، وهما معروفان بالثقة والأمانة.

ومما يدلنا على مبلغ تجني بعض الرواة على خلف أنهم وضعوا شعراً ورجزاً على لسان خلف الأحمر وغيره من العلماء الرواة، ثم نسبوا إليه أنه وضع ذلك الشعر ونحله القدماء. قال الجاحظ: ((ولقد ولَّدوا على لسان خلف والأصمعي أرجازاً كثيرة، فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء؟)) ومهما يكن من أمر متهميه فقد وثَّقه الأصمعي وابن سلام توثيقاً لم يوثقاه

---

1 .بغية الوعاة/١/٥٥٤

2 . نفسه/٥٥٤

3 . الفهرست/٧٤.

4 . السيوطي/ المزهر/١/١٧٧

5 السيوطي/ بغية الوعاة/١/٥٥٤

6 .المزهر/٢/٤٠٣

7 .نفسه/ ٤٠٣

أحداً، فقد وثقاه لأنه ثقة، وما آتهم به كان مما دعت إليه العصبيات والخصومات والتفوق العلمي[١].

وكان ابن هشام يوثقه ويعتمد عليه، فيقول مثلاً: ((هذه الرواية لهذا الشعر مختلطة، ليست بصحيحة البناء، لكن أنشدني أبو محرز خلف الأحمر وغيره))... ثم يورد الشعر[٢].

يونس النحوي (ت:١٨٢هـ)

هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي الولاء، أحد أئمة العربية البصريين، أخذ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء وغيره[٣]، وسمع من العرب[٤]. وأخذ عنه أبو عبيدة والأصمعي، وأبو زيد الأنصاري، ويحيى بن المبارك اليزيدي، وقطرب، والجرمي، وخلف الأحمر، ومحمد بن سلام الجمحي، وغيرهم[٥].

اشتغل بجمع النوادر واللغة والأمثال[٦]، وكانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الأدب وفصحاء الأعراب والبادية[٧]. قال أبو عبيدة: ((اختلف إلى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحي من حفظه))[٨]، واختلف إليه أبو زيد عشر سنين، وخلف الأحمر عشرين سنة[٩]، وكان من الذين درس عليهم سيبويه قبل اتصاله بالخليل، ونقل عنه في كتابه أقوالاً كثيرة[١٠].

كان يونس ثقة صدوقاً، قال أبو حاتم السجستاني: ((فإذا فسرت حروف القرآن المختلف عليها، أو حكيت عن العرب شيئاً، فإنما أحكيه عن الثقات منهم، مثل أبي زيد، والأصمعي، وأبي عبيدة، ويونس، وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم[١١])) وقال إبراهيم الحربي:

---

[1] نفسه/٤٠٥

[2] . مصادر الشعر الجاهلي/٤٥٧

[3] . السيرة/ق٢/٣٣

[4] .شذرات الذهب/١/٣٠١

[5] .بغية الوعاة/٢/٣٦٥

[6] . حسين نصار/ يونس بن حبيب/٣٧ - ٣٩

[7] .بروكلمان/٢/١٣٠

[8] . بغية الوعاة/ ٢/٣٦٥

[9] . المزهر/٢/٣٩٩

[10] .شذرات الذهب/١/٣٠١

[11] .المخزومي: مدرسة الكوفة/١٢٢

((كان أهل العربية كلهم أصحاب أهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة: أبو عمرو بـــن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب البصري، والأصمعي ولما كان الثلاثة الآخـــرون يتمتعون عند الدارسين بأقصى الاحترام، ويشغلون أسمى مكانة، دل هذا على ما كان يتمتع به يونس من احترام وتبجيل))[١] وقال الجاحظ: ((ومن أراد الأخبار فليأخذها عن مثل قتادة بـــن دعامة الدوسي، وأبي عمرو بن العلاء، وابن جعدبة (يزيد بن عياض الليثي)، ويـــونس بـــن حبيب، وأبي عبيدة، ومسلمة بن محارب... فإن هؤلاء وأشباههم مأمونون، وأصحاب تـــوقٍ وخوف من الزوائد، وصونٍ لما في أيديهم، وإشفاقٍ على عدالتهم))[٢]. ويقول عنـــه الـــدكتور حسين نصار: ((ولم أجد ما يعيبه غير الخبر الذي يذكر أنه السبب في مقتل بشار)) ثم يورد من الأدلة ما يبرّيء بها الرجل من تهمة الوشاية ببشار، ووصمه الشماتة بقتله[٣].

زياد البكائي (ت:١٨٣هـ)

هو أبو محمد زياد بن عبد الله بن طفيل بن عامر القيسي العامري البكائي الكـــوفي. روى سيرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم - عن محمد بن إسحاق، ورواها عنه عبد الملك بـــن هشام الذي رتبها ونسبت إليه[٤].

روى عن الأعمش، وابن إسحاق[٥] ومنصور وعبد الملك بن عمير، والكِبار، وروى عنـــه الفلاّس، وأحمد بن حنبل، والحسن بن عرفة[٦].كان صدوقاً ثقة[٧] خرَّج عنه البخاري في كتابـــه الجهاد، ومسلم في مواضع من كتابه، وذكر البخاري في تاريخه عن وكيع قال: ((زياد أشرف من أن يكذب في الحديث))[٨] وقال عنه أحمد بن حنبل: ((حديثه حديث أهل الصدق))، وقال

---

1 . المزهر/٢/٤١٠

2 .حسين نصار: يونس بن حبيب/١٣

3 .نفسه/١٣

4 .نفسه/١٨

5 .وفيات الأعيان/٢/٣٣٨

6 .نفسه /٣٣٩

7 . ميزان الاعتدال/٢/٩١

8 .وفيات الأعيان/٢/٣٣٨ ، الأعلام/٣/٩٢

أبو زرعة ((صدوق)) ،وقال عبد الله بن إدريس: ((ما أحد أثبت في ابن إسحاق مـــن زيـــاد البكائي، لأنه أملى عليه إملاء مرتين))[1].

أبو عمرو الشيباني (ت:٢٠٥ أو ٢٠٦هـ)

هو إسحاق بن مرَّار الكوفي اللغوي، كان يُعرف بأبي عمرو الأحمر، وليس من شيبان، بـــل أدَّب أولاداً منهم فنُسبَ إليهم[2]. كان من الأئمة الأعلام في اللغة والـــشعر، وكـــان كـــثير الحديث، كثير السماع، ثقة، أخذ عنه أحمد بن حنبل ويعقوب ابن السكيت. وقرأ دواويـــن الشعر على المفضل. قال ولده عمرو: لما جمع أبي أشعار العرب ودونها كانت نيّفاً وثمانين قبيلة وكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس ،كتب مصحفاً ،وجعله بمسجد الكوفة حـــتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه[3].

وقال الجاحظ: ((ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في التحفيظ والتذاكر[4].

قال عنه ثعلب: كان مع أبي عمرو من ؟العلم أضعاف ما مع أبي عبيدة، دخـــل الباديـــة وكتب عن العرب الكثير، وقد قصر عند العامة باشتهاره بشرب النبيذ. وقـــال عنـــه ابـــن الأنباري: كان أبو عمرو صاحب ديوان اللغة والشعر وكان صدوقاً[5].وذكره الخطيب فقـــال: كان أبو عمرو راوية أهل بغداد، واسع العلم باللغة والشعر، ثقة في الحديث كثير الـــسماع، نبيلاً فاضلاً، عالماً بكلام العرب، حافظاً للغاتها، وهو عند الخاصة من أهل العلـــم، والروايـــة مشهور معروف، والذي قصَّر به عند العامة من أهل العلم أنه كان مشتهراً بالنبيذ وشـــربه، وكان معه في السماع والعلم عشرة أضعاف ما كان مع أبي عبيدة، لازمه أحمد بـــن حنبـــل وروى عنه[6].

وقال عنه ابن العماد: كان ثقة علامة، خيّراً، فاضلاً[7].

---

1. وفيات الأعيان/٢/٣٣٩
2. بغية الوعاة/١/٤٣٩
3. وفيات الأعيان/١/٢٠١
4. البيان والتبيين/٤/٢٤
5. ميزان الاعتدال/٤/٥٥٧
6. بغية الوعاة/١/٤٤٠
7. شذرات الذهب/٢/٢٣

أما الدكتور طه حسين فاتهمه بالكذب والنحل، ورماه بفساد المروءة، والتكسب ونكاية العرب، وزعم بأنه كان يؤجر نفسه للقبائل، يجمع لكل واحدة منها شعراء يضيفه إلى شعرائها[١].

الواقدي (ت:٢٠٧هـ)

قاضي بغداد أبو عبد الله محمد بن الواقدي مولى الأسلميين أحد أوعية العلم[٢] ومن أقدم المؤرخين في الإسلام وأشهرهم، ومن حفاظ الحديث[٣]. كان عالماً بالمغازي والسير والفتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأخبار[٤].

روى عن ثور بن يزيد وابن جريج وطبقتهما[٥] وسمع من مالك بن أنس والثوري وغيرهما وروى عنه جماعة من الأعيان[٦]. وكان يقول: ما من أحد إلا كتبه أكثر من حفظه، وحفظي أكثر من كتبي. وقد تحول مرة من الجانب الغربي، فكانت كتبه مائة وعشرين حملاً[٧].

اتهمه غير واحد بوضع الحديث، وضعفه بعضهم. قال ابن معين: ليس بثقة. وقال أحمد بن حنبل: كذاب يقلب الأحاديث. وقال البخاري وأبو حاتم متروك[٨] وقال ابن ناصر الدين: أجمع الأئمة على ترك حديثه[٩].

وقال مجاهد بن موسى: ما كتبت عن أحد أحفظ من الواقدي. وقال صاحب الميزان: صدوق، كان إلى جانب حفظه، المنتهى في الأخبار والسير والمغازي والحوادث وأيام الناس والفقه وغير ذلك[١٠]. وقال عنه محمد بن سلام الجمحي: هو عالم دهره، وقال إبراهيم الحربي: الواقدي أمين الناس على الإسلام، كان أعلم الناس بأمر الإسلام، فأما الجاهلية فلا يعلم فيها

---

1. في الأدب الجاهلي/١٧١
2. الفهرست/١٤٤، المعارف/١٥٨ ، شذرات الذهب/٢/١٨
3. الأعلام/٧/٢٠٠
4. الفهرست/١٤٤ ، معجم الأدباء/١٨/٢٧٧
5. شذرات الذهب/٢/٢٨
6. معجم الأدباء/١٨/٢٧٧
7. شذرات الذهب/٢/١٨ ، ميزان الاعتدال/٣/٦٦٥ ، معجم الأدباء/١٨/١٨١
8. ميزان الاعتدال/٣/٦٦٣
9. شذرات الذهب/٢/١٨
10. ميزان الاعتدال/٣/٦٦٣

شيئاً[١]. وقال مصعب الزبيري: والله ما رأينا مثل الواقدي قط، فهو ثقة مأمون[٢] وذكره الخطيب فقال: وهو ممن طبق شرق الأرض وغربها ذكره، ولم يخف على أحد عرف أخبار الناس أمره، وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات، وأخبار النبي - عليه السلام - وكتب الفقه، واختلاف الناس في الحديث وغيره[٣]. واتهام الواقدي -كما يبدو - كان في الحديث فقط، أما في سائر العلوم، فهو ثقة عند جميع العلماء، قال ياقوت: هو ثقة بإجماع في أخبار الناس والسير والفقه وسائر الفنون[٤] ونظن أن اتهامه في الحديث لا يخلو من غاية وهوى، ومما يدل على تجني متهميه عليه، أنهم أكثروا فيه حتى اتهموه بإساءة الصلاة[٥].

وربما كان ذلك لأنه كان يتشيع ويلزم التقية[٦] ،وحسبه توثيقاً أن وثقه جماعة معروفون بالثقة والأمانة والصدق من أمثال مصعب الزبيري وأبي عبيد القاسم بن سلاَّم، وجابر بن كردي، ومحمد بن سلام، وغيرهم[٧].

أبو عبيدة[٨] (ت:٢٠٨ أو ٢٠٩ أو ٢١٠ أو ٢١١ هـ)

هو معمر بن المثنى البصري، مولى بني تيم، تيم قريش، رهط أبي بكر الصديق[٩] تتلمذ على هشام بن عروة[١٠] وأبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب[١١] وأخذ عنه أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو حاتم والمازني والأثرم وعمر بن شَبَّة[١٢] والرشيد[١٣].

---

[1] . نفسه/٦٦٥

[2] . نفسه/٦٦٥ ، معجم الأدباء/١٨/٢٧٨

[3] . ميزان الاعتدال/٣/٦٦٥ – ٦٦٦ ، معجم الأدباء/١٨/٢٧٨

[4] .معجم الأدباء/١٨/٢٧٨

[5] . ميزان الاعتدال/٣/٦٦٤

[6] . الفهرست/١٤٤

[7] . ميزان الاعتدال/٣/٦٦٥.

[8] .مختلف في وفاته انظر: المعارف/٥٤٣ ، بغية الوعاة /٢/٢٩٥

[9] . المعارف/٥٤٣ ، بغية الوعاة/٢/٢٩٤

[10] . شذرات الذهب/٢/٢٤

[11] . بغية الوعاة/٢/٢٩٤

[12] .نفسه/٢٩٤

[13] .نفسه/٢٩٥ ، شذرات الذهب/٢/٢٤

له علم الإسلام والجاهلية، وكان ديوان العرب في بيته[1] غلب عليه الغريب وأخبار العرب وأيامهم[2] وقيل: إنه كان أعلم من الأصمعي وأبي زيد بالأنساب والأيام[3]. قال عمر بن شـبة: وكان أبو عبيدة يقول: ما التقى فرسـان في جاهليـة ولا إسـلام إلا عرفتـهما، وعرفـت فارسيهما[4].وقال أبو نواس: أبو عبيدة أديم طُوِيَ على علم[5] وقال يزيد بن مرة: ما كان أبـو عبيدة يفتش عن علم من العلوم إلا كان من يفتشه عنه يظن أنه لا يحسن غـيره، ولا يقـوم بشيء أجود من قيامه به[6].

وقال الجاحظ في حقه: لم يكن في الأرض خارجي أعلم بجميع العلوم منه[7] وكانت تصانيف أبي عبيدة نحو مائتي مصنف[8].

أبو زيد الأنصاري (ت:٢١٤ أو ٢١٥هـ)

هو سعيد بن أوس بن ثابت، من علماء البصرة المشهورين، كان أعلم من الأصـمعي وأبي عبيدة بالنحو[9] وغلبت عليه اللغة والنوادر والغريب[10] وقد قيل: كان الأصمعي يحفظ ثلـث اللغة، وأبو زيد ثلثي اللغة، والخليل بن أحمد نصف اللغة وعمرو ابن كركرة الأعرابي يحفـظ اللغة كلها[11].

---

1 . الفهرست/٨٩

2 .المعارف/١٥٤٣

3 .بغية الوعاة/٢/٢٩٤

4 .المهر/٢/٤٠١

5 . بغية الوعاة/٢/٢٩٤ ، شذرات الذهب/٢/٢٤

6 . نفسه/٢٩٤

7 .نفسه/٢٩٤

8 .شذرات الذهب/٢/٢٤

9 . الفهرست/٨١ ، وفيات الأعيان/٢/٣٧٩

10 . بغية الوعاة/١/٥٨٢ ، المعارف/٢/٣٤ ، شذرات الذهب/٢/٣٤

11 . بغية الوعاة/١/٥٨٣ ، المزهر/٢/٤٠٢

روى عن أبي عمرو بن العلاء ورؤية بن العجَّاج، وعمرو بن عبيد، وأبي حاتم السجستاني، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وعمر بن شبة[١] والمفضل الضبي الكوفي[٢] وسليمان التيمي، وحميد الطويل وغيرهم[٣]. وتتلمذ عليه خلف البزاز[٤] ،وروى له أبو داود والترمذي[٥].

كان أبو زيد صدوقاً صالحاً، ثقة[٦] سئل عنه الأصمعي وأبو عبيدة فقالا: ما شئت من عفاف وتقوى وإسلام[٧] ،وكان سفيان الثوري يقول: الأصمعي أحفظ الناس، وأبو عبيدة أجمعهم، وأبو زيد أوثقهم[٨]. وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يجمل القول فيه، ويرفع شأنه ويقول: هو صدوق[٩] وثقة جزرة وغيره[١٠] ،وقال السيرافي: كان أبو زيد يقول: كلما قال سيبويه: ((أخبرني الثقة)) فأنا أخبرته[١١]. وعندما يقول يونس: حدثني الثقة عن العرب، فهو يعني أبا زيد[١٢]. وقال المازني: رأيت الأصمعي وقد جاء إلى حلقة أبي زيد فقبل رأسه وجلس بين يديه وقال: أنت سيدنا ورئيسنا منذ خمسين سنة[١٣].

روى كثيراً من شعر السيرة، واعتمد عليه ابن هشام في توثيق بعض الشعر، ورجع؟ ما أخذ عنه. وكان أبو زيد راوية الأنصار.

---

1 . نفسه/٥٨٢

2 .الفهرست/٨١

3 .شذرات الذهب/٢/٣٤

4 .ميزان الاعتدال/٢/١٢٦

5 . بغية الوعاة/١/٥٨٢

6 . شذرات الذهب/٢/٣٤ ، وفيات الأعيان/٢/٣٧٩

7 .ميزان الاعتدال/٢/١٢٧

8 .وفيات الأعيان/٢/٣٧٩ ، معجم الأدباء/١١/٢١٤

9 . ميزان الاعتدال/٢/١٢٧

10 .نفسه/١٢٦

11 .بغية الوعاة/١/٥٨٢

12 . المزهر/١/١٤٣

13 .بغية الوعاة/١/٥٨٣ ، شذرات الذهب/٢/٣٤ ، وفيات الأعيان/٢/٣٧٩

ابن هشام (ت:٢١٣ أو ٢١٨هـ)

أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري – وقيل الذُّهلي[1] – تنازعته أكثر من بلد، ولم يعش حيث نشأ بيته وقرت أسرته، ثم لم يكن بيته من النسب بالمترلة التي يحرص الناس على حفظها وروايتها[2]وقد حدثنا الرواة أنه نشأ بالبصرة، ثم نزل مصر، ومات بها[3] وأنه كان أديباً إخبارياً، نسابة[4]، وإماماً في اللغة والنحو والعربية[5] ،نقل السيرة النبوية عن زياد البكائي صاحب ابن إسحاق، وقام بتهذيبها وتنقيحها، وحذف من أشعارها جملة[6]، ثم شرح ما وقع في أشعارها من الغريب[7]، فصارت تنسب إليه[8].

وثقة أبو سعيد بن يونس[9] ،وقال عنه ابن كثير: كان مقيماً بديار مصر، واجتمع به الشافعي حين وردها، وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة[10]. وغريب أن نسمع هذا، ونحن نعلم أن ابن هشام كان حين ينقل عن ابن إسحاق أشعاراً في السيرة، ظاهرة الوضع فاسدة، لا يستطيع أن يقطع فيها برأي، ويقول هكذا حدثنا أهل العلم بالشعر، ناقلاً عنهم، غير محكم ذوقاً اكتسبه من هذا، شأنه في استيعاب الأشعار[11]. ولكنه لم يكن هكذا دزماً في السيرة، فقد قام برد بعض الشعر، وأشار مرات كثيرة إلى النحل، كما صحح نسبة الشعر إلى قائله في عدة مواضع.

---

[1] . بغية الوعاة/٢/١١٥

[2] .السيرة/ مقدمة الناشر/ق١/١٧

[3] . شذرات الذهب/٢/٤٥ ، حسين المحاضرة/١/٣٠٦/ الأعلام/٤/٣١٤

[4] . نفسه/٤٥ ، نفسه/٣٠٦ ، معجم المؤلفين/٦/١٩٢

[5] . حسن المحاضرة/١/٣٠٦

[6] . بغية الوعاة/٢/١١٥ ، شذرات الذهب/٢/٤٥

[7] .الأعلام/٤/٣١٤ ، بغية الوعاة/٢/١١٥

[8] . حسن المحاضرة/١/٣٠٦

[9] . بغية الوعاة/٢/١١٥

[10] . حسن المحاضرة/١/٣٠٦

[11] . السيرة/ق١/١٨ مقدمة الناشر

محمد بن سعد (ت:٢٣٠هـ)

هو الإمام الحِبر أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري الولاء، صاحب الطبقــات[1]. مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث. ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي بها. صحب الواقدي زماناً فكتب له وروى عنه، فعرف بكاتب الواقدي[2].

اتصل بأعلام عصره من المحدثين من أمثال سفيان بن عيينة وهــشيم[3] ورويم بــن يزيــد المقريء، وأبي معشر، وإسماعيل بن عبد الله بن أويس المدني، والواقدي، وهشام الكلبي، فروى عنهم[4] وقيد مروياته، وأفاد منها في تصنيف كتبه حتى وصف بأنه كان كثير الحديث والرواية، وكثير الكتب[5]، وثقة الجميع، ووصفوه بالفهم والفضل والنبل. قال أبو حاتم: صدوق[6] وقال ابن خلكان: صدوق ثقة. وقال ابن حجر: أحد الحفاظ الكبار والثقاة المتحرين[7]، وقال عنــه الخطيب: محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة، وحديثه يدل على صدقه، فإنه يتحرى في كثير من رواياته[8]. وقال ابن الأهول: قيل إنه مكث سنوات كثيرة يصوم يوماً ويفطر يوماً[9]، كمــا وثقه الذهبي وغيره[10].

وروى كثيراً من شعر الفترة، ومروياته مرفوعة في بعض الأحيان إلى الــصحابة والتــابعين كالبراء بن عازب، وأنس بن مالك، وعائشة أم المؤمنين، وسعيد بن جبير وغيرهم. وقد أورد شعراً كثيراً في رثاء الرسول الكريم روى بعضه عن الواقدي وابن عمرو الشيباني.

---

1. شذرات الذهب/٢/١٦٩
2. الأعلام/٧/٦
3. شذرات الذهب/٢/٦٩
4. الطبقات الكبرى/ المقدمة/١/٩
5. نفسه/٦
6. ميزان الاعتدال/٣/٥٦٠ ، شذرات الذهب/٢/٦٩
7. الطبقات الكبرى/ المقدمة/١/٧
8. نفسه/٧
9. شذرات الذهب/٢/٦٩
10. ميزان الاعتدال/٣/٥٦٠

ابن سلام (ت:٢٣١ أو ٢٣٢هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن سلام مولى قدامة بن مظعون الجمحي[١]، من أئمة أهل الأدب البصريين[٢]، وله علم بالشعر والأخبار[٣]. وكان أحد كبار الإخباريين والرواة القوامين على رواية الشعر، وتمحيص أخبار الشعراء وأخبار الرواة ، وكانت هذه صناعته، ومن أجلها كتب ((طبقات الشعراء)) وغيره من كتبه[٤]. روى عن الجم الغفير كحماد بن سلمة[٥] ومبارك بن فضالة، وجماعة[٦]. وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل[٧] وابنه عبد الله، وأبو العباس ثعلب، وأحمد بن علي الأَبار[٨]. وأخذ عنه أبو حاتم والرياشي والمازني والزيادي[٩] ومشايخ الأدب[١٠].

وابن سلام ثقة مأمون في رواية الشعر والأخبار، أما في الحديث فوثقه فيه جماعة وأخذوا عنه، ووهاه فيه آخرون فتركوا روايته، لأنه كان يرمي بالقدر.قال محمد بن أبي خيثمة: سمعت أبي يقول: لا يكتب عن محمد بن سلام الحديث، رجل يرمي بالقدر، إنما يكتب عنه الشعر[١١]. وقال صالح جزرة: صدوق[١٢] وكذلك قال عنه ابن العماد[١٣]. وياقوت[١٤]. أما الدكتور طه حسين فاتهمه، لأنه انخدع ببعض الشعر المنتحل للقصص[١٥].

---

[1] . ميزان الاعتدال/٣/٥٦٧

[2] . نفسه/٥٦٧ ، إنباه الرواة/٣/١٤٣ ، معجم الأدباء/١٨/٢٠٤

[3] .معجم الأدباء/١٨/٢٠٤

[4] . محمود شاكر/ مجلة المجلة/ عدد مايو ١٩٦٩/٦.

[5] . شذرات الذهب/٢/٧١

[6] .ميزان الاعتدال/٣/٥٦٧

[7] . معجم الأدباء/١٨/٢٠٥

[8] .نفسه/٢٠٥ ، ميزان الاعتدال/٣/٥٦٧

[9] . المزهر/٢/٤٠٥

[10] . انباه الرواه/٣/١٤٣

[11] . ميزان الاعتدال/٣/٥٦٨

[12] .نفسه/٥٦٨

[13] . شذرات الذهب/٢/٧١

[14] . معجم الأدباء/١٨/٢٠٤

[15] . في الأدب الجاهلي/١٥٥

البلاذري (ت:٢٧٩هـ)

هو أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي، جالس المتوكل، ومات في أيام المعتمد. كـان عالماً فاضلاً راوية نسابة متقناً[1] ومؤرخاً جغرافياً[2] ،وكان يجيد الفارسية، وترجم عنها كتاب ((عهد أردشير))[3]. وقال ابن عساكر: وبلغني أن البلاذري كان أديباً راوية له كتب جياد[4].

تنازعه أكثر من بلد، إذ رحل في طلب العلم يسمعه من مظانه، شأنه في ذلك شأن علماء عـصره الذين كانوا يأخذون العلم سماعاً. فسمع بدمشق هشام بن عمارة وأبا حفص عمر بن سعيد، وبحمص محمد بن مصفى، وأنطاكية محمد بن عبد الرحمن ابن سهم[5]. وبالعراق عفان بن مسلم. وعلـي بـن المديني، ومصعباً الزبيري، وأبا عبيد القاسم بن سلام، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي[6].

وروى عنه يحيى بن النديم. وأبو يوسف، وأحمد بن عبد الله بن عمار، ومن مـصنفاته: أنـساب الأشراف الذي روى فيه كثيراً من شعر الفترة، وحرص على السند، وارتفع في إسـناده إلى بعـض الصحابة والتابعين كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس وقتادة ابن النعمان. وغيرهم.

الطبري (ت:٣١٠هـ)

هو الحبر البحر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتـاريخ والمـصنفات الكثيرة. ولد بآمل بطبرستان، وتوفي ببغداد[7].

كان ثقة صادقاً[8]، ذا زهد وقناعة[9]. سمع إسحاق بن إسرائيل ومحمد بن حميد، وطبقتهما، وكـان مجتهداً لا يقلد أحد[10].

---

1. معجم الأدباء/٥/٩٢
2. الأعلام/١/٢٥٢
3. نفسه/٢٥٢
4. معجم الأدباء/٥/٩١
5. نفسه/٩١
6. معجم الأدباء/٥/٩١
7. معجم الادباء/٥/٩١
8. شذرات الذهب/٢/٢٦٠
9. نفسه/٢/٢٦٠
10. ميزان الاعتدال/٣/٤٩٨

والطبري من كبار أئمة الإسلام المعتمدين[١]. كان عالماً بالفقه والحديث والتفاسير والنحو واللغة والعروض، له في جميع ذلك تصانيف فاق بها على سائر المصنفين[٢]. قال إمام الأئمة ابن خزيمة: ما أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير[٣]. وقال الخطيب: كانت الأئمة تحكم بقوله، وترجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان ممن جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره[٤].

لقيه أبو الحسن بن سراج في مصر بالفسطاط، فوجده فاضلاً في كل ما يذاكره به من العلم، ويجيب في كل ما يسائله عنه، حتى سأله عن الشعر فرآه فاضلاً بارعاً فيه[٥]. وكان يحفظ في الشعر للجاهلية والإسلام شيئاً كثيراً. قال ثعلب: قرأ عليَّ أبو جعفر شعراً لشعراء قبل أن يكثر الناس عندي بمدة طويلة، وبان فضله في علم اللغة والأدب[٦].

كان يتحرى الصدق في روايته، ويورد جميع الروايات التي تروي الخبر الواحد، وهو حريص على السند، وسبب ذلك أنه كان من المفسرين. ومروياته ترتفع إلى بعض الصحابة والتابعين أحياناً، وقد روى كثيراً من شعر الصراع.

أبو الفرج الأصبهاني (ت:٣٥٦هـ)

هو علي بن الحسن الأموي، طلب العلم وتأدب ببغداد[٧]. وكان إليه المنتهى في معرفة الأخبار وأيام الناس والشعر والغناء والمحاضرات[٨]. قال عنه التنوخي: إنه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله، وكان شديد الاختصاص بهذه الأشياء[٩].

روى عن ابي بكر بن دريد، وأبي بكر بن الأنباري، والفضل بن الحُباب الجمحي، وعلي بن سليمان الأخفش وإبراهيم نفطويه[١٠]، وعالم من العلماء يطول تعدادهم[١١].

---

1 . شذرات الذهب/٢/٢٦٠

2 .نفسه/٢٦٠

3 . ميزان الاعتدال/٣/٤٩٨

4 . معجم الادباء/١٨/٤٥

5 .شذرات الذهب/٢/٢٦٠

6 . نفسه/٢٦٠ ، ميزان الاعتدال/٣/٤٩٨

7 . معجم الأدباء/١٨/٥٣

8 .نفسه/١٨/٦٠

9 . بروكلمان/ تاريخ الأدب العربي/٣/٦٨

10 .معجم الأدباء/١٣/٩٥

11 .اباة الرواة/٢/٢٥١

كان يجمع بين سعة الرواية والحذق في الدراسة[١]، وصعد في رواياته إلى كبـار الـرواة مخـبري الأعراب فيأتي بأعاجيب ((بحدّثنا وأخبرنا))[٢].

اتهمه الخطيب والنواختي: بأنه كان أكذب الناس، حيث كان يشتري شـيئاً كـثيراً مـن الصحف ثم تكون رواياته كلها منه[٣]. ويبدو أن سبب أن أبا الفرج قد كتب مـا لا يوصـف كثرة[٤]. فقد وثقه أكثر العلماء، قال أبو الحسن البتي: لم يكن أحـد أوثـق مـن أبي الفـرج الأصبهاني[٥]. وقال المهلبي: كان أبو الفرج عزيز الأدب، عالي الرواية ،حسن الدراية[٦]. وقـال الذهبي: والظاهر أنه صدوق[٧].

كان أكثر تعويله في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجيـاد[٨]. وهو لهذا كان محتاطاً إزاء رواته أشد الحيطة، فمن عرفه بكذبه منهم نبه عليه. وحتى من عرفه بصدقه ،كان يراجع رواياته على مرويات معاصريه، ودواوين الـشعراء مبالغـة في الدقـة والتحري[٩].

صنَّف كتباً كثيرة منها: الأغاني الكبير، ومقاتل الطالبين، وآداب الغرباء وكتاب القيان[١٠].

أمابعد، فهؤلاء بعض الرجال الذين اضطلعوا برواية شعر فترة الصراع وأخبارها، والذين ورد ذكرهم في المصادر التي نقلت إلينا تلك الأخبار وأشـعارها، ولكنـا لم نقـف عنـدهم فحسب، بل دفعتنا الرغبة في التحري والتحوط إلى البحث عن مصادر روايـاتهم ومنابعهـا. فقمنا بتتبع مرويات بعضهم، وبحثنا عن أسانيدهم، فوجدنا أنها تنتهي في أغلبها إلى رجال ثقات كبعض الصحابة والتابعين، ومن سار على نهجهم وأخذ عنهم.

فقد قام هؤلاء الرجال برواية أخبار الصراع بين الإسلام وخصومه، وأوردوا ما قيل فيهـا من شعر، ثم أوصلوها بأمانة إلى من جاء بعدهم من الرواة والباحثين عن الأخبار والأشـعار.

---

1 . معجم الادباء/١٣/٩٥

2 . ميزان الاعتدال/٣/١٢٣

3 .نفسه/١٢٤

4 .ميزان الاعتدال/٣/١٢٤

5 .معجم الأدباء/١٣/٩٥

6 . ميزان الاعتدال/٣/١٢٣

7 . الفهرست/١٢٥

8 .ضيف/ العصر الجاهلي/١٦٣

9 .ضيف/ العصر الجاهلي/١٦٣

10 . إنباه الرواة/٢/٢٥٢

وقام هؤلاء بتدوينها وحفظها في عصر التدوين.من هؤلاء: أم المؤمنين عائشة، وكانت كثيرة الرواية للشعر. قال البخاري في الأدب المفرد: حدثنا سعيد بن بليد، حدثنا ابن وَهْب، أخبر في جابر بن إسماعيل وغيره، عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت تقول[١]: ((الشعر منه حسن ومنه قبيح، خذ الحسن ودع القبيح))، ولقد روت من شعر كعب بن مالك أشعاراً منها الحسن – القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك، وقيل إنها روت شعر غيره من شعراء الصراع[٢].

ومنهم الشريد. قال البخاري أيضاً في الأدب المفرد[٣]: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى سمعت عمرو بن الشريد قال: استنشدني النبي - صلى الله عليه وسلم - شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته، فأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم -يقول: هيه هيه حتى أنشدته مائة قافية.

وكان عمر بن الخطاب أروى الصحابة للشعر[٤] وروى سعيد بن جبير ما قيل في الهجرة من شعر[٥]. وروى عبد الله بن أبي بكر شعر الوفود[٦]، وروى سعيد بن المسيب شعر كعب بن زهير في وفادته على الرسول[٧]. وكان عروة من أروى الناس للشعر[٨]. وكان الرجلان من بني مروان يختلفان في الشعر فيرسلان راكباً إلى قتادة بن دعامة السنوسي التابعي، فينيخ ببابه فيسأله عنه ثم يشخص، وكان أبو بكر الهذليّ يروي هذا العلم عنه[٩] وهذه الأمثلة قليل من كثير أوردناها على سبيل المثال لا الحصر، ووقفنا عندها تجنباً للإطالة.

على أن هذا لا يعني أن شعر الصراع قد سلم من التزوير والتزييف، فقد طرأ على مسرح الرواية رجال يسعون وراء المجد والتزيد، أو التكسب والارتزاق، ورجال تعرضوا للنسيان

---

1 . المزهر/٢/٣٠٩

2 . العمدة/١/٣٠

3 . المزهر/٢/٣٠٩

4 . الرافعي/١/١٨٦

5 . أنساب الأشراف/١/١٤٤، ١٤٨، ٢٦٧، ٢٦٩

6 . تاريخ الطبري/٣/٩١، ١١٦، ١١٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥

7 . طبقات الشعراء/٣٢

8 .الاستيعاب/٤/١٨٨٣

9 .المزهر/٢/٣٣٤

والتفريط، فأضافوا إلى غيرهم ما لم يقولوه، ونحلوا على الشعراء ما لم ينظمـــوه، وخلطـــوا في نسبة هذا الشعر، وإذا كان الكذابون قد تجرأوا على النبي – عليه السلام - فوضعوا عليـــه، فما أحرى شعراء الصراع أن يكذب عليهم، فهم قد عاشوا في فترة صراع مريـــر، كثـــرت أحداثها، وتعددت أطرافها، وكثر منافقوها. ولعل هذا هو الذي سيدفعنا إلى دراســـة هـــذا الشعر للتحقق من مدى صحته، وسيدفعنا أيضاً إلى توثيقه فيما يستقبلنا من صفحات.

الفصل الأول

أولاً: الإسلام والشعر

أ - القرآن والشعر

ب - الرسول والشعر

ج - الصحابة والشعر

ثانياً: رواية شعر الصراع ورواته

أولاً: الإسلام والشعر

أ- القرآن والشعر

نزل القرآن بلسان عربي مبين في أمة عربية عرفت بالفصاحة والبيان واللسن، فبهرهم بيانه وأعجزهم فصاحته إذ كان مستواه الأدبي لا يُضاهى، سواء في موضوعاته ومعانيه أو أساليبه وغاياته السامية.

وأثار القرآن القضايا وطرح الأفكار، ودعا إلى التوحيد، واستهدف حياة العرب كلها بالتغيير، فآمن برسول الله من آمن وحملوا الدعوة إلى النظام الجديد.

وكان طبيعياً لذلك أن يحدث احتكاك وتصادم بين الأفكار الإسلامية الجديدة وأفكار الكفر، فاحتدم النقاش، وثار الجدل، وقامت المعارضة والمقاومة في الكعبة ،وفي الأندية ،وفي الأسواق.

وكان القرآن معجزاً للعرب في هذا كله، شدَّ أعناقهم إليه، ولوى رؤوسهم إلى بيانه وأدهشهم بأسلوبه، وتحداهم بإعجازه ((**أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**))[1] فكان شعورهم بالعجز والنقص أمام آياته، وإحساسهم بالهزيمة أمام أفكاره، هو الذي دفعهم إلى أن يوجهوا إليه اتهامات كثيرة.

وكان الشعر ديوان العرب وسجلَّ أيامهم، ومصدر مفاخرهم، ومجمع مكارمهم، ومعرض فصاحتهم، وآية البيان الدائرة بينهم، وكان للشاعر في قبيلته وفي غير قبيلته مكانة ممتازة.ولعل في قصة لبيد بن ربيعة مع عثمان بن مظعون في مكة[2] خير دليل على هذه المكانة.

وكما أُعجب العربي بالشعر، فقد أعجب بالسحر والجن والكهانة كذلك، فكان لها هيبة عظيمة في قلبه، فكأنه كان يشعر بالضعف والعجز حيالها، فكان بدهياً لذلك أن يتهم الرسول – صلى الله عليه السلام - بها كما يتهمه بالشعر. قال تعالى[3]: ((**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب**)). وقال[4]: ((**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين**)).

---

1. يونس/٣٨.
2. الأغاني/١٤/ ٩٩ – ١٠٠.
3. سورة ص /٤.
4. الأحقاف/ ٧

وقال تعالى[1]: ((**وما صاحبكم بمجنون**)). كما قال[2]: ((**وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون**)). وقال تعالى[3]: ((**فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون**)). وربط بين الكهانة والشعر في موضع آخر لما كان لكليهما من مكانة في نفس العربي ولتتريه الرسول عنهما فقال[4]: ((**وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكَّرون**)).

ومضى القرآن يردُّ على اتهامهم ويشدُّ من أزر الرسول – صلى الله عليه السلام -، فرد عليهم فيما نَعَوْهُ على الرسول ممن وضع القرآن وتأليفه فقال:[5] ((**وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلماً وزوراً. وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُتْلَى عليه بكرة وأصيلاً**)). وأفاض الكفار في توجيه الاتهام، والقرآن يرد عليهم فيفحمهم في كل مرة، من ذلك قوله[6]: ((**أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً وهو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم**)). وقال[7]: ((**لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون**)).

وإذا كان الصراع الفكري قد وصل إلى هذا الحد، بل وزاد عليه، فمن الطبيعي إذن أن يُتَّهَمَ القرآن بأنه شعر، وأن يُتَّهَمَ الرسول بأنه شاعر، فهذه تهمة واحدة مما وُجِّهَ إليهما من تُهَمٍ. ومرد ذلك – فيما نظن – ناتج عن إعجابهم بالشعر أولاً، ولما رأوه في أسلوب القرآن المعجز وتحيرهم في أمره ثانياً. ومع هذا فلم يقطعوا بأن القرآن شعر، وبأن الرسول شاعر، ولو اعتقدوا ذلك لعارضوه، حيث كانوا يتفاخرون باللسن والذلاقة، والفصاحة والذرابة يتنافرون فيه[8]: روى صاحب السيرة[9]: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد علموا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا

---

1. التكوير/٢٢
2. القلم/٥١
3. الطور/٢٩
4. الحاقة/٤١ - ٤٢
5. الفرقان/٤ – ٥.
6. الأحقاف/٨
7. يونس/١٠.
8. الباقلاني/ إعجاز القرآن/٩٨
9. السيرة/ق١/٢٧٠

فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً، قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة[1] الكاهن ولا سَجْمِهِ، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنـــون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: نقول ساحر، قال: ما هـــو بساحر، لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم[2]، قالوا: نقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله - رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه – فما هو بالـــشعر. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق[3] وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأَن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فتفرقـــوا عنه بذلك.

وإذا مضينا نتتبع ما ورد في القرآن من ذكر لكلمة "شاعر وشعر" نجد أن القرآن قد وقف من الشعر والشعراء موقفين واضحين:

أولهما: تنزيه الرسول عن قول الشعر، ودفع مزاعم المشركين الذين زعموا أن القـــرآن شـــعر أو ضرب من الشعر، قال تعالى:[4] **((وما علمناه الشعر وما ينبغي له. إن هو إلا ذكر وقرآن مبين))**، وقـــال تعالى:[5] **((وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون))** وقال:[6] **((بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون. ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنـــون))**. وقـــال:[7] **((ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون. بل جاء بالحق وصدَّق المرسلين))**. وقال:[8] **((أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون. قل تربصوا فإني معكم من المتربصين))**.

---

[1] . الزمزمة: الكلام الخفي الذي لا يسمع.

[2] . إشارة إلى ما كان يفعل الساحر بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه. ومنه قوله تعالى: ((ومن شر النفاثات في العقـــد)) يعني: الساحرات.

[3] . النخلة: يشبهه بالنخلة التي ثبت أصلها وقوي وطاب فرعها إذا جني.

[4] .يس/٦٩.

[5] . الحاقة/٤١

[6] . الانبياء/ ٥ -٦

[7] . الصافات/ ٣٦ -٣٧.

[8] . الطور/ ٣٠ -٣١.

وقد نزَّه الله القرآن كذلك عن الشعر وغيره فقال:[1] **((ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين))**. وقال أيضاً:[2] **((وما هو بقول شيطان رجيم))**، ثم سما برسوله عن كل رفثٍ من القول وزور فقال:[3] **((وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى))**.

وثانيهما: التنديد بالشعراء الكفار والتعريض بهم وتحطيم شخصياتهم، قال:[4] **((والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون))**. وقد اجتمعت كلمة المفسرين[5] على أن المراد بهذه الآيات الكريمة هم أولئك النفر من الشعراء الذين وقفوا يدافعون عن الكفر والمعصية، ويؤذون الرسول – صلى الله عليه السلام - وينالون من المسلمين، ويقولون في الأغراض الباطلة التي يحاربها الإسلام كالهجاء والقدح في الأنساب ،ونهش الأعراض، وبعث الضغائن، وإشاعة الفساد، ثم لا يبالون بمجاوزة القصد في الهجاء والمدح، فَيُفرِطُونَ في المدح إذا أُعطوا، وفي الهجو والذم إذا مُنِعوا، فيعظمون الحقير، ويرفعون الوضيع، ويحطون من شأن العظيم.

أما شعراء المسلمين الذين علت أصواتهم للذود عن الإسلام والدفاع عن أفكاره ومثله والانتصار لأنفسهم وللمسلمين ممن هجاهم ونال منهم، فقد استثناهم الله تعالى بقوله:[6] **((إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون))**.

فالقرآن قد ذم الشعراء الغاوين ونفى الشعر عن النبي تكذيباً لما زعمه المشركون من أنه شاعر، وليؤكد أن القرآن ليس من ذلك الطراز الشعري الساحر الذي يؤثر في النفوس بوزنه وقافيته وبما فيه من تزيين وتخييل، وليدفع عن النبي مظنة اصطناعه، لأنه ليس بشاعر، فأبعد بذلك القرآن الكريم عن نطاق الشعر وأسباب تأثيره، كما أبعد الشعر أيضاً عن نطاق القرآن وأسباب إعجازه[7].

ثم وضع الخط العريض لنظرة الإسلام للشعر والشعراء ففرَّق بين شعراء المشركين وشعراء المسلمين، ومن هذا الخط العريض استمد الرسول موقفه ونظرته للشعر والشعراء.

---

[1]. الحاقة/٤٤ – ٤٦.

[2]. التكوير/٢٥.

[3]. النجم/ ٣ -٤.

[4]. الشعراء/ ٢٢٤ -٢٢٦.

[5] تفسير الطبري/ ١٩/٧٢ ، وتفسير القرطبي/١٣/١٢٥، وتفسير الخازن/٣/٣٧٣، وتفسير الرازي/٦/٤٣٢، وتفسير الكشاف/٣/١٣٠ وما بعدها، وتفسير البضاوي/٣/٤١٦..

[6]. الشعراء/٢٢٧.

[7]. محمد طاهر درويش/ حسان بن ثابت/٣٥.

فالقرآن إذن لم يحظر الشعر – كل الشعر – ولم يقف في سبيله، وكل ما فعله أنه نزَّه نفسه عن أن يكون شعراً ورفع الرسول عن أن يكون شاعراً، ثم فرَّق بين شعر وشعر، وبين شعراء وشعراء. قال الجاحظ[1]: ((**فإذا وجب أن الكلام غير محرم، فإن وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريماً لعلة من العلل، وإنَّ الترجيع له أيضاً لا يُخرج إلى حرام**))، وقال ابن رشيق:[2] ((**فلو أنَّ الشعر حرام ما اتخذ النبي شعراء يثيبهم على الشعر ويأمرهم بعمله ويسمعه منهم**))، ولكن القرآن يحرم ذلك النوع من الشعر الذي يخرج على مفاهيمه ويتعدى حدوده، ويتجاوز القصد في المديح والذم، وذلك الذي يدعو إلى إحياء العصبية وبعث الأحقاد، أما غيره من الشعر فهو يبيحه. ورغم ذلك كله فقد وجدنا من شعراء الرسول من تأثَّم من قوله. روي أن رسول الله قال لعبد الله بن رواحة:[3] ((**انزل فحرّك بنا الركاب**)) قال: يا رسول الله إني تركت ذلك)). وعندما أنزل الله في الشعر ما أنزل جاء حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم من شعراء المسلمين إلى النبي فقالوا: يا رسول الله، إن الله أنزل في الشعر ما أنزل فقال الرسول: ((**إنَّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنَّ ما ترمونهم به نضح النَّبل**)).

فالقرآن إذن قد أباح الشعر ولكنه بالرغم من ذلك قام بتوجيه الشعراء، فاتخذ منهم دعاة إلى الخير وعمل الصالحات، وحملهم على الجهاد في سبيل الله بالسيف واللسان، أما هؤلاء الشعراء فقد انتظموا من جانبهم في سلك النظام الإسلامي واستجابوا لمفاهيمه، ثم أخذوا يصدرون عنه في معانيهم وأفكارهم ما استطاعوا من سبيل.

أما بعد، فما الشعر إلا كلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح، وعلى هذا فإن تنزيه القرآن والرسول عن الشعر لا يحطُّ بحال من مكانته، ولا يقلل من شأنه وإنما يرفعه ويسمو به.

وحتى تكتمل ملامح الصورة عن موقف الإسلام من الشعر والشعراء يجدر بنا أن نمضي في البحث لنستطلع موقف الرسول وصحابته منهما.

---

[1]. رسائل الجاحظ/٢/١٦٠.

[2]. العمدة/١/١٢.

[3]. تفسير الخازن/٣/٣٧٣.

ب- الرسول والشعر

لقد حملت لنا الأخبار أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يستحسن الشعر ويستنشده ويثيب عليه، كما كان يحث الشعراء على قوله أحياناً، روى صاحب الأغاني[1]: ((أن رجلاً أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله ائْذَنْ لعليٍّ كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا – يعني شعراء المشركين – قال: ليس هناك أو ليس عنده ذلك. ثم قال للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم)) وحثَّ حسان بن ثابت على قول الشعر والردّ على شعراء المشركين، وأمره أن يذهب إلى أبي بكر الصدّيق ليحدثه حديث القوم وأيامهم وأحسابهم لتتوفر لديه مادة الهجاء.

وأخذ الرسول يصطنع الشعر لصالح دعوته، ويسخره لخدمة الإسلام، ويستغله لنشر الدين الجديد وتهديد المشركين والتشنيع عليهم، لأنه كان يرى أن هذا السلاح الأدبي أشد على أعداء الإسلام من وقع النَّبْل. من ذلك أنه بعث رجلاً من الأنصار مع الحارث ابن عوف المُرّي ليدعو قومه إلى الإسلام وكان الأنصاري في جوار الحارث، فوثب عليه رجل من بني ثعلبة فقتله، فلما بلغ ذلك رسول الله ندب حسان بن ثابت فقال له: ((قُلْ فيه)) فقال:[2]

يا حارِ من يغدر بذمة جاره ... منكم فإن محمداً لا يَغدرُ
وأمانة المُرّي ما اسْتودَعْته ... مثل الزجاجة صدعها لا يُجْبَرُ

فجعل الحارث يعتذر ويقول: أنا بالله وبك يا رسول الله من شرّ ابن الفريعة، فوالله لو مُزِجَ البحر بشعره لمزجه[3].

وعندما قدم وفد تميم إلى المدينة ليفاخروا الرسول ويناظروه، لم يكن حسان بن ثابت موجوداً، فأرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - في طلبه فلما حضر طلب إليه أن يجيب شاعر الوفد، فارتجل قصيدته التي مطلعها:[4]

إن الذوائب من فهرٍ وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

فكان ذلك سبباً في إسلامهم.

---

1. الأغاني/٤/٤
2. الاشتقاق/١/٢٨٨ – ٢٨٩ ، الاستيعاب/١/٢٩٧ ، أسد الغابة/١/٤٠٩.
3. أسد الغابة/١/٤١٠.
4. السيرة/ق٢/٥٦٤ ، الديوان/٣٠٤.

وبلغ من احتفال الرسول بالشعر وإعجابه به ،وحثه على قوله، أنه كان ينصب لحسان ابن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً، يفاخر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورسول الله يقول: إن الله يؤيد حسان بن ثابت بروح القدس ما نافح عن رسول الله[1].

وتعهد رسول الله شعراءه بالرعاية، وحرص على تنمية روح الشعر في نفوسهم، فكانوا يقولون الشعر في المشركين ويعرضونه عليه[2]، فيستحسنه ويشجعهم عليه. روي عنه أنه قال يوماً: ((أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى))[3].

ولم يكن الرسول – صلى الله عليه وسلم - يستنشد صحابته فحسب بل ربما استنشد إحدى أزواجه، فقد حدثت عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله كان كثيراً ما يقول لها ((أبياتك)) فتقول:

ارفع ضعيفك لا يَحِرْ بك ضعفه	يوماً فتدركه عواقب ما جنى
يجزيك أو يثني عليك وإنَّ مَنْ	أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فيقول: ((صدق يا عائشة، لا يشكر الله من لا يشكر الناس))[4].

وهكذا وضع الرسول القاعدة العامة لقول الشعر، ثم قام بالإرشاد والتوجيه، وظل يتعهده ويوجهه ويرقى به، حتى صار شعراؤه يصدرون عن روح المبدأ الإسلامي فيما يقولون من شعر، وما ينظمون من قصيد.

استماع الشعر:

وكما حث الرسول – صلى الله عليه وسلم - على قول الشعر وسخَّره لخدمة دعوته، كان يستنشده ويثيب عليه. روى أبو الفرج في الأغاني[5]: أن الرسول جلس في مجلس ليس فيه إلا خزرجي ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم يعني قوله:

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب	لعمرة وحشاً غير موقف راكب[1]

---

1. المبرد/ الكامل/٧٧٨ ، أسد الغابة/٢/٥ ، أبجد العلوم/٢٠٣.
2. الجرجاني/ دلائل الإعجاز/١٣
3. الأغاني/٤/٦
4. دلائل الإعجاز/١٦ ، الأغاني/٣/١١٧ ، العقد الفريد/٥/٢٧٥.
5. الأغاني/٢/١٦٢

فأنشده بعضهم إياها، فلما بلغ إلى قوله:

أجالدهم يوم الحديقة حاسراً   كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فالتفت إليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فقال: هل كان كما ذكر؟ فشهد له ثابت بن قيس بن شماس.

وكان إذا خرج في غزوة أو سفر يستنشد أصحابه ليستروح بسماع الشعر من وعثاء السفر، فقد كان ذات مرة في سفر، فسأل عن حسان بن ثابت ذات ليلة فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: احْدُ، فجعل ينشد والرسول – صلى الله عليه وسلم - يصغي إليه فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى كاد رأس الراحلة يمسُّ الوَرِك حتى فرغ من نشيده فقال النبي: ((لَهذا أشد عليهم من وَقْع النبل))[2].وروى عمرو بن الشريد عن أبيه[3] قال: ردفت وراء النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت نعم، قال: هيه. فأنشدته بيتاً، فقال: هيه .ثم أنشدته بيتاً، قال: هيه .حتى أنشدته مائة بيت. فقال: لقد كاد يُسْلم في شعره[4]، فلم يمنع كفره الرسول من استماع شعره واستنشاده وهو الذي قال فيه: ((آمن لسانه وكفر قلبه))[5].

وروى الترمذي عن جابر بن سمرةقال: جالست النبي أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسّم معهم[6].

وعندما قَدِمت الخنساء - شاعرة بني سُليم – المدينة على النبي في وفد من قومها،لتبايعه على الإسلام ،استنشدها فأنشدته فعجب من شعرها، واستزادها وهو يقول: هيه يا خناس ويومىء بيده[7].

---

[1] . كاطراد المذاهب: كتتابع المذاهب. وهي جلود كانت تذهب، واحدها مذهب.

[2] . الأغاني/٤/٦.

[3] . قال القرطبي: وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم: عن عمرو بن الشريد عن الشريد عن أبيه. وهو وهم، لأن الشريد هو الذي أردفه رسول الله . تفسيره/١٣/١٤٥.

[4] . تفسير الخازن/٣/٣٧٤ ، أبجد العلوم/٢٠٧ ، تفسير القرطبي/١٣/١٤٥ ، الاستيعاب/١/٢٩٧ ، المزهر/٢/٣٠٩.

[5] . ابجد العلوم/٢٠٧ ، الاشتقاق/١/٢٨٩ ، الإصابة/١/٣٤.

[6] . تفسير الخازن/٣/٣٧٤ ، أبجد العلوم/٢٠٣

[7] . الاستيعاب/٤/١٨٢٧ ، الخزانة/١/٢٠٨.

وكان إذا جلس بين أصحابه ربما سألهم عما يحفظون من الشعر، ومن ذلك أنه سأل العلاء بن الحضرمي يوماً: ((هل تروي من الشعر شيئاً؟ فأنشده[1]:

حَيَّ على الأضغان تَسْبِ عقولهم ... تحيتك الحسنى وقد يُرفَع التَّغَلْ
فإن دَحَسوا بالكُره فاعف تكرماً ... وإن خنسوا عنك الحديث فلا تَسَلْ
فإنَّ الذي يؤذيك منه سماعه ... وإنَّ الذي قالوا وراءك لم يُقَلْ

فقال النبي: إنَّ من الشعر لحكماً أو لحكمة))

وكما كان الشعر يطربه ويرضيه، فقد كان يُشجيه ويؤثر فيه أيّما تأثير، فربما يثير عاطفته ويبكيه أحياناً. يحدثنا القرطبي أنَّ رجلاً جاء يشكو أباه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، ويدَّعي أنه أخذ ماله، فقال له الرسول: ((فَأْتني بأبيك)) فلما مثَل الشيخ بين يدي رسول الله استأذنه أن ينشده أبياتاً قالها في ابنه فأذن له فقال:[2]

غذوتك مولوداً وعُلتكَ يافعاً ... تعلُّ بما أجني عليك و تنهلُ
إذا ليلة ضافَتْكَ بالسقم لم أبِتْ ... لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعينيَّ تَهْمُل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقتٌ مؤجَّل
فلما بلغتُ السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضّل
فليتك إذْ لم ترع حقَّ أبوَّتِي ... فعلتَ كما الجار المصاقب يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن ... عليَّ بمال دون مالك تبخل

فبكى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ثم أخذ بتلابيب ابنه وقال: ((أنت ومالك لأبيك))

وكان النبي – عليه السلام - يرفع من قدر الشعراء ويحترمهم، كما كان يجلُّهم ويقربهم، فهم لسان حال قومهم، وهم إذا قالوا في الإسلام شيئاً ،كان قولهم أبعد أثراً وأشد تأثيراً من السيف. روى ابن إسحاق أن قُرَّة بن هبيرة القشيري وفد على النبي – عليه السلام – فبايعه وأسلم، فحباه وكساه بردين وحمله على فرسه واستعمله على قومه[3].

---

[1] . العمدة/١/١٧٠ ، جمهرة أشعار العرب/٣٥ ، معجم الشعراء /٢٩٦.
[2] . تفسير القرطبي/١٠/٢٤٥ ، القلوجي/ أبجد العلوم/٢٠٤.
[3] . جمهرة أبي زيد القرشي/٣٤.

وقد حرص الرسول الكريم على أن يتجه الشعر نحو تمثل الأفكار الإسلامية ونشر الدعوة، وسعى في أن يجنّب الشعراء الشطحات المحظورة كالدعوة إلى العصبية الجاهلية التي لفظها الإسلام، وأبعدهم عن الضلال والعبث والمجون، وارتفع بهم عن الإسفاف والرفث من القول، فإذا ما رأى أن الشاعر قد اتَّجَهَ بشعره إلى إحياء ما دفن من نعرات الجاهلية ،قام بتوجيهه وإقالة عثرته، من ذلك أن النابغة الجعدي وقف يمدح الرسول الكريم فلما بلغ قوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فرأى في قوله هذا نزوعاً إلى مآثر الجاهلية ومفاخرها فقال له: ((إلى أين يا أبا ليلى))، وكان النابغة قد أحسَّ الكراهة من نبرة نبيه، فتدارك أمره فقال: إلى الجنة بك يا رسول الله، فعجب النبي من جوابه الذي ظهر تأثير الإسلام فيه واضحاً، فقال له داعياً: ((إلى الجنة إن شاء الله)).[1]

وكثيراً ما كان رسول الله يستنشد الشعراء ما قالوا في المناسبات الإسلامية، وكأنه يريد للشعر أن يستقي من روح الإسلام، ويريد للشعراء أن يصدروا عن مفاهيمه، ويسجلوا أحداثه. قال يوماً لحسان بن ثابت: ((هل قلت في أبي بكر شيئاً؟)) فقال: نعم، قال: ((قُلْ وأنا أسمع)) فقال:[2]

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد   طاف العدو به إذ صَعَّدَ الجبلا

وكان حِبَّ رسول الله –قد علموا -   من البرية لم يعدل به رجلا

فضحك رسول الله حتى نَدَتْ نواجِذُه، ثم قال: ((صدقت يا حسان هو كما قلت)).

وإذا شاعت المعاني الإسلامية في شعر أبدى إعجابه به، وحمل المسلمين على سماعه، فعندما أنشده كعب بن زهير قصيدته اللامية المشهورة وأشار فيها إلى حادث الهجرة، أشار رسول الله إلى الخلق: أنِ اسمعوا شعر كعب[3].

وكان الرسول يحب أن يعيش المسلمون في جوٍّ إيماني دائماً وبخاصة إذا ما خرجوا إلى الغزو. وكان في الشعر طاقة هائلة لتوفير ذلك، روى سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبي إلى خيبر، فقال لعامر بن الأكوع: ((انزل يا ابن الأكوع فخذ لنا من هَنَاتِكَ)) فارتجز يقول:[4]

والله لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

---

1. رسائل الجاحظ/١/٣٦٣ ، ودلائل الإعجاز/١٨ ، والعمدة/١/٢٨ ، وأبجد العلوم/٢٠٣.
2. طبقات ابن سعد/٣/١٧٤ ، والاستيعاب/٣/٩٦٤ ، وجمهرة أشعار العرب/٣١.
3. طبقات فحول الشعراء/٣٣ ، ونقد النثر/٦٧.
4. البخاري/٥/١٦٦ ، صحيح مسلم/٥/١٨٦ ، أبجد العلوم/٢١٠ ، وأسد الغابة /٣/١٢٥.

إنّا إذا قـــومٌ بغوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبينـــا
فأَنْزِلَـــنْ سكينةً علينا وثَبّت الأقدام إنْ لاقينا

فقال رسول الله: رحمك الله. فقال عمر بن الخطاب: وجبت والله، لولا متّعتنابه.

ومن هنا كان الرسول – صلى الله عليه وسلم - كثيراً ما يستنشد شعر أمية بن أبي الـــصلت ويعجب بهذا الشعر، لأنه يصوّر الآخرة ويذكر الجنة والنار وغيرها من أمور الآخرة، الـــتي تَـــشُدُّ الإنسان إلى استشعار الخوف من الله، وترغّبه في الطاعة والانقياد، ولذلك كان يقول فيه:[1] ((آمن لسانه وكفر قلبه)).

نقد الشعر:

وفي هذا ما يدل على بصر الرسول – صلى الله عليه وسلم - بالشعر وعلمه بروايته، فكان إذا أُنشِد قصيدة وشكَّ في بعضها سأل أصحابه عن صحيحها، وحملهم على إعادة قراءتها عليه، فيقـــرُّ الصحيح منها ويدفع ما كان باطلاً، من ذلك ما رواه السيوطي في المزهر أن أبـــا وداعـــة قـــال: ((رأيت رسول الله وأبا بكر عند باب بني شيبة فمرَّ بهما رجل وهو ينشد:[2]

يا أيها الرجـــل المحوّل رحله ألا نزلت بآل عبد الـــدار
هَبَلَتْكَ أُمُّك لو نزلت برحلهم منعوك من عُدمٍ ومن إقتار

فالتفت رسول الله إلى صاحبه فقال: ((أهكذا قال الشاعر؟)) قال: لا والذي بعثك بالحق، لكنـــه قال:

يا أيها الرجـــل المحوّل رحله ألا نزلـــت بآل عبد مناف
هَبَلَتْكَ أُمُّك لو نزلت برحلهم منعوك من عُدمٍ ومـــن إقراف
الخالطين فقـــيرهم بغنيّهم حتى يعود فقيرهم كالكـــافي
ويكللون جفانهم بسديفهم حتى تغيب الشمس في الرجاف[3]

فتبسم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - وقال: ((هكذا سمعت الرواة ينشدونه)).

وبلغ من احتفال الرسول الكريم بالشعر أنه كان يُنْشَدُ في بيته وتتناظر به نـــساؤه، فـــإذا مـــا اختلفن في شيء منه بادر إلى إرشادهن. روي أن سودة أم المؤمنين أنشدت[1]:

---

[1] . الإصابة/١/١٣٤، وأبجد العلوم/٢٠٧.

[2] . المزهر/٢/٣٣٥.

[3] .السديف: شحم السنام ، الرجاف: البحر.

عَديٌّ وتيم تبتغي مَنْ تُحَالِف

فظنت عائشة وحفصة أنها تُعَرّض بهما، وجرى بينهن كلام في هذا المعنى، فأُخْبِرَ النبي، فدخل عليهن فقال: يا ويلكنَّ: ليس في عديّكنَّ ولا تيمكنَّ قيل هذا، وإنما قيل في عدي تميم وتيم تميم)).

وروى أبو هريرة أنه سمع رسول الله على المنبر يقول[2]: أصدق كلمة أو أشعر كلمة قالتها العرب قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وعندما اتاه كعب بن زهير عائذاً تائباً مبايعاً على الطاعة ،أنشده قصيدته المشهورة فلما قال:[3]

إن الرسول لنور يستضاء به مهنَّدٌ من سيوف الهند مسلول

أصلح له شعره فجعل ((سيوف الله)) بدلاً من ((سيوف الهند))

واستحسان الرسول للشعر لم يكن لقائله، وإنما كان لذاته، فكان يقول[4]: ((حَسَنُ الشعر كَحَسَن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام))، وكثيراً ما كان يسمع أشعار الجاهليين ويبدي إعجابه بما تستهدف من معانٍ هادفةٍ، وما تحتضن من حكمة بالغة. روي عن الحسن البصري أنه قال[5]، قال رسول الله: ((كلمة نبي أُلقِيَتْ على لسان شاعر: إن القرين بالمقارن مقتدي)) وذلك عند سماعه شعراً لعدي بن زيد العبادي هو:

عن المرء لا تسأل وأَبْصِر قرينه فإنَّ القرين بالمقارن مقتدي

النهي عن قول الشعر

ومع احتفال الرسول بالشعر، فإنه قد حدَّدَ موقفه منه بقوله:[6] ((إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه)). وعلى هذا، فالشعر عند رسول الله نوعان:

---

1. دلائل الإعجاز/١٧.
2. صحيح البخاري/٥/٥٣ ، والقرطبي/١٣/١٤٨ ، وصحيح مسلم/٧/٤٩.
3. القلوجي/ أبجد العلوم/٢١١.
4. تفسير القرطبي/١٣/١٥٠.
5. المرزباني/ معجم الشعراء/٢٥٠.
6. العمدة/١/٩.

- نوع يوافق الحق ويلتزم النهج القويم فينأى عن الإسفاف والعبث، ويهجر السب والشتم والنيل من الأعراض، ويتمثل الأفكار الإسلامية، فهذا لا ريب فيه ولا غبار عليه، وهو لذلك يسمعه ويستنشده، بل ومنه ما يثير عواطفه فيبكيه.
- ونوع لا يوافق الحق لما فيه من إفراط في المدح أو الهجاء أو إيذاء الناس في أموالهم وأعراضهم، ومثل هذا الشعر ربما أثار حفيظته.

روي عن أبي سعيد الخُدري قال:[1] بينما كنا نسير مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم - إذ عرض شاعر ينشد، فقال رسول الله: ((خذوا الشيطان – أو أمسكوا الشيطان)). ونظن أن هذا النوع من الشعر هو الذي عناه رسول الله بقوله[2]: ((لأن يمتليء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتليء شعراً)) وبقوله[3]: ((من قال في الإسلام هجاء مقذعاً فلسانه هَدَرٌ)).

فالرسول إذن قد منع الشعر الذي فيه هجاء مقذع وصرف عن الدين، فهذا النوع من الشعر يحول بين المسلم وتلاوة القرآن الكريم، ويؤدي به إلى التقصير، بل وربما يحمله على المعصية.

والهجاء قذف وافتراء وسخرية وكشف للمعايب وقد جاء القرآن بتحريم ذلك بقوله: ((لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب...)). وما الحديث الشريف سوى تفصيل لما جاء في القرآن الكريم مجملاً.

ولذلك نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الشعر الذي فيه هجاء وسبٌّ للإسلام والمسلمين، ونهى عن المِراء والتزيُّد والتكلف وعن كل ما يضارع الرياء والسمعة، وعن التهاتر والتشاغب، وعن المماتنة والمغالبة، ولكنه لم ينه عن نفس البيان[4]، ومن هنا نراه يقول لشعراء المسلمين حسان وكعب وعبد الله[5]: ((انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً، ولا تذكروا الآباء والأمهات)).

---

1 . تفسير القرطبي/١٣/١٥٠ ، وصحيح مسلم/٧/٥٠.

2 . صحيح البخاري/٨/٤٥ ، القرطبي/١٣/١٥٠.

3 . العمدة/٢/١٧٠.

4 . البيان والتبيين/١/٢٧٣.

5 . تفسير القرطبي/١٣/١٥٣.

فليس غريباً إذن أن نجد الرسول يهدر دماء كثير من الشعراء في عصره، لأنهم نالوا منه ومن صحابته ومن دعوته، وأخبار أبي سفيان بن الحارث، وعبد الله بن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وكعب بن زهير وغيرهم ليست عنا ببعيدة.

على أننا وجدنا أن الشعر الذي نهى عنه الرسول كان قليلاً ومحدداً وهو نهيٌ ينسحب على مُضَمَّناته، ولا ينسحب على ذاته، وهو في رأينا نهيٌ إيجابي يحمل الشعراء على تهذيب هذا الفن وتثقيفه واصطناعه في وجوه الحكمة، وتوجيهه إلى سبيل الخير. وينأى به عن مخالفة ما رسم الإسلام من إطار دقيق للسلوك الإنساني.

ومن ضروب الشعر المنهي عنه مرثية أمية بن أبي الصلت لقتلى أهل بدر التي مطلعها[1]:

ماذا ببدرٍ العَقَنْقَلِ من مرازبةٍ جَحَاجِح

وقد عزا المفسرون سبب هذا النهي إلى أن الشاعر نال فيها من الإسلام ومن رسول الله وأصحابه، غير أن الجاحظ – الفقيه المعتزلي – ذهب إلى زوال النهي عن روايتها بعد زوال عِلَّةِ منعها.[2]

ومنه أيضاً ما روي عن محمد بن مسلمة من أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - قال لحسان بن ثابت يوماً:[3] ((يا حسان أنشدنا من شعر الجاهلية ما عفا الله لنا منه. فأنشده قصيدة الأعشى في علقمة بن علاثة التي أولها:

علقمُ ما أنت إلى عامر الناقضِ الأوتارَ والواترِ

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: يا حسان، لا تنشد مثل هذا بعد اليوم. فقال حسان: يا رسول الله، ما يمنعني من رجل مشرك هو عند قيصر أذكر هجاء له؟ فقال: يا حسان، إني ذُكرت عند قيصر وعنده أبو سفيان بن حرب وعلقمة بن علاثة، فاما أبو سفيان فلم يشكر فيّ، وأما علقمة فحسَّن القول، وإنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس. فقال حسان: يا رسول الله، من نالتك يده وجب علينا شكره)).

وشبيه بهذا ما رواه وكيع عن الزهري قال:[1] ((رخَّص رسول الله في الأشعار كلها إلا هاتين الكلمتين التي قالها أمية بن أبي الصلت، والتي قالها الأعشى في علقمة بن علاثة)).

---

[1] . الأغاني/٣/١٨٧ ، الخزانة/٣/٤٣ ، البيان والتبيين /١/٢٩١.

[2] . البيان والتبيين/١/٢٩١.

[3] . خزانة الأدب/٢/٤٣ ، والجرجاني/ دلائل الإعجاز/١٦.

وعلى الرغم من هذا الموقف المتشدد الذي وقفه الرسول من الهجاء إلا أنه كان يعفو في بعض الأحيان، روى المرزباني في معجم الشعراء أنّ عياض بن خويلد الأسدي هجا بني لحيان، فأتت تشكوه في حجة الوداع فقالوا:[2] ((يا رسول الله هُجينا في الإسلام، وزُعِم أنَّ شرَّ مرحل أن نأتيك))، فأعطاهم رسول الله لسانه، فتكلم فيه رجال من قريش، فوهبه لهم.

أما قوله في امريء القيس:[3] ((ذلك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها، منسيٌّ في الآخرة خامل فيها، يأتي يوم القيامة معه لواء الشعر إلى النار)). فهو حكمٌ على شاعر برأسه دون غيره من الشعراء، ولعل مردَّ ذلك أنَّ امرأ القيس هذا كان يتعهَّر بشعره، ويتخذ منه وسيلة للعبث والمجون واللهو، ويستغله لإثارة الضغائن والأحقاد، وهو مع ذلك لم ينه عن رواية شعره. ودليلنا على تخصيص هذا الحكم بامريء القيس ما قاله رسول الله في عنترة[4]: ((ما وُصِف لي أعرابي قط فأحببتُ أن أراه إلا عنترة)) وذلك لعفافه وإيثاره عندما قال:

ولقد أبِيتُ على الطَّوى وأظَلُّه   حتى أنال به كريم المأكل

وموقف الإباحة الذي وقفه الرسول – صلى الله عليه وسلم - من الشعر أحيا روايته فيما بعد، ولو نهى عنه لما وُجِدَ في الرواة من يجعل وَكْدَهُ حمل الشعر وروايته وتفسيره واستخراج الشاهد منه، ومن أوضح الشواهد على ذلك قوله في أمر الجاهلية[5]: ((إنَّ الله قد وضع عنّا آثامها في شعرها وروايته)).

واستمد الصحابة نظرتهم للشعر مما جاء في كتاب الله، ومما عرفوه من سيرة الرسول وبخاصةٍ في عصر الخلفاء الراشدين، فعمر نهى عن إنشاد الشعر الذي قيل في مناقضة الأنصار ومشركي قريش. وتوعَّد الحطيئة بقطع لسانه إن هو عاد إلى الهجاء، وزار ضابيءُ البرجمي السجن في عهد عثمان نتيجة هذا الهجاء، ولكنهم لم يمنعوا قول الشعر، ولم يمنعوا روايته كذلك. وقد طالعتنا بعض المصادر القديمة أن بعض هؤلاء الصحابة كان يقول الشعر، قال صاحب العمدة[6]: ((وقد قال

---

1 . خزانة الأدب/٢/٤٣.

2 . معجم الشعراء/٢٦٨.

3 . قدامة بن جعفر/ نقد النثر/٦٧ ، والعمدة/١/٥٩ ، ومسند أحمد بن حنبل/١٢/١٩٦ ، والشعر والشعراء/١/١٢٦.

4 . الأغاني/٨/٢٤٣.

5 . الرافعي/ إعجاز القرآن/٣٣٠.

6 . العمدة/١/١٣.

الشعر كثير من الخلفاء الراشدين والجلة من الصحابة والتابعين والفقهاء المشهورين)) قاله أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي، وقاله غيرهم من صحابة رسول الله[١] - صلى الله عليه وسلم - فلو كان الشعر حراماً لما قاله أحد من هؤلاء أو حتى رضي سماعه.

الرسول وإنشاد الشعر:

لقد كان رسول الله أفصح العرب، فهو العربي الذي جمعت له أسباب البلاغة، وأوتي من دقة البيان منزلة رفيعة، فكلامه يأتي في المنزلة التالية لكلام الله عز وجل، ولكنه مع ذلك لم يوهب طبيعة شعرية، فلم يكن يحسن إنشاد بيت واحد من الشعر تام على وزنه، وإنما كان يحسن إنشاد صدر بيت أو عجزه فحسب، فإن أنشد البيت كاملاً كسره ولم يتهدَّ إلى إقامة وزنه، وكان يُحرزُ المعنى فقط، والحق أن ذلك لم يكن مفتعلاً منه، بل إن الله تعالى قد صرفه عن ذلك لنفي الظِّنَّةِ عنه.[٢]

روي عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت[٣]: كان رسول الله يتمثَّل من الشعر ببيت أخي بني قيس طرفة العبدي فيقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً   ويأتيك من لم تزود بالأخبار

فقال أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله، فقال: ((إني لست شاعراً ولا ينبغي لي)).

وأنشد يوماً – وقد قيل له - : من أشعر الناس؟ فقال: ((الذي يقول:[٤]

ألم ترياني كلما جئت طارقاً   وجدتُ بها – وإن لم تَطَيَّب - طيبا

ورواية البيت:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً   وجدت بها طيباً وإن لم تطيب[١]

---

1 . نفسه/١٣ – ١٩.

2 . روي أن المامون قال لأبي علي المعروف بأبي يعلى المنقري: بلغني أنك أميٌّ وانك لا تقيم الشعر وأنك تلحن في كلامك، فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه، وأما الأمية وكسر الشعر، فقد كان النبي أمياً – عليه السلام - وكان لا ينشد الشعر، فقال المأمون: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعاً وهو الجهل، يا جاهل إن ذلك كان للنبي – صلى الله عليه وسلم – فضيلة، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة، وإنما منع النبي – صلى الله عليه وسلم – لنفي الظنة عنه، لا لعيب في الشعر والكتابة)) تفسير القرطبي/١٥/٥٤.

3 . طبقات ابن سعد/١/٣٨٣ ، وتفسير القرطبي/١٥/٥١ ، والبكري/ أراجيز العرب/٣ ، وتفسير الرازي/٣/١١.

4 . تفسير القرطبي/١٥/٥١.

وجاء العباس بن مرداس السُّلمي يوماً فقال له: ((أنت القائل: فأصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة؟)) فقال أبو بكر: أشهد أنك كما قال الله: ((وما علمناه الشعر وما ينبغي لــه))، وروايــة البيت: فأصبح نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع.

وكان أحياناً ينشد صدر البيت ويسكت عن سائره، وقد ينشد عجز البيت دون صدره. مــن ذلك ما روي عن الحسن بن أبي الحسن أن رسول الله كان يتمثل بهذا البيت:[٢]

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا

فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنما قال الشاعر:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

ورسول الله ينشده كما فعل من قبل، فقال أبو بكر: أشهد أنك رســول الله – صــلى الله عليــه وسلم -، ما علمك الشعر وما ينبغي لك.

وقد عمل الرسول الكريم بيديه في بناء مسجده بالمدينة، والمسلمون يعملون معه وهم يقولون:[٣]

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

فيقول رسول الله: ((اللهم ارحم المهاجرين والأنصار)).

وكان حين يريد الاستماع إلى بيت أو أبيات يبدأ بالكلمة الأولى لِيُتِمَّ الشاعر ما يريد. روي أن عبد الله بن رواحة استأذنه في هجاء أبي سفيان بن الحارث والدفاع عن أعراض المسلمين، فقال له: ((أأنت الذي يقول: فثبَّت الله))؟ ولم يتم البيت، فأنشده إياه عبد الله.

ولما وثب كعب بن مالك مستأذناً بهجاء أبي سفيان بن الحارث وقريش قال له: ((أأنت الــذي تقول: ((همَّت))؟ فقال: نعم، ثم أنشد البيت[٤].

وربما أشار إلى أبي بكر أو إلى غيره من أصحابه لينشد قول شاعر معين دون أن يذكر شيئاً من هذا الشعر فقد سأل كعب بن زهير عندما مثل بين يديه:[٥] ((أنت الذي تقول))؟ والتفــت إلى أبي بكر الصديق يسأله: ((كيف قال يا أبا بكر))؟ فأنشده أبو بكر شعراً لكعب حتى إذا بلغ قوله:

---

1 . تفسير القرطبي/١٥/٥٢ ، والبكري/ أراجيز العرب/٣ ، والرافعي/ إعجاز القرآن،٣٢٣.

2 . طبقات ابن سعد/١/٣٨٣.

3 . الاستيعاب/١/٣٣٥ ، والرافعي/ إعجاز القرآن/٣٢٣.

4 . الجبوري/ الإسلام والشعر/٤٧.

5 . البرقوقي/ ديوان حسان بن ثابت/٥٠.

سقاك أبو بكرٍ بكأسٍ رويّةٍ فأنْهلَكَ المأمون منها وعَلَّكا

قال رسول الله: ((مأمونٌ والله)).

وذهب بعض العلماء إلى أنه ربما أنشد البيت المستقيم في النادر، فقد روى القرطبي[1] أنه أنشد بيت عبد الله بن رواحة:

يبيتُ يجافي جنبه عن فراشه إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمشركين المضاجعُ

وأورد المقريزي أنه قال في حفر الخندق وهو يحمل التراب في المكاتل والقوم يرتجزون[2]:

هذا الحِمالُ لا حمال خيبر هذا أبرُّ ربَّنا وأطهر

وذهب الرافعي في إعجاز القرآن أن النبي – عليه السلام - لم يكن يتمثّل بأكثر من البيت الواحد من الرجز كبيت أمية[3]:

إن تغفر اللهم تغفر جمّاً وأيُّ عبد لك لا ألَمَّا

ونرجح بطلان هذه الروايات لكونها جاءت مرسلة، ومن غير دليل يسندها. ونظن أنها من وضـــع الرواة والنساخ ،أو نتيجة سهوٍ منهم في التحقق من نسبتها، وقد ردَّ الأستاذ محمود شاكر روايـــة المقريزي، وزعم أنها غير موجودة فيما توفر لديه من أصول الكتب[4].وأما ما ذهب إليه القرطبي بأن الرسول – صلى الله عليه وسلم - ربما أنشد البيت المستقيم في النادر، فهو يتناقض تناقضاً تاماً مع قوله:[5] ((وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم – متمثلاُ – كسر وزنه. وإنما كان يحرز المعنى فقط)).

وأما قول الرافعي بأن النبي – عليه السلام - لم يكن يتمثل بأكثر من البيت الواحد من الرجز فهو يخالف معنى قوله[6]: ((كان الرسول لا يتهدَّى إلى إقامة الوزن إذا هو تمثل بيتاً من الشعر بـــل كان يكسره ويتمثل البيت مكسوراً ،وذلك لا يعرض لأحد من الناس في كل حالاته عربياً، كـــان أو أعجمياً ،فقد يُتَعْتِعُ المرء في بيت من الشعر ينساه أو ينسى الكلمة منه ،فلا يقيم وزنه لهذه العلة ولكنه يمرُّ في أبيات كثيرة مما يحفظه ويُحسِن قراءته))

---

1 . القرطبي/١٥/٥٢.

2 . إمتاع الأسماع/١/٢٢٠ ، مجاز القرآن/١/٢٠.

3 . إعجاز القرآن/٣٢٥.

4 . قال المحقق محمود شاكر: ((هذا كلام لم أجده فيما بين يديّ من أصول الكتب، ولا أدري ما هـــو)) الحاشـــية/ إمتاع الأسماع/١/٢٢٠.

5 . تفسير القرطبي/١٥/٥٥.

6 . إعجاز القرآن/٣٢٤.

وعلى هذا، نرى النبي – عليه السلام – لم يكن يحسن الإنشاد صحيحاً، وإنما كان يكسر البيت في كل حالاته، وهو كما قال هو نفسه لأبي بكر:[1] ((إني لست شاعراً ولا ينبغي لي)).

الرسول وقول الشعر:

وإذا كان الرسول الكريم لا يُحسن إقامة الوزن إذا أنشد، فحريٌّ به ألاّ يُحسن إقامة هذا الوزن إذا نظم. وعلاوة على ذلك، فقد عُرِف الشعراء – منذ عُرِف الشعر – بالكذب والتهويل والغلوّ، فإذا مدحوا جاوزوا الحقَّ، وإذا خاصموا هجوا باللاذع المقذع من القول، وتناولوا أعراض الناس وحرماتهم، وذلك – أو حتى بعض ذلك – لا يليق بنبي يقول الله فيه: ((**وإنك لعلى خلق عظيم**)).

وأما ما نسب إلى الرسول - عليه السلام - من قوله مرتجزاً يوم أحد:[2]

ما أنتِ إلا إصبعٌ دميتِ ... وفي سبيل الله ما لقيتِ

وقوله مرتجزاً في يوم حنين:[3]

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

فإنّا نردهما لعدة أسباب:

أولها: ما أجمع عليه علماء اللغة من أنَّ البيت الواحد من الرجز ليس بشعر، قال الخليل في كتاب العين: ((إن ما جاء من السجع على جزأين لا يكون شعراً))، وقال الأخفش: ((إنَّ قوله – عليه السلام - : أنا النبي لا كذب.. ليس بشعر[4]، وقال أنيس أخو أبي ذرّ : ((لقد وضعت قوله – عليه السلام – على أقراء الشعر – أنواعه وطرقه وبحوره ومقاصده – فلم يلتئم أنه شعر))[5].

ثانيها: ما أجمع عليه علماء اللغة أيضاً من أنَّ كل مَنْ قال قولاً موزوناً لا يقصد به إلى شعر، فليس بشعر وإنما وافق الشعر، وأنَّ الذي نفاه الله عن نبيّه هو العلم بالشعر وأصنافه وأعاريضه وقوافيه والاتِّصَافُ بقوله، ولم يكن موصوفاً بذلك بالاتفاق[6]. وقد وردت في القرآن الكريم آيات على وزن

---

[1] . طبقات ابن سعد ٣٨٣/١/، وتفسير القرطبي/١٥/٥١.
[2] . صحيح مسلم/٥/١٨٢، والعمدة/١/١٢٣.
[3] . صحيح مسلم/٥/١٦٨.
[4] . تفسير القرطبي/١٥/٥٢.
[5] . تفسير القرطبي/١٥/٥٣.
[6] . نفسه/٥٥ ، والعمدة/١/١٢٣.

الشعر كقولــه: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وقولــه: ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾ إلى غيرها من الآيات[1].

وثالثها: ما ذمَّ الله به الشعر – كما أسلفنا – بقولــه: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ ثم قــال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾.

ورسول الله وإن كان أفضل المؤمنين إيماناً، وأكثر الصالحين عملاً للصالحات، فلم يكن ينبغي له الشعر بحالٍ، لأن للشعر شرائط لا يسمى الإنسان بغيرها شاعراً، وذلك أن إنساناً لو أنشأ كلامــاً مستقيماً موزوناً يتحرى فيه الصدق من غير أن يفرط أو يتعدى أو يمين، أو يأتي بأشــياء لا يمكــن كَوْنُها بتَّة لما سماه الناس شاعراً، ولكان ما يقوله مخسولاً ساقطاً[2]، كما أن الشاعر بين مادحٍ ضارعٍ وهاجٍ ذي قذعٍ، وهذه أوصاف لا تصلح لنبي[3].

ورابعها: أن الرسول الكريم كان لا يحسن إقامة الوزن إذا أنشد، وعلى هذا، فعجزه عــن نظــم الشعر أولى، قال الخليل: ((كان الشعر أحبَّ إلى رسول الله من كثير من الكلام ولكنــه لا يتــأتَّى له))[4]. ولا نكاد نجد عربياً أو أعجمياً يكسر بيت الشعر في كل حالاته، فما وزن الشعر إلا نَــسَقُ ألفاظه، فمن أدَّاها على وجهها فقد أقامه على وجهه، ومن قرأ صحيحاً فقد أنشد صحيحاً، وهذا خلاف المأثور عن الرسول الكريم مع أنه من أفصح العرب[5].

وخامسها: أن يكون البيتان قد وُضِعا على الرسول الكريم كما وُضِع عليــه الحــديث، ويــشير الرسول نفسه إلى ذلك بقوله: ((**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**)).

وقد يكون ذلك من خطأ الرواة والنُّسَّاخ، يدلُّ على ذلك أنَّ البيت: ((مــا أنــتِ إلا إصــبعٌ دميتِ..)) ينسب إلى الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي أيضاً، فقد ذكروا أنه قاله عندما جُرحت إصبعه في أثناء هجرته إلى مدينة الرسول[6].

---

1. تفسير القرطبي/١٥/٥٤.
2. مخسولاً: ساقطاً.
3. المزهر في علوم اللغة/٢/٤٦٩ – ٤٧٠.
4. تفسير القرطبي/١٥/٥٢.
5. الرافعي/ إعجاز القرآن/٣٢٤.
6. السيرة/ق١/٤٧٦.

وسادسها: أن الرسول الكريم لم يكن يحسن قول الشعر – حتى ولو حاول - ، فإنَّ الله قد صـــرفه عن قول الشعر تنزيهاً لكتابه العزيز، ورفعاً لشأن رسوله الكريم، قال تعــالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قال بعض المفسرين[1] في شرح هذه الآية: إن الرسول – صلى الله عليه وسلم - حـــين تحـــدى العرب بالقرآن فأعجزهم وهم أهل الفصاحة واللَّسن زعموا أنه شاعر، وأنّ القرآن مـــن قبيـــل الشعر، وأن إعجازه قد جاء من هذه الناحية ،مع أن القرآن واضح المباينة للشعر لفظـــاً ومعـــنىً، لخلوّه من الوزن والتقفية، ومغايرته لنظم الشعر وأسلوبه وبعده من الكذب والتخييـــل وتزويـــر القول. أما الشعر فأعذبه أكذبه على ما قالوا، وكيف يكون القرآن شعراً وما محمد بشاعر؟ فمـــا علَّمه الله الشعر وما ينبغي له، ولا يليق بجليل شأنه وعالي قدره أن يكون من الـــشعراء مـــدَّاحاً أو هجَّاء أو خائضاً فيما يخوضون فيه، أو مقيداً من قيود الشعر بما قد يجرُّ نقصاً في المعنى. وفي هذا نفيٌ للشعر عن النبي، وتنزيه للقرآن تبعاً لذلك عن أن يكونه، فما هو إلاّ حِكَمٌ وعقائد وشرائع وهدىً وموعظة حسنة وذكر للعالمين، وقرآن من لدن رب العالمين. وليس في نفي الشعر عن النبي – عليه السلام - غضٌّ من قدر الشعر، فقد وصفه القرآن بالأمية، ولو صحَّ أن كونه غير شاعر قَـــدْحٌ في الشعر، لكانت أميته قدحاً في الكتابة وما يقول بهذا أحد.

وقد أشار الرسول إلى حاله من الشعر بقوله:[2] ((لما نشَأْتُ بُغّضَتْ إليَّ الأوثـــان، وبُغّـــض إليَّ الشعر – يعني: قوله – ولم أهِمَّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منـــهما ثم لم أعد)).

وبهذا نرى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم - لا يُحسِنُ قول الشعر ولا حتى إنشاده، ولعل الله قد أراد ذلك، لتكون حجة الرسول أقوى، إذ لا يوجد لدينا دليل واحد على أنه كان يتعمـــد ذلك تعمداً، إذن فالمسألة خارجة على إرادته وقدرته.

وبعد هذا العرض المستفيض لموقف الرسول من الشعر والشعراء نقف وقفة طائر على موقـــف الصحابة منهما لنستوفي حلقات السلسلة في كشف موقف الإسلام من الشعر والشعراء.

---

[1] . الكشاف /٣/٢٩٢ ، تفسير الرازي /٧/١١٠ ، تفسير الخازن /٤/٨ .

[2] . الرافعي/ إعجاز القرآن/٣٢٩.

ج- الصحابة والشعر:

روي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة فقيل له: ما أرواك يا أبا عبد الله قال: وما روايتي من رواية عائشة؟ ما كان يترل بها شيءٌ إلا أنشدت فيه شعراً[1]، ويقال إنها كانت تروي جميع شعر لبيد[2].

وروي عن سعيد بن المسيب قال[3]: ((كان أبو بكر وعمر وعلي يجيدون الشعر، وعليٌّ أشعر الثلاثة))، وقال المفضل الضبّي[4]: ((لم يبق أحد من أصحاب الرسول الكريم إلاّ وقد قال الشعر أو تمثَّل به)).

وقد حملت إلينا السيرة[5] والعمدة[6] والجمهرة[7] وأنساب الأشراف[8] وغيرها[9] شعراً لبعض الصحابة. ولم يقف بعض الصحابة وغيرهم من التابعين عند قول الشعر فحسب، وإنما كانوا ينشدونه ويتمثلون به. وكان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر – وقد روي عنه أنه قال: ((**علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً ورووُّهم ما يجمل من الشعر**))[10]. وقال[11]: ((**أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها بين يدي حاجته يستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم**)) وكان يسمع البيت فيعجبه فيكرره مرات.

وكان عمر شديد التأثر بالشعر، من ذلك أنه لما صلّى أبو بكر الصديق، قام متمّم بن نويرة بحذائه واتكأ على سِيَةِ قوسه، ثم قال يرثي أخاه:[12]

---

1. الاستيعاب/٤/١٨٨٣.
2. العمدة/١/١١.
3. صبح الأعشى/١/٢٧٢.
4. جمهرة أشعار العرب/٣٧.
5. السيرة/ق١/٣٤٨ /٥٩٢.
6. العمدة/١/١٢ -١٤.
7. جمهرة أشعار العرب/٣٧
8. البلاذري/١/ ١٩٣ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣.
9. الروض الآنف/٢/٧، ٨٤ ، ١٩١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠.
10. المبرد/ الكامل/١٥٠.
11. صحيح البخاري/٤/١٣٦ ، صحيح مسلم /٧/١٦٢.
12. المبرد/ الكامل/ ٧٦١ – ٧٦٢.

نِعْمَ القتيل إذا الريـــاح تناوحتْ   خلف البيوت قُتلْتَ يا ابن الأزور[1]
ولَنِعْمَ حشو الدرع كنت وحاسراً   ولنعـــم ساري الطـــارق المتنوّرِ
أدَعَـــوتـــه بالله ثـــم غررتـــه   لـــو هـــو دعـــاك بذمة لم يَغْدرِ

وأومأ إلى أبي بكر فقال: والله ما دعوته ولا غررته ثم أتم شعره فقال:

ولا يمسك الفحشاء تحت ثيابه   حلو شمائله عفيف المئزر

ثم بكى وانحط على سية قوسه – وكان أعور دميماً – فما زال يبكي حتى دمعت عينه العـــوراء، فقام إليه عمر بن الخطاب فقال: **لَوددْتُ أني رثيت أخي زيداً بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك.**

وكان عبد الله بن عباس[2] يسمع الشعر ويعجب به ويتذوقه ويبدي رأيه فيـــه ثم يقبـــل عليـــه فيحفظه.

طلع عمر بن أبي ربيعة – وهو يومئذ غلام – على ابن عباس فسلَّم وجلس فقال ابن عبـــاس: أولا تنشد شيئاً من شعرك؟ فأنشده:

أّمِنْ آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكرُ   غداة غدٍ أم رائحٌ فمُهجّرُ

حتى أَتمَّها – وهي ثمانون بيتاً – فقال ابن الأزرق: لله أنت يا ابن عباس: أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين فتُعرض، ويأتيك غلام من قريش فينشد سفهاً فتسمعه؟ فقال: تالله مـــا سمعـــت سفهاً ثم أنشده القصيدة كلها[3].

وكان يقول[4]: ((**إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب**)). وكان إذا سُئِل عن شيء من القرآن أنشد شعراً.

أما سعيد بن المسيب فكان يكره من يكره الشعر، وقد قيل له يوماً: هاهنا – يعني: في العراق – قوم نُسَّاكٌ يعيبون إنشاد الشعر فقال[5] نَسَكوا نُسكاً أعجمياً.

وكذلك كان سفيان الثوري يحب الشعر ويتذوقه فقد روي أنه قال يوماً لجلـــسائه[1]: إني أرى جارنا هذا السهمي[2] قد أَثرى وانفسحت له نعمة، وصار ذا جاهٍ عند الأمراء ووافـــد إلى الخلفـــاء

---

1. يريد: ضرار بن الأزور قاتل أخيه.
2. المبرد/ الكامل/٥٧٠/٥٧١.
3. المبرد/ الكامل/٥٧٠/٥٧١.
4. العمدة/١/١١.
5. نفسه/١١.

فمِمَّ ذاك ؟ فقال له جلساؤه: إنه يصير إلى الخليفة فيتغنى له، فقال سفيان: فيقول ماذا؟ فقال أحد جلسائه، يقول:[3]

أطوفُ نهاري مع الطائفين   وأرفع مئزري المُسْبَلِ

فقال سفيان: ما أحسن ما قال، فقال الرجل:

وأسهر ليلي مع العاكفين   وأتلو من المحكم المُنْزَلِ

قال: حَسَنٌ والله جميل قال: إن بعد هذا شيئاً. قال سفيان: وما هو؟ قال:

عسى فارجُ الكرب عن يوسفٍ   يُسَخّرُ لي ربَّةَ المَحْمَلِ

فزوى سفيان وجهه، وأومأ بيده أنْ كُفَّ. وقال: حلالاً حلالاً.

وكان معاوية يقول:[4] ((**اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم، فإنَّ فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم، فقد رأيتُني يوم الهرير وقد عزمتُ على الفرار**، فما يردني إلا قول ابن الإطنابة الأنصاري:

أَبَتْ لي عفتي وأبي بلائي   وأخْذي الحَمْد بالثمن الربيحِ

وكتب إلى عمرو بن العاص في ابنه عبد الله: أن رَوِّه الشعر فروّاه، فما كان يسقط عليه منه شيء[5]. وهكذا كان احتفال الصحابة والتابعين بالشعر، وكان فيهم من يقوله وينظمه، فإن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة المسعودي – وكان من أصحاب النسب والأخبار وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة – قد قيل له: كيف تقول الشعر مع النسك والفقه؟ فقال: ((إن المصدور لا يملك أنْ يَنْفُث))[6].

أما بعد:

فهذا عرض لموقف الإسلام من الشعر والشعراء، وقد بدا فيه واضحاً أن الإسلام لم يمنع الشعر، وإنما قام بتهذيب أساليبه، وتحديد أغراضه واتجاهاته، فارتفع به عن نهش الأعراض، وشتم الأحياء والأموات، وسما به عن التنابز بالألقاب والتدني إلى سقط القول، واتخذ منه وسيلة لخدمة الدعوة الإسلامية بعد أن كان يسير في خدمة العصبية وإثارة الضغائن.

---

1. المبرد/ الكامل/ ٣٩٠ – ٣٩١.
2. السهمي/ يعني: يحيى بن جامع.
3. المبرد/ الكامل/ ٣٩٠ – ٣٩١.
4. المزهر/٢/ ٣١٠ – ٣١١ ، والكامل للمبرد /٧٥٣.
5. المزهر/٢/٣١٠ – ٣١١.
6. البيان والتبيين/١/٣٥٧.

وإذا صحَّ أن الإسلام قد أباح الشَّتْم، فإنّه قد أباح شتم المشركين الذين نابــذوا الرســول – صلى الله عليه وسلم - ، ورخَّص لشعرائه أن يعارضوهم بمثل قولهم بالوقــائع والأيــام والمــآثر ويعيروهم بالمثالب[1] حماية لأعراض المسلمين. روى صاحب الأغاني قال: لما كان عــام الأحــزاب وردَّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، قال النبي: ((**من يحمي أعراض المسلمين؟ فقال كعب بن مالك: أنا يا رسول الله، وقال عبد الله بن رواحة: أنا يا رسول الله، وقال حسان بن ثابت: أنا يا رسول الله، فقال: نعم، اهجهم أنت ،فإنه سيعينك عليهم روح القُدُس**))[2] حتى إذا تمَّ له النصر على مناوئيه، وأصبحت كلمة الله هي العليا، عَمَدَ إلى ما يثير الأحقاد ويبعث الضغائن ويبثُّ القبيح فيما بين المسلمين من هذا الــشعر فمنعــه وحذَّر من قوله.

[1] . الأغاني/٤/٤.

[2] . نفسه/٧.

الفصل الثاني

أولاً: الظواهر الأدبية في شعر الصراع

- ♦ **ظاهرة الانتحال**
- ♦ **ظاهرة الاختلاط**
- ♦ **ظاهرة الازدهار**
- ♦ **ظاهرة الضياع**

ثانياً: توثيق شعر الصراع

أولاً: الظواهر الأدبية في شعر الصراع

♦ ظاهرة الانتحال في شعر الصراع:

النحل والنتحال ظاهرة أدبية عامة عرفها العرب كما عرفها غيرهم من الشعوب الأخرى وعرفها الشعر العربي على اختلاف عصوره – كما عرفها غيره من الشعر – ولا يزال يعرفها حتى وقتنا هذا.

ولم يكن أمر الانتحال والوضع مقصوراً على الشعر فحسب، بل شمل كل ما يمتُّ إلى الأدب العام بسبب – كالنسب والأخبار – منذ الجاهلية نفسها. ولقد بدأ الكذب والوضع في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف حتى في حياة النبي الكريم[1]، فقصة عبد الله بن أبي سرح – أحد كتّاب الوحي – مشهورة، يحدثنا عنه الجهشاري بأنه كان مسلماً، وأنه كان يكتب ((عزيز حكيم)) في موضع ((غفور رحيم)) ثم ارتدَّ فلحق بالمشركين[2]. وقول النبي الكريم: ((**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأَّ مقعده من النار**)) يقطع بوجود هذا الكذب والافتعال.

فإذا ما قصرنا الحديث على الشعر وحده وجدنا أنه كان عرضة للوضع والانتحال منذ الجاهلية وظهور الإسلام. ومن يتعقب الكتب التي عُنيت برواية هذا الشعر، تطالعه أمثلة كثيرة تشهد على وجود ظاهرة الانتحال، بل وشيوعها منذ عرف الشعر العربي واستوت أساليبه.

فالرواة بين ثقة صادق يطمئن الناس إلى روايته ،ويثقون في صدقه وأمانته – وإن كان مع هذا لم يسلم من قدح وتشهير – وكذوبٍ مستهتر لا يرعوي عن الوضع والاختلاق أو التزيد، رغبة في كسب، أو طمعاً في مغنم، أو سعياً وراء هدف، وإن كان لا يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون[3].

وهذا النهج الشاذُّ هو الذي دفع الثقات من العلماء إلى تتبّع روايات هؤلاء المزيفين والمُلَفّقين، وتعقُّب معطياتهم بالنقد والتمحيص، لإنقاذ الثروة الأدبية مما يتهدد كيانها، أو يخالطها من زيادة وتشويه، بل إن هذا النهج نفسه هو الذي دفع الرواة إلى تعقّب بعضهم بعضاً، والكشف عما يصاحب رواياتهم من كذب وتزييف.

---

[1]. مصادر الشعر الجاهلي/٣٢١.

[2]. الوزراء والكتاب/١٣.

[3]. طبقات الشعراء/٢٣.

لقد نظر العلماء في الأشعار المروية، وتفحصوا ما بين أيديهم من قصائد ومقطوعات وأبيـــات، فأشاروا إلى الفاسد منها والمنحول، فقالوا: إن هذه قصيدة صحيحة أو منحولة، أو هـــذه لفـــلان وليست لغيره، وإن هذا البيت زِيدَ على القصيدة، وتلك الأبيات ألصقت بفلانٍ وليست له.

وقلما نجد راوية عالماً من القرن الثاني والقرن الثالث الهجريين لا يَذْكُرُ لنا الأخبار المروية عنـــه أنه نصَّ نصَّاً صريحاً على أنَّ بيتاً أو أبياتاً بعينها موضوعة منحولة[١].

فالانتحال إذن ظاهرة قديمة وشائعة في الشعر العربي. وقد تنبَّه لها القدماء وفطنوا إلى وجودها، فدفعتهم أمانتهم العلمية إلى التنبيه على الشعر المنحول. وربما بالغ بعضهم في شـــكّه، وأوغـــل في اتّهَامِهِ رغبة منه في غربلة الشعر وتنقيته مما علاه من غبار التزيُّد، وتراكَمَ عليه من قَتـــام الوضْـــع، وزيادة في التحوط والأمانة – كما فعل ابن هشام في شعر السيرة – وكان قرب عهدهم بالجاهلية وصدر الإسلام، وسهولة اتصالهم بمن روى الشعر عن منشئيه من الحفظة والرواة قد مَهَّـــدَ لهـــم السبيل لإصابة بعض النجاح في مهمتهم.

وعلى هذا، فنحن لا ننكر الوضع والتزيد في شعر الصراع، فهو حقيقة واقعـــة لا ســـبيل إلى إنكارها وإثبات بطلانها، وإنما الذي ننكره هو تعميم هذه الظاهرة على سائر شعر الصراع كسبيل لرفضه، والحكم بزيفه اعتماداً على فَرَض، أو استناداً إلى رواية شاردة أو خبر ضعيف ،كما فعـــل مرجليوث عندما تشكك في جميع ما روى ابن إسحاق من شعر السيرة[٢].

فالأحداث التاريخية والظروف السياسية وقلة أشعار بعض القبائل التي شاركت في الصراع، كل هذه قد لعبت دوراً خطيراً في ظهور الشعر المنحول، وأتاحت ما يمكن من نسج خيـــوط أســـاطير كثيرة حول الشعراء، فوضع على ألسنة بعض الشعراء ما لم يقولوه، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت[٣]، فطبيعة الصراع ،وكثرة أحداثه ،وتعدُّد أطرافه، واختلاف وجهات النظر فيما بينهم، حملت على التزيد، وأغرت بالافتعال، ودفعت إلى الاختلاق. روى البلاذري أن بِشر بـــن أُبيرق المنافق كان يهجو أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ثم ينحله بعض العرب، فإذا ما سمعه الصحابة قالوا: والله ما قاله إلا الخبيث بِشر، فلما بلغه ذلك قال:[٤]

---

1. مصادر الشعر الجاهلي/٣٢١.
2. نفسه/٣٢٤.
3. طبقات الشعراء/٢٣.
4. أنساب الأشراف/١/٢٧٨.

أَوَكُلّما قال الغُواةُ قصيدةً   أَصْمَوْا وقالوا ابن الأُبيرق قالها
مُتَغَصّبينَ كأنني أخشاهُمُ   جَدَعَ الإله أنوفهم فأمـــالها

ولو ذهبنا نتلمس أسباب الانتحال ودوافعه في شعر الصراع فيما توفر لدينا من شواهد لوجدنا أنها كثيرة.

وأول هذه الدوافع: رغبة القبائل في التزيد من الشعر لتضيف تراثاً أدبياً جديـــداً إلى مناقبـــها ومآثرها، قال محمد بن سلام[1]: ((**وقريش تزيد في أشعارها، تريد بذلك الأنصار والردَّ على حسان**)). وقد وُضِعَ على قريش شعر كثير لإظهار مكانتها وشرفها بين العرب، ومثال ما وضع عليها ذلك الشعر الذي نُسِبَ إلى المُشَمْرِجِ بن عمرو الحميري في الجاهلية، ومن هذا الشعر قوله[2]:

وقريش هـــي الـــتي تسكن البحر   بهـــا سميت قريش قريشا
ولهم آخـــر الزمـــان نبيٌّ   يُكثِرُ القتل فيهم و الخُموشا
تملأ الأرض خيله ورجالٌ   يحشرون المطيَّ حشراً كشيشا

فكثرة القتل والخموش هذه لا تحمل أحداً على التسليم بأنها قيلت في الجاهلية.

وربما عمد الوَضَّاعون إلى الوضع لتزيين الأخبار والقصص، وبخاصة ما كان منها ذا علاقة بالنبي الكريم وبعثته وصراعه مع المشركين، أو ما كان فيه إظهار البطولة في الغزوات، فربما سقط بعـــض الشعر الصحيح الذي قيل في هذه المناسبات وغيرها، فيعمد القصاصون والإخباريون إلى اختـــراع الأشعار التي تناسب القصة أو الخبر لتزيينهما وتقريبهما من النفس وتيسير حفظهما، وحتى يحظيـــا باهتمام السامعين وقبولهم.

ومثل هذا الشعر شائع شيوعاً ظاهراً في كتب التاريخ والسّيَر، منه ما ورد في كتـــاب: ((**الـدرة المكللة في فتح مكة**)) للبكري[3] وفي غيره.وقد أشار العلماء الثقات إلى هذا اللون من الـــشعر، قـــال الأصمعي: ((أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مُصَحَّفَةً أو مَصْنوعة وكان

[1] . طبقات فحول الشعراء/ ٩٧ -٩٨.
[2] . المزهر/١/٣٤٤ -٣٤٥ ، ومعجم الشعراء/٤٣٧.
[3] . انظر الصفحات /٧، ١١، ١٢، ١٣، ٢٦، ٤٨، ٤٩، ٦٥، ٦٦، ٧٣، ٩٩، ١٠٣، ١١١، ١٦١ وغيرها من صفحات الكتاب.

بها ابن دأب عيسى بن يزيد بن بكر يصنع الشعر وأحاديث السمر وكلاماً ينسبه إلى العرب، فسقط وذهب علمه وخَفِيَتْ روايته، وكان بها الشرقي ابن القطامي وكان كذاباً))[١].

وقال محمد بن سلام[٢]: ((وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كلَّ غُثاء منه محمد ابن إسحاق بن يسار... فكتب في السِّيَر أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال...)).

وكان الرواة الأعراب الذين يَفِدون على الحواضر، يلقون من العناية والإكبار والتكريم ما لا يحظى به الشعراء أحياناً، ذلك أنهم يرْوُون شعر الشعراء من قبائلهم وغير قبائلهم. وقد يعمد بعض هؤلاء الرواة إلى الوضع والاختلاق طمعاً في الكسب والارتزاق. وربما كان لبعضهم صلة قرابة بشاعر فيحقق – بالإضافة إلى الكسب – نصيباً من المجد والشرف لقبيلته، روى ابن سلام قال:[٣] ((أخبرني أبو عبيدة أنَّ داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجَلَبِ والمِيرَة، فترل النحيت، فأتيته أنا وابن نوحٍ العُطاردي، فسألناه عن شعر أبيه متمم، وإذا هو يحتذي على كلامه فيذكر المواضع التي ذمرها متمم والوقائع التي شهدها، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله)).

ومن هذه الدوافع: إبراز فضل آل البيت، وإظهار دور الصحابة في حمل الدعوة، ونصرة الإسلام، فكأنه قد عزَّ على الوضاعين ألاّ يكون لآل البيت شعر يبرز فضلهم ويظهر شرفهم، فاجتهدوا في وضع الشعر على لسان عبد المطلب بن هاشم، فالأشعار التي نُسِبت إليه تخبرنا أنه كان يعلم أن سبطه محمداً سيكون نبياً[٤].

ووضعوا الأشعار على ألسنة بناته وعلى لسان أخته ضُعَيْفَة بنت هاشم[٥]، وعلى لسان آمنة بنت وهب[٦]، وفاطمة بنت مُرٍّ الخثعمية حين عَرَضَتْ نفسها على عبد الله بن عبد المطلب[٧]، وحرصوا على وضع الشعر على لسان عبد الله في الردّ عليها[١].

---

1. المزهر/٢/٤١٣، ٤١٤.
2. طبقات فحول الشعراء/٧ -٨.
3. طبقات فحول الشعراء/٤٠.
4. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب/٩.
5. أنساب الأشراف /١/٨٦.
6. نفسه/٩٢.
7. ابن طيفور/ بلاغات النساء/٢٠٠.

وعزَّ عليهم أيضاً أن يكون للصحابة ما لهم من البلاء والتضحية في سبيل الله دون أن يكون لهم في ذلك شعر يزين أعمالهم ويقيّمها، ولذلك رأيناهم يضعون شعراً في إسلام عثمان بن عفان ثم ينسبونه إلى خالته سُعْدى بنت كُريز العبشمية[2].

وربما عمدوا إلى وَضْع الشعر على ألسنة بعض الصحابة للتدليل على تقواهم وورعهم، مستغلين بعض آيات القرآن، فقد أورد القرطبي في تفسيره ستَّ أراجيز من الحوار الشعري بين علي بن أبي طالب وزوجه فاطمة بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم - في معرض تفسيره لسورة ((الإنسان))[3] ثم قال: ((قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول: فهذا حديثٌ مُزَوَّق مزيَّف، قد تظرف فيه صاحبه حتى تشبَّه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يعض شفتيه تلهفاً ألا يكون بهذه الصفة. ما يَرُوجُ مثل هذا إلا على حمقى جهال، وليت شعري من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن عليّ وفاطمة وإجابة كل منهما صاحبه حتى أدَّاه إلى هؤلاء الرواة؟ فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى، بلغني أن قوماً يخلّدون في السجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديث في السَّمر وأشباهه.

ومثل هذه الأحاديث مفتعلة، فإذا صارت إلى الجهابذة رموا بها وزيَّفوها، وما من شيء إلا له آفة ومكيدة، وآفة الدين وكيده أكثر))[4].

ويتخذ الانتحال في شعر الصراع **مظاهر متعددة منها:**

أن يعمد راوية أو قبيلة أو طائفة إلى التزيد على شاعر من شعراء الصراع لتحقيق غرض ما. قال ابن سلام: ((وقد حُمِلَ عليه – أي على حسان بن ثابت – ما لم يُحْمَل على أحد لما تعاضهت قريش واستبت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به))[5].

ولاحظ الأستاذ الشايب كثرة الشعر المنحول الذي أضيف إلى شعراء مدينتي: مكة والمدينة، وعزا ذلك إلى عدة بواعث منها: المبالغة في الغزوات وتكثير شعر الشعراء، وإنطاق شعراء قريش بمديح الرسول في أثناء هجائهم للأنصار أو لاعتراف الأنصار بهزيمة أحد مثلاً[1].

---

[1]. أنساب الأشراف/١/٨٠.

[2]. الإصابة/٨/١٠٦ – ١٠٧.

[3]. تفسير القرطبي/٩/١٣١ – ١٣٣.

[4]. نفسه/١٣٤ – ١٣٥.

[5]. طبقات فحول الشعراء/ ٨٤٩.

وذهب الدكتور محمد طاهر درويش[2] إلى أنه قد وُضِع على حسان شعر كثير مستنداً في رأيه إلى آراء القدماء وأقوالهم.

وحدث التزيُّدُ على أبي طالب، قال ابن سلام:[3] ((وكان أبو طالب شاعراً جيد الكلام وأبرع ما قال قصيدته التي مدح فيها النبي – صلى الله عليه وسلم – وهي:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

وقد زيد فيها وطُوّلت، ورأيت في كتاب كتبه ((يوسف بن سعد)) صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة، وقد علمت أن قد زاد الناس فيها، فلا أدري أين منتهاها، وسألني الأصمعي عنها فقلت: صحيحة، قال: أتدري أين منتهاها؟ قلت: لا أدري، وأشعار قريش فيها لينٌ تُشْكِلُ بعض الإشكال)).

وقال بروكلمان:[4] ((اشتمل مخطوط ليبزج ٥٠٥ (رفاعية ٣٣) مع ديوانَيْ: سُحَيم وأبي الأسود الدؤلي على ديوان منسوب لأبي طالب عم النبي – عليه السلام - تدور أشعاره حول ما وقع بين النبي وقريش من أحداث. ولعل بعض هذا الديوان صحيح، لتناسب صداه مع حقيقة مواقف أبي طالب. ولكن أكثره منحول ،لأن الدواعي توافرت عند المحدثين لتزيين سيرة النبي في أوائل عهد النبوة أيضاً بكثير من الأشعار بعد أن كثرت الأشعار في سيرته بالمدينة. كما أنَّ شيعة عليّ أرادوا أن يشيدوا بمعاونة أبيه للنبي، ويضعوه بذلك في مقام بارز، ولابدَّ أن هذا الشعر وضع من قديم، لأنه لم يزل يذكر بني هاشم أمة واحدة لم تفترق بعد إلى علويين وعباسيين، ومن ثَمَّ ظننت صحة هذا الشعر، فقد روى أكثره ابن إسحاق في سيرة النبي)).

ونسب إلى علي بن أبي طالب ديوان شعر اسمه: ((أنوار العقول لوصي الرسول)) ونحن لا نشك أن علياً كان يقول الشعر[5]، فقد روى صاحب الاستيعاب أن قائلاً قال لعلي:[6] ((اهجُ عنا الذين يهجوننا – يعني: شعراء المشركين – فقال: إنْ أذِن لي رسول الله فعلت))، وإنما الذي نشكّ فيه أن يكون له ديوان شعر. ومن المرجح أن هذا الديوان من صنع الشيعة، واسم الديوان يُؤَيّدُ ما نذهب إليه،

---

[1] . تاريخ الشعر السياسي/٧٣.

[2] . حسان بن ثابت/٥٠٣.

[3] . طبقات الشعراء/٩٥٩.

[4] . تاريخ الأدب العربي/١/١٧٥.

[5] . انظر: معجم الشعراء/١٣٠ – ١٣١ ، والخزانة/٢/٥٢٦ ، والمغازي/٢٨٢ ، وتاريخ الطبري/٢/٥٣٣.

[6] . الاستيعاب/١/٣٤٢.

ذلك أنّ علياً لم يكن يعتبر نفسه وصياً للرسول – صلى الله عليه وسلم -. قال بروكلمان: ((ولا شكَّ أنَّ عليّاً كان على سليقته من الشعر، ولكن من المشكوك فيه كثيراً اشتمال الديوان المنسوب إليه على أشعار صحيحة، فقد وَضَح اختراع الشيعة له وضوحاً بيّناً حتى أدركه النقاد من أهل السنة[1]، ويبدو أنَّ ابن قتيبة رأى ديواناً منحولاً عليه[2].

وقال نالينو:[3] ((ومن الكتب الكثيرة التداول – حتى أيامنا – ديوان محتوٍ على قصائد ومقطعات دينية منسوب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، لكنه كتاب مختلق، وهو مما صنعه أهل الشيعة لأغراضهم الخاصة.

ومن مظاهر الانتحال: أنْ يُنْسَب نصٌّ لشاعر من شعراء الصراع بينما هو لشاعر غيره، رغبة في التزيُّد والإكثار، قال ابن سلام:[4] ((ويروي الناس لأبي سفيان بن الحارث قولاً يقوله لحسان:

أَبوك أبو سَوْءٍ وخالُكَ مثلُهُ ... ولستَ بخيرٍ من أبيكَ وخالِكا

وأنَّ أحقَّ الناسِ أنْ لا تلومَه ... على اللومِ من ألفى أباه كذلكا

ثم قال: وأخبرني أهل العلم من أهل المدينة أن قدامة بن موسى بن عمر الجمحي قالها، ونحلها أبا سفيان)).

ومن ذلك أيضاً أن ابن إسحاق روى قصيدة نسبها لأبي بكر الصديق مطلعها[5]:

تَعُدُّون قتلاً في الحَرامِ عظيمةً ... وأعظمُ منه لو يري الرُّشْدَ راشِدُ

قال ابن هشام: بل هي لعبد الله بن جحش.ولعل أوضح مظاهر الانتحال في شعر الصراع تظهر – أكثر ما تظهر – في الشعر المنسوب إلى الجنّ ،وفي الشعر المجهول القائل، فقد أنْطَق الوضّاعون من الرواة والقصاصين الجِنَّ بشعر كثير. وأمثلة ذلك كثيرة في كتب الأدب والتاريخ والسِّيَر، فابن كثير– مثلاً – أفرد باباً خاصاً في البداية والنهاية تَحدَّثَ فيه عن الجنّ وأخبارها وأشعارها، سماه: ((باب هواتف الجن))[6]، ونجد في الإصابة[7] وفي غيرها[1] شعراً كثيراً منسوباً إلى الجن.

---

[1]. تاريخ الأدب العربي/١/١٧٥.

[2]. نفسه/١٧٦.

[3]. تاريخ الآداب العربية/١١٦.

[4]. طبقات فحول الشعراء/٩٧.

[5]. السيرة/ق١/٦٠٥.

[6]. البداية والنهاية/٢/٣٣٤ – ٣٣٥.

[7]. الإصابة/١/٢٤٦ ،٢٦٤، ٢٨٤ -٢٨٥، ٢٠٣.

ونسبة الشعر إلى الجن قديمة ترجع في تاريخها إلى الجاهلية، فقد لهى الأعراب والرواة بتسمية الشياطين الذين كانوا يلهمون الشعراء قبل الإسلام وبعده. وشجعهم على هذا أن القرآن العزيز أفرد سورة للجن تتحدث آياتها عن استماعهم تلاوة القرآن وإيمانهم بالله ورسوله وعودتهم إلى قومهم ليدعوهم إلى الإسلام، فكان منهم المسلمون ومنهم القاسطون. فراح الرواة يستغلون هذه المعاني القرآنية لخدمة أغراضهم، فوضعوا شعراً كثيراً على الجن زعموا فيه أنهم شاركوا في حمل الدعوة الإسلامية، وأنذروا العرب ببعث النبي إلى الناس كافة[2]، وأنهم كشفوا تآمر قريش على النبي عند هجرته[3]، إلى غير ذلك من الشعر الظاهر الانتحال والاختلاق. أما الشعر المجهول القائل فأمثلته كثيرة في السيرة النبوية[4].

على أنَّ التنبيه على الشعر المنحول في السيرة، والإشارة إلى الانتحال في طبقات فحول الشعراء، والشواهد التي أوردها بعض القدماء على الشعر الموضوع قد تكررت في كثير من المصادر التي عنيت بدراسة شعر الصراع وغيره، فقد حرص بعض العلماء عند رواية هذا الشعر إلى التنبيه على ما نبَّه إليه القدماء من الشعر الموضوع، فابن كثير مثلاً ردَّدَ في البداية والنهاية ما سبق أنْ ذكره ابن هشام في السيرة النبوية. وعقد السيوطي في المزهر حديثاً خاصاً عن الشعر المصنوع، كرَّر فيه آراء القدماء كابن سلام وغيره[5]. ومن هنا ظنَّ كثيرٌ من الدارسين لهذا الشعر أنَّ الانتحال ظاهرة طاغية فيه وملازمة له، وذهبوا في ظنهم مذهب التعميم والشمول.

وفي الحقيقة، إن الشعر المنحول في فترة الصراع لم يكن كثيراً بحيث يستغرق أحداثها، ولكنه موجود على كل حال. وسوف نرى في نهاية هذا الفصل أنَّ الشعر المنحول على الفترة لا يزيد – بعد دراسته وتمحيصه – على بضعة وعشرين نصاً في السيرة. ونظنُّ أن الشعر المنحول الذي فيه تعريض بالإسلام وهجاء للنبي – عليه السلام - وأصحابه لم يصل إلينا، لأن الرواة الثقات قد تحرَّجوا من روايته ونقله فتركوه. ومن سوء الطالع أنْ ضاع مع هذا الشعر المنحول شعر آخر صحيح تحرّجَ الرواة من نقله وروايته للسبب نفسه.

---

[1]. جمهرة أشعار العرب/٤٥ -٤٧، والأغاني/٨/١٠٢ ، والاشتقاق/١/١٤٢.

[2]. الإصابة/٦/٣٣.

[3]. الإصابة/١/٢٠٣.

[4]. السيرة/ق٢/٥٣ ، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٧٥.

[5]. المزهر/١/١٧١ – ١٨٣.

♦ ظاهرة الاختلاط في شعر الصراع

ولا نكاد ننهي حديثنا عن ظاهرة الانتحال وبواعثه ومظاهره في شعر الصراع حتى نجد أنفسنا بإزاء ظاهرة أخرى أكثر شيوعاً وانتشاراً وهي اختلاط النسبة فيه.

والاختلاط غير الانتحال فالاختلاط – كما نراه من دراستنا لشعر الصراع – يبرز في تنازع نسبة النص بين شاعرين أو أكثر من شعراء الصراع، كما يبرز في المناسبة التي قيل فيها هذا النص. وهذا لا يقدح في صحة الشعر وأصالته، وإنما يقدح في نسبته إلى شاعر بعينه من شعراء الصراع.

وطبيعي أن يختلط أمر نسبته على الرواة أحياناً فتروى القصيدة أو المقطوعة لشاعر مع أنها تكون لشاعر غيره، حيث يتوفر لرواية صحة نسبة الأبيات إلى منشئِها، بينما يتوفر لراوية آخر غير ذلك، فتختلط نسبة الأبيات على النساخ والمدونين فيرْوونها على أنها لفلان أو لفلان.

وإذا ما بحثنا عن الأسباب التي أدت إلى اختلاط نسبة هذا الشعر بين الشعراء، نجد أنها كثيرة، منها: قِصَر فترة الصراع، وكثرة أحداثه، وتعدد اطرافه، وكثرة الشعراء المشاركين فيه، وصدور بعض هذا الشعر عن شعراء مغمورين لم يُعْرَفوا في جاهليتهم بشعر. ومن أسبابها أيضاً: نقل هذا الشعر عن طريق الرواية الشفوية، الأمر الذي عرَّضه للاختلاط في أثناء سفره الطويل وقبل أنْ يستقرَّ بين أيدي مدوّنيه.

على أن هنالك أسباباً أخرى لهذا الاختلاط منها:

اتحاد قصيدتين أو مقطوعتين لشاعر معين في وزنهما وقافيتهما، فيلتبس الأمر على الرواة فيظنون أنهما قصيدة واحدة. ومثال ذلك أنَّ ابن إسحاق روى قصيدة عباس بن مرداس التي قالها في مسير النبي – عليه السلام - لحرب هوازن ومطلعها:[1]

أصابت العام رِعلاً غول قومهم   وسْط البيوت ولون الغول ألوان

فرواها ابن هشام ثم قال[2]: من قوله:

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها

إلى آخرها في هذا اليوم، وما قبل ذلك في غير هذا اليوم. وهما مفصولتان ولكن ابن إسحاق جعلهما واحدة.

---

[1] . السيرة/ق٢/٤٤١.

[2] . نفسه/٤٤٢.

وقد تكون المناسبة سبباً في اختلاط الأمر على الرواة، فيروون أبيات الشاعر في مناسبة غير التي قيلت فيها. ويحدث ذلك نتيجة ورود بعض الأسماء،او نتيجة سهو الرواة والنُّسَّاخ. روى ابن إسحاق لطالب بن أبي طالب في موقعة الفيل قوله:[1]

ألم تعلموا ما كان في حرب داحسٍ وجيش أبي يكسوم إذ بلغوا الشعبا

فلولا دفاع الله لا شيء غيره لأصبحتم لا تمنعون لكم سِربا

قال ابن هشام: أبو يكسوم – يعني: أبرهة كان يكنى أبا يكسوم – ثم عقَّب على البيتين بقوله: ((وهذان البيتان في قصيدة له في يوم بدر سأذكرها في موضعها إن شاء الله))[2].

ومن ذلك أيضاً: أنّ ابن هشام روى ثلاثة أبيات أوردها ابن إسحاق لمالك بن عوف النصري بعد هزيمة هوازن في يوم حنين منها:[3]

فآبَتْ جعفر وبنو هلالٍ خزايا مُحْقِبِين على شقوق

ثم قال[4]: هذه الأبيات لمالك بن عوف في غير هذا اليوم، ومما يدلك على ذلك قول دريد ابن الصمة في صدر هذا الحديث: ما فعلت كعب وكلاب؟ فقالوا له: لم يشهدها منهم أحد وجعفر بن كلاب. قال مالك بن عوف في هذه الأبيات: ((**لآبت جعفر وبنو هلال**)). **ومن أسباب الاختلاط في نسبة شعر الصراع وحدة الموضوع عند شاعرين.** ومثال ذلك أنَّ ابن إسحاق روى أبياتاً من الرجز قالها عبد الله بن رواحة وهو آخذ بخطام ناقة الرسول – صلى الله عليه وسلم - حين دخل مكة معتمراً قبل فتح مكة ومطلعها:[5]

خلُّوا بني الكفار عن سبيله خلُّوا فكلُّ الخير في رسوله

فأوردها ابن هشام ثم قال:[6] نحن قتلناكم على تأويله

---

1. نفسه/ق١/٥٩.
2. السيرة/ق١/٦٠.
3. السيرة/ق٢/٤٥٥.
4. نفسه/٤٥٥-٤٥٦.
5. نفسه/٣٧١.
6. نفسه/٣٧١-٣٧٢.

إلى آخر الأبيات لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم – يعني: في يوم حنين – والدليل على ذلك أنَّ ابن رواحة إنما أراد المشركين، والمشركون لم يُقِرّوا بالتنزيل، وإنما يُقْتَلُ على التأويل من أقرَّ بالتنزيل.

وربما كانت صلة القربى بين شاعرين سبباً في اختلاط شعرهما وتنازعهما نسبة القصيدة، فقد روى ابن هشام أبياتاً رواها ابن إسحاق لحسان بن ثابت في يوم أحد أولها:[1]

فخرتم باللواء وشرُّ فخرٍ   لواء حين رُدَّ إلى صُؤابِ

ثم عقَّب عليها قائلاً[2]: ((آخرها بيتاً يروى لأبي خراش الهذليّ، وأنشدنيه له خلف الأحمر:

أقر العين أن عُصِبَتْ يداها   وما ان تُعصَبان على خِضابِ

في أبيات له يعني امرأته في غير حديث أحد وتُروى الأبيات أيضاً: لمعقل بن خويلد الهذليّ.

وربما كان تشابه الأسماء سبباً في اختلاط نسبة الشعر، فقد وجدنا أنَّ الرواة قد اختلطت عليهم أبيات لأمية بن خلف فنسبوها لأمية بن أبي الصلت[3].

على أنَّ أهمَّ أسباب الاختلاط في النسبة – كما نظن – هو ورود المعاني الإسلامية والإشارة إليها في القصيدة أو المقطوعة، فالصراع بين النبي – عليه السلام - وخصومه، إنما قام حول الإسلام وبسببه. ومن هنا وردت المعاني الدينية عند كثير من شعراء الصراع، فلما انتهى شعرهم إلى الرواة اضطربوا فيه فخلطوا في نسبته إليهم.

فلهذا السبب اختلط شعر كعب بن مالك بشعر عبد الله بن رواحة[4]، واختلط شعر حسان بن ثابت بشعرهما وشعر غيرهما. وقد نبَّه ابن هشام إلى هذا الاختلاط في مواضع كثيرة من السيرة، فنسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك[5]، ونسب ثالثة إلى عبدالله بن الحارث السهمي[6] ورابعة إلى ربيعة بن أمية الدّيلي أو أبي أسامة الجُشَمي[7] وخامسة إلى معقل بن خويلد الهذلي[1] وسادسة إلى ابنه عبد الرحمن[2].

---

1. السيرة/ق٢/٧٨.
2. نفسه/٧٨ -٧٩.
3. تفسير القرطبي/١٧/١٧١.
4. السيرة/ق٢/١٦٢، ٢١٠.
5. نفسه/١٣٢، ٣٤٨.
6. نفسه/٢٠.
7. نفسه/٢٦٩

ويظن الدكتور شوقي ضيف أن شعر حسان قد اختلط بأشعار الأنصار وخاصة عبدالله ابن رواحة وكعب بن مالك وابنه عبد الرحمن. لذلك فهو يشك في أشعاره المملوءة غيظا على عثمان، وأشعاره في مديح الزبير بن العوام وعبد الله بن عباس، ويقبل من هجائه لقريش ما كان يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب[٣].

ولهذا السبب نفسه اختلط شعر أمية بن أبي الصلت بشعر غيره من الجاهليين والإسلاميين الذين شاعت عندهم المعاني الدينية، فاختلط شعره بشعر ورقة بن نوفل لما شاع عند القدماء من أنهما كانا يطلبان الدين في الجاهلية[٤]، وبشعر أبي قيس بن الأسلت[٥] والنابغة الجعدي[٦] وطالب بن أبي طالب[٧] وزيد بن عمرو بن نفيل[٨].

ولعلَّ ورود المعاني الدينية في شعر أمية هو الذي دفع **كليمان هوار** إلى الزعم بأن شعره كان من مصادر القرآن الكريم[٩] قال بروكلمان[١٠]: وهذا غير صحيح، ولكن الحق ما ذكره **تورآندريه** وهو أنَّ الأشعار التي نظر إليها "هوار" إنما هي نظم جمع من القصاص، فيه ما استخرجه المفسرون من مواد القصص القرآني.

واتفق نالينو[١١] والدكتور طه حسين[١٢] على أن ما أضيف إلى أمية من الشعر المملوء بالعبارات القرآنية[١٣] والمعاني الدينية، إنما انتحل عليه انتحالاً.

---

1 . نفسه/٧٨ -٧٩

2 . نفسه/٥٥٤.

3 . العصر الإسلامي/٨٠ -٨١.

4 . طبقات الشعراء/١٠٣ ، الخزانة/٢/٤٠.

5 . السيرة /ق١/٥٨.

6 . طبقات الشعراء/٤٥ ، معجم الشعراء/١٩٥.

7 . أنساب الأشراف/١/٣٠٦.

8 . خزانة الأدب/٢/٤٠.

9 . تاريخ الأدب العربي/١/١١٣.

10 . نفسه/١١٣.

11 . تاريخ الآداب العربية /٩٤.

12 . في الأدب الجاهلي/١٤٢ – ١٤٥.

13 . انظر كتاب: البدء والتاريخ/ تحقيق هوار/ج١/٢٠٣ ، فالشعر الوارد فيه إنما هو نظم لبعض آيات سورة الطور فيما نرى.

أما بعد، فهذه هي الأسباب التي أدت إلى اختلاط النسبة بين الشعراء في شعر الصراع. وإذا ما مضينا نتلمس مظاهر هذا الاختلاط نجد أنَّ منها:

نسبة النص الشعري لأكثر من شاعر، والشواهد على ذلك كثيرة في شعر الصراع، روى ابن إسحاق أبياتاً لعبد الله بن الزِّبَعْرَي في السيرة مطلعها:[1]

ماذا على بدرٍ وماذا حولَهُ   من فتيةٍ بيضِ الوجوهِ كرامِ

فقال ابن هشام: ((وتروى للأعشى بن زرارة بن النباش حليف بني نوفل بن عبد مناف)).

وقال ابن إسحاق في السيرة[2]: فقال عبد الله بن رواحة أو أبو خَيْثمة أخو بني سالم ابن عوف – في الذي كان من أمر زينب عند خروجها مهاجرة إلى المدينة – أبياتاً مطلعها:

أتاني الذي لا يَقْدُرُ الناسُ قَدْرَهُ   لزينب فيهم من عقوقٍ ومأثَمِ

فقال ابن هشام: ((هي لأبي خيثمة)).

ومن هذه المظاهر أن ينسب بيت من أبيات القصيدة أو المقطوعة لشاعر آخر، ومثال ذلك قول ابن هشام[3]: وبيت هبيرة بن أبي وهب الذي يقول فيه:

وليلةٍ يصطلي بالفَرثِ جازرُها   يختصُّ بالنَّقَرَى المُثرين داعيها

يروى لجنوب أخت عمرو ذي الكلب الهذليّ في أبيات لها في غير يوم أحد.

وثمة مظهر آخر من مظاهر الاختلاط في نسبة شعر الصراع، وهو **اشتراك نصَّين في بيت أو أكثر**، ويبرز هذا بوضوح في نقيضة كافية رواها ابن إسحاق لحسان بن ثابت وأبي سفيان بن الحارث في يوم بدر الآخرة، قال حسان أبياتاً أولها:[4]

دَعوا فَلَجات الشام قد حالَ دونَها   جِلادٌ كأفواهِ المخاض الأوارك

فناقضه أبو سفيان بن الحارث بأبيات مطلعها:[5]

أحسانُ إنّا يا ابن آكلة الفغَا   وجَدّكَ نغتالُ الخُرُوقَ كذلكِ

---

1. السيرة/ق٢/١٥.
2. نفسه/ق١/٦٥٥.
3. السيرة/ق٢/١٣٢.
4. نفسه/٢١١.
5. نفسه/٢١٢.

فعقَّب ابن هشام على النصين بقوله[1]: ((وأنشدني أبو زيد الأنصاري هذا البيت:

خرجنا وما تنجو اليعافير بيننا

والبيت الذي بعده – يعني – :

إذا ما انبعثنا من مناخ حسبته وتتركنا في النخل عند المدارك

لحسان بن ثابت في قوله:

دَعوا فَلَجات الشام قد حالَ دونها

وهكذا شاعت ظاهرة اختلاط النسبة في شعر الصراع حيث تردَّدَ في بضعة وثلاثين موضعاً: منها خمسة وعشرون موضعاً في السيرة وحدها. ونكتفي –هنا – بالإشارة إلى بعض هذه المواضع في مصادرها – على سبيل المثال – : (السيرة/ق٢/١٦٢، ٢١٠، ٤٠٩، ٥١٣ . وتفسير القرطبي/٢٠/٥٤ . وتفسير القرطبي/١٢/٢٠١ . وصحيح مسلم/٥/١٦١ -١٦٢ . والمبرد/ الكامل/١/٤٣. وابن دريد /جمهرة اللغة/٢/٣٧١ . والخزانة/٢/٥٢٦).

وإذا ما عرفنا أنَّ ما قيل من شعر في فترة الصراع يقرب من ستمائة نصّ ما بين قصيدة ومقطوعة ورجز، أدركنا أنَّ الشعر المختلط النسبة يبدو قليلاً إذا ما قورن بالشعر الصحيح الثابت.

♦ ظاهرة ازدهار الشعر في فترة الصراع

ولا نكاد نَصْدُرُ عن بحث قضية الانتحال في شعر الصراع حتى نجد أنفسنا بإزاء قضية أخرى قد شاعت في أوساط الباحثين المحدثين، وهي اتهام هذا الشعر بالضعف والجمود، فبعد أن بات أمر ضعفه حقيقة واقعة عند بعضهم، شرعوا يلتمسون الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف، ويتسقطون الدوافع التي أوجدت هذا الجمود – في زعمهم – .وقبل أن نُميط اللثام عن زيف هذا الاتِهام ،نحمل أنفسنا على عرض هذه الأسباب التي أوردها هؤلاء الباحثون لتعزيز آرائهم.

فأسباب ضعف هذا الشعر عند الدكتور طه الحاجري[2] مردُّها إلى أن الشعر إنما يستمد كيانه من ذلك الميراث الجاهلي العميق الأصول، الثابت الجذور. فلما أهدر الإسلام تلك المُثُل التي يتقَوَّم الشعر – أكثر ما يتقوم – بها، كان ضعفه ظاهرة طبيعية مسايرة لمنطق الأشياء، ونتيجة محتومة لتلك المقدمات.

---

[1] . السيرة/ق٢/٢١٣.

[2] . في تاريخ النقد والمذاهب الادبية /٤٩ -٥٠.

وأن هذا الشعر قد فقد عنصر التجارب نتيجة المفارقة بين روح الشعر والروح الجديـــدة، إذ لم يكن الجمهور الشعري على ما كان عليه من قبل. فقد تبدَّلت مُثُله، وتغيرت الاعتبارات الـــشعرية في نفسه، وهو عنصر لابدَّ منه للشاعر ليستطيع أن يمضي في التعبير عن نفسه.

كما فقد الشعر شيئاً آخر كان له أثره – أيّاً كان هذا الأثر – فيه، وهو ما كان يجد من قبل من تشجيع الملوك والرؤساء له، وتحفّيهم به، وإجازتهم الشعراء عليه. وقامت بدلاً منه رقابـــة حازمـــة صارمة على الشعر تستمد سلطانها من تلك الروح الجديدة.

أما الدكتور نجيب البهبيتي[1] فيردُّ هذه الأسباب إلى:

١ - أن تشبيه مشركي قريش النبي – عليه السلام – بالشاعر، ورفع القرآن نفسه عن هـــذا المعنى، جعل الناس ينظرون إلى الشعر على أنه تقليد جاهلي، فأصابه من ذلك ما أصـــاب جميع التقاليد الجاهلية التي حاربها الإسلام، وكأنما كان الناس ينظرون إليه نظرهم إلى أثـــر ديني لعصر وثني ذهب بكل أثقاله وبذكرياته الدامية الرهيبة.

٢ - أن أعداء الإسلام كانوا يحاربونه بالشعر، فلمّا عمَّ الإسلام، كانت كراهة هذا الشعر قوية في نفوسهم، فتناسوه وامتنعوا عن رواية ما كان منه من هذا القبيل.

٣ - أنه قد أخذ – أي الشعر – في العهد السابق للإسلام مباشرة يتجه إلى نحوٍ من التفكير جارٍ حول العقائد والدين. والشعر إنما يذهب هذا المذهب في طور شيخوخته، فأرخصه ذلـــك وحطَّه عن مستواه القديم من ناحية، وأوقفه موقف المخالفة من الإسلام من ناحية أخرى. وبذلك ذهب مع عصر التقلقل ملوك الشعر الذين كانوا أثراً من آثار عهد النضج الفني، وخلاصة عظمى لأزهر مقاييسه.

٤ - أن التماسك القومي الاجتماعي الذي كان أثراً من آثار النهضة الإسلامية صَحِبَه استمرار الانحدار الفني، فقد كان العصر حركة دائبة، ونضالاً شاغلاً للناس عن التفرغ إلى هـــذا النحو من النظر الفني، الذي إنما يوجد في الاستقرار، ومضي الزمن على انتظام أســـاليب الحضارة.

ويلخص الدكتور عبد العزيز الكفراوي[2] أسباب خمود أنفـــاس الـــشعر في مكـــة والمدينـــة، واضطراب قوائم عرشه في باقي الجزيرة العربية بما يلي:

---

[1] . تاريخ الشعر العربي/١١٣ – ١١٤.

[2] . الشعر العربي بين الجمود والتطور/٣٩ -٤٠.

١ - العداوة الشديدة بين الدعوة الإسلامية والشعر، لأن الشعراء كانوا شديدي الوطاة على الرسول – صلى الله عليه وسلم -، فهم قد آذوه في شخصه، وفي أهله، وفي دعوته.

٢ - تحرُّج مؤرخي الأدب ورواته من تدوين تلك الهجمات الشعرية التي شنَّها القرشيّون على الرسول وصحبه.

٣ - مهاجمة القرآن للشعراء في أكثر من موضع ورسمه، دستوراً للشعر لا يتعدَّاه.

٤ - نهي الإسلام عن التعظُّم بالآباء، وتحريم الخمر ،والتنفير من التعرض لأحساب الناس بالهجاء، وأعراضهم بالتشبيب.

هذه أهم الأسباب التي أثبتها هؤلاء الباحثون بين يدي أبحاثهم، وعندما قمنا بعرضها على شعر الفترة وأحداثها، وجدنا أن من هذه الأسباب ما ينطبق على حقبة معينة من هذه الفترة، وهي الحقبة المكية، ومنها ما يصدق على حقبة زمنية لاحقة، وهي عصر الراشدين، وقد وجدنا أن تعميمها على الفترة كلها أمر يجانب الحق ويخالف الواقع.

حقاً خفتَ صوت الشعر في السنوات المكية من الدعوة الإسلامية، تلك السنوات التي استغرقت ثلاثة عشر عاماً من الدعوة. ولكن مع هذا لم تَغِضْ منابعه، فقد ظل صوت أبي طالب، وأصوات بعض الشعراء من مهاجرة الحبشة، تتردد في بطاح مكة بين الحين والحين تعلن سخطها واحتجاجها على موقف المشركين من الإسلام، وتصميمها على تاييد النبي - عليه السلام - ودعمه.

ونظن أنَّ هذا الخفوت المؤقت – إن صَحَّ هذا التعبير – إنما هو ظاهرة طبيعية تلازم كل فكرة تدعو إلى عقيدة جديدة. فقد كان أسلوب القرآن الكريم في هذه الفترة أسلوباً فكرياً خالصاً، برمي إلى طرح الأفكار الجديدة، وإثارة القضايا المستحدثة ،وإعطاء المفاهيم الصحيحة عن الكون والإنسان والحياة.

وقد عجز الشعر عن أن يقدّم للناس ما وجدوه في القرآن العزيز من روعة، فانصرفوا عنه إلى حين، وشغلوا بما وجدوا في القرآن المبين من ألوان البيان ما يفوق بروعته ما عرفوه في الشعر، ويتجاوز سحره طاقة الشعراء وغيرهم من سائر الناس، وتضاءل الشعراء بالتالي امام تحدي القرآن الكريم لهم ولغيرهم من العرب.

فضعف الشعر أمام هذه المُثل الجديدة التي تختلف تمام الاختلاف عن المُثل الجاهلية التي اعتاد الشعر على تصويرها والتحدث عنها، وفقد حرية التعامل بنظمها ومفاهيمها وصورها.

وفقدت هذه القيم الجاهلية من ناحية أخرى طلاوتها، لأنها لم تَعُد ذكريات فاعلـة عزيـزة في تكوين الفرد والجماعة الجديدة، داخل إطارها الجديد، وإن ظلّت جزءاً من ماضيه، يـأنف منـه ويزدريه[1].

فليس غريباً إذن، أن يخفت صوت الشعر في هذه الحقبة من تاريخ الفترة، وذلك لأن الـشعر يمهّد للثورات، أو يصفها بعد أن تستقرَّ وتهدأ، أما في غمرة الكفاح الفكري، فإنه يُرْتَجُ على قائليه، ويضعف لديهم الدافع إلى قوله، لأنَّ الفكر يخاطب العقل ويستند، إلى البرهان والحجة.

أما الشعر فإنه يخاطب العاطفة ويعتمد على إثارة المشاعر والانفعالات، ولعلَّ هذا هو ما عنـاه ابن خلدون عندما قال:[2] ((انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم مـن أمـر الـدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن الكريم ونظمه ،فَأُخرِسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً)).

وحقاً ضَعُفَ الشعر بعد أن قُبض الرسول –صلى الله عليه وسلم – واستمر على ضعفه طيلة حكم الراشدين، فإنَّ انشغال المسلمين بالفتوح وتمصير الأمصار، قد ساعد على هذا الضعف فانصرف الشعراء عن القول إلاّ طائفة قليلة منهم كالحطيئة الذي ظلَّ يحمل عباءة الجاهلية فوق كتفيه.

ويشير عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - إلى ضعف الشعر وتخاذله في هذه الحقبة بقولـه:[3] ((كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحُّ منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولَهِيَتْ عن الشعر وروايته)).

وهذه الحقبة من تاريخ الشعر لا تندرج تحت الدراسة التي نقوم بها، ولكن على الـرغم مـن ذلك، نرى أنه من التجاوز على الحق ان تتخذ مقياساً شمولياً على فترة النبوة كلها.

والذي نذهب إليه بعد هذا الحديث أنَّ الشعر قد اتخذ دوره المناسب في الصراع بعد الهجـرة مباشرة، وشارك في الأحداث مشاركة فعالة، واستمر النشاط الأدبي قوياً مزدهراً إلى نهاية الصراع العسكري في الجزيرة العربية. وقد رأى نالينو[4] أنَّ الآداب العربية لم تزل في ذلك العصر – يعـني: عصر الرسول – زاهية، وأن الشعراء لم ينصرفوا عن أنواع تحريضهم.

---

1 . النعمان القاضي/ شعر الفتوح/١٧٤.

2 . المقدمة/٥٨١.

3 . طبقات الشعراء/١٧.

4 . تاريخ الآداب العربية/١٠٤.

ويقول **الدكتور شوقي ضيف**: ((ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن الإسلام أذكى جذوة الشعر وأشعلها إشعالاً، فإنَّ أحداثه حلَّت من عُقَد الألسنة، وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه، فإذا بنا نجد مكة التي لم تُعْرَف بشعر في الجاهلية ،يكثر شعراؤها[١] ونجد شعراء الإسلام قد مضوا يَصْدُرون عنه صدور الشذى عن الأزهار الأرِجة[٢]، فالشعراء الذين عاشوا في هذه الفترة، كانوا يعيشون من قبلها في الجاهلية، وكانوا يعبرون بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم، فلما أتمَّ الله نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه))[٣].

ويعود **الدكتور شوقي ضيف** في موضع آخر من كتابه، فيحدّد فترة ضعف شعر الصراع بعامين أي: منذ الفتح إلى أن انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى[٤]. ونحن نخالفه في هذا القول، ونظن أن الشعر لم يضعف في هذين العامين ،ولا في غيرهما من الأَعوام التي عاشها الرسول – صلى الله عليه وسلم - في المدينة، وإنما وُجّهَ هذا الشعر وجهة، أخرى غير وجهته فبعد أن كان حرباً على الإسلام وأداة للتحريض عليه والنيل من النبي – عليه السلام - غدا حرباً على أعدائه ومناوئيه من القبائل المشركة، وتحوَّل شعراء مكة ومن أسلم من شعراء القبائل إلى المنافحة عن الإسلام، وتوجيه لهيب هجائهم إلى هوازن ومن ناصرها من المشركين، كما نهج شعراء مكة وغيرهم من شعراء القبائل الوافدة على المدينة إلى مديح الرسول – صلى الله عليه وسلم - في حياته، والإكثار من رثائه بعد موته. ودليلنا على ذلك قول ابن سعد في الطبقات:[٥] ((وقال ابو سفيان بن الحارث في يوم حنين أشعاراً كثيرة تركناها لكثرتها)) وقول ابن عبد البر[٦] والنويري[٧] في عبد الله ابن الزِّبَعْرَى: ((وله في مدح النبي أشعار كثيرة ينسخ بها ما قد مضى من شعر في كفره)) ، وقول المرزباني[٨]: ((ومدح مالك بن عوف النصري النبي – عليه السلام - وغيره بأشعار كثيرة جياد)).

---

[1]. العصر الإسلامي/٤٦.

[2]. نفسه/٥.

[3]. نفسه/٤٢.

[4]. نفسه/٤٣.

[5]. الطبقات الكبرى/٤/٥٢.

[6]. الاستيعاب/٣/٩٠٣.

[7]. نهاية الأرب/١٧/٣١١.

[8]. معجم الشعراء/٣٦١.

ومن هنا نرى أن الشعر في فترة الصراع لم يضعف ولم يتوقف، بل ظلَّ قوياً مزدهراً. وكانت الخصومة بين المدينة وسائر المشركين بمثابة الدم الذي يجري في شرايين هذا الشعر فيكسبه النشاط والحيوية، وينأى به عن الضعف والهرم. ذلك أنَّ هذه الخصومة قد أنطقت بالشعر كثيرين من الشعراء والشواعر، ودليلنا على ذلك أنَّ قريشاً التي لم تكن تُعرَف بشعر كثير في الجاهلية – لأنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا[1] – قد نبغ فيها كثير من الشعراء والشواعر.

والشواهد على ازدهار الشعر في فترة الصراع كثيرة، فهذا عبد الله بن أُنيس يشير إلى نشاطه في الذَّبّ عن بيضة الإسلام بقوله:[2]

وكنت إذا همَّ النبي بكافر سبقت إليه باللسان وباليد

وكان مسافع بن عياض التيمي يؤذي النبي – عليه السلام - بشعره، وإلى هذا الأذى يشير حسان بن ثابت بقوله:[3]

يا آل تيمٍ ألا تَنْهَونَ جاهلكم قبل القِذافِ بِصُمٍّ كالجلاميد

كما يشير إلى عنف شعره وشدة وقعه على المشركين فيقول:[4]

لقد رميت بها شنعاء فاضحة يَظَلُّ منها صحيحُ القوم كالمُودِي

ويقول خوات بن جبير الأنصاري:[5] ((خرجنا حجاجاً مع عمر بن الخطاب، فسرنا في ركبٍ فيهم أبو عبيدة عامر بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف فقال القوم: غَنّنا من شعر ضرار، فقال عمر: دعوا أبا عبد الله فليُغَنِّ من بنات فؤاده ،فما زِلْتُ أغنّيهم حتى كان السَّحَر، فقال عمر: ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا)).

وقيل لأبي الدرداء صاحب الرسول – صلى الله عليه وسلم - يوماً:[6] ((مالَكَ لا تقول الشعر وكل لبيب من الأنصار قال الشعر؟ فقال: وأنا قد قلت شعراً، فقيل: وما هو؟ فأنشد بيتين.

وقال مالك بن أنس خادم النبي:[7] ((قدم علينا رسول الله وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر، قيل له: وأنت أبا حمزة؟ قال: وأنا)).

---

1. طبقات الشعراء/١٠٢.
2. السيرة/ق٢/٦٢٠ ، ونهاية الأرب/١٧/١٣٠.
3. الديوان/١٩١.
4. الديوان/١٩٢.
5. الإصابة/٢/١٤٣.
6. الاستيعاب/٤/١٦٤٨، وتفسير القرطبي/١/١٦٢.
7. العقد الفريد/٣/١٢٣.

وقال الشعبي[1] وسعيد بن المسيب[2]: ((كان أبو بكر شاعراً، وكان عمر شاعراً، وكان علي أشعرالثلاثة))، وفي سيرة ابن هشام[3] والروض الأُنُف[4] وأنساب الأشراف[5] والاستيعاب[6] ومعجم الشعراء[7] وتفسير القرطبي[8] وغيرها شعر للخلفاء الراشدين.

ولعل من أقوى الشواهد على ازدهار الشعر في فترة الصراع، هو هذا الشعر الضائع الذي تُنَبّه إليه المصادر القديمة، وهو شعر سوف نتناوله بالبحث بعد قليل. ونشير هنا إلى بعض الصفحات في بعض هذه المصادر، وذلك على سبيل المثال لا للحصر: (المغازي/١٨٧ والطبقات الكبرى/٤/٥٢ والاشتقاق/٢/٤٤٧ ومعجم الشعراء/٣١٧ والاستيعاب/٤/٤٧١ والبداية والنهاية/٣/١٨٦ الإصابة/١/٤٦).

وإذا ما بحثنا عن مظاهر هذا الازدهار فإننا نجدها في منابع هذا الشعر ومصادره ككتاب المغازي والطبقات الكبرى والسيرة النبوية وتاريخ الطبري والأغاني والاستيعاب وأسد الغابة والإصابة وغيرها من المصادر القديمة التي عنيت بأحداث الفترة أو بجانب منها.

فإن هذه الكتب قد أوردت ما يقرب من ستمائة نصٍّ لشعراء الفترة، وهذه لعمري كمية ضخمة، إذا ما عرفنا أنها نُظمت في فترة زمنية لا تزيد عن عشر سنوات. هذا عدا الشعر الكثير الذي تحرَّج الرواة من روايته ونقله فَضَلَّ الطريق إلينا.

وثمة مظهر آخر من مظاهر ازدهار الشعر في فترة الصراع، وهو ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، وهو الديوان الوحيد الذي وصل إلينا من بين دواوين الشعراء الذين شاركوا مشاركة حاسمة ومباشرة في الصراع. فإذا ما ألقينا نظرة فاحصة على هذا الديوان، وجدنا أنه يزخر بشعر الهجاء اللاذع الذي وزعه قائله على جميع خصوم الإسلام، ووجدنا كذلك: أن ما قيل منه في فترة الصراع القصيرة، يبلغ أضعاف أضعاف ما قاله حسان في عشرات السنين.

---

[1] . نفسه/١٢٣، الاستيعاب/٣/١٢٢٥.

[2] . البداية والنهاية/٤/١٣١.

[3] . السيرة/ق٢/١٩٧، ق١/٣٤٨، ٥٨٨، ٥٩٢.

[4] . الروض الآنف/٢/٧، ١٩٢، ٣٧٧.

[5] . البلاذري/١/٥٩٢ – ٥٩٣.

[6] . الاستيعاب/٤/١٢٢٥، ٢/٧٨٧، ١/١٨٢.

[7] . معجم الشعراء/ المرزباني/١٣٠ – ١٣١.

[8] . القرطبي/١٤/١٣٤.

ولعل من أوضح هذه المظاهر، تلك المناقضات الشعرية التي اشتعلت نارها بين شعراء الصراع وشواعره، فإن ما قيل منها في غزوات بدر وأحد والخندق وحدها يكاد يُشَكّلُ ديوان شعر ضخماً.

وهكذا نقف على حقيقة أمر هذا الشعر، ونرى أنه كان من الازدهار والغزارة بمكان. وعلى هذا نرى أن ما أُلصِقَ به من اتّهام، إنما كان ثمرة نظرة عجلى أو اعتماداً على رواية مفردة او قول فُهِمَ على غير حقيقته ،وقد أثبتنا من الشواهد ما يدل على غزارة هذا الشعر، ويشير إلى نشاط الشعراء.

♦ ظاهرة ضياع شعر الصراع

لقد قطع شعر الصراع رحلة طويلة قبل أن ينتهي إلى أيدي الرواة العلماء الذين عكفوا على جمعه، وقاموا بحفظه وتدوينه. وكان طبيعياً أن تسقط منه أشياء كثيرة في أثناء رحلته الشاقة. فقد ينسى الراوية بيتاً أو أبياتاً من القصيدة، وقد ينسى القصيدة كلها ، أو ينسى قائلها الحقيقي فينسبها إلى شاعر آخر أو يهملها.

والشواهد على طمس قسم كبير من شعر الصراع كثيرة، نجدها منثورة في المصادر القديمة التي عُنيت بهذا الشعر، وحرصت على حفظه أو حفظ قسم منه. ومن هذه الشواهد ما جاء عاماً مطلقاً ينسحب على الشعر الجاهلي، كما ينسحب على شعر الصراع، ومنها **قول أبي عمرو بن العلاء**[1]: ((**ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلاّ أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير**)). وقول ابن سلام[2]: ((ومما يدلُّ على ذهاب العلم – يعني: الشعر وسقوطه – قلة ما بقي بأيدي الرواة والمصحّحين لطرفة وعبيد)).

أما الشواهد التي تخص شعر الصراع فكثيرة كثرة يضيق البحث بإثباتها، منها ما نراه على صفحات السيرة من إعلان ابن هشام عن تركه من القصيدة بيتاً[3] أو أبياتاً[4] أو تركه القصيدة كلها[5]. ومنها قول محمد بن سلام[6]: ((**ولأبي سفيان بن الحارث شعر كان يقوله في الجاهلية، فسقط ولم يصل**

---

[1]. طبقات ابن سلام/١٧.
[2]. نفسه/٢٣.
[3]. السيرة/ق٢/٢٠.
[4]. نفسه/١٩.
[5]. السيرة/ق٢/٣٨ /٧٨.
[6]. طبقات ابن سلام/٩٦.

إلينا منه إلا القليل، ولسنا نعد ما يروي ابن إسحاق له، ولا لغيره شعراً، ولأنْ لا يكون لهم شعر، أحسن من ان يكون ذلك لهم)). وقول ابن كثير – بعد أن أورد ما ذكره ابن هشام من شعر غزوة أحد[1] – : **((**وقد روى ابن إسحاق في يوم أحد أشعاراً كثيرة تركنا كثيراً منها خشية الإطالة وخوف الملالة، وقد اورد الأموي في مغازيه من الأشعار أكثر مما ذكر ابن إسحاق كما جرت عادته ولا سيما ههنا**))**.

ونظن أن أكثر الشعر الذي لحقه الضياع هو شعر الهجاء، وبخاصة ما كان منه في هجاء النبي – عليه السلام - وأصحابه ودينه، ذلك أن عنف الصراع بين الإسلام وخصومه وكثرة الشعراء المشاركين في هذا الصراع تستدعي – بالضرورة –أن يندفع هؤلاء إلى هجاء خصومهم، وأن يكثروا من هذا الهجاء ويُقْذِعوا فيه.

وقد طالعتنا المصادر القديمة بإشارات كثيرة تدل على ضياع هذا اللون من الشعر، من ذلك ما يحدثنا به الواقدي في مغازيه[2] من أن الرسول – صلى الله عليه وسلم - قال في كعب بن الأشرف اليهودي: **((**لو أنه قرَّ كما قرَّ غيره، ممن هو على مثل رأيه ،ما اغتيل، ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر**))**. **ويحدثنا البلاذري: ((أن رجلاً من خزاعة سمع رجلاً من كنانة ينشد هجاءً في رسول الله فوثب عليه فشجَّه، فهاج ذلك بينهم الشر))[3]، وأنَّ بشر بن أبيرق الظفري المنافق كان يهجو رسول الله وأصحابه ثم ينحله بعض العرب[4]. ويذكر المرزباني: ((أن فرات بن حيان كان ممن هجوا رسول الله، ثم قدم عليه فمدحه، فقبل النبي – عليه السلام - مديحه وعفا عنه))[5].**

ولعل أوضح هذه الأدلة، ما نجده في شعر الشعراء أنفسهم، فهذا **حسان بن ثابت يشير إلى هجاء أبي سفيان بن الحارث لرسول الله بقوله[6]:**

أتهجوه ولست له بكفءٍ   فشرُّكما لخيركما الفِداءُ

وهذا كعب بن مالك يهجو عبد الله بن الزِّبَعْرَى لأنه هجا رسول الله فيقول له[7]:

تَبَحَّسْتَ تهجو رسول المليك   قاتلك الله جلفاً لعينا

---

[1]. البداية والنهاية/٤/٦٠.

[2]. المغازي/١٩١.

[3]. فتوح البلدان/٣٧.

[4]. أنساب الأشراف/١/٢٧٨.

[5]. معجم الشعراء/٣١٧.

[6]. الديوان/٦٤.

[7]. السيرة/ق٢/١٦١.

أما أنس بن زنيم الديلي، فإنه يدفع عن نفسه تهمة هجاء الرسول بقوله[1]:

وَنَبَّوْا رسول الله أنّي هجوته　　　فلا رَفَعتْ سَوْطي إليَّ إذَنْ يدي

بيد أن ما وصلنا من شعر اليهود كان قليلاً جداً، فهو لا يزيد على بضع قصائد ومقطوعات، نراها تتردَّد على صفحات كتب الأدب والتاريخ والسّيَر، ولا نكاد نجد فيها هجاء صريحاً للإسلام. وأكبر الظن أنَّ شعرهم كان من الكثرة بمكان، وأنه نبغ منهم شعراء كثيرون في المدينة على عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم -. ومن المرجح أن هؤلاء الشعراء جميعاً قد ذكروا دينهم وحضارتهم وتاريخهم ومكانتهم بين العرب. وسجلوا بشعرهم أحداث كفاحهم ضد الإسلام، **فالواقدي** يحدثنا أن كنانة بن أبي الحقيق كان من أشعر الناس، وأنه كان يهجو نبي الله[2].

ويحدثنا في موضع آخر أنَّ النبي – عليه السلام - خرج إلى يهود بني قريظة وهم يعيّرون المؤمنين بالكذب والسحر ويهجون النبي وأزواجه[3].

ونظن أن إهدار الرسول – صلى الله عليه وسلم - لدم **كعب بن زهير** لم يكن لأبيات بعث بها إلى أخيه بُجير فحسب، بل لأنه كان يلهج بالنبي – عليه السلام - ويحرّض عليه، ويدسُّ إلى محضره من يناله بالمكروه[4]، ولأنه كان يهجو من يُسلم من قبيلته – مُزينة – هجاءً مريراً[5]. ذلك أن الاهتمام الواسع بأمره، وأمر إسلامه يدلاّن على أنه كان يلعب دوراً خطيراً في عدائه للإسلام، وقد بدا ذلك واضحاً في اعتذاره للرسول – صلى الله عليه وسلم - حين قال[6]:

لا تأخُذنّي بأقوال الوشاة ولم　　　أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويلُ

وبهذا نرى أنَّ **شعر الهجاء بين أطراف الصراع** كان كثيراً، ولكن المصادر التي تشير إلى وجوده لا تكاد تروي منه شيئاً.

ولو بحثنا عن الأسباب التي أدت إلى ضياع هذا الشعر، لوجدنا أنها كثيرة، لعلَّ من أهمها: ما استشعره قائلوه من الندم على ما فرَّطوا في جنب الله، وبخاصة بعد أن أسلموا وفقهوا الإسلام،

---

1. الإصابة/١/٦٩.
2. المغازي/٣٧١.
3. نفسه/٣٩٣.
4. حديث الأربعاء/١/١١٨.
5. بروكلمان/١/١٥٦.
6. الديوان/٢٠.

فهانَ عليهم شعرهم باعتباره الوثيقة التي تكشف المخازي، وتظهر الفظائع التي ارتكبوها ضد الإسلام، فبادروا إلى التخلص منه، لأنه أثرٌ من آثار الماضي الذي غدا بغيضاً إلى نفوسهم. فهذا **أبو سفيان بن الحارث** الذي كان من ألدّ أعداء الرسول – صلى الله عليه وسلم -، نراه يقول لأهله عندما حضرته الوفاة: ((**لا تبكوا عليَّ فإني لم أتنطَّفْ بخطيئةٍ منذ أسلمت**))[1].

ومنها تحرُّجُ الرواة من نقل ذلك الشعر الذي فيه تعريضٌ بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحريضٌ عليه، وهو شعر نظن أنه كان مقذعاً ولاذعاً، فالقوم الذين يؤذون الرسول بأيديهم وسيوفهم، لا يتورَّعون عن تناوله بألسنتهم، فمن الطبيعي إذن أن يزهد الرواة فيه، وأن يُمسكوا عن روايته، رغبة عما فيه من تعريض بالإسلام، الذي أصبح كل شيء في حياتهم، وتجنباً لإثارة الأحقاد ،وبعث الضغائن بعد أن دفنها الإسلام أو كاد. قال السهيلي في الروض الآنف[2]: ((ولكني لا أعرض لشيء من أشعار الكفرة التي نالوا فيها من رسول الله إلا شعر من أسلم وتاب كضرار وابن الزبعرى. وقد كره كثير من أهل العلم فِعلَ ابن إسحاق في إدخاله الشعر الذي نِيلَ فيه من رسول الله، **قال أبو عبيد:** رواية نصف بيت من ذلك حرام، وعلى القول بالإباحة: فإن النفس تقذر تلك الأشعار وتُبغضها وقائليها في الله، فالإعراض عنها خير من الخوض فيها والتتبع لمعانيها)).

ويلوح لنا سببٌ آخر أدى إلى ضياع هذا الشعر، ذلك أنّ اندفاع المسلمين للجهاد في سبيل الله وانشغالهم التام بالحرب والفتوح، واهتمامهم بالحفاظ على القرآن والحديث وروايتهما، قد صرف كثيراً من الرواة والحُفّاظ عن الاحتفال بالشعر وروايته، ولا سيما أن حافظ القرآن غدَت مكانته الاجتماعية أكبر بكثير من راوية الشعر[3].

كما أن مشاركة هؤلاء الرواة والحفاظ في هذه الحروب التي اشتعلت بين الإسلام وخصومه كحروب الردة، وحرب صفين، وحرب الفتوح في الشام والعراق، قد أدَّت إلى موت الكثير منهم، وذلك قبل أن يدركوا عصر التدوين، فإذا كان القرآن قد خِيف عليه من الضياع لّما سقط مَنْ سقط من حافظيه خلال حروب الردة، وهي حرب لم تطل مدتها، فما أولى هذا الشعر بأن يذهب منه ما ذهب، وأن يغيب عنا من صُوره ما غاب، بعدما مَرَّ بحفاظه ورواته والأمناء عليه في كل هذه الحروب[4].

---

[1] . الاستيعاب/٤/١٦٤٨.

[2] . الروض الآنف/٢/٥٧.

[3] . مقدمة الدكتور يوسف عز الدين/ الإسلام والشعر/٦.

[4] البهبيتي/ تاريخ الشعر العربي/٤٨.

على أن هنالك أسباباً أخرى أدَّت إلى هذا الضياع لا تقلُّ أهمية عما ذكر، ويمكن إجمالها في خمسة هي: ذم القرآن الكريم والحديث للشعراء الذين تناولوا الرسول الكريم بالمعارضة والهجاء، وإهدار النبي – عليه السلام – لدم من هجاه من الشعراء على ما عُرف عنه من الرأفة والرحمة والعفو، وميل بعض العلماء إلى ترك بعض الشعر تجنباً للإطالة وخوف الملالة[1]، أو لأنَّ الشاعر أقذع فيها[2]، أو لأنَّ فيها كفراً بليغاً[3]، ومحنة المكتبة العربية التي ألَّمت بها عند سقوط بغداد على أيدي التتار، وأخيراً تلك المرحلة الزمنية الطويلة التي قطعها هذا الشعر، قبل أن يصل إلى أيدي المدونين.

وإذا ما تلمّسنا مظاهر هذا الضياع وجدناها في الأبيات المفردة التي حملتها لنا كثير من المصادر القديمة، وبخاصة اللغوية والنحوية منها، فمثل هذه الأبيات لا يمكن أن تكون قد قيلت يتيمة، فكثير منها يوحي بأنها انتزعت من قصيدتها أو مقطوعتها انتزاعاً، ومن ذلك قول **كعب بن مالك الأنصاري**:[4]

بِمُذَرَّبات بالأكفّ نواهلٍ   وبكل أبيض كالغدير مهندِ

وقوله:[5]

فكفى بنا فضلاً على من غيرنا   حب النبي محمد إيانا

وقول هند بنت عتبة:[6]

أفي السلم أعياراً جفاء وغلظةً   وفي الحرب أشباه الإماء العوارك

وقول كعب بن زهير:[7]

أرعى الأمانة لا أخون أمانتي   إنَّ الخئون على الطريق الأنكب

وغير هذا كثير في شعر الصراع.

وعلى الرغم مما أصاب شعر الصراع من الطَّمس والضياع، فقد وصلنا قسم كبير منه، ولكن هذا القسم الذي وصلنا لا يكاد يعبّر عن حقيقة الصراع تعبيراً دقيقاً. ذلك أن أكثر ما وصلنا منه منسوب إلى شعراء مسلمين، أما أطراف الصراع الأخرى كالمشركين والمنافقين واليهود فحظهم منه قليل.

---

1. البداية والنهاية/٤/٦٠ ، ٣/٣٤٣ ، وطبقات ابن سعد/٤/١٥٢.
2. السيرة/ق٢/٨١، ٩٢ ، ٩٣، ٢٦٨.
3. البداية والنهاية/٣/١٨٦.
4. الديوان/١٩٩.
5. الديوان/٢٨٩.
6. كتاب سيبويه/١/٣٤٤ ، الخزانة/١/٥٥٦.
7. الديوان/٢٥٨.

وقد تَكَشَّف لنا ذلك بوضوح عندما قمنا بإحصاء ما وصلنا منه في كتاب واحد كالسيرة[1]، حيث وجدنا فيه أربعة وخمسين نصاً ومائتين لشعراء المسلمين، أما أطراف الصراع الأخرى فوجدنا لهم فيه تسعة وثلاثين نصاً ومائة فقط. ومن هنا فإن هذه النصوص القليلة الموزعة على خصوم الإسلام جميعاً، لا تكاد تتيح لنا استجلاء مواقف هؤلاء الخصوم – من خلال ما وصلنا من شعرهم – إلا بقدر.

وكما قاسى هذا الشعر من محنة الضياع والعبث، فإنه قد قاسى – ولا يزال – كذلك من محنة أخرى لعلها أكثر خطورة على كيانه، وهي محنة الشك والانتحال. وقد تصاعدت بواعث هذا الشك في العصر الحديث ،حتى أخذت بخناق هذا الشعر كله. وعلى هذا فسوف نقوم بمحاولة توثيق هذا الشعر في ما يتبع من صفحات علنا نستطيع أن نوجد له متَّسعاً بين سائر الشعر العربي.

ثانياً: توثيق شعر الصراع

وحين نمضي إلى توثيق هذه النصوص الشعرية التي توافرت لدينا من شعر الصراع، والمتهم بعضها بأنه يحمل وجهاً غريب الملامح على عصره، وسمات مغايرة لطبيعة هذا العصر وروحه، ينبغي ألاّ يغيب عن ذهننا أولئك الرجال الذين قاموا بنقلها وروايتها حتى وصلت إلينا. ومعنى هذا أنه ينبغي لنا أنْ نستحضر طرفي القضية: الرواة والنص ثم نتناولهما بالدراسة والتمحيص.

أما الطرف الأول وهم الرواة، فإن أخبارهم ومعطياتهم لم تصلنا بالرواية الشفوية، وإنما حُملت إلينا على صفحات بعض الكتب القديمة التي عُنيت بنقل شعر الصراع وروايته. وعلى هذا، فأول ما ينبغي لنا أن نفعله هو الوقوف على الكتب التي نقلت لنا هذا الشعر مشفوعاً بالسند، وهذا لا يعني أن نهمل غيرها من الكتب المعاصرة لها، فربما حمل إلينا بعضها ملاحظات هامة حول ما نقل من هذا الشعر، بحيث ينير أمامنا بعض جوانب البحث، ثم نقوم بتمحيص مادة كل كتاب للوقوف على: موضوعه، ومؤلفه وزمن وفاته، وسعة اطلاعه، وحظه من الصدق والأمانة ،ومدى اهتمامه بالإسناد واحتفاله بنقل الروايات المختلفة للنص الواحد. ثم نقف على المصادر التي نقل منها، والعلماء الذين أخذ عنهم، والمدرسة العلمية التي ينتمي إليها، والآراء الفكرية التي يحملها، فهذه المعلومات تفيدنا ولا شك – بعد التحقق من رجال السند – في اعتماد ما ورد فيه من شعر الصراع، أو تحملنا على الحذر من معطياته والبحث في مصدر آخر غيره، وينبغي لنا أن نُعير زمن

[1] . اخترنا كتاب السيرة لأنه روى أكثر شعر الصراع.

تأليف الكتاب عناية خاصة، فكلما تقادم عهد نأليفه، كان اتصاله برواة هذا الشعر أوثق، وإسناده أقصر، مما يسهّل لنا مهمة القيام بالتحقق من رجال السند.

ومن ثَمَّ ننطلق إلى تعقُّب هؤلاء الرواة الذين حملوا إلينا هذا الشعر، فنقف على السند لننظر في رجاله، ثم نخضع هؤلاء الرجال للنقد والدراسة فنتحقَّق من علمهم وصدقهم وأمانتهم، ونبحث عن شيوخهم وتلاميذهم، فقد يفيدنا ذلك في كشف زيف بعض الروايات، كأنْ يذكر أحد الرواة انه أخذ النصَّ الذي أورده عن الواقدي مثلاً، ثم يتبين أنهما لم يجتمعا، أو لم يتعاصرا، ويدفعنا هذا إلى الإلمام بحياة هؤلاء الرواة ،ومدى حظهم من التوثيق أو التجريح إذا كنا حريصين على الاطمئنان إلى سلامة السند. ووسيلتنا في ذلك أن نعرض هؤلاء الرواة على الكتب التي ترجمت لهم وجمعت أخبارهم – وهي كثيرة – لنطلع على آراء العلماء فيهم.

وعند الوقوف على آراء العلماء الموثقين منهم والمجرحين، ينبغي لنا أن نتحقق من هذه الآراء فنستقصي **الدوافع والأسباب التي حملتهم على التوثيق**، أو دفعت بهم إلى التجريح. هل هم من مدرسة الراوية وتلاميذه وشيوخه؟ أم هم من خصومه ومنافسيه؟ فهذه الملاحظات قد تعيننا على تكوين صورة عن الراوية، إن لم تكن دقيقة، تكون قريبةً من الحقيقة.

وإذا ما وجدنا انقطاعاً في الإسناد، أو كان في السند رواة متهمون أو مجهولون، نقوم بالبحث عن مصدر آخر كسبيل لتوثيق النص واعتماده، ولكن الصعوبة التي تواجهنا هنا، تكمن في قلة المصادر التي تحفل بالسند وتعتني بإثباته. ويمكن أن تُذلل هذه الصعوبة إذا ورد النص في جميع المصادر، سواء تلك التي تعتني بإثبات السند أو غيرها، أو إذا أبدى مؤلفو بعض المصادر من الملاحظات ما يعين على توثيق النص أو الشك فيه.

والرواة – كما لاحظنا في الكتب التي ترجمت لهم واهتمت بأمرهم – بين ثقةٍ مأمونٍ ومتهمٍ كذوبٍ، ومغمور لم يُذكر في كتب التراجم.

ومصدر الاتهام – فيما يبدو – هم الرواة أنفسهم، فقد تقاذف هؤلاء الرواة بشتى التهم، حتى لا نكاد نجد راوية واحداً منهم قد سلم من الطعن والتجريح. وقد لاحظت من خلال دراستي لرواة شعر الصراع أنَّ أسباب الاتهام مردُّها – في الأغلب الأعم – إلى التعصُّب العلمي الذي كان محتدماً بين مذهبي: الكوفة والبصرة، واختلاف المصادر التي أخذ عنها رواة المذهبين، والتنافس على الكسب أو الحظوة لدى الخلفاء والأمراء، والميول السياسية والحزبية، فقد يرى هذا الراوية العالم رأي القدرية، بينما يري الآخر رأي الشيعة، وربما كان هذا الراوية العالم أموي الهوى، وكان الآخر

عباسي النزعة، فيحمله هذا التعصب لفرقته أو زعمائه السياسيين على اتّهام خصومهما والنيل منهم. مثال ذلك أن تهمة الوضع والانتحال كانت تأخذ بِضَبْعِ حَمَّادٍ وخلف كليهما، غير أن يونس النحوي وابن سلام الجمحي – وهما من علماء البصرة الثقات – قد وثّقا خلفاً البصري، واتهما حماداً الكوفي. وروى ابن هشام – البصري النشأة – عن خلف الأحمر[1] وأبي زيد الأنصاري[2] ويونس النحوي[3] وأبي عبيدة[4]، وهم من علماء البصرة، بينما لم نجد أنه روى عن عالم كوفي. ومن هنا، فإنه يجدر بنا أن نتريَّث كثيراً قبل أن نصدر حكمنا على الراوية العالم. ((**فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يُتأنى فيه**))[5].

على أن هناك رواة اتفق العلماء على تقديمهم، وأجمعوا على أمانتهم ونزاهتهم، ولم يطعنوا في علمهم ورواياتهم. وقد أشار الواقدي في بعض الأحيان إلى إجماع الرواة الأثبات الذين أخذ عنهم الشعر، على توثيق هذا الشعر واعتماده، مثال ذلك أنه عقَّب على بعض ما روي من شعر الصراع بقوله: ((**وهي ثَبَتٌ لم أر أحداً يدفعها**))[6] و ((**ما رأيت من أصحابنا أحداً يدفعه**))[7]. وأشار في أحيان أخرى إلى بعض الرواة المتهمين، ونبَّه إلى ما انفردوا بروايته، من ذلك أنه أورد نصاً لعِباد بن بشر الانصاري في قتل كعب بن الأشرف اليهودي ثم عقَّب عليه بقوله: ((قال ابن حبيبة: أنا رأيت قائل هذا الشعر، وقال ابن أبي الزناد: لولا قول ابن حبيبة لظننت أنها ثَبَت))[8].

ومن هنا، فأوثق النصوص عندنا، هي ما رويت عن مثل هؤلاء الرواة، وحَملت مثل هذه الملاحظات، فهم قد تنبهوا إلى وجود الشعر الموضوع، وأدركوا أنَّ هذا الشعر واضح متميز في متنه ومنهجه، وفي طبيعته وسمته، وفي الدلالات التي يرمي إليها وينحو نحوها، فدعتهم أمانتهم وحرصهم إلى استقراء ما وصلهم من شعر الصراع، والعكوف على تَفْلِيَتِه، فعرضوا لرواته وناقليه ونبَّهوا على الثقات منهم والمتهمين، وأفاضوا في ذلك إفاضة، واستقصوا استقصاءً بحيث لم يتركوا

---

[1]. السيرة/ق٢/٣٣، ٧٩، ٤٦٨.

[2]. السيرة /ق١/٤٤٥، ٦٦٤ – ق٢/٢٢، ١٣٢، ١٦١، ١٨٠، ٢٦٦، ٣٣٣.

[3]. السيرة/ق٢/٤٩٤.

[4]. السيرة /ق١/ ٤١٥، ٥٣٨، ٥٧٤ – ق٢/٢٩، ٣٠٧، ٣٩٢.

[5]. ميزان الاعتدال/٣/٤٩٩.

[6]. المغازي/١٩١.

[7]. نفسه/٤٣٦.

[8]. نفسه/١٩٠.

زيادة لمستزيد، وبلغ من دقتهم ومعرفتهم بهذا الشعر أنهم كانوا يُخرجون البيت أو الأبيات المصنوعة من المقطوعة أو القصيدة[1]، ثم يقومون بردّها إلى قائلها الحقيقي[2]، وربما أشاروا إلى واضعها أحياناً[3]، وساعدهم على تسهيل مهمتهم هذه قرب اتصالهم بمنابع شعر الصراع ومصادره من جهة، وتمكنهم من اللغة، ومعرفتهم بغريبها من جهة أخرى.

ورواة شعر الصراع الذين حامت حولهم الشبهات، وأثيرت حولهم الشكوك قلة قليلة، ومن أبرزهم: محمد بن إسحاق وخلف الأحمر. أما خلف فقد وثقه كثير من العلماء الثقات واعتمدوا روايته. وأما ابن إسحاق فَاتُّهِمَ بالتهاون والتفريط في أخذ الشعر، إذ كان يؤتى به فيحمله دون تمحيصه، أو عرضه على أهل العلم به، ليقولوا كلمتهم فيه، مما دفع العلماء إلى فضحه، وإسقاط المنحول مما رواه، غير أن رواياته المسندة إلى الصحابة والتابعين وغيرهم من الرجال العدول التي اعتمدها القدماء من علمائنا فحريٌّ بنا أن نقبلها ونثق بها.

وبعد أن وقفنا على رواة شعر الصراع، ننتقل إلى **النظر في النصوص** نفسها لنرى إلى أي مدى نستطيع أن نثق بها ونعتمدها.

وأول ما ينبغي أن نتنبَّه إليه ،هو حصر المصادر التي حملت إلينا هذه النصوص أو بعضها، ثم نقوم بدراسة هذه المصادر لنقف على نصيبها من الثقة والاعتبار، وذلك بالنظر إلى مُصَنّفيها وموضوعاتها، والغرض من تأليفها، والمصادر التي أخذ عنها هؤلاء المصنفون، ثم نحصر اهتمامنا بأقدمها وأوثقها خاصة.

وتواجهنا عدة صعاب ونحن ننظر في هذه المصادر، منها: تفاوتها في رواية النصوص، فمنها ما يورد النصَّ كاملاً، ومنها ما يكتفي بإيراد بيت أو عدة أبيات ، تبعاً لموضوع المصدر، والغرض من تأليفه، ومنها ما يُخلُّ بترتيب الأبيات، أو يغيّر في بعض ألفاظها، وذلك تبعاً للمصدر أو الراوية الذي أخذ عنه المؤلف، وسبيلنا في التغلب على هذه الصعوبة، أن نقوم بعرض ما روي في هذه المصادر من أبيات النص على أوثق ما اعتمدناه منها، ونلاحظ مدى الاختلاف في ترتيب الأبيات أو الألفاظ، فنقبل منها ما وافق هذه المصادر.

---

[1] . السيرة/ق١/٥١٣ – ق٢/٧٨.

[2] . السيرة /ق٢/١٣٢، ٣١٢، ٣٧١، ٢٦٩.

[3] . طبقات الشعراء/٩٨.

على أنه ينبغي لنا أن نتساهل في ما يطالعنا في هذه المصادر من إخلال في ترتيب الأبيات، أو اختلافٍ في بعض ألفاظها، فهذا أمر طبيعي، إذا راعينا طول الفترة الزمنية التي قطعتها هذه النصوص، وهي تُتَناقل عن طريق الرواية الشفوية، وقبل أن تصل إلى عصر الكتابة والتدوين، وربما كان مردُّ هذا الاختلاف إلى المصادر الأولية التي أخذ عنها هذا الراوية أو ذاك، أو التفاوت في قدرة الرواة على الحفظ، فقد ينسى الراوية "كلمة" من البيت، فيعمد إلى وضع كلمة ترادفها ولا تُخلُّ بالوزن.

ومن الصعوبات التي تواجه الباحث في شعر الصراع هي اختلاط النسبة في هذا الشعر، فكثيراً ما تطالعه نصوص منسوبة إلى أكثر من شاعر. وقد بيَّنّا في صفحات سابقة من هذا الفصل أسباب هذا الاختلاط وبواعثه ومظاهره. والسبيل إلى تذليل هذه الصعوبة، وهي التحقق من الشاعر الحقيقي الذي قال النص، أن نرجع إلى مختلف الروايات التي أوردت هذا النص فنعتمد أوثقها – بعد الدرس والتَّفْلية – ثم نتعرَّف المناسبة التي قيل فيها والموضوع الذي طرقه، والأفكار التي عالجها. ونقف بعد هذا كله على شعر الخصوم في تلك المناسبة، فقد يكون فيه إشارة إلى الشاعر الذي قال النص، فهذه الأمور مجتمعة قد تعين في تعيين الشاعر القائل.

وقد يتعقد الأمر بعض الشيء، وذلك حين تختلط نسبة النص بين شاعرين يؤمنان بالأفكار نفسها، كأنْ يكونا مسلمين ،أو يكونا مشركين، وهنا يصعب علينا أن نعيّن منشيء النص الحقيقي. وقد يسهل الأمر علينا إذا وجدنا في بعض ما بين أيدينا من مصادر ما يشير إلى منشيء النص، سواء من بعيد أو من قريب. أما إذا افتقرنا إلى ذلك، فنجد أنفسنا حينئذٍ مضطرين إلى عرض النص على شعر كل من الشاعرين اللذين يتنازعان نسبته، فإن كان يخضع لنفس الأسلوب الذي درج عليه أحدهما، أو كان فيه من الألفاظ والمعاني والأفكار التي نهج على ترديدها، رجّحنا نسبته إليه.

ولعل الشعر المجهول القائل، هو أخطر الصعوبات التي تطالعنا في هذه المصادر، وسبب ذلك أننا مطالبون بالتحقق من نسبته أولاً، ومطالبون بالتحقق من اصالته بعد ذلك، وقد تُذلل الصعوبة التي تقف في سبيل توثيقه، لو استطعنا أن نتحقق من نسبته إلى الشعراء الذين قالوه. وفي محاولتنا التحقق من نسبته نطيل البحث في المصادر التي عنيت بشعر الصراع، فإن وجدنا في بعضها ما يشير إلى نسبة نص منه إلى شاعر معيَّن، رجَّحنا هذه النسبة إذا وجدنا من الروايات المعتمدة أو الأحداث التاريخية ما يعزز ذلك.

وإذا كان السبيل إلى التحقق من نسبته مسدوداً، نتجّه حينئذٍ إلى التحقق من أصالته، هل قيل في فترة الصراع التي نضطلع بدراستها، أم قيل في فترة زمنية لاحقة؟ وهنا ننظر في المصادر مرة أخرى، فما تردَّد منه في جميعها، وأجمع عليه الرواة قبلناه واعتبرناه أصيلاً، وإن روي في بعض هذه المصادر عن رواة أثبات رجَّحنا هذه الأصالة وإلا رفضناه.

وأوثق المصادر المعتمدة للنصوص الشعرية هي الدواوين التي اعتمدها العلماء الثقات من القدماء، ووصلتنا أصولها صحيحة. ولكن شعر الصراع يفتقر إلى هذا النوع من المصادر، إذ لم يصلنا من دواوين الشعراء الذين شاركوا في الصراع مشاركة حاسمة غير ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، أما غيره من شعراء الصراع – وهم يومئذٍ كثير – فلم تصلنا دواوينهم، ولو وصلتنا أو وصلنا أكثرها، لبدا أمر توثيق هذا الشعر أقل عناء واكثر سهولة.

وعلى هذا، فليس أمامنا من سبيل سوى اعتماد النصوص التي وردت في بعض المصادر، ككتاب المغازي والسيرة وطبقات الشعراء وأنساب الأشراف وتاريخ الرسل والملوك وكتب التفسير والحديث. وسبب ذلك يرجع إلى قِدَم هذه المصادر من جهة، وإلى أنَّ مؤلفيها موثوق بهم من جهة أخرى. كما أن مؤلفي هذه المصادر يعيرون السند عناية خاصة، فيروون أخبارهم ومعطياتهم مشفوعة بالأسانيد. وكان اعتمادنا على السيرة أكثر من غيرها، فهي تضم أكثر شعر الصراع، كما أن مؤلفها قد قام بعرض ما توافر لديه من نصوص على أهل العلم بالشعر، والخبيرين بمصادره، والمتصلين برواته، فكثيراً ما يطالعنا بعبارات: ((**وحدثني من أثق به من أهل العلم بالشعر**))[1] و ((**أكثر أو بعض أهل العلم بالشعر ينكرها**))[2].

أما النصوص الفائضة فينبغي أن نتريَّث كثيراً قبل أن نقضي برفضها، إذ تقتضينا الأمانة العلمية أن ننظر في مصادرها ورواتها، ونناقش أسانيدها وطرق روايتها، فربما حُمِلت من مصادر موثقة لم يطالع عليها مؤلفو المصادر التي اعتمدناها، وربما سقط إلى غيرهم من العلماء، ما لم يسقط إليهم. فهذا **خلاّد بن يزيد الباهلي** يقول لخلف: ((بأي شيء تردُّ هذه الأشعار التي تروى؟ فيقول: هل فيه ما تعلم أنه مصنوع لا خير فيه؟ فيقول خلاد: نعم، فيقول: أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ فيقول: نعم. فيقول خلف: **فلا تُنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت**))[3].

---

1. السيرة/ق٢/٤٥٧.
2. نفسه/٩، ٤١، ٥٣، ١٨٣، ٥٦٣، ٢٨، ٣٩، ١٦٥.
3. طبقات الشعراء/٦.

على أننا قد نستطيع تمييز الشعر المنحول إذا نحن أخضعناه لامتحان دقيق، كأنْ ننظر في أفكاره وصوره وألفاظه ومعانيه، ونقف على مدى مطابقتها أو عدم مطابقتها لطبيعة فترة الصراع، ونلاحظ مدى مطابقة هذا الشعر للحدث التاريخي، والتصاقه بسياق الخبر، وأن ننظر في أسماء المواضع والأعلام التي وردت فيه، وأن نقوم بدراسة شعر الخصوم، الذي قيل في المناسبة نفسها وبخاصة النقائض، فإن وجدنا في هذه الأشياء ما يعين على توثيق النص قبلناه، وإلا وقفنا منه موقف الحذر.

وصفوة القول: علينا أن نحذّر من الشعر الذي يبدو متناقضاً في أفكاره، كبعض الشعر المنسوب إلى **ورقة بن نوفل**، فإذا ما وقفنا على ما روي منه في السيرة[1] وفي البداية والنهاية[2] وفي خزانة الأدب[3]، فإننا نجد فيه من التناقض ما يحملنا على الشك فيه، إذ نراه يعلن في بعضه عن استعداده لاتباع محمد عندما يُبعث، ونراه في بعضه الآخر يسمع من الرسول الكريم أحاديث النبوة وعلاماتها، ومع هذا نراه يموت على غير الإسلام.

وعلينا أن نحذر أيضاً من الشعر الذي يتعارض مع مفاهيم الدين الإسلامي الحنيف، كالشعر تشكَّكَ فيه القرطبي[4] مثلاً، والشعر الذي قيل بمناسبة إسلام بعض الصحابة، والذي يخالف روح الإسلام، فيُظهر من ورع بعض الصحابة ما فيه خروج على مفاهيم الإسلام، والشعر المنسوب إلى قريش لأنها زادت في أشعارها[5]، وذلك المنسوب إلى الهاشميين خاصة، كالديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب، فمثل هذا الشعر ينبغي له أن يوضَعَ على محك النقد والدراسة قبل إبداء الرأي فيه، ولكننا مع هذا نرجّح أنه مصنوع.

أما الشعر المنسوب إلى الجن فنقف منه موقفين:

أولهما: الشعر الذي تردَّد منه في جميع كتب التفسير والسير والمغازي والأدب وأجمع عليه الرواة، وهذا نقبله من حيث أصالته، على أنه قيل في فترة الصراع، ولكننا في الوقت نفسه نتفق مع بعض

---

1. السيرة/ق٢/١٩٢، ٢٣٢.
2. البداية والنهاية/٣/١٠، ١١.
3. خزانة الأدب/٢/٣٧.
4. تفسير القرطبي/١٩/١٣٤.
5. طبقات الشعراء/٩٧.

الدارسين المحدثين[1] الذين شكوا في صحة نسبته إلى الجن. وقد وجدنا من القدماء[2] من تنبَّه إلى ذلك، فنسب بعض هذا الشعر إلى قائل من المسلمين.

ثانيهما: الشعر الذي ورد في بعض المصادر واختلف فيه الرواة، وهذا نقف منه موقف الشك والارتياب.

وبعد أن فرغنا من محاولة توثيق شعر الصراع بصورة عامة ننتقل إلى إلقاء نظرة خاصة على جهد عبد الملك بن هشام الحميري في توثيق شعر السيرة ثم نبدي ملحوظاتنا حول هذا الجهد.

دراسة ابن هشام الحميري المعافري لشعر السيرة:

لعل الذوق الأصيل في جماهير الناس، وأصالة الذوق الشعري عندهم، جعلتهم يتنبَّهون إلى ما حُشي في كتاب السيرة من الشعر المزيَّف، ويواجهون العالم ابن إسحاق بإنكاره، وهو يعتذر لهم ويقول: لا عِلْم لي بالشعر، أوتى به فأحمله. وابن النديم يؤكد تنبُّه الرواة لهذا الشعر المزيف ومبادرتهم إلى التخلص منه بقوله:[3] ((**فضمَّن كتابه ما صار به فضيحة عند رواة الشعر**)).

وقد لاحظ عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٨هـ كثرة هذا الشعر المصنوع، فعكف على دراسته، ثم قام بتنقيته، مستعيناً على تحقيق ذلك بالثقات من العالمين بالشعر، وقد حدد منهج عمله في أول الكتاب فقال:[4] ((**وتارك أشعاراً ذكرها – يعني: ابن إسحاق – لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يُقِرَّ لنا البكائي بروايته، ومستقصٍ – إن شاء الله تعالى – ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به**)).

وبعد أن حدد منهجه في الدراسة، قام باستقصاء ما حُمل إلى ابن إسحاق من شعر فتناوله بالرفض والاختصار والنقد، وذكر ما فات ابن إسحاق ذكره، هذا إلى تكملة أضافها أو رواية أتى بها، ثم أعلن عن شكّه في بعض ما أورد من روايات. ولدى تعقُّبنا لعمل ابن هشام على صفحات السيرة، وجدناه يعتمد في شكّه سبع عباراتٍ:

---

[1] . الرافعي: تاريخ آداب العرب/١/٣٧٦، ٣٧٩ – في الأدب الجاهلي/١٣٤ – الشهاب الراصد/٢١٢ – محمد الخضر حسين: نقض كتاب في الشعر الجاهلي/١٩٠.

[2] . أنساب الأشراف/١/٢٦٢.

[3] . الفهرست/١٣٦.

[4] . السيرة/ق١/٤.

أولها: يورد ما رواه ابن إسحاق من شعر، ثم يعقّب على كل نص يورده لكـــل شـــاعر بقولـــه: ((وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له))، من ذلك بعض ما روى ابن إسحاق لكل مـــن: أبي بكـــر الصديق[1] وعبد الله بن الزِّبَعْرَى[2] وسعد بن أبي وقاص[3] وحمزة بن عبد المطلب[4] وأبي جهل[5] والحارث بن هشام[6] وهند بنت أثاثة[7] وميمونة بنت عبد الله[8] وكعب بن الأشرف اليهودي[9] وحسان بن ثابـــت[10] والزبرقان بن بدر التميمي[11]. وقد تكرر ذلك منه في أربعة عشر موضعاً.

ثانيها: يروي شعراً رواه ابن إسحاق ثم يعقب عليه قائلاً: ((**وأكثر أهل العلم بالشعر يشكُّ فيها له**)) وقد جـــاء ذلك في موضعٍ واحدٍ عندما روى نصاً لعلي بن أبي طالب أوله:[12]

نصَر الحجارة من سفاهة رأيه ونصَرْتُ ربَّ محمد بصوابي

ثالثها: يروي شعراً رواه ابن إسحاق ثم يعقب على كل قصيدة رواهـــا بقولـــه: ((**وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له**)). وقد ردَّد ذلك في عشرين موضعاً عندما أورد شعراً لمالك ابن الدخشم[13] ومكرز بن حفص[14] وعبيدة بن الحارث بن المطلب[15] وضرار بن الخطاب الفهري[16] والحارث بن هشام[17] وهند بنت عتبـــة[1]

---

1. نفسه/٥٩٢.
2. نفسه/٥٩٤.
3. نفسه/٥٩٥
4. السيرة/ق٢/٨ ، ق١/٥٩٦.
5. السيرة/ق١/٥٩٨.
6. السيرة/ق٢/١٠.
7. السيرة/ق٢/٤٢، ٥٣.
8. السيرة/ق٢/٤٢، ٥٣.
9. نفسه/٥٣.
10. نفسه/٥٣، ١٥٥، ١٨٣.
11. نفسه/٥٦٣.
12. السيرة/ق٢/٢٢٥.
13. السيرة/ق١/٦٤٩، ٦٥٠
14. السيرة/ق١/٦٤٩، ٦٥٠
15. نفسه/ق٢/٢٣.
16. نفسه/٢٨، ١٤١، ١٦٥.
17. نفسه/٢٨

وعمرو بن العاص[2] وعبد الله بن الّزِبَعْرَى[3] وخُبَيْب بن عدي[4] وحسان بن ثابت[5] ومسافع بن عبد مناف[6].

رابعها: يورد ما اورده ابن إسحاق من شعر ثم يقول: ((**ولم أرَأحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها**))وقد تكرر ذلك منه في أربعة مواضع[7] منها:[8]

- أنه أورد قصيدة علي بن أبي طالب يوم بدر ومطلعها:

ألم تر أنَّ الله أبلى رسوله　　　　بلاء عزيز ذي اقتدار وذي فضل

- ثم أورد نقيضتها للحارث بن هشام وأولها:

عجبت لأقوام تغنّى سفيههم　　　　بأمرِ سفاهٍ ذي اعتراض وذي بُطلِ

وصدَّرهما بقوله: ((ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتها، وإنما كتبناهما لأنه قال: إن عمرو بن عبد الله بن جدعان قتل يوم بدر، ولم يذكره ابن إسحاق في القتلى وذكره في هذا الشعر)).

خامسها: روى عن ابن إسحاق قصيدة أبي طالب التي مطلعها:[9]

ولما رأيت القوم لا وُدَّ فيهم　　　　وقد قطعوا كلَّ العُرى والوسائل

ثم عقَّب عليها بقوله:[10] ((**هذا ما صحَّ لي من هذه القصيدة وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها**)).

سادسها: يروي أبيات الشعر التي أوردها ابن إسحاق وينسبها كما نسبها، ثم يبيّن أنها تُنسب كلها أو بعضها إلى غيره، وقد تكرر ذلك منه في خمسة وعشرين موضعاً. ومثال ذلك: قال ابن إسحاق:

---

1. نفسه/٣٩، ١٦٨.
2. نفسه/١٤٧.
3. نفسه/١٤٣، ٤٢٠.
4. نفسه/١٧٦.
5. نفسه/١٤٣، ١٧٧، ١٧٨، ٢٦٨، ٢٦٩.
6. نفسه/٢٦٧.
7. نفسه/١٦٥، ١٦٩.
8. نفسه/١١، ١٢.
9. نفسه/ق١/٢٧٢، ٢٨٠.
10. نفسه/ق١/٢٧٢، ٢٨٠.

((**وقال عبد الله بن رواحة[1] يبكي حمزة بن عبد المطلب. قال ابن هشام: أنشدنيها أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك**)).

وأورد أبياتاً لأبي سفيان بن الحارث أولها:[2]

أحسّان إنا يا ابن آكلة الفَغا وجدّك نغتالُ الخُزوقَ كذلكِ

ثم قال:[3] وأنشدني أبو زيد الأنصاري هذا البيت:

خرجنا وما تنجو اليعافير بيننا

والبيت الذي بعده لحسان بن ثابت في قوله:[4]

دعوا فلجات الشام قد حال دونها

وأنشدني له فيها بيته: ((فأبلغ أبا سفيان))

وروى ابن إسحاق أبياتاً نسبها لحسان بن ثابت مطلعها:[5]

فَخَرتم باللواء وشرُّ فخرٍ لواء حين رُدَّ إلى صؤاب

فرواها ابن هشام ثم قال: ((**آخرها بيتاً يروى لأبي خراش الهذلي وأنشدنيه له خلف الأحمر**:

أقرَّ العين أنْ عُصبت يداها وما إن تُعصبان على خضابِ

في أبيات له يعني: امرأته في حديث غير حديث أحد، وتروى الأبيات أيضاً لمعقل بن خويلد الهذلي)). وأورد ابن إسحاق نصاً لحسان بن ثابت أوله:[6]

ألا أبلِغْ أبا هِدْمٍ رسولاً مُغَلْغَلَةً تَخُبُّ بها المطيُّ

فقال ابن هشام: ((**وتروى هذه الأبيات لربيعة بن أمية الديلي ويروى فيها آخرها**:

كببْتُ الخزرجي على يديه وكان شِفاء نفسي الخزرجيُّ

وتروى أيضاً لأبي أسامة الجشمي)).

وروى ابن إسحاق نصاً لأبي قيس صِرمة بن أبي أنس مطلعه:[1]

---

1. نفسه/ق٢/١٦٢.
2. السيرة/ق٢/٢١٢، ٢١٣.
3. السيرة/ق٢/٢١٢، ٢١٣.
4. السيرة/ق٢/٢١٣.
5. نفسه/٧٨-٧٩.
6. نفسه/٢٦٩.

ثوى في قريش بضعَ عشرة حجةً   يُذكّر لو يلقى صديقاً مواتيا

فرواه ابن هشام ثم عقَّب عليه بقوله: ((البيت الذي أوله:

فَطَأْ مُعرِضاً إنَّ الحتوف كثيرة

والبيت الذي يليه:

فوالله ما يدري الفتى كيف يتَّقي

لأفنون التغلبي، وهو صُرَيْمٌ بن مَعْشَر في أبيات له)).

وتجنباً للإطالة نكتفي بالإشارة إلى أرقام الصفحات في المواضع الأخرى: السيرة/ق١٩٥/٢، ٣٧١ – ق٦٠/١، ٤٩٧، ٦٠٥، ٦٤٣، ٦٥٥ – ق١٥/٢، ٢٠، ١٣٢، ١٦٥، ١٩٦، ٢٠٢، ٢١٠، ٣٤٨، ٣٩٢، ٤٠٩، ٤٣٢، ٤٤٨، ٥٥٤.

سابعها: روى ابن إسحاق نصاً لعمرو بن معد يكرب الزبيدي في وفادته على الرسول – صلى الله عليه وسلم - ومطلعه:[2]

أمَرْتُكَ يومَ ذي صَنْعا   أمراً بيّناً رَشَدُهْ

فأثبته ابن هـــشام ثم قـــال:[3] ((**أنشدني أبو عبيدة – وأورد الأبيات الثلاثة الأولى – ثم قال: ولم يعرف سائرها**)).

ومضى ابن هشام يعرض لما روى ابن إسحاق فيتناوله بالنقد أو الإسقاط أو يبدل كلمات فيه، أو يسقط جزءاً منه وقد حصرنا هذا الجهد كله في خمسة مواضع:

١ - يورد الأحداث التاريخية التي أوردها ابن إسحاق، وعندما يقف عند الشعر الذي قيـــل في هذه الحادثة يُسقطه، ويسوّغ الدافع إلى ذلك. والشواهد على ذلك كثيرة وموزعة علـــى صفحات السيرة منها: أنه أورد شعر **أبي أسامة معاوية بن زهير** الذي أورده ابن إسحاق له في يوم بدر ثم قال:[4] ((تركت قصيدة لأبي أسامة على اللام وليس فيها ذكر بـــدر إلاّ في أول بيت منها والثاني كراهية الإكثار)). وروى ما رواه ابن إسحاق من شعر حسان بن ثابت في

---

[1] . نفسه/ق٥١٢/١ – ٥١٣.

[2] . السيرة/ق٥٨٤/٢.

[3] . السيرة/ق٥٨٤/٢.

[4] . نفسه/٣٨.

أمْر خبيب بن عدي، ثم قال:[1] **((**وقد تركنا أشياء قالها حسان في أمر خبيب لما ذكرتُ – يريد الإقذاع –**))**. وروى ابن إسحاق نصاً للأسود بن المطلب في بكاء أبنائه يوم بدر، فأورده ابن هشام ثم عقب عليه بقوله:[2] ((**هذا إقواء، وهي مشهورة من أشعارهم، وهي عندنا إكفاء. وقد أسقطنا من رواية ابن إسحاق ما هو أشهر من هذا**)).

٢ - يورد الشعر الذي أورده ابن إسخاق ثم يعلن بعد ذلك أنه ترك بيتاً أو أبياتاً لا لدواعي الشَّك، وإنما لأسباب أخرى غيرها قد يذكرها أو يصمت. مثال ذلك أنه أورد أبيات أبي طالب التي يُعَرّض فيها بالمُطعِم بن عدي ثم قال:[3] ((**تركنا منها بيتين أقذع فيهما**)). وروى بيت حسان بن ثابت في هجاء هند:[4]

أشرت لَكاعِ وكان عادتها ... لُؤماً – إذا أشِرَتْ – مع الكفرِ

ثم قال: **((**وهذا البيت في أبيات له تركناها، وأبياتاً أيضاً على الدال ،وأبياتاً أخرى على الذال، لأنه أقذع فيها**))**. وروى ابن إسحاق قصيدة لأبي سفيان بن الحارث على الكاف فأوردها ابن هشام، ثم عقَّب عليها بقوله:[5] ((**بقيت منها أبيات تركناها لقبح اختلاف قوافيها**)). وأورد ابن إسحاق قصيدة لعبد الله بن الزبعري مطلعها:[6]

أمِنْ رَسْمِ دارٍ أقفرتْ بالعثائثِ ... بكيتَ بعينٍ دمعُها غير لابثِ

فأوردها ابن هشام ثم قال: **((**تركنا منها بيتاً واحداً**))**[7] وقد ورد ذلك في سبعة مواضع أخرى نكتفي بالإشارة إلى صفحاتها: **(ق١/٣٧٢، ق٢/١٩، ٢٠، ٣٢، ٨١، ٩٢، ١٧٧).**

٣ - كان يتعقَّب ما أورد ابن إسحاق من الشعر فيورد بعض أبيات القصيدة ثم يعلن بعدها أن هذه الأبيات في قصيدة له أو في أبيات له. ومثال ذلك أنه أورد أبياتاً لبُديل بن عبد مناف

---

[1]. نفسه/١٧٨.

[2]. نفسه/ق١/٦٤٨.

[3]. السيرة/ق١/٢٦٧.

[4]. السيرة/ق٢/٩٣.

[5]. نفسه/٢١٣.

[6]. نفسه /ق١/٥٩٣.

[7]. نفسه/٥٩٤.

بن أم أصرم ثم قال: ((وهذه الأبيات في قصيدة له))[1]، وروى ابن إسحاق شعراً للبيد بن ربيعة في رثاء أخيه ((أربد)) أوله:[2]

ألا ذهَبَ المُحافظُ والمُحامي ومانِعُ ضَيْمِها يوم الخِصَام

فرواه ابن هشام ثم قال: ((وهي في قصيدة له)) وكرّر ذلك في خمسة مواضع أخرى نُثبِت أرقام صفحاتها: (ق٢/٧٩، ٢٢٦، ٢٦٣، ٣٧٤، ٥٧٣).

٤ - أباح لنفسه حرية التصرف في بعض ما روى ابن إسحاق من الشعر، كأن يعرض لرواياته فيستبدل كلماتٍ يختارها بأخرى يراها غير مناسبة. من ذلك مثلاً أن ابن إسحاق روى قصيدة للحارث بن هشام يَردُّ فيها على قصيدة لحمزة بن عبد المطلب في يوم بدر، فأوردها ابن هشام له ثم عقَّب عليها بقوله: ((أبدَلنا من هذه القصيدة كلمتين مما روى ابن إسحاق وهما: (الفخر) في آخر البيت و (فما الحليم) في أول البيت، لأنه نال فيهما من النبي))[3].

٥ - كان يورد الشعر الذي يورده ابن إسحاق ثم يذكر عبارة: ((**وبعض أهل العلم بالشعر أنشدني قوله أو قولها**)) أو عبارة: ((وأنشدني آخرها بيتاً أبو زيد)) أو عبارة: ((أنشدني من قوله كذا.. إلى آخرها أبو زيد الأنصاري)) أو عبارة: ((أنشدني أبو عبيدة النحوي)) أو كأن يقول: ((أول البيت منها. وقوله... عن غير ابن إسحاق)).

- من ذلك أنه روى نصاً رواه ابن إسحاق **لصفية بنت عبد المطلب** تبكي أخاها حمزة في يوم أحد ثم قال:[4] ((وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر قولها:

بكاءً وحزناً مَحْضَري ومسيري

- وروى ابن إسحاق قصيدة لكعب بن مالك الأنصاري فرواها ابن هشام، ثم قال: ((وبيته: قَصرنا كلَّ ذي حُضْرٍ وطَوْلِ. والبيت الذي يتلوه، والبيت الثالث منه والبيت الرابع منه وبيته: أشمُّ كأنه أسَدٌ عَبوسٌ. والبيت الذي يتلوه عن أبي زيد الأنصاري))[5].

---

1 . السيرة/ق ١/٤٢٥.

2 . نفسه/٥٧١.

3 . نفسه/١١.

4 . السيرة/ق٢/١٦٧.

5 . السيرة/ق٢/٢٦٦.

- وروى ابن إسحاق قصيدة كعب بن مالك الأنصاري في يوم أحد التي مطلعها:[1]

إنَّك عَمْرَ أبيكِ الكريم   أنْ تسألي عنكِ مَنْ يجتدينا

فرواها ابن هشام كما رواها، ثم قال بعدها:[2] ((أنشدني بيته: بنا كيف يفعل. والبيت الـذي يليه والبيت الثالث منه وصدر الرابع منه وقوله:

نَشِبٌّ تَهْلِكُ آباؤنا

والبيت الذي يليه، والبيت الثالث منه أبو زيد الأنصاري)).

- وأورد قصيدة أوردها ابن إسحاق لأبي بكر بن الأسود بن شَعُوبِ الليثي في رثاء من قُتل من المشركين في يوم بدر ثم عقّب عليها بقوله: ((أنشدني أبو عبيدة النحوي:

يُخَبّرنا الرسول بأنْ سنحيا   وكيف حياة أصداءٍ وَهَامِ))

- وعندما أورد ابن إسحاق قصيدة كعب بن زهير التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ   متيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبولُ

- أوردها ابن هشام له ثم عقَّب عليها قائلاً:[3] ((قال كعب هذه القصيدة بعد قدومه علـى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة. وبيته: حرفٌ أخوها أبوها

وبيته: يمشي القُرادُ

وبيته: عَيْرانةٌ قُذِفَتْ

وبيته: تُمِرُّ مثل عَسيبِ النخلِ

وبيته: تَفري اللَّبانَ

وبيته: إذا يساور قِرْنا

وبيته: ولا يزال بواديه

عن غير ابن إسحاق))

وقد تكررت هذه المواقف عند ابن هشام في ثمانية وثمانين موضعاً، منها خمسة وعشرون موضعاً عن أبي زيد، وسبعة وعشرون عن أبي عبيدة وخلف الاحمر ويونس النحوي وبعض أهـل العلـم بالشعر، والمواضع الأخرى عن غير ابن إسحاق.

---

[1] . السيرة/ق٢/١٥٨.

[2] . نفسه/١٦١.

[3] . السيرة/ق٢/٥١٤.

ولابن هشام وقفات فنية تشهد له بالذوق الأدبي، وسعة الاطلاع ،والحذق في النحو واللغة والعروض والشعر، فقد روى ابن إسحاق نصاً لأبي أحمد بن جحش الأسدي في هجرته إلى المدينة، فأورده ابن هشام ثم وقف عند البيت:[١]

ستعلم يوماً أيُّنا إذ تَزَايلوا　　　وزُيّلَ أمر الناس للحقّ أصوبُ

فقال: ((يريد بقوله: (إذ) إذا كقول الله عز وجل: ((إذِ الظالمون موقوفون عند ربهم)).

وعندما روى قصيدة الأسود بن المطلب في بكاء أبنائه يوم بدر، قال معقّباً عليها:[٢] ((هذا إقواء، وهي مشهورة من أشعارهم، وهي عندنا إكفاء)).

ورأى في قصيدة حسان بن ثابت في عدة أصحاب اللواء يوم أحد التي مطلعها:[٣]

منعَ النومَ بالعشاءِ الهُمومُ　　　وخيالٌ إذا تَغُورُ النجومُ

أنها أحسن ما قيل)).

وقصيدة أبي أسامة معاوية بن زهير التي أولها:[٤]

ولما أن رأيتُ القومَ خفُّوا　　　وقد زالت نعامَتُهم لِنَفْرِ

أنها أصح أشعار أهل بدر)).

وقال بعد أن أورد ما كان يُردّد المسلمون وهم يبنون مسجد المدينة: ((هذا كلامٌ وليس برجز))[٥]. وترك أبياتاً من قصيدة رواها ابن إسحاق لأبي سفيان بن الحارث لِقُبح اختلاف قوافيها[٦]. وعندما روى قصيدة العباس بن مرداس السلمي التي رواها له ابن إسحاق في يوم حنين عقَّب عليها قائلاً: ((من قوله:[٧]

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها

إلى آخرها في هذا اليوم، وما قبل ذلك في غير هذا اليوم، وهما مفصولتان، ولكن ابن إسحاق جعلهما واحدة)).

---

1 . السيرة /ق١/٤٧٤.

2 . نفسه/٦٤٨.

3 . نفسه/ق٢/١٤٩.

4 . نفسه/٣٤.

5 . السيرة/ق١/٤٩٦.

6 . نفسه/ق٢/٢١٣.

7 نفسه/٤٤٢.

وقبل أن ننتقل إلى مناقشة هذا العمل الخطير، نشير إلى كثرة ما روى ابن إسحاق من الشعر المجهول القائل، وبخاصة ما كان من شعر القبائل بعد الفتح. وقد حاول ابن هشام أنْ ينسب بعض هذا الشعر، ولكنه لم يوفق كما يبدو، وقد أثبت هذا الشعر في السيرة، وعلى صفحات كثيرة منها نشير إلى أرقامها: **ق١/٦٤٣، ق٢/٥٣، ١٦٥، ١٩٦، ٣٠٧، ٣٨٨، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٩، ٤٥٧، ٤٧٥، ٤٧٦.**

مناقشة:

أما بعد، فهذا سرد شامل لدراسة ابن هشام لشعر السيرة. وهو عمل يشهد لصاحبه ببذل غاية الجهد، كما يشهد له بسعة الاطلاع ،وسلامة الذوق، ودقة الفهم.

وقد تحرى ابن هشام الصدق والأمانة في جميع ما انتهى إليه من شعر السيرة فقام باستقصاء هذا الشعر ثم انقطع إلى دراسته دراسة شاملة ولكنه لم يَبُتَّ في أمره قبل أن يعرضه على الأثبات من أهل العلم بالشعر، فما أجمعوا على صحته واعتماده من هذا الشعر أثبته، وما أنكره أكثرهم أو بعضهم منه أثبته، ثم أشار بعد إثباته إلى شكّ أكثر هؤلاء العلماء أو بعضهم. أما من شَكُّوا جميعهم فيه، فقد تركه ولم يثبته، يدل على ذلك قوله:[1] ((وتارك أشعاراً ذكرها – يعني: ابن إسحاق – ولم أرَ أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها)).

وهكذا استعان ابن هشام بغيره من أهل العلم بالشعر، فخلص كتاب السيرة من كل ما حُشيَ فيه من الشعر المصنوع، وأثبت منه ما اتفق العلماء على صحة نسبته وأصالته، وكذلك ما اتفقوا على أصالته واختلفوا في نسبته.

وعندما قمنا بإحصاء النصوص المتعلقة بالصراع التي أوردها ابن هشام في السيرة وجدناها **تقل قليلاً عن أربعمائة نص ما بين قصيدة ومقطوعة ورجز**، منها تسعة وثلاثون نصاً ومائتان للمسلمين، **وأربعة وخمسون نصاً ومائة** للمشركين واليهود وقد أثبت شك العلماء وشكَّه في ثلاثة وستين نصاً منها.

وقد استغل بعض الباحثين المُحدَثين من أمثال مرجليوث[2] وبلاشير[3] وطه حسين[4] عبارات الشك التي نثرها ابن هشام على صفحات السيرة فعمّموها على جميع النصوص التي وردت في الكتاب،

---

1. السيرة/ق١/٤.
2. مصادر الشعر الجاهلي/٣٥٢.
3. تاريخ الأدب العربي/١٨٤.
4. في الأدب الجاهلي/١٥٢.

وقرروا أنها قد وُضعت وَضعاً من اجل الكتاب ،وتزيين ما فيه من قصص والتشويق إلى ما يُنقل من أخبار.

ولو وقفنا على المواضع التي وردت فيها عبارات الشكّ هذه، ونظرنا في سبب إنكار ابن هشام لنص من النصوص، هل هذا الإنكار راجع إلى اقتصاره على آراء البصريين **وحدهم أم هو قائم على أساس إجماع العلماء أو أكثرهم من مذهبي الكوفة والبصرة على عدم صحة هذا النص؟ وهل هي شك في نسبة النص إلى شاعر بعينه أم هي شك في أصالة النص نفسه.** لوجدنا أنَّ أول ما ينبغي التنبيه إليه هو التعرف على ميول ابن هشام العلمية، والتحقق من المصادر التي اعتمدها في توثيق ما روى ابن إسحاق من شعر السيرة، والعلماء الذين رجع إليهم في تنقية مادته.

وأول ما كشفه لنا هذا التحقق أن ابن هشام عالم بصري النشأة، وأن أصحَّ العلم عنده هو ما أخذ عن شيوخ مذهبه، وأوثق الروايات لديه، هي ما كانت عن هؤلاء الشيوخ. ومما يعزز هذا الرأي عندنا، أن العلماء الذين اعتمدهم في توثيق شعر السيرة هم: أبو زيد الأنصاري[1] وأبو عبيدة معمر بن المثنى[2] ويونس النحوي[3] وخلف الأحمر[4]، وهؤلاء جميعاً –كما نرى – من علماء البصرة. ومع أن هنالك علماء كوفيين لا يقلّون عن هؤلاء ثقةً وأمانة كأبي عمرو الشيباني مثلاً ،إلا أننا لم نجد على صفحات السيرة ما يشير إلى أن ابن هشام قد أخذ عنه أو عن غيره من علماء الكوفة وغير الكوفة، فأوثق الشعر عنده ما وثّقه علماء البصرة، وأقل الشعر ثقة لديه هو المتهم عند هؤلاء العلماء، أو ما كان مرويَّاً عن ابن إسحاق.

ومن هنا نبيح لأنفسنا أن نظن أن أهل العلم بالشعر الذين يعنيهم في عبارات شكّه هم علماء البصرة فحسب. فابن هشام نفسه يقول:[5] حدثني من أثق به من أهل العلم بالشعر. وقد وجدنا أن الثقات الذين أخذ عنهم أكثر مادته هم الذين ذكرناهم آنفاً. ومما يعزز هذا الظن أن كتب السّيَر والمغازي والأدب التي أرَّخت لفترة الصراع قد حملت إلينا نصوصاً شعرية كثيرة. ولدى عرضنا هذه النصوص على شعر السيرة، تكشَّف لنا أن ابن هشام قد أغفل كثيراً منها مع أنَّ بعض هذه النصوص قد رُوي عن علماء كوفيين وبغداديين ثقاة كأبي عمرو الشيباني والواقدي ومحمد بن سعد صاحب

---

[1]. السيرة/ق٢/١٨٠، ٣٤٨، ٤٤٤، ١٨٩.

[2]. نفسه/٢٩، ٣٩٢، ١٥١، ٣٠٧.

[3]. نفسه/٤٩٤.

[4]. السيرة/ق٢/٣٦، ٧٩، ٤٦٨.

[5]. السيرة/ق٢/٤٥٧.

الطبقات الكبرى وغيرهم، وأن بعض اسانيدهم تنتهي إلى بعض الصحابة والتابعين. والشواهد على ذلك كثيرة ومبثوثة في هذه الكتب منها: أن أبا عمرو الشيباني قد أورد نصَّين لكل من حسان بن ثابت وكعب ابن مالك في رثاء رسول الله[1]، وأورد نصاً ثالثاً لأوس بن قُرظي اليهودي في إسلام زوجه[2]. وهذه النصوص الثلاثة لم يثبتها ابن هشام في السيرة، وأن الطبري قد أورد نصاً لزهير بن صُرَد من هوازن في مديح الرسول يرتفع إسناده إلى عبد الله بن عمرو ابن العاص[3] وغير هذا كثير.

واقتصار ابن هشام في اعتماد علماء البصرة وحدهم – إن صحَّ – خطأ منهجي كبير. فقد كانت الكوفة مركز الخلافة في عهد الخليفة الراشد عليّ بن أبي طالب، ونزلها كثير من الصحابة والتابعين، وعن هؤلاء أخذت سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم -. كما أن ابن إسحاق نفسه قد نزلها[4] وأخذ عنه بعض علمائها كزياد البكائي، ولهذا كان عليه أن يرجع إلى الثقات من علماء الكوفة، وأن يعرض مادته عليهم، فربما توفر لديهم من المصادر الموثقة، وطرق الرواية المعتَمَدة ما لم يتوفر لغيرهم من علماء البصرة، بل إن بعض علماء الكوفة الثقات كان يروي لبعض الشعراء أكثر مما يروي لهم علماء البصرة.

فإذا ما انتقلنا إلى عبارات الشك التي أثبتها ابن هشام لنرى: هل هي شكٌّ في نسبة النص إلى شاعر بعينه، أم هي شكٌّ في أصالة النص نفسه؟ نثبت هذه العبارات أولاً، ثم نقوم بمناقشتها بعد النظر في النصوص المتهمة وجوّها وعَرْضها على المصادر الأخرى كسبيل إلى توثيق ما يمكننا توثيقه منها.

وأول هذه العبارات: ((**وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له**)). وقد تكررت منه هذه العبارة في عشرين موضعاً من السيرة كنّا أشرنا إليها من قبل.

وقد لاحظنا - أول ما لاحظنا – أن هنالك ثلاثة نصوص منها يمكن الاطمئنان إلى صحة نسبتها منها: نصٌّ لمالك بن الدخشم[5] رواه الواقدي[6] والبلاذري[7] والمرزباني[1] وابن عبد البر[2] وابن الأثير[3] وصاحب الإصابة[4] وصاحب البداية والنهاية[5].

---

1. ابن سعد / الطبقات الكبرى/٢/٣٢٤.
2. الأغاني/١٩
3. تاريخ الطبري/٣/٨٦.
4. وفيات الأعيان/٢/٣٣٨.
5. السيرة/ق١/٦٤٩.
6. المغازي/١٣٨.
7. أنساب الأشراف/١/٣٠٣.

ونصٌّ آخر لخبيب بن عدي[6] أورده الطبري في سياق خبر يرتفع إسناده إلى أبي هريـــرة الـــصحابي الجليل[7]، وأورد منه كلٌّ من البخاري[8] والقرطبي[9] بيتين، وأورده صاحب الاستيعاب[10]. ونص ثالـــث لهند بنت عتبة[11] نرى ابن هشام نفسه يعقب عليه بقوله: ((وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر قولها:

وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي

قبل أن يورد عبارة الشكّ: وبعضهم ينكرها لهند)). وفي تعقيبه هذا ما يسوغ لنا أن نظن بأنه يميـــل – بعض الميل – إلى توثيق هذا النص، ولكن أمانته العلمية قد حملته حملاً على ان يُثبـــت إنكـــار بعـــض العلماء، ثم يمسك.

أما النصوص الأخرى، فقد عقَّب على ثلاثة منها بقوله: [12]((وقوله: كـــذا... عـــن غـــير ابـــن إسحاق)). وقد بيَّنّا أن أقل الشعر ثقةً عنده هو ما كان مروياً عن ابن إسحاق وأبسط دليل على ذلك عبارات الشك نفسها. أما ما كان عن غيره، فهو أكثر ثقة عنده، ولعلَّ هذا هو الذي حمله على إثبات هذه العبارة في مواضع كثيرة من السيرة. ومن هنا يسوغ لنا أن نظنَّ أن هذه النصوص الثلاثـــة ربمـــا كانت صحيحة النسبة.

وإذا أعدنا النظر في العبارة نفسها، فإننا نلاحظ أنها عامة فقد أطلقها ابن هشام دون تخصيص، أو تفسير فلم يذكر لنا أسماء (**بعض أهل العلم بالشعر**) هؤلاء، ولو فعل – وكان بودّنا أن يفعل – لأتاح لنا فرصة البحث والتحقق من هؤلاء العلماء، والوقوف على المدرسة التي ينتمون إليها. فمـــا يمكـــن أن

---

1. معجم الشعراء/٣٦٢.
2. الاستيعاب/٢/٦٦٩.
3. أسد الغابة/٢/١٢١.
4. الإصابة/٦/٢٣.
5. البداية والنهاية/٣/٣١٠.
6. السيرة/ق٢/١٧٦.
7. تاريخ الطبري/٢/٥٤٠.
8. الجامع الصحيح/٥/١٠٢، ٢/١١٥.
9. تفسير القرطبي/١١/٣١.
10. الاستيعاب/٢/٤٤١.
11. السيرة/ق٢/١٦٨.
12. نفسه/٢٨، ١٤٣، ٣٦٧.

يتيسَّر لنا من معلومات ،ربما يُسعفنا في توثيق النص وقبوله أو تجريحه ورفضه، ولكنه بتعميمه هذا، أبقى على باب التحقق أمامنا موصداً.

على أن قوله: ((**وبعض أهل العلم بالشعر**))يوحي – ولأول وهلة – بأن أكثر أهل العلم بالشعر – أو بعضهم على الأقل – لا يشكُّ في صحة نسبة النص إلى الشاعر. ولكننا مع ذلك لا نستطيع ان نرجح صحة هذه النسبة، أو نقطع بها دون الرجوع إلى المصادر الأخرى والنظر في السند، والتحقق من أمانة رجاله.

وإذا عاودنا النظر في العبارة مرة أخرى نجد أنه يقول فيها: ((**وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لضرار أو لحسان أو لهند**))مثلاً. وهذا التعبير يقدح في صحة نسبة النص إلى الشاعر بعينه، ولكنه من ناحية أخرى لا يقدح في أصالة هذا النص، فإذا ما عرفنا دقة ابن هشام، ومدى تحوُّطه، وسعة علمه بالنحو واللغة وحذقه فيهما، أدركنا أنه قصد إلى إلحاق (اللام) باسم الشاعر قصداً. ونظن أنه لو قصد إلى القدح في النسبة لاكتفى بقوله: (ينكرها).

ومن هنا نظن أن إنكاره ينسحب على نسبة النصّ إلى الشاعر بعينه ولا ينسحب على أصالة هذا النص. يدل على ذلك أن ابن إسحاق روى رجزاً منسوباً إلى علي بن أبي طالب في يوم أحد. فقال ابن هشام:[1] ((قالها رجل من المسلمين يوم أحد غير علي فيما ذكر لي بعض أهل العلم بالشعر، ولم أرَ أحداً منهم يعرفها لعليّ)).

وثاني هذه العبارات وأكثرها استغراقاً في الشكّ هي: ((وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها)). وقد تكررت هذه العبارة منه في أربعة عشر موضعاً، أشرنا إلى أرقام صفحاتها من قبل.

وقد وجدنا أن هنالك نصين يمكن الاطمئنان إلى صحة نسبتهما:

أولهما:[2] نص لحسان بن ثابت يناقض فيه كعب بن الأشرف اليهودي، ومطلعه:

أبَكَى لكعب ثمَّ عُلَّ بِعَبْرَةٍ   منه وعاشَ مُجَدَّعاً لا يسمعُ

فقد وجدنا الواقدي يورد النص بإسنادٍ يمكن الاطمئنان إلى صحته، قال الواقدي[3]: ((حدثني عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن رومان، ومعمر عن الزهري عن ابن كعب ابن مالك، وإبراهيم بن جعفر عن ابيه عن جابر بن عبد الله)) ثم أورد النص، كما أن تعقيب ابن هشام على النص أن قوله: ((أبكى

---

[1]. السيرة/ق٢/١٦٥.

[2]. نفسه/٥٣.

[3]. المغازي/١٨٦

لكعب)) عن غير ابن إسحاق واتفاقه مع الواقدي[1] على صحة نقيضة كعب بن الأشرف يُعينان جميعاً على الاطمئنان إلى صحة نسبته.

وثانيهما: نصٌّ للزبرقان بن بدر التميمي في وفادة بني تميم على النبي ومطلعه:[2]

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا   منا الملوك وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ

فقد رواه الطبري بإسناد مرفوع إلى عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر[3]. ورواه أبو الفرج بإسناد مرفوع إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها[4].

وإذا ما نظرنا في العبارة نفسها نجد أن ابن هشام قد أطلقها على ثلاثة تعبيرات هي:

- ((**وأكثر اهل العلم بالشعر ينكرها**)).[5]
- ((**وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر له**)).
- ((**وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له**)).

وقد أورد التعبير الأول في موضعين اثنين، بينما أورد التعبيرين التاليين له في اثني عشر موضعاً. والتعبير الأول ربما قدح في نسبة النص وأصالته، أما التعبيران الآخران فنظن أنهما يقدحان في نسبة النص إلى الشاعر، ولا يقدحان في أصالة هذا النص لما بيناه في مناقشتنا للتعبير السابق.

وثالث عبارات الشكّ عند ابن هشام هي: ((**ولم أرَ أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها أو يعرفها له**)). وقد تكررت منه في أربعة مواضع. وإذا أوردنا إحدى هذه العبارات ثم وقفنا عليها للتحقق منها، عرفنا معنى شكّه. قال ابن إسحاق:[6] وقال علي بن أبي طالب يذكر إجلاء بني النضير، وقتل كعب بن الأشرف. قال ابن هشام: ((قالها رجل من المسلمين غير علي بن أبي طالب فيما ذكر لي بعض أهل العلم بالشعر، ولم أرَ أحداً منهم يعرفها لعليّ)). وهذه العبارة – كما يبدو – لا تقدح في أصالة النص عند ابن هشام وإنما تقدح في نسبته.

فالنصُّ – كما ذكر له بعض أهل العلم بالشعر – لرجل من المسلمين شهدَ أحداث فترة الصراع وشارك فيها. ومن هنا نستطيع أن نطمئن إلى أصالة هذا النص اطمئناناً تاماً.

---

1. المغازي/١٨٥، ١٨٦.
2. السيرة/ق٢/٥٦٣.
3. تاريخ الطبري/٣/١١٥.
4. الأغاني/٤/١٤٦.
5. السيرة/ق٢/١٠٠٨
6. السيرة/ق٢/١٩٦

وتكرر منه التعبير إياه في موضع آخر حين روى نصاً مطلعه:[1]

لا هم إن الحارث بن الصمَّهْ   كان وفيّاً وبنا ذا ذمَّهْ

وقد وجدنا الواقدي يورد أربعة أبيات من النص، وينسبها إلى علي بن أبي طالب، ثم يعقّب عليها بقوله:[2] ((سمعتها من الإصبع بن عبد العزيز وأنا غلام، وكان بسنّ أبي الزناد)). وهذا يبيح لنا أن نطمئن إلى أصالة هذا النص بل وإلى نسبته أيضاً.

أما النصَّان الآخران فقد ورد فيهما من أسماء الأعلام الذين شاركوا في الصراع والمواضع التي كانت مسرحاً لأحداثه ما يحمل على الظن بأصالتهما. قال ابن هشام:[3] ((**وإنما كتبناهما لأنه يُقال: إن عمرو بن عبد الله بن جدعان قُتل يوم بدر، ولم يذكره ابن إسحاق في القتلى، وذكره في هذا الشعر**)).

أما رابع هذه العبارات وأكثرها انتشاراً على صفحات السيرة فهي: ((**وتروى لفلان**)) وقد تكررت في خمسة وعشرين موضعاً. من ذلك مثلاً، قال ابن إسحاق:[4] ((وقال حسان بن ثابت أيضاً)) وأورد الشعر، فعقَّب عليه ابن هشام بقوله:[5] ((قال ابن هشام: أنشدني أبو زيد هذه الأبيات لكعب بن مالك)).

وعندما قمنا بالتحقق من الشاعرين اللذين تنازعا نسبة النص في كل موضع من هذه المواضع، وجدنا أنهما من شعراء فترة الصراع الذين عاشوا أحداثها. ومن هنا يتضح لنا أن معنى شكّ ابن هشام في هذه المواضع ينسحب على نسبة النص إلى شاعر معيَّن، ولا ينسحب على أصالة النص ذاته. وكم كنا نطمح أن يقوم ابن هشام بالتحقق من النسبة، ويبدو لنا أنه حاول ذلك، ولكن اختلط عليه أمر هذه النسبة، كما اختلط على غيره من رواة الشعر وناقليه. وقد أفردنا من قبل حديثاً خاصاً تحدثنا فيه عن ظاهرة اختلاط النسبة وأسبابها.

وهكذا قام ابن هشام بتفلية الشعر الذي رواه ابن إسحاق في السيرة، فأسقطَ الأشعار التي ضجَّ العلماء بزيفها، واحتّج الرواة الأثبات على وضعها، وأبقى على الأشعار التي صحَّت عنده نسبتها، وكذلك الأشعار التي ثبتت لديه أصالتها، وإن ظل أمر نسبتها مجهولاً أو مختلطاً.

---

[1] . نفسه/١٦٥ – ١٦٦.

[2] . المغازي/٢٨٢.

[3] . السيرة/ق٢/١١.

[4] . السيرة/ق٢/٣٤٧.

[5] . السيرة/ ق٢/٣٤٨.

وبهذا يمكن أن نطمئنَّ إلى أن النصوص التي أثبتها ابن هشام في السيرة صحيحة في الأغلب الأعم، إذْ لم يكن يثبت غير الأصيل المعروف لدى العلماء. يدلُّ على ذلك قوله معقّباً على قصيدة رواها ابن إسحاق لأبي طالب:[1] ((**هذا ما صحَّ لي منها**)).

وإن أكثر عبارات الشك التي وزَّعها على بعض نصوص السيرة، إنما هي إنكارٌ لنسبتها، أما النصوص التي شكَّ في أصالتها فنظن أنها لا تتجاوز عدة نصوص.

على أن ابن هشام الذي تحرّى الدقة والأمانة، وأبدى قدراً كبيراً من التحوُّط والحذر، قد سـها في بعض الأحيان فاعتمد بعض النصوص التي رواها ابن إسحاق دون أن يتحقق منها. من ذلك: أنَّ ابـن إسحاق روى أبياتاً من الشعر في هجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم - نسبها إلى رجل من الجن، فأوردها ابن هشام بالنسبة نفسها[2] ولم يعقب عليها بشيء، مع أن غيره من العلماء قد تنبَّه إلى ذلك[3].

ومن ذلك أيضاً أن ابن إسحاق روى أربعة أبيات نسبها إلى رجل من بني جُشم بن معاوية يرثي بها رجلين من قومه منها:[4]

هما القاتلان أبا عامر   وقد كان ذا هَبَّة أربدا

ثم عاد بعد صفحات قليلة فأورد ثلاثة أبيات منها البيت المذكور، ونسبها إلى امرأة من جشم ترثـي أخوين لها أصيبا يوم حنين[5]، فأورد ابن هشام النصَّين، ولم يعقّب عليهما، مع أنهما نصٌّ واحـد كمـا يبدو.على أن هذا السهو لا يُقلّلُ من خطورة العمل الذي قام به ولا ينال من أمانته وحرصه وسـعة اطّلاعه.

وبعد أن فرغنا من محاولة توثيق شعر الصراع، وانتهينا من الحديث عن منهج ابن هشام في السيرة، ننتقل إلى دراسة شعراء المدينة لنقف على الدور الذي قام به، أول طرف من أطراف الصراع.

---

1. السيرة/ق١/٢٨٠.
2. السيرة/ق١/٤٨٧.
3. أنساب الأشراف/١/٢٦٢.
4. السيرة/ق٢/٤٥٧.
5. السيرة/ق٢/٤٧٦.

الفصل الثالث
دور شعراء المدينة في الصراع

تمهيد

المدينة والفكر الإسلامي

الإسلام في المدينة

العقبة الثانية

الهجرة

بناء المجتمع

الحياة في المجتمع

أولاً: شعراء المدينة

حسان بن ثابت

كعب بن مالك الأنصاري

عبد الله بن رواحة الأنصاري

شعر أنصاريون آخرون

الشعراء المهاجرون

ثانياً: تصوير الشعر للأحداث

البيعة

الهجرة

النفاق

وفادة بني تميم

ثالثاً: الشعر والغزوات

تمهيد

الجهاد في سبيل الله

الغزوات

غزوات وسرايا دون قتال

السرايا والغزوات الهجومية

الغزوات التطهيرية

الغزوات الدفاعية

تمهيد

المدينة والفكر الإسلامي:

كان الوضع السياسي في المدينة – قبل عهدها بالإسلام – قلقاً، ذلك أن الأمـــر فيهـــا كـــان متداولاً بين الأوس والخزرج، وكان ذلك رهناً بالظهور في الحروب التي ظلت مستعرة بينهما لفترة طويلة، فمن ظهر منهما، رجحت كفته السياسية، وفاز بالسيطرة على المدينة ولو إلى حين.

وكان هذا الوضع السياسي كفيلاً بأن يدفع كلا الحيين المتنازعين دفعاً لالتمـــاس الحلـــف في اليهود، وفي غيرهم من قبائل العرب، ليضمن كلٌّ منهما تحقيق الانتصار الدائم على خصمه، وأيضاً لإحكام السيطرة على مقدرات المدينة، فتحالف الأوس مع بني النضير وبـــني قريظـــة، وتحالفـــت الخزرج مع بني قينقاع[1].

ولم يَجُرَّ هذا التحالف خيراً على المتحالفين، ولم يضع حداً لسفك الدماء، وأيضاً لم يضمن لأحد الحيين السيطرة التامة على الحي الآخر، بل بقي القتل مستحراً فيهما، والحروب سجالاً بينـــهما، حتى كادت أن تفنيهما، فكان طبيعياً – والحالة هذه – أن يبحث كلاهما عن حلفاء أقويـــاء مـــن قبائل العرب الأخرى.

قدم أبو الحيسر أنس بن رافع الأوسي مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل الأوسيين – منـــهم إياس بن معاذ – يلتمسون الحلف في قريش على قومهم من الخزرج، فما أن سمع بهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - حتى أتاهم، فدعاهم إلى الدين الجديد، فقال إياس – وكان غلاماً حدثاً – : أي قوم، هذا والله خيرٌ مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب البطحاء، فضرب بهـــا وجـــه إياس وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله – صـــلى الله عليه وسلم - عنهم ثم انصرفوا عائدين إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج[2].

ويوم بعاث هذا، كان آخر أيام الأوس والخزرج[3]، وكان يوماً شديداً على الحيين، وبخاصة على الخزرج، حيث وضعت الأوس فيهم السلاح، وتبعوهم يحرّقون عليهم نخيلهم ودورهم حتى صـــاح

---

1. الكامل في التاريخ/١/٦٨٠.
2. تاريخ الطبري/٢/٣٥٢ – ٣٥٣.
3. تاريخ اليهود في بلاد العرب/٦٨.

صائح يا معشر الأوس: أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب – يعني اليهود – فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم وإنما سلبهم بنو قريظة والنضير[1].

وأُنهك الحيان من الحرب، وأحسَّ كلاهما أن الحاجة قد أصبحت ماسة إلى قيادة سياسية قوية تجمعهم تحت لواء واحد. روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ((كان يوم بُعاث يوماً قدّمه الله لرسوله، فقدم رسول الله وقد افترق ملؤهم، وقُتلت سرواتهم فقدَّمه الله لرسوله في دخولهم في الإسلام))[2]، وكان بين يوم بعاث وبين الهجرة خمس سنين[3].

على أن هنالك عاملاً آخر – غير الحروب المستمرة – كان له تأثيره في واقع المدينة، وفي نفسيات رجالها، ذلك أن اليهود كانوا مع الأوس والخزرج في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، فكانوا إذا لحق بهم ظلم، أو كان بينهم وبين الحيين شيء، يستفتحون عليهم برسول الله، وفي التنزيل: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وكانوا يتهددونهم ويتوعدونهم بظهور النبي – عليه السلام - فيقولون: ((نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم))[4] فأدى هذا إلى تغيير جوهري في عقلية الأوس والخزرج، إذ وعوا نبوة محمد في وقت مبكر، فأصبحوا – فيما بعد – أقدر على فهم الدعوة الإسلامية من أهل مكة الوثنيين.

الإسلام في المدينة

وفي السنة العاشرة للبعثة، وفي موسم الحج، ولما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له، تم اللقاء بين الرسول الكريم وبين أولئك النفر من الخزرج، فكان هذا اللقاء أول ثمرات النجاح في سبيل الوحدة. يحدّثنا صاحب السيرة أن الرسول – صلى الله عليه وسلم - قد خرج يعرض نفسه على القبائل، ويطلب منهم النصرة – كما كان يفعل في كل موسم – فلقي ستة نفر من الخزرج عند العقبة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض: **يا قوم، والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقُنَّكم إليه، فصَدَّقوه وقبلوا الإسلام، ثم**

---

[1] . الكامل في التاريخ/١/٦٨٠.

[2] . البخاري: الجامع الصحيح/٥/٣٨.

[3] . الطبقات الكبرى/٤/٣٨٤.

[4] . تاريخ الطبري/٢/٣٥٤.

قالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعزّ منك[1].

وعاد الرجال إلى المدينة وجعلوا يدعون إلى الدين الجديد، ففشا ذكر الإسلام، وعمَّ ذكر الرسول الكريم جميع دور الأنصار[2].

ولما كان العام التالي، وافى الموسم اثنا عشر رجلاً من الأنصار، فلقوا رسول الله بالعقبة – وهي العقبة الأولى – فبايعوه على الطاعة[3]. ولما انصرفوا عائدين إلى قومهم، بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم، ليشرف على نشر الدعوة بين قومهم وليفقههم في الدين.

وكان مصعب جمَّ النشاط، دائب الحركة، فسار بالدعوة شوطاً بعيداً في مدة وجيزة، إذ كان يأتي الناس في دورهم وقبائلهم، ويؤمُّ الأسواق التجارية والأماكن العامة، ويطرق الأبواب على الناس، ويواجه الأسياد، ويقوم بحركاتٍ مقصودة، يفعل كل ذلك ليبلّغ دعوة الله.

ويبدو أن مصعباً كان موفقاً في إبداع الأساليب لتنظيم الاتصال الحي بالناس وتجميعهم، فالسيرة تحدثنا أنه خرج يوماً إلى دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر ومعه أسعد ابن زرارة، فدخلا حائطاً من حوائط بني ظفر فجلسا على الحائط، فاجتمع إليهما رجال مسلمون. وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذٍ سيدي قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه. فقال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا ليسفّها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارنا، فأخذ أسيد حرْبته ثم أقبل إليهما، فوقف عليهما متشتماً، فقال له مصعب: أوَتجلس فتسمع، **فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره؟** فكلّمه مصعب بالإسلام، ثم قرأ عليه القرآن، فتهلل وجهه وأسلم. وانطلق عائداً إلى سعد وقومه، فقال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلَّمتُ الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، وإنّي لأخشى على ابن خالتك – يعني: أسعد بن زرارة – من بعض بني حارثة. فقام إليهما سعد بن معاذ متشتماً مغضباً، فدعاه مصعب لسماع الإسلام، وتلا عليه آيات من القرآن، فزال غضبه، وأشرق وجهه، ثم أسلم، ثم أقبل عامداً إلى

---

[1]. السيرة/ق١/٤٢٧، ٤٢٨.

[2]. تاريخ الطبري/٢/٣٥٥.

[3]. سميت بيعة النساء لأنهم بايعوا على أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقون ولا يزنون، ولا يعصونه في معروف – تاريخ الطبري/٢/٣٥٦.

نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة[1].

وبهذه الأساليب المبدعة استطاع مصعب أن يقلب الأفكار في المدينة من وثنية خَرِقة إلى إيمان بالله وتوحيده، ومن مشاعر خاطئة إلى مشاعر إسلامية تسخط على الشرك، وتنقم على الوثنية. وتأثرت جماهير الناس بالإسلام، وانفتحت عليه حتى رأينا بني عبد الأشهل يسلمون جميعاً. وتأثر مجتمع المدينة بأفكار الإسلام ومشاعره، وهذا عكس ما حدث بمكة تماماً، فعلى الرغم من كثرة حملة الدعوة فيها، إلا أن جماهير الناس هناك كانوا منفصلين عنهم، إذ لم تؤمن الجماعات. ومن هنا لم يتأثر المجتمع المكي بالأفكار الإسلامية والمشاعر الإسلامية، وإنما ظل جامداً على الكفر. وليس هذا فحسب، بل تم عزل الفئة المؤمنة عن مجتمع مكة وحصرها في دائرةٍ معينة وقفت فيها عن النمو والتأثر.

العقبة الثانية":

ولما دار الحول وحان موسم الحج، قدم مكة خمسة وسبعون مسلماً – منهم امرأتان – من الأنصار، فاتصل الرسول – صلى الله عليه وسلم - بهم سراً، وحين لمس استعدادهم لمبايعته بيعة الحرب، واعدهم عند العقبة ليلاً دون أن يعلم بذلك من معهم من مشركي قومهم. وخرج القوم إلى ميعادهم – وهم يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا في الشّعْب عند العقبة، وما علموا أنه سيسفر عن اجتماعهم هذا تغيير مجرى التاريخ، وإن لم يكونوا يجهلون خطر عملهم، وهم الذين أسلموا في يثرب على يد مصعب بن عمير.

وعندما حضر رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، دعاهم إلى البيعة على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: **نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا**[2]، فبايِعنا يا رسول الله، فنحن أبناء الحرب وأهل الحلقة[3] ورثناها كابراً عن كابر[4]. فاعترض

---

[1]. السيرة/ق١/٤٣٦ – ٤٣٧.

[2]. أزرنا: نساءنا والمرأة قد يكنى عنها بالإزار.

[3]. الحلقة: السلاح.

[4]. تاريخ الطبري/٢/٣٦٢.

القول أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله، إن بيننا وبين الناس حبالاً وإنّا قاطعوهـا – يعـني: اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتـدَعَنا، فتبسم رسول الله ثم قال: ((**بل الدمَ الدم والهدم الهدم**[1]**، أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**)) فقالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه[2].

الهجرة:

تمت البيعة إذن، وبقي على الرسول الكريم أن ينتظر وحي الله، ليقوم بالهجرة إلى هؤلاء القـوم الذين بايعوه، حتى يتمكن بهم من تطبيق الإسلام، وحمل رسالته من ثمَّ بقوة الدولة وسلطانها. فقـد رأى بعد الصبر والمشقَّة والتجارب، أن استمرار التجربة في المجتمع المكي الصلب إنما هـو جهـد ضائع.

وأُذن للرسول بالهجرة فهاجر، وعلى هذا، لم تكن هجرته خوفاً من أن تقتله قريش[3]، ولا تهرُّباً من مشقَّة أو صعوبة، وإنما كانت تنفيذاً لأمر الله، فالرسول – صلى الله عليه وسـلم - لم تكـن تشغله نفسه ولا حياته، فالمصاعب كلها تتلاشى أمام نفسه العظيمة، وكل ما كان يهمـه هـو أن يعرف إلى أين وصل بدعوته، ومتى يمكنه تطبيق نظام الإسلام الذي بُعث به.

وكانت الأحوال السياسية في المدينة مواتية للرسول، ففي مكة كان يسود الهـدوء والنظـام، وكانت العوامل التي تربط بين الجماعة تؤدي وظيفتها على نحو مرضٍ. ولذلك أحسَّ المكيّون بـأن الشيء الجديد الذي أراد محمد – عليه السلام - أن يدخله في مكة يهدد حياتهم، ويكدّر صفوها، فعملوا على القضاء عليه. أما في المدينة فقد انقسمت الجماعة فيها إلى معسكرين متعـاديين همـا: الأوس والخزرج، فكان القتل وسفك الدماء شيئاً مألوفاً، ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج من حيّه دون أن يعرّض نفسه للخطر. وسادت المدينة حالٌ من غياب الأمن جعلت الحياة فيهـا شـديدة العسر ، فكانت الحاجة ماسة إلى رجل يدخل الفرجة المفتوحة بين الفريقين فيقضي على الفوضى.

---

[1] . كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دمك وهدمي هدمك أي: ما هدمت من الدماء هدمته أنا.

[2] . تاريخ الطبري/٢/٣٦٣.

[3] . ذهب درمنغم إلى أن الهجرة كانت فرار محمد بدينه، واعتبر الرسول وأصحابه فارين – حياة محمـد/١٦٧ – ١٧٢.

وجاء النبي الكريم من مكة في الوقت المناسب، وكأنما نودي به لذلك. ولما كانت لحمة الدم قد فشلت في أن تكون رباطاً يؤلف بين الناس، فقد كان هناك أمل قوي في أن تحقق ذلك العقيدة الإسلامية[1]. ومن هنا تعتبر الهجرة حداً فاصلاً في الإسلام بين دور الدعوة له وإيجاده مجتمعاً ودولة تحكم به وتطبّقه وتدعو له بالحجة والبرهان، وبالقوة التي تحمي هذه الدعوة من المناوئين.

بناء المجتمع:

واستقر الرسول – صلى الله عليه وسلم - في المدينة ثم بدأ يزاول سلطاته، فكان يقوم بأعمال رئيس الدولة وقائد الجيش والقاضي، فيرعى شؤون المسلمين ويفصل الخصومات فيما بينهم. واتخذ من المسجد مكاناً للصلاة والاجتماع والتشاور وداراً للقضاء وإدارة شؤون المسلمين. واتخذ أبا بكر وعمر وزيرين له، وجعل يُؤمّر على السرايا قواداً، ويرسل هذه السرايا خارج المدينة، فيكون بذلك قد أقام الدولة الإسلامية في المدينة من أول يوم أقام فيها.

وكانت دولة الرسول – صلى الله عليه وسلم - الفتيَّة هذه تتكون من ثلاث جماعات:

أولاها: المسلمون من مهاجرين وأنصار، وكانوا يشكلون الكثرة في المدينة.

وثانيها: المشركون من سائر الأوس والخزرج الذين لم يسلموا، وكانوا قلة بين أهلها.

وثالثها: اليهود، وكانوا نيفاً وعشرين قبيلة[2]، ولكن أربعاً منها فقط كانت تؤثر في مجرى الأحداث السياسية، إحداها بنو قينقاع وكانوا يقيمون داخل المدينة، أما الثلاثة الأخرى وهم: بنو النضير وبنو قريظة ويهود خيبر فكانوا خارجها[3].

ولما كان اليهود مجتمعاً آخر قبل الإسلام، فقد ازداد التباين بين مجتمعهم والمجتمع الإسلامي بعد الإسلام. فكان لابدَّ – والحالة هذه – من إحكام العلاقات بين المسلمين أولاً، ثم بينهم وبين اليهود بعد ذلك.

وشرع الرسول – صلى الله عليه وسلم - يبني المجتمع في دولته على أساس ثابت، كما شرع يهيّئ القوة لبناء الدولة وحمل الدعوة، وأخذ يعمل على إزالة الحواجز التي تقف في طريق نشرها.

---

[1] . سيد حنفي: حسان بن ثابت شاعر الرسول/١١٠ – ١١١.

[2] . وفا الوفا/١/١١٤، والأعلاق النفسية/٦٢.

[3] . الأعلاق النفسية/٦١.

وكان أول عمل قام به في سبيل بناء هذا المجتمع هو: **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار**، فقد كان في حاجة ماسة إلى قوم مؤتلفين، يستطيع أن يسوسهم بإرادته ونفوذه، فسياسة الآطام والأحياء كانت قد مزَّقت الأوس والخزرج قبل الإسلام، فكان من الحزم لذلك أن يهدم نظام العصبيات، وأن ينظم العلاقات بين سكان المدينة على أساس الإسلام. وبهذا أصبح المهاجرون والأنصار إخواناً متحابين بفضل الدين الجديد، قال تعالى:[1] ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

أما العمل الثاني الذي قام به الرسول في المدينة، فهو **كتابة الصحيفة**. وقد كانت هذه الصحيفة عهداً وتحالفاً بين المهاجرين من جانب، والقبائل اليهودية وحلفائها ومن ظل مشركاً من الأوس والخزرج وغيرهم في جانب آخر.

وقد نصَّت الصحيفة – فيما نصَّت عليه – على حرية العبادة لليهود، وحق الحماية على المسلمين. ونصَّت أيضاً على أن يشارك اليهود في نفقات الحرب، وألاّ يحاربوا أو يحالفوا إلا بإذن الرسول – صلى الله عليه وسلم -، ونصت كذلك على أن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده، فمرده إلى الله وإلى محمد، ونصَّت أيضاً على أن قريشاً لا تُجار ولا يُجار من نصرها[2].

ومن هذا نرى أن العلاقات بين المسلمين واليهود، وُضِعت على أساس الاحتكام إلى الإسلام والخضوع لسلطانه، وعلى أساس تقيُّد اليهود بما تمليه مصالح الدولة الجديدة.

وقبول اليهود بهذه الشروط يوحي بأنهم لم يكونوا قوة ذات خطر، فلو كانوا كذلك لرفضوا الرضوخ لسلطان النبي الكريم، وهذا ينقض ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أنه كان لليهود نفوذ واسع في المدينة[3].

وبهذا حددت الصحيفة وضع القبائل المجاورة للمدينة من اليهود، وحُمِلوا على الالتزام بنصوصها، فاستطاع الرسول بذلك أن يركز العلاقات بين الناس في الدولة الناشئة على وضع

---

1 . سورة الانفال/٦٣.

2 . أبو عبيد/ الأموال/١/٢٩٣ – ٢٩٤.

3 . درمنغم/ حياة محمد/١٧٦.

ثابت الأساس، واستطاع أيضاً أن يوطد العلاقات بين هذه الدولة والقبائل المجاورة من اليهود، فبنى بذلك المجتمع الإسلامي، ثم أخذ يستعد لقتال قريش، ومن يناصرها.

وبعد أن اطمأن إلى تماسك مجتمعه وبناء جيشه، شرع في تنظيم الشؤون الأخرى في دولته، فاتخذ الخاتم في السنة السابعة للهجرة[1] واستخدم الموظفين ليقوموا بتصريف الامور التي تتعلق بالتنظيم، فاختار أكثر هؤلاء الموظفين ممن يعرفون القراءة والكتابة، فاستعمل بذلك الكُتَّاب الرسميين في جهاز الحكم وعدل عن كتّاب اليهود[2]، وكان هؤلاء الكتّاب على صنفين:

أولهما: كتّاب خاصون، يختص كلٌّ منهم في تصريف أمرٍ من أمور الدولة، فكان زيد ابن ثابت وعبد الله بن أبي سرح وشرحبيل بن حسنة الطابخي وأبان بن سعيد بن العاص والعلاء بن الحضرمي[3]، وعلي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وأبي بن كعب يكتبون للوحي[4]. وكان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك والأمراء مع ما يكتبه للوحي[5]، كما كان يتولى ترجمة الفارسية والرومية والقبطية والحبشية لرسول الله[6]. وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت بن مخرمة يكتبان أموال الصدقات، وعبد الله بن الأرقم الزهري والعلاء ابن عقبة يكتبان بين الناس المداينات والمعاملات وسائر العقود. وكان عبد الله بن رواحة على خَرْصِ خيبر، وحذيفة بن اليمان على خَرْص الحجاز[7].

والثاني: كُتَّابٌ عامون، يكتبون في جميع الأمور التي تصرّفها الدولة. وكان هؤلاء ينوبون عمَّن يتغيب من الكتاب المختصين، من هؤلاء: خالد بن سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير، وكانوا يكتبون بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم - في كل ما يعرض من حوائجه[8]. وكان حنظلة بن الربيع بن صيفي التميمي خليفة كل كاتب يتغيب عن عمله حتى غلب عليه اسم

---

1. المسعودي/ التنبيه والاشراف/٢٥٩.
2. دومنغم/ حياة محمد/٢٤٦.
3. الجهشباري/ الوزراء والكتاب/ ١٣ -١٤ ، أنساب الأشراف/١/٥٣١ – ٥٣٢.
4. الوزراء والكتاب/١٢.
5. نفسه/١٢.
6. المسعودي/التنبيه والاشراف/٢٨٣.
7. نفسه/ ٢٨٢.
8. نفسه/٢٨٣، الوزراء والكتاب/١٢.

الكاتب[1]، فكان الرسول – صلى الله عليه وسلم - يضع عنده خاتمه ويقول له: ((الْزَمني، وأَذْكِرْ لي بكل شيء لثالثة))[2].

وصفوة القول، فإنَّ الرسول قد بنى مجتمعاً متماسكاً، ثم قام بتنظيم هذا المجتمع فأوجد الوظائف الحكومية في جهاز دولته، ونظَّم هذا الجهاز على أساس دقيق. وقام أيضاً ببناء جيش قوي، فيكون بذلك قد بنى دولة قوية منظمة، وأعدَّها لمواجهة الأخطار ومقارعة الخصوم، وهيّأها لحمل مسؤولية نشر الدعوة بين عرب الجزيرة أولاً، ثم في العالم الخارجي بعد ذلك.

الحياة في المدينة:

وبعد أن وقفنا على بناء مجتمع المدينة، ينبغي لنا أن نقف على أسلوب الحياة في هذا المجتمع. وأول ما يلفت النظر في هذا، أن الحياة في هذا المجتمع الجديد قد قامت على أساس العقيدة الإسلامية، وأن أوامر الله ونواهيه هي مقياس الأعمال في هذه الحياة، وكان نوال رضوان الله تعالى هو معنى السعادة عند المسلمين.

وبدأ المسلمون يعيشون هذا الطراز من الحياة، وصارت تنزل الأحكام في العبادات والمطعومات والأخلاق والمعاملات والعقوبات، وتتابع نزول الأحكام التي تعالج مشاكل الحياة، وأخذ الرسول يُفصّل هذه الأحكام ويشرحها ويقضي مصالح الناس، ويفصل في خصوماتهم ويدير شؤونهم، ويُصرّف أمورهم ،ويعالج مشكلاتهم بأقواله وأفعاله وبِسُكُوته عما يقع أمامه من أفعال.

وكان كثير من الصحابة يُلازم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ليتعلم منه أحكام الله ويحفظ الآيات ويتلقَّن على يديه القرآن، فأخذ الإسلام يزداد انتشاراً والمسلمون يزدادون كل يوم قوة ومَنَعة.

وعلى الرغم مما كان عليه الأنصار من سعة عند الهجرة[3] إلاّ أنَّ الوضع الاقتصادي في المدينة أصبح حَرِجاً في هذه الفترة، وذلك نتيجة الضغط السكاني الذي نجم عن الهجرة، فقد كان

---

[1] . نفسه/ ٢٨٣.

[2] . الوزراء والكتاب/١٢.

[3] . ابن رستة: الأعلاق النفسية/٦٣.

المهاجرون إلى المدينة في عَوَزٍ شديد حتى أنَّ بعضهم كان يطلبُ من رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ما يُقيم به أودَه[1].

وكان على الرسول الكريم أن يسارع إلى حل هذه المشكلة قبل أن تستحكم، فقام بتشجيع المسلمين على العمل بقوله وفعله، قال عليه السلام: ((**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**)) وقال: ((**لأنْ يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**)) وقال أيضاً: ((**من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه**)) فكان لهذه الأحاديث أثرٌ عميقٌ في نفوس المسلمين وحياتهم، فأقبلوا على مزاولة التجارة والزراعة وغيرهما من الأعمال التي أباحها دينهم.

وأقبل المهاجرون إلى المدينة ومعهم عاداتهم وحِذْقهم وحبهم للكسب، فأقاموا سوقاً ثانية في وسط المدينة، ليستغنوا بها عن سوق بني قينقاع اليهودية[2]، فكان عبد الرحمن ابن عوف يبيع الإقْطَ والسَّمْن، وكان علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود وغيرهم يشتغلون بالزراعة، وكان الزبير بن العوام وزوجُه يفلحان الأرض[3]، وكان أبو بكر وطلحة بن عبيد الله يعملان بالبزازة[4].

وكان إلى جانب هذه الفئة العاملة فئة أخرى لم تجد عملاً تعمله، فكانت لذلك في حال العَوَز والمَتْرَبة، وكان هؤلاء من العرب الذين وفدوا على المدينة مسلمين، وعُني رسول الله – صلى الله عليه وسلم - بهم، فأفرد لهم صُفَّة المسجد يبيتون بها ويأوون إليها[5]، ثم جعل لهم رزقاً من أموال المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً، فثبَّتَ بذلك مركز المسلمين، واستطاعوا أن يصمدوا لدسائس المنافقين واليهود، وظلُّوا وحدة واحدة قوية.

وزعم إسرائيل ولفنسون[6] أنَّ مرافق الحياة في يثرب من زراعة وصناعة وتجارة قد أُهملت إهمالاً شنيعاً بعد أن أُخرِجَ منها اليهود ومُحِيَت سلطتهم. ونحن نخالف ولفنسون في ما ذهب إليه، ونقرر

---

1. درمنغم/ حياة محمد/١٧٦، وانظر الآيتين (٨، ٩) من سورة الحشر.
2. درمنغم/ حياة محمد/١٧٧.
3. نفسه/١٧٧.
4. سامي العاني/ ديوان كعب بن مالك/٤٩، البزازة: تجارة الثياب.
5. سموا لذلك أهل الصفة – حياة محمد/ درمنغم/ ١٨٠.
6. تاريخ اليهود في بلاد العرب/١٥٢ – ١٥٣.

بأن الوضع الاقتصادي في المدينة قد تَحَسَّن بعد إجلاء اليهود عنها، حيث غنم المسلمون أمـــوالهم، فتقلَّص بذلك أثر الضائقة الاقتصادية التي خيَّمت على مجتمع المدينة في تلك الفترة من الزمان[1].

وقد ساهم في تقلُّص هذه الضائقة تعدُّدُ الصناعات كالصياغة والخياطة والحدادة والنسيج، كما ساهم في تقليصها نشاط التجارة أيضاً، وذلك نتيجة انتقال تجار قريش الماهرين إليها، كأبي بكـــر الصديق وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما[2]، وعندما تم فتح خيبر، أصبح الوضع الاقتصادي للدولـــة ممتازاً لما كانت عليه خيبر من الغنى ووفرة المال.

اولا: شعراء المدينة:

لقد توفر لأهل المدينة ضَرْبٌ من الحضارة والمعرفة والدين. وكثر فيهم الشعراء حتى نبغت هذه القرية بين القرى العربية، فكانت أشعرها. ومن يرجع إلى تاريخ المدينة منذ العصر الجاهلي، يجـــد الشعر فيها كثيراً كثرة مفرطة[3]. روي عن أنس بن مالك أنه قـــال[4]: ((**قَـدِم علينـا رسول الله وما في الأنصار بيت إلاّ وهو يقول الشعر، قيل له: وأنت أبا حمزة؟ قال: وأنا**)). **وكـان عبـد الملك بـن مروان يقـول:**[5] ((**إذا أردتم الشعر الجيد فعليكم بـالزُّرْق من بني قيس بن ثعلبة – يعني: رهط أعشى بكر – وبـأصحاب النخل من يثـرب – يريد: الأوس والخزرج – وبـأصحاب الشعف من هذيل**)).

وحين خمدت نيران الحروب الأهلية القبلية بين الأوس والخزرج في مدينة الرسول – صـــلى الله عليه وسلم -، لم يعد الشعراء فيها يجدون موضوعاً ينظمون فيه، ويعبّرون عن ذواتهم من خلالـــه، كما كانوا يفعلون في الجاهلية[6]. ولما جعل المشركون يسطون على مقام النبوة بالهجاء، ويتخـــذون الشعر سلاحاً لمحاربة دين الحق، وبلغوا به أقصى ما يمكن من الحدَّة والعنف، كان من الحكمة البينة

---

[1] . انظر الآيتين (٦، ٧) من سورة الحشر.

[2] . سامي العاني/ ديوان كعب بن مالك/٤٨.

[3] . شوقي ضيف: الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية – المدينة/٩٥.

[4] .العقد الفريد/٣/١٢٣.

[5] . نفسه/٢٧٣.

[6] .سيد حنفي/ حسان بن ثابت/١١٤.

أن يكافح أولئك الهجاؤون بسلاحهم، لما للشعر من الاتصال بالنفوس، وما له من الأثر في استهواء القلوب[1]، والسيطرة على المشاعر. فما أن سمع الأنصار هذه السهام الشعرية المصمية توجَّه إليهم من مكة، وتحمل معها عبارات الهجاء والشتم للنبي – عليه السلام - ودعوته، حتى استأذن شعراؤهم رسول الله بالردّ عليهم، والبلوغ منهم، فلما أذن لهم أشعلوا نيرانها.

وأخذ النبي – عليه السلام - يدفع شعراءه إلى الدخول في هذه الحرب الكلامية الجديدة، ويشجعهم على القول، ويتعهدهم بالرعاية، انتصاراً لدين الله، ودفاعاً عن الإسلام، وأعراض المسلمين، ومضى الرسول يحرضهم على هجاء المشركين، ويثيبهم على ذلك، ويُقِدّمهم ويَعدهم مثل ما كان يعد المقاتلين من الأجر والمثوبة عند الله. واستمرت الحرب الكلامية تُصوَّب من مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى مكة طوال فترة الصراع العسكري، وإلى ذلك يشير حسان بن ثابت بقوله:[2]

لنا في كل يومٍ من مَعَدٍّ	سِبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ
فَنُحْكِمُ بالقوافي مَنْ هجانا	ونضربُ حين تختلط الدّماء

وفي الأغاني:[3] كان يهجو رسول الله ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الّزِبَعْرَى، وأبو سفيان بن الحارث، وعمرو بن العاصي، فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويُعَيّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يُعيّرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشدُّ القول عليهم قولَ حسان وكعب، وأهون القول عليهم قولَ ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام، كان أشد القول عليهم قولَ ابن رواحة.

ومن المؤكد أن حساناً وكعباً كانا يرميان قريشاً وسائر الخصوم عن بصيرة ووعي، حين غلبت على هجائهما صورة الهجاء القديمة التي كانت شائعة بين العرب آنذاك، فهي التي كانت تؤذي نفوس القرشيين المكيين وغيرهم، وتنال من أحسابهم ومآثرهم، ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم، إذ كانت تلك عقيدتهم، وكانوا يعتزون بها، ويدافعون عنها، ومن ثَمَّ اتَّجَهَ

---

[1] . نقض كتاب في العصر الجاهلي/١٤٥ – ١٤٦.

[2] . ديوانه/٦٢.

[3] . الأغاني/٤/٤.

حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا في الأحساب والأنساب، وعيّرا سادة خصومهم وفرسانهم بالفرار من ساحات القتال، وتوعداهم بالبلاء المستطير[1].

وانطلق هؤلاء الشعراء يهجون المشركين، ويدافعون عن المسلمين وأعراضهم وكيانهم السياسي، فكانوا بذلك كصحافة هذا العصر ودعايته ووسائل إعلامه، يحملون من أعباء القتال وهمومه مثل ما يحمل الجيش المحارب.

حسان بن ثابت الأنصاري:

دخل حسان الإسلام في الخمسين من عمره أو الستين – فيما يقولون – فتصدَّى لأعداء الإسلام يهجوهم هجاءً مريراً، ويدافع عن الدين الجديد، ويدفع عنه أذى الخصوم والمناوئين بلسانٍ سليطٍ فيه بَسْطَة، فإذا مسَّهم به لا يُجدي شعراؤهم نفعاً، ولا يحسنون الثبات أمام قوافيه المُصْمِية، فما أن علم أنَّ أبا سفيان بن الحارث قد هجا رسول الله – صلى الله عليه السلام - حتى بعث إليه يقول:[2]

ألا أبلِغ أبــا سفيان عني ... مُغلغلةً فقد بَرِحَ الخَفَاءُ

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ ... فشرُّكما لخيركما الفِداءُ

وكان لسانه كأنما زاد الله فيه زيادة ظاهرة، فكان ظاهراً على أعداء الإسلام من الشعراء وغير الشعراء، حتى زعم أبو الفرج أن جبريل عليه السلام قد أعانه بسبعين بيتاً[3]. وكان يصف لسانه فيقول:[4] ((ما يسرُّني به مِقْوَلُ أحدٍ من العرب، والله لو وضَعْته على شَعَرٍ لحَلَقه، أو على صخر لفلقه. وبهذا اللسان الحاد قام يوزع هجاءه على أعداء النبي جميعاً، فخصَّ قريشاً بالنصيب الأوفر من هذا الهجاء، وخصَّ منهم الشعراء والزعماء السياسيين بما يتناسب مع عدائهم للإسلام ورسوله، فعلى عبد الله بن الزبعري – كما يقول – غضبٌ مقيمٌ في الدنيا والآخرة:[5]

غَضِب الإله على الزِبَعْرَى وابنه ... وعذابُ سوءٍ في الحياة مقيمُ

---

[1]. العصر الإسلامي/٥٠.

[2]. ديوانه/٦٣.

[3]. الأغاني/٤/٦.

[4]. الشعر والشعراء/١/٣٠٥.

[5]. ديوانه/٤١٦.

أما الحارث بن هشام فتوجه إليه بقوله:[1]

أجمعت أنك أنت الأم من مشى　　في فُحش مومسةٍ وزهو غراب

وكذاك ورَّثك الأوائل أنهم　　ذهبوا وصِرْتَ بخزية وعذاب

وتناول زعماء مكة المنابذين للرسول، فحطَّ من أقدارهم، من ذلك قوله يشكك في زعامة أبي جهل:[2]

سمَّاه معشره أبا حكمٍ　　والله سماه أبا جهلِ

أبقت رياسته لمعشره　　غضب الإله وذلة الأصلِ

وقوله يتهم الوليد بن المغيرة في نسبه:[3]

وصَقعبُ والدٌ لأبيك قَيْنٌ　　لئيم حلَّ في شُعَب الأُروم

تُسَمُّون المغيرة وهو ظلمٌ　　ويُنسى ديسم الإسم القديم

وكما هجا الشعراء والزعماء السياسيين من الرجال، هجا النساء اللواتي كان لهن دور خطير في الصراع ضد الإسلام، فتناول هنداً بنت عتبة بما لا يُحْسُنُ أن يُذكر من أعضائها، ونسب إليها الفاحشة والعُهْر في أبيات مطلعها:[4]

أشِرَت لُكاعُ وكان عادتها　　لؤمٌ إذا أشِرَت مع الكفرِ

وتناول لسانه سلافة بنت سعد بن شهيد تلك التي آوت ابن أبيرق الذي سرق الدرعين من المدينة، ثم فرَّ لاجئاً إلى مكة، فقال فيها:[5]

وما سارقُ الدرعين إن كنت ذاكراً　　بذي كرمٍ من الرجال أو أَدِعُهْ

فقد أنزَلَته بنت سعدٍ فأصبحت　　ينازعها جِلْدَ استها وتنازعهْ

وكان حسان هو الشاعر البارز الذي يهابه خصومه، إذ كان هجاؤه لأعداء النبي الكريم من قريش وغير قريش تعريضاً ولوماً، ينال فيه من أحسابهم وأنسابهم، ويصمهم بالجبن والخوف، ويرسم صورة انكسارهم فيوجعهم بأسلوب تغلب عليه البداوة على فُحش غير قليل. ولم يفرّق في هجائه

---

[1] . ديوانه/١١٦.

[2] . ديوانه/٤٠١.

[3] . ديوانه/٤٥٧ – ٤٥٨.

[4] . ديوانه/٢٨٥.

[5] . ديوانه/٣٢٧.

بين فرد أو قبيلة ما دام الأمر يتعلق بالإسلام، فقبيلة هذيل قد غدرت بالدعاة من المسلمين يوم الرجيع، ولذلك رأى من واجبه أن يخصَّهم بشيء من هجائه المقذع فقال:[1]

قومٌ تواصوا بأكل الجار كلّهمُ فخيرهم رجلاً والتيسُ مِثلانِ

لو ينطق التيس ذو الخُصْيَين وسطهم لكان ذا شرفٍ فيهم وذا شانِ

ولم يبق للمشركين شيء لم يُصبه لسانه، فها هو ذا يضع بني المغيرة القرشيين موضع الزواني، ثم يجعلهم كقوم لوط يُشار إلى خناثهم بالأصابع في أقوام العرب فيقول:[2]

ذهبت قريش بالعلاء وأنتم تمشون مشي المومسات الخُرَّعِ

أنتم بقية قوم لوطٍ فاعلموا وإلى خناثكم يُشارُ بإصبعِ

وهذا إقذاع قلما نقع على مثيله في هجاء الأعراض، ومن هنا، فإننا لا نغالي إذا قلنا إنَّ حساناً كان مدرسة هجائية. وقد كان يصنع هذه الصور انتقاماً للمذهب السياسي، وتشفّياً من أعداء الإسلام، متخذاً طريقه إلى ذلك بالسخرية والتفنُّن في الهجاء، والبراعة في ابتكار الإقذاع على صور مختلفة، واستطاع أن يستمد بعض هذه الصور من ماضيه الأدبي العريق، وبعضها الآخر من القرآن الكريم، من ذلك قوله في رهط النجاشي الشاعر:[3]

كأنكم خُشُبٌ جوفٌ أسافلُهُ مثقَّبٌ فيه أرواحُ الأعاصيرِ

ونحن نعرف أن القرآن شبَّه أقواماً بالخشب المسندة، وبأنهم كبار الأجسام صغار الأحلام.

وفي الوقت الذي وقف فيه حسان يهجو أعداء الإسلام، راح يدافع عن الدين الجديد الذي آمن به وانتصر له، ووقف يدفع عنه الخصوم بلسان جاهلي، ومعانٍ جاهلية، تلك المعاني التي نشأ عليها وأسَنَّ، فهو يعالج الفخر والحماسة فيُعدّد الأيام والانتصارات كما كان يفعل الجاهليون من أقرانه والسابقين عليه، غير أنه أضاف إلى هذا الموضوع صوراً أخرى جديدة استمدها من الإسلام وزيَّن بها قوافيه، وبرزت هذه الصور – أكثر ما برزت– في مديحه ورثائه للرسول الكريم.

وهذا المديح السياسي الذي انتهجه حسان، جعل منه شاعر الدولة الإسلامية، وسما به حتى قرَّبه إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم - الذي كان يدَّخره لمثل هذه المواقف. وقد بلغ من رضا الله

---

[1]. ديوانه/٤٧٧.

[2]. نفسه/٣٢٤.

[3]. ديوانه/٢٧١.

عز وجل ورضا نبيّه الكريم على حسان ما أورثه الجنة، ولم يكن له ماتَّةٌ ولا سـابقةٌ في الجاهليـة والإسلام إلا شِعره[1]، ومن أجمل مدائحه للرسول قوله:[2]

وأحسنُ منك لم ترَ قطُّ عيني ... وأجملُ منك لم تَلدِ النساءُ

خُلِقتَ مُبَرَّءاً من كلّ عيبٍ ... كأنكَ قد خُلقت كما تشاءُ

وشاعت المعاني الإسلامية في مدائحه لرسوله الكريم شيوعاً ظاهراً حتى كانت تسيل علـى لـسانه سيلاً، فمن ذلك قوله:[3]

نبيٌّ أتـانـا بعد يـأسٍ وفترةٍ ... من الرُّسل، والأوثان في الأرض تُعبدُ

وأنذرنـا نـاراً وبشَّر جنـةً ... وعلَّمنـا الإسـلامَ فاللهَ نحمـدُ

تعاليتَ ربَّ الناس عن قول من دعا ... سواك إليهـا أنت أعـلى وأمجـدُ

لك الخلق والنعمـاء والأمـر كله ... فإيـاك نستهدي وإيـاك نعبدُ

ولَئن رأى ابن سلام شعره الجاهلي في آل جفنة جيداً رائعاً[4]، فقد رأى ابن هشام الحميري قصيدته الإسلامية في أصحاب اللواء أنها أحسن ما قيل في يوم أحد[5]، ومطلعها:[6]

منعَ النومَ بالعشاء الهموم ... وخَيالٌ إذا تغور النجوم

ومن جياد قصائد حسان التي كان لها أبعد الأثر في نفوس المسلمين، قصيدة الفتح الـتي قالهـا في السنة الثامنة للهجرة، وأولها:[7]

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء

والجزء الإسلامي من القصيدة[8] سما بحسان سمواً لم يدركه شاعر إسلامي آخر، منها هذه الـصورة الجميلة التي ترصد تحرُّك الجيش الإسلامي حين دخل مكة:[1]

---

[1]. العمدة/١/٤٤.

[2]. ديوانه/١٦٦.

[3]. ديوانه/١٣٤ – ١٣٥.

[4]. طبقات الشعراء/٨٥.

[5]. السيرة/ق٢/١٤٩.

[6]. ديوانه/ ٤٣٢.

[7]. ديوانه/٥٧.

[8]. قال مصعب الزبيري: هذه القصيدة قال حسان صدرها في الجاهلية وآخرها في الإسلام. الاستيعاب/١/٣٤٤.

عَدِمْنا خيلَنا إن لم تَرَوْها تثير النقع موعدها كداءُ[2]

ينازعنَ الأعنَّة مُصْعداتٍ على أكتافها الأسَلُ الظّماءُ[3]

تظَلُّ جيادنا متمطّراتٍ تُلَطّمهُنَّ بالخُمُــر النساءُ[4]

ولما أطلَّ العام التاسع للهجرة، وأمَّت الوفود مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم - تعلــن إسلامها قَدِمَ وفد بني تميم يفاخر رسول الله بالأحساب والأنساب، فانتدب حساناً للمهمة، وكلَّفه أن يردَّ على شاعر القوم، فامتثل لأمر الرسول وقال قصيدته الرائعة التي منها:[5]

إن كان في الناس سبَّاقون بعدهم فكـــل سبْقٍ لأدنى سبقهم تَبَعُ

لا يرقعُ الناس ما أوهت أكفُّهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

أَكْرِمْ بقومٍ رسول الله شيعتهم[6] إذا تفرَّقتِ الأهــواء والشِيَعُ

فكانت هذه القصيدة سبباً في إسلام الوفد.

وظل هذا موقف حسان حتى عمَّ نور الإسلام جزيرة العرب، فركَن إلى الــسكوت أو كــاد، وكأنه ظنَّ أنَّ دوره على مسرح الأحداث قد انتهى، ولكن موت الرسول الكــريم قــد أقــضَّ مضجعه، وأثَّر في نفسه تأثيراً مباشراً فأنطقه بأنَّات من الحزن والأسى. وتميــزت مراثــي حــسان بشيوع المعاني الجديدة التي استفادها من الإسلام، واستقاها من توجيهات الرسول الكريم ومن قوله يرثي رسول الله:[7]

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفقدُ

أعفَّ وأوفى ذمةً بعد ذمةٍ وأقرب منه نائلاً لا ينكَّدُ

وأبذلَ منه للطَّريف وتالدٍ إذا ضنَّ معطاءٌ بما كان يُتْلِدُ

---

1. ديوانه/ ٦٠ – ٦١.
2. النقع: الغبار. وكداء: الثنية العليا بمكة مما يلي المقابر وهو المعلى.
3. الأسل: الرماح.
4. تمطرت الخيل: ذهبت مسرعة، وجاءت متمطرة: أي جاءت مسرعة يسبق بعضها بعضاً – اللسان: الخمر: جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها.
5. ديوانه/ ٣٠٤-٣٠٦ .
6. في الأغاني/ قائدهم وهو أفضل.
7. ديوانه/ ١٥١-١٥٢.

ومن قوله في قصيدة أخرى:[1]

مـــا بـــالُ عينك لا تنام كأنها	كُحِلَتْ مـــآقيها بكحل الأرمد[2]
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً	يا خير من وطيء الحصى لا تبعد
وجهي يقيك التُّرب لهفي ليتني	غيبتُ قبلك في بقيع الغَرْقَدِ[3]
ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحت	سوداً وجوههم كلون الاثْمد[4]

وهكذا كان حسان رائداً للشعر السياسي والديني وشعر النقائض، فخلف ذخيرة رائعة من جيد الشعر سامى بها فحول الشعراء الجاهليين، وتصدَّر شعراء الدولة الإسلامية، منها قصائد من أحسن ما قيل في عصر النبوة، فهي تكشف عن حقائق تاريخية، وتوضح جوانب النهضة الإسلامية، وتعين على دراسة التاريخ المحمدي، وهي إلى جانب هذا كله تعطي صورة للشعر والحياة الأدبيـــة الـــتي بعثها الدين الإسلامي الرشيد، روى أبو الفرج الأصبهاني أن أبا عبيدة قال:[5] ((**فَضلَ حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام**)) قال: ((**واجتمعت العرب على أنَّ حساناً أشعر أهل المَدَرِ**)).

وإذا نظرنا إلى حسان بعيون معاصريه، ورأينا دوره في خدمة الإسلام والدعوة له، وما صنع الله بشعره في ميدان الجهاد، واختيار الرسول إياه، واعتراف شعراء العصر له، ورأي النقاد فيـــه، إذا عرفنا هذا، استطعنا أن ندرك مكانته وقيمته الأدبية، فوضعناه موضع الصدارة من فحول الشعراء.

كعب بن مالك الأنصاري:

هو من أولئك النفر الذين بايعوا رسول الله بيعة الحرب يوم العقبة الثانية[6]، ولما تمـــت الهجـــرة آخى الرسول – صلى الله عليه وسلم - بينه وبين طلحة بن عبيد الله، حين آخى بين المهـــاجرين

---

1. ديوانه/١٥٣.
2. الأرمد: الذي يشتكي وجع عينيه.
3. بقيع الفرقد: هو بقيع المدينة الذي يدفنون فيه موتاهم.
4. الإثمد: قيل حجر يُتخذ منه الكحل، وقيل: الكحل نفسه.
5. الأغاني/٤/٣.
6. السيرة/ق١/٤٦٢ ، أنساب الأشراف/١/٢٤٨.

والأنصار. وشهد كعب المشاهد كلها مع رسول الله ما عدا غزوة تبوك[1]، وهو أحد الثلاثة الــذين تاب الله عليهم حين تخلَّفوا عن هذه الغزوة[2].

كان كعب من حملة الدعوة البارزين الذين يحسنون الجدل، ويُعرفون بقوة الحجة[3]. وكــان إلى جانب ذلك ذا مكانة سياسية مرموقة في المدينة، ولعل هذه المكانة هي التي دفعت ملــك غــسان بالشام إلى محاولة استقدامه عندما قاطعه المسلمون خمسين يوماً، بسبب تخلفه عن تبوك[4].

وكان الرجل مؤمناً تقياً شديد الخوف على إسلامه، يدلُّ على ذلك أنه اعتكف يوم تبوك، حتى منَّ الله عليه بالتوبة، وما كان الله ليتوب على غير المؤمنين. وجنَّد نفسه لخدمة الدعوة الإســلامية، ومضى يذود عنها بسيفه ولسانه، فكان شجاعاً لا يرغب بنفسه عن نفس رسول الله. وقد لــبس لَأْمَتَه الصفراء يوم أحد، ولبس الرسول لأمته، فجُرح كعب يومئذٍ أحد عــشر جرحــاً[5]. وهــذه الشجاعة النادرة، وهذا الإيمان العميق، هما اللذان جعلاه أثيراً عند رسول الله.

وكان إلى جانب هذا كله من رواة الحديث، لازم الرسول – صلى الله عليه وسلم - يــسمع حديثه فيحفظه، فروى عنه حديثاً كثيراً[6].

كان كعب شاعراً مطبوعاً في الجاهلية، وله في حروب الأوس والخزرج التي كانت بينهما قبــل الإسلام آثارٌ وذكر[7]. كما كان أحد شعراء الرسول الذين يردون عنه الأذى في الإسلام[8]، ولكــن إنتاجه الأدبي لم يرقَ إلى إنتاج حسان بن ثابت، ولعلَّ مرد ذلك يعود إلى اهتمام الــرواة بحــسان وشعره أكثر من اهتمامهم بأمر كعب وغيره. ومهما يكن من أمر، فقد شارك في أكثر الغــزوات بشعره كما شارك فيها بسيفه، وكان مبرزاً في كل ذلك. وكان الرسول يستنشده ويشجعه، عــن أبي سعيد الأنصاري قال: ((**وقف رسول الله بباب كعب بن مالك فخرج فأنشده، ثم قال له الرسول: إيه،**

---

[1]. جاء في الأغاني أنه بدري عقبي – الأغاني ١٥/٢٧، وفي الاستيعاب والإصــابة أنــه تخلّــف عــن بــدر – الاستيعاب/٣/١٣٢٤ ، الإصابة/٥/٣٠٩.

[2]. سورة التوبة/١١٩.

[3]. السيرة/ق٢/٥٣٣.

[4]. نفسه/٥٣٤.

[5]. الاستيعاب/٣/١٣٢٤.

[6]. الأغاني/١٥/٢٧.

[7]. نفسه/١٥/٢٧.

[8]. الاستيعاب/٣/١٣٢٤.

فأنشده، ثم قال له : إيه، فأنشده ثلاث مرات، فقال له الرسول – صلى الله عليه وسلم - : لهذا أشد عليهم من وقع النَّبل))[1].

ولما شبَّت نار الصراع العسكري، وتراشق الفريقان نِبال الكلام المُصْمية، كان كعب فارساً من فرسان الحلبة، فشارك في شعره مشاركة فعالة، من ذلك قوله يردُّ على ضرار بن الخطاب الفهري في يوم بدر:[2]

فلما لقيناهم وكـــل مجـــاهد	لأصحابه مستبسل النفس صابرُ
شهدنا بأن الله لا رب غيره	وأن رسول الله بالحـــق ظاهرُ
وقد عُرِّيَت بيضٌ خفافٌ كأنها	مقاييس يزهيها لعينيك شاهرُ
بهنَّ أبدنـــا جمعهم فتبددوا	وكان يلاقي الحَيْنَ من هو فاجرُ
لأمـــرٍ أراد الله أن يهلكوا به	وليس لأمـــرٍ حمَّهُ الله زاجـــرُ

وكعب متأثر بمعاني القرآن الكريم في وقت مبكر من عهد الإسلام، وهذا شائع في شعره، ولا غرو في ذلك، فهو قد أحبَّ الإسلام، وأخلص لله. والمعاني الإسلامية تشيع حتى في تهديده للكفار، فهـــا هو ذا يهدد أبا سفيان يوم بدر فيقول:[3]

فلا تعجل أبا سفيان وارقب	جياد الخيل تطلع من كداء
بنصر الله روح القدس فيها	وميكـــال فيا طيب الملاءِ

ولكن شعر كعب كان قليلاً في يوم بدر، غير أنه عوَّض هذه القلة في يوم أحد حيث قـــال فـــأكثر القول، وأجاد وطال نفسه. من ذلك قصيدته العينية الطويلة التي يناقض بها هبيرة بـــن أبي وهـــب المخزومي، ومطلعها:[4]

ألا هل أتى غسان عنَّا ودونهم	من الأرض خرق سيره متنعنع

وتبرز فيها المعاني الإسلامية في قوله:[5]

---

1 . الأغاني/١٥/٣٠.
2 . السيرة/ق٢/١٤ – ١٥.
3 . السيرة/ ق٢/٢٦.
4 . السيرة/ق٢/١٣٢.
5 . نفسه/١٣٣ – ١٣٤.

وقال رسول الله لمـــا بدوا لنا   ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا

وكونوا كمن يشري الحياة تقرُّباً   إلى ملك يُحيا لديـــه ويُرجـــعُ

ولكن خذوا أسيافكم وتوكلوا   على الله، إن الأمـــر لله أجمـــع

ومضى كعب في جهاده، يقاتل أعداء الله بسيفه، ويتصدى لهم بلسانه. فهو قد أبلى في يوم أحـــد، وثبت يدفع عن رسول الله حتى جُرح، ولكن جراحه هذه قد أذكت مشاعره، وألهبت عواطفـــه، فأنطقه عنف القتال بشعر كثير، يكشف به عن بعض جوانب المعركة، ويصف فيه ثبات المـــسلمين أمام الفئة الباغية التي خرجت تحادُّ الله ورسوله على شاكلة قوله:[1]

سائلْ قريشاً غداة السَّفح من أحُدٍ   ماذا لقينا ومـــا لاقـــوا من الهرب

فكـــم تركنا بهـــا مـــن سيّد بطلٍ   حامي الذمار كريم الجد والحسَبِ

وينتقل إلى ذكر الرسول الكريم، فيرى فيه شهاباً مضيئاً، ويبرز بعض الصفات العظيمة التي يتصف بها كالحق والعدل والشجاعة والصدق، ثم يفخر بنصرة قومه له وتصديقهم لدعوته فيقول:[2]

فينا الرسول شهابٌ ثـــم يتبعه   نـــور مضيء له فضل على الشهبِ

الحـــق منطقه والعدل سيرته   فمـــن يجبه إليه ينج مـــن تبب[3]

نَجْدَ المُقَدَّمِ، ماضي الهم مُعتزِم   حين القلوب على رجف من الرعب[4]

يمضي ويذمرنا عن غير معصية   كأنـــه البدر لم يُطبع على الكذب

بدا لنـــا فاتبعنـــاه نصدّقه   وكذّبـــوه فكنا أسعد العـــرب

ويلتفت كعب إلى من قُتل من المسلمين يوم أحد، فيرى فيهم حمزة عم الرسول، فيؤلمه ذلك أشـــد الألم، ولكن عزاءه عن حزنه أنَّ مصير حمزة وغيره من شهداء المسلمين إلى الجنة، لأنهم صدقوا الله في جهادهم، وصبروا يوم كان اللقاء، وجدير بهؤلاء أن يقول فيهم كعب:[5]

وقتلاهم في جنان النعيم   كـــرامُ المداخـــل والمخرجِ

بما صبروا تحت ظل اللواء   لواء الرسول بذي الأَضْوُجِ[1]

---

1. السيرة/ق٢/١٦١.
2. نفسه/ ١٦١ – ١٦٢.
3. التبب: الخسران.
4. الرجف: التحرك.
5. السيرة/ق٢/ ١٣٩.

كحمزة لمـــا وفى صادقاً　　　بذي هبَّةٍ صـــارمٍ سلجَجِ[2]

وصمت كعب يوم الرجيع فلم يسمعنا صوته، بينما مضى صاحبه حسان بن ثابت يواكب أحداث هذا اليوم، ويبكي من قُتل من المسلمين. وفعل مثل ذلك يوم بئر معونة، فلم يقل سوى مقطوعتين أورد إحداها الطبري في تاريخه[3]، وأما الثانية فأثبتها ابن هشام في سيرة الرســـول[4].غـــير أن هـــذا الصمت لم يَطُل، فما أن تجدد القتال يوم الأحزاب حتى علا صـــوت كعـــب يـــستنكر عـــدوان المشركين، ويهدد من ينتهك حرمة المدينة بقوله:[5]

من سَرَّه ضربٌ يُمَعْمِعُ بعضه　　　بعضاً كَلَمعْمَعَةِ الإباء المحرَقِ

فليأت مأسدةً تُسَنُّ سيوفها　　　بين المذاد وبين جزع الخندقِ

وتشيع الأفكار الإسلامية عنده شيوعاً ظاهراً، فيرى أن الله رفيق بنبيه، وأن النصر رهين بعـــون الله وقوته، وبالثبات الشجاع عند اللقاء، فيقول:[6]

فـــي عصبةٍ نصر الإلـــه نبيّه　　　بهم وكـــان بعبده ذا مرفـــقِ

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا　　　قُدُماً ونُلحقها إذا لـــم تَلْحقِ

ويعيننا الله العزيـــز بقـــوةٍ　　　منه، وصدقُ الصبر ساعة نلتقي

مـــن يتَّبع قـــول النبي فإنه　　　فينا مُطـــاع الأمر حقّ مُصدَّقِ

فبذاك ينصرنـــا ويظهر عزّنا　　　ويصيبنا مـــن نَيْل ذاك بمرفقِ

ولما كانت غزوة مؤتة، واستشهد يومئذٍ أمراء الجيش الإسلامي، حزن كعب على الشهداء فقـــال يبكيهم:[7]

وكأنما بين الجوانح والحشى　　　ممـــا تأوَّبني شهـــابٌ مُدخَلُ

وجداً على النَّفر الذين تتابعوا　　　يومـــاً بمؤتة أسندوا لم يُنقَلوا

صلّى الإله عليهم مـــن فتيةٍ　　　وسقى عظامهم الغمام المسبلُ[1]

---

[1] . الأضوج: جمع ضوج، وهو جانب الوادي.

[2] .بذي هبة: يعني سيفاً وهبة السيف: وقوعه بالعظم، وسلجج: مرهف.

[3] . تاريخ الطبري/٢ – ٥٤٨ – ٥٤٩.

[4] . السيرة/ق٢/ ١٨٩.

[5] . نفسه/٢٦١.

[6] . نفسه/ ٢٦١ – ٢٦٢.

[7] . نفسه/٣٨٥.

صبروا بمؤتة للإلـــه نفوسهم حَذَر الردى ومخافةً أن يُنكلوا[٢]

فمَضَوا أمام المسلمين كأنهم فُنُقٌ عليهنَّ الحديدُ المُرْفَلُ[٣]

وبالرغم من أهمية الفتح، لم نجد لكعب بن مالك فيه شيئاً، وإنا لنعجب لصمته إزاء هـــذا الحـــدث التاريخي العظيم الذي تحقق فيه النصر على أعنف المناوئين للإسلام، وإنا لنعجب أيضاً عندما نـــراه يصمت يوم تبوك، فهذا اليوم بالذات له في نفس كعب مكانة خاصة، ففيه تخلَّف عن الخروج مـــع صاحبه ورسوله، وبعده أهمله المسلمون وقاطعوه، حتى تاب الله عليه وأنزل بشأنه قرآناً. ومع هذه الأزمات النفسية التي ألَّمت به، لم تتحرَّك مشاعره، ولم تَفِضْ عاطفته. ولو أنه لم يَـــرْثِ رســـول الله عندما قُبض، ولم يبكِ عثمان بن عفان عندما قُتل، ولم ينطلق لسانه حين هُزمت هوازن، لجاز لنا أن نزعم بأنه انصرف عن قول الشعر ونظمه.

وهزَّ انتصار المسلمين يوم حنين مشاعر كعب، فانطلق يهدد ثقيفاً ودوساً بقوله:[٤]

قَضَينا من تهامة كلَّ وترٍ وخيبر ثم أجْمَمْنا السيوفا[٥]

نُخيّرها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوساً أو ثقيفا

فلما بلغ قوله دوساً قالوا: خذوا لأنفسكم لا يترل بكم ما نزل بثقيف، فأَتَوْا رسول الله مسلمين. ولما بلغ أهل الطائف أن الرسول – صلى الله عليه وسلم - يريد العودة إليهم، وأنشدوا ما قـــال كعب خافوا وبعثوا وفدهم إلى رسول الله يريدون الصلح[٦].

وتبدو مفاهيم الإسلام أكثر وضوحاً عند كعب في هذه القصيدة، ففيها دعـــوة مفتوحـــة إلى الدخول في دين الله، وفيها عرضٌ لشروط الإسلام على الكفار، وفيها تلخيص للسياسة الخارجيـــة لدولة الإسلام التي تظهر في قوله:[٧]

فإن تُلقوا إلينا السّلْمَ نقبل ونجعلكم لنا عَضُداً وريفا[٨]

---

1 . المسبل: الممطر.

2 . ينكلون: يرجعون هائبين لعدوهم.

3 . الفنق: الفحول من الإبل، الواحد: فنيق، المرفل: الذي تنجَرُّ أطرافه على الأرض، يريد أن دروعهم سابغة.

4 . الواقدي/ المغازي/ ٤٢٩.

5 . أجممنا: أي أرَحْنا.

6 . الواقدي/ المغازي/٤٢٩.

7 . السيرة/ق٢/ ٤٨٠.

8 . الريف: المواضع المخصبة التي على المياه، يريد: نتخذكم أعواناً على الحرب ونستمد من ريفكم العيش.

وإن تأبوا نجاهدكم ونصبرْ ... ولا يَكُ أمرنا رَعِشاً ضعيفا[1]

نُجالدُ مـــا بقينا أو تُنيبوا ... إلى الإسلام إذْعاناً مُضيفا[2]

لأمرِ الله والإسلام حتى ... يقومَ الدين معتدلاً حنيفا

فالقضية السياسية واضحة في شعر كعب وضوحها في ذهنه، فإما إسلامٌ وانقياد، وإما جهادٌ حـــتى يُظهر الله دينه، إذ لا يُقبل من المشركين غير الإسلام.

وشعر كعب يصوّر نفسيته، ويعكس بلاءه في القتال، فهو من المجاهدين الشجعان الذين آمنـــوا فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعلى هذا، فهو صادق في قوله حين يقول:[3]

أقاتلُ حتى لا أرى لي مقاتلاً ... وأنجو إذا غُمَّ الجبان من الكَربِ

وحرص كعب على إبراز دور قومه في نصرة الرسول – صلى الله عليه وسلم - ودينه، وإلى هـــذا الدور المشرف يشير بقوله:[4]

فاسأل الناس لا أبالك عنا ... يوم سالت بالمُعلَمين كـــداءُ

وتداعت خشباؤها إذ رأتنا ... واسْتَخَفَّتْ من خوفنا الخَشْباءُ

ورأى ما لَقِين منا حراءٌ ... فدعـــا ربَّهُ بأمنٍ حـــراءُ

وظل هذا ديدنُ كعبٍ في جهاده بلسانه وسيفه حتى قُبِضَ الرسول – صلى الله عليـــه وســـلم -، فحزن على فراقه أشدَّ الحزن، ويبدو هذا الحزن واضحاً في قوله:[5]

فُجِعْنا بخير الناس حيَّاً وميتاً ... وأدناهُ من ربّ البريّة مَقْعدا

وأفظعهم فقداً على كل مسلم ... وأعظمهم في الناس كلهم يدا

لقد ورثتْ أخلاقه المجد والتقى ... فلم تلقهُ إلا رشيداً ومرشدا

وهكذا نجد كعباً يمضي مع الدعوة الإسلامية، ويواكب أحداثها، ويشارك فيها ما وسعه ذلك. وقد طُبِع شعره بطابع العنف والشدة، فكثيراً ما نراه يهدد أعداء الإسلام بالحرب، وينـــذرهم بالـــشر المستطير، روى صاحب الاستيعاب أن ابن سيرين قال:[6] ((**كان شعراء المسلمين حسان بن ثابت وعبد الله**

---

1. رعشا: متقلباً غير ثابت.
2. مضيفاً/ ملجئاً.
3. لسان العرب/ مادة "قتل".
4. معجم ما استعجم/١/١٢٤.
5. سامي العاني: ديوان كعب بن مالك/١٩٨.
6. الاستيعاب/٣/١٣٢٤.

الله بن رواحة وكعب بن مالك، فكان كعب يخوّفهم الحرب، وعبد الله يعيّرهم بالكفر، وكان حسان يُقبِلُ على الأنساب)).

عبد الله بن رواحة :

كان عبد الله سيداً في قومه في الجاهلية، وكان من السابقين في الإسلام، إذ بايع الرسول – صلى الله عليه وسلم - على الحرب يوم العقبة الثانية، وكان أحد نقباء الأنصار الاثني عشر[1]، ولما هاجر رسول الله آخى بينه وبين المقداد بن الأسود[2].

كان عظيم المكانة في الإسلام مؤمناً حريصاً على نوال رضوان الله، تقياً شديد الخوف من الله، فكان إذا لقي الرجل من أصحابه قال له: تعال نؤمن بربنا ساعة[3]. وسألوا عنه امرأته فقالت: كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلّى ركعتين، وإذا دخل صلّى ركعتين، لا يدع ذلك[4]. وقد جعلت منه هذه المزايا شخصاً مقرّباً من رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، فكان يحبّه ويقدّره، قال عليه السلام:[5] ((**رحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة**)).

شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق والحديبية وعُمرة القضاء والمشاهد كلها إلا الفتح لأنه قُتل يوم مؤتة شهيداً[6]، وكان أول خارج إلى الغزو وآخر قافل[7]. وقد هيّأت له شجاعته وتقواه أن يلعب دوراً هاماً على مسرح الأحداث، فكان ثالث الثلاثة من فتيان الأنصار الذين خرجوا لمبارزة عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر عندما دعا إليها عتبة[8].

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم - يندُبه للمهمات، ويوكل إليه بعض الأعمال، لأنه كان أهلاً لذلك، فقد روى المقريزي أنه بعثه في ثلاثين راكباً إلى أسير بن زارم اليهودي بخيبر

---

1. أنساب الأشراف/١/٢٤٤ ، الخزانة/١/٣٦٢.
2. حسن الصحابة/١/٣٦.
3. الإصابة/٤/٦٦.
4. شهداء الإسلام في عصر النبوة/ ٩٣ (علي النشار).
5. الإصابة /٤/٦٦.
6. الخزانة/١/٣٦٢.
7. الاستيعاب /٣/٨٩٨.
8. المغازي/ الواقدي/ ٦٣.

فقتله[1]. وبعد فتح خيبر بعثه إليها فخَرصَ على أهلها، كما كان يندبه لكتابة الوحي[2]، ولما كان يوم مؤتة عيَّنه ثالث أمراء الجيش الإسلامي[3].

وكان عبد الله أحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردّون الأذى عن رسول الله، وفيه وفي صاحبيه: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك نزلت الآية: ((**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا**...))[4] وقد وعى عبد الله الإسلام وتركزت في نفسه مفاهيمه السمحة، فكان يعيّر أعداء الإسلام بكفرهم، ويترفَّع عن الفحش في القول، وتنأى به نفسه التقية عن السب والشتم حتى لأعداء الإسلام، روى أبو هريرة في قصصه يذكر النبي يقول:[5] ((**إن أخاً لكم لا يقول الرَّفَث**)) يعني عبد الله بن رواحة.

وكان مُحباً للرسول، مُعجباً به، ملازماً له، فهو إمامه وقائده ورسوله، أتى بالإسلام فصدَّقه واتَّبعه، ولذلك نراه يمدحه فيقول:[6]

أتانا رسول الله يتلو كتابَه	كما لاح مشهودٌ من الفجر ساطعُ
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقناتٌ أنَّ ما قال واقعُ
يبيت يجافي جنبه عن فراشه	إذا استثقَلَت بالمشركين المضاجعُ

ثم قال فيه:[7]

لو لم تكن فيه آياتٌ مبينة	كانت بديهته تنبيكَ بالخبر

وشاعت المعاني الإسلامية في شعره، فأصبحت تخالطه كما يخالط الضوء النهار، سيّان في ذلك إن مدح وإن هجا، ومرَدُّ ذلك – فيما نظن – يعود إلى اهتمامه بأمر هذا الدين الجديد، وإقباله على حفظه، ووعيه لأحكامه، فكانت الناحية الروحية تغلب على أمره لكثرة قراءته للقرآن الكريم، وهو لذلك كان يعيّر قريشاً بالكفر، لأن في ذلك منقصة لهم، فكان قوله أهون القول عليهم قبل الإسلام، وأشَدُّ عليهم عندما أسلموا وفقهوا الإسلام[8]. وكان كثيراً ما يقول الشعر ارتجالاً، فقد

---

1. إمتاع الأسماع/١/٢٧١.
2. نفسه/٢٧١، الإصابة/٤/٦٦.
3. الاستيعاب/٣/٨٩٨، الخزانة/١/٣٦٢.
4. الخزانة/١/٣٦٣.
5. صحيح البخاري/٨/٤٤ ، تفسير القرطبي/٥/٢٠٩.
6. تفسير القرطبي/٥/٢٠٩.
7. الإصابة/٤/٦٧.
8. طبقات الشعراء/٨٨، الأغاني/٤/٤.

ذكر هشام بن عروة عن أبيه قال:[1] ((سمعت أبي يقول: ما سمعتُ أحداً أجرأ ولا أسرع شعراً من عبد الله بن رواحة، سمعت رسول الله يقول له يوماً: قُل شعراً تقتضيه الساعة، وأنا أنظر إليك، فانبعث من مكانه يقول:[2]

إني تفرَّسْتُ فيك الخير أعرفه	فراسة خالفتهُم في الذي نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم	في جُلّ أمرك ما آوَوْا ولا نصروا
فثَبَّتَ الله ما آتاك من حسَنٍ	تثبيتَ موسى ونصراً كالذي نُصروا

فقال له رسول الله: وإياك فثبَّتَ الله)).

وحين خرج النبي – عليه السلام - معتمراً عمرة القضاء خرج معه عبد الله بن رواحة، فدخل مكة وهو آخذ بخطام ناقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، وقد هزَّه ما أحرز الإسلام من ظهور على أعدائه، فامتلأت نفسه غبطة، وشكر الله على هذا النصر العظيم، فأخذ يرتجز:[3]

خلُّوا بني الكفار عن سبيله	خلُّوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيلهِ	أعرفُ حقَّ الله في قبولهِ
نحن قتلناكم على تأويلهِ	كما قتلناكم على تنزيلهِ
ضَرباً يزيل الهامَ عن مقيله	ويُذهِل الخليل عن خليله

وعندما تجهَّز الناس يوم مؤتة، ثم تهيَّأوا للخروج، ودَّع الناسُ أمراء الجيش، وسلموا عليهم، فبكى عبد الله عند الوداع، فقالوا له: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حبُّ الدنيا ولا صبابةُ بكم، ولكني سمعت رسول الله يقرأ آيةً من كتاب الله عزّ وجل يذكر فيها النار ((**وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً**)) فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردَّكم إلينا صالحين[4]، فقال عبد الله يدعو الله أن يكتب له الشهادة:[5]

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً	وضربةً ذاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدا
أو طعنة بِيَدَي حرَّان مُجهزةً	بحربةٍ تُنْفِذُ الأحشاء والكبدا

---

[1] . الطبقات الكبرى/٣/٢٨٥، والاستيعاب/٣/٩٠٠.

[2] . الطبقات الكبرى/٣/٢٥٨، الاستيعاب/٣/٩٠٠.

[3] . الطبقات الكبرى /٢/١٢١، السيرة/ق٢/٣٧١.

[4] . السيرة/ ق٢/ ٣٧٣ – ٣٧٤.

[5] . السيرة/ ق٢/ ٣٧٤. الاستيعاب/٣/٨٩٨.

حتى يُقال إذا مرُّوا على جَدَثي ... يا أرشدَ الله من غازٍ وقد رشدا

ولما هيأ القوم للخروج، جاء إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فقال: مُرْ فيَّ بشيء أحفظه عنك. قال: ((إنك قادمٌ غداً بلداً السجودُ فيه قليل، فأكثر السجود، **قال: زدني يا رسول الله، قال: أكثر الذّكْر، فإنه عون لك على ما تطلب، فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع فقال: يا رسول الله، إن الله وِترٌ يحب الوتر، فقال له:** ((**يا ابن رواحة ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشراً أن تحسن واحدة**)) فقال: ((**لا أسألك عن شيء بعدها**))[1]. وسار عبد الله مع الجيش، وكأنه أحس بدنو أجله، فأخذ يعد نفسه للقاء ربه، ويرثي نفسه قبل أن يموت ويذكر غربة هذا الموت، وتَرْك المسلمين له شهيداً بأرض الشام، ويبدو هذا الإحساس قوياً في قوله يخاطب ناقته:[2]

إذا أدَّيتني وحملتِ رحلي ... مسيرة أربعٍ بعد الحِسَاء

فشأنك أنعُمٌ وخلاك ذمٌّ ... ولا أرجعْ إلى أهلي ورائي

وجاء المسلمون وغادروني ... بأرض الشام مشتهيَ الثَّواء

وردك كلَّ ذي نسب قريب ... إلى الرحمن منقطع الإخاءِ

هنالك لا أبالي طَلْعَ بعلٍ ... ولا نخلٍ أسافلها رِواءِ

فلما سمع زيد بن أرقم[3] هذا الشعر بكى، فخفقه عبد الله بالدرة وقال: ما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل[4].

وتبدو المعاني الإسلامية أكثر وضوحاً في شعر عبد الله يوم مؤتة، وتشيع من خلال قوافيه حرارة الإيمان، وصدق العقيدة، ويحمل الطابع الأخروي. ويبدو ذلك عندما قتل صاحباه: زيد بن حارثة وجعفر الطيار، إذ أخذ عبد الله الراية فتردَّدَ قليلاً، ثم أقدم على الموت غير هيَّاب، فقال يلوم نفسه على ترددها وإحجامها:[5]

أقسمتُ يا نفس لتنزلنّه ... لتنزلِنَّ أو لَتُكرهَنَّهْ

إنْ أجلب الناس وشدُّوا الرنَّهْ ... مالي أراكِ تكرهين الجنه

---

1. إمتاع الأسماع (المقريزي) ١/٣٤٦.
2. الخزانة/١/٣٦٢، السيرة/ ق٢/ ٣٧٦.
3. كان زيد يتيماً لعبد الله في حجره.
4. السيرة/ق٢/٣٧٧، الاستيعاب/٢/٥٣٦.
5. طبقات ابن سلام/٨٨، السيرة/ق٢/٣٧٩، البداية والنهاية/٢/١٦٠.

قد طال ما قد كنتِ مطمئنة | هل أنت إلاّ نُطفةٌ في شَنَّةْ

وقضى عبد الله نحبه، فطويت بذلك صفحة من أكثر الصفحات إشراقاً بعد جهاد طويل باللسان والسيف، فرضي الله عنه، وأدخله الجنة التي وُعِدَ بها المتقون، قال عليه السلام[1]: ((... ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم دخل الجنة معترضاً. فشقَّ ذلك على الأنصار وقيل يا رسول الله ما إعراضه؟ قال: ((لما أصابه الجراح نَكلَ[2] فعاتب نفسه فشَجُعَ فاستشهد فدخل الجنة)) فسُرّي عن قومه. وقد استفاد عبد الله كثيراً من حفظه للقرآن، فبدا ذلك واضحاً في شعره، من ذلك قوله لزوجه:[3]

شهدتُ بأَنّ وعد الله حقٌّ | وأنَّ النار مثوى الكافرينا
وأنَّ العرش فوق الماء حقٌّ | وفوق العرش ربُّ العالمينا
وتحمله ملائكة غلاظ | ملائكة الإله مسوَّمينا

فلما سمعت هذا الشعر ظنَّته قرآناً، وقالت: صدق الله. وكانت لا تحفظ القرآن ولا تقرأه.

ولكن أكثر ما بين أيدينا من شعر ابن رواحة إنما هو رجز، وخاصة ما قيل في غزوة مؤتة. وعلى الرغم من أنَّ الموقف العسكري يقتضي الرجز، لأنه أسهل في الارتجال، إلا أننا نرجّح أنه نظم كثيراً من الشعر في المناسبات الإسلامية الكثيرة. فإن عبد الله – وكما تذكر المصادر الإسلامية القديمة – شاعر مجوّد، وثالث شعراء الأنصار، وكان يناقض قيس ابن الخطيم في الجاهلية[4]، فلا يمكن والحالة هذه أن يكون هذا الشعر القليل هو كل شعر عبد الله. ونظن أن بعض شعره – إن لم يكن أكثره – قد ضاع، وعبثت به يد الزمن ومما يُدَعّمُ ما نذهب إليه أننا نقرأ أخبار عبد الله فنعلم منها أنه كان يعيّر قريشاً بالكفر والإلحاد، وأن تعييره هذا أصبح منقَصَةً لهم بعد إسلامهم. ونبحث في المصادر التي عنيت بشعر الصراع، فلا ينتهي إلينا من هذا الشعر شيء ذو خطر. وهذا يسوّغ لنا أن نظن بأن قريشاً قد أهملت شعره، وتخففت من روايته، وربما تخفَّف منه الأنصار وغيرهم أيضاً، خوفاً من إثارة الأحقاد، وتجنُّباً لبعث الضغائن، فكان هذا سبباً في ضياع أكثره.

---

1. إمتاع الأسماع (المقريزي)/ ١/ ٣٥٠.
2. نكل الرجل عن الأمر/ جبن وتخاذل.
3. الاستيعاب/٣/ ٩٠١.
4. طبقات الشعراء/ ابن سلام/٨٧.

هؤلاء الشعراء الثلاثة هم الذين خاضوا المعركة الأدبية الحامية، ووقفوا إلى جانب الجيش الإسلامي يشدُّون من أزره بما يرسلون من شعر شديد، كان على قريش وحلفائها أشدَّ من وقع النبل، وأحَدَّ من السيف. وحاول هؤلاء أن يفيدوا من القرآن الكريم، وأن يتمثلوا المعاني الإسلامية التي كانت كفيلة بكشف عورات الكفار والمنافقين واليهود ومن لفَّ لفَّهم، وتشحذ همم المسلمين، وتشجعهم على أعدائهم، فاستطاعوا بذلك أن يُشفوا ويشتفوا. وقد هيَّأ لهم توجيه الرسول الكريم أن يقوموا بمهمتهم طيلة فترة الصراع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وكان إلى جانب هؤلاء الشعراء الثلاثة شعراء آخرون، وإن لم يشتهروا شهرتهم لقلة إنتاجهم، ولكنهم على أي حال ساهموا في الخصومة الأدبية، وأدلَوْا بدلوهم في الصراع. ومن هؤلاء الشعراء **أبو خيثمة مالك بن قيس أخو بني سالم بن عوف**. وقد أورد له صاحب السيرة مقطوعتين: إحداهما في خروج زينب من مكة إلى المدينة[١]، والمقطوعة الثانية في غزوة تبوك[٢]، فعندما سار رسول الله – صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك في يوم حار، رجع أبو خيثمة إلى أهله، فوجد امرأتيه قد رشَّت كل واحدة منهما عريشها[٣] وبردت له فيه ماء، وهيأت له طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له وقال: رسول الله في الضَّحّ[٤] والريح والحرّ، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيَّأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيئا لي زاداً، ففعلتا ثم قدَّم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم - حتى أدركه حين نزل تبوك فسلَّم عليه، فقال له رسول الله:[٥] ((**أولى بك أبا خيثمة**)) فلما أخبره الخبر قال له الرسول خيراً فقال أبو خيثمة يشير إلى ذلك:[٦]

ولما رأيت الناس في الدين نافقوا	أتيت التي كانت أعفَّ وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمدٍ	فلم أكتسب إثماً ولم أُفشِ محرما

---

1. السيرة/ ق١/ ٦٥٥.
2. السيرة/ ق٢/٥٢١.
3. العريش: شبيه بالخيمة، يظلل ليكون أبرد الأخبية والبيوت.
4. الضح: الشمس.
5. أولى بك: كلمة فيها معنى التهديد، وهي اسم سمي به الفعل ومعناها في ما قال المفسرون: دنوت من الهلكة.
6. السيرة/ ق٢/٥٢١.

تركت خضيباً في العريش وصرمةً	صفايـــا كـــراما بُسْرُها قد تحمّما[1]
وكنت إذا شكَّ المنافق أسمحتْ	إلى الدين نفسي شطره حيث يمما[2]

وكان **أبو قيس صرمة بن أبي أنس** من شعراء المدينة المشهورين في الجاهلية، وأول صـــلته بالإســـلام كانت بيثرب حين هاجر إليها رسول الله – صلى الله عليه وسلم -. وكان أبو قيس قد ترهَّب في الجاهلية ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وتطهَّر من الحائض من النساء، وهمَّ بالنصرانية ثم أمسك عنها. وكان على دين إبراهيم، قوالاً باالحق، ومُعظماً لله عز وجل في جاهليته، وأسلم وهو شيخ كبير[3]، وقيل إنه وقف بقومه عن الإسلام حتى هاجر الرسول – صلى الله عليـــه وسلم - ومضى بدر وأحد والخندق، وقال فيما رأى من الإسلام، وما اختلف النـــاس فيـــه مـــن أمره[4].

أربَّ الناس أشياء أَلَمَّتْ	يلفُّ الصعبُ منها بالذَّلولِ
أربَّ الناسِ أما إذ ضَلَلْنا	فَيَسّرنا لمعروف السبيلِ

ولما أتم الله نعمته على نبيه. وتمت له النصرة، وبايعه الأنصار على حرب الأحمر والأسود يوم العقبة الثانية، بعد أن جمدت مكة على الكفر، أشار أبو قيس إلى هذا الأمر فقال:[5]

ثوى في قريش بضع عشرة حجةً	يذكّر لـــو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض في أهـــل المواسم نفسه	فلم يرَ من يُؤدي ولم يرَ داعيا
فلمـــا أتانـــا أظهـــر الله دينه	فأصبح مسروراً بطيبةَ راضيا

وكان **عبد الله بن عباس** يختلف إليه يتعلم منه هذه الأبيات[6]. وقد واكب أبو قيس أحداث الـــدعوة منذ بدئها حتى والصراع الفكري قائم في مكة بين الإسلام والشرك، تدخَّل أبو قـــيس في الأمـــر،

---

[1]. الخضيب: المخضوبة، والصرمة: النخل. وصفايا: كثيرة الحمل وأصله في الإبل، يقال: ناقة صفِيّ: إذا كانـــت غزيرة الدر وجمعها صفايا. والبسر التمر قبل أن يطيب. وتحمما: أي أخذ في الإرطاب فاسودَّ.

[2]. أسمحت: انقادت. وشطره: نحوه ومقصده.

[3]. السيرة/ ق١/ ٥١٠.

[4]. السيرة/ ق١/ ٤٣٨، ابن كثير/٣/١٥٦.

[5]. أنساب الأشراف/١/٢٦٨.

[6]. الاستيعاب/٢/٧٣٧.

فبعث إلى سادة مكة يناشدهم أن يكفوا عن رسول الله، ويحذرهم من مغبة حرب أهلية تأكلهم كما أكلت غيرهم من القبائل فقال:[1]

أعيذكم بالله من شرّ صنعكم وشـــــر تباغيكـــم ودسّ العقارب
فذكّرهـــم بالله أول وهلةٍ وإجـــلال إحـــرامِ الظباء الشوازب[2]
وقـــل لهم والله يحكم حكمه ذَروا الحرب تذهب عنكم في المراحب[3]
متى تبعثوها تبعثوهـــا ذميمة هـــي الغـــول للأَقصين أو للأقارب[4]

إلى أن يقول:[5]

فقوموا فصلّوا ربكم وتمسَّحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشيب[6]

وهناك شعراء آخرون من الأنصار، ولكن المصادر القديمة لم تكن لتُعنى بهم عنايتها بالمشهورين، من الشعراء وإنما احتفظت للشاعر منهم بأبيات قليلة أوردها عند الحديث عن مناسبة، أو للاستشهاد على حَدَثٍ تاريخي.

من هؤلاء **عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري**، وقد روى له صاحب السيرة وغيره[7] أبياتاً مـــن الرجز عندما تحدثوا عن يوم الرجيع، وكان عاصم واحداً من الذين استشهدوا في ذلك اليوم، فقد رفض أن يُذعن لتهديد الكفار، كما رفض أن يقبل منهم عهداً ولا عقداً أبداً، وأخذ سيفه وقـــام يقاتلهم وهو يرتجز:[8]

أبـــو سليمان وريشُ المُقْعَد وضالةٌ مثل الجحيم الموقد[9]
إذا النواجي افْتُرِشَتْ لم أُرعد ومُجناً من جلد ثورٍ أجردِ[10]

---

1. السيرة/ق١/٢٨٤.
2. الشوازب: الضامرة البطون.
3. المراحب: المتسعة البطون.
4. الغول: الهلاك.
5. السيرة/ ق١/٢٨٥.
6. الأخاشب: أراد الأخشبين، وهما جبلا مكة فجمعهما مع ما حولهما.
7. السيرة/ق٢/١٧٠، البداية والنهاية/٤/٦٤، حسن الصحابة/١/٢٩٧.
8. السيرة/ ق٢/١٧٠.
9. المقعد: / رجل يريش النبل، والضالة: شجرة تصنع منها القسي والسهام، والجمع: ضال.
10. النواجي : الإبل السريعة. والمنجأ: الترس لا حديد فيه، الأجرد: الأملس.

ومؤمن بما على محمد

وشهد يوم الرجيع مع عاصم، شاب آخر من مسلمي الأنصار، ذلك هو **خُبيب بن عدي**، وقد بيع خبيب من قريش بأسير من هذيل كان بمكة، ثم خرجت به قريش لتقتله، حتى إذا جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوَّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة، ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه قال: اللهم إنّا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا، ثم قال:[1]

لقد جمَّع الأحزاب حولي وألَّبوا	قبائلهم واستجمعوا كل مَجمَعِ
وكلهم مُبدي العداوة جاهد	عليَّ لأنني في وثاقٍ بِمَضْيَعِ
وقد جمَّعوا أبناءهم ونساءهم	وقُرّبتُ من جذع طويل مُمَنَّعِ
إلى الله أشكو غربتي ثم كُربتي	وما أرصَد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبّرني على ما يراد بي	فقد بَضَعوا لحمي وقد ياس مطمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ
وقد خيَّروني الكفر والموت دونه	وقد هملت عيناي من غير مجزع
وما بي حذار الموت، إني لميّتٌ	ولكن حذاري حجم نار مُلَفَّع
فوالله ما أرجو إذا متُّ مسلماً	على أي جنبٍ كان في الله مصرعي
فلستُ بمبدٍ للعدو تخشعاً	ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي

والحباب بن منذر بن الجموح الأنصاري، وهو الذي أشار على رسول الله – صلى الله عليه السلام - بالنزول في بدر، وجعْل الماء وراءهم لينقطع عن المشركين، فقال يذكر ذلك، ويذكر نصرة الأوس والخزرج للنبي:[2]

ألم تعلما لله درُّ أبيكما	وما الناس إلا أكْمَهٌ وبصيرُ
بأنا وأعداء النبي محمد	أسود لها في العالمين زئيرُ
نصرنا وآوينا النبي وما لَهُ	سوانا من أهل الملتين نصيرُ

[1] . السيرة/ق٢/١٧٦، تاريخ الطبري/٢/٥٤١، الجامع الصحيح/٢/١١٥، وتفسير القرطبي/١١/٣١.

[2] . الإصابة/١/٣١٧.

وثمة شعراء آخرون وردت لهم بعض الأبيات، نعرض عن ذكرهم لقلة إنتاجهم، وتجنباً للإطالــة، وسوف نعرض لبعض أشعارهم في حديثنا عن الغزوات.

الشعراء المهاجرون:

وكان إلى جانب شعراء الأنصار في المدينة، شعراء آخرون من المهاجرين، وأول هؤلاء الشعراء **هو عبد الله بن جحش بن رباب بن أسد بن خزيمة**، وهو صهر رسول الله، أخو زينب بنــت جحــش أم المؤمنين.

أوعب بنو جحش إلى المدينة مهاجرين مع الرسول – صلى الله عليــه وســلم -، نــساؤهم ورجالهم، فغُلّقَت دارهم، فلا ساكن بعد ولا مقيم، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يباباً ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال:[1]

وكلُّ دارٍ وإن طالتْ سلامتها ... يوماً ستدركها النكباء والحوبُ[2]

ثم قال بعد هنيهة: أصبحت دار بني جحشٍ خلاءً، فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من قلّ ابن قل[3]. ثم قال: هذا عمل ابن أخي، فرَّق جماعتنا وشتّتَ أمرنا وقَطَع بيننا[4] وقد عانى أبو أحمد – كما عانى غيره من المسلمين – كثيراً من استبداد قريش وظلمها، ولحقه منها أذى كثير، حتى ضاقت عليــه مكة التي كانت بالأمس فسيحة، فكان من المهاجرين الأولين إلى مدينة الرسول – صلى الله عليــه وسلم -.

هاجر أبو أحمد وبين ضلوعه قلبٌ يخفق بحبّ مكة، وفي نفسه حنين إلى ربوعها. وقد أتاحت لــه شاعريته أن يصور هذا الحنين في لوحات شعرية تدل دلالة واضحة على حبّه لها، وتدلُّ أيضاً على أنه هاجر منها تلبية لأمر رسوله الكريم، وما كان ليفعل لولا هذا الأمر فيقول:[5]

ولو حَلفتْ بين الصفا أم أحمــد ... ومروتها بالله برَّت يمينهــا

لنحنُ الألــى كُنّا بهــا ثم لم نزل ... بمكــة حتــى عــاد غثّاً سمينها

بها خيمت غنم بن دودان وابتنت ... وما إن غدت غنمٌ وخفَّ قطينها

---

[1]. السيرة/ق١/٤٧١.

[2]. الحوب: التوجع

[3].القل: الواحد.

[4]. السيرة/ق١/٤٧١.

[5]. السيرة/ق١/٤٧٢، أنساب الأشراف/١/٢٦٨، الإصابة/٧/٤.

إلى الله تغدو بين مثنى وواحـــد ودين رسول الله بالحـــق دينها

ويعاتب قريشاً على قسوها، ويذكر صلته ومكانته منها، ويترك الأمر للزمن ليكشف لها بُعدها عن الحق، ومجانبتها للدعوة الصحيحة، فيقول:[1]

نُمتُّ بأرحـــام إليهم قريبة ولا قرب بالأرحام إذ لا تُقرَّبُ

فأي ابن أخت بعدنا يأمننكم وأية صهر بعد صهريَ ترقب

ستعلم يوماً أينا – إذ تزايلوا وزُيّل أمر الناس للحق أصوبُ

ولما خرج بنو جحش من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة، فلمـــا بلغ صنيعه بني جحش، تأثر أبو أحمد أشدَّ التأثر، فبعث إلى أبي سفيان يعاتبه على فعلته ويعيره بذلك فقال:[2]

أبلـــغ أبا سفيان عـــن أمـــرٍ عواقبه ندامـــهْ

دار ابـــن عمّك بعتها تقضي بها عنك الغرامهْ

وحليفكم بالله ربُّ النا سِ مجتهـــد القسامـــهْ

اذهب بهـــا، اذهب بها طُوّقتها طَوْق الحمامهْ

ولما كان فتح مكة كلَّم رسول الله في دارهم، فأبطأ عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم -، فقيل له يا أبا أحمد: إن رسول الله يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب مـــنكم في ســـبيل الله، فأمسك عن كلام رسول الله، وفي نفسه حنين إلى ذلك الطلل الخابي[3].

وبعد سنوات ثمان من الهجرة عاد أبو أحمد إلى مكة، تلك التي كان يطوف أعلاها وأسفلها بغير قائد، مع أنه كان لا يُبصر النور، فتذكر ذلك، وجعل يمرُّ بين يدي رسول الله بين الصفا والمـــروة وهو يقول:[4]

يا حبَّذا مكة من وادي بها أهلي ومُوَّادي

بهـــا ترسخ أوتـــادي بها أمشي بلا هادِ

---

1 . السيرة/ق١/٤٧٥.

2 . السيرة/ق١/٤٩٩ – ٥٠٠.

3 . السيرة/ ق١/ ٥٠٠.

4 . البلاذري/ أنساب الأشراف/١/٢٠٠.

وكان **عبد الله بن جحش** – أخو أبي أحمد – من شعراء المهاجرين أيضاً، وتاريخ عبد الله في الإسلام حافل بالبطولة والتضحية، فقد آمن برسول الله – صلى الله عليه وسلم - قبل أن يدخل دار الأرقم ابن أبي الأرقم. وهاجر في سبيل الله مرتين، مرة إلى الحبشة والمرة الثانية إلى المدينة. وكان سيد بني جحش فهاجروا جميعاً بهجرته، ولما وصل المدينة نزل هو وأخوه أبو أحمد على عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وتفرَّق بقية الحي بين بيوت الأنصار يعيشون في رحابهم.

ولما نزل أمر الله بالجهاد، أراد الرسول أن يُخرج لقريش من يترصَّد لهم ويأتيه بأخبارهم، فندب لذلك عبد الله بن جحش في ثمانية رهط من المهاجرين، قال سعد بن أبي وقاص: قال النبي – عليه السلام -: ((**لأَبعثنَّ عليكم رجلاً أصبركم على الجوع والعطش**)) فبعث علينا عبدالله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، فلما نظر في الكتاب إذا فيه: ((إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة – بين مكة والطائف – فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم))، فلما قرأ الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم مضى لسبيله[1].

فلما نزل بنخلة مرَّت به عيرٌ لقريش تحمل تجارة لهم وعليها عمرو بن الحضرمي، فهاجم العير وقتل قائدها وأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، ثم قدم بالعير والأسيرين على رسول الله، فقال له الرسول – صلى الله عليه وسلم -: ((**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**))وأبى أن يأخذ شيئاً من الغنيمة. واستغلت قريش هذا الحادث للترويج لسياستها العدوانية ضد الإسلام، واتخذت منه وسيلة للطعن على محمد وأصحابه بانتهاك حرمة الشهر الحرام، وسعت لتأليب العرب عليه نتيجة ذلك. وبقي أمر عبد الله في عُسرٍ وضيق حتى نزل قوله تعالى: ((**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل**))[2] فيُسّر على عبد الله وسُرّيَ عنه، وذهب عنه وعن أصحابه ما كان بهم من خوفٍ ورَوْعٍ، وقسَّم رسول الله الغنائم بين المسلمين، فقال عبد الله في ذلك:

تَعدُّون قتلاً في الحرام عظيمةً ... وأعظم منه لو يرى الرُّشد راشدُ[3]
صُدودُكم عمَّا يقول محمدٌ ... وكفرٌ به واللهُ راءٍ وشاهدُ
وإخراجكم من مسجد الله أهلَهُ ... لئلا يُرى للهِ في البيت ساجدُ

---

1. السيرة/ق١/٦٠١ – ٦٠٢.
2. السيرة/ ق١/ ٦٠٣ – ٦٠٤.
3. السيرة/ ق١/ ٦٠٥ – ٦٠٦ ، تفسير القرطبي/٣/٤٦.

فإنَّـــا وإن عَيَّرتمـــونا بقتلِـــهِ   وأرجفَ بالإسلام بـــاغٍ وحاسدُ
سَقينا من ابن الحضرمي رماحنا   بنخلة لمـــا أوقدَ الحـــربَ واقدُ
دَماً وابن عبد الله عثمان بيننا   يُنازعه غُلٌّ مـــن القَدّ عانـــدُ

وهكذا استفاد عبد الله من القرآن الكريم، وصاغ المعاني الإسلامية التي وردت في الآية بهذا القالب الشعري، وردَّ على قريش، ونقضَ استغلالها السياسي لهذا الحدث.

وشهد عبد الله بدراً، واستشهد يوم أحد، فمثَّل به المشركون، وقطعوا أنفه فـــسماه الرســـولُ المُجدَّع في الله[1]، وبهذا صمت هذا الصوت الإسلامي إلى الأبد فلم نَعُدْ نسمع له شعراً.

وثمة شاعر آخر من شعراء المهاجرين، ذلك هو **عبد الله بن الحارث السهمي.** آمن عبد الله بالإسلام في وقت مبكر، وحمل الدعوة مع من حملها من فتيان قريش، ولقي في سبيلها المـــشقَّة والـــصعوبة، وتعرَّض للمحنة كغيره ممن أسلموا واتبعوا الدين الجديد، فضاقت عليه مكة فهاجر – مع من هاجر من المسلمين – إلى الحبشة.

وهناك أحسَّ عبد الله وسائر المهاجرين بالأمان، وعبدوا ربهم لا يخافون على ذلك أحداً، فقـــد أحسن النجاشي جوارهم عندما نزلوا به، فحملهم هذا الإحسان على الاستقرار في بـــلاده حـــتى يجعل الله لهم مخرجاً[2].

أما في مكة فقد وثبت قريش على من أسلم من أبنائها تعذّبهم، وتضطهدهم وتَفْتِنَهم ولا ذنـــب لهم إلاّ حملهم لهذا الدين الجديد الذي أنزله الله على محمد ليخرج، به قريشاً وسائر النـــاس مـــن الظلمات إلى النور: ((**وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد**))[3].

وحين علم عبد الله بِمُصاب إخوانه من المسلمين تأثر لذلك، ففاضت عاطفته بأبياتٍ من الشعر يُصوّر بها قسوة المجتمع المكي على أولئك النفر المسلمين، ويدعو الجماعة المؤمنة إلى التخلص مـــن الذُّلّ، والهجرة إلى حيث الأمن والاستقرار، ثم يضرع إلى الله الذي آمن به أن يَصُبَّ جام غـــضبه على القوم الباغين من قريش، ويعوذ به أن يظهروا على الإسلام فيتمكنوا من فتنته، فيقول:[4]

---

[1] . تاريخ الطبري/٢/٥٢٩، الروض الآنف/٢/٥٩.
[2] . السيرة/ق١/٣٣٠.
[3] . سورة البروج/٨.
[4] . السيرة/ ق١/ ٣٣٠ – ٣٣١.

يـــا راكبـــاً بَلّغَنْ عنـــي مُغَلْغَلَـــةً مَنْ كان يرجو بلاغ الله والدينِ[1]

كـــلُّ امريءٍ من عباد الله مضطهدٌ ببطن مكـــة مقهـــورٍ ومفتونِ

إنَّـــا وجـــدنا بلاد الله واسعـــةً تنجي من الذل والمَخزاةِ والهونِ

فلا تقيمـــوا على ذلّ الحياة وخِزْ يٍ في الممات وعيب غير مأمونِ

إنا تَبِعْنا رســـول الله واطَّرَحـــوا قـــول النبي وعالوا في الموازين[2]

فاجعل عذابك في القوم الذين بَغَوْا وعائذاً بك أن يعلـــو فيُطْغوني

ويبدو أن إسلام عبد الله في وقت مبكر قد أتاح له أن يفهم الإسلام، وأن يتأثر به تـــأثراً عميقـــاً، ويصدر عنه في شعره، فنحن حين نقرأ له هذا الشعر نتذكر قول الله تعالى: ((**ألم تكن أرض الله واسعة فتهـاجروا فيهـا**...)) ويوحي لنا شعره بأن المهاجرين في الحبشة كانوا على اتصال بمكة، وعلى بيّنة بما يجري فيها من أحداث.

ويمضي عبد الله مع أحداث الدعوة يصوّر لنا الظروف القاسية التي يعيشها المسلمون في مكـــة، وينقل لنا أحاسيسه تجاه الأوضاع الفاسدة فيها، فها هو ذا ينعى على قريش جحودها حقَّ الله كما جَحَدت عادٌ ومدين وثمود فيقول:[3]

وتلك قريش تجحدُ الله ربها كما جحدت عادٌ ومَدْين الحِجْرُ[4]

فإن أنا لم أُبرقْ فلا يَسَعنَّني من الأرض برٌّ ذو فضاءٍ ولا بحرُ[5]

بأرض بها عبد الإله محمدٌ أُبيّن مـــا في النفس إذْ بُلغ النَّقْرُ[6]

وينسب ابن هشام إلى عبد الله أبياتاً يمدح بها رسول الله، قال إنه قالها يوم بدر، وهي:[7]

مُسْتَشْعري حلقِ المَاذيّ يَقْدُمُهم جَلْدُ النَّحيزةِ ماضٍ غيرُ رعديدِ[8]

---

[1] . المغلغلة: الرسالة ترسل من بلد إلى بلد.

[2] . عال في الميزان يعول: خان.

[3] . السيرة/ق١/٣٣١.

[4] . الحجر: يريد أهل الحجر، وهم ثمود.

[5] . أبرق: أهدد.

[6] . النقر: البحث عن الشيء.

[7] . السيرة/ ق٢/٢٠.

[8] يقال استشعرت الثوب: وذلك إذا لَبِسْته على جسمك من غير حاجز، ومنه الشعار: وهو ما ولي الجســم مـــن الثياب. والماذي: الدروع البيض اللينة. والنحيزة: الطبيعة.

أعنى رسولَ إلــه الخلقِ فضَّلهُ على البريَّة بالتقوى وباجــودِ

وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم وماءُ بدرٍ زعمتم غيرُ مورودِ

ثم وَردنــا ولم نسمع لقولكمُ حتى شربنا رَواءً غير تصريدِ[١]

فينا الرسول وفينا الحقُّ نَتْبعه حتى الممات ونصرٌ غير محدودِ[٢]

وافٍ وماضٍ شهابٌ يستضاءُ به بدرٌ أَنار على كلّ الأماجيد

وقد وجدنا ابن إسحاق ينسبها لحسان بن ثابت، وتابعه البرقوقي في هذه النــسبة، إذ أوردهــا في ديوان حسان على أنها له[٣]، وكذا فعل محد طاهر درويش[٤]، ولئن أصاب ابن هشام في قولــه بــأن عبد الله قد هلك بأرض الحبشة[٥]، فهذا يعني بأنه لم يشهد غزوة بدر الكبرى، وهذا الخبر يعزز مــا ذهب إليه ابن إسحاق ومن تابعه، وجاء في الاستيعاب[٦] وأسد الغابة[٧] أنَّ عبد الله قد قتــل يــوم الطائف شهيداً هو وأخوه السائب، وقيل: بل قُتل يوم اليمامة هو وأخوه أبو قيس، مما يجعلنا نرجّح نسبة القصيدة إلى عبد الله كما ذهب ابن هشام.

وكان **عبد الله بن حُذافة السهمي** واحداً من هؤلاء الشعراء أيضاً، وهو من السابقين الأولــين في الإسلام، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية مع أخيه أبي قيس[٨].

كان عبد الله من الرجال المقربين من رسول الله، وقد هيَّأت له قدرته علــى إظهــار الحُجَّــة والإقناع أنْ يندُبَه للمهام الرسمية، فكان سفير الدولة إلى كسرى ملك الفرس. ولما مزَّق كــسرى الكتاب، قال رسول الله: ((**اللهم مزّق ملكه**)) ثم قال: ((**إذا مات كسرى فلا كسرى بعده**)) فاستوحى عبــد الله معاني هذا الحديث في أبيات يقول فيها:[٩]

أبى الله إلا أنَّ كسرى فريسةٌ لأول داعٍ بالعــراقِ محمــدا

---

1 . الرواء – بفتح الراء – التملؤ من الماء – وبكسرها – : جمع راوٍ. والتصريد: تقليل الشرب.

2 . غير محدود: غير ممنوع.

3 . ديوان حسان/ ١٣٦.

4 . حسان بن ثابت الأنصاري/٤٢٧.

5 . السيرة/ق٢/٣٦٥.

6 . الاستيعاب/٣/٨٨٥.

7 . أسد الغابة/٣/٢٠٧.

8 . السيرة/ق١/٣٢٨.

9 . حسن الصحابة/١/٣٠٦ – ٣٠٨.

تقاذفَ في فُحْش الجواب مُصعّراً | لأَمر العُريب الخائضين له الردى
فقلتُ لـــه أورِدْ فإنَّك داخلٌ | من اليوم في البلوى ومُنْتَهَبٌ غدا
فأَقْبِل وأَدْبِرْ حيث شئتَ فإننا | لنا الملك فابسط للمسالمة اليدا
وإلا فأمسِك قارعاً سنَّ نادمٍ | أقِرَّ بذُلِّ الخَرْجِ أو مُتْ موحّـــدا
سَفهت بتمزيق الكتاب وهذه | بتمزيق ملك الفرس كَفّي مبدّدا

عاد عبد الله من أرض الحبشة في السنة السابعة للهجرة، واستشهد يوم الطائف في السنة الثامنة[1].

ونظن أن عبد الله وصحبه من المهاجرين إلى الحبشة قد قالوا شعراً كثيراً يصوّرون فيه محنتهم ومـــا لاقوا في سبيل الله من صعوبات، ويذكرون مكة، ومكانتهم فيها وحبهم لها، ويمدحون النجاشـــي على حُسْن جواره، ولكن هذا الشعر قد ضاع ،لأنه قيل في بلد أعجمي بعيد عن أرض الـــصراع، ولأنه يعرّض بقريش، وينتقص من مكانتها في الإسلام، ودورها في محاربته، فلم ترو منه شيئاً.

وهناك شعراء آخرون من المهاجرين، نعرض عنهم لما وجدنا من الاختلاف في أمـــر المنـــسوب إليهم من الشعر أولاً، ولقلة هذا الشعر ثانياً.

وقد كانت المعاني الإسلامية أكثر وضوحاً في شعر المهاجرين على قلته لأنهم تثقفوا بالإسلام منذ ظهوره وتصدّوا لكفار قريش بالجدل والنقاش، ولاقوا بسبب ذلك التعذيب والتشريد والمقاطعـــة، فتبلورت الفكرة الإسلامية في نفوسهم أكثر مما تبلورت في نفوس الأنصار. ولذلك وجدنا الـــشعر الذي قيل في مكة خاصة تشيع فيه المعاني الإسلامية، ويفيض منها الألم الناجم عن التعذيب نتيجـــة التمسك بدين الله، فهو شعر يصوّر مرارة الكفاح ضد القوة الباغية.

وكان إلى جانب هؤلاء الشعراء، شواعر من النساء المهاجرات اللواتي قاسَـــيْن كمـــا قاســـى الرجال، ولاقَيْن المصاعب والمشقات في سبيل الله.

من هؤلاء الشواعر **صفية بنت عبد المطلب** عمة رسول الله التي هاجرت مع المسلمين إلى المدينـــة، وحين استشهد أخوها حمزة يوم أحد بَكَته بكاءً حاراً فقالت:[2]

فوالله لا أنساك ما هبَّت الصَّبا | بكاءً وحزناً مَحْضَري ومسيري
على أسد الله الذي كان مِدْرهاً | يذود عـــن الإسلام كل كفورِ
أقول وقد أعلى النعِيُّ عشيرتي | جزى الله خيراً من أخٍ ونصيرِ

---

[1] . السيرة/ق٢/٣٦٥.

[2] . السيرة/ ق٢/ ١٦٧، ابن كثير/٣/٥٩ – ٦٠.

وغاب شعر صفية عن أحداث الصراع، وبقي كذلك حتى قبض الرسول – صـــلى الله عليـــه وسلم - إلى الرفيق الأعلى، فحلَّت الفاجعة العظيمة عقدة لسانها، وأنطقتها بشعرٍ كثيرٍ تصور فيـــه مصابها، من ذلك قولها:[1]

عين جودي بدمعةٍ وسُهودِ	واندبي خيرَ هالكٍ مفقودِ
واندبي المُصطفى بحُزْنٍ شديدٍ	خالطَ القلبَ فهو كالمعمود
كِدْتُ أقضي الحياة لما أتاهُ	قَدرٌ خُطَّ في كتاب مجيدِ
فلقد كـــان بالعباد رؤوفاً	ولهم رحمـــةٌ وخيرُ رشيدِ
رضي الله عنه حياً وميتاً	وجزاه الجنان يـــوم الخلودِ

وقد أورد لها ابن سعد مقطوعات أخرى في رثاء الرســـول[2]، وروى لهـــا الـــبلاذري مقطـــوعتين أخريين[3]، ولكن هذه المقطوعات تتفق في معناها اتفاقاً تاماً، وتختلف في رَويّها وقوافيها، مما يـــسوغ لنا أنْ نشكَّ في صحة نسبة أكثرها إليها.

وينحصر شعر صفية في الرثاء وبكاء الميت، وفي رثاء أهلها وذويها بوجهٍ خاص. وهذه ظـــاهرة عامة في شعر النساء في فترة الصراع، فلا يكاد يظهر لهن شعر إلا في تلك المناسبات، فبينما ذهب الشعراء إلى تصوير الأحداث الإسلامية، ومعالجة الكثير من أمور المسلمين وقـــضاياهم، وتَمَثُّـــلِ مشاكلهم، وتسجيل غزواتهم، وقفت النساء الشواعر ينتظرن من يموت من ذويهن ليبكينه، وحتى هذا البكا،ء فإن الروح الإسلامية تبدو فيه خافتة، ويخلو بعضه منها خلواً تاماً.

وكانت هند بنت أثاثة شاعرة من شواعر العرب، أسلمت وبايعت النبي – عليـــه الـــسلام - وهاجرت مع المسلمين إلى المدينة، وعندما فتح المسلمون خيبر، أطعمها رسول الله – عليه الصلاة والسلام - مع أخيها مسطح بن أثاثة ثلاثين وسقاً[4].

وحين هلك عبيدة بن الحارث من مصاب رجله يوم بدر، قالت ترثيه:[5]

لقد ضُمّن الصفراء مجـــداً وسؤدداً	وحلماً أصيلاً وافر اللبّ والعقلِ[1]

---

1. الطبقات الكبرى/ ٢/ ٣٣٠.
2. الطبقات الكبرى/٢/ ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠.
3. أنساب الأشراف/ ١/ ٥٩٤.
4. أعلام النساء/٥/٢١٦ (محمد رضا كحالة).
5. السيرة /ق٢/ ٤١ - ٤٢.

عبيدة فابكيــه لأضيــافِ غربــةٍ	وأرملةٍ تهــوي لأشعث كالجِذْلِ[2]
وبكّيه للأقــوام فــي كــلّ شتوةٍ	إذا احمرَّ آفاق السماء مــن المَحْلِ
وبكّيه للأيتــام والريــح زفــرةٌ	وتشبيبُ قِدْرٍ طالما أزبدتْ تغلي[3]
فإن تصبح النيران قد مات ضوءها	فقد كان يذكيهنَّ بالحطب الجَزْلِ[4]
لطارقِ ليلٍ أو لُملتمسِ القِــرى	ومستنجٍ أضحى لديه على رِسْلِ[5]

قال ابن هشام:[6] ((**وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لهند**))، وذكر محمد رضــا كحالــة أنهــا لهــا[7].

ومُرجّحات الظن تدعم نسبة الشعر لها، لما بينها وبين عبيدة من صلة رحم، فهو ابن عــم أبيهــا، ويبدو نَفَس المرأة واضحاً في هذا الشعر، حيث ترى في الرجل مصدر المجد والحلم والعقل، ومنبــع القوة والخير والكرم. ويبدو هذا النَّفَس واضحاً في رثائها للرسول حيث تقول:[8]

أشاب ذؤابتي وأذلَّ رُكنــي	بكاؤكِ فاطم الميتَ الفقيدا
فَأُعْطِيتَ العطــاء فلم تُكَدّرْ	وأُخْدِمت الولائد والعبيدا
فكنتَ ملاذنا فــي كل لِزْبٍ	إذا هبَّت شآميــةٌ بَــرودا
وإنك خير مــن ركب المطايا	وأكرمهم إذا نسبوا جدودا
رسول الله فَارَقْتنا وكُنَّــا	نُرَجّي أنْ يكون لنا خلودا
أَفاطمَ فاصبري فلقد أصابتْ	رزيئتك التهائم والنجودا

---

[1] . الصفراء: موضع بين مكة والمدينة.

[2] . الأشعث: المتغبر. الجذل: أصل الشجرة وغيرها.

[3] . الزفرة من الرياح: الشديدة السريعة المرور، تصفه بالثبات والقوة – التشبيب إيقاد النار تحت القدر ونحوها – أزبدت: رمت بالزبد، وهي الرغوة.

[4] . الجزل: الغليظ.

[5] . المستنبح: الرجل الذي يضل بالليل فيتكلف نباح الكلب وحكايته لتجاوبه كلاب الحي المتوهم نزولهم في طريقه فيهتدي بصياحه. والرسل: (بالكسر) اللبن.

[6] . السيرة/ ق٢/ ٤٢.

[7] . أعلام النساء/٥/٢١٦.

[8] . طبقات ابن سعد/٢/٣٣١.

وروى لها ابن سعد مقطوعتين أخريين في رثاء الرسول[1] وروى لها ابن هشام[2] رجزاً تناقض به هنداً بنت عتبة سنورده فيما بعد، وقد أقذعت فيه. والإقذاع والسب ظاهرة طبيعية في شعر النساء، لتغلب العواطف والمشاعر عليها، فلا تحسن تهذيبها وتعهدها كما يفعل الرجل، بل تطلقها كما تحسُّ بها[3].

وثمة شواعر أخريات **كنعم بنت سعيد** التي بكت زوجها شمَّاس بن عثمان عندما أصيب يوم أحد[4]، وعاتكة بنت عبد المطلب التي رثت رسول الله عندما قُبض[5]، **وهند بنت أبي أمية** – أم سلمة – التي رثت أخاها الوليد عندما أصيب في هجرته[6]، إلا أنَّ شعر النساء بعامة يخلو من الموضوعات الأخرى خلواً تاماً، فلم يشاركن في الأحداث، بل قصرن جهدهن في الشعر على البكاء والرثاء على أسلوب الجاهلية.

أما بعد ، فهذه دراسة عجلى لشعراء المدينة، وصورة ضيقة يمكن أن تتسع عندما نعالج الغزوات والشعر، حيث نستطيع أن نقف على أدوارهم في الصراع بشكل أوفر، ونرى ما قدموا للدعوة الإسلامية من تضحيات.

ثانيا: تصوير الشعر للأحداث

كان الإسلام حدثاً فكرياً عظيماً هزَّ مكة من الأعماق، وتردَّدَ صداه في أرجاء الجزيرة حتى عمَّها. وقد حمل إلى العرب وجهة نظر جديدة عن الكون والإنسان والحياة، ونظاماً جديداً تنظم به العلائق بينهم على أساس جديد، فكان بديهياً أن يلقى منهم مقاومة عنيفة. وكان طبيعياً أن ينتصر، وأن يبسط سلطانه عليهم، لأنه من عند الله، وليس من صنع البشر.

وكان هذا النظام ثورة عارمة على الأوضاع العربية بعامة، استهدفها من جذورها، ليؤسس أمة على قواعد جديدة، وعلائق متينة أنزلها الله ودعا إليها رسوله محمد. وكان دعاة هذا النظام

---

1 . الطبقات الكبرى/٢/٣٣١ – ٣٣٢.

2 . السيرة/ ق٢/٩١ – ٩٢، الإصابة/٨/٢٠٣.

3 . ابن طيفور/ بلاغات النساء/٣٤.

4 . السيرة/ق٢/١٦٨، الإصابة/٨/١٩٩.

5 . الطبقات الكبرى/٢/٣٢٦ – ٣٢٧.

6 . الطبقات الكبرى/٤/١٣٣، الاستيعاب/٤/١٥٥٩.

يتصفون بصفات خاصة، ويتّسمون بسمات مميزة، جعلتهم يستهينون بالصعاب، ويتحملون المشاق في سبيل انتصاره ونشره وحمايته.

وكان لابد أن تولد المشاكل، وأن يحتدم الصراع بين الدعاة لهذا النظام الجديد الغريب، وبـــين القائمين على أمر الجاهلية وحماة أعرافها وتقاليدها. وقد اصطنع أطراف الصراع وسيلتين أولاهما: فكرية كالإقناع والحجاج والجدل والمساومة. وثانيهما: عملية كالتعذيب والمقاطعة في أول الأمـــر، ثم القتال والصدام المسلح بعد ذلك.

ويعتبر الشعر خير وسيلة للدعاية وكسب الأعوان، ودفع الخصوم، فهو ينتشر في العرب انتشار النار في الهشيم. ومن هنا، كان طبيعياً أن يُحْشَرَ في الصراع وأن يأخذ دوره في التعبير عن مشاعر المتحاربين، واصطنع الرسول – صلى الله عليه وسلم - الشعراء لخدمة الدعوة، ومحاربة خصومها، والتقليل من شأنهم. وكان هؤلاء الشعراء كصحيفة سياسية ناطقـــة باســـم الـــدعوة، يـــسجلون انتصارها، ويروجون لمفاهيمها، ويدعون لحملها. ومضوا يذكرون المعاني الإسلامية الجديدة كالجنة والنار والبعث والجهاد والبيعة والهجرة والنفاق وغيرها، خلال الحديث عن انتـــصار أو في أثنـــاء هجاء لقريش وغيرها، أو عند بكاء شهيد.

وجدَّت أحداث كثيرة، فمضى الشعر يزاحم التاريخ لتسجيلها، ويسارع لرسم لوحات ناطقة معبّرة لها، لتبقى ماثلة على جبين الدهر. وعلى هذا فسوف نمضي لرصد هذه الأحداث، ثم نـــبين دور الشعر في كل حدثٍ، لنقف من وراء ذلك على مدى قدرته على تصوير هذا الحدث وإبرازه.

البيعة:

وكان أول عهد العرب بالبيعة – بمفهومها الإسلامي – في ذلك اللقاء الذي تمَّ في العقبة بـــين الرسول الكريم واثني عشر رجلاً من الأنصار حيث بايعوه على بيعة النساء[1] وذلك قبل أن تُفْتَرض عليهم الحرب[2].

ولما حال الحول، وخرج الأنصار للقاء النبي – عليه السلام - وكانوا خمسة وسبعين - ، فما أن مضى ثلث الليل، ونامت مكة حتى مرَّت أطيافهم في ظلامة الْمُدْلَهِمّ، مسرعةَ الخطى نحو العقبة ،

---

[1] . قد ذكر الله تعالى بيعة النساء في القرآن، فقال: ((يبايعنك على أن لا يُشركنَ بالله شيئاً)) فأراد بيعة النساء أنهم لم يبايعوه على القتال. وكانت مبايعته للنساء أنه يأخذ عليهنَّ العهد والميثاق، فإذا أقررن بألـــسنتهن قـــال: قـــد بايعتكن. الروض الآنف/١/٢٦٧.

[2] . السيرة/ق١/٤٣١.

ومستخفية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. وهناك في شِعْبِ العقبة شهدت الدنيا في تلك الليلة أعظم صفحات الصدق والوفاء، حيث خرج اثنا عشر نقيباً من الأنصار فبايعوا النبي نيابة عن قـــومهم[1]. وكانت بيعتهم تلك إيذاناً بميلاد دولة جديدة، وفاتحة تاريخ جديد في بناء العلائق بين الناس علـــى أسس جديدة لم يعهدوها من قبل.

وقد كانت البيعة صفقة رابحة للأنصار أدركوا بها عِزَّ الدنيا والآخرة، فكان طبيعياً لـــذلك أن تتحرك مشاعر شعرائهم، وأن يُبادروا إلى الفخر بِسَبْقهم في نُصرة الـــدين الجديـــد، والاعتـــزاز باستعدادهم لحرب الأسود والأحمر للذَّوْد عنه وحمايته، فهذا **كعب بن مالك الأنصاري** يشير إلى مبايعـــة الأنصار في شعب العقبة فيقول:[2]

أَبْلِـــغْ أُبيًّا أنــــه فـــالَ رأيُــــه	وحان غداة الشِّعْبِ والحَيْنُ واقعُ
أبى الله مـــا مَنَّتْكَ نفسك أنه	بمرصاد أمـــر الناس راءٍ وسامعُ
وأبلغ أبا سفيان أن قـــد بدا لنا	بأحمدَ نورٌ مـــن هدى الله ساطعُ
فلا تَرْغبَنْ في حشدِ أمرٍ تريـــده	وأَلّبْ وجَمِّعْ كـــلَّ ما أنت جامعُ
ودونك فاعلم أنَّ نقضَ عهودنا	أباه عليك الرَّهْط حين تتابعـــوا

وكان أمر العقبة إيذاناً باندلاع شرارة الهجاء والتشاتم بين مكة والمدينة فلمَّا تنطَّست[3] قريش الخبر، خرجت في طلب الأنصار فأدركوا سعد بن عُبادة وكان نقيباً فأخذوه، فأدخلوه مكـــة يـــضربونه ويجذبونه بجُمَّته[4] وكان ذا شَعَرٍ كثير، فأجـــاره **جبير بن مطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية**، فخلَّصاه من أيديهم، فانطلق إلى المدينة[5]. فلما هبَّ **ضرار بن الخطاب الفهري** يهدّد بشعره وسيفه، ويشير إلى احتجاز سعد بن عبادة، ردَّ عليه **حسان بن ثابت** مُهوّناً شأنه، وساخراً به فقال:[6]

لستَ إلى سعدٍ ولا المـــرءِ منذرٍ	إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمَّرا
فلولا أبـــو وَهْبٍ لَمَرَّتْ قصائدٌ	على شرف البَرْقاء يَهْوين حُسّرا[7]

---

[1] . السيرة/ق١/٤٤٢.

[2] . السيرة/ق١/٤٤٥.

[3] . تنطَّس القوم الخبر: أكثروا البحث فيه، والتنطس: تدقيق النظر.

[4] . الجُمَّة: مجتمع شعر الرأس، وهي أكثر من الوفرة وجمعها جُم.

[5] . تاريخ الطبري ٢/ ٣٦٧.

[6] . السيرة/ق١/٤٥١، الديوان/٢٤٨.

[7] . حُسَّراً: أضناها الإعياء.

فلا تَكُ كالوَسْنان يحلُمُ أنــه بقرية كسرى أو بقرية قيصرا[1]
ولا تَكُ كالثَّكلى وكانت بمعزلٍ عن الثُّكل لو كان الفؤادُ تفكَّرا[2]
ولا تكُ كالعاوي فأقبلَ نَحْرَهُ ولم يخْشَهُ، سهماً من النَّبْل مُضمرا
فإنّا ومن يُهدي القصائدَ نحوَها كمُسْتَبضعٍ تَمْراً إلى أرض خيبرا

وسجَّل القرآن هذا الدور التاريخي للأنصار فقال:[3] ((**والذين تبوَّءوا الدار والإيمان من قبلهم، يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا، ويُؤثرون على أنفسهم ولو كانَ بهم خصاصة، ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون**)). وعلى هذا، فقد أحسَّ القوم بمكانتهم عند الله وعند رسـوله، فمـضى شعراؤهم يفخرون بأنهم آوَوْا ونصروا وبذلوا الأموال في سبيل نصرة الدين الجديد، ويعلنون بأنهم يُعادون من يعاديه حتى ولو كان الحبيب المصافيا، أو كما يقول أبو قيس بن الأسلت:[4]

بَذَلنا لــه الأمــوال من حِلّ مالنا وأنفسنا عند الوغــى والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهمْ جميعاً وإن كــان الحبيب المصافيا
أقــولُ إذا أدعوك في كلّ بيعة تباركتَ قد أكثرتُ لاسمك داعيا
أقــول إذا جاوزتُ أرضاً مخوفةً حَنانَيْك لا تُظهِر عليَّ الأعاديا

وهذا **حسان بن ثابت** يبرزُ دور قومه في نصرة الرسول – صلى الله عليه وسلم - في وقتٍ تألَّبــتْ عليه فيه قبائل قيسٍ وخندف، ورفضت نصرته، بل وبادرت إلى عدائه ومقاومة دعوته، ويفخر بأنَّ الأنصار كانوا معقلاً للرسول من دون الناس، فيقول:[5]

أتانا رسول الله لّمــّا تجهَّمت له الأرض يرميه بها كلُّ موفقِ[6]
تُطَرّده أفناءُ قيسٍ وخندفٍ كتائبُ إن لا تَغدُ للرَّوعِ تَطرُقِ[7]
فكُنَّا لَهُ من سائر الناس مَعْقلاً أشمَّ مُنيفاً ذا شماريخ شُّهقِ[1]

---

[1] . الوسنان: النائم.
[2] . الثكلى: التي فقدت ولدها.
[3] . سورة الحشر/٩.
[4] . السيرة/ق١/٢ ٥١٢.
[5] . ديوانه/٣٤٤.
[6] . يقال: أوفق القوم الرجل: إذا دنوا منه واجتمعت كلمتهم عليه.
[7] . تطرق: تحتال وتتكهن.

ولم ينس شعراء الأنصار أن يستفيدوا من قول الله تعالى:[2] ((**إنَّ الذين يُبايعونك إنما يبايعون الله، يدُ الله فوق أيديهم، فمن نكثَ فإنما يَنْكثُ على نفْسِه، ومن أوفى بما عاهَدَ عليهُ اللهَ فَسَيُؤتيه أجراً عظيماً**))، فـانطلق حسان بن ثابت يُبيّن أن قومه قد التزموا بالقرآن، فهم قد بايعوا فصدقوا فلم ينكث منهم أحد، أو كما يقول:[3]

وبايَعوه فلم ينكث له أحدٌ   منهم ولم يكُ في إيمانهم خَلَلُ

وانطلاقاً من مفهوم الآية الكريمة أخذ الشعراء يعيبون على من ينكث ببيعته من قبائـل العـرب، ويعيّرونه بذلك، فهذا **خزاعيُّ بن عبد نهم الخزاعي** يأتي إلى المدينة فيبايع النبي الكريم على قومه مـن مُزَينة. ولما عاد إليهم لم يجدهم كما ظنَّ فأقام، فدعا رسول الله حسان ابن ثابت فقال له: **((اذكـر خزاعياً ولا تهجُه))**، فأرسل إليه حسان يعيّره بعدم الوفاء، ويذكّره ببيعته للرسول – صلى الله عليه وسلم -، ويلومه على إبرام أمر لا يستطيع الوفاء به فقال:[4]

ألا أبْلِـغ خزاعياً رسولاً   بأنَّ الذمَّ يغسله الوفـاء

وأنَّك خير عثمان بن عمروٍ   وأسناهـا إذا ذُكـر السناء

وبايَعْتَ الرسول وكان خيراً   إلـى خيرٍ وأدَّاك الثَّـراءُ

فما يُعجِزْكَ أو مـا لا تُطِقْهُ   من الأشياء لا يُعْجِزْ عَدَاءُ[5]

فلما بلغه قول حسان قام فقال: يا قوم، قد خصَّكم شاعر الرجل فأنْشُدُكم الله، قـالوا: لا نَنْبـوا عليك فأسلموا ووفدوا على النبي – عليه السلام -.

وتتابعت القبائل على بيعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الحرب، فلما كان يوم حنين، قال الرسول لبني سُلَيْم: ((**هل لكم في رجل يعدل مائة يُوَفّيكم ألفاً**))، وكانوا تسعمائة فوفّاهم بالضحَّاك بن قيس الكلابي وكان رئيسهم. فقال شاعرهم **العباس بن مرداس** يفخر ببيعة قومه للرسول:[6]

فإنْ تبتغي الكفَّار غيرَ ملومَة   فإنـي وزيـرٌ للنبـي وتابعُ

---

[1] . المعقل: الملجأ. وشَماريخُ جمع شمراخ وهو الرأس المستدير. وشُهَّق: مرتفعة.

[2] . سورة الفتح/١٠.

[3] . معجم ما استعجم/٣/٩٤٥.

[4] . ابن سعد/ الطبقات الكبرى/ ١/٢٩١.

[5] . عداء: بطن من خزاعة.

[6] . السيرة/ ق٢/٤٦٣، الاستيعاب/ ٢/٤٧٣.

دعانا إليهم خَيْرُ وَفْدٍ عَلِمْتُهم　　　خُزيمــة والْمُرَّارُ منهم وواسِعُ
فجئنا بألفٍ من سُليمٍ عليهم　　　لَبوسٌ لهم من نَسجِ داود رائعُ
نُبايعـــه بالأخشبين وإنمـــا　　　يدَ الله بين الأخشبين نُبايعُ

ولما فَرَّ المسلمون يوم حنين وتفرَّقوا من حول النبي قام بُجير بن زهير يذكرهم ببيعة الرضـــوان فقال:[1]

أين الذين هُمُ أجابوا ربَّهم　　　يومَ العريض وبيعة الرّضوانِ

أما كعب بن زهير فظلَّ خائفاً من العقاب حتى بايع النبيَّ بيعةَ الطاعة، فاطمأنَّـــتْ نفـــسه، وأَمِـــنَ بإعلان إسلامه فقال يذكر بيعته:[2]

حتى وضَعْتُ يميني لا أنازعه　　　في كفّ ذي نَقِمات قِيلُهُ القِيلُ

وفي السنة التاسعة للهجرة قَدِمَت وفود القبائل على رسول الله بالمدينة تُبايعه ببيعـــة الطاعـــة، وتُعلن انقيادها له وإيمانها بدعوته حتى عمَّ نور الإسلام أرجاء الجزيرة العربية.

الهجرة:

وكانت هجرة النبي حدثاً عظيماً، لأنها كانت حداً فاصلاً بين عهد الدعوة للإسلام، وعهد إقامة الدولة، ولأهميتها في تاريخ العرب، فقد لفتت أنظارهم بعامة. وانطلق الشعراء يذكرونها ويكشفون عما ترتَّب عليها من النتائج. وبعدها مباشرة شُرِع الجهاد، وبدأ الصراع بين الإســـلام وخـــصومه يتَّخذ طريق الحرب.

خرج المهاجرون من أهل مكة يريدون مدينة الأنصار، تلبية لنداء الله واستجابة لأمر رســـوله، وتركوا أموالهم ومنازلهم وذويهم، غير آسفين على شيء. ولكن بعض هؤلاء المهـــاجرين خـــرج كارهاً، لأنه يُؤْثِرُ البقاء بمكة، ولا يبغي عنها حِوَلاً، وإذا كان لابد من الهجرة، فإلى بلد آخر غـــير يثرب، من هؤلاء زوج أبي أحمد بن جحش، أما أبو أحمد نفسه فقد استسلم لقضاء الله، وخـــضع لإرادته، فخرج مهاجراً إلى الله ورسوله، وترك ذويه وأحبَّته، وفي نفسه ذكرياتٌ عزيزة جاشَتْ بها نفسه فانطلق يقول:[3]

ولَّمـــا رأتني أمُّ أحمـــد غاديـــا　　　بذمة من أخشى بغيبٍ وأرهبُ

---

1. السيرة/ ق٢/ ٤٦٠.
2. الديوان/٢١.
3. السيرة/ق١/ ٤٧٣ – أنساب الأشراف/١/٢٦٨.

تقولُ فإمـــا كنتَ لابدَّ فاعـــلاً فَيَمّمْ بنا البلدان وَلْتَنْأَ يثربُ
فقلت لها: بل يثربُ اليوم وجهنا وما يشأ الرحمنُ فالعبدُ يركبُ
إلى الله وجهي والرسول ومن يُقِمْ إلى الله يوماً وجهه لا يُخَيَّبُ
فكم قد تركنا من حبيبٍ مناصحٍ وناصِحةٍ تبكي بدمعٍ وتَندبُ
ترى أنَّ وتـــراً نَأْيُنا عـــن بلادنا ونحن نرى أنَّ الرغائبَ تّطْلُبُ

وأُذن للرسول بالهجرة، فخرج من مكة رغم أنـــف قـــريش: ((وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثْبِتوكَ أو يَقْتُلوكَ أو يُخْرِجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين))[1] وخرج معه صاحبه أبو بكر، وسار الرجلان حتى انتهيا إلى الغار ليلاً، فأقاما فيه ثلاثاً، وعندما كَفَّتْ قريش عن طلبهما، انطلقـــا مـــتجهين إلى المدينة[2].

وقد صوَّر القرآن الكريم خروج النبي بقوله:[3] ((إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجـــه الـــذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله ســـكينته عليـــه وأيَّدَه بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)).

وخرجت قريش في طلب الرسول وصاحبه، وانطلقوا يبحثون عنهما في كل مكان ،فوقف نفرُ منهم – فيهم أبو جهل - على باب أبي بكر يسأل ابنته أسماء عن وجهة الرسول – صلى الله عليـــه وسلم -، ولكنها أخفت عنهم الأمر، وعندما أعيتهم الحيلة بلغتهم أبيات شاعرمن المسلمين يقول فيها[4]:

جزى الله ربُ الناس خير جزائه رفيقين حلاَ خيمتي أمَ معبد
هما نزلاهـــا بالهدى وافتدوا به فأفلح من أمسى رفيق محمدِ
لِيَهْنِ بني كعب مكان فتاهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

فعرفوا أن الرسول وصاحبه قد توجها إلى المدينة .

---

[1]. سورة الأنفال/٣١.
[2]. أنساب الأشراف/ ١/ ٢٦٢، تاريخ الطبري/٢/٣٧٩.
[3]. سورة التوبة /٤٠.
[4]. أنساب الأشراف/١/٢٦٢.

ونمضي مع أحداث الهجرة فنرى أن أبا بكر، صاحب رسول الله في هجرته يَنْقُلُ لنا مشاعره نحو الرسول ويتمثل قول النبي له: ((**ما ظنك في اثنين الله ثالثهما**))، ويضمّن هذا القول ببيتين من الشعر فيقول:[1]

قال النبي - ولم أجزع – يوقرني　　　ونحن في سَدَفٍ من ظلمة الغار

لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا　　　وقد توكَل لي منه بإظهار

أما الأنصار فقد أظهروا من الكرم وحسن الضيافة ما يجل عن الوصف، فما أن وصل الرسول المدينة حتى خرجوا إلى مشارف المدينة ، ولم يخرجوا وحدهم، بل خرجت معهم نساؤهم وهنَ يضربن الدُفوف ويرددن:[2]

طلع البدر علينا　　　من ثنية الوداع

وجب الشكر علينا　　　ما دعا لله داع

ويمضي شعراء الأنصار يفخرون بهجرة النبيّ إليهم ، ويُعَيِّروُنَ قريشاَ لأنها خذلته وأخرجته، ويذْكُرون ما حلَّ بهم من السَّعد والهدى عندما حلَّ بينهم، فهذا حسان ابن ثابت يقول:[3]

لقد خاب قومٌ غاب عنهم نبيهم　　　وقد سرَّ من يسري إليهم ويغتدي

ترحَّل عن قومٍ فضلَّت عقولهم　　　وحلَّ على قومٍ بنورٍ مجدَّدِ

لقد نَزَلت منه على أهل يثربٍ　　　ركابُ هدى حلَّتْ عليهم بأسعُدِ

نبيٌّ يرى ما لا يرى الناس حوله　　　ويتلو كتاب الله في كل مسجدِ

ولَئِن كانت قريش قد خذلته وأخرجته، فإن الأنصار قد رحبوا به، واستبشروا بمقدمه، وأنزلوه ديارهم في أمن وفي سَعَةٍ، وقاسموه بها الأموال، ولم يَفُت حساناً أن يفتخر بصنيع قومه فيقول:[4]

مُسْتَبْشرين بِقَسم الله قولهم　　　لَّما أَتاهم كريمُ الأصل مُختارُ

أهلاً وسهلاً ففي أمْنٍ وفي سَعَةٍ　　　نِعْمَ النبي ونِعْمَ القَسْم والجارُ

فأنزلوه بدارٍ لا يُخافُ بها　　　من كان جارَهم داراً هي الدارُ

وقاسموه بها الأموال إذْ قَدِموا　　　مهاجرين وقَسْمُ الجاحد النَّارُ

---

[1] . البداية والنهاية/ ٣/١٨٣ (ابن كثير)، الروض الآنف/٢/٧.

[2] .

[3] . الديوان/١٤٣ – ١٤٤ ، ابن الأثير/٢/٧٤.

[4] . السيرة/ق١/٦٦٤.

ويذكر **أبو قيس بن الأسلت** هجرة النبي إلى طيبة، ويفخر بنصرهم له وإيمانهم بدينه وحمايتهم لدعوته، في وقتٍ عزَّ فيه النَّصير، وأعرضت مكة عن دعوة الحقّ فيقول:[1]

فلمَّا أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسروراً بطيبة راضيا

وألفى صديقاً واطمأنت به النَّوى ... وكان له عوناً من الله باديا

فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريباً ولا يخشى من الناس نائيا

أما قريش فقد رأت في هجرة النبي هزيمة لها، وجعلت فيه مائة ناقة لمن يّردُّه عليهم[2].

فلما علم بذلك **سُراقة بن مالك بن جعشم**، وكان أمير بني مدلج، وكان يترل قُدَيْداً، ويُعدُّ في أهل المدينة، ويقال إنه سكن مكة – ركب على أثره فعثر به فرسُهُ ثلاثاً، فعاد أدراجه وهو يعلم أنَّ الله قد منع منه النبي – عليه السلام -، فلما علم بذلك أبو جهل، ظنَّ أن سُراقة مُسْتغوٍ لنصر محمد، فأرسل إلى قومه يؤلبهم عليه قائلاً:[3]

بني مُدلج إني أخافُ سفيهكم ... سُراقة مستغوٍ لنصر محمدِ

عليكم به ألا تفرّق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عزّ وسؤددِ

وعلم سراقة بأمر أبي جهل، وما كان من تأليبه بني مدلج، فردَّ عليه قائلاً:[4]

أبا حكم والله لو كنتَ شاهداً ... لأَمر جوادي إذْ تسوخُ قوائمهْ

علمتَ ولم تَشْكُك بأنَّ محمداً ... رسولٌ ببرهان فَمَنْ ذا يقاومُهْ

عليكَ بكفّ القوم عنه فإنني ... أرى أمرَه يوماً ستبدو مَعالُمُهْ

بأمرٍ يَوَدُّ الناس فيه بأسرهم ... بأنَّ جميع الناس طُرَّاً يُسالُمُهْ

وهكذا يمضي الشعر مع الهجرة يكشف عن موقف قريش من الإسلام ونبيه، ويصوّرُ ما تمتليء به نفوسهم من الحقد على محمد، فهذا **عُقبة بن أبي مُعيط** يُهدّد رسول الله عندما علم بهجرته فيقول:[5]

يا راكب الناقة القصواء هاجرُنا ... عما قليلٍ تراني راكبَ الفرسِ

أُعِلُّ رمحي فيكم بعد نَهْلَتِهِ ... والسيفُ يأخذ منكم كلَّ ملتمسِ

---

1. السيرة/ ق١/ ٢ ٥١٢، الاستيعاب/١/٣٣، تاريخ الطبري/ ٢/٣٨٥.
2. السيرة/ق٢/٤٨٦.
3. البداية والنهاية/٣/١٨٦.
4. نفسه/١٨٦.
5. أنساب الأشراف/ ١/١٤٨، الاستيعاب/٢/٥٨٢.

ولم يقتصر شعر قريش على ذكر محمد، وإنما تجاوزه إلى ذكر بعض من هاجر معه، فهذه هند بنت عتبة تحَتجُّ على هجرة **رملة بنت شيبة** مع زوجها عثمان بن عفان، وتحمل عليها حملة عنيفة، وتذكّرها بقتل أبيها يوم بدر فتقول:[1]

لحى الرحمن صائبة بوَجّ ومكة عند أطراف الحجونِ

تَدينُ لمعشرٍ قتلوا أباها أَقَتْلُ أبيك جاءك باليقينِ

ولما هاجرت زينب بنت رسول الله، خرج بها **كنانة بن الربيع** أخو زوجها فخرج هبَّار بن الأسود وغيره من رجال مكة في طلبها، فروَّعها هبارٌ بالرمح وهي في هودجها، فطرحَتْ ذا بطنها – وكانت حاملاً – ، فبرك كنانة ونثَر كنانته ثم قال: لا يدنو مني رجل إلاّ وضعتُ فيه سهماً، فتكركرَ الناس عنه[2]، وعندما دفعها إلى زيد بن حارثة وصاحبه[3]، واطمأنَّ إلى خروجها قال:[4]

عجبتُ لهبَّارٍ وأوباشِ قومهِ يريدون إخْفاري ببنتِ محمدِ

ولستُ أبالي ما حييتُ عديدهم وما استجمعت قَبْضاً يدي بالمهندِ

واحتجَّ أبو خيثمة على هذا العمل الوحشي فانطلق ينعى على قريش عقوقها، ويعيّر أبا سفيان بن حرب بهزيمة قومه يوم بدر فقال:[5]

أتاني الذي لا يُقْدِرُ الناس قَدْرَهُ لزينب فيهم من عقوقٍ ومأثمِ

وإخراجُها لم يُخزَ فيها محمدٌ على مأقِط وبيننا عِطرُ مَنْشَمِ[6]

وأمسى أبو سفيان من حِلْفِ ضَمضمِ ومن حَرْبنا في رغْمِ أنفٍ ومندمِ

ولما ظهر الإسلام على أعدائه أخذ الأعراب يُقلِعون عن عبادة الأوثان، ويهاجرون إلى المدينة وحداناً. وأخذ الشعر يواكبُ هذه الهجرة الفردية وينقل أخبارها، فهذا **عمرو بن مرة الجُهني** يعلن إسلامه، ويشهد شهادة الحق ويكسر الصَّنم الذي كان يَسْدِنُه، ويخرج مهاجراً إلى المدينة ليصحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ويصوّر ذلك بقوله: [7]

---

1 . المغازي/٧٦، أنساب الأشراف/١/١٤٨، والاستيعاب /٤/١٨٤٦، الإصابة/٨/٨٦.

2 . تكركر الناس عنه: رجعوا وانصرفوا.

3 . السيرة/ ق١/٦٥٤.

4 . أنساب الأشراف/١/٣٩٨، معجم الشعراء/ ٢٥١.

5 . السيرة/ ق١/ ٦٥٥.

6 . المأقط: معترك الحرب. عطر منشم: كناية عن شدة الحرب.

7 . ابن سعد/ الطبقات الكبرى/ ١/٣٣٣.

شهدتُ بأنَّ الله حــقٌّ وإننــي		لآلهـــــة الأحجـــار أولُ تاركِ
وشَمَّرْتُ عن ساقي الإزارَ مهاجراً		إليك أجوبُ الوعث بعد الدَّكادِكِ
لأصحب خير الناس نَفْساً ووالداً		رسولَ مليكِ الناس فوق الحبائكِ

أما **جناب بن حارثة الكناني**، فقد ترك أباه الشيخ وهاجر إلى مدينة الرسول، طمعــاً في ثــواب الله ورضاه، فَجَزِعَ أبوه جزعاً شديداً وأفرغ هذا الجزع بأبيات من الشعر يقول فيها:[1]

تركتَ أبــاكَ بالأوداث كَلاًّ		وأمكَ كالعَجول من الظِّرابِ
فعمـــرك لا تلوميني ولُومي		جناباً حين أَزْمَـــع بالذهابِ
أردتَ ثوابَ ربّك في فِراقي		وقُربي كـــان أقرب للثَّوابِ

ولقي **أبو هريرة الدوسي** تعباً ومشقة عند هجرته، ولكن عزاءه عن كل ذلك أنه انتقل من دار الكفر إلى دار الإسلام، وعلى هذا فالمشقة عنده تهون أو كما يقول:[2]

يا ليلة من طولها وعنائها		على أنها من دارةِ الكفرِ نجَّتِ

ويشاء الله أن ينتصر محمد وأن تعلو كلمة الحق، وتصبح الهجرة مفخرة لكل مهـــاجر. وينطلـــق الشعراء يفخرون بها، ويمدحون المهاجرين، فيُسْبِغون عليهم صفات البطولة والــشجاعة، ويَـــرَوْن فيهم رمزاً للإيمان والإخلاص، فكعب بن زهير يَثوبُ عن عدائه للدعوة ويُسْلم لله ربّـــه، ويبـــايع محمداً بيعة الطاعة، ثم يقف بين يديه يذكر أولئك الرجال الذين أسلموا وهاجروا لا خوفاً وجزعـــاً وإنما استجابةً لأمر الله وأمر رسوله فيقول:[3]

في فتيةٍ من قريشٍ قـــال قائلهم		ببطن مكة لما أسلموا زُولوا[4]
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ		عند اللقاء ولا ميلٌ معازيلُ[5]

وهكذا أدى الشعر دوره في تصوير الهجرة، حيث قام الشعراء برصدِ وقائع هذا الحدث الخطـــير، وتسجيل وقائعه، والتأريخِ له. ونمضي بعد هذا مع الأحداث فنجد أنفسنا أمـــام فئـــة مناهـــضة

---

1 . السجستاني/ كتاب المعمرين/ ٥٧ – ٥٨.

2 . طبقات ابن سعد /٤/٣٢٦، البخاري/٥/٢٢١، مسند أحمد بن حنبل/ ١٤/٢٣٨.

3 . ديوانه/٢٣.

4 . زولوا: فعل أمر من (زال) التامة، أي : تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة.

5 . الأنكاس: جمع نكس وهو الرجل الضعيف، وكشف: جمع أكشف وهو من لا تُرْسَ معه، أو هم الشجعان الذين لا ينكشفون في الحرب. والميل: جمع أميل وهو الذي لا سيف له، أو هو الذي لا يحسن الركـــوب فيميـــل عـــن السرج. والمعازيل: الذين لا سلاح معهم وأحدهم معزال.

للإسلام، وهم المنافقون، فنقف على أخبارهم لنرى كيف استطاع الشعر أن يلاحقهم، ويكشف عن تآمرهم على سلطان الدولة الفتية.

النفاق:

وخضعت المدينة لسلطان الإسلام على الرغم من وجود عناصر غير إسلامية فيها، فقد كان فيها اليهود المناوئون للنبي الكريم، وكان فيها فئة قليلة من عرب المدينة بقيت على شركها، ثم تلاشى وجودها رويداً رويداً. وإلى جانب أولئك وهؤلاء كان فيها فئة أخرى أجبرها الوضع الجديد على إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهؤلاء هم المنافقون الذين كانوا من العرب واليهود على السواء[1].

والتسمية لم تعرفها الجاهلية من قبل[2]، وإنما أطلقها الإسلام بعد الهجرة على نَفَرٍ ستروا كفرهم، وأظهروا إسلامهم ليتمكنوا من الكيد للدين الجديد والتأمر على سلطانه.

ولئن قاسى الرسول – صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من مشركي مكة، ولاقوا منهم الاستهزاء والسخرية والمقاطعة، فإنهم قد لاقوا من منافقي المدينة ما هو أكثر من ذلك. ولما كان العهد المدني عهد قوة ومَنَعة للرسول وللمسلمين اضطر المعارضون إلى الاتشاح بثوب النفاق والقيام بدورهم بالغمز واللَّمز والمَكْر وإيغار الصدور والتَّثبيط في الفُرَص المواتية.

وعلى هذا، لم يكن موقفهم أقل دلالة على العقل والكيد والدَّهاء من مشركي مكة إن لم يكن أقوى، لأن معارضة أصحاب القوة والسلطان تنطوي على جرأة وقوة وهمة ودهاء، لما يرافقها من التعرض لخطر الدولة وأذاها[3]، فالآيات القرآنية في العهد المكي اكتفت بالتنديد والتسفيه والإنذار والكشف، أما في العهد المدني فقد وقفت موقف العنف والصرامة والحزم، وهذا الموقف يدل على خطورة المنافقين في ذلك العهد على أمن الدولة واستقرارها.

---

[1]. السيرة/ ق١/ ٥٢٧.

[2]. المزهر/١/٢٩٥.

[3]. دروزة: عصر النبي/٣١٢.

وقد أجمع المؤرخون المسلمون على أنَّ عبد الله بن أبي بن سلول، كان رأس المنافقين في المدينـــة وكان من أشرافها، فضاقت نفسه بالإسلام، وحقد على الرسول – صلى الله عليه وســـلم -، لأن قومه كانوا ينظمون له الخرز ليتوجوه لما هاجر الرسول إلى المدينة، فرأى فيه مغتصباً لملكه[1].

وظهر نشاط عبد الله بن أبي ضد الدولة بعد انتصارها يوم بدر، فلما نقض بنو قينقاع ما بينهم وبين رسول الله من عهد، حاصرهم حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله وقال: أحسِنْ إليَّ في مواليَّ، وكانوا حلفاء الخزرج، فتردَّدَ الرسول أول الأمر، ثم قال له: ((هم لك))[2].

واغتاظ من رسول الله لأنه ردَّ حلفاءه من اليهود يوم أحد، فقام بين الجند ينشر بذور القلـــق والشقاق في نفوسهم، وانخزل عن الرسول بثلث الناس وهو يقول: أطاعهم وعصاني، مـــا نـــدري علامَ نقتلُ أنفسنا ها هنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب[3].

وحاول المنافقون أن يضيّقوا الخناق على الرسول في غزواته، فعندما ســـلك في مـــال **المربع بن قيظيّ** – وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر – قام يصيحُ حين سمع حسَّ رسول الله ومن معه، ويَحْثي في وجوههم التراب ويقول: إن كنت رسول الله فإنّي لا أحلُّ لك أن تدخل في حـــائطي[4]، كمـــا استغلوا بعض هذه الغزوات لتنفيذ مآربهم، فقد خرج الحارث بن **سويد بن صامت** – وكان منافقـــاً – مع المسلمين يوم أحد، فلما التقى الناس عدا على **المجذر بن زياد البلوي** فقتله، فأمر الرسول عثمـــان بن عفان فضرب عنقه[5].

وعندما حاصر الرسول بني النضير في السنة الرابعة للهجرة، دسَّ عبد الله بن أبي ومن معه مـــن المنافقين على اليهود أنَّا معكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، فاغترَّ اليهود بذلك[6].

وأبطأ المنافقون عن رسول الله يوم الأحزاب، وجعلوا يُوَرُّون بالضعيف من العمل، ويتـــسلَّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ولا إذن. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى إظهار ما

---

1. السيرة/ ق٢/ ٢٩٢.
2. تاريخ الطبري/ ٢/ ٤٨٠.
3. السيرة/ ق٢/ ٦٤.
4. المغازي/٢١٧.
5. السيرة/ ق٢/ ٨٩.
6. تاريخ الطبري/ ٢/ ٥٣٣، تفسير القرطبي/ ١٨/ ٧.

يبطنون حتى قال **متعب بن قُشير**: كان محمد يَعِدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط[1].

وقد عظم خطر المنافقين في غزوة بني المصطلق، ذلك أنه وردت واردة الناس على الماء، فازدحم **جَهْجَاه بن سعود الغفاري** أجير عمر بن الخطاب، **وسنان بن وبر الجهني** حليف الخزرج على الماء، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ الغفاري: يا معشر المهاجرين. فانتهز ابن أبيّ هذه الفرصة وحاول بها أن يُحدث فتنة بين الناس، فغضب وقال: أَوَقَدْ فعلوها؟ قد نافَرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعُدُّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سَمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. ولما بلغ الأمر رسول الله مشى إليه ابن أبيّ فحلف بالله ما قال ولا تكلَّم به[2].

وخاض المنافقون في حديث الإفك، وراحوا ينشرون الإشاعات والأراجيف. وتولى عبد الله بن أبي في رجال من الخزرج كِبْرَ ذلك، فلما علم بذلك **أسيد بن حضير** قال يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نَكْفِكَهُم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمُرْنا بأمرك، فوالله إنهم لأهلٌ أن تُضرب أعناقهم، فقال **سعد بن عبادة**: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم، فقال له أسيد: إنك منافق تجادل عن المنافقين، فقام بعضهم إلى بعض حتى كاد يكون بين الحيين قتال[3].

ولم يكن المنافقون في المدينة فحسب، وإنما شمل النفاق من كان من الأعراب حول المدينة، فكان هناك منافقون من أسد وغطفان وجهينة ومُزيْنة وأشجع وغفار وأعاريب من أعاريب حاضرة المدينة[4]. فأخذوا يكيدون للإسلام ويتآمرون على أمن الدولة واستقرارها.

وحتى الصدقات لمزوا بها رسول الله، فبينا هو يَقْسِم الغنائم يوم حنين، إذ جاءه ذو **الخويصرة التميمي** فقال: اعدل فينا يا محمد، فغضب رسول الله وقال: ((**ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل**))[5].

وكان بناء مسجد الضرار **بذي أوان** آخر المحاولات التي قام بها المنافقون ضد الدولة، وكانوا قد اتفقوا على بنائه مع **أبي عامر الفاسق**[1]، فلمَّا تم بناؤه أتوا إلى رسول الله فقالوا: إنّا بنينا مسجداً لذي

---

1. تاريخ الطبري/٢/ ٥٦٩ – ٥٧٠، المغازي/٣٦٣.
2. السيرة/ ق٢/٢٩٠ – ٢٩١، تاريخ الطبري/٢/٦٠٥.
3. نفسه/ق٢/٣٠٠.
4. النيسابوري/ أسباب النزول/١٧٤
5. السيرة/ق٢/٤٩٦، أسباب النزول/١٦٧.

العلَّة والحاجة والليلة المطيرة، وإنا نُحبُّ أن تأتينا فتصلّي فيه[2]. وكانوا يأوون إليه ويحرّفون كلام الله عن مواضعه، ويوقعون الفرقة بين المؤمنين ضراراً وكفراً[3]. ولما عاد الرسول من تبوك، أوحي إليه بشأن المسجد، فأمر بإحراقه واتخاذه كُناسة تُلقى فيها الجِيَف والنَّتَن والقُمامة[4].

وقد اتخذ الرسول – صلى الله عليه وسلم - الأساليب الكفيلة بحماية الدولة من شرورهم، وقام بأعمال كثيرة لكشفهم ولفت أنظار المسلمين إليهم، من ذلك أنه كان يندبهم للمشاركة في الغزوات، فكانوا يتخلَّفون في كل مرة، ويتعلَّلون بما بينهم وبين اليهود من مواثيق حلفية.

ورغم كل ذلك فقد كان النَّبي – عليه السلام - يصفح ويعفو، فَيلينُ مرة ويُغضي عن أعمالهم مرات عديدة، ويقول: ((**إني أكره أن يتحدَّث الناس أنَّ محمداً يقتلُ أصحابه**))[5] ولكنه كان يشتدُّ عليهم في الأمور التي يكون لها تأثير على مصير الدولة وزعزعة سلطانها، فضرب بذلك مثلاً ارتعدت له فرائصهم، فخافوا وانْزَوَوْا ولم تَقُمْ لهم بعدها قائمة.

وتصدى القرآن الكريم للمنافقين، وأخذ يتعقَّب أعمالهم، ويُحصي عليهم أنفاسهم، ثم يقوم بكشفها للمسلمين حتى يكونوا على حذر من أخبث عدوٍّ يعمل في الجبهة الداخلية. وقد تولَّت سُوَر التوبة والأحزاب والحشر تَعْريتهم وتنبيهَ النبي إلى خطرهم، قال تعالى في شأن عبد الله بن أبيّ يوم بني قينقاع: ((**يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا اليهودَ ولا النَّصارى أولياء، بعضُهم أولياء بعضٍ، ومَنْ يَتَولَّهُم منكم فإنَّه منهم، إنَّ الله لا يهدي القومَ الظَّالمين، فترى الذين في قلوبهم مَرَضٌ يُسارِعون فيهم يقولون نَخشى أنْ تُصيبنا دائرةٌ فعسى الله أنْ يأتيَ بالفتح أو أمرٍ من عنده، فيُصبِحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين**)).

ووصف أمرهم في غزوة الأحزاب فقال: ((لا تَجْعلوا دُعاء الرسول بينكم كدُعاءِ بَعْضِكم بَعضاً، قَدْ يَعلَم الله الذين يَتَسَلَّلون منكم لَواذاً، فَلْيَحْذَرِ الذين يُخالفون عن أمْرِه أن تُصيبهم فِتنةٌ، أو يُصيبَهم عذابٌ أليم)) وقال: ((وإذ يقول المنافقونَ والذين في قلوبهم مرضٌ ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه إلا غُروراً. وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لكم فارجعوا، ويسْتأذنُ فريقٌ منهم النبيَّ، يقولون إنَّ بيوتنا عَوْرة، وما هيَ بعَوْرة، إنْ يريدون إلا فِراراً)). وقال: ((قد يَعلم الله المعوقين

---

[1]. هو عبد عمرو بن صيفي بن مالك أحد بني ضبيعة، خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله، وكان يسمى في الجاهلية: الراهب، فسماه الرسول: الفاسق: السيرة/ ق٢/٦٧.

[2]. أسباب النزول/١٧٥.

[3]. البلاذري: فتوح البلدان/ ٣-٤.

[4]. النيسابوري/ أسباب النزول/ ١٧٦.

[5]. السيرة/ ق٢/ ٢٩١.

منكم والقائلين لإخوانِهم هَلُمَّ إلينا، ولا يَأتونَ الناسَ إلا قليلاً. أشِحَّة عليكم، وإذا جـاءَ الخـوفُ رأيتَهم يَنْظرون إليكَ تَدورُ أعينهم كالذي يُغشى عليه من المَوْت، فإذا ذهب الخـوف سَـلَقوكم بألسنةٍ حِدادٍ، أشحّة على الخَيْر، أولئك لم يؤمنوا فأحبَط الله أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا)). وقال: ((يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وإن يأتِ الأحزابُ يَودُّوا لو أنَّهم بادون في الأعراب يسألون عن أنْبائِكم، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً))

ثم هَدَّدَهم بقوله: ((لَئِن لم يَنْتَهِ المنافقون والذين في قلوبِهم مَرَضٌ والمُرْجفون في المدينة، لَنُغْرِيَنَّكَ بهم ثُمَّ لا يجاوِرونكَ فيها إلا قليلاً. مَلْعونينَ أيْن ما ثُقِفوا أُخِذوا وقُتّلوا تَقْتيلا)).

وكشف تآمرهم مع بني النضير بقوله: ((ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفـروا من أهل الكتاب، لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً، وإن قوتلتم لننـصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليُولنَّ الأدبار، ثم لا يُنصَرون)).

أما في غزوة تبوك، فقد ظهر خطرهم أكثر من أي وقتٍ مضى، فبيَّن الله مواقفهم،وكشف عن دخائل نفوسهم في سورة التوبة: ((ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي، ألا في الفتنة سقطُوا ، وإنَّ جهَّنم لمحيطةٌ بالكافرين)). ((ويحلفون بالله إنَّهم لمنكم وما هم منكم، ولكنهم قومٌ يَفرَقون)). ((فَرِحَ المُخَلَّفون بمَقعَدِهم خِلاف رسول الله، وكرِهوا أن يُجاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيل الله وقالوا لا تَنفِروا في الحَرِّ، قل نارُ جهنَّمَ أشدُّ حرّاً لو كانوا يفقهون)). ((يَحذَرُ المُنافِقونَ أن تُنَزَّلَ علـيهم سورةٌ تُنَبِّئُهُم بما في قُلُوبِهم ، قل استهزِؤا، إنَّ الله مُخرِجٌ ما تحذَرون . وَلَئِن سأَلتَهُم لَيَقُولُنَّ إنَّما كُنَّا نَخوضُ ونلعَبُ قل أبالله وآياتِهِ وَرَسولِهِ كُنتم تَستَهزِئون)). ((ومنهم من يَلمِزُكَ في الصَّدقاتِ، فإن أُعطُوا منها رَضُوا ، وإن لَم يُعطَوا منها إذا هُم يَسخَطُون)). ((ومِمَّن حـولكم مـن الأعـرابِ مُنافِقُونَ، ومن أهل المدينة مرَدُوا على النِّفاق، لا تَعلَمُهُم نحنُ نَعلَمُهم سنُعَذِّبُهُم مَرَّتين ثم يُرَدُونَ إلى عَذاب عَظيم)). ((والّذين اتَّخَذُوا مسجداً ضِراراً وكُفراً وَتَفريقاً بينَ المؤمنين،وإرصاداً لِمَن حاربَ اللهَ ورَسُولَهُ من قَبلُ، وَلَيَحلِفُنَّ إن أردنا إلا الحُسنى، والله يشهدُ إنَّهم لَكاذِبون)).

هكذا كان شأن المنافقين في المدينة فتولى الله كشفهم لرسوله وللمسلمين، وصَوَّرَ حالهم ونقـل واقعهم، وكشفَ نفسياتهم بكل دِقَّةٍ، الأمر الذي ساعد على خوفهم من هذا الكشف، فانزَووا في نهاية الأمر وانتهى وجودهم .

وشارك الشعر في الصراع بين المسلمين والمنافقين فقام شعراء المنافقين بتحديد موقفهم من الإسلام ونبيه، وكَشفوا عن دَخائِلِ نفوسهم، وأبدوا ما تُخفي صُدُورهم من حقد وضغينةٍ على دعوة الحقِّ، من ذلك أن رسول الله خرج يعود سعد بن عبادة من شَكوٍ أصابه، فمرَّ بعبد الله بن أبي وحوله رجالٌ من قومه، وهو جالس بحِضْنِهِ، فسلَّمَ الرسول ثم جلسَ فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل، فقال عبد الله : يا هذا إنَّهُ لا أَحسَنُ من حديثك هذا إن كان حقَّاً فاجلس في بيتك، فمن جاءك له فَحَدِّثْهُ، ومن لم يأتِكَ فلا تَغُتَّهُ به، ولا تأته في مجلِسهِ بما يكره منه . فقال **عبد الله بن رواحة** في رجال كانوا عنده بلى :فاَغْشَنا به، وأْتِنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله مما نُحِبّ، ومما أكرمنا الله به، فلما سمع عبد الله بن أُبيّ ذلك قال:[1]

مَتَى ما يكُنْ مولاك خصمك لا تَزَلْ	تَذِلُّ وَيَصْرَعْكَ الذين تُصَارِعُ
وهل يَنْهَضُ البازِي بغير جَناحِهِ	وإنْ جُذَّ يوماً ريشُهُ فهو واقِعُ

وكان أبو عَفَكٍ يُحَرِّضُ على عداوة النبيِّ، ويُرسلُ الأشعار يَطْعَنُ بها على محمد وعلى المسلمين، وكان قد نجمَ نفاقُهُ حين قَتَلَ رسولُ الله الحارِثَ بنَ سُوَيد ابن الصامت، فأخَذ يُعَرِضُ بالرسول الكريم ودينه، ويُحاوِلُ تَخذيلَ الأنصار عن الإسلام أو كما يقول [2]

لقد عِشْتُ دَهْراً وما إنْ أرى	من الناسِ داراً ولا مَجْسَما
أَبَرَّ عهوداً وأوفى لِمَنْ	يُعاقد فيهم إذا ما دعا
من أولاد قَيْلَةَ في جَمْعهم	يَهُدُّ الجبال ولم يَخضَعا
فصدَّعهم راكبٌ جاءَهُم	حلالٌ حرامٌ لِشتَّى معا[3]
فلو أنَّ بالعزّ صَدَّقْتُهمُ	أو المُلْكِ تابَعْتُم تُبَّعا

أما **عصماء بنت مروان**[4] فكانت تهجو النبي بشعرها، وتَعيب الإسلام وأهله، وتُعيّر الأنصار بإطاعة محمدٍ وأتباعه، وتطعن في نسب الرسول الكريم. وليس هذا فحسب، بل أخذت تُحرّض على قتله، وذلك قولها:[1]

---

[1]. السيرة/ق١/٥٨٧

[2].السيرة/ق٢/ ٦٣٦ ، الواقدي / ١٧٤، التنبيه والإشراف / ٢٤٠

[3] . صدعهم: فرقهم.

[4] . هي من بني أمية بن يزيد، وكانت عند يزيد بن زيد الخطمي، وكانت تطعن في الإسلام وتهجو النبي فأرسل إليها عمير بن عدي بن خرشة فقتلها. ثم صلّى الصبح مع الرسول. فقال له الرسول: ((أقتلت ابنة مروان؟)) قال نعم، فهل عليَّ في ذلك شيء فقال الرسول ((لا ينتطح فيها عنزان)) كتاب الديات/٧٩ (الشيباني)، أبي عبيدة/ الأموال/١/٢٦٢، أنساب الأشراف/١/٣٧٣، المغازي/١٧٢.

بآسْتِ بني مالك والنَّبيتِ وعَوفٍ وبآسْتِ بني الخزرجِ
أطعتم أتاويَّ مِنْ غيركم فلا مـــن مُرادٍ ولا مُذحجِ
تُرَجُّونه بعد قتل الرؤوسِ كمـــا يُرتجى مَرَقُ المُنْضَجِ
ألا أنِفٌ يبتغي غِـــرَّةً فيقطَعُ مـــن أمـــلِ المُرتجي

وعندما **أسر زهير بن العجوة** الهذلي يوم حنين، كُتِفَ، فلما رآه **جميل بن معمر** القرشي الجمحي قال له:[٢] ((أأنت الماشي لنا بالمَغايظ؟ فضربَ عنقه. فأثَّر ذلك في نفس أبي خراش الهُذلي، واحتجَّ على هـــذا أَشدَّ الاحتجاج، وهمَّ بأخذ الثأر ولكنه أمسك، فالإسلام كما يرى قد أحاط بالرقاب كما تحـــيط السلاسل بالأعناق، فلا يستطيع أن يعمل شيئاً، وهو غير راضٍ عن هذا الوضع الجديد، ويعبّر عن دخيلة نفسه قائلاً:[٣]

فليس كَعَهْدِ الدَّار يا أمَّ ثابتٍ ولكن أحاطت بالرقاب السَّلاسِلُ
وعاد الفتى كالشيخ ليس بفاعلٍ سوى الحقّ، شيئاً واستراحَ العواذِلُ
وأصبَحَ إخـــوان الصَّفاءِ كأنما أهـــالَ عليهم جانب التُّربِ هائلُ
فلا تحسَبي أنّي نسيتُ لياليَاً بمكـــةَ إذْ لم نَعْدُ عَمَّـــا نحـــاولُ
إذِ الناسُ ناسٌ والحياةُ بِعِزَّةٍ وإذْ نَحـــنُ لا تُثنى علينا المدَاخـــلُ

واشتد ساعد النفاق في غزوة العُسْرة، فحين تجهَّز الناس للخروج، أخذ المنـــافقون يُثَبّطـــون عـــن الرسول، ويُشكّكون في أمر هذه الغزوة، واجتمعوا في بيت سويلم اليهودي لذلك، فرأى الرسول أن يأخذهم بالشدة والحزم ليكونوا عِبرة لِمَن يفكّر بالتآمر على الدولة فيما بعد، فأرسل **طلحة بن عبيد الله** في نفر من أصحابه فحرَّقَ عليهم البيت.

فلما أحسَّ المجتمعون بالنار، اقتحم **الضحَّاك بن خليفة** من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأُفلِتوا، فانطلق الضحَّاك يصف الحادث ويعلن عن توبته لله فيقول:[٤]

كـــادتْ وبيت الله نـــارُ محمدٍ يَشيطُ بهـــا الضحاك وابن أبيرقِ
وظَلْتُ وقد طَبَّقْتُ كِبْسَ سويلمٍ أنوءُ على رجلي كسيراً ومِرْفقي[١]

---

[1] . السيرة/ ق٢/٦٣٧.
[2] . هو غير جميل بن معمر الشاعر.
[3] . السيرة/ ق٢/ ٤٧٣ – ٤٧٤.
[4] . السيرة/ ق٢/٥١٧، نهاية الأرب/ ١٧/٣٥٣.

سلامٌ عليكـــم لا أعـــودُ لمثلها　　　أخافُ ومن تَشْمَلْ به النارُ يُحْرَقِ

وكنا نأمل أن نجد للمنافقين شعراً كثيراً لأنهم كانوا طرفاً من أطراف الصراع، ولكننا لم نجد لهم إلا مقطوعات قليلة، مما يدفعنا إلى الظنّ بأنَّ شعرهم قد ضاع كما ضاع شعرٌ كثيرٌ غيره من شعر هذه الفترة.

ومَردُّ ذلك فيما نظنُّ يعود إلى تحرُّج الرواة من رواية شعرٍ فيه تعريض بالإسلام من جهة، ولأنَّ أمر النفاق قد انتهى من مدينة الرسول، وحتى إسلام من بقي من المنافقين، فكان طبيعياً أن يتخلَّص شُعراؤهم مما قالوا من شعرٍ فيه طَعْنٌ في الإسلام من جهة أخرى.

ولَمَّا تعرَّض شعراء المنافقين للإسلام، هبَّ شعراء المسلمين يردُّون عليهم ويهاجمونهم ويكشفون عمَّا استطاعوا من أمرهم، لأن الشعراء كانوا يعيشون قضايا الأمة، ويتولّون الدفاع عـــن هـــذه القضايا، ويهجون أولئك الذين يحاولون النيل من الإسلام ودولته، حتى ولو كانوا مـــن المـــسلمين أنفسهم. فهذا حسان بن ثابت قد خاض في حديث الإفك مع حَمْنَةَ ومِسْطَحٍ، فأقيم عليهم الحـــدُّ فقال قائلٌ من المسلمين:[2]

لقد ذاقَ حسَّانُ الذي كانَ أهلَهُ　　　وحَمْنَةُ إذ قالـــوا هجيراً ومِسْطَحُ

تعاطوا برجم الغيبِ زوجَ نبيّهم　　　وسَخْطَةِ ذي العرش الكريم فأُترِحوا

وآذوا رسول الله فيها فَجُلّلوا　　　مخازيَ تبقى عُمّموهـــا وفُضّحوا

وصُبَّت عليهم مُحصَدَاتٌ كأنها　　　شآبيبُ قَطْرٍ من ذُرا المُزْن تَسْفَحُ

ويسوءُ **أمامة النَّهدية الرَّبذية** أن ترى أبا عَفَكٍ المنافق يكذّب بالدين ويُعرّض بالنبي الكريم ويُعارضه. وحين يبلغها مقتله تشتفي نفسها مما تجد عليه، فتفيض عاطفتها بأبيات تقول فيها:[3]

يُكذّبُ دين الله والمرء أحمدا　　　لعمرُ الذي أمناكَ أن بئس ما يُمني[4]

حباكَ حنيفٌ آخرَ الليلِ طعنةً　　　أبا عَفَكٍ خُـــذها على كِبَرِ السنّ[5]

---

1. طبقت: علوت. والكبس: البيت الصغير.
2. السيرة/ ق٢/٣٠٧، التنبيه والإشراف/ ٢٤٩ – ٢٥٠، تفسير القرطبي/١٢/٢٠١.
3. المغازي/١٧٥، السيرة/ق٢/٦٣٦.
4. أمناك: أنساك.
5. حنيف: مسلم.

ويتصدى حسان بن ثابت لعصماء الخطمية المنافقة، تلك التي تُعيّر الأنصار باتباع النبي الكريم، فيَصمها بالسَّفه، ثم يذكر قتل عمير بن عدي لها في جوف الليل الساكن ويُمَنّيه بدخول الجنة التي أعدها الله للمحسنين فيقول:[1]

بنو وائل وبنو واقفٍ	وخَطمةُ دون بني الخزرج
متى ما دعت سَفهاً وَيْحها	بعَوْلَتِها والمنايا تجي[2]
فَهَزَّت فتىً ماجداً عِرْقُهُ	كريمُ المداخل والمَخْرج
فضَرَّجَها من نَجيع الدّما	ءِ بعدَ الهُدُوّ فلم يَحْرَجِ[3]
فأوردهُ الله بَرْدَ الجنان	جذلانَ في نعْمةِ المولِجِ

وحينَ تخلَّف المنافقون عن الخروج مع الرسول يوم تبوك، تخلَّفَ معهم نفرٌ من المؤمنين الصادقين، إما لعذرٍ بَسَطوه للرسول، وإما لغير عُذر، وكان أبو خيثمة واحداً من هؤلاء المؤمنين المتخلفين. ولكن نفسه التقيّة لم تطق القعود خلاف رسول الله، فأحسَّ بالأسف واستشعر الندم، وأسمحت نفسه إلى الدين الحنيف، فخرج مسرعاً حتى أدرك رسول الله حين نزل تبوك، وهو يقول:[4]

ولما رأيتُ الناسَ في الدين نافقوا	أتيتُ التي كانت أعفّ وأكرما
وكنتُ إذا شكَّ المنافقُ أسْمَحَتْ	إلى الدينِ نفسي شطره حيث يَمّما[5]

أما **بُجير بن بجرة الطائي**، فيرى أنَّ الله يهدي إلى الحق، وهو لذلك يلوم الذين تخلفوا عن تبوك، فالله قد أمر المسلمين بالجهاد، أو كما يقول:[6]

تباركَ سائقُ البقراتِ إني	رأيتُ الله يهدي كلَّ هادِ
فمَن يَكُ حائداً عن ذي تبوك	فإنّا قد أُمِرنا بالجهاد

أمابعدُ، فإذا رأينا موقف القرآن من المنافقين ودقة وصفِ لنفسياتهم، وكشفه لأمرهم أدركنا مدى قصور الشعر عن تمثُّلِ أمر النفاق الذي شغل مدينة الرسول فترة من الزمان. وكنا نأمل أن

---

1 . المغازي/١٧٤، السيرة/ق٢/٦٣٧.

2 . العَوْلة: ارتفاع الصوت في البكاء.

3 . النجيع: الشديد الحمرة. والهُدُوّ: أي بعد ساعة من الليل. ولم يحرج: لم يأثم.

4 . السيرة/ ق٢/٥٢١.

5 . أسمحت: انقادت. وشطره: نحوه وقصده.

6 . السيرة/ ق١/٥٢٧، أسد الغابة/ ١/١٩٦، معجم ما استعجم/ ١/ ٣٠٤.

يتولى الشعر كشف هذه الفئة الغاوية، والإرشاد إلى خطورتها، والإشارة إلى موقف الدولة منـــها، ولكنه لم يلتفت إلى المنافقين إلا قليلاً، إذ خَفَتَ صوت الشعراء الذين نصروا رسول الله ضد قريش وسائر العرب، وصمت الشعراء المهاجرون فلم نسمع لهم حسيساً. ونظن أن قصور الشعر عـــن تمثّل حال المنافقين مَرَدُّه إلى ثلاثة عوامل:

أولها: أنَّ غالبية المنافقين كانو من الأوس والخزرج، وكان منهم بعض الزعماء البارزين قبل الهجرة كعبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي الذي كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه على المدينـــة قبـــل الهجرة بقليل كما بيّنّا، والجد بن قيس سيد بني سلمة. وكان شعراء الأنصار الذين تولوا المنافحـــة عن رسول الله من الخزرج، فلم يكن من السهل – والحالة هذه – أن يتصدّوا لهجاء بني قبيلتـــهم حفاظاً على وشائج القربى، ولم يكن في مقدورهم أيضاً أن يهجوا منافقي الأوس خوفاً مـــن إثـــارة الإِحَنِ وتجنباً لبعث الضغائن. وإذا كان عبد الله بن أبي بن سلول هو الذي تولّى كِبْرَ الإفك[1] وهو مع هذا لم يُحَدَّ – بينما حُدَّ من خاضوا فيه غيره – فأولى بالشعراء أن يسكتوا عنه ويتركوه.

ثانيها: تسامح الرسول مع المنافقين وغضّه الطَّرف عن أعمالهم أحيانـــاً، حفاظـــاً علـــى وحـــدة المسلمين، روى صاحب السيرة أن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ جاء إلى رسول الله فقال[2]: يا رسول الله، إنه قد بلغني أنَّك تريد قَتْلَ عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنتَ لابدَّ فاعلاً فَمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخـــشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدَعُني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله ابن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافرٍ فأدخل النار، فقال له الرسول الكريم: ((**بل نترفَّقُ به ونُحسِنُ صحبته ما بقي معنا**)). فلعلَّ هذا التصرف من الرسول قد صرف شعراء المسلمين عن التعرض للمنافقين وذكرهم.

ثالثها: انصراف شعراء المسلمين إلى هجاء الأعداء الذين كانوا يحاربون الإسلام بسيوفهم وألسنتهم كقريش واليهود وسائر العرب.

وهذه العوامل – فيما نظن – كانت سبباً في قلةِ ما وصلنا من شعرٍ عن ذكر النفاق وأهله.

---

[1] . تاريخ الطبري/٢/٦١٤.

[2] . السيرة/ق٢/٢٩٣.

الوفود:

شهد العام التاسع للهجرة وفودَ العرب على مدينة الرسول، وكان يصحبُ كلَّ وفدٍ شاعرهم لِيُفاخرَ بأحسابِ قومه، وأنسابهم وشرفهم، أو ليعلن عن طاعتهم للرسول الكريم واتّباعُهم لدينه الحنيف.

وكانت قبيلة تميم من أقوى القبائل العربية وأشرسها، كما كانت من أكثر هذه القبائل عدداً وأيسرها عدة، فكان هذا كله مجالاً لفخرها وتعاليها على الناس، وسبيلاً للاعتداد ببأسها وعِزّها وكرمها.

ولما جاء الإسلام وظهر كيانه السياسي في المدينة ،وتمَّ له النصر على خصومه، أرادت تميم أن تفاخر رسول الله بعزّها وشرفها باعتباره الحاكم السياسي للدولة، فَقَدِمَ عليه **عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي** في أشراف بني تميم، منهم: **الزبرقان بن بدر، وعمرو ابن الأهتم، والأقرع بن حابس، وعُيَيْنة بن حصن**، وكان الأقرع وعُيينة شهدا مع رسول الله فتح مكة وحنيناً والطائف[1].

دخل الوفد مسجد الرسول في المدينة، وأخذوا يصيحون بأعلى أصواتهم من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك من صياحهم رسول الله فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد جِئناكَ لنفاخرك فَأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا[2].

وحين أذن رسول الله لشاعرهم، قام **الزبرقان بن بدر**، يُعلن أنهم أَتَوْهُ مفاخرين، ليذيع خبَرُ ذلك في المواسم، ومضى يفخر بمكانة قومه في الحجاز، وبشجاعتهم في الحروب، وبكثرة غاراتهم على الأعداء، إلى غير ذلك من الصفات التي تدعو إليها العصبية الضيقة، وذلك في أبيات مطلعها:[3]

أَتَيْناكَ كيما يعلم الناسُ فضلنا   إذا احتفلوا عند احتضار المواسمِ[4]

وكان حسان بن ثابت غائباً، فبعث إليه رسول الله، فلما سمع شعر الزبرقان قام يردُّ عليه، ويَنقُضُ معانيه، واتّجَه إلى الفخر بقومه، ولكن فخره بهم لم يكن لكسب دنيوي وإنما هو فخر بنصرة الرسول وبيعتهِ على حرب أعداء الدين الجديد، فمن ذلك قوله:[5]

هل المجدُ إلا السُّؤدَدُ العَوْدُ والنَّدى   وجاهُ الملوكِ واحتمال العَظائِمِ

---

[1]. تاريخ الطبري/٣/١١٥.

[2]. نفسه/١١٦.

[3]. السيرة/ق٢/٥٦٥.

[4]. نسبها النيسابوري وابن الأثير إلى الأقرع بن حابس: أسباب النزول/ ٢٦٠، أسد الغابة/ ١/١٢٩.

[5]. السيرة/ق٢/٥٦٦، ديوانه/٤٣٩.

نصرنـــا وآوَيْنا النبيَّ محمـــداً   على أنْفِ راضٍ من مَعَدّ وراغِمِ
نَصَرناه لمـــا حـــلَّ وسْطَ دِيـــارنا   بأسيافنا مـــن كـــلّ باغٍ وظالمِ
جعلنـــا بَنِينَا دونَـــهُ وبنَاتِنـــا   وطِبْنا لـــه نفساً بفَئِ المغـــانمِ
ونحنُ ضربنا الناسَ حتى تتابَعـــوا   على دينه بالمُرْهَفَـــات الصَّوارمِ[1]
فإن كنتم جِئتم لِحَقنِ دمائكـــم   وأموالكم أن تُقْسَموا في المقاسِمِ
فلا تجعلـــوا لله نداً وأسْلِمـــوا   ولا تَلبَسوا زِيّاً كزيِّ الأعاجـــمِ

وقام الزبرقان مرة أخرى، فعاد إلى الفخر بالكرم والشجاعة، وغيرها من الصفات التي يُمَجّـــدُها العربيّ، وتكون مادة حديثة في المحافل والمواسم في أبيات أولها:[2]

نحنُ الكِرامُ فلا حَيٌّ يُعادِلنا   مِنَّا المبوكُ وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ[3]

فقال رسول الله لحسان بن ثابت: ((قم يا حسان، فأجِب الرجل فيما قال)) فقام حسان بن ثابـــت فقال:[4]

إن الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتهم   قـــد بَيَّنـــوا سنةً للناسِ تُتَّبَعُ[5]
يرضى بها كلُّ مَنْ كانت سريرته   تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
إنْ كانَ في الناس سَبَّاقونَ بعدَهمُ   فكُـــلُّ سَبْقٍ لأدنى سَبْقِهم تَبَعُ
إنْ سابقوا الناسَ يوماً فازَ سَبْقُهُمُ   أو وازنوا أهلَ مجدٍ بالندى مَتَعوا[6]
أعِفَّةٌ ذُكِـــرَتْ في الوحي عِفَّتهم   لا يَطْبَعـــون ولا يُرديهمُ طَمَعُ[7]
لا يَفْخَرونَ إذا نالـــوا عَدُوَّهُمُ   وإن أصيبوا فلا خورٌ ولا هُلُعُ[8]

فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي إنَّ هذا الرجل لَمُؤَتَّى لـــه، لَخَطيبـــه أخطَبُ من خطيبنا، ولَشاعِرُهُ أشعَرُ من شاعرنا، ولأَصواتُهم أحْلى من أصواتنا، فلما فرغ القـــوم أسلموا وبايعوا الرسولَ على الطاعة[1]، فَجَوَّزَهُم[2] النبيُّ الكريم فأحسَنَ جوائِزهم.

---

1 . المرهفات الصوارم: السيوف القاطعة.

2 . تاريخ الطبري/٣/١١٦، أسباب النزول/٢٥٩.

3 . البيع: مواضع الصلوات والعبادات واحدها بِيعَة.

4 . السيرة/ق٢/٥٦٤، تاريخ الطبري/٣/١١٨، ديوانه/٣٠٤.

5 . الذوائب: السادة، وأصله من ذوائب المرأة، وهي غدائرها التي تعلو الرأس.

6 . متعوا: زادوا، يقال متع النهار: إذا ارتفعت شمسه.

7 . لا يطبعون: لا يتدنَّسون.

8 . الخور: الضعفاء. والهلع (ككتب) الجازعون، الواحد هَلُوعٌ.

وهكذا كان حسان بن ثابت ناطقاً رسمياً للدولة، يعبّر عن وجهة نظرها، ويُذيع انتصاراتها، ويردُّ على خصومها، ويدعو إلى دينها. وكان الشعر سِجلاً حافلاً لأحداثها العظيمة، وتأريخاً لوقائعها، ومذياعاً لأفكارها.

وبعد أن بيَّنّا مدى قدرة الشعر في فترة الصراع على تصوير الأحداث، ووقفنا على الموضوعات الهامة التي ساهم بإبرازها وكشفنا عن أهمية دوره في ذلك، نَمْضي لنتبيَّن قدرته على تمثُّل الغزوات، وتصويره لوقائعها.

ثالثا: الشعر والغزوات

تمهيد:

الجهاد في سبيل الله:

أقام الرسول دولته على الإيمان والتقوى، ونظَّم شئونها على أساس الإسلام، فآخى بين المهاجرين والأنصار، ونشَّأهم تنشِئةً صالحةً، ثم بنى جيشاً منَظَّماً يتسلَّح بسلاحين: سلاح الإيمان وسلاح الحرب، فأحاهم بذلك خَلْقاً جديداً، وأقام ينتظر ما يَجِدُّ من أمر اللهِ.

وجاء الوحي يقول: ((**أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وأنَّ الله على نصرهم لقدير**)). شُرِعَ الجهادُ إذن، وسُمِح للرسول – صلى الله عليه وسلم - بقتال أعدائه ومُقارَعة خصومه، ومواجهة مُعارضيه.

والجهاد يعني: بذل الوُسْعِ في القتال في سبيل الله مباشرةً أو مُعاونةً بمال أو رأيٍ أو غير ذلك، فهو قتالٌ إذن، وهو كل ما يتعلق بالقتال أيضاً من رأي وخَطابَة وكتابةٍ ومكيدةٍ، لإعلاء كلمة اللهِ ورَفْعِ راية الإسلام.

وسببُ الجهاد، إنما هو مرتبطٌ بامتناعِ الكفار عن قَبُولِ دعوة الإسلام، ومقاومتهم لها ووقوفهم في سبيلها، والحيلولة دون نشرها: ((**قاتِلوا الذينَ لا يُؤمنون بالله ولا باليوم الآخرِ، ولا يُحرّمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يدينون دينَ الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطوا الجِزْيةَ عن يدٍ وهمْ صاغِرون**)). ورسول الله يقول: ((**أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإنْ قالوها عَصَموا مني دِماءهم وأموالهم إلا بحقّها**)).

ومضى المسلمون إلى جهاد الكفار وصدى آيات الله يتردَّدُ في جوانب نفوسهم ((**كُتِبَ عليكم القتال**)) و ((**جاهِدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وأنفسكم**)) و ((**وقاتلوا أئمة الكفر**)) و ((**تُقاتِلونَهم أو يُسْلِمون**)) ((**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**)) و ((**يا أيها النبيّ حَرّض المؤمنين على القتال**))

---

[1]. تاريخ الطبري/٣/١١٩.

[2]. جوَّزهم: أعطاهم.

((**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرْهِبون به عدوَّ الله وعَدوَّكم**)) و ((**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا**)).

وصَدَعَ الرسول الكريم بأمر ربّه، فجعل يُحرّض المؤمنين على قتال أئِمَّةِ الكُفْرِ، ويَحُثُّهُم على جهاد المشركين، ويتولّى قيادهم بنفسه. ومضى يُعلّمهم بأنَّ غَدوةً أو رَوْحةً في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها، وأنَّه لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودُخانُ جهنَّم في أنفِ مسلم، وطوبى لعبدٍ أخذَ بعَنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مُغبَّرَّةٌ قدماه، يطير على متْنِ فرسه كلما سمع هَيْعةً أو فَزعةً يبتَغي القَتل. ويُذيع في المسلمين أنَّ من جهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا، ويتمنى هو نفسه أن يغزو فيُقتَلَ ثمَّ يَغزو فيُقتل ثم يغزو فيُقتل، ثم يقول: **((والذي نَفْسُ محمدٍ بيده لولا أنْ أَشُقَّ على المسلمين ما قَعدْتُ خلافَ سريَّةٍ تغزو في سبيل الله أبَداً))**.

بهذه المفاهيم غرس رسول الله في نفوس المسلمين حُبَّ الجهاد، ودَفَعَهُم إلى الإعداد وتوفير أسباب القوة، والسَّخاء في بذل المال والنفس، وعلَّمهم استعمال المكيدة، ومفاجأة العدو، وقطع الأخبار عنه، وتَضْليله والتعمية عليه[١]، وحثهم على تعليم أولادهم ركوب الخيل والرماية والسباحة وحِيَلِ الحرب. وليس هذا فحسب، بل كان يشهدُ بنفسه ملاعبتهم بسيوفهم ورماحهم وضروب فروسيتهم، وكان يلقّبهم بألقاب الشجاعة والفروسية، فهذا مِحَشُّ حربٍ لو كان معه رجال[٢] وذاك غسيلُ الملائكة[٣] وذلك المُجَدَّعُ في الله[٤]، وهؤلاء كُرَّارٌ لا فُرَّار[٥]، وتلك مِشْيَةٌ يُبغضها الله إلاّ في هذا الموطن[٦].

وأثَّرت آياتُ القرآن الكريم في نفوسهم تأثير السّحر، وأثمَرَت جهود الرسولِ – صلى الله عليه وسلم - وآتَتْ أُكُلَها. فانطلقوا يتسابقون إلى الجهاد، ويُسارعون إلى لقاءِ الكُفار، ويندمون إن تخلَّفوا عن غزوةٍ، لا يمنعهم كِبَرُ السنّ ولا يعُوقُهم خُلُوُّ ذات اليد، حتى الصبيان قد أصبحوا يتنافسون في الخروج[٧] مع رسولهم الكريم.

---

1. تاريخ الطبري/٢/٤٣٦.
2. السيرة/ ق٢/ ٣٢٤.
3. نفسه/٧٥.
4. الروض الأنف/٢/٥٩.
5. السيرة/ق٢/٣٨٢.
6. الأحكام السلطانية/٤٠.
7. تاريخ الطبري/٢/٥٠٦.

فعلوا كل ذلك والإيمان بالله يعمر قلوبهم، وهم يؤمنون أنَّ الموتَ حقٌّ، وأنَّ الحياة عَرَضٌ زائل، وأنَّ الأجَلَ بيد الله، فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون، والموت يــدركهم ولــو كانوا في بروج مشيَّدة، فلا مرَدَّ لقضاء الله، ولن يُصيبهم إلاّ ما كتب اللهُ لهم، أو كما يقول عاصم بن ثابت الأنصاري:[1]

ما عِلَّتي وأنا جلدٌ نابلُ   والقوسُ فيها وَتَرُ عنابلُ[2]

تَزِلُّ عن صفحتها المعابلُ   الموتُ حَقٌّ والحياةُ باطلُ[3]

وكلُّ ما حمَّ الإله نازلُ   بالمرء والمــرءُ إليه آئِلُ[4]

إنْ لم أقاتِلْكُمْ فأُمّي هابِلُ

وبهذا الإيمان القوي قادهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - إلى القتال، وجعلهم يَبكــونَ خَوفاً من خَشْيةِ الله، ويُهرَعون إليه بزادِ التقوى، ويتجملون بالصَّبر على الجهاد، طمعــاً في ثوابــه ورغبةً في لقائه، وسعياً لنشر دينه، فكلُّ زادٍ عُرْضَةٌ إلى النفاد إلا زاد التقوى والبِرّ والرَّشاد. يحدّثنا الماوردي أنَّ رسول الله خرج من العريش يوم بدرٍ فحرَّضَ الناسَ على الجهاد وقال: ((**والذي نفسي بيده لا يُقاتلهم اليوم رجلٌ فيُقتَلُ صابراً محتسباً مُقبلاً غير مُدْبِر إلاّ أدخله الله الجنة**)) فقال عُمير بن الحمــام بن الجموح الأنصاري وفي يده تمراتٍ يأكلهن: بخٍ بخٍ، ما بقي بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء القوم ثم قذف بالتمرات من يده، وأخذَ سيفه فقاتل حتى قُتل وهو يقول:[5]

ركضاً إلى الله بغير زادِ   إلا التُّقى وعمل المَعادِ

والصَّبر في الله على الجهاد   وكلُّ زادٍ عُرضةَ النَّفادِ

غير التُّقى والبِرّ والرَّشادِ

---

[1] . السيرة/ق٢/١٧٠، معجم الشعراء/٢٧١.

[2] . النابل: صاحب النبل. وعنابل: غليظ شديد.

[3] . المعابل: جمع معبلة وهو نَصلٌ عريضٌ طويل.

[4] . حَمَّ: قدر. وآئلٌ: صائر.

[5] . الأحكام السلطانية/٤١.

وبهذه القلوب المؤمنة كانوا يلقون أعداءهم، وبهذه الروح المخلصة كانوا يضربون الكفار، لم يعودوا يخافون الموت ما دامت الآخرة خيراً وأبقى، وما دام مصير الشهداء عند الله الجنة وحسنَ الثواب، يقول جعفر بن أبي طالب يوم مؤتة:[1]

يــا حبذا الجنة واقترابها　　　طيّبة وبارداً شَرابها

والرومُ رومٌ قد دنا عَذَابُها　　　كافرةٌ بعيدةٌ أنسابها

عَليَّ إذْ لاقَيْتُها ضِرابُها

هم كانوا كذلك، يحرصون على الموت أكثر من حرصهم على الحياة، ويسعون لتحقيق إحدى أمرين: إما شهادةٌ مؤدّية إلى جنة الله ورضوانه، وإما نصرٌ فيه عِزُّ الدنيا. لم يكونوا يقاتلون طمعاً في مَغْنَم، ولا رغبةً في عَرَضٍ دنيوي كما يقول بعضُ المُغرِضين[2]. وما لنا ولهؤلاء المُغرضين، ولماذا نُكلّفُ أنفسنا عناء الردّ عليهم؟ ولماذا لا نترك **ناجية بن جندب الأسلمي** يتولى الردَّ عنا فيقول:[3]

يا لِعبادِ الله فيمَ يُرْغَبُ　　　ما هو إلا مأكلٌ ومَشرَبُ

وجنَّة فيها نعيمٌ مُعجِبُ

فهو قد صاحب الرسول الكريم، وسار معه مجاهداً في سبيل الله، ومن أجل نشر هذا الدين. هم كانوا كذلك كما قُلنا، بل وأصبحوا أكثر من ذلك. أصبحوا يعاهدون نبيّهم على الموت. فهذا رسول الله يقول لأصحابه في أُحُد: ((**مَنْ يأخُذُ هذا السيف بحقّه؟** فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو **دُجانة سماك بن خرشة الأنصاري** فقال: وماحقُّه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب في العدوّ حتى ينحني. قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقّه، فأعطاه إياه، فدخل أبو دُجانة في الحرب مُبتَدِئاً بالقتال فأبلى وأنكى وهو يقول:[4]

أنا الذي عاهدني خليلي　　　ونحنُ بالسَّفح لدى النَّخيلِ

ألاّ أقومَ الدهرَ في الكَيُّولِ　　　أضرِبْ بسيفِ اللهِ والرسولِ[5]

---

1. السيرة/ق٢/٣٧٨.
2. درمنغم: حياة محمد/١٩٧.
3. السيرة/ق٢/٣٤٨.
4. السيرة/ق٢/٦٨، الأحكام السلطانية/٤٠.
5. الكَيُّول: آخر الصفوف في الحرب.

هذا ما فعلته عقيدة الإسلام بالمسلمين، جعلتهم يندفعون إلى الجهاد وهم واثقون بنصر الله، تاركين وراءهم زينة الحياة وزخرفها، غير ملتفتين إلى شيء من متاعها. إنها عقيدة أوجدت فيهم قوةً لا تُقهر، وعزيمةً تَستَخفُّ بالمكاره، وإحساساً بضرورة الانطلاق لِكَسْرِ الحواجز المادية التي تقفُ حائلاً دون انتشار دعوتهم، ووسيلة لحمل هذه الدعوة إلى الناس، فما أنْ أذِنَ الله بالجهاد حتى انتظمت صفوفهم، وبدأتْ غزواتهم لأئمةِ الكفر، وشاركوا فيها بجميع إمكاناتهم، فجَنَّدوا أنفسهم وسيوفهم وألسنتهم للجهاد في سبيل الله، ومضوا يتسابقون إلى الموت لإحراز الشَّهادة والفوز بالجنة.

وهنا، وبعد أن وقفنا على هذه النماذج من البطولة والتضحية يَحِقُّ لنا أن نسألَ ما فعلَ الشعراء؟ تُرى، هل استطاعوا أن يُحققوا ما حقَّقَه هؤلاء المجاهدون، وهل بذلوا بَذْلَهُم، وضَحُّوا تضحياتهم؟ وهل حقَّقَ شعرهم ما حقَّقته السيوف البتَّارة فنالَ من النفوس نيلها من الرقاب؟ وحتى يتّضحَ لنا الأمر، ينبغي أن نقف عند هذه الغزوات، ونمضي – من ثمَّ – مع الشعراء، لنقف على دورهم في الجهاد، وعلى مدى نجاحِهِم في تصوير أحداث الغزوات، وقدرتهم على تمثُّلِ قضايا المجاهدين.

الغزوات

ولما اسْتَغْلَقَت مكة على الدعوة الإسلامية، وتحجَّرَتْ قريشٌ على شِركها، تحوَّل الرسول – صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة بعد أنْ فَتَحَت قلبها للإسلام، واستجابت لدعوة الرسول حتى يسْتأنفَ كِفاحه بشكلٍ آخر، وبأسلوبٍ جديدٍ.

وعندما أذِنَ الله بالجهاد، بدأت مرحلة حاسمة في تاريخ الدولة الفتيّة، إذْ قامت بين مكة والمدينة جميعاً حربٌ طاحنة، وقَفَت فيها قريشٌ ومَنْ يناصرها من اليهود والقبائل العربية في جانب، ووقف الرسول والمسلمون في الجانب الآخر.

وأخذَ الرسول يبعث سراياه الاستطلاعيّة أوَّلَ الأمر، يَرْقُبُ بها قريشاً ويتسقَّطُ أخبارها، ويتحرَّشُ بها. ثم استحال الأمرُ إلى قتالٍ عنيفٍ بين الإسلام وخصومه، ظلَّ قائماً طيلة حياة الرسول الكريم، ثمَّ استأنفه خلفاؤه، لتبليغ رسالة السماء، وحمل مِشعَل الهداية إلى الناس كافة. وقد بلغت سرايا الرسول وسَوَاربه وبعوثه ثلاثاً وسبعين[1].

[1] . المسعودي/ التنبيه والإشراف/٢٧٨.

وأحسَّت مكة بخطر الرسول، وأدْرَكَت أنَّ هذا الخطر يتهدَّدُ أمنـــها ومـــصيرها، ويـــستَهْدِفُ أحسابَها وأنسابَها ودينها. فحرَّكَ هذا الخطر شاعريَّتها، وبعثَ فيها روح الشّعر التي كانت خامـــدة في الجاهلية، فنبَغَ فيها كثيرٌ من الشعراء والشواعر، وانطلقوا يدفعون عن تليدهم، ويوجّهون سهام شعرهم إلى الرسول والمسلمين.

وتأذَّى الرسول من هذا الهجاء، فقد كان شعراء قريش شديدي الوطأة عليه وعلى المـــسلمين، فقد آذوه في شخصه، وآذوهُ في أهله، وآذوه في أصحابه، فقال لأنـــصار:[1] ((**ما يَمْنَعُ القومَ الذين نصروا رسول الله بسيوفهم أن ينصروه بألسنتهم؟**)) فقام **حسان ابن ثابت** فقال: أنا لها يا رسول الله، وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يَسُرُّني بها مِقْوَلٌ بين بُصرى وصَنعاء. وشاركه في هذه المهمة شـــاعران آخران من الأنصار، **كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة**، فقاموا جميعاً ينافحون عن الرسول، ويُـــدافعون عن أعراض المسلمين، ويُسَجّلون انتصارات الإسلام، ويَهْجونَ أعداءه من قريش وغيرها، فعاشوا أحداث الصراع كُلّها، وساهموا فيها بألسنتهم وسيوفهم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيلٍ.

وكان رسول الله ينظر إليهم بعين الغبطة والرّضا، ويُقَوّمُ أساليبهم ويُشجّعهم على هجاء الكفار والنيل منهم، فاضطلعوا بذلك، فَشَفَوْا واشْتَفَوْا.

وليس غريباً أن يُبعَث الشعر من مرقده، وأن تَسْريَ الحياة في عُروقه، فإن أحداث الصّراع قد أيْقَظَتْهُ، وهو بالتالي يَنْشَطُ في بيئات الحرب والحماسة، وينهض تحت ظلال السيوف.

وقد نهض هذا الشعر يواكب الغزوات والسرايا، ومضى يؤرّخ أحداثها وينقل وقائعها، ويشيدُ بالانتصارات، ويُعيّر بالهزائم، ويبْكي القتلى، ولكن هذا الشعر لم يكن في مـــستوى واحـــد مـــن الغزارة، بل كان يختلفُ في ذلك من غزوة لأخرى. وآثَرْنا أن تقوم دراستنا لهذه السرايا والغزوات على أساس الأسباب التي دَعَتْ إليها، والدَّوافع التي شجَّعت عليها، ثم نقوم بدراسة ما قيل فيهـــا من شعر من خلال هذا التقسيم. ذلك لأنَّ الشعر الذي يُقال في ظُروف الانتصار أو المبادأة يختلفُ في روحه وطبيعته، وربما في بعض موضوعاته أيضاً عن ذلك الشعر الذي تَبْعَثُه ظروف الهزيمـــة أو الدّفاع. ونظنُّ أنَّ هذا النَّهج في الدراسة يُسَهّل مهمتنا في البحث من جانب، وقد يجعله أكثر دقّـــةً وموضوعيةً من جانب آخر. ومن هنا، قمنا بتقسيم هذه الغزوات والسرايا إلى أربع:

أولها: غزوات وسرايا من غير قتال – استطلاعية

ثانيها: غزوات وسرايا هجومية

---

[1] . الأغاني ٤/٤/٤.

ثالثها: غزوات تطهيرية

رابعها: غزوات دفاعية

أولاً: غزوات وسرايا من غير قتال – استطلاعية

وبادأ الرسول خُصومَه بالمناوشات، فأخذ يبعثُ السَّرايا والسَّوارب لاستطلاع أخبارهم، والوقوف على قدرتهم ومدى استعدادهم، أو لاعتراض تجارتهم. وكانت غالباً ما تؤدي مهمتها من غير قتال، وربما حدثَ في بعضها مناوشاتٌ أو تبادلُ اتهامات، ولكن كلا الفريقين كان يحتفظُ بضَبط النَّفس والتذرُّع بالصَّبر.

وكانت سرية **عبيدة بن الحارث** أُولى هذه السرايا، فقد بعثه الرسول الكريم في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين، فسار حتى بلغ ماء الحجاز، بأسفل ثَنِيَّة المرة. وهناك لقي جمعاً عظيماً من قريش، غير أنه لم يشتبك معهم في قتال[1].

واستمرت سرايا الرسول وغزواته تترى، فلا تكادُ تَطأُ قدماه المدينة حتى يتجهَّزَ للخروج مرة أخرى، فأثمرت سياسته هذه من الناحيتين: السياسية والعسكرية. فهي قد رفعت من معنويات المسلمين من ناحية، وأوجدت الهيبة لدولتهم في قلوب قريش واليهود والعرب المحيطين بالمدينة من ناحية أخرى. وبهذا أصبحت دولته قوةً سياسيةً لها خطورتها، اضطرت معها قريش إلى تغيير طريق قوافلها التجارية.

وحين كان من وَقعة بدر ما كان، نذرَ أبو **سفيان بن حرب** ألاّ يَمَسَّ رأسَهُ ماءٌ من جَنابَةٍ حتى يغزو محمداً، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبرَّ بيمينه، وسار حتى أتى بني النَّضير، فلمَّا علم رسول الله – عليه الصلاة والسلام - بذلك خرج في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكُدرِ، ثم انصرف راجعاً، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، ورأى المسلمون من مزاوِد القوْم ما قَد طَرَحوه في الحَرْثِ، يتخففون منه للنجاة[2].

---

[1] . تاريخ الطبري/٢/٤٠٤.

[2] . تاريخ الطبري/٢/٤٨٤.

ودخل الشعر معترك الصراع منذ بدايته[1]، وانتظم الشعراءُ في سلك المجاهدين، وأخذوا يعيشونَ قضايا الأمة، ويدافعون عن نظامها، ويُصْلُونَ خُصزمها ناراً حامية من هجائهم. وقد كان أبو سفيان بن حرب قال – وهو يتجهَّزُ للخروج من مكة إلى المدينة – أبياتاً من الشّعر يُحرض بها قريشاً[2].

فلما بلغت كعب بن مالك الأنصاري بادَرَ إلى الردّ على أبي سفيان، فجعل يَسْخرُ من جَيْشِه، ويَحُطُّ من شأنهم، ويُجَرّدهم من الشجاعة، وذلك قوله:[3]

تَلْهفُ أمُّ المُسَبّحينَ على ... جيشِ ابن حرب بالحَرَّة الفَشَلِ
إذ يطرَحونَ الرجالَ مَنْ سَئِمَ ... الطير ترقَّى لِقُنَّةِ الجَبَلِ
جاءوا بِجَمْعٍ لوقيسَ مَبْركُهُ ... ما كانَ إلا كمفحَصِ الدُّئلِ
عارٍ من النصرِ والثَّراء ومِنْ ... أبطال أهل البَطْحاءِ والأَسَلِ

وتحرَّج موقف قريش بعد هزيمة بدر الكبرى، وسُدَّت عليها المسالكُ، فقد أصبحت تخافُ طريقها التجارية التي كانت تسلكها إلى بلاد الشام، وتحوَّلت عنها – كارهةً – إلى طريق العراق.

فخرج منهم تُجَّار فيهم أبو سفيان بن حربٍ ومعه فِضَّةٌ كثيرة، وهي عُظْمُ تجارتهم، واستأجروا رجلاً من بني عِجْلٍ يدلُّهم على الطريق. وحين علم رسول الله بأمرهم، بعثَ إليهم **زيد بن حارثة** على رأس سريّةٍ، فلقيهم على القَرَدةِ – ماء من مياه نجد – فأصاب تلك العيرَ وما عليها، وأعجزه الرجال[4].

واهْتَبَلَ حسان بن ثابت هذه الفرصة، فقام يعيّرُ قريشاً بتَرْكِ طريقِ الشام ويُذكّرهُمْ بهزيمة بدر، تلك الهزيمة التي ألحقها بهم المهاجرون والأنصار، ويُعلِنُ عن تصميم دولته على تعقّبِ أعدائها ومن يُناصرهم فيقول:[5]

دَعُوا فَلجات الشامِ قد حالَ دونها ... جلادٌ كأفواهِ المَخاض الأوارِكِ[1]

---

[1] . روى ابن هشام في السيرة شعراً لأبي بكر الصديق وسعد بن أبي وقّاص في سرية عبيدة بن الحارث أولى السرايا (السيرة/ق١/٥٩٢، ٥٩٤) وروى أيضاً شعراً لحمزة بن عبد المطلب في سريته التي خرج بها إلى سيف البحر (السيرة/ ق١/٥٩٦) وقد أهملنا هذا الشعر لأنَّ الشكَّ يحوم حوله.

[2] . تاريخ الطبري/٢/٤٨٤.

[3] . نفسه/٤٨٤ -٤٨٥.

[4] . السيرة/ق٢/٥٠، تاريخ الطبري/٢/٤٩٢.

[5] . السيرة/ق٢/٥٠.

بأَيدي رجالٍ هاجــروا عند رَبّهم　　　وأنصارِه حَقَّاً وأيــدي الملائكِ

إذا سَلكتْ للغَــوْرِ من بَطْنِ عالجٍ　　　فَقُولا لهـا ليس الطريقُ هنالكِ[2]

فإنْ نَلْـقَ فــي تَطْوافنا والْتِماسِنا　　　فُراتَ بن حيَّان يَكُنْ رَهْنَ هالكِ[3]

وإنْ نلقَ قيسَ بن امرئُ القيسِ بعده　　　يُزَدْ فــي سوادٍ لونه لونُ حالكِ[4]

وخرج الرسول الكريم إلى بدر لميعاد أبي سفيان بن حرب، وأقام ينتظرُ ثمانية أيام كما يقولُ حسان بن ثابت:[5]

أقْضا على الرَّسِّ النَّزُوعِ ثَمانيا　　　بأَرْعن جَرَّارٍ عَريضِ المبارِكِ[6]

ولكن أبا سفيان – كما يبدو – لم يجرؤ على لقاء المسلمين، فخرج في أهل مكة حتى نزلَ ((**مَجَنَّة**)) من ناحية الظهران، ثم قفل راجعاً إلى مكة[7].

وكان سلوك أبي سفيان هذا مجالاً رحباً **لكعب بن مالك**، فراحَ يذكُر وفاءَ المسلمين بالوَعْدِ، ويَصِمُ أبا سفيان بالكذب، ويتوَعَّده بمصيرٍ كمصيرِ قتلى بدرٍ ثم يفتخر بطاعةِ قوْمِه لرسولهم فيقول:[8]

وَعَدنا أبــا سفيان بدراً فلم نجدْ　　　لميعاده صِدْقاً ومــا كان وافيا

فأُقسِمُ لــو وافَيْتَنا فَلَقيتنــا　　　لأُبْتَ ذَميماً وافتَقدْتَ المواليا

تَرَكنا بــهِ أوصــالَ عُتبةَ وابنِهِ　　　وعمراً أبــا جهلٍ تركناهُ ثاويا[9]

عَصَيْتُم رسولَ الله أُفٍّ لدينكم　　　وأمرِكمُ السَّيْءِ الذي كان غاويا

فإنــي وإنْ عنَّفتموني لَقائــلٌ　　　فِدىً لرسول الله أهلي وماليا

أطعنــاه لــم نَعْدِلْهُ فينا بغيرِهِ　　　شِهاباً لنا في ظُلمةِ الليل هاديا[1]

---

[1]. الفلجات: جمع فلجة، وهي العين الجارية. والمخاض: الإبل الحوامل. والأوارك: التي ترعى الأراك، وهو شــجر تُتَّخذ من أغصانه المساويك.

[2]. عالج: موضع به رملٌ كثير.

[3]. فرات بن حيان: هو دليل قريش، وهو من بني عجل من بكر بن وائل – السيرة/ق٢/٢١٢.

[4]. الحالك: الشديد السواد.

[5]. السيرة/ق٢/٢١١.

[6]. الرسّ: البئر. والنزوع: التي يُخْرَجُ ماؤها بالأيدي. والأرعن: الجيش الكثير الذي له أتباع وفضول.

[7]. السيرة/ق٢/٢٠٩.

[8]. نفسه/٢١٠ – ٢١١.

[9]. ثاوياً: مقيماً.

وهكذا كان الرسول الكريم، لا يكادُ يَرْجعُ من غزوة حتى يخرج إلى غزوة أخرى، فحياته جهاد مُتَّصلٌ، وقتالٌ دائبٌ لرفعِ كلمة الله، وتبليغ الرسالة التي أُوكلَ إليه أمر تَبْليغها، فحين فتحَ قُريظة خرَجَ إلى ((بني لحيان)) يطلب بأصحابه الذين قُتلوا يوم الرَّجيع، خُبيب ابن عدي وأصحابه. وكان – إذا خرج غازياً – يُعَمّي على أعدائه فأظهر أنه يريد الشام، ليصيب القومَ غِرَّة. وسار حتى نزلَ ((غُران))[2] – وادٍ بين أُمجٍ وعُسْفانَ – ، فوجد بني لحيان قد حَذِروا وتَمَنَّعوا في رؤوس الجبال، غير أنَّه لم يُرِدْ أن يُفوّتَ الفرصة، فرأى أن يُرهبَ قريشاً ويُخيفُهان فخرج في رجاله حتى نزل ((عُسْفان)) ثم كرَّ راجعاً إلى المدينة[3]. وكانت هذه الانتصارات المتوالية ترفعُ من معنويات المسلمين، وكان الشعراء يساهمون في رفْعِ هذه المعنويات، فهذا **كعب بن مالك** يُعيّرُ بني لحيان بِهَرَبهم، ويُسَجّل جُبْنَهم وانخِذالهم أمام جيش المسلمين، فيقول:[4]

لو أنَّ بني لَحيانَ كانوا تَناظَروا	لَقُوا عُصَباً في دارهم ذاتَ مَصْدَقِ[5]
لَقُوا سَرَعاناً يَملأُ السَّرْبَ رَوْعُهُ	أمام طَحُونٍ كالَمجرَّةِ فَيْلَقُ[6]
ولكنَّهم كانوا وِباراً تَتَبَّعَتْ	شِعابَ حِجَازٍ غير ذي مُتَنَفَّقِ[7]

وما كاد رسول الله يصل المدينة ويُقيمُ بها أياماً، حتى أغار عُيَيْنة بن **حصن بن حذيفة** الفزاري في خيل من غطفان على لِقَاحِ[8] رسول الله بالغابة[9]، وكان فيها رجلٌ من بني غفار، فقتله المغيرون واحتملوا اللقاح وخرجوا.

---

[1] . لم نَعْدِلْهُ: لم نَرَ معه غيره.

[2] . غران: منازل بني لحيان.

[3] . تاريخ الطبري/ ٢/٥٩٥.

[4] . السيرة/ق٢/٢٨٠ – ٢٨١.

[5] . العُصب: الجماعات.

[6] . السرعان: أول القوم. والسرب: الطريق. والطحون: الكتيبة تطحن كلَّ ما تمرُّ به. والفيلق: الكتيبة الشديدة. والمجرة: نجوم كثيرة يختلط ضوءها في السماء.

[7] . الوبار: جمع وبر، وهي دُوَيْبَةٌ على قدر الهرة يُشَبَّه بها العرب الضعيف. وغير ذي متنفق: أي ليس له باب يخرج منه.

[8] . اللقاح: الإبل الحوامل ذوات الألبان.

[9] . الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة.

وكان **سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي** أولَ من علم بهم، فخرجَ يشتَدُّ في آثارهم، وجعلَ يـــرُدُّهم بالنَّبْل وهو يرتجز:[1]

خُذْها وأنا ابن الأكوعِ　　　اليوم يومُ الرُّضَّعِ[2]

فلما بلغ الرسولَ صياحُ ابن الأكوع صرخ بالمدينة: ((الفَزَعَ الفَزَعَ))، فترامَـــتْ إليـــه فُرســـانُ المسلمين. ولَّما اجتمعوا عليه أخرجَ ثمانيةً من الفرسان عليهم **سعد بن زيد الأشهلي** في طَلَب غَطَفـــان، فاستطاع هؤلاء الفرسان أنْ يَسْتَنْقِذوا بعض اللقاح[3].

وأقبل رسول الله بالمسلمين، وسار حتى نزلَ بالجبل ((منْ ذي قَرَد)) فأقام عليه يومـــاً ثم رجـــع قافلاً إلى المدينة دون أن يُقاتل.

وأثارت هذه الغارة حفيظة المسلمين في المدينة، وثار الشعراء على انتهاك حُرْمـــة حاضـــرتهم، ورَأَوا في ذلك تهديداً مباشراً لمكانة الدولة، ونَيْلاً من عِزَّتها واستهانة – من ثَمَّ – بقوتها وســـلطانها، فهبَّ **حسان بن ثابت** يَصُبُّ جام غَضَبه على غَطَفان، ويُعيّرهم بنسبهم وجُبْنهم، ويـــذكر فُرســـان المسلمين الذين طاردوهم، ثُمَّ يُشيدُ بقوة الدولة وشجاعة رجالها فيقول:[4]

هل سَرَّ أولادَ اللَّقيطـــةِ أننا　　　سَلْمٌ غَداةَ فَوارسِ المِقْدادِ[5]

كُنَّـــا ثمانيةً وكانـــوا جَحْفَلاً　　　لَجِباً فَشَكُّوا بالرِّماح بَدادِ[6]

لولا الذي لاقَتْ ومَسَّ نُسورها　　　بِجَنوبِ سَايةَ أمسِ بالتّقوادِ[7]

أفنى دَوابِـــرها ولاحَ مُتونَها　　　يومٌ تُقادُ بهِ ويـــومُ طِـــرادِ[8]

لَلَقِينَكُمْ يحمِلْنَ كـــلَّ مُدَجَّجٍ　　　حامي الحقيقةِ ماجدِ الأجدادِ[9]

حتى نُبيدَ الخيلَ في عَرَصاتِكُمْ　　　ونَؤوبَ بالمَلَكات والأوْلادِ[10]

---

[1] . السيرة/ ق٢/٢٨١، صحيح مسلم/٥/١٨٩.

[2] . الرضع: جمع راضع وهو اللئيم، والمعنى: اليوم يوم هلاك اللئام.

[3] . تاريخ الطبري/٢/ ٥٩٧ – ٥٩٨.

[4] . ديوانه/ ١٦٤ – ١٦٦.

[5] . أولاد اللقيطة: من لا يُعرَفُ آباؤهم. والسلم: الصلح.

[6] . بداد: من التبدّد وهو التفرّق.

[7] . النسور: ما يكون في باطن حافر الدابة مثل الحصى والنوى. وساية: موضع.

[8] . لاح: غيَّر وأضعف. ومتونها: ظهورها.

[9] . المدجَّج: الكامل السلاح.

وكما غضب حسان، غضب **كعب بن مالك** أيضاً، ورأى في الغارة استخفافاً بسيادة المسلمين على أرضهم، فانطلق يسخر من أولاد اللقيطة – كما يقول – ويُهدّدُهم بمصيرٍ كمصير قريش في يوم بدر، وينعى عليهم كتمان أخبار خروجهم فقال:[2]

أتحسَبُ أولادُ اللقيطة أننا ... على الخيل لسنا مثلهم في الفوارسِ

وإنّا أناسٌ لا نرى القتلَ سُبَّةً ... ولا نَنْثَني عندَ الرّماحِ المداعسِ[3]

إذا ما خرجتم فاصدقوا مَنْ لَقيتُمُ ... ولا تكتموا أخباركم في المجالسِ

وقولوا زَلَلْنا من مخالبِ خادرٍ ... بهِ وَحَرٌ في الصَّدرِ ما لم يُمارسِ[4]

وعندما تمّض تطهير المدينة وما حولها من جيوب الّشرْك، وأمن الرسول غطفان وأسداً وهذيلاً وغيرها، فكَّرَ في أمر قريش، فرأى أن يُخْرجها بين العرب، فخرج مُعتمراً إلى مكة، واستَنفَرَ العربَ، ومنْ حول المدينة من أهل البوادي لِيَخرجوا معه. وسارَ بالمهاجرين والأنصار ومَنْ لَحِقَ بهم من العرب يسوقون الهَدْي. وأحرَمَ بالعُمرةِ ليأمنَ الناسُ حربه، وليعلموا أنَّه إنما خرجَ زائراً للبيت ومُعظّماً له، وأنه لا يريدُ القتال.

ولما علمت قريش بذلك خرجت إليه بِفُرْسانها، مع أنها علمت بأنه لا يريدُ القتال، رفضت أنْ تسمح له بدخول مكة عنوةً، وأرسلت إليه رجالاً من سادة القبائل، منهم **الحُلَيْس بن علقمة سيد الأحابيش**، فلما رآه رسول الله قال: ((**إنَّ هذا من قوم يتألَّهون[5] فابعثوا الهَدْي في وجهه حتى يراه**)). فلما رأى الحُليس الهديَ رجع إلى قريش قبل أن يُقابل الرسول – صلى الله عليه وسلم - إعظاماً لما رأى، فلما أعلم قريشاً بالأمر قالوا له: إنما أنت أعرابيٌّ لا علم لك، فغضب وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا **حالَفْناكُمْ**، ولا على هذا عاقَدْناكُمْ، أيُصَدُّ عن بيت الله مَنْ جاء مُعظّماً له؟ والذي نفسُ الحُلَيسِ بيدهِ لَتُخَلُّنَّ بينَ محمدٍ وبين ما جاءَ له، أو لأنفِرَنَّ بالأحابيش نفرةَ رجلٍ واحدٍ))[6].

---

[1] . العرصات: جمع عَرَصة وهي وسط الدار. والملَكات: النساء يُسْبَيْنَ في الحرب.

[2] . السيرة/ ق٢/ ٢٨٧ – ٢٨٨.

[3] . المداعس: المطاعن، يُقال دَعَسَه بالرمح إذا طعنه.

[4] . التمارس: المضاربة في الحرب والمقاربة. خادر: أي أسد خادر، وهو الذي يلزم أجمته. والوحر: الحقد.

[5] . يتألهون: يتعبَّدون ويعَظّمون أمر الإله.

[6] . السيرة/ق٢/٣١٢.

وكان هذا الموقف السياسيُّ محرجاً لقريش فبَعَثَتْ إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - بسُهيل بن عمرو تطلبُ عقدَ الصُّلح، فقبل رسول الله بذلك. وتمَّ توقيعُ الصلح بينه وبين قريش، فدخلت بكرٌ في حِلْفِ قريش، ودخلت خُزاعة في حلف محمدٍ. وكان صُلحُ الحُدّيبية نصراً مؤزَّراً للمسلمين، فقد كشف عن ثقة المسلمين برسولهم، ودلَّ على قوة إيمانهم، وشدّة إقدامهم على المخاطر، وعلَّمَ المسلمين أنَّ المناورات السياسية هي وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية، وبيَّنَت للمسلمين أنَّ الطريق السياسي في الإسلام إنما هو صِدقٌ ووفاءُ عهدٍ، وأنَّ الوسيلة لابُدَّ أن يتمثَّلَ فيها الدَّهاء، وهو إخفاء الوسائل والغايات عن العدو. وأصبح المسلمون الذين ظلوا في مكة بين المشركين يُشكّلون جَيْباً خطيراً داخل مُعَسكر العَدوّ. وهكذا أوجَدَ صلح الحديبية رأياً عاماً للدعوة الإسلامية عند العرب عامة، وفي مكة وبين قريش بوجهٍ خاصٍّ.

وسرعان ما خَرَقَتْ قريش شروط الصلح، ونقضت ما بينها وبين الرسول – صلى الله عليه وسلم - من العهد والميثاق، وذلك حين ظاهرت حليفتها بكراً على خُزاعة حلفاء الرسول.وخرج عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة يستنصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم –على قريش فبادر الرسول الكريم إلى إعداد العُدَّة، والتهيُّؤ لفتح مكة. وحاول أبو سفيان بن حرب – عبثاً – أن يشدَّ العقد، غير أنه رجع من المدينة مُخْفِقاً في مسعاه[1].

وشارك الشعراء في التعبئة والإعداد، فأخذوا يَسْتَنْهِضون هِمَمَ المسلمين لحرب قريش. فهذا **حسان بن ثابت** يَبْسُطُ للمسلمين تآمر قريش مع بني بكر، ويُشيرُ إلى غدرهم بحلفاء الرسول الكريم، ثم يمضي فيتوعَّدُ قريشاً بالعقاب فيقول:[2]

أتاني ولم أشْهَدْ ببطحاء مكَّةٍ	رِجالَ بني كَعْبٍ تُحَزُّ رقابُها
بأيدي رجالٍ لم يَسُلُّوا سُيوفَهُم	وقتلى كثيرٍ لم تُجَنَّ ثيابها[3]
ألا ليتَ شعري هل تنالَنَّ نُصْرَتِي	سُهَيلُ بنَ عمروٍ وَخْزُها وعِقابُها
وصفْوانُ عَوْداً حُزَّ من شُفْرِ آسْتِهِ	فهذا أوانُ الحَرْبِ شُدَّ عِصابُها

---

1. الطبري/٣/٤٦.
2. الطبري/٣/٤٨، وانظر ديوانه/٩٧.
3. لم تجن ثيابها: لم تستر. بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم: يعني قريشاً.

وفاجأ الرسولُ – صلى الله عليه وسلم - قريشاً بجيشٍ لَجِبٍ، ودخل مكة من غير قتال، اللهم إلا ساعةً من نهار[1] وإنه لَيَضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه به من الفتح. ودانَتْ مكة لسلطان الإسلام، وأخذ الناس بعد الفتح يدخلون في دينِ الله أفواجاً.

وفرَّ شعراء قريشٍ في كلّ وجهٍ، فهم قد أكثروا القول في معارضة الرسول والتحريض عليه، وهم لذلك يخافون على أنفسهم منه، أما **عبد الله بن الزِّبَعْرَى** فقد فرَّ إلى نجران، ولكنَّ سهام حسان لم تكن لِتَكُفَّ عنه وتتركه، بل ظلت تُلاحقه فتُدمي نفسه، فها هو ذا يعلم أنه هرب من وجه الرسول – صلى الله عليه وسلم -، فيبعثُ إليه بقوله:[2]

لا تَعْدَمَنْ رَجُلاً أحلَّكَ بُغْضَهُ	نجرانَ في عَيْشٍ أحَذَّ لَئِيمِ
بُلِيَتْ قناتُكَ في الحروب فأُلْفِيَتْ	خَمَّانةً جَوْفاءَ ذاتَ وُصومِ[3]
غَضِبَ الإله على الزبعرى وابنه	وعذابِ سُوءٍ في الحياةِ مُقيمِ

ولما تناهى القول إلى ابن الزبعرى رجع إلى رسول الله فأسْلَم.

واحتفل شعراء المسلمين بالنَّصر المبين، فانطلق حسان يُشيدُ بِدَوْر قومه في الحروب، ويُسجّل دوره في التَّصدي لأعداء الرسول والمناوئين لدعوته فقال:[4]

وقالَ اللهُ قد صَيَّرْتُ جُنْداً	همُ الأنصارُ عُرْضَتها اللقاءُ[5]
لنا في كلِّ يومٍ من مَعدٍّ	سِبابٌ أو قتالٌ أو هِجاءُ
فَنُحْكِمُ بالقوافي مَنْ هجانا	ونَضْربُ حينَ تختلطُ الدماءُ[6]

وبعد أن عرضنا لدور الشعر في هذه السرايا والغزوات، نتساءَل: هل قام الشعر بدوره كاملاً فيها؟ أم هو قَصَّرَ عن بلوغ الغاية والقصد؟ وإن كان قد قصَّر فأين مظاهر هذا التقصير، وما الأسباب التي أدَّت إليه؟

---

1. السيرة/ ق٢/ ٤١٦.
2. ديوانه/٤١٦.
3. خمانة: رخوة رديئة.
4. ديوانه/٦٢، صحيح مسلم/٧/١٦٥.
5. عرضتها اللقاء: عادتها أن تتعرض للقاء فهي قوية عليه.
6. نحكم: نمنع ونكف، ومنه سمي القاضي حاكماً لأنه يمنع الناس من الظلم.

وقبل أن نُجيب عن هذه التّساؤلات، نقف على كمية هذا الشعر أولاً، ثم نقوم بعَرْضه على الشعر الذي قيل في الغزوات الأخرى، وعلى الآيات القرآنية التي نزلت بشأن هذه السرايا والغزوات بعد ذلك.

وإذا ما عَرَضنا شعر هذه السرايا والغزوات – التي بلغت نيّفاً وعشرين – على ما قيل في الغزوات الأخرى كغزوة بدر أو أحُدٍ أو الخندق، نَجِدُ أنَّه قليل قلةً مفرطة، فهو لا يكادُ يُساوي ما قيل في غزوة بدرٍ وحدها أو أحدٍ وحدها.

وإذا ما استطلعنا آيات سورة الفتح التي نزلت بشأن هذه السرايا والغزوات نجدُ أنها تقول: ((لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان الله عزيزاً حكيماً. وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجَّل لكم هذه، وكفَّ أيديَ الناسِ عنكم، ولتكونَ آيةً للمؤمنين ويَهْدِيَكُم صِراطاً مستقيماً. وأخرى لم تَقْدِروا عليها قَدْ أحاطَ الله بها وكان الله على كل شيءٍ قديراً. ولو قاتلكم الذين كفروا لولَّوا الأدبارَ ثُمَّ لا يجدونَ وليّاً ولا نَصيراً. سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خلَتْ من قَبْلُ ولَنْ تَجِدَ لسنَّة الله تبديلاً. وهو الذي كفَّ أيدِيَهُم عَنْكُمْ وأيديكم عنهم ببطن مكةَ بعدَ أنْ أظفَرَكُمْ عليهم، وكان اللهُ بما تعملون بصيراً. هم الذين كفروا وصَدّوكم عن المسجد الحرام والهَدْيَ مَعكوفاً أنْ يبلُغَ مَحِلَّه، ولولا رجالٌ مؤمنونَ ونساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهُم أن تَطئُوهمْ فَتُصيبكم منهم مَعَرَّةٌ بغَير علمٍ لِيُدخل الله في رحمته من يشاء لو تَزَيَّلوا لعذَّبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً. إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهلية فأنزلَ الله سكينتهُ على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التَّقوى، وكانوا أحقَّ بها وأهلها، وكان اللهُ بكلّ شيءٍ عليماً. لقد صَدَقَ الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخُلُنَّ المسجد الحرامَ إن شاء الله آمنين مُحلّقين رؤوسكم ومُقَصّرين لا تخافون فعَلِمَ ما لَمْ تعلموا فجعل مِنْ دون ذلك فتحاً قريباً)).

وهذه معانٍ لم يستطع الشعر أن يتمثلها، وعجز الشعراء أن يستفيدوا منها الاستفادة التي كنا نرجوها ونطمح بها. ونحن لا نطالبهم أن يرتفعوا إلى مستوى القرآن في معالجة الأحداث، وإنما نُطالبهم – ويَحِقُّ لنا ذلك – بأن يستوحوا معانيه ومعالجاته، ويستفيدوا من كل ذلك في أشعارهم.

ولو بحثنا عن **مظاهر قلَّة هذا الشعر وتَقصيره**، لوجدناها تظهر – أكثر ما تظهر – في غزوة تبوك، وفي الغزوات المصيرية كالحديبية والفتح، فإذا ما وقفنا عند هذه الغزوات الثلاث فحسب، نجدُ أنَّ شعراء المدينة قد صَمَتوا يوم الحديبية مع أنها كانت أعظم نصرٍ سياسي حقَّقَه المسلمون قبل الفتح،

بينما نجدُ حسان بن ثابت مثلاً ينشط في غزوة جانبية كالرجيع، فيُكثر القول، وهي غزوة لا ترقى في خطورتها وأبعادها السياسية إلى غزوة الحديبية.

وكما قلَّ الشعر يوم الحديبية، فقد قلَّ كذلك يوم الفتح، رغم أنَّ فتح مكة كان المِسمار الأخير الذي دُقَّ في نَعْشِ الشرك على أرض الجزيرة، إذ دخلت العرب بعده في دين الله أفواجاً. ونحنُ وإن كُنَّا لا نُعذِرُ شعراء الأنصار في صمتهم عن تمثُّلِ هذا الحدث العظيم، فأولى بنا ألاّ نُعــذر شــعراء المهاجرين الذين أُخرِجوا من ديارهم بغيرِ حقٍّ ، إلا أن يقولوا ربُّنا الله، وربما قال قائل: إنَّ الرسول قد عَفا عن أهل مكة فلم يبقَ هناك مجالٌ للشعراء بعد ذلك، وربما قال أيضاً: إنَّ افتخار المــسلمين بالانتصار ربما يثير أحقادَ أهل مكة ضدَّ المدينة، تلك الأحقاد التي يحاول الإسلامُ جاهداً أن يَدْفنها. ونُجيبُ عن ذلك بأن شعراءَ القبائل قد نشطوا يوم الفتح وبعده، فأكثروا مــن الفَخْــر بنــصرة الرسول والانتصار على قريش، ونجد هذا الفخر عند بعض شعراء خُزاعة ومُزَيْنة، وذبيان، ونجــده أكثر وضوحاً عند عباس بن مرداس شاعر سُلَيم، فهو قد قال قصائد كثيرة بعد الفــتح، لا تكــادُ تخلو واحدة منها من الفخر بنصرة الرسول على فتح مكة. ومع هذا فلم يمنعهم الرسول – صــلى الله عليه وسلم - من القول، بل كان يسمع أشعارهم ويرضى بها. وهم بعد هذا كله، لم يُلاقوا من عداء قريش ما لاقاه أهل المدينة من المهاجرين والأنصار.

ومن الغريب ألاّ نجد شعراً في غزوة تبوك مع أنها كانت حافلةً بالأحداث الجِسام، ففيها كــان البــذل والسخاء لتجهيز جيش العُسْرة، وفيها نَفَرَ الناس إلى الجهاد في الحرّ، وفيها تفاقمَ خطر المنــافقين، وبُنــيَ مسجدُ الضّرار، وكان **كعب بن مالك** أحد الثلاثة الذين خُلّفوا من غير شكٍّ ولا نِفاق، ثم تاب الله عليــه. وكنا نأمل أن تُحرّكَ هذه الأحداث مشاعر الشعراء فينهضوا لتسجيلها وبخاصة كعب بن مالــك الــذي امتُحِنَ بالتخلُّف عن الجهاد، ونزل بِشأنه من القرآن ما نزل.

وبعد أن وقفنا على قلة الشعر وتَقصيره، وعرفنا مظاهره، نمضي إلى تلمُّس الأســباب الــتي أدَّت إلى ذلك، وربما كان أهم هذه الأسباب، أنَّ الشعراء قد فقدوا الدافعَ الرئيسَ للقول، ذلك أنَّ شعر الحماســة والفخر والرثاء، إنما ينشط في أجواء القتال والكَرّ والفرّ والهزيمة والنصر، وهذا شيءٌ لم يحــدث في هــذه الغزوات، إذ كانت كلها دون قتال، فليس يبعُدُ إذن أن يقلَّ الشعر وأن يصمت الشعراء، فهم قد فقــدوا الباعث على القول والنظم.

ومن يدري؟ فربما قال شعراء المدينة شعراً كثيراً في هذه السرايا والغزوات، وضاع معظم هــذا الشعر في غمرة الأحداث – كما ضاع غيره من شعر الصراع – فلم يَصِلْ إلينا، إما لأنَّ الــرواة

فرَّطوا فيه، وتحرَّجوا من رواية بعضه، وإما لأنهم لا يريدون الإكثار والإطالة، وإما لسهو النسَّاخ والمدونين.

وإن كان هذا الشعر قد قلَّ في هذه الغزوات والسرايا لأنه لم يحدث فيها قتالٌ، فسوف نمضي إلى الغزوات التي حدث فيها القتال، وكثر فيها القتل، لنرى مدى تصوير ما قيل فيها من شعر لأحداثها.

ثانياً: السرايا والغزوات الهجومية

كانت سياسة الرسول – صلى الله عليه وسلم - ترمي إلى محاربة الشرك منذ أنْ أقامَ صَرْحَ دولته في المدينة. ولذلك فقد بادر إلى إرسال السرايا الاستطلاعيّة، وبدأ يتحرَّشُ بقريش ويستثيرها في أولِ الأمر، ثم اصطدم معها في قتال عنيف بعد ذلك.

وكانت غزوة بدر أولى مراحل هذا الصّراع العسكري العنيف بينه وبين مكة. فلما سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في تجارةٍ عظيمةٍ لقُريش، خرج بالمهاجرين والأنصار يَعْرِضُ لها لتكون غنيمةً للمسلمين. ولكن أبا سفيان علم بأمر محمدٍ وأصحابه، فبعثَ يستفزُّ قريشاً لتحمي أموالها. فأوعَبَتْ قريش إلى لقاء الرسول – صلى الله عليه وسلم -، فلم يتخلَّفْ من أشرافها أحدٌ. واستطاع أبو سفيان بدهائه أن يُساحلَ بتجارته فيَصِلَ بها سالمة إلى مكة. ولما رأى أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش: ((**إنكم إن خرجتم لتمنعوا عيرَكم ورجالكم وأموالكم فقد نجَّاها الله، فارجعوا**)) فقال أبو جهل: والله لا نرجعُ حتى نَرِدَ بدراً، فنقيم عليها ثلاثاً فنَنَحْر الجُزُرِ ونَطْعَمَ الطعام ونَسْقيَ الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. ومضى بقريش حتى نزل بالعُدوة القصوى من وادي بدر[1].

وسار الرسول – صلى الله عليه وسلم - بالناس حتى جاء أدنى ماء من بدرٍ فنزل به، ثم أمر بالقُلُبِ فغُوّرَت، وبنى حوضاً على القَليبِ الذي نزل عليه، فمُليءَ ماءً ليشربَ منه المسلمون. وأخذ يُعِدُّ المسلمين للقاء قريش ويحرّضهم على القتال فقال لهم: ((**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها، والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجلٌ فيُقتل صابراً محتسباً مُقبلاً غير مُدبر إلا أدخله الله الجنة**))[2]. ولما تزاحف الناس للقتال ،ودنا بعضهم من بعض، أخذ الرسول من الحصباء فاستقبل قُريشاً بها ثم قال: ((شاهت الوجوه)) ثمَّ نفحهم بها. وأخذ يحرّض أصحابه ويقول: ((شُدُّوا))

---

[1] . تاريخ الطبري/٢/٤٣٨.

[2] . نفسه/٤٤٠، ٤٤٨.

فكانت الهزيمة[1] ومَنَّ الله على الرسول بنصره، فقام الشعراء يحتفلون بهذا النصر المؤزَّر على قوى الشرك، ويفخرون بما أفاء الله على رسوله، ويذكرون صَرعى قريش، ويُعيّرونها بالهزيمة.

وكانت أحداث يوم بدر غذاءً دسماً للشعر، فقد راح شعراء المسلمين يستقصون هذه الأحداث، ويستطلعون الأخبار، ويبحثون عن تحرّكات قريش منذ خروجها من مكة إلى أن حطَّت رحالها في بدر. وعندما جمعوا مادتهم، قاموا عليها، فأخذوا منها ما ينالُ من خصومهم، ثمَّ أحالوها أشعاراً قاسية في الهجاء.

لقد علم هؤلاء الشعراء أنَّ قريشاً قد أجمعت المسير للقائهم، ولكنها ذكرت ما كان بينها وبين بني بكر من الحرب، فكادَ ذلك يَثنيهم عن المسير، فتبدَّى لهم إبليس في صورة **سُراقة بن مالك المُدلجي** – وكان من أشراف بني كنانة – فقال لهم: أنا لكم جارٌ أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيءٍ تكرهونه. وعلموا كذلك أنه أخذ يهوّن لهم من شأن المسلمين، فخرجوا سراعاً[2].

وكشف لهم القرآن أمر عدوّهم، وصوَّر لهم اضطرابهم في أمر الخروج فقال:[3] ((**وإذْ زَيَّنَ لهمُ الشَّيْطانُ أعمالهم وقال لا غالِبَ لكم اليومَ من الناس وإنّي جارٌ لكم**...)).

فاستفاد حسان بن ثابت من معنى الآية، فتعقَّبَ قريشاً منذ خروجهم، وحتى تمَّت هزيمتهم فقال:[4]

سِرنا وساروا إلى بدرٍ لِحَيْنِهِمُ	لو يَعلَمون يقين العِلْمِ ما ساروا
دَلاَّهُمُ بغُرورٍ ثُمَّ أسْلَمَهُمْ	إنَّ الخبيثَ لِمَنْ والاهُ غَرَّارُ
وقال إنّي لكم جارٌ فأوْرَدَهُمْ	شَرَّ الموارد فيه الخزيُ والعارُ
ثمَّ التقينا فوَلَّوْا عن سراتِهِمُ	من مُنجدينَ، ومنهم فِرقةٌ غاروا[5]

تمَّت الهزيمة إذن، وولَّتْ قريش الأدبار، وقتل من قتل من سراتهم وأشرافهم، وأمرَ بهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فطُرِحوا في القليب، ثمَّ وقف عليهم فقال: ((**يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدَ ربكم حقّاً؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً. فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد جَيَّفوا؟**

---

[1] . تاريخ الطبري/٢/٤٤٩.

[2] . الواقدي/ المغازي/ ٣١.

[3] . سورة الأنفال/٤٨.

[4] . السيرة/ ق١/٦٦٤.

[5] . سراة القوم: خيارهم، وغاروا: قصدوا الغور، وهو ما انخفض من الأرض، يريد: تشتَّتوا.

قال: ما أنتم بأسْمَعَ لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني))[1]. وكأنَّ حساناً كان يُنصِتُ إلى قول الرسول الكريم، ويُصغي إلى كلماته الشريفة وهي تخرجُ من فيه الطاهر، فسارع إلى تمثلها بقوله:[2]

يُناديهم رسولُ اللهِ لَمَّا … قَذَفْناهُمْ كَباكِبَ في القليبِ[3]
أَلَمْ تَجِدوا كلامي كان حقّاً … وأمْرُ اللهِ يَأخُذُ بالقُلوبِ
فما نطقوا، ولو نَطَقوا لقَالوا … صَدَقْتَ وكُنْتَ ذا رأيٍ مُصيبِ

أما كعب بن مالك فيُعدّدُ هؤلاء القتلى الذين كُبُّوا صرعى لوجوههم، وهو لا ينسى أن يذكر مصيرهم الذي أعدَّه الله لهم يوم القيامة، لأنهم قد نابذوا الرسول – صلى الله عليه وسلم - وكذَّبوه، واتهموه بالسّحر، فيقول:[4]

فَكُبَّ أبو جهل صَريعاً لِوَجْهه … وعُتْبَةُ قد غادَرْتهُ وهو عاثِرُ[5]
وشَيْبَةُ والتيميُّ غادَرْنَ في الوغى … وما مِنهم إلا بذي العَرْشِ كافرُ
فأمْسَوا وَقودَ النارِ في مُسْتَقَرّها … وكُلُّ كفورٍ في جهنَّمَ صائِرُ
تَلَظَّى عليهم وهي قد شَبَّ حَمْيُها … بزُبْرِ الحَديدِ والحِجارةِ ساجِرُ[6]

ويُعلن حسان بن ثابت عن نتيجة المعركة بقوله:[7]

وكُلُّ القَوْمِ قَدْ وَلَّوْا جَميعاً … ولَمْ يَلْوُوا على الحسَبِ التَّليدِ[8]

---

1. تاريخ الطبري/٢/٤٥٦، السيرة/ق١/٦٣٩.
2. ديوانه/٧٣.
3. كباكب: جماعات. والقليب: البئر.
4. السيرة/ق٢/١٥.
5. عاثر: ساقط.
6. زبر الحديد: قطعة.
7. السيرة/ ق٢/١٩.
8. التليد: القديم.

ولم يَنسَ حسان فرسان قريش وشجعانها، بل أخذَ يتعَسَّسُ أخبارهم، فحين تناهى إليه أنَّ **الحارث بن هشام** قد فَرَّ، وأنَّه ترك أخاه أبا جهلٍ صريعاً على ماء بدر، رأى أن يَخُصَّه بشيء من شعره، فانطلق يستَخِفُّ برجولته، فعيَّره بالفِرار ووَصمه بالجُبْن، أو كما يقول:[1]

يا حارِ قد عَوَّلْتَ غير مُعَوَّلِ	عند الهياجِ وساعةَ الأحْساب[2]
إذْ تمتطي سُرُحَ اليدين نجيبةً	مَرْطى الجراءِ طويلةَ الأَقراب[3]
والقومُ خلْفَكَ قد تَرَكْتَ قِتالَهمْ	تَرْجو النَّجاءَ فَليسَ حينَ ذَهاب
هَلاّ عَطَفْتَ على ابنِ أُمّكَ إذْ ثَوى	قعصَ الأسنّة ضائعَ الأسلاب[4]

وأخذ شعراء المسلمين يبرزون أسباب القتال، ويتحدثون عن بواعث العدوان، فهذا **كعب بن مالك** يردُّ على الأسباب التي حملت قريشاً وسائر العرب على حرب المسلمين فيقول:[5]

أَلا هل أتى غسَّان في نَأْيِ دارِها	وأخْبَرُ شيءٍ بالأمور عليمُها
بأنْ قد رَمَتْنا عَنْ قِسِيّ عَداوةٍ	مَعَدٌّ معاً جُهَّالها وحليمها
لأنَّا عَبَدْنا اللهَ لم نَرْجُ غَيْرَهُ	رجاء الجِنانِ إذْ أتانا زَعيمها[6]
نبيٌّ له في قومِهِ إرثُ عِزَّةٍ	وأعْرَقُ صِدْقٍ هَذَّبَتْها أُرُومُها

ومع نشوة الفرح بهذا النَّصر المؤزَّر، لم ينسَ الشُّعراء قتلى المسلمين، فقد تأثر **كعب ابن مالك** لمصاب **عبيدة بن الحارث** في رجله وموته متأثراً، فجعل يبكيه ويذكر فضله، ولكنه بكاء على أسلوب الجاهليين، فنحن لا نراه يذكر تقواه وورعَهُ وبَلاءَهُ في نُصرةِ الإسلام، وإنَّما يَصفهُ بالشَّجاعةِ وكَرَمِ الأصْل، ويذْكُرُ مكانته في قومه فيقول:[7]

أَيا عَيْنُ جودي ولا تَبْخَلي	بدَمعك حقّاً ولا تَنْزُري[8]

---

1. ديوانه/١٠١.
2. عولت: عزمت. والهياج: الحرب.
3. سرح اليدين: أي فرساً سريعة اليدين. ومرطى: سريعة. والأقراب: جمع قرب وهي الخاصرة وما يليها.
4. ثوى: هلك وقُتل وأقام في قبره، والقعص: القتل بسرعة.
5. السيرة/ق٢/٢٥.
6. الزعيم: الرئيس والضامن، يريد به النبي الكريم، وهذبتها: أخلصتها.
7. السيرة/ق٢/ ٢٤ – ٢٥ .
8. لا تنزري: لا تقللي من الدمع.

على سَيّدٍ هَدَّنــا هُلْكُــهُ كريمِ المشاهِدِ والعُنْصُرِ

جَريءِ المُقَدَّمِ شاكي السّلاحِ كَريمِ النَّثا طَيّبِ المَكْسَرِ[1]

عُبَيْدَةُ أمسى ولا نَرْتَجيــهِ لِعُرْفٍ عــرانا ولا مُنْكِرِ

وقد كــان يحمي غَداةَ القِتا لِ حامِيَةَ الجيشِ بالمِبْتَرِ[2]

هكذا كانت فاجعةُ قريش في يوم بدر، فافتقدت دار النَّدوة أبا جهل وسائر الملأ من قريش، أما عن مدينة الرسول، فقد استطاعت بانتصارها أن تفرض هيبتها على سائر خصومها في الحجاز، غير أنَّ انتصار قريش يوم أُحُد قد مَكَّنَ من زعزعة هذه الهيبة وانتزاعها من نفوس اليهود، وأيضاً مـــن نفوس الأعراب المحيطة بالمدينة، وأخذ هؤلاء وأولئك يكيدون لها ويتآمرون على وجودها.

وكان لابُدَّ – والحالة هذه – من أن يقوم الرسول الكريم بِرَدّ الاعتبار إلى دولته، فحمله ذلــك على تطهير المدينة من اليهود أولاً – كما سنرى فيما بعد – ثم القيام بغزو الأعراب في مواطنـــهم لتأديبهم بعد ذلك، فما أنْ عَلِمَ أنَّ **بني المصطلق** – وهم قوم من خُزاعة – يجمعون له بقيادة زعيمهم **الحارث بن أبي ضرار**، حتى عاجلَهُم بالخروج، فلقيَهُمْ على المُرَيْسيعِ[3] فقاتلـــهم وهـــزَمَهُم، وغَـــنِمَ المسلمون أموالهم ونساءهم[4].

واطمأنَّ الرسولُ الكريمُ إلى أمرِ دعوته في الحجاز، فقريشٌ أصبحت أضعفَ من أن تقفَ في وجهه بعد الحديبية، كما أنَّ نفوذ اليهود، بل ووجودهم ككيان سياسي قد انتهى بعد القضاء على خيبر. وعلى هذا، أخذ يُعِدُّ لحمل الدعوة إلى خارج الحجاز، فالإسلام دينُ الناس كافة، قال تعالى: ((**وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين**)). وانطلاقاً من هذا المفهوم، بدأ الرسول بإبلاغ الإسلام إلى العالم الخارجيّ، فأرسَلَ سُفَراءَهُ إلى كسرى وقيصر والنجاشي وغيرهم.

وبعدَ أن بلَّغهم أمر الله، ودعاهُم إلى دين الرَّحمة الجديد، كان لابُدَّ من اتخـــاذ ســـبيل الجهـــاد كوسيلة لِحَمْلِ الدعوة، وكسر الحواجز الماديَّة التي تقف في طريق وصولها إلى الناس. فكانت نتيجة ذلك غزوة ((مؤتة)) إلى العرب والروم في بلاد الشام.

---

[1]. شاكي السلاح: حاد السلاح، والنث: ما يُتَحَدَّثُ به عن الرجل من خير وشر، وطيب المكسر: أب إذا فُـــتّشَ عن أصله وجد خالصاً.

[2]. المبتر: اسم آلة من البتر وهو القطع.

[3]. هو ماء لبني المصطلق من ناحية قديد إلى الساحل.

[4]. تاريخ الطبري/٢/٦٠٤.

وانطلق الجيش الإسلاميُّ لأوَّل مرَّةٍ إلى خارج حدود جزيرة العرب، ليقاتل حُكَّام العــرب والــروم، وسار حتى نزل معان من أرض الشام، فلما عَلِمَ هرقل بذلك، نزل ((مآب)) من أرض البلقاء في مئة ألفٍ من الروم، وانضَمَّ إليهم مِثلهم من عربِ لَخْمٍ وجُذام والقَيْن وبَهراءَ وبَليّ، فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا ليلتين يفكرون في أمرهم، فاستَقَرَّ رأيهم على أن يكتبوا للنبيّ، ليرى رأيه[1].

وكان عبد الله بن رواحة ثالث ثلاثة أمراء الجيش الإسلامي الصغير[2] وحين رأى عبد الله تَردُّدَ المسلمين جعلَ يُشَجّعهم على الجهاد، فقال: ((**يا قوم واللهِ إنَّ التي تكرَهون لَلَّتي خَرَجْتُم تطلبون الشهادة، وما نقاتلُ الناسَ بعَدَدٍ ولا قوَّةٍ ولا كثرةٍ، ما نُقاتِلُهُم إلا بهذا الدينِ الذي أكرَمَنا الله به، فانطلِقوا فإنّما هي إحدى الحُسْنَيين: إمَّا ظُهورٌ وإما شهادة**))[3].

ومضى الناسُ إلى جهاد أعداء الإسلام ومضى عبد الله يُصَوّرُ أمرهم بقوله:[4]

جَلَبْنا الخَيلَ من أجَأٍ وفَرْعٍ	تُغَرُّ من الحَشيشِ لها العُكُومُ[5]
حَذَوْناها من الصَّوَّان سِبْتاً	أَزَلَّ كــأنَّ صفحتَهُ أَديمُ[6]
أَقامَتْ ليلَتين على معــانٍ	فأَعْقَبَ بعد فترها جُمومُ[7]
فلا وأبي مــآبَ لَنَأتِيَنْها	ولــو كانَتْ بها عَرَبٌ ورومُ
بذي لَجَبٍ كأَنَّ البَيْضَ فيه	إذا بَرَزَت قوانسها النُّجومُ[8]
فَراضِيةُ المعيشةِ طَلَّقَتْها	أَسِنَّتُنا فَتَنْكِــحُ أو تَئيمُ[9]

---

[1]. نفسه/٣/٣٧.

[2]. طبقات الشعراء/٨٨. كان أمير الجيش زيد بن حارثة فإن قُتِل فجعفر بن أبي طالب فإن قُتِــلَ فعبــد الله بــن رواحة.

[3]. تاريخ الطبري/٣/٣٧.

[4]. نفسه/٣٨، السيرة/ق٢/٣٧٥.

[5]. أجأ: أحد جبلي طيىء والآخر سلمى. وفرع (بالفتح) اسم موضع من وراء الفرك. قال ياقوت: الفرع: أطول جبل بأجأ وأوسطه. والظاهر أن هذا هو المُراد هنا، وتغر: تطعم شيئاً بعد شيء. يُقال: غر الفرخ غراً وغراراً: زقه. والعكوم: جمع عكم (بالفتح) وهو الجنب.

[6]. قال أبو ذر: ((حذوناها: جعلنا لها حذاء وهو النعل، والصوان: حجارةٌ مُلْسٌ واحدها صوانة، والسِّبْت: النعال التي تُصنع من الجلود المدبوغة، وأزلّ، أي: أملس صفحته ظاهرة، والأديم: الجلد)).

[7]. الفترة: الضعف والسكون، والجموم: اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة.

[8]. ذي لجب، أي: جيش، والجب: اختلاط الأصوات وكثرها، والبيض: ما يوضع على الــرأس مــن الحديــد، والقوانس: جمع قونس وهو أعلى البيضة.

[9]. قال أبو ذر: ((تئيم: تبقى دون زوج، يُقال: آمَتِ المرأة: إذا لم تتزوج.

وهُزِم جيش المسلمين، واستشهد أمراؤُهُ الثّلاثة، وتناهتْ أنباءُ الهزيمة إلى المدينة، فحزنَ الرسول – صلى الله عليه وسلم - على قَتْلِ الأمراء، وعلى من قُتِلَ معهم من المسلمين، وحَزِنَ معه سائر الناس، وكان وقعُ المُصيبة شديداً على نفوسهم، غير أنَّا لا نستطيع أن نتَصَوَّرَ حُزْنَهُم إلا من خلال نبرات الرّثاء التي انطَلَقَت من أفواه الشعراء، فهُمْ وحدَهُم القادرون على إسْماعِنا رَنَّة الحُزنِ والأسى التي تَجاوَبَتْ بها جَنَباتُ مدينةِ الرسول. وإذا ما وقفنا على شِعر حسان – يومئذٍ – أَلْفَيْناهُ يُوردُ حكاية استشهادهم فيقول:[1]

فلا يُبْعِدَنَّ الله قتلى تتابَعوا	بمؤْتَةَ منهم ذو الجناحين جَعْفَرُ
وزَيدٌ وعبد الله حينَ تتابعوا	جميعاً وأسبابُ المَنيَّةِ تَخْطِرُ[2]
غداةَ مَضَوْا بالمؤمنين يَقودُهم	إلى الموتِ مَيْمونُ النَّقيبَة أزْهَرُ[3]
فَطاعَنَ حتى مالَ غيرَ مُوَسَّدٍ	لِمُعْتَرَكٍ فيهِ قَنا مُتَكَسّرُ[4]
فصارَ مع المُسْتَشْهِدينَ ثوابَهُ	جِنانٌ ومُلْتَفُّ الحدائقِ أَخْضَرُ

هكذا كانت النتيجة خارج حدود الجزيرة، أما في داخلها فقد تحوَّلَ الموقف العسكري تَحوُّلاً تاماً لصالح المسلمين، وخاصة بعد فتح مكة، وأصبحوا أقوى من أي وقت مضى. وعلى هذا، بَعَثَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد إلى بعض القبائل يدعوهُم إلى رحمة الإسلام، ويُقاتلهم إن أبَوْا عليه. أما هوازن وثقيفٌ ومَنْ ناصرهم فقد جمدوا على الكُفر حيناً من الدَّهر، بل وأخذوا يُعدُّون لحرب المسلمين، ومن هُنا، كان لابُدَّ من جهادهم وكَسْر شوكتهم.

وقد أعَدَّ الرسول الكريم جيشاً عظيماً ثُمَّ خرج إلى لقائهم، فَأَدْرَكَهُم في وادي حُنَين، ولكنَّ هوازن فاجَأَتْ المسلمين يومئذٍ، فانْشَمَروا راجعين لا يلْوي أحدٌ على أحَدٍ. وثبت رسول الله، وثبتَ معه نفَرٌ قليلون، وأبلى العبَّاس بن عبد المطلب أشدَّ البلاء، فأقام يُدافع عن الرسول الكريم، ويَرُدُّ الخيل المُغيرة في وقتٍ فرَّ فيه الكثيرون من حول قائدهم ونبيهم، وإلى هذا الموقف العنيف يُشيرُ العباس بقوله:[5]

---

1. السيرة/ق٢/٣٨٤.
2. تخطر: تختال وتهتز.
3. ميمون النقيبة: مسعود الجد، وأزهر: أبيض.
4. معترك: موضع الحرب.
5. العمدة /١/٣٦، الاستيعاب/٢/٨١٣، تفسير القرطبي/٨/٩٨.

ألا هل أتـــى عِرْسي مِكَرّي ومَوْقفي بوادي حنين والأسنةُ تُشْرَعُ
وقولي إذا ما النَّفسُ جاشَت لها قدي وهَامٌ تَدَهْدَى والسواعِدُ تُقطَعُ[1]
وكيف رددْتُ الخيـــلَ وهي مُغيرةٌ بِزَوْراءَ تُعطي باليدين وتمنعُ[2]
نَصَرْنا رسول الله في الحرب سبعةٌ وقد فرَّ مَنْ قد فرَّ عنه فأقْشَعوا

وسُرَّ المُرْجِفون الحاقِدون من أهل مكة، وتكلموا بما في أنفسهم من الضّغْن، فقال أبو سفيان بن حرب: ((**لا تنتَهي هزيمتهم دونَ البحر**))، وقال **كلدة بن الحنبل**: ((**ألا بَطلَ السّحْر**))[3]، فلما بلـــغ ذلـــك حسان بن ثابت عمد إلى كلدة فقال فيه:[4]

رأيتُ سَواداً منْ بعيدٍ فَراعَني أبو حَنْبَلٍ يَنْزو علـــى أمّ حنبلِ[5]
كأنَّ الذي يترو به فوقَ بَطْنِها ذِراعُ قَلوصٍ من نِتاجِ ابن عِزْهِلِ[6]

ودوَّى صوتُ العبَّاس مُردداً: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحابِ السَّمُرةِ، فلبَّـــى المـــسلمون النّداء، وانتَهوا إلى رسول الله، وصَمدوا لهوازن يُجالِدونها من دون النبي الكريم، ويَصدُقون الله في جهادهم، فهُزِمَتْ هوازن ومن لَفَّ لَفَّها. وحين قدم فَلُّ ثقيفٍ الطائف، أغلقـــوا علـــيهم أبـــواب مدينتها، وصنعوا الصَّنائع للقتال، ولما سار إليها الرسول الكريم، اتَّخَذ الشعر مكانـــه إلى جانـــب السَّيف، وشاركه في تهديد أعداء الإسلام، فهذا كعب بن مالك يقف مع الجيش الإسلامي علـــى أسوار الطائف، ثُمَّ ينطلق مُهدداً:[7]

ونَنْتَزِعُ العُروشَ بِبَطنِ وَجٍّ وتُصبحُ دورُكُمْ منكم خُلوفا[8]
ويأتيكُمْ لنا سَرَعانُ خيلٍ يُغادِرُ خلفه جمعـــاً كثيفـــا[9]

---

[1] . تدهدى: تدحرج، وانقلب بعضه على بعض.
[2] . ذوراء: بعيدة.
[3] . تاريخ الطبري/٣/٧٤.
[4] . السيرة/ق٢/٤٤٤.
[5] . السواد: الشخص والشبح.
[6] . ابن عزهل: كأنه بعير بعينه، وبعير عزهل: شديد، وعزهول: سريع خفيف.
[7] . السيرة/ ق٢/٤٧٩.
[8] . العروش – هنا – : سقوف البيوت، ووجّ: موضع بالطائف أو هو من أسمائها، وخُلوف: يريد دوراً تغيب عنها أهلها.
[9] . السرعان: المتقدمون.

إذا نَزَلوا بِساحتكمْ سمعتُمْ لهـا ممَّـا أناخَ بهـا رجيفا[1]
بِكُــلّ مُهَنَّدٍ لَيْنٍ صَقيلٍ يَسوقُهُم بهـا سَوقـاً عَنيفا
فأمسَوا قد أقَرُّوا واطمأنُّوا ومَـنْ لا يمتنعْ يقبلْ خُسوفا[2]

وحاصر الرسول الطائف سبع عشرة ليلة، ولكنه رجع عنها دونَ أن يفتحها، وقدم وفد ثقيف مدينة الرسول، بعد مُنْصَرَف المسلمين من غزوة تبوك وأسلموا[3]، وبهذا دانَتِ الحجـازُ وغيرهـا لسلطان الإسلام.

وقامَ الرسول الكريم بتوزيع الغنائم التي غنمها المسلمون من هوازن، فأعطى المؤلَّفة قلوبهم مـن قريش وسائر العرب، ولم يُعطِ الأنصار شيئاً، فوَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم حتى كَثُـرَت منهم المقالة. وهذا شاعرهم حسان يُعاتب الرسول على حرمانه الأنصار من غنائم هوازن، ويُذَكّره بفضلِ هذا الحيّ في السبق إلى نُصرة الإسلام، وتحدّي العرب قاطبة في سبيل هذا الدين، فيقول:[4]

وَأْتِ الرسول فَقُلْ يا خيرَ مؤتَمَنٍ للمؤمنينَ إذا مـا عُدّدَ البشَرُ
عَلامَ تُدْعى سُلَيمٌ وهـي نازِحَةٌ قُدَّامَ قَومٍ هُمُ آوَوْا وهم نَصَروا
سَمَّاهُمْ اللهُ أنصـاراً بنصْرِهِم دينَ الهُدى وعَوانُ الحَرْبِ تَسْتَعِرُ[5]
والناسُ ألْبٌ علينا فيكَ ليسَ لنا إلاّ السُّيوف وأطراف القنا وَزَرُ[6]
نُجالدُ النَّاسَ لا نُبْقي على أحَدٍ ولا نُضيّعُ مـا توحي به السُّوَرُ
فما ونَيْنا ومـا خِمْنا وما خَبَروا مِنَّا عِثَاراً وكُلُّ النَّاسِ قد عَثَروا[7]

أما بعد، فهل تَمَثَّلَ الشعر هذه الغزوات تَمثُّلاً صحيحاً؟ وهل استطاع أن يُصور أحداثها وينقـل وقائعها بكل دقائقها؟ ثم هل استطاع أن يُفيد من الآيات التي نزلت في شأنها؟

---

1. الرجيف: الصوت الشديد مع اضطراب، مأخوذ من الرَّجفة.
2. الخسوف: الذل.
3. السيرة/ق٢/٥٣٨.
4. ديوانه/٢٥٥ – ٢٥٦، والسيرة/ق٢/٤٩٧.
5. الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة.
6. الوزر: الملجأ.
7. ونينا: ضعفنا وفترنا، وخمنا: جَبُنَّا.

إنَّ أول ملاحظة تُوحي بأنَّ الشعر لم يستَطِعْ أنْ يتمثَّلَ هذه الغزوات تَمَثُّلاً دقيقاً، سواء من حيث كميَّتُهُ، أو من حيث معالجته للقضايا وتسجيله للأحداث، ففي الحين الذي نرى الشعر فيه يكثرُ في غزوة هجومية كغزوة بدرٍ الكبرى، نراه في الحين نفسه يَقِلُّ قلةً مفرطةً في غيرها من هذه الغزوات كغزوة بني المصطلق وفتح مكة ويوم حنين والطائف، ونراه في غزوة مؤتة يكادُ يقتصر على بكاء القتلى ورثاء الشهداء، وحتى هذا الرثاء، فإنه كان قليلاً أيضاً، فهو لم يتجاوز خمسَ قصائد ومقطوعات[1]، وإنْ كان عبد الله بن رواحة قد رصَدَ تقدُّم الجيش، وثبات المسلمين في القتال، ولكن أكثر شعره كان رجزاً، والمعروف أنَّ هذا اللون من الشّعر تَنْقُصُه الناحية الفنية في أغلب الأحيان، لقلَّة المعاناة في نَظْمِهِ من ناحيةٍ، ولأنَّه يَسيلُ على ألسِنةِ الشُّعراء ارتجالاً من ناحية أخرى.

ونلاحظ أيضاً أن شعراء الأنصار قد صَمتوا أو كادوا بعد فتح مكة، وكأنَّهم ظنوا أنَّ دورهم على مسرح الأحداث قد انتهى، وأُسْدِلَ عليه الستار. وسكتوا مثلاً عن قتال خالد ابن الوليد لبني جذيمة الكنانيين. وسكتوا أيضاً عن هدم العُزَّى – أكبر الأصنام – وغيرها، على ما لِهَدمِ هذه الأصنام وتحطيمها من أبعادٍ عميقةٍ في عقيدة العربي، فلم نجد لهم سوى بيت واحد يقول فيه كعب بن مالك:[2]

وتنسى اللاتُ والعُزَّى وود ونسلبها القلائدَ والشُّنوثا

وسكت شعراء الأنصار كذلك عن هذه الانتصارات الساحقة التي حققها الإسلام في حُنين والطائف، اللهم إلاَّ قصيدة واحدة لكعب بن مالك يتهَدَّدُ بها ثقيفاً[3]، وأخرى لحسان بن ثابت يعاتب فيها رسول الله على حرمان قومِه من غنائم حنين[4].

أما شعراء المهاجرين فلم يشاركوا إلا بقدرٍ ضئيل، ولعلَّ سبب قلة شعرهم يرجع إلى عدة أمور، منها انصرافهم للدعوة التي يَسْهَرون على نشرها، وهاجروا في سبيلها، ومنها حياتهم المضطربة التي تَوَزَّعَتْ بين هجرة إلى الحبشة ومحنةٍ في بِطاحِ مكة، واختفاء عن عيون الكفار خشية البطش بهم، ومنها أيضاً أنهم كانوا عالة على إخوانهم الأنصار في بداية هجرتهم إلى المدينة ثم حرصوا على حماية الدعوة، وكسب قوتِهِم بعد ذلك، فصرفهم كل هذا – كما نظن – عن قول

---

1 . السيرة/ق٢/٣٨٤ – ٣٨٨.
2 . السيرة/ق٢/٤٨٠.
3 . نفسه/٤٨٠.
4 . ديوانه/٢٥٥.

الشّعر أو الإكثار من قوله، وكأنَّهم وجدوا في حسَّان بن ثابت وصحبه ما يَسُدُّ الثغرة، ويملأ الفراغ فتواروا بشاعريتهم عن الأحداث إلا قليلاً[1]، وحتى هذا الشعر القليل فَمَشْكوكٌ في صحة نسبته إلى أكثرهم.

وكان حسان بن ثابت هو الشاعر المعلم في ميدان الصراع، فهو قد قالَ أكثر ما وصلنا من شعرٍ في هذه الغزوات. ويأتي كعب بن مالك بعد صاحبه حسان إلا أنه يَقِلُّ عنه قلة ظاهرة، أما عبد اله بن رواحة، فلا تكاد تعثر له على نشاط أدبي في غزوة بدر، وجُلُّ شعره الإسلامي كان في غزوة مؤتة، وكان أكثره من الرجز كما قدَّمنا.

هذا من حيث كمية الشعر وغزارته. أما من حيث معالجته للقضايا فالأمر يختلف، وحتى نرى إلى أي مدى وصل الشعر في معالجته، علينا أن نطلع على طريقة معالجة القرآن للأحداث. ويكفي أنْ يُنْظَرَ في آيات سورة الأنفال التي نزلت في شأن بدر، فذلك يُعطينا – ولا شك – فكرة واضحة عن النجاح الذي أحرزه الشعر في تصوره للأحداث ،وفي معالجته لها، ففي خروج قريش إلى بدر يقول تعالى: ((**وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ وقالَ لا غالِبَ لكُمُ اليومَ مِنَ الناس وإني جارٌ لَكُم، فلما تَراءَت الفِئَتانِ نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وقالَ إني بريءٌ منكم إنّي أَرى ما لا تَرونَ إني أخافُ الله**..)).

وفي خروج المسلمين لجهاد الكفار يقول: ((كما أخرجَكَ رَبُّكَ من بَيْتِكَ بالحقّ وإنَّ فريقاً من المؤمنينَ لكارهون يُجادِلونك في الحقّ بعدَما تَبَيَّنَ كأنَّما يُساقونَ إلى الموتِ وهُم يَنْظُرون. وإذْ يَعِدُكُم اللهُ إحدى الطَّائفَتَينِ أنَّها لَكُمْ وتَودُّون أنَّ غير ذاتِ الشَّوكة تكونُ لكُمْ ويُريدُ اللهُ أنْ يُحِقَّ الحَقَّ بكلماتِهِ ويَقْطَعَ دابرَ الكافرين. لِيُحِقَّ الحَقَّ ويُبْطِلَ الباطلَ..))

واستجاب الله لدعوة رسوله التي يقول فيها:[2] ((اللهم إن تَهْلِك هذه العِصابةُ اليوم لا تُعْبَد)) فقال: ((إذْ تَسْتَغيثون ربَّكَمْ فاستجابَ لكم أنّي مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُردِفين. وما جَعَله الله إلا بُشرى ولِتَطمئنَّ بهِ قلوبكم وما النَّصر إلا من عند الله إنَّ الله عزيزٌ حكيم. إذْ يُغَشّيكم النُّعاسُ أَمَنةً مِنْهُ ويُنَزّل عليكم من السماءِ ماءً ليطهّركم بهِ ويُذهِبَ عنكم رجس الشَّيطان وليربطَ على قُلوبكمْ ويُثَبّتَ به الأقدام)).

كلٌّ ذلك ليُذهبَ عن المسلمين تشكيك الشيطان لهم وتخويفه إياهُم عدوهم، واستجلاء الأرض لهم حتى انتهوا إلى مترلهم الذي سبقوا إليه عدوهم.

---

[1] . السيرة/ ق٢/٨، ١١، ٢٠، ٢٣، ٤١، ٣٧٨.

[2] . السيرة/ ق١/ ٦٢٧.

ويبشّر المؤمنين بالمساعدة والنَّصر، ويُحَرّضهم على القتال، ويعيّن لهم مكان الضَّرب، ويطلب منهم أن يتذرَّعوا بالشّدة، ويبيّن لهم السبب في ذلك، فيقول: ((إذْ يوحي ربُّكَ إلى الملائكة أنّي مَعَكُم فثبّتوا الذين آمنوا سأُلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعب فاضربوا فوقَ الأعناقِ واضربوا منهم كُلَّ بنان. ذلك بأنَّهُم شاقُّوا الله ورسوله..)). ويطلب إليهم الثبات فيقول: ((ومَنْ يُولِّهِمْ يومئذٍ دُبُرَه إلا مُتَرّفاً لقتالٍ أو مُتَحيّزاً إلى فئةٍ فقد باءَ بغَضَبٍ من الله ومأواهُ جَهَنَّم..)).

ويدعو إلى إطاعة الرسول الكريم فيقول: ((يا أيها الذينَ آمَنوا استَجيبوا لله وللرَّسول إذا دَعاكُمْ لما يُحْييكمْ... واذكروا إذْ أنْتُمْ قليلٌ مُسْتَضعَفون في الأرضِ تخافونَ أنْ يتَخَطَّفَكُمْ الناس فآواكُمْ وأيَّدَكُمْ بنَصْره..)) حتى النَّفر الذين مَشَوْا إلى أبي سفيان بن حرب بشأن رَصْدِ أموالِ التجارةِ لحرب محمد كان للقرآن معهم شأن: ((إنَّ الذين كفروا يُنفِقونَ أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله، فسَينفقونها ثُمَّ تكونُ عليهم حسْرةً ثم يُغْلَبون)).

ويذكر لقاء الفريقين على ماء بدر ((وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفُرقان يومَ التقى الجَمْعان، إذْ أنتم بالعُدوةِ الدنيا وهُمْ بالعدوةِ القُصوى، والركب أسْفَلَ منكم، ولو تواعَدتم لاختَلَفتم في الميعاد ولكن ليقضيَ اللهُ أمْراً كانَ مَفْعولا، إذْ يُريكَهُمُ اللهُ في منامِكَ قليلاً، ولو أراكَهُمْ كثيراً لَفَشِلْتُمْ ولَتنازَعْتُمْ في الأمرِ ولكنَّ اللهَ سَلَّم، وإذ يُريكُموهُم إذِ التَقَيتُمْ في أعْيُنِكُمْ قليلاً، ويُقَللكمْ في أعيُنِهِمْ، ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً)).

ويَبْسُطُ لهم خطط الحرب ((يا أيُّها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا... وأطيعوا الله ورسوله ولا تَنازَعوا فتَفْشَلوا وتَذْهَبَ ريحُكُم.. ولا تكونوا كالذين خَرَجوا من ديارهمْ بَطَراً ورِئاءَ النَّاسِ، ويَصُدُّونَ عن سبيل الله)).

ويُطالب الرسول أن يقبل منهم المُصالحة على الإسلام إن عرضوا عليه ((وإنْ جَنَحوا للسَّلمِ فاجْنَحْ لها وتوكَّلْ على الله)) ويدعو النَّبي أنْ يُحرّض المؤمنينَ على القتال ((يا أيُّها النبي حَرّض المؤمنين على القتال إنْ يَكُنْ منكم عشرونَ صابرونَ يغلبوا مائتين وإنْ يكُنْ منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا)).

أما الأسرى ((ما كانَ لِنَبيّ أنْ يَكونَ لهُ أسْرى حتَّى يُثْخِنَ في الأرض تريدونَ عَرَضَ الدُّنيا والله يُريدُ الآخرة لولا كِتابٌ من الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فيما أخَذْتُمْ عذابٌ عظيمٌ... يا أيُّها النبيُّ قُلْ لِمَنْ في أيديكُمْ من الأسرى إن يَعلَم اللهُ في قلوبِكُمْ خَيراً يؤتِكُمْ خيراً مِمَّا أُخِذَ منكم ويَغفِر لكم)).

ويردُّ على الخلاف في النَّفَل: ((يسألونَكَ عن الأنفال قل الأنفال لله والرسولِ فاتَّقوا اللهَ وأصْلِحوا ذات بَيْنِكُمْ.. واعلموا أنَّ ما غنمتم من شيءٍ، فإنَّ لله خُمُسَهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)).

هكذا كان تصوُّر القرآن للأحداث ، وتمثله لقضايا المسلمين، ونقله لواقعهم ومعالجته لمشاكلهم، فأين الشعر من هذه الآيات البينات؟ وأين الشعراء من تصوير المعارك التي صوَّرها القرآن؟ وأين الشعراء أيضاً من إظهار هذه المعاني الإسلامية بشكل وافٍ وفهمٍ صحيحٍ؟

ومهما يكن من أمر فإن الشعر قد ساهم في تصوير الأحداث بقدر، واستطاع أن يُفيدَ من الآيات القرآنية إفادةً محدودة، كذكر جبريل والروح القدس والإيمان والشهادة والجهاد والجنةِ والنار وغيرها. ولكنَّها على أي حال معانٍ عامةٌ. أما الموضوعات الجاهلية كالفخر والكرم والشجاعة والتعيير بالجُبْن والفرار وغيرها، فقد ساهم فيها مساهمة فعالة لأنَّ الشعراء قد مَرِنوا عليها وتعودوا على استعمالها.

ومهما كان الشعر الذي قيل يوم بدر مُوَفَّقاً في تصوير الأحداث، فإنَّه يظل مُقصّراً أن يفيد الإفادة الكاملة من الآيات السابقة، فلم يتوصَّل الشعراء إلى إدراك المعاني البعيدة الرائعة التي صوَّرَهَا الآيات التي نزلت بعد بدرٍ وفهمها فهماً جيّداً، وقد ردَّدَ الشعراء بعضَ المعاني الإسلامية الواردة فيها، ولكنه لم يستطع أن يستوعبها جميعاً.

على أننا نَقْسو على شعراء المسلمين إذا نحنُ طالبناهُم بأكثر مما بذلوا، لأنَّهم كانوا حديثي عهدٍ بالإسلام، فلم يسهل عليهم لذلك أنْ يفهموا الفكر الإسلامي كما فَهِمَهُ سائر المهاجرين، ولكنَّ هذه المعاني الإسلامية بدَتْ أكثر وضوحاً في غزوة مؤتة، حيث استطاعوا أن يَعوا مفاهيم الإسلام ويتمثَّلوا معانيه السامية. وقصر الشعر أيضاً عن تصوير الأحداث في غزوة بني المصطلق، على الرغم من ظهور أمر المنافقين علناً، والخوض في حديث الإفك، وهما حدثان يمكن أن يَسْتَوحيا شعراً كثيراً، كما قَعَدَ الشعر عن تصوير أحداث فَتْحِ مكة وحنين والطائف على كثرة هذه الأحداث وغزارتها. وسوف نرى فيما بعد دور الشعر في تصوير الغزوات التطهيرية.

ثالثاً: الغزوات التطهيرية

بدأ اليهود يكيدون للإسلام منذ اليوم الأول لوصول الرسول – صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة. ورغم أنَّهم لم يكونوا شيئاً يُعتَدُّ به أمام الرسول إلا أنَّ وجودهم بين المسلمين كان يوحي بالخطر. وقد قام النبي بتنظيم العلاقات معهم، حتى يأمَنَ المسلمون غدرهم، فكُتِبَتْ الصحيفة التي

حدَّدَت العلاقات بين المسلمين وغيرهم من سكان المدينة الآخرين كاليهود والمشركين. ونَصَّت الصحيفة على أنَّ الأمرَ في المدينة إلى الله وإلى محمد النبي، كما ونَصَّت أيضاً على خضوع اليهود لنظام الإسلام ووجوب ابتعادهم عن كُلّ ما يقف في سبيله[1]. وذهب بعض المُغرِضين إلى أنَّ عقد المحالفات مع اليهود، إنما كان بسبب خوف محمد على حياته وحياة أنصاره من جهة، ورجاء أن يدخُلوا في ذمَّته ومِلَّتِهِ من جهة أخرى[2].

ولما رأى اليهود دولة الإسلام تنمو، وسلطان رسول الله يَقْوى ويمتدّ، أخذوا يفكّرون في موقفهم من محمَّدٍ وأصحابه، وبدأوا يحاولون إطفاء نور الله بكل ما أُوتوا من قوة. ولما رأوا أنَّهم أضعف من أن يقفوا أمام تيَّار الإسلام ،حاولوا أن يُثيروا الخلافات بين عرب المدينة، ووجدوا عوناً قيماً في بعض أشرافها[3].

وازداد خوف اليهود من محمد، وظهر حسدهم له حين رأوا بعض اليهود يدخلون في دين الله، فَعَظُمَ غيظُهُم، وخافوا أن يفْشُوَ الإسلامُ في جماهيرهم، فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين بالدَّسّ والإرجاف ثُمَّ بالمِراء والجَدَل فيما يعلمون وفيما لا يعلمون. وإذا سُئِلوا عن شيء مما في كُتُبِهِم حَرَّفوا الكلم عن مواضعه، وألبسوا الحقَّ بالباطل، ليكسبوا ولاء المشركين بالغضّ من شأن الإسلام، لا لسببٍ سوى كراهيتهم للرسول لما اختَصَّه الله به من الرسالة. وقد نعى القرآن عليهم ذلك بقوله: ((**بِئْسَما اشْتَروْا به أنفُسَهُم أن يكفروا بما أنزل اللهُ بغياً...**))[4] وتَجَرَّأُوا على الإسلام فهاجموه في عقائده وأحكامه. ولَئِنْ كان الجَدَلُ عنيفاً بين المسلمين والمشركين بمكة، فإنَّه أصبح بينهم وبين اليهود في المدينة أكثر عُنفاً، وأشدُّ لَدَداً وأعظمُ مكراً. وقد بَلَغَ حدَّاً كان يصل فيه إلى الاعتداء بالأيدي مع ما كان بينهم من عهدٍ، ويكفي لتصوير تعنُّتِ اليهود ولَجَجَهُم ،أنَّهُم أخرجوا أبا بكر عن حِلْمِه وهدوئه مع ما كان عليه من دماثةِ الخُلُقِ وطولِ الأناةِ ولين الطّباع.

ودسَّ اليهود من أحبارهم من أظهر الإسلام، وجلس بين المسلمين يصطنع التقوى ثمَّ ما يلبث أن يَلويَ رأسَه ،ويُبديَ الشكوك والريب، ويلقي على الرسول من الأسئلة ما يحسبه يزعزع في

---

[1] . أبو عبيد/ الأموال/١/٢٩٤.

[2] . تاريخ اليهود في بلاد العرب/ إسرائيل ولفنسون/١١.

[3] . رينيه/ محمد رسول الله/ ٢٠٢ – ٢٠٣ .

[4] . حسن إبراهيم/ تاريخ الإسلام/١/١٣٢.

نُفوسِ المسلمين عقيدهم به، وبرسالة الحق التي يدعو لها. واتَّخذوا من الدَّسيسة والنّفاق والعلم بأخبارِ السابقين من الأنبياء والمُرسَلين طريقاً لذلك.

ولم يكتفِ اليهود بالكيد للإسلام على المستوى الداخلي، وإنما أرادوا أن يَسْتَقْطِبوا يهود العالم للوقوف ضد محمد ورسالته، فكتبوا إلى يهود العراق واليمن، ومَنْ بَلَغَهُم كتابهم من اليهود في الأرض كلها، أنَّ محمداً ليس نبيَّ اللهِ، وطلبوا إليهم أن يَثْبتوا على دينهم، وأن يَجْمَعوا كلمتهم على ذلك[1].

وكان لابُدَّ أن يتحوَّلَ هذا الخلاف العقائدي إلى قتالٍ عنيف. فتأجَّجَتْ نارُ هذا القتال عندما نَقَضَ بنو قينقاع عهدهم مع الرسول. حدَّثَ صاحب السيرة[2] أنَّ امرأة من العرب قَدِمَت بجلَب لها فباعتْهُ بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأَبَتْ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقَدَهُ إلى ظهرها، فلمَّا قامت انكشَفَتْ سَوْأتها، فضحكوا بها، فصاحَتْ، فوَثَبَ رجلٌ من المسلمين على الصائغ، وكان يهودياً فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فغضب المسلمون لذلك، ووقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاع.

ويخطيء ولفنسون[3] خطأً كبيراً عندما يرُدُّ سبب الخلاف إلى أنَّ الرسولَ كلفهم أن يعترفوا برسالته، فقد نَصَّت الصحيفة[4] على أنَّ لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم، إلا من ظلم وأثِمَ، فإنَّه لا تُوتَغُ إلا نفسه وأهلُ بيته)).

وكما غالط في أسباب الخلاف، فإنَّه حرص على إنكار هذه الرواية مُتَذَرّعاً بسببين: أولهما: أنَّ المُسْتَشْرِقين يَعْتَبِرونها متأخّرةً وغير واقعيةٍ، وثانيهما: أنها لم تَرِدْ في كتاب المغازي للواقدي[5]. ولدى بحثنا وجدنا أن الواقدي قد أوردها[6]، شأنه في ذلك شأن سائر المؤرّخين لتلك الفترة من التاريخ.

ومهما يكن من أمر، فقد جمع الرسول بني قينقاع بسوقهم، ثمَّ قال: ((**يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنَّكم قد عرفتم أني نبيٌّ مُرْسَلٌ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله**

---

[1]. النيسابوري: أسباب النزول/٩٢.

[2]. السيرة/ق٢/٤٨.

[3]. تاريخ اليهود في بلاد العرب/١٢٢.

[4]. أبو عبيد/ كتاب الأموال/ ١/٢٩٣.

[5]. تاريخ اليهود في بلاد العرب/١٣٠.

[6]. الواقدي/ كتاب المغازي/ ١٧٨.

إليكم)). قالوا: يا محمد إنَّك ترى أنَّا قومك لا يُغَرَّنكَ أنكَ لقيت قوماً لا علمَ لهم بالحرب فأصَبتَ منهم فرصة، إنَّا والله لَئِنْ حارَبْناكَ لتعلمَنَّ أنَّا نحنُ النَّاس[1].

ولما أصرَّ اليهود على هذا الموقف العدائي من الإسلام، سار إليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فحاصَرَهُم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حُكمه. وحين أمكنه الله منهم، قام إليه عبد الله بن أبي بن سلول المنافق، فقال: يا محمد، أحْسِنْ في مواليّ – وكانوا حلفاء الخزرج – فأجابه الرسول – صلى الله عليه وسلم - بعد إبطاء، وأمر بإجلاء بني قينقاع عن المدينة، فخرجوا إلى أذرعات بالشام[2].

وقد عزا ولفنسون محاربة المسلمين لليهود لأسباب سخيفة منها: تصميم الأنصار على اندماج اليهود معهم باعتناق دين الإسلام، أو يُحاربوهم حتى يجلوهم، ومنها: حالة المهاجرين السيئة، فكانوا ينتظرون بفارغ الصَّبر نتيجة مقاومة اليهود، إذ لم يكن لهم مزارع ولا منازل ولا مال، ومنها: أيضاً قلة عدد بني قينقاع والطمع في أموالهم الطائلة، وحُلِيّهم الكثيرة من الذَّهب والفضّة[3].

ولئِنْ شهر اليهود سلاحهم في وجه الإسلام، فإنَّهم قد أطلقوا ألسنتهم في محاربته أيضاً، وكما سخروا أموالهم للتأليب عليه، فقد جَنَّدوا أشعارهم للنيل منه، ومالوا إلى الكُفَّار يناصرونهم ويبكون قتلاهُم، ويُهَوّنون لهم أمر المسلمين لأخذ الثأر. فما أنْ تَيَقَّنَ **كعب بن الأشرف** من هزيمة قريش في بدر، حتى خرج إلى مكة، فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي، وعنده **عاتكة بنت أبي العيص بن أمية** فأنزلته وأكرمته، وجعل يُحَرّضُ على الرسول، ويُنشِدُ الأشعار ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا يوم بدر[4].

ولما تناهى شعره إلى مدينة الرسول هبَّ حسان بن ثابت يهزأ به، ويدعوه إلى المزيد من البكاء، ويُشَبّهُهُ بكلبٍ يَتْبَعُ كلبته، ثم يمضي إلى الفخر بالنَّصر على الفئة المشركة، فيقول:[5]

بَكَتْ عينُ كعبٍ ثُمَّ عُلَّ بِعَبْرةٍ ... منه وعاش مُجَدَّعاً لا يَسْمَعُ[6]

---

[1]. السيرة/ ق٢/ ٤٧.

[2]. السيرة/ ق٢/ ٤٨.

[3]. تاريخ اليهود في بلاد العرب/ ١٢٧ – ١٣٠.

[4]. السيرة/ ق٢/ ٥٢.

[5]. الواقدي/ المغازي/ ١٨٦.

[6]. علَّ: من العَلل، وهو الشرب بعد الشرب، يريد البكاء بعد البكاء.

ولقد رأيتُ ببطنِ مكــةَ مِنْهُمُ	قتلى تَسُحُّ لها العيونُ وتَدْمَعُ
فابكي فقد أبكيتَ عبداً راضِعاً	شِبْهَ الكُليبِ إلى الكُلَيْبَةِ يَتْبَعُ
ولقد شَفَى الرحمنُ مِنَّا سيّداً	وأهانَ قوماً قاتلوهُ وصُرّعوا
ونَجَا وأُفْلِتَ مِنْهُمُ مُتَسَرّعــاً	فَــلٌّ قليلٌ هــاربٌ يتهرَّعُ

وتعاظَمَ خطر كعبٍ هذا هلى الدَّولة، واشتدَّ كيده لها، فأخذَ ينالُ مـــن أعــراض المـــسلمين، ويشبّبُ بنساءٍ من نسائهم حتى آذاهم[1]، فكان لابُدَّ والحالة هذه من أن يتخلَّصَ الرسول من أذاه، فبعث إليه **محمد بن مسلمة** في نفرٍ من الأوس، وسار معهم إلى بقيع الغرقــد يُــوَجّهُهُم ويُــشَجّعهُم فساروا إليه ليلاً فقتلوه.

وكان بخيبر زعيمٌ سياسيٌّ آخر من زعماء اليهود، يظاهر كعب بن الأشرف على عداوة الرسول الكريم، وكان فيمن حزَّبَ الأحزاب على المسلمين يوم الخندق، ذلك هو **سَلاَّم بن أبي الحُقيق**[2].

كان سلام شاعراً كما كان من أكبر تجار الحجاز[3]. وقد مَكَّنَ له نُفوذُه أنْ يقوم بِدَوْرٍ خطيرٍ في إيذاء النبيّ والبَغْيِ عليه، والإمعانِ في مُعارضته فبعثَ إليهِ **عبد الله بن عَتيكٍ** في نَفَرٍ من الخَزْرَج، حيثُ تمكَّنَ هؤلاء النفر من قتله في حِصْنِه، فَذَلَّتِ اليهود بعد مقتلهما، وتوارَتْ عن تَدْبيرِ المؤامرات ضِدَّ المسلمين إلى حين.

ونظُنُّ أنَّ تأثيرَ هذينِ الرجلين على المسلمين كان عنيفاً، يدلُّ على ذلك أنَّ شعراء المسلمين قد بادروا إلى تَسْجيلِ قتلِهما، والاحتفال به، وكأنَّ كابوساً ثقيلاً قد أُزيحَ عن صدورهم، فهذا حسان بن ثابت يُشيدُ ببطولة الرّجال الذين سَمَوْا إليهما فقتلوهما، مُسْتَبْصِرين لِنَــصْرِ الــدينِ الجديــد ومُسْتَهينين بالصّعابِ فيقول:[4]

لله دَرُّ عِصــابةٍ لاقَيْتهُــمْ	يا ابنَ الحُقيق وأنت يا ابنَ الأشْرَفِ
يَسْرونَ بالبيضِ الخِفافِ إليكمُ	مَرحــاً كأُسْدٍ في عرينٍ مُغْرِفِ[5]
حتى أتوكُم في مَحَلِ بِلادِكُمْ	فَسَقوكُــم حَتْفــاً بِبَيْضٍ ذُفَّفِ[1]

---

1. تاريخ الطبري/٢/٤٨٨.
2. نفسه/٤٩٥.
3. درمنغم: حياة محمد/٢٤٢.
4. السيرة/ق٢/٢٧٦، تاريخ الطبري/٢/٤٩٧.
5. البيض الرقاق: السيوف. ومغرف: ملتف الأغصان.

مستبصرين لِنصر دينِ محمدٍ مُسْتَصْغِرينَ لِكُـلِّ أمـرٍ مُجْحِفِ[2]

وهذا كعبُ بن مالك يُشيرُ إلى نتيجة قتل كعب بن الأشرف، وما جَرَّ قتله على بني النَّضير من الذُّلِّ فيقول:[3]

فَغودِرَ مِنْهُمْ كعبٌ صَريعاً فَذَلَّتْ بعد مَصْرَعِـه النَّضيرُ
على الكَفَّيْنِ ثمَّ وقد عَلَتْهُ بأيدينـا مُشْهَرةٌ ذَكـورُ
بأمرِ محمدٍ إذْ دَسَّ ليلاً إلى كعبٍ أخا كَعْبٍ يَسيرُ[4]
فماكَـرَهُ فأنْزَلَهُ بِمَكْرٍ ومحمـودٌ أخـو ثِقَةٍ جَسورُ

ولم يدَّخِرِ اليهود سبيلاً يُمَكِّنُهُم من القضاءِ على محمد إلاّ سلكوه، وظهر ذلك بوضوحٍ عندما أتى الرسولُ الكريمُ بني النضير يستعينهم في دِيَةِ قتيلين من بني عامرٍ قتلهما رجُلٌ من المسلمين. فانتهزوا فرصة جلوس الرَّسول إلى جنب جدار من بيوهم، وانتدبوا من رجـالهم **عمرو بن حجاش** لِيُلْقيَ عليه صخرةً كبيرة. وأتاه خبَرُ السَّماء ليكشفَ له هذا الغدر الذي يتَّشِحُ به اليهود، فقام وخفَّ راجعاً إلى المدينة[5].

وكان هذا المكرُ الدَّنِيءُ سبباً لحربهم والتخلُّصِ من كيدهم، وسبيلاً لتطهير المدينة من وجودهم. وسار إليهم رسول الله فحاصرهم، وتحصَّنوا من المسلمين في الحُصُون، فأمَرَ الرسولُ بقطع نخيلهم والتحريق فيها، كسبيل لإغاظَتِهم، وإنْزالهم على حكمه، ولكنَّ منافقي الخَزْرَجْ تدخَّلوا في الصراع فَبَعَثوا إليهم أن يَثْبُتوا ويتَمَنَّعوا[6]. وتدخَّلت إرادة السماء، فقذَفَ الله في قلوب اليهود الرُّعب، وكتب عليهم الجلاء من المدينة، لأنَّهم شاقُّوا اللهَ وشاقُّوا رسوله، فنزَلوا على حكم الرسول – صلى الله عليه وسلم -، وسَألوه أن يُجْلِيَهُم ويَكُفَّ عن دمائهم على أنَّ لهم ما حَمَلت الإبل من أموالهم، فَفَعَل، لأنَّ الأموال لم تكن لِتُهِمَّ الرسول بقدر ما يهمه نجاح دعوته والتخلص من خصومه.

---

1 . ذفف: سريعة القتل.

2 . مجحف: يذهب بالأموال والأنفس.

3 . السيرة/ق٢/٥٧.

4 . أخا كعب: يريد به سلكان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة وكان أخا كعبٍ من الرضاعة.

5 . تاريخ الطَّبري/٢/٥٥١.

6 . السيرة/ق٢/١٩٠.

وخرج اليهود إلى خيبر والشام، بالنساء والأطفال والأموال. وتركوا جانباً من أموالهم لرسول الله فقَسَّمها بين المهاجرين[1].

وقام الشعر يُذيعُ أنباء الغدر والتآمر، وينشر أخبار الحصار والخروج. فهذا كعب بن مالك يُنَدّدُ بهم، ويشير إلى عدائهم للنبي الكريم، وهم يعلمون علم اليقين أنَّه نبيٌّ مُرْسَل، ويّرُدُّ سبب حربهم إلى الكفر بالله، فيقول:[2]

وذلكَ أنَّهم كفروا بربٍّ	عزيزٍ أمرُهُ أمرٌ كبيرُ
وقد أوتوا معاً فَهْماً وعِلْماً	وجاءَهُم مِن الله النَّذيرُ
فقالوا ما أتيتَ بأمْرِ صدق	وأنتَ بمُنْكَرٍ منا جديرُ
فلما أُشْرِبوا غدراً وكُفراً	وحادَ بهم عن الحقّ النُّفور
أرى اللهُ النبيَّ برأيِ صَدقٍ	وكان اللهُ يحكم لا يجورُ

ويرى كعب أن هذا التصرف العدائي منهم، هو الذي حمل الرسول على الزَّحف إليهم ومحاربتهم والتخلص من ثَمَّ من وجودهم، ويصف هذا الزحف فيقول:[3]

غَداةَ أتاهُمُ في الزَّحف رَهْواً	رسولُ اللهِ وهو بهم بَصيرُ[4]
فقالَ السّلْمَ ويْحَكُم فصَدُّوا	وحالفَ أمْرَهُم كَذِبٌ وزورُ
فذاقوا غِبَّ أمرهمُ وَبالاً	لكلّ ثلاثةٍ منهم بَعيرُ[5]
وأجْلَوا عامِدينَ لقينقاعٍ	وغودِرَ منهم نَخْلٌ ودورُ

وهذا علي بن أبي طالب – وقيل رجل من المسلمين – يُسَجّل خبرَ إجلائهم عن المدينة، ويُعيّنُ البلدَ الذي خرجوا إليه، فيقول:[6]

فَخَلاّهُمُ ثُمَّ قالَ اظعَنوا	دُحوراً على رَغم الآنُفِ[7]
وأجْلى النَّضيرَ إلى غُربةٍ	وكانوا بِدارٍ ذوي زُخْرُفِ

---

1. المغازي/ ٣٥٨ – ٣٦١.
2. السيرة/ق٢/١٩٩.
3. السيرة/ق٢/١٩٩ – ٢٠٠.
4. الرهو: مشي في سكون.
5. الوبال: النكال.
6. السيرة/ق٢/١٩٧.
7. الدحور: الذلُّ والهوان. وعلى رغم الآنف: أي على المذلة، يقال: أرغم الله أنفه: إذا أذَلَّه.

إلى أذْرُعاتٍ رُدافى وَهُمْ   على كُلّ ذي دَبَرٍ أعْجَفِ[1]

نعم، كان بنو النَّضير ذوي تَنَعُّمٍ وزُخْرفٍ ومال كثير. ولعلَّ هذا الوضع الاقتصاديَّ الممتاز هو الذي هيَّأ لهم مكانةً مخصوصةً عند عرب الحجاز، فكان بعض سادة القبائل وفرسانهم وشعرائهم يتردَّدون عليهم بين الحين والحين، بل كانت لبعضهم صلات قويةٌ بهم، ومن هؤلاء **العباس بن مرداس** السُّلَمي الشاعر الفارس.

وليس غريباً لذلك أن تألَمَ نفسُ عباس لمصاب أصدقائه، وأنْ تتحرَّكَ عواطفه لنكبتهم فيأوي إلى قوافيه يَبْكيهِم، ويندبُ ماضيهم، ويأسف لمصابهم، فهو لا يزال على كفره، ولَمَّا تَذُق نفسه البدوية الصُّلْبة حلاوة الإسلام بعد، ولَمَّا تُدْرِك حكم الله في المناوئين لنظامه السماوي، والمعارضين لدينه والمتآمرين على رسوله.

بكاهُم عباس إذن، وتناهى خبَرُ هذا البكاء إلى شعراء المدينة، فاستنكروا فِعْلَةَ عباس، ورأوا فيها افتئاتاً على الحقّ، وتآمراً على الإسلام، فاليهود كما يرى **خوات بن جبير الأنصاري** قوم لا يستحقون الرثاء، إنما يستَحقُّه قوم أعزَّاء، وهم ليسوا كذلك، وعلى هذا وقف خَوَّاتٌ يعيّرُ عباس بن مرداس بهذه المنقصة ويُشيرُ إلى صدوده عن الإسلام فيقول:[2]

تبكي على قتلى يهود وقد تَرى   من الشُّجْوِ لو تَبْكي أحبَّ وأقْرَبَا
إذا السّلْمَ دارت في صديقٍ رددْتَهَا   وفي الدين صَدَّاداً وفي الحرب ثعلبا[3]
عَمَدْتَ إلى قَدْرٍ لقومك تبتغي   لهم شَبَهاً كيما تَعِزَّ وتَغْلِبا
فإنَّكَ لما أنْ كَلِفْتَ تَمَدُّحاً   لِمَنْ كان عَيْباً مدحُهُ وتَكَذُّبا
فهَلاَّ إلى قَومٍ ملوكٍ مَدَحْتَهم   تَبَنَّوْا من العزّ المُؤَثَّلِ مَنْصِبا[4]
أولئك أحرى من يهودَ بمِدْحَةٍ   تراهُمْ وفيهم عِزَّةُ المَجْدِ تُرَّتَبا[5]

---

[1] . أذرعات: موضع بالشام. ورِدافى: أي مُرْتَدفين يردفُ بعضهم بعضاً، الواحد ردف. وذو دبر أعجف: يعني جملاً. ودبر: جرح. والأعجف: الهزيل الضعيف.

[2] . السيرة/ ق٢/٢٠١.

[3] . ثعلبا: أي كثير الروغان ولا يصدق في الحرب.

[4] . المؤثَّل: القديم.

[5] . ترتب: ثابت.

وبإجلاء بني النَّضير تمَّ تطهير المدينة من قبيلتين عنيفتين من قبائل يهود بني قينقاع وبني النَّضير. أما بنو قريظة فقد وادَعوا رسول الله وعاقَدوه وعاهدوه، وبَقوا لذلك ينعمون بالاستقرار، ويعيشون في كَنَف دولة الرسول الكريم.

ولما تحزَّبَت الأحزاب على المسلمين، خرجَ حُيَيُّ بن أخطب النَّضريُّ حتى أتى كعباً بن أسد القرظيّ صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، فلم يزل به يَفْتِلُهُ في الذروة والغارب حتى سمح له واستجاب لرأيه، فنَقَضَ كعب القرظيُّ عهده، وبرِيءَ مما كان بينه وبين رسول الله[1]، وأخذ يُعِدُّ العُدَّة لمناصرة الأحزاب على المسلمين.

وحينَ دَبَّت الفُرْقة بين الأحزاب وبني قريظة، وخَذَّلَ الله بينهم، عاد العرب إلى أرضهم وكفى الله المؤمنين القتال. ولكنَّ الحسابَ بين المسلمين ويهود قريظة يجب أن يُصَفَّى، فقد أصبحوا شوكةً تُؤْلِمُ جنب الدولة، وظهر غدرهم وانكشف أمرهم، فما أن جاء أمر الله بقتالهم، حتى سار إليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، وحاصَرَهُم حتى جَهِدَهُم الحصار، وامتَلأت نفوسهم بالرُّعبِ فنزلوا على حكم الرسول، وأذْعَنوا لقضائه.

وحَكَّمَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فيهم سعداً بن معاذ الأوْسي – وكانوا حلفاءه في الجاهلية – فحَكَمَ سعدٌ بقتل رجالهم وتقسيم أموالهم وسَبْيِ ذراريهم ونسائهم، فقال الرسول الكريم: ((والذي نَفْسي بيده لقد رَضِيَ بحُكْمِكَ هذا اللهُ وملائكته والمؤمنون، وبه أُمِرْتُ)) ثُمَّ قُدّموا فضُرِبَتْ أعناقهم[2].

هكذا كانت نهاية بني قريظة، وهكذا لقوا جزاء عملهم وتآمرهم، فنزل بهم من البلاء غير ما أصاب بني النَّضير، ذلك أنَّ الرسول قتل رجالهم، وترك دماءهم عليهم كالغدير، وأجسامهم طعاماً للطير، جزاءً على فجورهم وعنادهم، أو كما يقول حسان بن ثابت:[3]

لَقد لَقِيَتْ قُريظةُ ما سَآها ... وما وَجَدَتْ لِذُلّ مِنْ نَصيرِ[4]
أصابَهُم بلاءٌ كانَ فيهِ ... سِوَى ما قَدْ أصابَ بني النَّضيرِ

---

1. السيرة: ق٢/٢٢١.
2. المغازي: ٣٧٣.
3. السيرة/ق٢/٢٧١.
4. ما سآها، يريد: ما ساءَها، فقلب، والعرب تفعل ذلك في بعض الأفعال، يقولون: رأى وراءَ، بمعنى واحد على جهة القلب.

غداةَ أتاهُمُ يهـوي إليهم رسولُ اللهِ كالقَمَـر المُنيـرِ
تَرَكْناهُم وما ظَفِروا بِشيءٍ دمـاؤُهُـم عليهـم كالغديرِ
فَهُمْ صَرْعى تحومُ الطَّير فيهم كَذاكَ يُدانُ ذو العَنَدِ الفَجورِ[1]

ويشير حسان إلى نقضهم العهد مع المسلمين، وإلى حصار المسلمين لحصنهم، فيقول:[2]

فما بَرِحوا بِنَقْضِ العَهْدِ حتى فلاهُمْ في بلادهم الرسولُ[3]
أحاطَ بِحِصْنِهِمْ منا صُفوفٌ لهُ مِنْ حَرّ وَقْعَتِهِمْ صَليلُ[4]

ويسجل حكم سعد بن معاذ فيهم، ويَنُصُّ على أنَّ حكمه فيهم جاء موافقـاً لحكـم الله تعـالى، فيقول:[5]

بِحُكْمِكَ في حَيَّيْ قريظة بالذي قضى الله فيهم ما قَضَيتَ على عمدِ
فوافَقَ حُكمَ الله حُكْمُكَ فيهمُ ولم تعفُ إذْ ذُكّرتَ ما كان من عهدِ

وتمَّ القضاء على بني قريظة كما تمَّ القضاء على بني قينقاع وبني النَّضير من قبلهم، ولكنَّ ذلـك لا يعني أن المسلمين قد أجهزوا على جميع اليهود، واجتثُّوا جذور شجرتهم، فقد ظلَّت خيبر قائمـة، وكانت أكبر معاقلهم، ومكان تجمُّعِ زعمائهم، ومركز تآمرهم، وكانت خيبر هذه أقـوى قبائـل اليهود جميعاً، وأكثرها مكراً، وأشدّها خُبثاً، وصاحبة الزعامة، والرأس المدبّرة لهم.

وحين برز عداء خيبر للدولة، وشارك بعضُ زعمائها في تحزيب الأحزاب ضد المسلمين، بعـث الرسول إلى بعض هؤلاء الزعماء مَنْ قتلهم، وأرجأ فتح خيبر – لأسباب سياسية – حتَّى تمَّ عقـد صلح الحديبية مع قريش، ليضمن به سكوتها وحيادها[6].

وعلم الرسول أن يهود خيبر يتأهَّبون للإغارة على المدينة وضَرْبِ الإسلام في مَعْقِلِه، فـرأى أنْ يُعاجِلَهُم بالمسير[7]، غير أنَّ مرجليوث – الذي لم يستطع إخفاء حقده على الإسلام – لم يطمئنَّ إلى هذا السبب، بل يذهب إلى أنَّ غزو خيبر، إنما كان للحصول على ما فيها من الغنائم، ويـرى أنَّ

---

1. العند: الخروج عن الحق.
2. السيرة/ق٢/٢٧٢.
3. فلاهم: قتلهم بالسيوف.
4. الصليل: الصوت.
5. السيرة/ق٢/٢٧٠.
6. تاريخ اليهود في بلاد العرب/١٥٨.
7. الواقدي/ المغازي/ ٣٩٥.

الإغارة شهوة سيطرت على نفس محمد، ثم يقول بعد ذلك: ((إنَّ استيلاء محمد على خيبر يُبَيّنُ لنا إلى أيّ حَدّ ٍ أصبح الإسلام خطراً يُهَدّدُ العالم))[1] ونحن نرى أن عداء خيبر للإسلام، ونشاط زعمائها في تَحْزيب الأحزاب على المسلمين، واستعدادهم لغزو المدينةِ، ثم وقوفهم في سبيل انتشار الدعوة، كل ذلك حمل الرسول الكريم على فَتْحِها وإخضاعِها لسلطان الإسلام.

ومهما يكن من أمرٍ، فإنَّ الرسول قد غزا خيبر وحاصرها حتى نَزَلَتْ على حُكْمِه، ثمَّ صالحَ أهلها على النّصف، وأبقاهُم في ديارهم يخضعون لسلطانه.

وكان القتال يومئذٍ عنيفاً حيث عانى المسلمون في فتحها وإخضاعها، واستشهد كثيرون منهم حول حصونها المنيعة. وبدأ القتال – أول ما بدأ – بمبارزة الفرسان، فخرج مرحب اليهود مُدَجَّجاً بسلاحه يدعو فرسان المسلمين للمبارزة. وكان فارساً قويَّ الشكيمة ، شديد البأس، فتصَدَّى كعب بن مالك الأنصاري لمبارزته، وهو يرتجز:[2]

قد عَلِمَتْ خيبرُ أنّي كعبُ	وأنَّني متى تُشَبُّ الحربُ
ماضٍ على الهَوْلِ جَريءٌ صُلْبُ	معي حُسامٌ كالعَقيقِ عَضْبُ[3]
بِكَفّ ماضٍ ليسَ فيهِ عَتْبُ	نَدُكُّكُم حتى يَذِلَّ الصَّعبُ

وكان لابُدَّ من أن تُفتَح خيبر، وأن تتهاوى حصانتها أمام قوة المسلمين الذين يُصِرُّونَ على نيل الشهادة، فاليهود إنما يُقاتلون عن متاع الدنيا الزائل، وعما أحرزوا من مزارع ونخيل. وهم لذلك يكرهون الموت، بل ويَفِرُّونَ منه كما يقول حسان:[4]

بِئْسَما قاتَلَتْ خَيابِرُ عَمَّا	جَمَعوا من مزارع ونَخيلِ[5]
كَرِهوا الموتَ فاسْتُبيحَ حِماهُمْ	وأَقَرُّوا فِعْلَ اللَّئيم الذَّليلِ
أمِنَ المَوْتِ يهرُبونَ، فإنَّ المو	تَ مَوْتُ الهُزالِ غيرُ جَميلِ

---

1. حسن إبراهيم/ تاريخ الإسلام السياسي/ ١/ ١٣٤.
2. الطبقات الكبرى/٢/١١٢، السيرة/ق٢/٣٣٣.
3. العقيق: شعاع البرق، شبه السيف به.
4. السيرة/ق٢/٣٤٧.
5. خيابر: جمع خيبر، يريد: أهل خيبر.

ولَئِنْ كان اليهود يفرُّونَ من الموت، لأنهم يدافعون عن عَرَضٍ دنيوي، فإنَّ المسلمين يَرَوْنَ في هـذا الموت مدحاً، لأنهم يصيبون به الشهادة التي يَرْجُونها، بل يسعون إليها كما يقول كعب بن مالك:[1]

ونَحنُ وردنــا خَيبراً وفُروضــهُ	بكلّ فتىً عَاري الأشاجعِ مِذْوَدِ[2]
يرى القَتْلَ مَدْحاً إن أصابَ شَهادَةً	مِنَ اللهِ يَرْجوها وفَوزاً بأحمَــدِ
يَذودُ ويحمي عن ذِمــار محمــدٍ	ويدفــعُ عنه باللسانِ وباليَدِ[3]
يُصَدّقُ بالأنبــاءِ بالغَيْبِ مُخلِصاً	يُريدُ بذاكَ الفَــوْزَ والعِزَّ في غَدِ

أما بعد فقد وقفنا على بعض الشعر الذي قيل في هذه الغزوات ، وعِشْنا مع الشعراء جهادهم في سبيل الله، وتصدّيهم لأعداء الإسلام من اليهود. ولكنَّ نشاط الشعراء في هذه الغزوات كـان محدوداً، فإن ما قالوه من شعرٍ لا يكادُ يرتفعُ إلى مستوى الأحداث إلا بِقَدَر.

وحتى نَستَطيع أن نُدرِكَ إلى أيّ مدىً وصل الشعر في تصوير أحداث هذه الغزوات، ينبغي لنـا أنْ نعرضَ جانباً من تصوير القرآن الكريم لبعض أحداثها، فذلك – فيما نظن – يُنيرُ أمامنا بعـض جوانب الطريق، وقد يُعينُنا من ثَمَّ على الحكم على حيوية الشعر أو جموده إزاء الأحداث.

وما كادت نار الصراع تَشِبُّ بين الرسول – صلى الله عليه وسلم - وبني قينقاع حتى دخـل القرآن مُعْتَرَكَ الصراع فبادر إلى تسجيل أحداثه، ففي شأن **عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبَيّ بن سلول** يقول: ((يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتّخِذوا اليهودَ والنَّصارى أوْلِياءَ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ، ومَنْ يَتَـوَلَّهُمْ منكم فإنَّهُ مِنْهُم)) أما عبادة فسارع إلى التبرؤ من حلفهم، وأما عبد الله فقد أقام عليه، فنزل فيـه: ((فَترى الذينَ في قلوبهم مرضٌ يُسارعونَ فيهم، يقولونَ نَخْشى أنْ تُصيبَنا دائرة، فعسى اللهُ أنْ يَأتِيَ بالفَتْحِ أو أمْرٍ مِنْ عندِهِ فيصبحوا على ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادِمين)).

وتناولت سورة الحشر تآمر بني النَّضير وكشفت أمرهم، وفضَحَتْ غدرهم ثم حملتـهم نتـائج موقفهم: ((هو الذي أخرَجَ الذين كفروا من أهلِ الكتاب من دِيارِهم لأوَّل الحَشْرِ مـا ظَنَنْـتُمْ أنْ يَخرُجوا، وظَنُّوا أنَّهُم مانِعَتُهُم حُصُونُهم من الله فآتاهم الله من حَيثُ لم يَحتَسِبوا وقَذَفَ في قلـوبهم الرُّعْب يُخرِبونَ بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين..)).

---

[1] . السيرة/ ق٢/ ٣٤٩.

[2] . الفروض: المواضع التي يشرب منها من الأنهار، والأشاجع: عروق ظاهر الكف. ومذود: مانع.

[3] . يذود: يمنع ويدفع. والذمار: ما تُحِبُّ حمايته.

وسَوَّغت عمل المسلمين بقطع نخيلهم وغيره من الأشجار، بأنَّ ذلك كان نقِمَةً من الله وليس فساداً: ((ولولا أنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيهُم الجَلاء لعذَّبهم في الدُّنيا ولهم في الآخرة عذابُ النار. ما قطَعْتُمْ من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله..)).

وأما أموالهم فإنما هي غنيمة للمسلمين: ((وما أفاءَ اللهُ على رسوله مِنْهُمْ فما أوْجَفْتُمْ عليه مِنْ خَيْلٍ ولا رِكابٍ ولكنَّ الله يُسَلّطُ رُسُلَه على من يَشاء... ما أفاءَ اللهُ على رسوله مِنْ أهْلِ القُرى فللَّه وللرَّسول ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السَّبيل...))

ولم يَكُنْ حالُ يهودِ بني النَّضير أحسَنَ من حالِ يهود بني قينقاع: ((كَمَثَلِ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ قريباً ذاقوا وَبالَ أمْرِهم ولَهُمْ عذابٌ أليمٌ)).

وما موقفُ المنافقين من اليهود إلا كموقف الشيطان من الإنسان: ((كمثلَ الشَّيْطان إذ قال للإنسانِ اكْفُرْ فلمَّا كَفَرَ قالَ إنّي بَريءٌ مِنْكَ إنّي أخافُ اللهَ رَبَّ العالمين. فكانَ عاقِبَتَهُما أنَّهُما في النَّار خالدين فيها وذلكَ جَزاءُ الظَّالمين)).

ونزل يهود بني قريظة على حكم الرسول الكريم، فأرسل إليهم **أبا لبابة بن عبد المنذر**، فلما قام إليه رجالهم وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وَجْههِ، رقَّ لهم، ولما قالوا له: أَتَنْزِلُ على حُكْمِ محمد؟ قال: نعم، وأشارَ بيدِهِ إلى حَلْقه، إنه الذبح[1]، فكشف الله أمره بقوله:[2] ((يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَخونوا اللهَ والرَّسولَ وتخونوا أماناتِكُمْ وأنْتُمْ تَعْلَمون))، ثم تاب عليه فأنزل فيه:[3] ((وآخرون اعْتَرَفوا بِذُنُوبِهم خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سَيّئاً عَسَى اللهُ أنْ يتوبَ عليهم إنَّ اللهَ غَفورٌ رحيمٌ)).

ولما نقض بنو قريظة عهدهم وانضمُّوا إلى مُعَسْكَرِ الأحْزاب، اشتدَّ الأمر على المسلمين فوصف القرآن حالهم بقوله:[4] ((إذ جاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ومن أسفلَ مِنْكُم وإذْ زاغَتِ الأبْصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ...)).

وحين حاصر رسول الله بني قريظة ونزلوا على حكمه قال تعالى فيهم:[5] ((وأنْزَلَ الذينَ ظَاهَروهُمْ من أهلِ الكِتابِ من صَياصيهِمْ وقَذَفَ في قُلوبِهِمُ الرُّعبَ فَريقاً تَقْتُلونَ وتَأْسِرونَ فريقاً)) يعني: قَتْلَ

---

[1] . السيرة/ق٢/٢٣٦.

[2] . سورة الأنفال/٢٧.

[3] . سورة التوبة/١٠٢.

[4] . سورة الأحزاب/١٠.

[5] . سورة الأحزاب/٢٦.

الرجالِ وسَبْيَ الذَّراري والنساء، ثم أوْرثَ المؤمنين خيبر بقوله:[1] ((وأورَثَكُمْ أرضــهم وديــارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها..)).

وهكذا واكبَ القرآن أحداث هذه الغزوات، وسجَّل انتصارات المسلمين وهــزائم اليهــود، وكشف عن تآمرهم على الإسلام ورسوله، فماذا فعل الشعر؟ وإذا ما رجعنا إلى هذه الغــزوات، وقمنا بإحصاء ما قيل فيها من الشعر، وجدناه لا يساوي بمجموعه ما قاله حــسان وحــده يــوم الرجيع، وليس هذا فحسب، بل لم يستطع أن يصور أحداثها تصويراً دقيقاً أيضاً، ففي غزوة بــني قينقاع نجد مقطوعة لحسان بن ثابت[2]، وأخرى لميمونة بنت عبد الله[3]، وقد شَكَّ ابــن هــشام في كلتيهما[4]. ونجد مقطوعتين أخريين في قَتْلِ كعب بن الأشرف، إحداها لحسان بن ثابت[5]، والثانيــة لكعب بن مالك[6].

وإذا ما تركنا بني قينقاع إلى يوم بني النَّضير، نجد أنَّ ما قيل فيه لم يــزد عــن أربــع قــصائد ومقطوعات، أولها لعلي بن أبي طالب[7]، شكَّ ابن هشام في صحة نسبتها إليــه دون أن يــشُكَّ في أصالتها، وقصيدة ومقطوعة لكعب بن مالك الأنصاري[8]، ومقطوعة لخوات بن جبير الأنصاري[9].

وحَظِيَت غزوة بني قريظة بستِّ مقطوعات، منها خمس لحسان[10]، والسادسة لثابت بن قــيس بن الشماس[11]، أما كعب وابن رواحة، فكأنهما آثرا الصمت، ولم تستطع أحداث قريظة أن تحــلّ من عقدة لسانيهما.

---

[1]. سورة الأحزاب/٢٧.

[2]. السيرة/ق٢/٥٣.

[3]. نفسه/٥٣.

[4]. لقد وجدنا الواقدي يوردُ مقطوعة حسان بإسناد وثيق – المغازي/١٨٦.

[5]. السيرة/ق٢/٥٧.

[6]. نفسه/٥٧.

[7]. السيرة/ق٢/١٩٧.

[8]. نفسه/١٩٩ – ٢٠٠.

[9]. نفسه/٢٠١.

[10]. نفسه/٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢.

[11]. تاريخ الطبري/٢/٥٩١.

ومما يشدّ النظر، هو قلة ما وجدنا من شعر في غزوة خيبر على ما صاحبها من القتال العنيف، والمعاناة الشديدة وآلام الجوع والعطش، فقد كابد المسلمون فيها من الشدة والمشقة ما لم يكابدوه في كل جهادهم العنيف مع اليهود. وبالرغم من هذا كله، فقد قلَّ فيها الشعر، فلم يَزِدْ على أربع أراجيز[1] وثلاث مقطوعات[2]، وبقي الشعر عاجزاً عن نَقْل أحداثها نقلاً دقيقاً، وظل متَخَلّفاً عن الوفاء بواجبه.

أما **عبد الله بن رواحة** وسائر شعراء المهاجرين، فظلوا في منأى عن مواكبة الأحداث في هذه الغزوات جميعاً، فأين وقف الشعر من الصراع العقائدي الذي احتدم بين المسلمين واليهود؟ فبالرغم من أن جوَّ المدينة السياسي كان مشحوناً بتيارات الجدل والنقاش، وبالرغم من مكابرة اليهود وطعنهم في الدين الجديد ونَبِيّه، وبالرغم من إثارة الشكوك والدسّ قصد البلبلة والتحكم، بالرغم من ذلك كله، فقد وقف الشعر صامتاً، ولم يُساهم في شيء من هذا ألبتة.

ثم أين الشعر من تآمر اليهود مع المنافقين، وجبن المنافقين وانخذالهم عن مساعدتهم؟ وأين وقف هذا الشعر من حصار اليهود وإجلائهم، وقَتل بني قريظة؟ وأين هو من الغنائم الوفيرة، ومن حادث الشاة المسمومة وغيرها يوم خيبر؟

لقد تخلَّف الشعر في ذلك كله، فلم يستطع شعراء المسلمين أنْ يُفيدوا من معاني الآيات القرآنية التي نزلت في شأن اليهود إفادة ذات خطر، وكل ما ورد في أشعارهم كان معانيَ عامةً شائعةً سبق أنْ ردَّدوها في كثير من ظروف القول كالغدر ونقض العهد والشجاعة والإيمان بقضاء الله ونصرة النبي، وتفريط اليهود في كتابهم، إلى غيرها من معانٍ محدودة. ونظنُّ أنَّ قلة الشعر في هذه الغزوات، إنما ترجع – أوَّلَ ما ترجع – إلى الوضع السياسي لليهود، فهم لم يكونوا قوة يمكن أنْ يُعْتَدَّ بها ، ويُحْسَبَ حسابها أمام الرسول. ومن هنا، لم يكترث شعراء المسلمين بهم اكتراثهم بقريش وبشعراء قريش، واستهانوا بأمرهم، ومن ثَمَّ أقَلُّوا القول فيهم، وصَرفوا أكثر جُهدهم إلى قريش، فقد كان متركّزاً في أذهانهم أنَّ سقوطَ مكة إنما يمنعه سقوط جميع أطراف الصراع، وهذا ما حصل بالفعل.

الغزوات الدفاعية:

---

[1] . السيرة/ق٢/٣٢٨، ٣٣٣ – خزانة الأدب/٢/٥٢٤ – تاريخ الطبري/٣/١١، ١٣.

[2] . السيرة/ق٢/٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩.

وتمثل هذه الغزوات مواقف المسلمين في الدفاع عن الإسلام، والخطط التي أبدعوها لحمايته مما يُكاد له، والتضحيات التي بذلوها في سبيل نشر دعوته. وكانت غزوة أحد أول هذه المواقف، فقد سمع الرسول الكريم أن قريشاً وأتباعها نزلوا أحُداً، فخرج للقائِهم مسرعاً، وسار حتى نزل بالشّعب من الجبل.

وهناك تعبَّأَ الرسول – صلى الله عليه وسلم - للحرب، واشتبك مع المشركين في قتال عنيف. وفي الوقت الذي تشابكت فيه السيوف والرماح، وتقاذف القوم فيه بالنبال، تقاذفوا بقوافي الشعر أيضاً. فقد كان الشعراء يقفون في صفوف المحاربين أو من ورائهم، يُسجّلون الأحداث وينشرون نتائج القتال، ويبكون القتلى.

ولئن هُزم المسلمون في يوم أحد، فإن الشعراء قد رفضوا الهزيمة فانطلقوا يبعثون الأمل في نفوس المسلمين، ويرفعون من معنوياتهم، فيفخرون بانتصارهم في يوم بدر، ويذكرون المسلمين بوعد الله بالنصر، ولن يخلف الله وعده. وليس هذا فحسب، بل راحوا يبحثون عن مواطن الضعف عند الخصوم، فيتّخذون منها مادة أشعارهم، ويُصْلونهم ناراً حامية من الهجاء.

استعرض حسان بن ثابت نتيجة المعركة، فوجد أنَّ المسلمين قد حملوا على أصحاب اللواء من المشركين، فقتلوهم. وكان صؤاب – غلام لبني أبي طلحة حبشيٌّ – آخر من أخذ اللواء من المشركين فقاتل به حتى قُتِل. وحَمْلُ العبد للواء فيه منقصةٌ للسادة، وعلى هذا فقد بادر حسان إلى تعيير قريش بذلك فقال:[1]

فَخَرْتُمْ باللواءِ وشَرُّ فخرٍ	لــواءٌ حين رُدَّ إلى صؤابِ
جَعَلْتم فخرَكم فيهِ بعبدٍ	وألأَم مَــنْ يَطا عَفَرَ التراب[2]
ظَنَنْتُمْ والسَّفيهُ لهُ ظُنونٌ	وما إن ذاكَ من أمرِ الصوابِ
بأنَّ جِلادنا يومَ الْتَقينا	بمكــةَ بَيْعُكُم حُمْرَ العِيابِ[3]

هُزِمَ المسلمون إذن، وأصاب فيهم العدوُّ، واستطاع **عتبة بن أبي وقاص** أن يَخْلَصَ إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - وأنْ يرميه بسهمٍ، فكُسِرَت رباعيَّتُه[4]، وشُجَّ في وجهه، فجعل الدم يسيل

---

[1] . تاريخ الطبري/٢/٥١٣ – ٥١٤.

[2] . عفر التراب: الذي لونه بين الحمرة والغبرة.

[3] . العياب: جمع عيبة وهي التي يضع الرجل فيها متاعه.

[4] . الرباعية: السن التي بين الثنية والناب.

يسيل على وجهه الطاهر، وجعل يمسح الدم وهو يقـــول: ((**كيف يُفلحُ قومٌ خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربّهم**))[1]. وحزَّ ذلك في نفس حسان، وعزَّ عليه أن يُصاب النبي – عليه السلام -، غـــير أنَّه لم يجد ما يُعبّر به عن مشاعره سوى سلاح هجائه المُصمي، فصوَّبه إلى عُتبة بقوله:[2]

بَسطتَ يمينـــاً للنبي بِرَميـــهِ فأدميتَ فـــاهُ قُطّعت بالبـــوارقِ[3]

فهَلاّ خشيتَ اللهَ والمترل الذي تصيرُ إليه بعـــد إحـــدى الصَّفائقِ[4]

لقد كان خِزياً في الحياة لقومه وفي البعْثِ بعد الموتِ إحدى العوالق[5]

والمشرك لا يخشى الله ولا يُعِدُّ للمترل الذي يصير إليه، بل هو على العكس من ذلك، يُحاربُ المؤمنين الصادقين، ويعارض الأنبياء المرسلين. فهذا ((**أُبَـيُّ بـن خلـف**)) – أحد رؤوس الكفر في قريش – كان يلقى رسول الله بمكة فيقول: يا محمد، **إن عندي العَوْذَ – فرساً – أعلِفُهُ كل يوم فرقـاً من ذُرَة أقتلك عليه**. فيقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: ((**بل أنـا أقتلك إن شـاء الله**))، فلما كان يوم أحد، وأسند رسول الله – صلى الله عليه وسلم - في الشِعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أي محمد، لا نجوتُ إن نَجَوتَ، فتناول الرسول الكريم حَرْبَته ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدحرج منها عن فرسه مراراً، فلما رجع إلى قريش – وقد خدشه في عنقه خَدْشاً غير كبير، فاحتقن الدم – قـــال: قتلني والله محمد، فمات وهم قافلون به إلى مكة[6]، فتمثل حسان بن ثابت هذا الحادث فقال:[7]

ألا مـــن مُبلغٌ عني أُبَيَّاً لقد أُلْقيتَ في سُحْق السعيرِ

تَمَنّيكَ الأمـــانِي من بعيدٍ وقولُ الكُفرِ يرجعُ في غُرورِ

فقد لاقتكَ طعنةُ ذي حفاظٍ كريمِ البيتِ ليس بذي فجورِ[8]

وحين أحسَّت قريش بنشوة الظَّفر، انطلقت ألسنة شعرائهم، فراحوا يملأون الـــدنيا ضـــجيجاً وعجيجاً. وتصدَّرَ **هبيرة بن أبي وهبٍ المخزومي** تسجيل هذا النصر فَعَلا صوته بالفخر، ومضى يـــصف

---

1. المغازي/ ٢٤١ – ٢٤٢.
2. ديوانه/ ٣٤٨.
3. البوازق: السيوف.
4. الصفائق: صوارف الخطوب الخطوب وحوادثها، الواحدة: صفيقة.
5. العوالق: ما علقه من الشر.
6. تاريخ الطبري/٢/٥١٨.
7. السيرة/ ق٢/٨٥.
8. الحفاظ: الغضب في الحرب.

شجاعة قومه، ويُشير إلى استعانتهم بكنانة وغيرها، ثم وصف أحداث المعركة، فأعلنَ انتصار قومه على المسلمين وعَيَّرَهُم بالجبن والفزع. وتصدَّى له كعب بن مالك، غير أنه لم يجد ما يردُّ به على خصمه، ولما أعْيَتْهُ الحُجَّةُ فزع إلى الماضي يستوحيه الأفكار، ثم انطلق يُعيّرُ قريشاً بهزيمة بدر فقال:[1]

فلما تَلاقَينا ودارَتْ بنا الرَّحى — فليس لأمْرٍ حَمَّهُ الله مَدفَعُ[2]
ضَرَبْناهُم حتى تَرَكنا سَراتَهُم — كأنَّهُم بالقــاع خُشْبٌ مُصَرَّعُ
وراحوا سِراعاً مُوجفينَ كأنَّهُم — جَهامٌ هَراقَتْ ماءَه الريحُ مُقْلِعُ[3]
ورُحْنا وأُخْــرانا بِطاءٌ كأنَّنا — أسودٌ على لحــمٍ ببيشَةَ ظُلَّعُ[4]

وفرغ الشعراء من أمر القتال، وسكتوا عن الردّ على شعراء خصومهم إلى حين، ثم خَلَــوا إلى رجالهم، وراحوا يتفَقَّدون القتلى – وهم يومئذٍ كثير – فانقطعوا إلى بكــائهم، والتحَــسُّرِ علــى فقدهم.

وكان حمزة بن عبد المطلب بطلاً مغواراً، أكثر القتلَ في قريش يوم بدر، ونال منهم في يوم أحُد، ولكنَّ حَربةَ ((وحشيّ)) لم تكن لِتُمْهِلَهُ، فقد انطلقت من بين يَدَي صاحبها فوَقَعَتْ في ثُنَّتِــهِ حــتى خَرَجَتْ من بين رجليه[5] فَخَرَّ صريعاً على أرض المعركة. وقد بعث مقتله الأسى في قلوب الشعراء فَبَكُوهُ وأكثروا. بكاه حسان بن ثابت[6] وبَكاه عبد الله ابن رواحة[7] وبَكَتْهُ أخته صفيَّة[8] وبكاه كعب بن مالك فأكثر من بكائِهِ له[9]، من ذلك قوله يخاطب صفية أختَ حمزة رضي الله عنهما:[10]

صَفيَّةُ قُــومي ولا تَعْجَزي — وبَكّــي النساءَ على حمزةِ

---

1. السيرة/ق٢/١٣٤.
2. حَمَّهُ الله: قَدَّرَهُ.
3. موجفين: مسرعين. والجهام : السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.
4. بيشة: موضع تُنْسَبُ إليه الأسود.
5. تاريخ الطبري/٢/٥١٧. والثنة: بين أسفل البطن إلى العانة.
6. السيرة/ق٢/١٥١، ١٥٥.
7. نفسه/١٦٢.
8. نفسه/١٦٧.
9. السيرة/ق٢/١٣٨، ١٥٧.
10. نفسه/١٥٨.

ولا تَسْأمي أنْ تُطيلي البُكا على أسَدِ اللهِ في الهِــزَّةِ[1]
فقد كــانَ عِزّاً لأيْتامِنا وليثَ الملاحِــمِ في البِزَّةِ[2]
يُريدُ بذاكَ رِضــا أحمــدٍ ورِضْوانَ ذي العَرْشِ والعِزَّةِ

وشاركت النساء الشَّواعر في بكاء الشهداء، وهذا أمرٌ طبيعي فعاطفة المرأة تَتَّقِدُ أكثر ما تَتَّقِــدُ في موطن الحُزنِ والشَّجا. وهي لا تُحْسِنُ ضَبْطَ عواطفها وإنما تنفجرُ هذه العواطف بِرَنَّةٍ عميقةٍ من الألم، وبخاصة إذا كان الشهيد زوجاً، فهذه ((نعمُ)) تهيب بعينها أن تجود بفيضٍ من الدمع على زوجها **شَمَّاس بن عثمان** فتقول:[3]

يا عَيْنُ جودي بفَيضٍ غيرِ إبْساسِ علــى كريــمٍ مــن الفِتْيانِ أباسِ[4]
صَعْبِ البّديهــةِ مَيْمــونٍ نَقيبَتُهُ حَمَّــالِ ألْــويةٍ رَكَّــابِ أفْراسِ[5]
أقولُ لمــا أتى النَّاعي لــه جزَعاً أودى الجَوادُ وأودى المُطْعِمُ الكاسي
وقُلْتُ لمــا خَلَتْ منه مَجَالِسُهُ لا يُبْعِد اللهُ عَنــا قُــربَ شَمَّــاسِ

ونزعت هزيمة أحُد هيبة الدولة من نفوس خصومها، وطمع بها الأعراب المحيطــونَ بالمدينــة فَجَعَلــوا يكيدون للدولة ويحاولون النَّيْلَ مِنْ مكانتها. فما كادَتْ دماء شهداء المسلمين في يوم أحُد تَجِفُّ، حتى قَدِمَ على رسول الله رَهْطٌ من عَضَلٍ والقَارَةَ[6] فقالوا: يا رسول الله، إنَّ فينا إسلاماً فابعــث معنــا نفــراً مــن أصحابك يُفَقّهوننا في الدين، ويُقْرئوننا القرآن، ويُعَلّموننا شرائع الإسلام، فاستجاب لهم رسول الله وبعث نفَراً ستةً من أصحابه هم: **مَرْثَد بن أبي مرثَد الغنويّ، وخالد بن البكير الليثي وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخُبَيب بن عديّ، وزيد بن الدُّثُنَّة، وعبد الله بن طارق**.

خرج أصحاب الرسول الكريم مع القوم – وكانوا بإمرة مرثد – حتى إذا كانوا على الرجيع[7]، غَدَروا بهم فاستَصرخوا عليهم هذيلاً. فلم يُرَعْ أصحاب مرثد وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قــد

1. الهزة:الاهتزاز والاختلاط في الحرب.
2. الملاحم: جمع ملحمة وهي الحرب التي يكثر القتل فيها. البِزَّة: السلاح.
3. السيرة/ق٢/١٦٨.
4. الإبساس: مسح ضرع الناقة لتدرّ وتقول لها: بس بس. والاباس: الشديد الذي يغلب غيره.
5. ميمون النقيبة: مسعود الفعال.
6. هم من الهون بن خزيمة بن مدركة.
7. ماء لهذيل بناحية الحجاز.

قد غَشَوْهُم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم، فقال القوم: إنّا والله ما نُريدُ قتلكم، ولكنْ نُريدُ أن نُصيبَ بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهدُ الله وميثاقُه أنْ لا نقتلكم[1].

فأما مرثد وخالد وعاصم فلم يقبلوا من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً، فقاتلوا فقُتِلوا. وكان عاصم قد هبَّ لقتال القوم وهو يرتجز:[2]

أبو سُليمانَ وريشُ المُقْعَدِ	وضالَةٌ مِثْلُ الجَحيمِ المُوْقَدِ[3]
إذا النَّواجي افْتُرِشَتْ لم أُرْعدِ	ومُجْنَأٍ من جِلْدِ ثَوْرٍ أجردِ[4]

ومؤمنٌ بما على محمدٍ

وأما زيد وخبيب وعبد الله فقد استأسروا، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم، غير أنَّ عبد الله أخذ سيفه واستأخر عن القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه. وباعوا خُبيباً وزيداً من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة فقتلتهما قريش[5].

حقاً إن هذا لَغَدْرٌ رخيصٌ، وهو غدر يحرّكُ أجمد المشاعر، ويثيرُ أرذلَ العواطف، فكيف بعواطف الشعراء المرهفة؟

ثار الشعراء أعنف ثورة، وغضبوا أشدَّ الغضب، فَخَلَوْا إلى قَوافيهم يُودِعونَها عواطف الحزن والألم مقرونة بالتهديد والوَعيد. فهذا حسَّان بن ثابت يَفْزَعُ إلى شاعريته فيَسْتَوْحيها عبارات الحزن والأسى على مَقْتَل مرثد وعاصم ومعاني التنديد بِغَدرِ بني لحيان فيقول:[6]

لَحَى اللهُ لِحياناً فلَيْسَت دِماؤهُم	لنا مِنْ قَتيليْ غَدْرَةٍ بوفاءِ[7]
هُمُ قَتَلوا يومَ الرَّجيعِ ابنَ حُرَّةٍ	أخا ثِقَةٍ في وُدّهِ وصفاءِ
فلو قُتِلوا يومَ الرجيعِ بأمْرِهِم	بذي الدَّبْرِ ما كانوا له بكفاءِ[8]

---

1. تاريخ الطبري ٢/ ٥٣٨ – ٥٣٩.
2. السيرة/ق٢/١٧٠، المغازي/٣٤٧.
3. المقعد: رجل كان يريش النبل، والضالة: شجرة تصنع منها القِسيُّ والسهام.
4. النواجي: الإبل السريعة. والمجنأ: الترس لا حديد فيه. والأجرد: الأملس.
5. تاريخ الطبري/٢/٥٣٩.
6. معجم ما استعجم ٢/٦٤٢ – ٦٤٣.
7. لحى: أضعف وبالغ في أخذهم، وهو قولهم: لحوت العود: إذا قشرته.
8. يريد بذي الدبر: عاصماً، وكان عاصم قد أعطى الله عهداً ألاّ يمسَّه مشرك أبداً، ولا يمسّ مشركاً أبداً، تنجُّساً منه، فلما قتل أرادت هذيل رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شُهَيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد: لئن قَدَرَتْ على رأس عاصم لتَشْرَبَن في قحفه الخمر فمنعته الدبر، فلما حالت بينهم وبينه، قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه فنأخذه، فبعث

قَتيلٌ حَمَتْهُ الدَّبْـــرُ بين بيوهِم   لدى أهـــلِ كُفْرٍ ظاهرٍ وجَفاءِ

وكانت هُذيل سألوا رسول الله حين أرادوا الإسلام أن يُحِلَّ لهم الزنا، فلما غدروا بأصـــحاب الرَّجيع، انطلق حسان بن ثابت يُعَيّرهم بالفاحشة، ويجرّدهم من الدعوة إلى المكارم، وذلك قوله:[1]

سالت هُذَيـــلٌ رسولَ الله فاحشةً   ضَلَّت هُذيلٌ بما سالت ولم تُصِبِ[2]

سالوا رسولَهُمُ مـــا ليسَ مُعطيَهُم   حتى المماتِ، وكانوا سُبَّة العربِ

ولنْ تـــرى لِهُذيـــلٍ داعيـــاً أبداً   يدعو لمكـــرمةٍ عن منزلِ الحَرَبِ[3]

لقد أرادوا خِلالَ الفُحْشِ وَيْحَهُمُ   وأنْ يُحِلُّوا حراماً كانَ في الكُتُبِ

ولا تكادُ تغربُ شمس هذه المحنة حتى تطلع على المدينة شمسُ محنةٍ أشدّ، فقد قدم أبو **براء عامر بن مالك بن جعفر** ملاعب الأسنة على رسول الله، فَعَرَضَ عليه الرسول الكريم دعوة الإسلام ودعاه إلى حملها، ولكنَّه لم يُسْلِم ولم يبعد عن الإسلام. وطلب من الرسول أن يبعث رجالاً من أصحابه إلى أهل نجد يدعوهم إلى دين الله على أن يكونوا في جواره[4].

وبعث الرسول الكريم **المنذر بن عمرو الأنصاري** في سبعين من أصحابه من خيار المسلمين، وســـار الرجال حتى نزلوا بئر معونة[5] ومن هناك، بعَثوا ((**حرام بن طحان**)) بكتاب رسول الله إلى عامر بـــن الطفيل، فعدا على ((حرام)) فقتله ثم استصرخ بني عامر على المسلمين، غير أنَّهم أبوا أن يُخْفِـــروا ذمَّة أبي براء فاسْتَصْرَخ عليهم قبائل من بني سليم – عَصِيَّةَ ورعل وذكوان – فأجابوه ثم خرجـــوا حتى غَشُوا المسلمين فأحاطوا بهم في رحالهم. وهبَّ المسلمون للدفاع عن أنفسهم، وقاتلوا حـــتى قتلوا من عند آخرهم[6].

فبعث الله الوادي، فاحتمل عاصماً فذهب به، فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منعته: عجباً لحفظ الله العبـــد المؤمن – تاريخ الطبري/٢/٥٣٩.

[1] . السيرة/ق٢/١٨٠.

[2] . سالت: يريد سألت، وقال السهيلي: بل هي لغة بدليل قولهم تسايل القول.

[3] . الحرب: السلب، يقال: حرب الرجل: إذا سلب.

[4] . المغازي/٣٣٧.

[5] . وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم.

[6] . تاريخ الطبري/٢/٥٤٦.

وحين علم الرسول بقتل أصحابه قال: ((**هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوّفاً**))، فلما بلغ ذلك أبو براء شَقَّ عليه أن يخفر عامر ذَمَّتَه، وشَقَّ عليه أيضاً ما أصاب أصحاب الرسـول بـسببه وجواره[1].

وكان طبيعياً والحالة هذه، أن يحتجَّ الشعراء على إخفار الذّمَّة، وأن يستنكروا الغدر والعدوان، ولم يجدوا وسيلة للتنفيس عن مشاعرهم سوى الشعر، فلجأ إليه حسان وانتقى عبارات التحـريض على عامر بن الطفيل ثم بعث بها إلى بني أبي براء يقول:[2]

بَني أمّ البنينَ ألم يَرُعْكُـم ... وأنتم مـن ذَوائِبِ أهل نَجْدِ[3]

تَهَكُّمُ عامـرٍ بأبي بـراءٍ ... لِيُخْفِرَهُ ومـا خَطَـأ كَعَمْدِ

ألا أبلِغْ ربيعةَ ذا المساعي ... فما أحدثتَ في الحَدَثان بَعدي[4]

أبوكَ أبو الحروبِ أبو براء ... وخالُكَ ماجدٌ حَكَمُ بنُ سَعْدِ

أما كعب بن مالك فيعمد إلى عامر بن الطفيل فيوسعه هجاء، ويجرده من الأفعال الحسنة، بـل ومن العقل ويتهمه بإخفار الذمة، ثم يصمه بالغدر الذي هو شرّ داء، أو كما يقول:[5]

أعامرُ عامرُ السَّوْءاتِ قِدْماً ... فلا بالعقل فُزتَ ولا السَّناءِ

أأخْفرتَ النَّبيَّ وكنتَ قِدْماً ... إلى السوءاتِ تجري بالعراءِ

فلستَ كجار جارِ أبي دُوادٍ ... ولا الأسَدِيّ جارِ أبي العَلاءِ

ولكـنْ عـارُكُم داءٌ قَديمٌ ... وداءُ الغَدْرِ فاعلَمْ شَرُّ داءِ

فلما بلغ ربيعة بن عامر بن أبي البراء ما قال حسان وكعب، حمل على عامر بن الطفيل فطعنـه فوقع في فخذِه، فأخطأ مقتله[6].

---

1. السيرة/ق٢/١٨٦.
2. ديوانه ١٦٣/ تاريخ الطبري/ ٢/٥٤٨.
3. الذوائب: الأعالي.
4. المساعي: السعي في طلب المجد والمكارم.
5. تاريخ الطبري/٢/٥٤٩.
6. تاريخ الطبري/٢/٥٤٩.

ولما فرغ شعراء المسلمين من التحريض على عامر، أراد حسان أنْ يطفيء نار الحزن المشتعلة في صدره، فاتجه إلى رثاء القتلى، واستغاث بعينه أن تستهلَّ بدمع غير نزر على قتل المنذر وقتل غـــيره من أصحاب الرسول فقال:[1]

على قَتلى مَعـــونَةَ فاسْتَهِلّي بدمع العينِ سَحًّا غير نَزْرِ[2]

على خيل الرسول غداة لاقَوْا منايـــاهـــم ولاقَتْهُم بقَدرِ

أَصابَهُم الفَناءُ بحَبْـــلِ قَـــومٍ تُخوّنَ عَقْدُ حَبْلِهِم بغَدْرِ[3]

فيـــا لَهفي لمُنْذرٍ إذْ تَولَّـــى وأَعْنقَ فـــي منيّته بِصَبْرِ[4]

ويمضي الشعر مع هذه الغزوات الدفاعية ويُسجّلُ أحداثها، وينقل أخبارها ويتولّى الدفاع عن الإسلام، ويتصدَّى لهجاء خصومه، وينال من أعدائه، ثم يقف على الـــشهداء فيبكـــيهم ويـــشيد بفعالهم.

ونقف بعد هذا السير، عند غزوة من أكثر الغزوات الدفاعية غزارة في الإنتاج الأدبي بعد غزوة أحد، تلك هي غزوة الأحزاب، لنقف على جهود الشعراء ونحصي عليهم تلـــك الأنفـــاس الـــتي تنفَّسوا بها للدفاع عن عقيدتهم، ونَتَبَيَّنُ – من ثَمَّ – مواقفهم من أحداثها.

أما عن الرسول، فإنه قد علم بِمسَيْر الأحزاب إلى مدينته، فكان لابُدَّ من أن يبحث عن خطـــة عسكرية تُمَكّنه من تجَنُّبِ الخطر. وحين وَقَفَ على آراءِ صحابته، تَفَتَّق ذهن سلمان الفارسي عـــن حفرِ خندقٍ حول المدينة، حتى لا يتمكَّن الأحزاب من دخولها، فقبل الرسول الفكرة، وقام بضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، وأبطأ عنه في العمل رجال من المنافقين وجعلوا يتسلَّلون إلى أهليهم بغير علمٍ منه.

وما أنْ نزل الأحزاب حول المدينة، حتى كان الرسول قد فَرغَ من حفر الخنـــدق، فخـــرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، وجعل الخندق بينه وبين أعدائه.

ونقَضَت قريظة عهدها، ونجم النفاق من بعض المنافقين، وأتى العدوُّ من فوق المـــسلمين ومـــن أسفل منهم، فاشتدَّ الكَرْبُ وعَظُمَ البلاء، حتى بلغت القلوب الحناجر، وظنَّ المؤمنون باللهِ كلَّ ظنّ

---

[1]. ديوانه/٢٤٤.

[2]. استهلي: أسيلي دمعك. والسح: الصبّ. والنزر: القليل.

[3]. تُخون: تُنَقّص (بالبناء للمجهول فيهما)

[4]. أعنق: أسرع، والعنق: ضرب من السير السريع.

، ورأى الرسول ما آلَ إليه حال المؤمنين، فهَمَّ بِعَقدِ الصلح مع غَطَفان على ثُلُثِ ثمار المدينة ثم عَدَل[1].

وأقام المسلمون وعدوُّهم يُحاصِرُهُم، ولم يكن بينهم قتال، إلا أنَّ فوارسَ من قريشٍ خرجوا على خيلهم يريدون اقتحام الخندق، فتصدَّى لهم علي بن أبي طالب في نَفَرٍ من المسلمين، فحالوا بينهم وبين اقتحامه[2].

ودعا **عمرو بن عبد ودٍّ العامري** فرسان المسلمين للمبارزة، فخرج إليه علي ابن أبي طالب فقتله، فخرجت خيلُ فرسان قريش منهزمة، وفرَّ **عكرمة بن أبي جهل** فيمن فَرَّ من فرسان قريش يومئذٍ، وألقى رمحه مُتَخَفّفاً، فقام حسان بن ثابت يُعيّرُ عكرمة بفراره فقال:[3]

فرَّ وألقى لنا رُمحَهُ لعلَّكَ عكرمَ لم تَفعَلِ
ووَلَّيتَ تعدو كعَدْوِ الظَّليم ما إنْ تَجورُ عن المَعْدَلِ[4]
ولم تَلْقَ ظَهْرَكَ مُسْتَأنِساً كأنَّ قفاكَ قفا فُرْعُلِ[5]

وكفى الله المؤمنين القتال، فَهيَّأَ **نُعيماً بن مسعود الغطفاني** – وكان قد أسلم حديثاً – فأوقع بين الأحزاب واليهود، فدَبَّت الفُرْقة بين قوى المشركين، ثمَّ خذَّل بين الأحزاب وبعث عليهم الريح في ليالٍ شاتيةٍ باردةٍ، فجعلت تكفأ قدورهم، وتَطرَحُ أبنيتَهُم، فاضطروا – والحالة هذه – إلى الرحيل عن المدينة خائبين خزايا، فلم يَنالوا هناك خيراً، وإنما أوشكت حالَتُهم على الدَّمار كما يُحدّثنا كعب بن مالك الذي شهد المعركة يومئذٍ حيث يقول:[6]

ويعلمُ أهلُ مكةَ حين ساروا وأحزابٌ أتَوْا مُتَحَزّبينا
بأنَّ الله ليس له شريكٌ وأنَّ الله مولى المؤمنينا
كما قد رَدَّكُم فلاًّ شريداً بغَيْظِكُم خزايا خائبينا[7]
خزايا لَمْ تنالوا ثَمَّ خيراً وكِدْتُمْ أنْ تكونوا دامرينا[1]

---

1. تاريخ الطبري/٢/٥٧٣.
2. نفسه/٥٧٤.
3. السيرة/ ق٢/٢٢٦.
4. الظليم: ذكر النَّعام.
5. الفرعل: صغير الضباع.
6. السيرة: ق٢/٢٥٦.
7. الفلُّ: القوم المهزومين.

بريحٍ عاصفٍ هَبَّتْ عليكم فكُنْتُمْ تحتَهـا مُتَكَمّهينـا[2]

ولئن غاب عبد الله بن رواحة عن الأحداث، وصمت عن الحديث، فقد كان في ساحة المعركة مَنْ يسدُّ الفراغ، ويُغطّي أنباء القتال. كان هناك حسان بن ثابت الذي فَزِعَ إلى الله يشكوه ظُلـمَ الظالمين الذين حَزَّبوا الأحزاب على الرسول:[3]

واشكُ الهمومَ إلى الإله وما ترى من مَعْشَر ظلموا الرسولَ غِضاب

ساروا بأجمعهـم إليه وألَّبـوا أهل القـرى وبواديَ الأعراب[4]

والذين وردوا المدينة، وارتَجْوا أن يقتلوا الرسول، ويعودوا بالأسلاب، ولكن عناية الله تـدَخَّلَت فحَسَمَت الأمر، وردَّتْهُم بغيظهم، وكفى الله المؤمنين القتال كما يقول حسان:[5]

حتى إذا وَرَدوا المدينة وارتَجَـوْا قَتْلَ الرسول ومَغنَم الأسلابِ

وغَدَوْا علينا قادريـن بأيدِهِمْ رُدُّوا بغيظهِم على الأعقابِ[6]

بِهُبوبِ مُعْصِفةٍ تُفَرّقُ جمعَهـم وجُنودِ ربّكَ سيّدِ الأربابِ[7]

فكفـى الإله المؤمنينَ قتالَهم وأثابَهُم في الأجْرِ خيرَ ثوابِ

مِنْ بَعد ما قَنَطوا فَفَرَّقَ جَمْعهَم تَنْزيلُ نَصْرِ مليكِنا الوهَّابِ

وأقَـرَّ عينَ مُحَمَّـدٍ وصِحابهِ وأذَلَّ كُلَّ مُكَذّبٍ مُرْتابِ

وحين كان الأحزاب يحاصرون المدينة، خرج **سعد بن معاذ** سيد الأوس ليلحَـقَ برسـول الله – وكان قد تأخَّر عنه – فمَرَّ وعليه درعٌ قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربته يُـسرع بهـا ويقول:[8]

لَبّثْ قليلاً يَشْهدِ الهَيجا حَمل لا بأسَ بالموت إذا حانَ الأجَلْ

---

1. دامرين: هالكين.
2. المتكمه: الأعمى الذي لا يبصر.
3. السيرة/ق٢/٢٥٨.
4. ألَّبوا: جمَّعوا.
5. السيرة/ق٢/٢٥٨.
6. الأيْد: القوة.
7. المعصفة: الريح الشديد.
8. تاريخ الطبري/٢/٥٧٥.

فرُميَ بسهمٍ فقطع منه الأكحل[1]، فمات متأثراً من جراحه هذه. وعزَّ فراقه على حسان بن ثابت وغيره، فقام يبكيه ويبكي من استشهد معه، كما بكى حمزة في يوم أحد. ولكنه في هذه المرَّة يُبرزُ بلاء الأنصار ويبيّنُ ما يُقَدّمون من تضحياتٍ في سبيل الله فيقول:[2]

تذكَّرتُ عصْراً قد مضى فتهافَتَتْ — بناتُ الحَشى وانْهَلَّ مني المدامعُ[3]

صبابةَ وجدٍ ذكَّرَتْني أحبَّةً — وقتلى مضى فيها طُفيلٌ ورافعُ

وسعدٌ فأضْحوا في الجِنان وأوْحَشَتْ — منازلهم فالأرضُ منهم بَلاقِعُ[4]

وَفَوْا يومَ بدرٍ للرسولِ وفوقَهم — ظِلالُ المنايا والسُّوف اللوامعُ

فما نكَلوا حتى توَلّوا جماعةً — ولا يَقطعُ الآجالَ إلا المَصارِعُ[5]

فذلك يا خير العِباد بلاؤُنا — إجابَتُنا للهِ والموتُ ناقعُ[6]

ورأى كعب بن مالك أن سيد الأوس قد قُتل سفاهاً، وعزاؤه على مصابه أنَّ الله سيدخله الجنة التي أعدَّها للصالحين، فقال:[7]

فإما تقتلوا سعداً سفاهاً — فإنَّ الله خير القادرينا

سيُدخله جناناً طَيّباتٍ — تكون مُقامةً للصالحينا

أمابعد، فقد رأينا صورة لمساهمة الشعر في الغزوات الدفاعية، وحتى تتضح معالم هذه الصورة، نرى أن نطَّلع على تمثيل القرآن لأهم أحداثها، ثم نقف على تمثّل الشعر لهذه الأحداث، لنرى إلى أين وصل الشعر وأين وقف الشعراء؟ ونكتفي بالرجوع إلى سورة آل عمران، لنقف منها على تمثل القرآن لغزوة أحد، لأنَّ الوقوف على الآيات التي نزلت في شأن هذه الغزوات كلها، يوقعنا في الإطالة من جانب، ولأنَّ ذلك يكفي لإلقاء ضوء كاشفٍ على كيفية معالجة القرآن للقضايا وتَمَثُّله للأحداث من جانب آخر.

---

[1] . الأكحل: عرق في الذراع.

[2] . السيرة/ق٢/٢٧٠، ديوانه/٣٠٩.

[3] . تهافتت: سقطت بسرعة، وبنات الحشى: القلب وما اتصل به، والهل: سال وانْصَبّ.

[4] . بلاقع: قفار خالية.

[5] . نكلوا: رجعوا هائبين، والمصارع: أي مصارع القتلى.

[6] . بلاؤنا: اختبارنا. وناقع: ثابت.

[7] . السيرة/ق٢/٢٥٦.

قال تعالى: ((وإذ غدوت من أهلك تُبَوّيءُ المؤمنينَ مقاعِدَ للقِتالِ، واللهُ سميعٌ عليم. إذْ هَمَّتْ طائفتان منكم أنْ تَفْشلا والله وليُّهما. ولقد نَصَرَكُم الله ببدرٍ وأنتُم أذلَّة، إذ تقولُ للمؤمنينَ ألَنْ يَكْفِيَكُمْ أن يُمِدَّكم ربُّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة مُنْزَلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويَأتوكُم من فورهم هذا يُمْدِدْكُم ربُّكُم بخمسة آلافٍ من الملائكةِ مُسَوّمين. وما جعله الله إلا بُشرى لكم ولِتَطمئنَّ قلوبكمْ به، وما النَّصرُ إلا من عندِ اللهِ العزيز الحكيم. ليقطعَ طَرفاً من الذين كفروا أو يكبِتَهُمْ فينقلبوا خائبين)).

ثم قال لمحمد: ((ليس لك من الأمر سيءٌ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون)). وحضَّ على الطاعة فقال: ((وأطيعوا الله ورسوله... وسارعوا إلى مغفرة من ربّكُمْ وجنَّةٍ عرضها السموات والأرض أُعِدَّت للمتَّقين)). ثمَّ عزَّاهُم عمَّا أصابهم بقوله: ((ولا تَهِنوا ولا تَحزَنوا وأنتم الأعلون... إن يمسسكم قَرحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء... وليمحّصَ الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)).

ورغَّبَ عباده المؤمنين في الجهاد لإعلاء كلمة الله فقال: ((أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلوا الجَنَّة ولَمَّا يعْلمِ اللهُ الذين جَاهَدوا مِنْكُمْ ويَعْلَمَ الصَّابرين. ولَقَدْ كُنْتُم تَمَنُّونَ المَوْتَ مِنْ قبل أنْ تَلقَوْهُ فقَدْ رأَيْتُموهُ وأَنْتُمْ تَنْظُرونَ. وما مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسولٌ قَدْ خَلَتْ منْ قَبْلِهِ الرُّسُل أَفَإنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبتُمْ على أعقابكُمْ ومَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيئاً وسَيَجْزي اللهُ الشَّاكرين. ... ومن يُرد ثواب الدُّنيا نُؤْتِهِ منْها، ومَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخِرةِ نُؤْتِهِ منها... وكأيّنْ من نبيّ قاتَلَ معَهُ رِبّيّونَ كثيرٌ فما وَهَنوا لما أصابَهُم في سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استَكانوا... وما كانَ قوْلَهُمْ إلاَّ أنْ قالوا رَبَّنا اغفِرْ لنا ذُنُوبنا وإسْرافَنا في أمرِنا وثَبّتْ أقدامنا وانْصُرْنا على القومِ الكافِرين. فآتاهُمُ اللهُ ثوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَة... ولا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلوا في سَبيلِ الله أمْواتاً بَلْ أحْياءٌ عندَ ربّهِمْ يُرْزَقون. فَرِحينَ بما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ويَسْتَبْشِرونَ بالذين لم يلْحَقوا بهم مِنْ خَلْفِهِم ألاَّ خَوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنون)).

وذكر أولئكَ الذين خرجوا مع الرسول الكريم إلى حمراء الأسد فقال: ((الَّذينَ اسْتَجابوا لله والرَّسولِ مِنْ بَعْدِ ما أصابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذينَ أحْسَنوا مِنْهُمْ واتَّقوا أجْرٌ عظيمٌ. الَّذين قالَ لَهُم الناسُ إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهُمْ فزادَهُمْ إيماناً وقالوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكيل. فانقلَبوا بنعمةِ من الله وفضلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سوءٌ واتَّبَعوا رِضْوان الله... إنّما ذلكم الشيطان يُخَوّفُ أولياءه فلا تخافوهُمْ وخافونِ. ولا يَحْزُنْكَ الَّذين يسارعون في الكُفر إنَّهُم لنْ يضرُّوا اللهَ شيئاً يريدُ اللهُ ألاَّ يجعلَ لَهُمْ

حظاً في الآخرة... يا أيُّها الذين آمنوا إنْ تُطيعوا الذين كفَروا يَردُّوكم على أعقـابكم فتنقلبـوا خاسرين. بل الله مولاكم وهو خير النَّاصرين. سنلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعبَ بما أشـركوا بالله... ولقد صَدَقَكُم الله وعده إذْ تَحُسُّونَهم بإذنه حتى إذا فَشِلتُم وتنازَعتُم في الأمر وعَصيتُم من بعد ما أراكُم ما تحبُّون منكم من يريد الدُّنيا ومنكُم من يريد الآخرة ثمَّ صرَفَكُمْ عنـهم لِيَبْتَلِـيَكُمْ ولقد عفا عنكم..)).

وأثَبَهُم لأنَّهم فَرُّوا عن رسول الله فقال: ((إذْ تُصْعدونَ ولا تَلْوونَ على أحدٍ والرَّسولُ يدعوكُمْ في أُخراكُم فأثابَكُم غَمَّاً بغمّ لكَيْلا تَحزَنوا على ما فاتَكُم ولا ما أصابَكُم... ثُمَّ أنزلَ عليكُمْ من بعد الغمّ أمَنَةً نُعاساً يغشى طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهَمَّتهُمْ أنفُسُهُم يظنُّون بالله غير الحق ظنَّ الجاهليـة يقولون هل لنا من الأمر من شيءٍ قُلْ إنَّ الأمرَ كلَّه لله يُخفونَ في أنْفُسِهِم ما لا يُبدونَ لكَ يقولون لو كان لنا مِنَ الأمر شيءٌ ما قُتِلنا هَهُنا قُل لو كُنتم في بيوتكم لبرَزَ الَّذينَ كُتبَ عليهم القَتْـل إلى مضاجعِهِم ولِيَبْتَلي الله ما في صدوركم وليمحّصَ ما في قلوبكُم... إنّ الذين تولَّوا منكم يوم التقى الجَمْعان إنما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم... يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالَّذين كفروا وقالوا لإخْوانِهِم إذا ضَربوا في الأرض أو كانوا غُزَّى لو كانوا عندنا ما ماتوا ومـا قُتِلوا ليجعل الله ذلك حسرةً في قلوبهم والله يحيي ويُميت... ولَئِنْ قُتلتُم في سبيل الله أو مُتُّمْ لمغفرة من الله ورحمةٌ خيرٌ مما يَجمعون. أوَ لَمَّا أصابَتكم مصيبةٌ قد أصَبتُم مِثْلَيْهَا قلتم أنَّى هذا قل هو من عند أنفسكم. وما أصابَكُمْ يوم التَقى الجَمْعان فبإذْنِ الله ولِيَعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافَقوا وقيل لهـم تعالوْا قاتِلوا في سبيل الله أوِ ادْفَعوا قالوا لو نعلمُ قتالاً لاتَّبَعْناكُمْ هُمْ للكُفر يومئذٍ أقـربُ منـهم للإيمان... الذين قالوا لإخوانِهِم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا قُل فادْرَءُوا عن أنفـسكم المـوتَ إن كُنتم صادقين)).

هكذا نهج القرآن في وصف أحداث أحُد، وعرض مصاب المسلمين، فقد تناولت الآيات كـلَّ ظروف المعركة وملابساتها، وأحداثها ووقائعها وأدق الأمور فيها، منذ خروج النبي الكـريم مـن المدينة للقاء خصومه حتى عاد من تعَقُّبه لهم إلى حمراء الأسَد، وكَشَفَت عن تخاذل بعض المسلمين في الخروج ولقائهم لعدوهم، عارضةً لشدة القتال وهول المعركة، ولِفَزَع المسلمين وفـرارهم عـن رسول الله، والتَمَسَت لهم العُذر، ثمَّ طَمأنَتْ المسلمين إلى نصر الله، ورغَّبَتْهم في الجهاد في سبيل الله مبيّنة أجر الشهيد ومكانته عند الله. وبيَّنت أيضاً أسباب الهزيمة وعَيَّنت طريق النَّصر، وكَشَفَت عن واقع المؤمنين، وفضحت طائفة المنافقين، ونبَّهَت إلى خطرهم وكيدهم.

وهنا يَحِقُّ لنا أن نتساءَل: هل نجح الشعراء في استيعاب هذه المعاني؟ وهل استطاعوا أن يفيدوا من معالجة هذه الآيات البيّنات للأحداث؟ وإذا كانوا قد عَجَزوا، فما سبب ذلك؟

فإذا ما عرضنا شعر هذه الغزوات، وخاصة ما قيل منه في غزوة أحُد على الآيات التي أثبتناها لأنها نزلت في المناسبة نفسها، فإنَّه يتكشف لنا – لأول وهلة – أنَّ الشعراء قد قصَّروا عن تمثُّل المعاني التي أوردتها آيات ((آل عمران)) فلم يُرَغّبوا في الجهاد كما رغَّبَتْ، ولم يبيّنوا مكانة الشَّهيد كما بيَّنَت، وإن فعلوا فإنهم يعرضون ذلك عرضاً سريعاً دون أن يقفوا عنده ويوضّحوا مفهومه، ولم يعرضوا لتخاذل بعض المسلمين عن المشاركة في القتال، كما لم يعالجوا أسباب الهزيمة أو يرسموا طريق النَّصر، وإنما ظلوا يجترُّون معاني محدودة في الفخر والهجاء والمناقضات والرثاء، والتعيير بالجبن، والتذكير بهزيمة يوم بدر، إلى غيرها من المعاني التي اعتادوا عليها منذ الجاهلية.

على أننا لا نُطالبهم بأن يستووا إلى ذلك التصوير الدقيق، والصياغة الرائعة التي بلغتها الآيات، وإنما كنا نطمح أن يُفيدوا من نهج القرآن في معالجة الأحداث، وأن يستوحوا معانيه فيُضمّنوا أشعارهم بما يستطيعون من هذه المعاني، ثم يستغلُّوا ذلك لشَحذ العزائم وإثارة المشاعر، وإذكاء روح الحماسة في نفوس المسلمين.

ونَهَجوا النهج نفسه يوم بئر معونة ويوم الرَّجيع، حيث ضاقت عليهم آفاقهم الشعرية، وتَحَدَّدتْ معانيهم، فاقتصروا على الهجاء والرثاء والوعد والوعيد.

واختلف الأمر قليلاً في غزوة الأحزاب، إذ استطاع هؤلاء الشعراء – علاوة على المعاني التقليدية – أن يصدروا عن روح الإسلام، فشاعت في شعرهم بعض المعاني الدينية كالقضاء والقدَر والتوكل على الله والتقوى والحق والعدل والجهاد، واستطاعوا أن يتمثلوا طائفة من الأحداث التي عرضها القرآن الكريم كتحزيب الأحزاب وهبوب العاصفة، وردّ المشركين بغيظهم، وكفاية الله المؤمنين القتال وحكم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة، وما شاكل ذلك.

ولعلَّ السبب في تقصيرهم عن تَمّثُّلِ الآيات القرآنية يرجع أولاً وقبل أي شيء آخر إلى حداثة عهدهم بالإسلام، وعدم مخالطة معانيه لشِغافِ قلوبهم بشكلٍ يُتيحُ لهم أن يَصْدُروا عن أفكاره السمحة صدوراً واعياً، فهم كانوا يقولون الشعر في الجاهلية، وأدركهم الإسلام وقد استوت أساليبهم والْتَزَمُوا طريقاً تقليدياً في النَّظم والصياغة، فصَعُبَ عليهم – والحالة هذه – أن يتخلَّصوا من آثار الماضي دفعة واحدة.

وربما كان هناك سبب آخر، وهو أنّهم لاحظوا أن معارضة المشركين بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، وتعييرهم بالمثالب ربما كانت أكثر إيلاماً، وأشد وجعاً لهم من تعييرهم بالكفر وتوعُّدهم بالعذاب وسوء المصير، فسلكوا هذا السبيل، وأقاموا على السير فيه، فإن المشركين لا يفهمون الإسلام، ولا يدركون مفاهيمه، وهم حاربوه لهذه المفاهيم، ولذلك كان أهون القول عليهم قول عبد الله بن رواحة لأنه كان يُعيّرهم بالكفر، وكان أشدُّ القول عليهم قول حسان وكعب، لأنهما كانا يعارضانهم بمثل قولهم[1].

وعلى هذا، فقد نَهَجوا في شعر هذه الغزوات نهجين: أولهما: جاهليٌّ قديم وجد فيه الشعراء حريتهم في التعبير فأجادوا أيما إجادة. وثانيهما: إسلاميٌّ مُحَدَّدٌ، حاولوا فيه أن يَصْدُروا عن روح الإسلام والإفادة من معانيه فقصَّروا، وظهر عليهم الضَّعف والكَلَل، وكثيراً ما نجدهم يَشْطَحون عن هذا النهج إلى الفخر بالآباء والأجداد والماضي العريق.

أما من حيث كمية الشعر وغزارته، فقد كان يوم أحد أكثر حظاً فيه من غيره،إذ نَيَّفَ ما قيل فيه على عشرين قصيدة ومقطوعة.بينما قَلَّ عن ذلك في يوم الأحزاب ،فلم يزد عن عشر ما بين قصيدة ومقطوعة وقلَّ عن ذلك في غزوتي: الرَّجيع وبئر معونة. ولعلَّ السبب في ذلك أنه لم يحدث قتال مباشر سوى في غزوة أحد التي سقط فيها كثيرٌ من الشهداء، فوُجِدَتْ دواعي القول. أما في الخندق، فلم يحدث سوى مناوشات، وأما في غزوتي الرَّجيع وبئر معونة فكان قتالاً فردياً كما بيَّنّا، إذ غدرت بعض القبائل في أفرادٍ من المسلمين، ومن هنا قلَّت دواعي القول عنها في غزوة أحد.

وكان حسان بن ثابت وكعب بن مالك الفارِسَيْنِ الْمُعْلَمَيْنِ في حلبة الصراع، فلم تشهد غيرهما من شعراء المسلمين إلا قليلاً، أما عبد الله بن رواحة، فلا نكاد نجد له سوى مقطوعتين: إحداهما في أحُد شَكَّ ابن هشام في نسبتها وقال: إنها لكعب، وأما الثانية فمن بيتين قالهما يوم بئر معونة. وربما كان سبب ذلك أنَّ عبد الله بن رواحة كان يتأثَّم من قول الشعر[2]، أو ربما اختلط شعره بشعر غيره من المسلمين، أو أنَّه أُهْمِلَ فضاع أكثره.

وبعد أن عرفنا دور شعراء المسلمين في الصراع، نمضي إلى مكة لنعيش مع طرفٍ آخر مُهِمّ من أطراف هذا الصراع، وهم شعراء المشركين.

---

[1]. الأغاني/٤/٤.

[2]. تفسير الخازن/٣/٣٧٣.

الفصل الرابع
دور شعراء مكة في الصراع

تمهيد

مكة والإسلام

تعذيب المسلمين

الدعاية الداخلية والخارجية

المقاطعة

الدعوة الإسلامية في مكة وخارجها

أولاً: تمثيل القرآن لأحداث الدعوة

ثانياً: تمثيل شعر أبي طالب لأحداث الدعوة

ثالثاً: شعراء مكة

الشعراء

عبد الله بن الزبعري

ضرار بن الخطاب

أبو سفيان بن الحارث

هبيرة بن أبي وهب

أبو عزة الجمحي

أبو أسامة، معاوية بن زهير

الحارث بن هشام

أبو سفيان بن حرب

الشواعر:

هند بنت عتبة

صفية بنت مسافر

رابعاً: الشعر والغزوات

غزوات دفاعية

غزوات هجومية

مكة والإسلام:

بدأت صلة مكة بالإسلام عندما خاطب الله محمداً بقوله: ((يا أيها المدثر قم فأنذر)) فلبى رسول الله النداء، ثم انطلق يعرض الإسلام على الناس، ويتحرى استعدادهم لقبوله، ويكتلهم حوله سراً.

واتخذ الرسول من دار **الأرقم بن أبي الأرقم** مركزاً لدعوته الجديدة ومدرسة للكتلة المسلمة، يجمع فيها أصحابه فيقرئهم القرآن، ويروضهم على الطاعة والانقياد، ويثقف عقولهم بمعاني القرآن وألفاظه، وبمفاهيم الإسلام وأفكاره.

ونمت هذه الكتلة المؤمنة حتى أصبحت نيفاً وأربعين، ما بين رجل وامرأة من مختلف البيئات والأعمار. وحين أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب اشتد ساعد هذه الكتلة وقويت نفسيات أصحابها. وعندما أمر الله محمداً بإعلان دولته: ((فاصدع بما تؤمر. وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين)) خرج في أصحابه إلى الكعبة بترتيب دقيق لم تعرفه مكة من قبل، فانتقل بذلك من دور الاستخفاء إلى الإعلان، ومن دور الاتصال بأفراد إلى دور مخاطبة الناس جميعاً.

وأحس المكيون بوجود الدعوة الإسلامية حيَّة مجسَّدة في أشخاص، وعرفوا أن محمداً يكتل أصحابه ويسهر عليهم، وعرفوا أيضاً أنهم يستخفون عن الناس في تكتلهم، وفي اعتناقهم للدين الجديد، ولكنهم في نفس الوقت لا يعرفون أين يجتمعون، ومَنْ هؤلاء الذين يجتمعون. ومن هنا لم يكن إعلان الرسول للإسلام شيئاً جديداً على المشركين، وإنما الشيء الجديد أن تظهر هذه الكتلة للناس بشكلٍ سافر، وأن تتحدى المشركين بظهورها.

وكأنما ظنت قريش أن حديث محمد كحديث الرهبان والحكماء، فلم تكن تهتم بأمره وأمر أصحابه، وما أن مضت فترة وجيزة حتى أحست أن الإسلام خطر عظيم على عقيدتها وعاداتها وتقاليدها. فكان هذا الإحساس سبباً مباشراً لمناجزته، واستعمال شتى الوسائل لقمعه وإجهاضه قبل أن يفشو وينتشر، وكان وقوفها ضد دعوته وقوفاً جماعياً وعنيفاً، حفظاً للمكاسب المكية، فقريش ستخسر زعامتها الدينية بين القبائل، وسيخسر زعماؤها القيادة السياسية التي يحافظون عليها ويسهرون على بقائها، وستخسر مكة أيضاً خسارة اقتصادية هائلة عندما ينصرف العرب عن زيارة أصنامهم، وما يصحب هذه الزيارة من نشاط تجاري. وكان بديهياً لذلك أن يقفوا من الدعوة الجديدة موقفاً عدائياً شديداً.

هب المكيون هبة رجل واحد، وأخذوا يحاربون الدعوة الجديدة بشتى الأساليب، وكان أخفها وأقلها خطراً هو اللجاج والجدل والسخرية والتكذيب. ومضى المكيون يستهزئون بمحمد ويحِطون من شأنه فيما يزعم من نبوته، ويسألونه عن معجزاته التي يثبت بها صحة رسالته، وأخذوا يطلبون منه المعجزات كإحالة الصفا والمروة ذهباً، وتنزيل الكتاب مخطوطاً من السماء، وإحياء الموتى، وتسيير الجبال في مكة حتى لا تظل حبيسة بينها، وتفجير ينبوع أعذب من ماء زمزم، لأنه يعلم حاجة بلده إلى الماء، ولِمَ لا يوحي إليه ربه أثمان السلع حتى يضاربوا على المستقبل. وهكذا صاروا يهاجمون الدعوة بأسلوب تهكمي لاذع، وطال بهم اللجاج. ولكنهم مع ذلك أدركوا أن هذا الأسلوب لم يغير من الواقع شيئاً، فمحمد ماضٍ في دعوته، يعيب الأصنام ويسفه مقدسيها وعبدتها، وأصحابه ماضون في حمل دعوتهم، وتقصُّد نوادي قريش ومناقشتهم ودعوتهم إلى الإسلام وتحديهم، ولو بحثنا عن الوسائل التي اتَّبَعْتها قريش لمقاومة الدعوة، لوجدنا أنها تنحصر في ثلاث:

أولها: التعذيب: حين رأت قريش أن أسلوب السخرية لم يغير من الواقع شيئاً، لجأت إلى العنف والشدة، فوثبت كل قبيلة على من أسلم فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، وتفنَّنوا في إيقاع الأذى على المسلمين، فألقي بلال على الرمال تحت شمس الصحراءالمحرقة، وعُذب آل ياسر أشد العذاب حتى مات ياسر وزوجه سميَّة، وعُذّب خبَّاب بن الأرَت وصهيب الرومي وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة، ولبينة جارية بني مؤمل، كما تولى أبو جهل تعذيب زِنّيرة حتى عميَتْ، وهكذا لقي المستضعفون كثيراً من البلاء والمحنة[1] وتعدَّاهم ذلك إلى رسول الله رغم اعتصامه بقومه، فرُجم بيته بالحجارة، وألقى عليه أبو جهل رَحِمَ شاةٍ مذبوحة وهو قائم يُصلّي في جوف الكعبة، ووضع عقبة بن أبي مُعيط ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً وهو يصلي في حجر الكعبة[2]. وكان أكثر المكيين إيذاء للرسول وأصحابه أبو جهل والأسود بن عبد يغوث، وأميه وأبيّ ابنا خلف، وعقبة ابن أبي معيط وهبيرة بن أبي وهب المخزومي وغيرهم[3].

وكان الرسول يشجع أصحابه خلال هذه المحنة فيقول: ((لقد كان مَنْ قبلكم لَيُمْشَط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه. ويوضَع المنشار على مفرق رأسه فَيُشَقّ باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى

---

1. أنساب الأشراف ١/١١٧، الكامل للمبرد ٢/٤٧.
2. البخاري ٥/٥٨.
3. إمتاع الأسماع ١/٢٣، الكامل ٤٧ – ٤٨.

حضرموت ما يخاف إلا الله[1] ويقول: ((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))[2]. وبهذا ضرب المسلمون أروع الأمثلة في الثبات والتضحية. وازدادوا صبراً وإمعاناً في الدعوة، فكانت هذه الفترة من أكثر ما عُرف من روعة في الصمود في العصور كلها.

ثانيها: الدعاية الداخلية والخارجية: وتهاوت وسائل التعذيب والبطش أمام الإيمان وقوة العقيدة، فلجأت قريش إلى سلاح الدعاية ضدَّ الدعوة في كل مكان، في مكة في الداخل، وفي الحبشة في الخارج، واستعملت جميع وسائل الدعاية من مجادلة وحجج ومهاترة وترويج إشاعات، وتهوين من شأن الرسول وصحبه، وبث الأكاذيب في الدعوة، وخاصة في موسم الحج، واجتمعوا في دار الوليد بن المغيرة المخزومي يتشاورون ماذا عسى أنْ يقولوا للعرب القادمين إلى مكة في الموسم، واتفقوا على اتِهام الرسول بسحر البيان، فانطلقوا بين الحجيج في الموسم يبُثُّون الدعاية ضِدَّه، ويُشيعون الأكاذيب من حول دعوته[3].

وقام **النضر بن الحارث** بمهمة التشكيك – وكان رجلاً يعرف أخبار الأمم الماضية – فانطلق وراء الرسول يخْلُفُه في كل مجلس جلس فيه يدعو إلى دين الله، فيقصُّ أحاديث فارس ودينها[4]، ثم تأخذ قريش هذه الأحاديث فتتولى إذاعتها بين الناس، وتُروّج الشائعات التي من شأنها أن تشكّك بالإسلام، وتقلل من شأنه، وتَغُضّ من خطورته، فادَّعَوْا أن محمداً يتعلم القرآن من جبر النصراني[5]، واستغلوا حادث الإسراء استغلالاً حاقداً[6]، واستمرت دعايتهم داخل الجزيرة تقوى وتشتدّ.

أما في الخارج فقد تطلَّعوا إلى المهاجرين في الحبشة، وحاولوا إعادتهم إلى مكة صاغرين، فقاموا بالمناورات السياسية، وبعثوا وفداً رسمياً من عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة إلى الحبشة، يحملان الهدايا لبطارقة النجاشي، ليساعدوهما على ردّ المسلمين إلى مكة، ثم اجتمعا بالنجاشيّ وكلّماه فيهم، غير أن مساعيهما قد فشلت وعادا إلة مكة يجرَّان أذيال الخيبة والفشل[7].

---

1. صحيح البخاري/٥/ ٥٦ – ٥٧.
2. السيرة/ ق١/ ٣٢٠.
3. السيرة /ق١/ ٢٧٠ – ٢٧١.
4. السيرة/ ق١/ ٣٠٠.
5. نفسه/٣٩٣.
6. السيرة/ ق١/ ٣٩٨، ٣٩٩.
7. السيرة/ ق١/ ٣٣٥ – ٣٣٨.

ثالثها: المقاطعة: أخذت الدعوة تلفت الأنظار، وتُديرُ لها الرؤوس، وأخذ نور الإسلام يُبدّد جميع الشائعات والدعايات، ويبعثُ في النفوس دعامة الأمل والرجاء، ويمدُّهم برصيدٍ ضخمٍ من الإصرار على الكفاح. وإزاء هذا التصميم على الظهور أو الموت، لجأت قريش إلى سلاح آخر وهو المقاطعة، فاتفقت فيما بينها على مقاطعة الرسول وأقاربه، وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب مقاطعة تامة، فلا يناكحوهم ولا يبيعدهم شيئاً ولايبتاعون منهم، وعلّقوا الصحيفة في جَوْف الكعبة توكيداً لها.

وظنت قريش أنَّ هذا السلاح هو أمضى الأسلحة وأحدّها، واعتقدت أنه سوف يجعل المسلمين ينفَضُّون من حول محمد، وسوف يحمل أقاربه على خِذْلانه. وعلى هذا رأت أنه سيكون بين أمرين: إما أن يتراجع عن دعوته، فيُريح قريشاً من العناء، وإما أن يمضي بها وحده، وعندها فلن يكون هناك أدنى خطرٍ على كيان قريش السياسي والديني والاقتصادي[١].

وخيَّب الواقعُ ظنَّ قريش، وحدث عكس ما ظنت وقدَّرت، فمضت ثلاث سنين ومحمد يزداد في كل يوم تمسُّكاً بدين الله، وحماسة للمضي في دعوته، والمسلمون يزدادون قوةً وصلابة وتصميماً. وغدا الحصار سبباً في انتشار الدعوة في مكة وفي خارج مكة، فوصل أمرها إلى القبائل. وصار ذكرُ الإسلام يفشو في الجزيرة وتتحدَّثُ به الركبان.

وأثارت المقاطعة عطف بعض شباب مكة **كزهير بن أمية وهشام بن عمرو والمطعم بن عدي وأبي البختري بن هشام وزمعة بن الأسود** وتذمَّروا لذلك، ثم أظهروا السخط عنها لبعضهم، وأجمعوا على نقضها وتمزيقها، وقدموا الكعبة وتحدَّوا أبا جهل، فتراجع أمام تصميمهم، وعلم أنَّ الأمر قُضي بليل، وأنَّ مُخالفتهم قد تثير شراً، فخلّى بينهم وبينها، ولما قام المطعم ليشقَّها، وجد أنَّ الأَرَضة قد أكلتها فلم يبقَ إلا فاتحتها ((باسمك اللهم))[٢].

ورُفع الحصار عن المسلمين، واستمروا على دعوهم حتى ازداد عدد المسلمين، ودخل الناس في دين الله أرسالا. وخسرت قريش المعركة بعد أن استنفذت جميع أسلحتها ووسائلها ضد الدعوة، ولم تستطع أن تفتِنَ المسلمين عن الإسلام حتى أظهره الله تعالى.

وصفوة القول، فإنَّ الرسول قد جاء برسالته متحدياً سافراً، يتحدَّى الدنيا بأكملها، ويعلن الحرب على الأحمر والأسود، دون ما حساب لعادات أو تقاليد، أو أديان أو عقائد، أو حكام أو

---

[1]. السيرة/ ق١/ ٣٥٠ – ٣٥٤.

[2]. السيرة/ ق١/ ٣٧٤ – ٣٧٦.

سوقة. فقد بادأ قريشاً بذكر آلهتهم وعَابها، وتحدَّاهم بمعتقداتهم وسفَّهها، وهاجم الظلم والقسوة والاستبداد ،والتسلُّط الذي كان يسود مكة، ثم كشف عن أحوال المشركين وأعمالهم. فعل هذا كله، ولا سلاح لديه سوى إيمان عميق بالإسلام الذي يدعو إليه، وثقة أكيدة بنصر الله سبحانه وتعالى.

وقد سارت دعوته في مكة في دورين متتاليين: **دور التعليم والتثقف والإعداد الفكري والروحي، ودور نشر الدعوة والكفاح.** وكان الدور الأول سرياً واستطاع فيه أن يُجسّدَ الفكرة الإسلامية في أشخاص، وأن يُكَتّلهُم حولها. وأما الدور الثاني، فقام فيه بإفهام الناس الإسلام وإعلانه عليهم، فإما أن يتجاوبوا معه ويُقبِلوا عليه فيختلط بنفوسهم، وإما أن يردُّوه ويحملوا عليه، فيصطدموا بأفكاره، ويحصل من هذا الاصطدام أن يهزم الكفر والفساد ويستقر الإيمان والصلاح، ويظهر الفكر الصحيح على سواه.

وبدا للرسول – صلى الله عليه وسلم - أن مجتمع مكة – بعد هذا الكفاح المرير – غير صالحٍ لإقامة حكم الله تعالى، وتربتها غير صالحة لنقل الفكرة الإسلامية من الصدور والأذهان إلى الواقع والمجتمع بتطبيقها، فطفق يبحث عن بيئة أخرى غير مكة، ويسعى في طلب قوة تنصره، ليستطيع بها أن يُقيم الدولة الإسلامية، ويُطبّق أفكار الإسلام.

وكانت الأسواق في مواسم الحج خير وسيلة لبلوغ الهدف، فهي مجتمع القبائل العربية، ومحط رحالها، فكان يخرج إلى القبائل يعرضُ نفسه عليهم، ثم أخذ يغشى هذه القبائل في منازلهم بعد ذلك، فبدأ بكندة ثم أتى كلباً ثم بني حنيفة ثم بني عامر، وعرض نفسه على غسان وبني فزارة وبني مرَّة وبني سُليم وبني عبس وبني نصر وبني الحارث بن كعب وهو يقول في كلّ مرة: ((**من رَجَلٌ يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلّغ رسالة ربي، فإنَّ قريشاً قد منعوني أن أبلّغ رسالة ربي**))[1].

وردَّته هذه القبائل جميعاً، ورفضوا نصرته حتى لا يثيروا غضب قريش ونقمتها. وكانت قريش قد رصدت سبعة عشر نفراً من أبنائها، اقتسموا طرق مكة يصدُّون الناس عن النبي الكريم[2]. وكان قد خرج إلى الطائف من قبل يطلب النصرة من ثقيف، ولكنها ردَّته ردًّا قبيحاً[3]. واشتدَّ الكربُ

---

1. إمتاع الأسماع/١/ ٣٠ – ٣١.
2. الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية/ مكة (ضيف) /٢٠.
3. السيرة/ق١/٤١٩.

على الرسول، فرفع يديه إلى السماء يشكو إلى الله في أشدّ حالة من الألم، وأعظم حال من الثقة بالله: ((اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس))[1].

وأقام ينتظر فرج الله ويُحسُّ بالألم من وقوف دعوته، وبالشدّة والضّيق من قريش، وبقي الأمر كذلك حتى بدت تباشير الفوز من المدينة، فاستجاب أبناؤها للدعوة الجديدة، وبايعوا الرسول على حمايته ومَنْعه، وعلى الموت في سبيل دعوته. وكانت هذه البيعة العظيمة إيذاناً ببزوغ فجرٍ جديد، بعد كفاح طويل في مكة. وأوحيَ إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم - بالهجرة إلى المدينة، فاستجاب لداعي الله، وأقام صرح الدولة الإسلامية العتيدة، فانتقل بدعوته إلى دور الارتكاز والتطبيق العملي، ثم شرع يُعِدُّ العدة للقاء المشركين وقتالهم. وبقي ماضياً في طريقهِ حتى هيَّأ الله له فتحاً مبيناً، ونَصَرَه نصراً عزيزاً، وهزم به الشرك والوثنية في الجزيرة العربية كلها.

ثوى النبي ثلاثة عشر عاماً في مكة، وكانت حافلة بالأحداث العظيمة، وكان الصراع عنيفاً بينه وبين المشركين. وقد شهدت هذه الأعوام الطويلة أروع آيات النضال والتضحية، والصبر والثبات من جانب المسلمين، وسجلت أبشع أنواع الحقد والتآمر والبَغْي من جانب المشركين. وظل الرسول ماضياً لتبليغ أمر الله، غير مكترثٍ بما يلقاه من صعوبات، يتلو على الناس آيات القرآن الكريم ويتحدَّاهم بإعجازه.

وقد واكب القرآن أحداث الفترة المكية، وجعل يترل في قريش بأحداثهم، ويسجّل آيات الكفاح الفكري العنيف، ويتحدَّى العرب بالفصاحة وهم أهلها، ويحاجُّهم بالبلاغة وهم أصحابها. وكان يتّهمُهُم بالنقص والعجز، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، وأخذ يكشف عن عوراقم ويفضح أحوالهم، ويرميهم بالغباء والخطأ والكذب، فأحال قوقم وعجرفتهم إلى ضعفٍ وتخاذلٍ أمام الرسول الكريم وأصحابه.

وسلك القرآن مسلكاً عنيفاً في هجاء الكفار ومعارضتهم، فهو لا يعيّرهم بالضعف والفقر وخمول الأحساب، وإنما يعيّرهم بالكفر والضلال، وقِصَر النظر وانطماس البصيرة، ثم يناقشهم نقاشاً فكرياً، ويلزمهم الدليل، ويُظهرهم بمظهر السفهاء. وهو يورد اقاماقم وأقوالهم، ثم ينقضها عليهم مبيناً تفاهتها، وضعف ما تستند إليه. ويعتمد في كل ذلك على العقل والمنطق، ويفتح لهم أبواب التفكير والتدبُّر وإعمال العقل ويُثِيرُ في نفوسهم الشكوك.

---

[1]. السيرة/ق١/ ٤٢٠

وقد برز هذا الأسلوب في معالجته لما يعبدون من دون الله، فرمى آلهتهم بـــالعجز: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ويُهوّن في نفوسهم شأن هذه الآلهـــة ثمَّ يقـــرر مـــصيرهم ومـــصيرها: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

وتصدَّى للمشركين يجادلهم ويناقشهم، وسَلَك في هذا الجدل سُبلاً منوَّعة، فمـــرَّةً ينـــهج إلى التـــصوير الـــساحر: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ ﴾.ومرَّة يُسفِّه أحلامهم، ويرميهم بالبَلَه والغفلة والسذاجة: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ وقولـــه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .ومرَّة يعمد على الانفعالات والعواطف، فيستخدم أسلوب التهويل والتخويف:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ وقوله: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ .

وقد يستخدمُ التَّنْفير من الصفات البغيضة، فيصف بها خُصومه لعلَّهم يتحولون عنـــها: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ويمضي القرآن في معارضته للمشركين، ويسلك أساليب عديدة لإقناعهم وإفحامهم ويـــصوّر إدبارهم عن الحق فيتناولهم بـــالتقريع: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن

﴿ قَسْوَرَةٍۭ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ وقولـه: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ...كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وكان المشركون يطالبون الرسول بالمعجزات، ليقتنعوا بصحة نبوّته فتصدى القرآن لهـم يـردُّ عليهم ويفضح أحوالهم بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ .

ويعمد إلى إثارة الناحية الفكرية فيهم، فيمضي يضربُ لهم الأمثال على قدرة الله، ويُناقـشهم نقاشاً عقلياً، ويدفعهم إلى التفكير المجرَّد في مخلوقاته: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ ﴾وقولـه: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ وقولـه: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾و﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾و﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ .

وقد يتناول ما سيدَّعي المشركون في المستقبل، أو يفرض أمراً ليقطع عليهم سـبيل المعارضـة، ويرميهم بالكذب واتّباع الظنّ، حَثّاً لهم على استعمال عقولهم، والتفكير في أمر هذه الحياة الـدنيا ليدركوا الحقيقة، فيحددوا مـوقفهم منـها: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾وقوله: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ .وقولـه: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

وحين جمد أشراف مكة على الكفر، واجتهدوا في محاربة الإسلام، وذهبوا في عداء الرسـول – صلى الله عليه وسلم - كُلَّ مذهب، عمد القرآن إلى أسلوب عنيف في هجاء الشخصيات البارزة

في المجتمع المكّي وفضْحها. فأبو سفيان بن حرب: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ والوليد بن المغيرة المخزومي: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ وقوله في الأخنس بن شُريق: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ويقول في أبي لهب وزوجه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ ويقول في أمية بن خلف: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾

ولئن حمل القرآن على المشركين ومضى يكشف عن عوراتهم، ويُعَرّي شخصياتهم ويفضح غدرهم، فقد كان يواسي رسول الله وأصحابه، ويحثهم على البذل والتضحية، ويُمنّيهم برضوان الله ونعمائه، من ذلك قوله للرسول: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

ويذكر فضله عليه بالنبوّة فيقول: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ويحث الرسول وأصحابه على حمل الدعوة والصدع بأمر الله في قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ وفي قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ .ويمدح المؤمنين على ما يفعلون من الخير، ويحثّهم على المزيد من التضحية والبذل في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ .وقوله: ﴿...وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾، ويمنّي المؤمنين بما أعدَّ لهم من نعيم يوم القيامة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ

ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

وكانت السنوات الأخيرة من الدعوة سنوات عصيبة، أوصدت فيها قبائل العرب الأبواب دون الدعوة، وضاقت مكة على أبنائها المسلمين، وازداد المشركون عنفاً وقسوة. وكان الرسول يرى وقوف دعوته فيحزن، فوقف الله إلى جانبه في تلك السنوات القاسية، وكان القرآن يدعوه إلى مزيد من الصبر، ويهون عليه أمر المشركين، ويضرب له الأمثال مما قدم الأنبياء من قبله من التضحيات، وما لاقوا من المشقَّة والصعوبة، ويقصُّ عليه أنباء القرى، ويسرد له أخبار الأمم الماضية، ويعرض مواقفهم من أنبيائهم ورسلهم، ثم يَعِدُهُ بالنصر. كل ذلك لِيُسَرّي عنه، ويخفف مما تضيق به نفسه من اتهامهم وقسوتهم، كقوله: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ،وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾،وقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ وقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ ﴾ وقوله: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، ويطمئن الرسول وأصحابه إلى نصر الله في قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

وهكذا نهج القرآن في مواكبة أحداث الدعوة، وكان ذا أسلوب عنيف شديد العنف مع المشركين، رفيق شديد الرفق بالرسول وأصحابه المؤمنين. وقد اكتفينا من ذلك بما يُلقي الضوء على تصويره للأحداث، إذ لو مضينا نستقصي موقف القرآن لطال بنا الوقوف، ونأى بنا عن القصد – فذلك يقتضي دراسات خاصة، ويحتاج إلى تخصص في أمر دراسته، ولذا فسوف نمضي بعد هذه العجالة، إلى شعر أبي طالب وغيره لنرى مدى نجاحه في تمثيل أحداث الدعوة ومقدار رصده لوقائعها.

تمثيل شعر أبي طالب وغيره لمراحل الدعوة

كان الإسلام ثورة فكرية خطيرة أحدثت رجَّة عنيفة في أوساط السَّادة والأشراف والأغنيـــاء، فقاموا يعارضونه ويناهضونه، بل وأخذوا يُجَنّدون جميع الإمكانات لدفعه والإجهاز عليه، لا لأنـــه سينتزع منهم المقاليد السياسية فحسب، بل ولأنه سيؤثر تأثيراً مباشراً على مركـــزهم التجـــاري والديني أيضاً.

وصمت شعراء مكة، وغاض الشعر في نفوسهم، ووقفوا حائرين أمام فصاحة هـــذا الكتـــاب الكريم الذي أنزل على محمد، وتضاءَلوا إزاء بلاغته وإعجازه، وأحسّوا بالعجز عن مجاراته وإمكان الردّ عليه بأشعارهم، واقتصرت معارضتهم له على الجدل والحجاج والتكـــذيب وغيرهـــا. روى صاحب السيرة قال: ((قال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزِّبَعْري: زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته فسلوا محمداً: أكلٌّ مـــا يُعبَدُ من دون الله في جهنَّم مع من عَبَده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزيراً، والنصارى تعبد عيسى بن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزِّبَعْري، ورأوا أنه قد احتجَّ وخاصم))[١]، ومعنى هذا أنَّ مُناقضتهم للقرآن الكريم قد اصطنعت الأسلوب الفكريّ البَحْتَ فحسب.

أما أبو طالب – وكان شاعراً جيد الكلام –[٢] فكانت تتجاذبه عاطفتان متناقـــضتان أشـــد التناقض: عاطفة الولاء لدين الآباء والأجداد، والحفاظ على الموروث مـــن العـــادات والتقاليـــد. وعاطفة الحب للنبي الكريم الذي حمل مشعل هذا الدين الجديد.

وأبو طالب هو عمُّ هذا النبي، ولد قبله بخمس وثلاثين سنة، وكفله بعد أبيـــه عبـــد المطلـــب، فأحسن تربيته، وسافر به إلى الشام وهو شاب، ولما بُعِثَ حدب عليه ومنعه وقام بنصرته والـــذبّ عنه[٣].

---

[1] . السيرة/ ق١/٣٥٩.

[2] . طبقات الشعراء/ ٩٥.

[3] . خزانة الأدب/ ١/٢٦١.

وحين صدع النبي بدعوته أدركت قريش خطورة هذه الدعوة، فمشى رجال من أشـــرافهم إلى أبي طالب، وسألوه أن يكفَّ محمداً أو يسلّمه، ولكنَّ أبا طالب رَدَّهُمْ رَدَّاً رقيقاً. ومضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - يظهر دينه ويدعو إليه، فاشتدَّ الأمر بينه وبين قريش، وحضَّ بعـــضهم بعضاً عليه، ثم مشوا فيه إلى أبي طالب مرة أخرى، فخَيَّروه بين أمرين: إمّا أن يكفَّ ابن أخيه عـــن دعوته، أو ينازلوه معه حتى يهلك أحد الفريقين. وعظم على أبي طالب فراق قومه وعـــداوتهم ولم يطب نفساً بخذلان الرسول الكريم وإسلامه لهم، فبعث إلى رسول الله فقال: يا ابن أخي: أبْقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تُحَمّلني من الأمر ما لا أطيق. وظنَّ الرسول الكريم أنَّ عمَّه قد ضـــعف عـــن نصرته والقيام معه، فقال: ((**يا عمُّ، والله لَوْوضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته**)). وأمام هذا الإصرار المصيري على الكفاح والبذل، لم يكن أمام أبي طالب غير الدعم والمساندة، وبرز ذلك في قوله: اذهب يا ابن أخي فقُل ما أحببت، فوالله لا أُسلمك لشيء أبداً[1].

ولجأت قريش إلى أسلوب آخر من المساومة، فعرضت على أبي طالب أن تعطيه عمـــارة ابـــن الوليد بن المغيرة – وكان أنهد فتى في قريش وأجمله – على أن يسلمهم محمداً ليقتلوه. ولكن الإيمان بالعصبية الضيقة كان أقوى في نفس الشيخ من الإيمان بهذه التقاليد والأعراف التي يدافعون عنها، بل كان أقوى من إيمانه بالأصنام نفسها، ولم يكن غريباً لذلك أن يرفض عرضهم رفضاً باتاً. **وتدخل المطعم بن عدي فقال: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً**[2].

وحين رأى أبو طالب تألُّب قومه عليه، وخذلانهم له، وتآمرهم على ابن أخيه لم يجد ما ينفس به عن مشاعره سوى شعره، ففزع إليه يصور فيه موقفه من المناوئين، ويعرض بالمطعم، ويعمّ من خذله من بني عبد مناف، ومن عاداه من قبائل قريش، فقد غدا بكر من الإبل أنفع له منـــهم، أو كمـــا يقول:[3]

ألا قُـــلْ لِعَمرو والوليد ومُطعمٍ   ألا ليتَ حظّي مـــن حياطتكم بِكْرُ[4]

---

1. السيرة/ق١/ ٢٦٤ – ٢٦٦.
2. نفسه/٢٦٧.
3. نفسه/ ٢٦٧ – ٢٦٨.
4. بكر: يريد: أن بكراً من الإبل أنفع لي منكم، فليته لي بدلاً من حياطتكم.

من الخُور حَبْحابٌ كثيرٌ رُغاؤهُ ... يُرشُّ على الساقين من بَوله قَطْرُ[1]

أرى أخوينا من أبينا وأمنا ... إذا سُئلا قالا إلى غيرنا الأمر

بلى لهما أمرٌ ولكن تَجَرْجَما ... كما جُرْجمت من رأس ذي علق الصخر[2]

فوالله لا تنفكّ منا عداوةٌ ... ولا منهم ما كان من نَسْلنا شَفْرُ[3]

فقد سَفَهتْ أحلامُهم وعُقولُهم ... وكانوا كجَفْرٍ ما صنعتْ جَفْرُ

ووثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، وشقَّ ذلك على نفس أبي طالب، وبات يخشى أن تمتدَّ يد السوء إلى ابن أخيه، فقام في بني هاشم وبني عبد المطلب، فدعاهم إلى حماية محمد ومنعه، فاجتمعوا إليه وأجابوه، إلا ما كان من أبي لهب. وسُرَّ أبو طالب من قومه فراح يمدحهم ويذكر قديمهم، ويبرز فضل رسول الله فيهم، ويشير إلى ذلك التآمر والغدر، الذي كان من قريش، ويرى فيه ظلماً لم يكن آباؤه ليقرّوه ويقبلوا بوجوده فيقول:[4]

إذا اجتمعتْ يوماً قريش لِمَفخرٍ ... فعبدُ منافٍ سَرُّها وصميمها[5]

وإن حُصّلت أشرافُ عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرتْ يوماً فإنَّ محمداً ... هو المصطفى مَنْ سرِّها وكريمها

تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفرْ وطاشَتْ حلومُها[6]

وكنا قديماً لا نُقرُّ ظُلامةً ... إذا ما ثَنَوْا صُعْرَ الخُدود نُقيمها[7]

ويتأزم الموقف في مكة وتتسع شقة الخلاف بين بطونها، ويزداد أبو طالب إصراراً على حماية ابن أخيه، وتأييد دعوته. فهاهوذا يُطمئن النبي الكريم بأنه سيمنعه ما دام حياً، ويحثُّه على المُضيّ في دعوته ،وهو بعد هذا كله، يرى أنه صادق أمين وأن دينه من خير أديان البرية، ولولا أن تُعيّره

---

[1] . الخور: الضعاف، والحبحاب: القصير.

[2] . تجرجم: سقط وانحدر، وذو علق: جبل في ديار بني أسد.

[3] . شفر: أحد.

[4] . السيرة/ق١/٢٦٩.

[5] . سرها: وسطها، وصميمها: خالصها.

[6] . الغث – في الأصل – : اللحم الضعيف، فاستعاره – هنا – لمن ليس نسبه هنالك، وطاشت: ذهبت.

[7] . ثنوا: عطفوا، وصعر الخدود: المائلة، يقال، صعر خده: إذا أماله إلى جهة، فعل المتكبر.

قريش ويقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقرَّ بالشهادة عين ابن أخيه[1]، ولطابت نفسه بهذا الدين أو كما يقول:[2]

واللهِ لن يَصِلــوا إليكَ بجَمعهمْ	حتى أُوَسّدَ فــي التراب دَفينا
فامضِ لأمرِكَ ما عليكَ غَضاضَة	أبشِرْ وقَرّ بذاكَ منكَ عُيونا
ودعَوتني وعلمتُ أنَّكَ ناصحي	فلقد صَدَقتَ وكنتَ قبلُ أمينا
وعرضت ديناً قــد عرفت بأنَّه	من خير أديــان البرية دينــا
لــولا الملامــةُ أو حذارى سُبَّةٍ	لوجدتَني سَمحــاً بذاك مُبينا

وبهذا التصميم مضى أبو طالب يؤيد الإسلام في شخص محمد، ويُسخّر شعره لخدمة الــدعوة الجديدة، ولتسجيل مراحل هذا الصراع الفكري المرير بين دعاة العقيدة الجديدة والقائمين علــى عقيدة الشرك وعبادة الأوثان. وازدادت قسوة مكة على المسلمين، فكانت قريش يضربون أحدهم ويجيعونه ويُعْطِشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة ما نزل به. وكان الرسول الكريم يرى ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب. وكان يعلم أنه لا يستطيع أن يمنعهم ويحميهم، وعلى هذا كان لابدَّ، أن يأذن لهم بالهجرة إلى بلد يأمنون فيــه على دينهم، ولا يخافون فيه الفتنة أو القتل. وهاجر نفرٌ كثيرٌ من المسلمين إلى الحبشة، ولكن حقد قريش وتآمرهم كان يطاردهم في كل مكان، ذلك أنهم بعثوا **عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص** إلى الحبشة يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، طمعاً في المساعدة، ورجاء في ردّ المسلمين إلى مكة.

وليس غريباً أن يخاف أبو طالب على المهاجرين. ففيهم فلذة كبده جعفر الذي يقول فيه:[3]

ألا ليتَ شعري كيفَ في النأيِ جعفر	وعمروٌ وأعداءُ العدو الأقاربُ
وهل نالت أفعالُ النجاشي جعفراً	وأصحابه أو عاقَ ذلك شاغبُ[4]

وعلى هذا، كان لابدَّ أن يمدح النجاشي وأن يبالغ في تمجيده، طمعاً في إكرام جعفــر وصــحبه، ولأجل منعهم وحمايتهم من شرّ قريش فبعث إليه يقول:[5]

---

1. تفسير القرطبي/٦/٤٠٦.
2. تفسير القرطبي/٦/٤٠٦، البداية والنهاية/٣/٤٢.
3. السيرة/ ق١/ ٣٣٣-٣٣٤ .
4. الشاغب: المفرق.
5. السيرة/ق١/ ٣٣٤.

تَعلَّمْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ، أنَّكَ ماجدٌ كريمٌ فلا يشقى لديكَ المُجانبُ
وأنَّكَ فَيضٌ ذو سِجالٍ غزيرةٍ ينالُ الأعادي نفعها والأقاربُ[1]

وحين فشلت قريش في ردّ المهاجرين إلى الحبشة، ورأوا أن عمر بن الخطاب قد أسلم، وأن الإسلام جعل يفشو في القبائل، عَظُمَ عليهم الأمر، فأجمعوا على مقاطعة محمد وسائر بني هاشم وبني المطلب، فكتبوا في ذلك صحيفة علّقوها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم. وانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في الشعب ما عدا أبا لهب. وعظم الأمر على أبي طالب، وآلمه أنْ يرى قريشاً تأتّمِرُ عليه وعلى عشيرته، وحزَّت في نفسه هذه القطيعة، فجعلَ يَهِيبُ بقريش ألاّ يتبعوا أمرَ الوشاة، وألاّ يقطعوا أواصر القربى، ففي قَطعها استجلاب لحرب عوان بين بطون قريش، وذلك قوله:[2]

ولا تَتبعوا أمر الوُشاة وتَقطعوا أواصرنا بعدَ المودَّة والقُربِ[3]
وتستجلبوا حَرْباً عَواناً وربما أمرّ على مَنْ ذاقَه جَلَبُ الحربِ
فلسنا وربّ البيت نُسلم أحمداً لعزاء من عضّ الزمان ولا ولا كَرْبِ[4]

وأقام المسلمون على المقاطعة سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا، ولكنهم بالرغم من ذلك كسبوا رأياً عاماً في مجتمع مكة، فقد دبَّ الخلافُ بين أشراف قريش، ورقَّت قلوبُ نفرٍ منهم[5]، فَتَذمروا وأظهروا السخط والنقمة، فاجتمعوا ليلاً بأعلى مكة، وأجمعوا أمرهم على نقض الصحيفة وشَقّها.

وشُقَّت الصحيفة على مرأى من أبي جهل الذي تراجع أمام هذا الإصرار، وخَشِيَ أنْ تُثيرَ المخالفة شراً ما بعده من شَرٍّ، وعلى مرأى من أبي طالب الذي لا يكاد يصدق ما يدور من حوله، فأحسَّ – حينئذٍ – بالانتصار على الظلم والبَغي، ورأى أن البشرى إلى أولئك الذين يقيمون في الحبشة، فبعث إليهم يقول:[6]

---

[1] . الفيض: الجواد، والسجال: العطايا واحدها سجل، وأصل السجل: الدلو المملوءة يستعار للعطية.

[2] . السيرة/ ق١/٣٥٣.

[3] . الأواصر: أسباب القرابة والمودة.

[4] . العزاء: الشدة، وعض الزمان: شدته.

[5] . هم: هشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود – السيرة / ق١/٣٧٥.

[6] . السيرة/ ق١/ ٣٧٨.

ألاَ هل أتى بَحْرِيَّنا صُنْعُ رَبّنا   على نأيهم واللهُ بالناسِ أرْوَدُ[1]
فيُخبرهم أنَّ الصحيفة مُزّقت   وأن كــلُّ ما لم يَرْضه الله مُفْسَدُ
تَراوَحها إفكٌ وسِحرٌ مُجَمَّعٌ   ولم يُلْفَ سِحرٌ آخرَ الدَّهر يَصعدُ
وكانت كِفاءً رَقْعةٌ بأثيمةٍ   ليُقْطَــع منهــا ساعدٌ ومُقَلَّدُ[2]

وكان على أبي طالب أن يتوجه بالشكر إلى هؤلاء النفر الذين تبايعوا على تمزيــق الــصحيفة بالحجون، وقاموا بنقض ما جاء فيها، فقال يذكر جميل فعلهم:[3]

جزى الله رهطــاً بالحَجون تبايعوا   علــى ملأٍ يَهدي لحَــزْمٍ ويَرْشِدُ
أعــان عليها كُــلُّ صقرٍ كأنَّه   إذا ما مشى في رَفْرَفِ الدرعِ أحردُ[4]
قَضَوا ما قضوا في ليلهم ثمَّ أصبحوا   علــى مهــلٍ وسائر الناسِ رُقَّدُ
هُمُ رَجَعوا سَهْلَ بن بيضاء راضياً   وسُرَّ أبــو بكــرٍ بهــا ومحمــدُ

وظل هذا موقف أبي طالب من دعوة الإسلام حتى قُبض، ما انفكَّ يناصرُ محمداً، ويدفع عنــه الأذى والاعتداء، ويحمي دعوته بنفوذه ومكانته، ويُجيرُ بعض الدعاة من أذى قريش وتــسلطهم. وحين اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشاً ثقله، أرادوا أن يرموا بآخر سهم من سهام المساومة، فمَشوا إليه وكلّموه في أمر ابن أخيه، وسألوه أن يَكُفَّه عنهم وعن دينهم فيَكُفّوا عنه وعن دينه. ورفــض رسول الله مبدأ المساومة، فالقضية السياسية عنده هي أن يكافح المشركين، وأن يسير في دعوتــه دونما حساب للنتائج، حتى يُظهره الله أو يهلك دون دينه الجديد، فعرض على قريش أن يسلموا ، ويَدَعوا ما يعبدون من دون الله. وكان أبو طالب يدعمه في كفاحه، ويشدُّ من أزره في صــراعه، يدلُّ على ذلك قوله: ((والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا))[5].

ومات أبو طالب، فافتقد به رسول الله عَضُداً وحِرزاً، وخسر بموته رجلاً منَعَه بمكانته وعصبيته ونفوذه، وناصره بشعره، فافتقد به الرجل الذي كان يقف لقريش فيقول:[6]

---

1 . البحري: من كان هاجر من المسلمين إلى الحبشة في البحر، وأرود: أرفق.

2 . المقلد: العنق.

3 . السيرة/ ق١/ ٣٧٩.

4 . رفرف الدرع: ما فضل منه، وأحرد: بطيء المشي لثقل الدرع الذي عليه.

5 . السيرة/ق١/٤١٧ – ٤١٨.

6 . السيرة/ ق١/٢٧٢.

كَذَبتم وبيتِ اللهِ نُبْزى محمداً ولّما تَرَوا يوماً لدى الشّعب قائماً

وشعر أبي طالب مطبوع بطابع الجاهلية، سواء في شكله، أم في مضمونه، فمعانيه قد اقتصرت على الشجاعة والكرم وغيرهما من المعاني الجاهلية، واقتصرت موضوعات شعره على الفخر والمديح والعتاب وغيرها من الموضوعات التي فرضتها طبيعة الصراع الفكري بين المسلمين والمشركين.

وليس غريباً أن يخلو شعر أبي طالب من المعاني الإسلامية، فهو قد مات على غير الإسلام، وهو أيضاً لم يتأثر بهذا الفكر الذي حمله ابن أخيه، وإنما كان مخلصاً لتقاليد آبائه وأجداده، ولم يكن دعمه للرسول الكريم، وتأييده لمبدئه إلا بدافع العصبية الضيقة.

ويُنسب لأبي طالب شعر جيد[١]، قيل في بعضه إنه بلغ حظاً عظيماً من البلاغة، وإنه أبلغ في تأدية المعنى من المعلقات[٢].

وأنطقت أحداث الصراع الفكري في مكة شعراء آخرين، فارتفعت أصواتهم بين الفينة والأخرى تستنكر أساليب التعذيب، وتُندّد بالعدوان والظلم. فهذا **حَكَم بن أمية السُّلمي** حليف بني أمية يشهد عداء قريش للرسول الكريم ودعوته، ويتابع وسائلهم الكثيرة لمحاربته والنيل منه، فيضيق ذرعاً بهذا الظلم الذي عمَّ أرجاء مكة، فلا يجد مُتَنَفَّساً يُنفّس به عن سخطه واحتجاجه غير الإسلام، فيفزع إلى محمد ليشهد شهادة الحق، ويتبع هذه الأفكار الجديدة التي أقضَّت مضاجع الشّرك، ثم يقف على قريش فيورعهم عما أجمعوا عليه من الكيد للإسلام، ويعلن اعتناقه للدين الجديد فيقول:[٣]

هل قائلٌ قولاً هو الحقُّ قاعدٌ عليه وهَلْ غَضْبانُ للرشد سامعُ
وهل سيدٌ ترجو العشيرة نَفْعُه لأقصى الموالي والأقارب جامعُ
تبرَّأتُ إلا وجهَ من يَمْلكُ الصَّبا وأهجُرُكم ما دام مُدْلٍ ونازِعُ[٤]
وأُسلِمُ وجهي للإله ومَنطِقي ولو راعَني من الصديقِ روائعُ

---

[1] . طبقات الشعراء/٩٥.

[2] . البداية والنهاية/٣/٥٧.

[3] . السيرة/ق١/٢٨٩.

[4] . المُدْلي: المرسل الدلو. والنازع: الجاذب لها.

وكانت هجرة الحبشة مِحَكًّا للعواطف، وملهماً للأحاسيس فهي قد أذكت شـاعرية **عثمان بن مظعون** وغيره، فما كاد عثمان يطأ أرض النجاشي حتى شعر بالأمان، وأصبح يعبد الله لا يخاف على ذلك شيئاً، وأمست أحداث مكة ذكريات مؤلمة، تجرح نفسه بين الحين والحين، فأمية بن خلف ابن عمه، وبالرغم من هذا، فإنه كان يضايقه وينال منه، وليس هذا فحسب، بل هو الذي حمله على الخروج من بطن مكة إلى الحبشة. وقد ترك هذا التصرُّف ألماً دفيناً في صدر عثمان، فلما أمِـنَ في الحبشة أعلن عما كان حبيساً في صدره، فقال:[1]

أتيمَ بن عمرو للذي جاءَ بِغْضَةً	ومن دونه الشَّرمان والبَرْكُ أكتعُ[2]
أَأَخْرَجْتَني مـن بطن مكة آمناً	وأسْكَنتني في صَرْح بيضاء تقذَعُ[3]
تَريشُ نبالاً لا يُواتيك ريشها	وتَبْري نبالاً ريشها لك أجمـعُ[4]
وحاربتَ أقواماً كِراماً أعِزَّةً	وأهلَكتَ أقواماً بِهِمْ كنتَ تفْزَعُ[5]
ستَعْلَمُ إنْ نابَتْكَ يوماً مُلِمَّةٌ	وأسْلَمَكَ الأوباشُ ما كنتَ تَصْنَعُ[6]

وبعد، فإن الشعر في هذه الفترة من الدعوة لم يستطع تَمَثُّلَ الأحداث كما كنا نطمح، بالإضافة إلى أنه كان من طرف واحد، فهو إما من شعراء مسلمين أنطقهم الظلم بأبيات قليلة، وإمـا مـن شعراء مناصرين لدعوة الإسلام كأبي طالب.

أما شعراء مكة المشركين فقد ظلُّوا صامتين طيلة هذه الفترة الحافلـة بالأحـداث العظيمـة، وجمدت مشاعرهم فلم تُسعفهم قرائحهم للتصدّي للفكر الإسلامي الجديد، فهم قد عَجَزوا عـن الردّ على القرآن الكريم مع أنه تحدَّاهم وتحدَّى غيرهم، بينما نهض أشراف مكة وشعراؤها يدافعون عن تقاليدهم وأحسابهم بالجَدَل والحِجَاج، فاتهموا القرآن بالشعر تارة، وبالسحر تـارة أخـرى، واتهموا الرسول الكريم بقول الشعر ونظمه. ونظن أنَّ ركود الشعر في الفترة المكيـة ينحـصر في ثلاثة أمور:

---

1 . السيرة/ق١/٣٣٢.

2 . الشرمان: موضع. والبرك: جماعة الإبل الباركة، وقيل هو اسم موضع – هنا – .

3 . صرح بيضاء: يريد مدينة الحبشة، وأصل الصرح: القصر يريد أنه ساكن عند قصر النجاشي. وتقذع: تكره.

4 . ريشها (بالفتح(: من راشَهُ يريشَهُ ريشاً: إذا نفعه وجبره. (وبالكسر): جمع ريشة.

5 . تفزع: تغيث وتنصر.

6 . الأوباش: الضعفاء الداخلون في القوم وليسوا منهم.

أولها: أن قريشاً لم يكن بينهم ثائرة في الجاهلية ولم يحاربوا، وإنما كانوا منصرفين إلى تنمية رؤوس أموالهم، والتطلع إلى السيادة بين العرب. وحين جاء الإسلام دُهِشَ القرشيون من أسلوب القرآن المعجز، فتحيَّروا في أمره، واصطنعوا الحجاج والجدل للردّ عليه، فَلَهَوا عن قول الشعر حيناً.

ثانيها: أن شعراء قريش ومحمداً وأصحابه كانوا من عصبية واحدة، فلم يكن من السهل عليهم أن يهجوهم، فهم آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم، وهم بعد لا يجيدون سوى التعيير بالأحساب والأنساب، وهذا يفسّر لنا مسارعتهم إلى التصدّي لشعراء الأنصار بعد الهجرة. وحين بدأ الصراع العسكري، حينئذٍ فقط، رأوا أن عصبيتهم أصبحت مهدَّدة، فقاموا يُدافعون عنها، ومما يعزز هذا الزعم أن هجاءهم كان مُوجَّهاً في معظمه إلى حسان بن ثابت وغيره من الشعراء الذين كانوا ينافحون عن الرسول الكريم، كما كان موجهاً أيضاً إلى الأنصار[1].

ثالثها: أن الفكر يفشو في الأمة في حال نهضتها، فينصرف الناسُ إلى البحث عن الحجة، وتلمّس الأسلوب الفكري للجدل والنقاش، وليس هذا مجال الشعر. وعندما تستقر الأمة على هذا الفكر الجديد، فإنها تنطلق انطلاقة شاملة، فتقوم فيها نهضة أدبية تتجه إلى تسجيل المكاسب التي حقَّقها هذا الفكر، وإلى أي مدى وصل بالأمة، فالنهضة الأدبية إنما تكون نتيجة ولاحقةً للنهضة الفكرية لا معاصرة لها أو سابقة عليها.

شعراء مكة:

لم تكن مكة في الجاهلية تُعرف بشعر إلا مقطوعات تُنسَب **لورقة بن نوفل** وغيره من المُتَحَنّفين، ومقطوعات أخرى تُنْسَبُ لبعض فتيانها مثل نبيه ومسافر[2] وعبد الله بن الزبعري والزبير بن عبد المطلب[3].

ولما نشب الصراع بين مكة والمدينة في عصر النبوة اتخذ هذا الصراع مظهرين: مظهر حربي تمثَّلَ في الغزوات الحربية التي وقعت بين الفريقين المتصارعين، ومظهر آخر أدبي تمثل في أهاجٍ كانت مكة والمدينة جميعاً تتقاذفان سهامها ونيرانها[4]، فكانت المنازعات المستمرة بينهما ذات أثر خطير في تحريك القرائح الشعرية ، ونبوغ كثير من الشعراء، لأن الحروب والخصومات تشحَذْ الهِمَم وتحرّك

---

[1] . السيرة/ ق٢/ ١٣، ٢٧، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٥.

[2] . العصر الإسلامي/٤٧ (شوقي ضيف)

[3] . طبقات ابن سلام/٩٥، معجم المرزباني/ ١٣١.

[4] . الشعر الغنائي/ ١٠٠/ مكة (شوقي ضيف).

القرائح. فأخذ شعراء مكة يسدّدون سهام أشعارهم إلى مدينة الرسول، وأصبح شعرهم يـــذيع في القبائل العربية مما أدى إلى اضطرام نار الهجاء بين الإسلام وخصومه.

وهكذا أصبح الشعر في غُرَّة الإسلام ذا شأن عظيم عند أهل مكة، كأنه من وسائلهم السياسية في صراعهم مع الرسول[1]، فلمعت في مكة أسماء شـــعراء كـــثيرين **كعبد الله بن الزِّبَعْري، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وأبي سفيان بن الحارث والحارث بن هشام وأبي عزة الجمحي وغيرهم**.

وقامت النساء تشارك الشعراء في الصراع الأدبي كما شاركنهم في الصراع الحربي، فكان منهن **هند بنت عتبة وصفية بنت مسافر وقتيلة بنت النضر بن الحارث وغيرهن.** وفي هذا ما يدلُّ علـــى نـــشاط الحركة الأدبية في مكة آنذاك.

وسوف نقف عند هذه الطائفة من الشعراء والشواعر لنطلع على أدوارهم في الـــصراع مـــن خلال أشعارهم، ولنرى مدى ما قدَّموه للأدب العربي منذ أن وقفوا مناوئين للرسول حتى خَفُّوا إليه مسلمين تائبين.

الشعراء:

عبد الله بن الزِّبَعْرَى:

يقولون عنه أشعر قريش قاطبة[2]، وإنه كان شاعرها في الجاهلية[3] ولكنه كان يهجوها، بل ويُثقل عليها في الهجاء حتى همُّوا بقطع لسانه[4]. ولما جاء الإسلام ذابت شخصيته في شخصية قبيلته فقـــام معها يحارب هذا الدين الجديد، ويدفع عن أمجادها وأحسابها.

وظهر عداء عبد الله للدعوة في وقت مبكر، وسفر في عدائه، فكان يتصدَّى للرسول الكـــريم فيُجادله[5] ويهزأ به وبآيات القرآن[6]، ووصل عداؤه حدًّا تطاول فيه على الرسول، فلطَّـــخ وجهـــه الطاهر بالفرث والدم وهو قائم يُصلي لربه في الكعبة[7].

---

1. نالينو /٩١.
2. الاستيعاب/٣/٩٠١، البيان والتبيين/ ١/١٠٨.
3. الزركلي: الأعلام/٤/٢١٨.
4. طبقات الشعراء/٩٢.
5. السيرة/ق١/ ٣٥٩.
6. تفسير القرطبي/١٥/٨٥.
7. نفسه/٦/٤٠٦.

ولما نشب الصراع العسكري بين مكة والمدينة، كان عبد الله أحد شعراء قريش البارعين الذين قادوا حملة الهجاء ضد الرسول والمسلمين[1]، بل كان من أشد هؤلاء الشعراء عداءً وعنفاً، فشارك في الصراع بلسانه ونفسه[2]، وتوزَّع شعره على الغزوات كلها تقريباً.

وكان يوم بدر من أشد هذه الغزوات إيلاماً لنفسه وقلبه، ففيها هُزِمَتْ قبيلته قريش وقتل أكثر أشرافها، وفيها ظهر محمد وأصحابه، ودوّى ذكره في أنحاء الجزيرة. وهنا شعر عبد الله بالهزيمة، وأحسَّ بهول الفاجعة، وآلمته المصيبة، فتحرَّكت عواطفه، وألهبت مشاعره، فوقف يندب السادة الذين كانوا بالأمس يملأون مكة نشاطاً وحيوية، ويُحرّضون الناس على محمد والذين أصبحوا اليوم صرعى في قليب بدر، وراح يذكر هؤلاء السادة، ويسكب عليهم دموعاً غزيرة ويقول:[3]

ماذا على بدرٍ ومــاذا حولهُ	مــن فتيةٍ بيضِ الوجوه كِرامِ
تركــوا نُبيهاً خلفهم ومُنَبّهاً	وابْنَيْ ربيعة خَيْرَ خَصْمٍ فِئامِ[4]
والحارثَ الفَيَّاض يَبْرُقُ وَجْهُهُ	كالبدرِ جلَّى ليلةَ الإظــلامِ[5]
والعاصيَ بــن مُنَبّهٍ ذي مِرَّةٍ	رُمْحاً تميماً غيرَ ذي أوصامِ[6]
وإذا بكى باكٍ فأعوَلَ شَجعْوَهُ	فعلى الرئيس الماجد ابن هشامِ[7]
حيَّا الإله أبــا الوليد ورَهطَه	ربُّ الأنــام وخصَّهم بسلامِ

وحين انتصرت قريش في يوم أحد، وأخذت بثأر يوم بدر، واسْتَمرَّ القتلُ في الأنصار، اشتَفَت نفــس عبد الله مما تَجِد، فبعثَ إلى حسَّان بن ثابت يقول:[8]

أبْلِغْــنَ حسان عني آيــة	فَقَريضُ الشعر يشْفي ذا الغُلَلْ[9]
كم ترى بالجَرّ من جُمْجُمَةٍ	وأكُفٍّ قــد أُتِرَّتْ وَرِجلُ[1]

---

1. معجم الشعراء/١٣٢.
2. الاستيعاب/٣/٩٠١، البيان والتبيين/١/١٠٨.
3. السيرة/٢/١٥، أنساب الأشراف/١/٣٠٨.
4. الفئام: الجماعات من الناس.
5. الفياض: الكثير العطاء.
6. المرة: القوة والشدة. والتميم هنا: الطويل. والأوصام: العيوب واحده وصم.
7. الأعوال: رفع الصوت بالبكاء. والشجو: الحزن.
8. السيرة/ق٢/١٣٦.
9. الآية: العلامة. والغلل: جمع غلة وهي حرارة العطش.

وسرابيـــلَ حسَّانٍ سُرِبَتْ   عـــن كُماةٍ أُهلِكوا في المُنْتَزَلْ[2]

كـــمْ قَتَلنا مـــن كريمٍ سيدٍ   ماجِـــدِ الجَدَّيْنِ مِقدامٍ بَطَلْ

قتلت قريشٌ كثيراً من رجال المسلمين الشُّجعان، ولكن عبد الله يُحِسُّ أنَّ عوامل النصر لم تتمَّ، ذلك أنَّ سادة قومه قد قُتلوا في يوم بدر، ولم يمهلهم الموت ليشهدوا خوف الأنـــصار مـــن وَقـــع الرماح بِقُباء. ويتمنى لو أنَّهم ظلوا أحياء ليشهدوا وفاء قريش لهم وأخذها بثأرهم، لِتقرَّ أعينـــهم بكثرة من قُتِلَ بهم. على أنَّه يلوم نفسه ويلوم قومه لأنَّهم لم يكُرُّوا على المدينـــة ليُجْهـــزوا علـــى المسلمين، فيقول:[3]

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا   جزَعَ الخزرج من وقْعِ الأسَلْ

حين حكَّت بقُباءٍ برْكَها   واستَحرَّ القتْلُ في عبد الأشَلْ[4]

لا ألـــومُ النَّفس إلاَّ أننا   لـــو كَـــرَرْنا لفعلنا المُفْتَعَلْ

بسيوفِ الهندِ تعلو هامَهُم   عَللاً تعلـــوهم بعـــد نَهَلْ[5]

وظلَّ عبد الله شديداً على الإسلام والمسلمين، وشديداً على من يُسْلم من قريش أيضاً، فما أن بلغه أن **خالد بن الوليد، وعثمان بن أبي طلحة** قد خرجا إلى المدينة مُسلمين مهاجرين، حتى آلمه ذلك. فهو يعتبر عملهما انتهاكاً لحرمة دين الآباء والأجداد، وخروجاً على أعرافهم وتقاليدهم، ومن هنا، جعل ينعى على عثمان تفريطه بمفتاح الكعبة، ويندّدُ بفعلة خالد، فيقول:[6]

أنْشُدُ عثمان بن طلحة حِلْفَنا   ومُلقى نِعالِ القومِ عند المُقَبّلِ[7]

وما عقَدَ الآباءُ من كلّ حِلفةٍ   وما خالدٌ مـــن مِثلِها بمُحَلَّلِ

أمِفتاح بيتٍ غير بيتك تَبتغي   وما يُبْتَغى من مجْدِ بيتٍ مُؤَثَّلِ[8]

فلا تأمنَنَّ خالداً بعد هذِه   وعثمانُ جاءَ بالدُّهَيْمِ المُعضَّلِ[1]

---

[1] . الجر: أصل الجبل. وأترت: قطعت. والرجل: الأرجل.

[2] . السرابيل: الدروع. وسربت: جردت. والكماة: الشجعان. والمنتزل: موضع الحرب والنزال.

[3] . السيرة/ق٢/١٣٧، الأغاني/١٤/١١.

[4] . البرك: الصدر. وعبد الأشل: يريد عبد الأشهل الأوسيين.

[5] . العلل: الشرب الثاني. النهل: الشرب الأول، يريد الضرب بعد الضرب.

[6] . السيرة/ق٢/٢٧٨، سِيَرُ أعلام النبلاء/٣/٤١.

[7] . المقبل: موضع تقبيل الحجر الأسود.

[8] . المؤثل: القديم.

وكان طبيعياً أن يُهدر الرسول الكريم دمه، فهو قد حارب الدعوة في مكة، وهو الآن يُحـرّض كفار قريش في شعره[2]، ويندّد بمن يأتي المدينة من أبناء قريش مسلماً. وهو إلى جانب هـذا كلـه يهجو رسول الله، بل ويُعظِمُ القول فيه[3]. وعلى هذا كان يجب أن يفِرَّ إلى نجران يوم الفتح، وكان ينبغي لحسان بن ثابت أن يرميه بقوله:[4]

لا تَعْدَمَنْ رجلاً أحلَّكِ بُغْضَهُ   نجران في عيشٍ أحذَّ لَئيمِ

فلما بلغه قول حسان قدم على رسول الله فأسلم وتاب، واستشعر الندم.

وكان لابد من أن يُسَخّر لسانه للاعتذار والتوبة بعد أن جنَّده للهجاء والتحريض من قبل. فهو قد حظي بالعفو والصفح، ولذلك نراه يمدح رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، ويعتذر عمـا قدَّمت يداه، وما لجَّ به لسانه، ثم يُقِرُّ بالنبوة وفضلها فيقول:[5]

يا رسول المليك إنَّ لِساني   راتِقٌ ما فتَقْتُ إذ أنا بُورُ[6]

إذْ أبـاري الشَّيطـان فـي سَنَنِ   الغيّ ومَنْ مالَ ميلَهُ مَثْبورُ[7]

آمَنَ اللحمُ والعِظام لِربّي   ثم نفسي الشهيد أنت النَّذير

إنني عنك زاجرٌ ثَمَّ حَيَّاً   من لُؤيّ وكُلُّهُـمْ مغرورُ

وكأنَّ عبد الله قد أحسَّ بما فرط إلى جنب الله، فحسن إسلامه، ومضى يجاهـد في سـبيل الله لِيُكفّر عما أساء، فشهد ما بعد الفتح من مشاهد[8]. وأكثر من مدح الرسول والاعتذار إليه، وقال في ذلك أشعاراً كثيرة، فكأنه يريد بها أن ينسخ ما قد مضى من شعره في أيام كفره[9]، ومن ذلـك قوله:[10]

---

[1] . الدهيم: من أسماء الداهية.

[2] . الأغاني/٤/١١.

[3] . الاستيعاب/٣/٩٠٢، إمتاع الأسماع/١/٣٩١.

[4] . تاريخ الطبري/٣/٦٤.

[5] . الواقدي: المغازي/٤١٦، السيرة/ق٢/٤١٩، وتاريخ الطبري/٣/٦٤.

[6] . راتق: ساد، رتقت الشيء: إذا سددته. وبور: هالك.

[7] . أباري: أجاري وأعارض. والسنن: وسط الطريق، ومثبور: هالك.

[8] . الاستيعاب/٣/٩٠٣، الإصابة/٤/٦٨.

[9] . تفسير القرطبي/٦/٤٠٧، والاستيعاب/٣/٩٠٣.

[10] . السيرة/ق٢/٤١٩، طبقات الشعراء/٩٣ – ٩٤.

يا خير من حَمَلَتْ على أوصالها	عيرانةٌ سُرُحُ اليَدين غَشومُ[1]
إنــي لمعتذرٌ إليكَ مــن الذي	أسْدَيْتُ إذْ أنا في الضلال أهيمُ
أيــامَ تأمرني بأغــوى خُطَّــةٍ	سَهْمٌ وتأمرني بها مخــزومُ

ويشيع الصدق وحرارة الإيمان في مديحه للرسول، وتفوحُ منه رائحةُ الندم حادة قوية، وهــل أدلُّ على ذلك من شهادته بصدق دين محمد، ومن رجائه للرسول الكريم بــأن يعفــو عــن زلله وأخطائه، وذلك حيث يقول:[2]

فاغْفر فِدى لكَ والدايَ كِلاهُما	زَلَلي فإنَّك راحمٌ مرْحومُ
وعليك مــن عِلْمِ المليك علامَةٌ	نــورٌ أغرُّ وخاتمٌ مَخْتومُ
أعطــاك بعدَ محبةٍ بُرهــانَــهُ	شرَفاً وبرهان الإلهِ عظيمُ
ولقد شَهِدْتُ بأنَّ دينكَ صادِقٌ	حقٌّ وأنكَ في العِبادِ جَسيمُ

وهكذا عاش عبد الله حياتين متناقضتين في فنّه، فكان صادقاً مجيداً في كلتيهما. كان صــادقاً في الأولى، لأنه آمن بعصبيته وأخلص لقبيلته، فكان وسيلتها الإعلامية، يذيع انتصاراتها بين العــرب، ويُشيدُ بأحسابها وأنسابها، ويُحرّض على أعدائها، وينالُ من خصومها.

وكان صادقاً في الثانية لأنه آمن بالإسلام، وفَقِهَ أفكاره، وأدرك لذَّته ونَعيمَه، فاستشعر النــدم على ما فات في أيام كفره، وأخلص لرسول الله فأكثر من مدحه، الاعتذار له، حتى قيل: إن الــنبيَّ قد أمرَ له بحلة[3].

وأجاد عبد الله في كل ذلك أيما إجادة، فكان شعره يفيضُ بالرقة والعذوبة، وتَنسابُ من قوافيه حرارة الإيمان، وتنبعثُ من موسيقاه رائحة التوبة والندم. وباختصار كان شــعره صــورة معــبرة لكفاحه قبل إسلامه، وبعد أن أسلم وفَقِهَ الإسلام.

---

[1] . عيرانة: ناقة تشبه العير في شدته ونشاطه، والعَيْرُ هنا حمار الوحش. وسرح اليدين: خفيفة اليدين. وغشوم: لا ترد عن وجهها.

[2] . السيرة/ق٢/٤٢٠، تفسير القرطبي/٦/٤٠٧.

[3] . الإصابة/٤/٦٨.

ضرار بن الخطاب الفهري:

كان فارساً شجاعاً شديد الشكيمة، أخذ مرباع بني فهر في الجاهلية[1]، وكان يتزعم جمعاً من حلفاء قريش، ومن مُرّاق كنانه فيُغير ويسبي ويأخذ المال[2] وضرار شاعر مجيد، عدّهُ بعض العلماء أشعر من عبد الله بن الزبعري، وأقل سقطاً[3].

ولم يظهر له نشاط ضد الدعوة الإسلامية في مكة، ولعل سبب ذلك"أولاً" لأنه كان من ظواهر قريش، فلا يكون بالبطحاء إلا قليلاً[4]. "وثانياً" لعدم إدراكه ووعيه خطورة الدعوة وأهدافها.

برز عداؤه السافر للإسلام بعد بيعة العقبة الثانية مباشرة، حيث بدا واضحاً له ولغيره من المشركين بأن الإسلام قد أصبح خطراً يتهدد وجودهم، وأن الصراع بين دعاة هذا الدين وبينهم سيتّخِذُ الأسلوب العسكري كوسيلة لحمايته والدفاع عن مفاهيمه، فقد وجد الرسول – صلى الله عليه وسلم - من ينصره، وتوفرت لديه القوة القادرة على ضرب أعدائه ومناوئيه ومقاومي دعوته، وعلى هذا، بادر ضرار إلى المشاركة في الصراع بسيفه ولسانه، بل كان سبّاقاً إلى ذلك حتى نُسِب إليه أول شعر قيل في الهجرة[5]، ذلك أن قريشاً خرجت في طلب الأنصار بعد بيعة الحرب، فأدركوا سعد بن عبادة فعذبوه، حتى أجاره منهم **جبير بن مطعم والحارث بن أمية.** وطلبت قريش المنذر بن عمرو فأعجزهم، فجعل ضرار يلومُ جبيراً والحارث على إطلاق سعدٍ، ويتمنى لو كان سعيهما لإدراك المنذر واللحاق به، لا إلى تخليص سعد ففي ذلك شِفاءٌ لنفسه، فيقول[6]:

تداركت سعداً عنوة فأخذته	وكان شِفاءً لو تداركت منذرا[7]
ولو نلته طُلت هناك جراحه	وكانت حَرِيّاً أن يُهان ويُهدرا[8]

---

[1] الاشتقاق/١/١٠٣.

[2] طبقات الشعراء/٩٨.

[3] الاستيعاب/٣/٩٠٢.

[4] طبقات الشعراء/ ٩٨.

[5] السيرة/ق١/٤٥٠.

[6] أنساب الأشراف/١/٢٥٥.

[7] عنوة: قسراً وقهراً.

[8] طل دمه: إذا هدر ولم يثأر به.

وعندما بدأت الغزوات شارك فيها ضرارٌ بحماس بالغ، لأنه كان شديد التعصب لقومه، عظيم الوفاء لهم، فكان لا يقتل قرشياً أبداً، روى الواقدي أنه أدرك عمر بن الخطاب يوم أحد فضربه بالقناة ثم قال: يا ابن الخطاب: إنها لنعمة مشكورة، والله ما كنت لأقتلك[١] وقيل إنه قال لأبي بكر الصديق يوماً: نحن كنّا لقريش خيراً منكم، أدخلناهم الجنة، وأوردتموهم النار[٢].

وحين تم النصر للمسلمين في يوم بدر، عزا ضرار هذا النصر إلى وجود النبي والنفر الأخيار من قريش في الجيش الإسلامي، ورفض أن يعزوه إلى شجاعة الأنصار، بل وأصر على تجريدهم من البطولة والإقدام كما نراه يقول[٣]:

فإن تظفروا في يوم بدرٍ فإنما ... بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر

وبالنفر الأخيار هم أولياؤه ... يحامون في اللأواءِ والموت حاضر[٤]

أولئك لا من نتجت في ديارها ... بنو الأوس والنجار حين تفاخر[٥]

ولكن أبوهم من لؤي بن غالب ... إذا عُدّت الأنساب كعبٌ وعامر

هم الطاعنون الخيل في كل مَعْوَكٍ ... غداة الهياج الأطيبون الأكاثر

وحين قُتل عقبة بن أبي معيط يوم بدر صبراً، تذكر ضرار عطاءه وكرمه، فقال يرثيه[٦]:

إذا اتصلت تدعو أباها لحارثٍ ... دعت باسم سيّال العطاء زعوف

وهوب النجيبات المراقيل بالضحى ... بأنوارها تجتاب كل تنوف

وكان ضرار شجاعاً جلداً يثبت في القتال، فهو قد قاتل في يوم أحد وأبلى، وأكثر القتل في المسلمين فكان يقول: زوّجت عشرة من أصحاب محمد من الحور العين[٧]، ويحدثنا ضرار عن قتاله في يوم أحد فيقول[٨]:

خيرت نفسي ملى ما كان من وجلٍ ... منها وأيقنت أن المجد مستبق

---

[1] المغازي/ ٢٧٥.

[2] الاستيعاب/٢/٧٤٩.

[3] السيرة/ق٢/١٤، البداية والنهاية/٣/٣٤١.

[4] اللأواء: الشدة.

[5] نتجب: ولدت.

[6] أنساب الأشراف/١/٢٩٧.

[7] المغازي/٢٧٥.

[8] السيرة/ق٢/١٤٦.

أكرهت مُهري حتى خاض غمرهم — وبلّه مــن نجيع عانكٍ علــق[1]

أيقنت أني مقيم فــي ديــارهـــم — حتى يفارق ما في جوفه الحَدقُ[2]

لا تجزعوا يا بني مخزوم إن لكـــم — مثل المغيرة فيكم مــا به زهق[3]

صبراً فدى لكم أمي وما ولدت — تعاوروا الضرب حتى يُدبر الشفق[4]

وعندما تحرك الجيش الإسلامي لفتح مكة، كانت راية رسول الله بيد سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي "فلما مر بها على" أبي سفيان بن حرب" – وكان قد أسلم - قال إذْ نظر إليه : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً. فأقبل رسول الله في كتيبة الأنصار حتى إذا حاذى أبا سفيان ناداه يا رسول الله: أأُمِرْتَ بقتل قومك، فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلهم، وإني أنشدك الله في قومك، فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم، فقال الرسول الكريم: لا يا أبا سفيان: اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله قريشاً. وحين بلغ ضرار بن الخطاب تهديد سعدٍ ووعيده، فزع إلى رسول الله يقول[5]:

يا نبي الهدى إليك لجا حَيُّ — قريش ولات حين لجــاء[6]

حين ضاقت عليهم سعة الأر — ض وعاداهم إلــه السماء

والْتَقَتْ حلقتا البطان على القو — م ونودوا بالصَّيْلَمِ الصلعاء[7]

إن سعداً يريــد قاصمة الظهر — بأهل الحجــون والبطحاء[8]

خَزَرِجيّ لــو يستطيع من الغَيْ — ...ظ رمانا بالنسر والعــواء[1]

---

[1] غمرهم: جماعتهم. والنجيع: الدم. وعانك: أحمر. وعلق: من أسماء الدم.

[2] الحدق: جمع حدقة وهو سواد العين.

[3] الزهق: العيب.

[4] تعاوروا: تداولوا.

[5] الاستيعاب/٢/٥٩٧ -٥٩٨، الروض الأنف/٢/٢٧١، نهاية الأرب/١٧/٣٠٤، حسن الصحابة/١/٣١ -٣٥.

[6] لجا: مخفف لجأ.

[7] التقت: حلقتا البطان: مثل في بلوغ الأمر شدته ونهايته، والبطان: حزام القنب الذي يجعل تحت بطن البعير، والصيلم الصلعاء: الداهية الشديدة.

[8] قاصمة الظهر: البلية. والحجون: جبل بمعلاة مكة. والبطحاء –هنا- : بطحاء مكة، والبطحاء في الأصل: مسيل واسع فيه دقاق الحصى.

إذ ينادي بــذل آل قريش وابن حربٍ بهذا من الشهداء

فانهينه فإنــه أسد الأســـ ـد لدى الغاب والغ في الدماء[2]

فأرسل الرسول الكريم إلى سعد بن عبادة فنزع اللواء من يده، وجعلة بيد ابنه " قيس".

ثم أسلم ضرار، وحسن إسلامه وأصبح محباً للأنصار معجباً بهم، فكان يحدّث فيذكر وَقْعَةَ أحد، ويذكر بلاء الأنصار وغَنَاءَهُمْ في الإسلام وشجاعتهم وتقدمهم على الموت فيترحم عليهم[3]. ولما بدأت الفتوح الإسلامية، اتَّخَذ ضرار مكانه في صفوف الفاتحين، وانطلق مع المسلمين مجاهداً في سبيل الله، ليكفر عما فعل في الأيام الخالية، فكتبت له الشهادة في وقعة أجنادين[4].

وعلى الرغم من قلة ما بين أيدينا من شعر ضرار، وشك ابن هشام في بعض هذا الشعر[5]، فإن بعض العلماء قد عدوه أشعر قريش[6]، وهذا الحكم يسوغ لنا أن نظن بضياع أكثر شعره، وسقوطه من أيدي الرواة والناقلين.

أبو سفيان بن الحارث:

اسمه المغيرة وكنيته أبو سفيان، وهو ابن عم الرسول وشبهه ورضيعه، وقد ولد معه في الليلة التي ولد فيها، وكان أليفه وتربه، فلما بعث كان من أشد الناس عداوة له، ومن أكثرهم معارضة للدعوة، فكان ممن يؤذي النبي – عليه السلام - ويهجوه، ويهجو المسلمين، ومكث على ذلك عشرين سنة[7].

ولم نجد له أخباراً قبل بدر، ولم يظهر له نشاط أدبي في معارضة الرسول وأصحابه في الفترة المكية من الدعوة، مع أنه كان شاعراً معروفاً، وله شعر في الجاهلية[8].

---

1 النسر: النسر الواقع والنسر الطائر: كوكبان. والعواء: منزل للقمر خمسة كواكب أو أربعة كأنها كتابة ألف. كذا في القاموس.

2 والغ في الدماء: يريد: سفّاكٌ قتّالٌ، وأصله من ولغ السبع في الإناء: إذا شرب ما فيه بأطراف لسانه أو أدخل فيه لسانه فحرّكه.

3 المغازي/ ٢٧٥.

4 الزركلي: الأعلام/٣/٣١٠.

5 السيرة/ق٢/٢٧، ١٣٩.

6 الاستيعاب/٣/٩٠٢، الأعلام/٣/٣١٠.

7 الأعلاق النفيسة/ ابن رستة/٢٠١، الطبقات الكبرى/٤/٤٩ -٥٠.

8 طبقات الشعراء/ ابن سلام/٩٦.

وعندما خرجت قريش إلى بدر، خرج معهم أبو سفيان، وقاتل المسلمين قتالاً عنيفا. ولما قدم مكة قال له أبو لهب: هلم إلي فعندك لعمري الخير، فقال أبو سفيان: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا ولنا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وأيمُ الله – مع ذلك - ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلقٍ بين السماء والأرض، والله ما تُلِيقُ شيئاً ولا يقوم لها شيء[1].

ولعل حضوره بدراً، وما رآه من شدة المسلمين على قريش، جعله يشتد في عداوته لرسول الله، ودعوته، فلم يتخلف عن موضع تسير فيه قرش لقتاله[2]. وجند لسانه للنيل منه ومن أصحابه فكان يهجوهم هجاء مقذعاً، يدل على ذلك قول حسان له[3]:

هجوت محمداً فأجهت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء	فشركما لخيركما الفداء

ويبدو أن أبا سفيان كان يقود حملة الهجاء العنيفة ضد الإسلام، ويتولى تحريض قومه على الرسول، فحسان لا يفتأ يوجه الكثير من شعره في هجاء الكفار إليه، من ذلك قوله[4]:

ألا أبلغ أبا سفيان عني	فأنت مجوف نَخِبٌ هواه

بدأ نشاط أبي سفيان الأدبي ضد الإسلام يوم بدر الآخرة، فقال يرد على حسان[5]:

أحسان إنا يـــا ابن آكلة الفغا	وجـــدك نغتال الخروق كذلك[6]
أقمنا ثلاثـــاً بين سلع وفارع	بجـــرد الجياد والمطي الرواتك[7]
حسبتم جلاد القوم عند قبابهم	كمأخذكم بالعين أرطال آنك [8]

---

[1] السيرة/ق١/٦٤٧.

[2] ابن سعد/ الطبقات الكبرى/٤/٤٩.

[3] الديوان/٦٤، الإصابة/٧/٨٦.

[4] الديوان/ ٦٣.

[5] السيرة/ق٢/٢١٢.

[6] الفغا: التمر، نغتال: نقطع، الخروق: جمع خرق وهو الغلاة الواسعة.

[7] الرواتك: المسرعة.

[8] العين: -هنا - المال الحاضر، والعين أيضاً: الدر، والآنك: القصدير.

ومما يدل على حقده الشديد على الإسلام، أنه آزر بني قريظة بشعره، الأمر الذي لم يفعله غيره من شعراء قريش، فقد رد على حسان بن ثابت بمقطوعة صغيرة يدافع فيها عنهم وذلك قوله[1]:

أدام الله ذلك مــــن صنيع	وحرق في طرائقها السعير[2]
ستعلم أينـــا منهـــا بتزه	ويعلم أي أرضينا تضير[3]
ولو كان النخيل بها ركاباً	لقالوا لا مقام لكم فسيروا

وظل هذا شأن أبي سفيان من الإسلام حتى كان الفتح، فجاء إلى زوجه وولده فقال: تهيأوا للخروج فقد أظل قدوم محمد، فقالا: فدانا لك أن تبصر أن العرب والعجم قد تبعت محمداً، وأنت مُوضِعٌ في عداوته وكنت أولى الناس بنصرته[4]. فخرج يريد رسول الله، فلقيه بين مكة والمدينة، فكلمته أم سلمة فيه فقال[5]: " **أما ابن عمي فهتك عرضي**"، فلما علم أبو سفيان بذلك قال: والله لَيَأذَنَنَّ لي أو لآخذن بيدي هذا - وكان ابنه جعفر معه - ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً. فلما بلغ ذلك رسول الله، رق له، فأذن له، فدخل على رسول الله فأسلم[6]، ثم قال يمدح الرسول الكريم، ويعتذر إليه مما كان مضى:

لعمرك إني يـــوم أحمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمـــد
لَكَالْمُدْلِجِ الحيران أظلم لَيْلُهُ	فهذا أوانـــي حين أهدى وأهتدي[7]
هداني هاد غير نفسي ونالني	مع الله مـــن طردت كـــل مطرد
أصد وأنأى جاهداً عن محمد	وأدعى - وإن لم أنتسب - من محمد[8]
هم ما هم من لم يقل بهواهم	وإن كـــان ذا رأي يلـــم ويفند[9]

---

[1] السيرة/ق٢/٢٧٢، فتى البلدان/ ١٩.

[2] الطرائق: النواحي.

[3] التزه: البعد.

[4] ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤/ ٥٠.

[5] السيرة/ق٢/٤٠٠، الواقدي/ المغازي/ ٤١٣.

[6] الطبقات الكبرى/ ابن سعد/ ٤/٥١، تاريخ الطبري/٣/٥١، والسيرة/ق٢/٤١٠.

[7] المدلج: الذي يسير بالليل.

[8] أنأى: أبعد.

[9] يفند: يُلامُ ويكذب.

أريد لأرضيهم ولست بلائط   مع القوم مـــا لم أهد في كل معقد[1]

وحسن إسلام أبي سفيان، ومضى يكفر عن سيئاته، فشهد يوم حنين مع رسول الله هو وابنه جعفر، وثبتا معه حين أكتشف الناس عنه، فاقتحم أبو سفيان عن فرسه يريد الموت دون رسول الله[2] وهو يرتجز[3]:

بنو أبيه اليوم من أمامه   ومن حواليه ومن أهضامه

فقاتل المسلم عن إسلامه   وقاتل الحرمي عن إحرامه

فقال رسول الله: **"من هذا" فقال له العباس: أخوك أبو سفيان، قال: "أخي أيها الله إذن" وكان يقول: "أبو سفيان أخي وخير أهلي، وقد أعقبني الله من حمزة أبا سفيان بن الحارث" فكان يقال لأبي سفيان بعد ذلك أسد الله وأسد الرسول**[4]، وقال أبو سفيان في ثباته يوم حنين[5]:

لقد علمت أفناء كعب وعامر   غداة حنين حين عم التضعضع

بأني أخو الهيجاء أركب حدها   أمـــام رسول الله لا أتتعتع

رجاء ثـــواب الله والله واسع   إليه تعالى كـــل أمـــر سيرجع

وهكذا أصبح أبو سفيان محباً لله ورسوله أكثر مما كان مبغضاً مباعداً لهما، وظهر قلبه فغدا تقياً شديد التقى، وروي عنه أنه قال لأهله حين حضرته الوفاة: **لا تبكوا علي، فإني لم أتنطف بخطيئة منذ أسلمت**[6].
وحين قبض رسول الله بكاه فأكثر البكاء، فمن ذلك قوله[7].

لقد عظمت مصيبتنا وجلت   عشية قيل قد قبض الرسول

فقدنا الوحي والتنزيل فينا   يروح بـــه ويغدو جبرئيل

نبي كان يجلو الشك عنا   بمـــا يوحى إليه وما يقول

ويهدينا فلا نخشى ضلالا   علينـــا والرسول لنا دليل

---

[1] لائط: ملصق.

[2] طبقات ابن سعد/٤/٥٠.

[3] أنساب الأشراف/ ١/٣٦٥، الواقدي/ المغازي/٤١٨.

[4] طبقات ابن سعد/٤/٥٢.

[5] نفسه/٥٢.

[6] طبقات ابن سعد/٤/٥٣.

[7] الاستيعاب/٤/١٦٧٥ -١٦٧٦، الروض الأنف/٢/٣٨٠.

ويبدو أن معظم شعره الإسلامي قد ضاع، لأن ما بين أيدينا منه لا يعكس لنا الصورة الحقيقية لما كان عليه موقف أبي سفيان من الإسلام، فإن ما حفظته لنا كتب التاريخ والسير، لا يزيد على سبع مقطوعات قصيرة. معظمها بعد إسلامه، وإلى ذلك يشير ابن سلام بقوله[1]: ولسنا نعد ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً، ولئن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم". ويظهر أن أبا سفيان نفسه قد عمل على طمس ما قال ضد الإسلام، وعمل المسلمون على طمس ما ذاع منه بين الناس، وتحرج الرواة من روايته وحفظه حرصاً على ألا يشيع ما يمس الرسول بسوء، فنحن نستبعد أن يصمت عن القول يوم بدر مع شدة وقع المصيبة على نفسه.

ولئن ضاع معظم شعره ضد الإسلام، فقد أهمل شعره في إسلامه أيضاً، وإلى ذلك يشير ابن سعد في الطبقات الكبرى بقوله[2] "وقال أبو سفيان بن الحارث في يوم حنين أشعاراً كثيرة تركناها لكثرتها". ويقول صاحب الاستيعاب[3] بأن أبا سفيان بكى رسول الله كثيراً ورثاه، ونبحث عن ذلك، فلا نجد ما يشبع نهم الباحث وفضوله.

هبيرة بن أبى وهب المخزومي:

كان من شعراء قريش وفرسانهم المعدودين، بدأ نشاطه ضد الدعوة الإسلامية منذ ظهورها، فكان من أشد الناس عداوة لله ولرسوله[4]. وجابه الإسلام بسيفه ولسانه فاشترك في القتال يوم بدر، وقاتل يومئذ قتالا شديداً حتى سقط من الإعياء، فمر به **أبو أسامة معاوية بن زهير** وهم منهزمون فألقى عنه درعه تَخَفَّفاً ثم حمله فمضى به[5].

وكان هبيرة واحداً من الشعراء الذين بعثت بهم قريش إلى العرب بعد هزيمة بدر، يستنجدونهم ويستنصرون بهم على رسول الله[6]، فاستطاعوا أن يسوقوا كنانة من أطراف ذي يمن أو كما يقول هبيرة[7]:

سقنا كنانة من أطراف ذي يمن   عُرْضُ البلاد على ما كان يزجيها[1]

---

[1] ابن سلام/ طبقات الشعراء/ ٩٦.

[2] ابن سعد: الطبقات الكبرى/٤/٥٢.

[3] الاستيعاب/٤/١٦٧٥.

[4] طبقات الشعراء/١٠١.

[5] السيرة/ق٢/٣٤.

[6] أنساب الأشراف/١/٣١٢.

[7] السيرة/ق٢/١٣٠.

قالت كنانة: أنى تذهبون بنا؟ قلنا: النُّخَيْلُ فأموها ومـــن فيها[2]

دخل هبيرة معترك الصراع الأدبي في يوم أحُدٍ،أما قبل ذلك فلا نجد له شيئاً. وكان يومئذ أحد فرسان قريش المعلمين الذين أعدوا أنفسهم. للأخذ بثأر قتلى بدر، ولعل هبيرة قد أَحَسَّ بمكانته في قومه فانطلق يفتخر بنفسه ويقول[3]:

وقد حملت سلاحي فوق مشترف ساط سبوح إذا تجري يباريها[4]

أعددته ورقاق الحـــد منتخلا ومارناً لخطوب قـــد ألاقيها[5]

هذا وبيضاء مثل النّهْيِ محكمة نيطت علي فما تبدو مساويها[6]

وعندما تحزبت الأحزاب على المسلمين، كان هبيرة في طليعة الفرسان الذين لبوا نداء قريش. ولما طال حصار الأحزاب للمدينة تلبس هبيرة للقتال في فرسان من قريش، ثم أقبلوا تسرع بهم خيلهم فَتَيَمُّموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه[7]. وقتل **عمرو بن عبد ود العامري**، ففر هبيرة لا يلوي على شيء، فعيّره **مسافع بن عبد مناف** وعير زملاءه الذين فروا معه من حول عمرو فقال[8]:

وهبيرة المسلوب ولى مدبراً عند القتال مخافة أن يقتلوا

وكأن هبيرة قد شعر بالعار والحرج لهذا الفرار، فبادر إلى اختلاقا لمسوغات واصطناع المحاذير فقال[9]:

لعمري ما وليت ظهري محمداً وأصحابه جبنا ولا خيفة القتل

ولَكِنَّني قلت أمري فلم أجد لسيفي غناء إن ضربت ولا نبلي

---

[1] عرض البلاد: سعتها. ويزجيها: يسوقها.

[2] يريد بالنُّخَيْلِ (كزبير): مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي اسم لعين قرب المدينة.

[3] السيرة/ق٢/١٢٩- ١٣٠.

[4] مشترف: أي فرس يستشرفه الناس أي ينظرون إليه لحسنه. والساطي: البعيد الخطو إذا مشى. والسبوح: الذي يسبح في جريه كأنه يعوم. ويُباريها: يعارضها.

[5] رقاق الحد: يريد سيفاً. ومنتخلاً: متخيراً. والمازن: الربح اللين عند الهز.

[6] بيضاء: درع. والنهي: الغدير في الماء، ونيطت: علقت.

[7] السيرة/ق٢/٢٢٤، الاستيعاب/٤/١٩٦٣.

[8] السيرة/ق٢/٢٦٧.

[9] السيرة/ق٢/٢٦٧.

وقفت فلما لم أجد لي مَقْدَماً صددت كضرغام هِزَبْرٍ أَبي شِبْلِ[1]

وكان عمرو بن عبد ود فارساً من فرسان قريش معلماً، كما كان شريكا لهبيرة في اقتحام الخندق، فلما قتل، كان طبيعياً أن يبادر هبيرة إلى رثائه وإلى الإشادة بفروسيته، فاقل يبكيه، ويذكر قتل علي بن أبي طالب إياه:[2]

لقد علمت عليا لؤي بن غالب لفارسها عمروٌ إذا ناب نائب

عشية يدعـوه علي وإنـه لفارسها إذ خام عنه الكتائب[3]

فياهف نفسي إن عمراً تركته بيثرب لا زالت هناك المصائب

وظل هبيرة جامداً على كفره، فنفسه الصلبة لم تلن للإسلام ولم تقبله، فلما كان يوم الفتح هرب إلى نجران النصرانية، ومات هناك كافراً [4]. أما زوجه أم هانئ بنت أبي طالب فقد أسلمت كسائر قومها، وبعثت إليه أن يأتي رسول الله مسلماً، ولكن ذلك لم يَرُقْ هبيرة فبعث إليها يؤنبها حيث قال[5]:

وعاذلـة هبت بليل تلـومني وتعذلني بالليل ضل ضلالهـا

وتزعم أني إن أَطَمْتُ عشيرتي سأردى وهل يردين إلا زِيَالُهَا[6]

وإني لأقلي الحاسدين وفعلهم على الله رزقي نفسها وعيالها[7]

فإن كنت قد تابعت دين محمد وعطفت الأرحام منك حبالها

فكوني على أعلى سحيق بهضبة ململمة غبراء يبس بلالهـا[8]

وهكذا وقف هبيرة في وجه الإسلام بسيفه وشعره، غير أن ما وصلنا من شعره قليل جداً، مع أن ابن سلام يقول فيه[9]: **وله شعر كثير وحديث"**، ونبحث عن هذا الشعر الكثير فلا نعثر منه إلا على

---

1 الهزبر: الشديد. الضرغام: الأسد.

2 السيرة/ق٢/٢٦٨.

3 خام: جبن ورجع.

4 أنساب الأشراف/١/١٥٦.

5 السيرة/ق٢/٤٢٠- ٤٢١، سير أعلام النبلاء/٢/٢٢٧.

6 زبالها: ذهابها.

7 قلاه: أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه.

8 الهضبة: الكندية العالية. والململة: المستديرة. الغبراء: التي علاها الغبار. ويبس: يابسة.

9 طبقات الشعراء/ ١٠٢.

على أربع قصائد ومقطوعات ،رواها له ابن هشام في السيرة[1]، منها اثنتان في رثاء عمرو بن عبد ود العامري يوم الخندق. وعلى هذا، فنحن نظن أن أكثر شعره قد ضاع وطمس، لسبب بسيط، وهو أن الرواة قد تحرجوا من رواية الشعر الذي فيه تعريض بالإسلام، ونيل من النبي وأصحابه، كما أن بعض القدماء من علمائنا قد أشاروا صراحة إلى إهمال شعر من ثبت على كفره من المشركين[2]. وشاعر كهبيرة قد ثبت على كفره، وحارب الإسلام بعنف، وجاهر بعدائه للنبي الكريم، نستبعد أن يكون هذا كل شعره.

وعرفت مكة شعراء آخرين كان لهم نشاط في مجال الصراع،ولكنهم كانوا مقلين أو عفى الدهر على ما قالوه من شعر الطعن والهجاء، واحتفظت كتب التاريخ والسير التي عنيت بشعر الصراع لكل واحد من هؤلاء الشعراء بمقطوعة أو أكثر تبعاً لبلائه ونشاطه، ومن هؤلاء:

أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي:

كان أبو عزة شاعراً ذا نشاط بارز في عدائه للرسول وأصحابه، فكان يُحَرِضُ على النبي الكريم، ويستنفر المشركين على قتال المسلمين. وقد ساهم مع غيره من شعراء قريش –في محاربة الإسلام بلسانه وسيفه، على الرغم من كبر سنه وفقره، إذ كان مملقاً ذا عيال[3]. شارك أبو عزة في غزوة بدر - فأسر، وجيء به إلى النبي، فشكا إليه الفقر والعيال، فرق له وخلى سبيله، بعد أن عاهده ألا يُعِينَ عليه بشعره [4]، فمضى يمدح رسول الله، ويذكر فضله في قومه، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن ينسى من قتل من قومه في يوم بدر، فيقول[5]:

مـــن مبلغ عني الرسول محمداً	بأنك حـــق والمليك حميد
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى	عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امــرؤ بوئت فينا مبـــاءة	لها درجات سهلة وصمود
فإنـــك مـــن حاربته لمحـــارب	شقي ومـــن سالمته لسعيد
ولكـــن إذا ذكرت بدراً وأهله	تأوب مـــا بي حَسْرَةً وقعود

---

1 السيرة/ق٢/١٢٩، ٢٦٧، ٢٦٨، ٤٢٠.

2 الروض الأنف/٢/٥٧.

3 السيرة/ق١/٦٦٠، طبقات الشعراء/٩٩.

4 العمدة/١/٦١، الاشتقاق/١/١٢٤.

5 طبقات ابن سلام/٩٩، البداية والنهاية/٣/٣١٢.

وعاد أبو عزة إلى مكة، وأمسك عن ذكر النبي، والتأليب عليه، ولكن صفوان بن أمية الجمحي قد اسْتَغَلَ فيه حاجته وأطْمَعَهُ أن يكفيه[1]. وأن يعطيه من المال ما شاء إن سلم، وأن يكفي عياله إن قتل، فاستجاب أبو عزة لِعَرْضِ صفوان بعد تردد، إذ لم يكن يهمه دينه وعهده بقدر ما تهمه مصلحته، فخرج إلى بني كنانة يحضض على رسول الله ويُؤَلِبُ عليه[2].

ولما كان يوم أحد، كانت نهاية أبي عزة قد أوشكت، ذلك أن المسلمين قد أَسَرُهُ، و عندما جيء به إلى الرسول الكريم قال: يا رسول الله، مُنَّ عَلَيّ، فقال الرسول:" إن المؤمن لا يلدغ من جُحْرٍ مرتين، لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعت محمداً مرتين" فأمر به فقتل[3].

ونتجاوز الظن إلى الترجيح بأن شعر أبي عزة قد سقط من يد الزمن، وتحرج الرواة من حفظه، لما فيه من مس بالرسول الكريم ودعوته، فإن نزول آيات الشعراء ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾". وأنهم يقولون مالا يفعلون" كان بشأنه[4]، كما أن هدر الرسول لدمه، ووصف المصادر القديمة له بأنه شاعر قريش[5]، يدل على أنه مارس دوراً خطيراً بشعره ضد الإسلام.

أبو أسامة معاوية بن زهير بن قيس:

كان أبو أسامة على دين الشرك، حارب المسلمين في بدر،وكان مر بهبيرة بن أبي وهب، وهم منهزمون، وقد أعيا هبيرة، فألقى عنه درعه، وحمله فمضى به، فقال يَمُنُّ على هبيرة ويفخر بنفسه[6]:

وأبلغ إن بلغت المرء عنا	هبيرة وهو ذا علم وقدر
بأني إذ دعيت إلى أفيد	كررت ولم يضق بالكر صدري
فلولا مشهدي كانت عليه	موقفة القوائم أم أجري[7]

---

[1] أنساب الاشراف/١/٣١٢، تاريخ الطبري/٢/٥٠١، الأغاني/١٤/١٢.

[2] الاشتقاق/١/١٣١.

[3] الواقدي/ المغازي/٢٩٩، طبقات ابن سلام/١٠٠.

[4] تفسير القرطبي/١٣/١٥٢.

[5] الاشتقاق/١/١٢٤.

[6] السيرة/ق٢/٣٥.

[7] الموقفة –هنا - الضبع. وأجري: جمع جرو، وهو ولدها.

دفـــوع للقيـــود بمنكبيها كـــأن بوجههـــا تحميم قدر[١]

وينسب إلى أبي أسامة هذا أصح أشعار أهل بدر، فمن ذلك قوله يفتخر بنفسه[٢]:

وقـــرن قد تركت على يديه ينـــوء كـــأنـــه غصن قصيف

دلفت له إذ اختلـــوا بَحِرَّى مسحسحة لعاندهـــا حفيف [٣]

فذلك كـــان صنعي يوم بدر وقبـــل أخـــو مداراة عزوف

ومقدام لكـــم لا يزدهيني جنان الليل والأنس اللفيف [٤]

أخوض الصرة الجماء خوضاً إذا ما الكلب أَلْجَأَهُ الشفيف [٥]

فخوض المعارك عند أبي أسامة وسيلة إلى الفخر بالنفس والشجاعة والكرم. وليس هذا كل شعره، فقد ترك له ابن هشام قصيدة على اللام، لأنه لم يكن فيها ذكر بدر إلا في البيتين الأولين[٦]. وهكذا كان شعر أبي أسامة يدور حول المصلحة الفردية، فلم يكن يهمه من أمر هذه الغزوات، كما يبدو من شعره غير الظهور والاعتزاز بالنفس. ولدى حصار المدينة يوم الأحزاب، رمى سعد بن معاذ بسهم، فأصابه بأكحله، فقتل منه سعد، فكان مقتل سعد هو الآخر سبيلاً للفخر، ومدعاة للبطولة عند أبي أسامة، فهو يخاطب عكرمة ابن أبي جهل مذكراً بدوره في المعركة فيقول[٧]:

أعكـــرم هلا لُمْتني إذ تقول لي فـــداك بآطـــام المدينـــة خالـــد

ألست الذي ألزمت سعداً مرشة لهـــا بين أثنـــاء المرافـــق عانـــد[٨]

قضى نحبه منها سعيد فأعولت عليه مع الشمط العذارى النواهد[١]

---

1 التحميم: التلطيخ بالسواد.

2 السيرة/ق٢/٣٧ -٣٨.

3 دلفت: قربت، حرى: طعنة موجعة، ومسحسحة: كثيرة سيلان الدم. العاند: العرق الذي لا ينقطع دمه. الحفيف: صوته.

4 جنان الليل: ظُلْمتُهُ، اللفيف: الكثير.

5 الصرة: الجماعة، وقد يكون أيضاً شدة البرد وإياها عنى لذكره الشفيف في آخر البيت.

6 السيرة/ق٢/٣٨.

7 السيرة/ق٢/٢٢٧- ٢٢٨.

8 مرشه: رمية أصابته فأطارت رشاش الدم منه.

وأنت الذي دافعت عنه وقد دعا عبيدةُ جمعـاً منهـم إذ يُكـابدُ
على حين ما هم جائرٌ عن طريقه وآخر مرعوبٌ عن القصد قاصد[2]

وغاض صوته بعد الخندق، ولفه الغموض والنسيان بستار كثيف، فلم نعد نسمعه أو نعرف من أمره شيئاً.

الحارث بن هشام:

كان شريفاً في الجاهلية، ومدحه كعب بن الأشرف اليهودي[3]. عرف بعدائه للرسول لدعوته، فوقف ضدها، ثم شارك قريشاً في حمل السيف فغزا بدراً وأُحُداً مع المشركين[4]

وكان الحارث من رجال مكة المعدودين والمعروفين بالشجاعة، ولذلك أثار فراره يوم بدر اهتمام الكثيرين من المسلمين والمشركين على السواء، فرد على هذا الاهتمام، وقدم من التسويغات ما جعل من رده أجمل ما قيل في الفرار، وذلك قوله[5]:

الله يعلم مـا تركت قتالـهم حتى علوا فرسي بأشقر مزبد[6]
ووجدت ريح الموت من تلقائهم فـي مـأزق والخيل لم تتبدد
وعرفت أني إن أقاتل واحـداً أقتل ولا ينكى عدوي مشهدي
فصددت عنهم والأحبة فيهم طمعـاً لهم بعقاب يوم مفسد

وقال يبكي أخاه أبا جهل[7]:

ألا يا لهْف نفسي بعد عمرو وهل يغني التلهف من قتيل
يخبرنـي المُخَبّر أن عمـراً أمام القوم في جَفْرٍ مُحيل[8]
وكنت بنعمة ما دُمْت حيَّاً فقد خلفت في درجِ المسيل[9]

---

[1] النحب: الأصل، الشمط: جمع شمطاء وهي التي خالط شعرها الشيب، والنواهد: جمع ناهد وهي التي ظهر نهدها.

[2] المرعوب: المفزّع.

[3] الزركلي: الأعلام/٢/١٦١.

[4] الاستيعاب/١/٣٠٢.

[5] السيرة/ق٢/١٨، الاستيعاب/١/١٣٠١ -٣٠٢.

[6] يريد بالأشقر: الدم، مزبد: الذي قد علاه الزبد، وينكى: يؤلم ويوجع.

[7] السيرة/ق٢/٢٨.

[8] الجفر:البئر التي لا بناء لها، المحيل: القديم المتغير.

[9] يريد بدن المسبل: موطن الذل والقهر.

كأني حين أمسي لا أراه   ضعيف العقد ذوهم طويل[1]

وأسلم الحارث يوم الفتح، فكان من المؤلفة قلوبهم، شهد مع الرسول حنيناً فأعطاه مائة من الإبل، كما أعطى المؤلفة قلوبهم، وحسن إسلامه فيما بعد، فكان من فضلاء الصحابة وخيارهم، ولم ير منه في إسلامه شيء يكره[2].

وشعر الحارث قليل، لا يتناسب مع الدور الذي لعبه ضد الإسلام، زد على ذلك أن بعض هذا الشعر مشكوك في صحة نسبته إليه. فقد روى له ابن هشام خمس مقطوعات، شك في ثلاث مها، ولذلك لم نستطع أن نستبين مكانته الأدبية، وأن نقدرها حق قدرها.

أبو سفيان بن حرب:

كان زعيم قافلة التجارة يوم بدر، ولما عرض لها الرسول ساحل بها، واستطاع أن يصل إلى مكة سالماً. وعندما هزم المشركون يوم بدر، أُسِرَ ابْنُهُ عمرو، فرفض أن يفديه رفضاً منه للهزيمة. فلما خرج **سعد بن النعمان بن أكال** إلى مكة معتمراً وكان شيخاً مسلماً، لم يظن أنه سوف يحبس بمكة، فقد كان عهد قريش ألا يعرضوا لأحد جاء حاجاً أو معتمداً إلا بخير. غير أن أبا سفيان انْتَهَكَ حرمة مكة، فعدا عليه فحبسه بابنه عمروه ثم قال يحث بني عمرو على افتدائه بابنه[3]:

أرهط ابن أكالٍ أجيبوا دعاءه   تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا

فإن بني عمرو لئـــام أذلـــة   لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكبلا

ويكشف شعره جانباً من المناورات السياسية التي كانت تقوم بها قريش بعد بدر لكسب الحلفاء والأعوان ضد الرسول، فقد خرج أبو سفيان حتى أتى بني النصير ليلاً، فترل على سيدهم سلام بن مشكم، فقراه وسقاه، ونقل إليه ما يعرف من أسرار المسلمين، ثم بعث أبو سفيان رجالاً من قريش إلى المدينة، فقتلوا رجلين من الأنصار، وحرقوا بعض النخيل في العريض، ثم كروا راجعين[4]، فقال أبو سفيان يذكر ذلك[5]:

---

[1] العقد –هنا - العزم والرأي.

[2] الاستيعاب/١/٣٠٢.

[3] أنساب الأشراف/١/٣٠٠، تاريخ الطبري/٢/٤٦٧.

[4] السيرة/ق٢/٤٤.

[5] نفسه/٤٦، والمغازي/١٨٢، والبداية والنهاية/٣/٣٣٤.

وإني تخيرت المدينة واحــداً … لحلف فلــم أندم ولم أتلومِ[1]
سقاني فرواني كميتاً مدامــة … على عجل مني سلام بن مشكمِ[2]
ولما تولى الجيش قلت ولم أكن … لأفرحــه: أبشر بعِــزٍ ومغنمِ[3]
تأمل فــإن القــوم سِرٌّ وإنهم … صريحُ لؤي لا شماطيطُ جُرْهُمِ[4]
وما كان إلا بعض ليلة راكب … أتى ساعياً مــن غير خُلَّةٍ معدم
وذاك أبو عمرو يجود وداره … بيثرب مأوى كل أبيض خضرم

وكاد أبو سفيان زعيم مكة وقائد قريش يوم أحد، وشعره - يومئذ - يعكس نفسية الزعيم القائد في تلك الغزوة، فتراه يعتد بشجاعته وصبره، ويفخر ببلائه في قتال المسلمين، ويذكر معاونة أبي شعوب له فيقول[5]:

ولــو شئت نجتني كميت طمرة … ولم أحمــل النَّعْماء لابن شعــوبِ[6]
وما زال مهربي مزجر الكلب منهم … لــدن غدوة حتى دنت لغــروبِ[7]
أُقاتلهم وأُدعــى يــا لغــالب … وأدفعهــم عنــي بركــن صليبِ
وسلَّى الذي قد كان في النفس أنني … قتلت مــن النجــار كــل نجيبِ
ولو أنني لــم أشف نفسي منهم … لكانت شجا في القلب ذات ندوبِ[8]

وشعر أبي سفيان ينقل لنا مشاعر الزعماء والأشراف وأحاسيسهم من الإسلام، ويبرز جانباً من النشاط السياسي الذي كانوا يقومون به لمحاربته.

وهناك شعراء آخرون مقلون أنطقتهم الأحداث، نكتفي بذكرهم والإشارة إلى أشعارهم، وذلك لقلة إنتاجهم، وعوامل الشك في بعض ما قالوا من جانب، وتجنباً للإطالة من جانب آخر.

---

[1] لم أتلوم: لم أدخل فيما أُلام عليه.

[2] كميت: من أسماء الخمر.

[3] لأفرحه: لأشق عليه.

[4] سر القوم: خالصهم، وكذلك الصريح منهم، وشماطيط: مختلطون.

[5] السيرة/ق٢/٧٥-٧٦، تاريخ الطبري/٢/٥٢٣.

[6] الطمرة: الفرس السريعة الوثب.

[7] مزجر الكلب: كناية عن القريب، ودنت لغروب: يعني الشمس.

[8] الشجا: الحزن، والندوب: آثار الجروح، واحدها: ندب.

من هؤلاء **الأسود بن المطلب** وردت له مقطوعة من ستة أبيات في رثاء أبنائه يوم بدر[١]، ومقطوعة أخرى يفخر فيها بنفسه[٢]. **وأبو بكر شداد بن الأسود بن شعوب الليثي** وردت له مقطوعة من بيتين يَمُنُّ على أبي سفيان بن حرب فيما دفع عنه يوم أحد [٣] ومقطوعة أخرى يبكي فيها قتلى بدر من قريش[٤].

ومسافع بن عبد مناف الجمحي، وردت له ثلاث مقطوعات، إحداها رجز قاله في تحريض بني مالك بن كتانة على الرسول[٥] والثانية قالها يوم الأحزاب في تأنيب فرسان عمرو بن عبد ود الذين صاحبوه، ثم أجلوا عنه وتركوه، [٦] ومقطوعة أخرى في رثاء عمرو ابن عبد ود يوم الأحزاب أيضاً[٧].

وعمرو بن العاص السهمي، وقد وردت له مقطوعتان، يصف في إحداهما شدة قومه وبلاءهم يوم أحد[٨]، وفي الثانية يصف فرسه يوم أحد أيضاً[٩]. ولم نجد له شعراً ضد الإسلام غير هاتين المقطوعتين، مع أن الأخبار التي وصلتنا عنه، تحكي أنه كان مباعداً للإسلام، وقيل: إنه كان يكثر من هجاء النبي ودينه بما هو أشد إيلاما وخطراً من أي تعذيب[١٠].

ومن هؤلاء أيضاً مَقِيسُ بن صبابة وله مقطوعة في ارتداده[١١]، ومقطوعة أخرى يفتخر فيها بإدراك ثأر أخيه[١٢]، فكان إسلامه لقضاء مصلحة، فلما قضاها رجع إلى مكة مشركاً.

---

[1] المغازي/١١٧، السيرة/ق١/٦٤٨، تاريخ الطبري/٢/٤٦٤، الأغاني/٤/٣٤، حماسة أبي تمام/١/٢٥٩، أنساب الأشراف/١/١٤٩.

[2] كتاب حذف من نسب قريش/٥٣.

[3] السيرة/ق٢/٧٧.

[4] السيرة/ق٢/٢٩، أنساب الأشراف/١/٣٠٧، تاريخ الطبري/٢/٥٢٤.

[5] السيرة/ق٢/٦١، تاريخ الطبري/٢/٥٠١، الأغاني/٤/١٢.

[6] السيرة/ق٢/٢٦٧.

[7] نفسه/٢٦٦.

[8] نفسه/١٤٣.

[9] نفسه/١٤٤.

[10] درطغم: حياة محمد/ ٩٦.

[11] السيرة/ق٢/٢٩٣، تاريخ الطبري/٢/٦٠٩، أنساب الأشراف/١/٣٥٩، تفسير الطبري/٥/٣٣٣، معجم البلدان/٦/٣٢٧.

[12] السيرة/ق٢/٢٩٤، أنساب الأشراف/١/٣٥٩، تاريخ الطبري/٢/٦٠٩.

ومنهم طالب بن أبي طالب، وقد روت له كتب التاريخ والسير مقطوعتين أيضاً، أولاهما في مدح الرسول وبكاء أصحاب القليب من قريش، ويبدو فيها موزع العاطفة مضطرب النفس، شديد الأسى[1]، والثانية: رجز قاله في امتناعه في القتال يوم بدر[2].

وحماس بن قيس بن خالد، رُوِي له رجز يوم الفتح يخاطب به امرأته ويصف لها فيه فرار عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية أمام المسلمين يوم الخندمة[3]. ورجز آخر في خروجه لحرب المسلمين[4]. وقد أشرنا إلى هؤلاء الشعراء ولو إشارة عابرة، لأنهم يعبرون بما قالوا - ولو كان قليلاً جداً - عن موقفهم من الإسلام، وينقلون أحاسيس بعض الناس ومشاعرهم في مكة، فالشعر الحَرْبِيّ كان يمثل الرأي العام في المجتمع الجاهلي، إلى جانب أن هذا الشعر يكشف لنا عن بعض جوانب الصراع بين المسلمين والمشركين.

النساء الشواعر:

وكانت بمكة نساء شواعر، فلما الْتهَبَتْ نار الصراع العسكري، بادرن إلى المشاركة فيه، وبخاصة بعد هزيمة بدر، وقتل الكثيرين من زعماء مكة وأشرافها وخيرة شبابها. ومن هؤلاء النسوة من أصيبت في أهلها، فأذكى ذلك شاعريتها. وقد لعب هؤلاء النسوة دوراً هاما، وكان لهن أثر كبير في إثارة الأحقاد وبعث الضغائن، وإذكاء المشاعر، وبكاء القتلى. ومن هؤلاء.

هند بنت عتبة:

كانت هند من ربات الرأي والعقل والفصاحة والأدب والشعر[5]، فلما بعث النبي كانت هند من أشد نساء مكة عداء له ولدعوته، إذ كانت تتصدى لكل من يسلم من رجال مكة ونسائها، وبخاصة إذا كانوا من أقاربها. ويبدو أنها كانت شديدة التمسك بالأصنام، فقد روى صاحب

---

[1] السيرة/ق٢/٢٦، البداية والنهاية/٣/٣٤١.

[2] السيرة/ق/٦١٩، الأغاني/٤/١٨٣، مروج الذهب/٢/٢، الطبقات الكبرى/١/١٢١.

[3] السيرة/ق٢/٤٠٨. تاريخ الطبري/٣/٥٨، إمتاع الإسماع/١/٣٧٩، الاستيعاب/٢/٧١٩، أنساب الأشراف/١/٣٥٦

[4] السيرة/ق٢/٤٠٧، تاريخ الطبري/٣/٥٨، إمتاع الأسماع/١/٣٧٩، معجم ما استعجم/٢/٥١٢.

[5] أعلام النساء (كحالة)/٥/٢٣٩

صاحب السيرة[1]: أن أبا لهب مر بها ذات يوم فقال: يا بنت عتبة: هل نصرت اللات والعزى، وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما؟ قالت: نعم، فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة.

وكانت هند في طليعة النساء الشواعر اللاتي شاركن في الصراع، فقد تصدت بشعرها للمسلمين حتى ولو كانوا ذوي قربى. وبرز نشاطها الأدبي منذ غزوة بدر، وكان ذلك حين دعا أخوها حذيفة أباه عتبة للبراز يؤمئذ، فاسْتَعَظَمَتْ ذلك واسْتَغْلَظَتَه، ورأت فيه خذلانا لدين الآباء، وعقوقاً لهم، فقالت تهجوه[2]:

الأَحوال الأثعل المشؤوم طائره	أبو حذيفة شر الناس في الدين[3]
أما شكرت أبا رباك من صغر	حتى شببت شباباً غير محجون

ولما قدم فل المشركين على مكة، لم يكن أبوها وعمها وأخوها مع القادمين، فاستعظمت المصيبة، فكانت تخرج إلى سوق عكاظ فتفاخر نساء العرب بمصابها، فمن قولها تفاخر خنساء بني سليم[4]:

أبكي عميد الأبطحين كليهمـــا	وحاميهما مـــن كل باغ يريدها
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي	وشيبة والحامي الذمار وليدهـــا
أولئك آل المجد مـــن آل غالب	وفي العز منها حين ينمى عديدها

وكان مقتل أبيها شديد الوقع على نفسها، فهي دائماً حزينة غضبى، بل ومستلبة العقل أيضاً، وقد أنطقتها مصيبتها بشعر حزين يفيض باللوعة والأسى، من ذلك قولها[5]:

يا عين بكي عتبه	شيخا شديد الرَّقَبَهْ
يطعم يوم المَسْغَبَه	يدفع يوم الغَلَبَه[6]
إني عليه حَرِبَهْ	ملهوفـــة مُسْتَلَبَهْ[7]

---

1 السيرة/ق١/٣٥١.

2 الطبقات الكبرى/٣/٨٥، الاستيعاب/٤/١٦٣١.

3 الأثعل: مرادف الأسنان.

4 الأغاني/٤/٣٥، أعلام النساء/٥/٢٤٣.

5 السيرة/ق٢/٤٠.

6 المسغبة: الجوع والشدة.

7 حربة: حزينة غضبى، ومستلبة: مأخوذة العقل.

وخرجت في نساء قريش يوم أحد يحرّضن على القتال، ويذكرن بيوم بدر، فلما انتصر المشركون، وقعت هند ومن معها يمثّلن بالقتلى من أصحاب الرسول، يجدعن الآذان والآنف، حتى اتخذت من آذان الرجال وآنفهم خدما وقلائد، وأعطت خدمها و قلائدها وقرطتها وحشياً، غلام **جبير بن مطعم** الذي قتل حمزة، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها ثم علت على صخرة مشرفة، فصرخت بأعلى صوتها[1]:

نحـــن جزيناكـــم بيوم بدر — والحرب بعد الحرب ذاتُ سُعْرِ[2]

ما كان عن عتبة لي من صبر — ولا أخـــي وعمـــه وبكـــري

شفيت نفسي وقضيت نذري — شفيت وحشي غليل صدري[3]

فشكر وحشي عليّ عمري — حتى تـــرمَّ أعظمي في قبري[4]

وهكذا، كان موقف هند من الإسلام مليئاً بالحقد والبغض، وكانت مستعدة للتضحية بكل نفيس في سبيل الانتقام والأخذ بالثأر والمرأة إذا حقدت فإن عواطفها بالكراهية تغلي كالمرجل، ولذلك كله كان شعرها مصوراً لأحاسيسها، مترجماً لعواطفها، كانت صادقة في حزنها على قتلاها، صادقة في الاشتفاء لهم، جادة في الأخذ بثأرهم، ومع هذا ظلت تحس أنها لم تشتف كما كانت تبتغي. ولهذا رجعت إلى مكة وفي نفسها أحزان كثيرة أو كما تقول[5]:

رجعت وفي نفسي بلابـــل جمة — وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي[6]

من أصحاب بدر من قريش وغيرهم — بني هاشم منهم ومن أهل يثرب

ولكنني قد نلت شيئاً ولم يكـــن — كما كنت أرجو في مسيري ومركبي

وكان شعر هند شديد الإيلام لنفس الرسول – وبخاصة ما فيه الاشتفاء بقتل عمه حمزة، يدل على ذلك أن حسان بن ثابت تناولها بالهجاء المقذع بقصيدة مطلعها[7]:

أشرت لكاع وكان عادتها — لؤما إذا أشرت مع الكفر

---

[1] السيرة/ق٢/٩١، تفسير القرطبي/٤/١٨٧- ١٨٨.

[2] السعر: الالتهاب.

[3] الغليل: المطش أو حرارة الجوف.

[4] ترمّ: تبلى وتتفتت.

[5] السيرة/ق٢/١٦٨، البداية والنهاية/٤/٦٠.

[6] البلابل: الأحزان، جمة: كثيرة.

[7] تاريخ الطبري/٢/٥٢٦، الأغاني/٤/٢١.

وخبت جذوة فنها بعد أحد، فلم تكن أحداث الخندق وما تلاها لتهز مشاعرها المرهفة، ولم يعد لها نشاط شعري في مقاومة الدعوة، فكأن دورها على مسرح الأحداث قد انتهى، ولكن عداءها للإسلام لم يخب، فقد ظلت تقاومه حتى تم الفتح، يدل على عدائها العنيف للإسلام ما رواه الواقدي قال[١]: لما سار أبو سفيان بن حرب إلى مكة، وأعلم الناس كما أمره رسول الله، لقي الزجر والشدة من قومه، ومن عكرمة بن أبي جهل، ومن زوجة هند حيث لطمته وقالت: اقتلوا الشيخ الأحمق، فإنه قد صبا. ولكنها أسلمت وحسن إسلامها عندما دانت مكة لسلطان الإسلام.

صفية بنت مسافر:

كانت واحدة من النساء الثاكلات، فقد قتل زوجها وأقاربها يوم بدر فأنطقتها الفاجعة بمقطوعتين رثت بهما القتلى، فعندما بلغها أن زوجها قد صرع في بدر، جاشت عواطفها بالحزن فانطلقت نائحة[٢]:

ألا يـــا مـــن لعين	للتبكي دمعهـــا قان[٣]
كَغَرْبَيْ داجٍ يسقي	خلال الغَيّثِ الدان[٤]
وما ليث غريف ذو	أظـــافير وأسنـــان[٥]
أبـــو شبلين وثاب	شديد البطش غرثان[٦]
كحبي إذ تولـــى و	وجـــوه القوم ألوان
وبالكـــف حسام صا	رم أبيض ذكـــران[٧]
وأنت الطاعن النجلا	ء منهـــا مزبد آن[٨]

وجفت عاطفة صفية بعد غزوة بدر، فلم نجد لها شعراً في يوم أحد أو غير أحد، ولم نَعُدْ نسمع لها حسيساً، مع أن قريشاً قد ثأرت لنفسها في ذلك اليوم.

---

[1] المغازي/٤١٣.

[2] السيرة/ق٢/٤١.

[3] قاني: تريد أن دمعها خالطه الدم.

[4] الغرب: الدلو العظيمةن والداج: الذي يمشي بدلوه بين البئر والبستان.

[5] الغريف: موضع الأسد، وهي الأجمة.

[6] غرثان: جائع.

[7] ذكران: أي سيف طبع من مذكر الحديد.

[8] مزبد: أي دمٌ له زبدٌ أي رغوة. آن: حام.

على أن هناك شاعرة أخرى، تلك هي قتيلة بنت النضر بن الحارث. ولم نجد لها غير مقطوعتين: واحدة منهما تفيض باللوعة والأسى، قالتها في رثاء أبيها الذي قتل صبراً في يوم بدر[1]، حتى أن رسول الله لما سمع قولها بكى حتى أخضلت الدموع لحيته وقال: "**لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لمننت عليه**"[2] وقد أثبتنا أبياتها في موضع لاحق من هذا الكتاب والثانية من بيت واحد تمدح به أباها[3].

ومن هذا نرى أن شعر النساء المكيات يعكس جانباً من اتجاهات الصراع مع المدينة، ويكشف عن موقف المرأة من الإسلام ودعوته. ونرى كذلك، أن النساء الشواعر قد نهجن إلى اختيار القوافي السهلة، والموسيقا التي تبعث الشجا، وتتناسب مع مواقف الحزن والأسى، وتثير الحمية والشجاعة، وتحرك العواطف الجامدة، ففي شعرهن بكاء للقتلى، وفيه رنة حزن عميق، وفيه تنفيس عن مشاعرهن المرهفة، وفيه إلى جانب هذا كله تحريض على الأعداء، وحث على الأخذ بالثأر، كما فيه إيحاءات واضحة من الحقد على الرسول ودينه.

أمابعد: فهذا عرض سريع موجز لشعراء مكة وشواعرها، وقفنا فيه على بعض أخبارهم وأخبارهن، كشفنا عن مدى نشاطهم ونشاطهن في الصراع، ومدى ما أحدث شعرهم من تأثير في مشاعر المشركين، وما أثار من أحاسيس. وعرفنا من خلال قوافيه ما وصل إليه الصراع بين مكة والمدينة، ومدى ما ساهم به الشعراء لتعزيز وجهة نظرهم وتدعيم حجتهم، فقد كان الشعر وسيلة الإعلام، كما كان السبيل إلى تحريك العواطف في النفوس، وإيقاظ الهمم، بالإضافة إلى أن كان وسيلة التحريض على القتال، والإقدام على التضحية في سبيل دين الآباء والأجداد والحفاظ على مآثرهم.

الشعر والغزوات

تمهيد:

رأت قريش في دين محمد – منذ ظهوره - خطراً شديداً على مكاسبها وكيانها، وعلى مصيرها أيضاً. وعلى هذا، وجدت نفسها أمام احتمالين لا ثالث لهما: إما أن تسلم وتنضوي تحت لواء

---

[1] السيرة/ق٢/٤٢، البيان والتبيين/٤/٤٤، الأحكام السلطانية/١٣١، الاستيعاب/٤/١٩٠٤، تفسير القرطبي/٨/٥٩، الإصابة/٨/١٦٩.

[2] الاستيعاب/٤/١٩٠٤، تفسير القرطبي/٨/٥٩.

[3] شرح المضنون به على غير أهله/١٥٠.

محمد، وتمسك – من ثم - عن عبادة الأصنام، فتخسر حينئذ زعامتها السياسية والتجارية والدينية بين العرب، وإما أن تقاتل محمداً دون الأصنام والمكاسب والمآثر، فتحتفظ بهذه الزعامة وتبقي عليها، بل وتقوي من تأثيرها بين العرب إن هي أدركت النصر والظهور.

وكان الاختيار عند قريش سهلاً وفي غاية البساطة، فهي تؤثر المصلحة على كل شيء سواها، ثم إن الدين لم يكن عندها سوى وسيلة للحصول على هذه المكاسب. ومن هنا آثرت أن تحارب محمداً ودينه، بل ومن يفكر في نصرة هذا الدين وشد أزر نبيه، ليس في مكة وحدها فحسب، وإنما في المدينة وفي غير المدينة أيضاً.

وتأزم الموقف العسكري بين الطرفين في وقت مبكر، وعلى وجه التحديد منذ بيعة العقبة الثانية، فقد بات مؤكداً أن دين محمد أصبح خطراً على وجودها. ومن هنا خرجت في طلب هؤلاء الأنصار الذين بايعوا الرسول الكريم تريد البطش بهم، غير أنها أخطأتهم إلا واحداً فعذبته وهمت بقتله[١].

وبدأت المناوشات بين الطرفين، واشتد العداء بينهما حتى استحال أَخيراً إلى إصرار على الحرب والقتال. وكانت غزوة بدر الكبرى أول مراحل هذا الصدام المسلح، وأعقبتها بعد ذلك غزوات كثيرة.

وكانت قريش منصرفة عن قول الشعر في الجاهلية إلا قليلاً[٢]، وربما كان تفسير ذلك أنها كانت معنية بالمحافظة على زعامتها ومصالحها من ناحية، وأنه لم يكن بينها ثائرة من ناحية أخرى[٣].

وحين دب الخلاف بينها وبين المسلمين، وهُدّدَتْ مصالحها، واسْتَهْدفَتْ زعامتها وأحدق بها الخطر، استيقظت شاعريتها واستنفر شعراؤها وهبوا يشاركون قومهم مهمة الدفاع عن هذه المصالح وتلك الزعامة، وأيضاً عن هذه التقاليد التي ورثوها عن الآباء والأجداد، وساهموا في التأليب على الدين الجديد، والتحضيض على دعاته، ففي ظلال السيوف إذن وجد الشعر سبيله إلى البعث والنشور، ثم أخذ طريقة إلى النضج والاكتمال. وظهر كثير من الشعراء والشواعر المكيين، واتخذوا مواقعهم في الصفوف، ثم بادروا إلى توجيه هجائهم إلى الرسول الكريم وأصحابه، فقامت بين الطرفين ملاحاة شعرية حامية صاحبت صليل السيوف، وقعقعة الرماح، وغبار خيول

---

[1] السيرة/ق١/٤٤٩.

[2] طبقات الشعراء/٩١، ٩٥، ٩٦.

[3] نفسه/١٠٢.

الفرسان، وباختصار، فإن الشعر قد نهض يواكب الحروب والغزوات ونما وترعرع في كنفها، واقتات على جثث قتلاها وانتصارات أحد أطرافها أو هزائمهم.

وقد آثرت تقسيم هذه الغزوات من خلال ما قيل فيها من شعر إلى قسمين: دفاعية وهجومية، ونهجت هذا النهج في دراسة شعر المشركين لسببين:

أولهما: أن الشاعر يكون في حال نفسية واحدة من حيث ظروف المعركة إن منتصراً أو منهزماً، وتتحرك عواطفه وتوجد لديه دوافع القول تبعاً لذلك، فنشاطه عند الهجوم يبدو أكثر من نشاطه عند الدفاع، ولهجته في وقت الانتصار تختلف عنها في ساعة الهزيمة، فحين ينتصر مثلاً تتولد عنده أفكار كثيرة يمكن أن يصوغها في شعره، كتحرك جيش قومه وكثرته وشجاعة فرسانه وخفة خيولهم وشدة ضرباتهم ولمعان سيوفهم وقدرتهم على تحقيق الانتصار إلى غير ذلك، بينما لا يستطيع أن يفعل مثل هذا في وقت الهزيمة، وإن فعل فافتخر بكثرة جيشه - مثلا - يُرْمَى قومه بالجبن والتخاذل وغيرها من الصفات التي تهز كيان العربي وتنال من كرامته.

ثانيهما: أن الشعر نفسه يتأثر من الناحيتين الفنية والموضوعية تبعاً لذلك، فشعر الرثاء مثلاً يرق ويلطف وتشيع فيه موسيقا مشجية، أما شعر الفخر والحماسة فيقوى ويعنف وتنبعث منه الموسيقا الصاخبة، ثم إن الفخر كثير في مجال الانتصار بينما يشيع الرثاء في أوقات الهزيمة.

ومن ينظر في الشعر الذي قاله شعراء المشركين في يوم بدر، يجد أنهم قد أكثروا البكاء في هذه الغزوة، وأنه شارك في هذا البكاء شعراؤهم وشواعرهم، بينما قل بكاؤهم وكادت تختفي نغمات الحزن في أشعارهم في يومي أحد والخندق.

الغزوات الدفاعية:

وحدث أول صدام بين الفريقين حيث تصدت قريش - بجمع عظيم من أبنائها - لسرية من المسلمين عليها **عبيدة بن الحارث**. ولكن هذا الصدام لم يكن بسهام الحرب وأداة القتال، وإنما كان بسهام أخرى غيرها، كان بسهام الشعر التي رمى بها عبد الله بن الزبعرى خصومه. وكان على عبد الله أن يستهين بأعدائه، وأن يبرز قوة قومه ويفخر بجيشهم، ذلك الجيش الذي استطاع أن يخيف المسلمين، وأن يحملهم على التراجع أو كما يقول[1]:

فلمـــا لقيناهـــم بسُمْرٍ رُدَيْنَةٍ وجُرْدٍ عِتاقٍ في العجاج لواهثِ[2]

---

[1] السيرة/ق١/٥٩٤.

[2] ردينة: امرأة تنسب الرماح إليها. والجرد: الخيل القصيرات الشعر، ويقال السريعة. والعجاج –هنا - كناية عن الحرب.

نُقِيمُ بها إصعار من كـــان مائلاً	ونشفي الذحول عاجلا غير لابثِ[1]
فكفوا على خوف شديد وهيبة	وأعجبهم أمـــرٌ لـــه أمـــرُ رائثِ[2]
ولو أنهم لم يفصلوا ناح نسوة	أيامي لهم مـــن بين نسءٍ وطامث[3]

وابن هشام يذكر هذه الأبيات لابن الزبعرى ولكنا نظن أن نسبتها إليه صحيحة، لأنها شديدة الصلة بشعره الصحيح من حيث المعنى والأسلوب، فهو يكثر من ذكر الجيش والخيل وخوف العدو وإشاعة القتل فيما بينهم، وهذه المعاني تتردد كثيراً عند عبد الله حتى في شعره الجاهلي[4]:

وجعلت قريش تتصدى للدولة الجديدة، ويحاولون جاهدين منح توسعها، فما أن علم أبو جهل بأن **حمزة بن عبد المطلب** قد خرج بسرية إلى سيف البحر من ناحية العيص حتى بادر إلى لقائه في ثلاثمائة من قريش، خرجوا للدفع عن مكة وحماية مكاسبها وفرض سيطرتها. وقيل إن أبا جهل قد قال شعراً يندد فيه بالدين الإسلامي، ويعلن عن موقفه وموقف قومه من دعوة النبي الكريم، ويصف لقاءه لحمزة، وتوسط مجدي بن عمرو الجهني فيما بينهم[5]. ونحن نمسك عن إثبات هذا الشعر لعوامل الشك التي تأخذ بخناقه.

ونمضي مع الأحداث، فنجد أبا جهل هذا قد علم بتعرض المسلمين لتجارة قومه العائدة من الشام، فنهض يندب قريشاً لحمايتها والدفاع عنها، وأمرهم فتجهزوا سراعاً وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي[6]؟ كلا، والله ليعلمن غير ذلك، وأوعبت قريش إلى لقاء المسلمين فلم يتخلف من أشرافهم أحد[7].

وحين رأى أبو سفيان أنه قد أدرك عيره، أرسل إلى قريش: إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا، ولكن أبا جهل أصر على لقاء محمد وأصحابه فقال لقريش: والله لا نرجع حتى نرد بدراً – وكان بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل

---

[1] الإصعار: الميل، والذحول جمع ذحل وهو طلب الثأر.

[2] رائث: متمهلٌ في الأمر مقدر لعواقبه.

[3] النسء: المتأخرة الحيض المظنون بها الحمل. والطامث: الحائض.

[4] انظر: السيرة/ق١/٥٧ -ق٢/١٤١ -١٦٦، ٢٥٧ – طبقات الشعراء/٩٢/٩٣.

[5] السيرة/ق١/٥٩٧.

[6] هو عمرو بن الحضرمي وكان في تجارة لقريش تحمل زبيباً وأدماً ففاجأته سريةٌ من المسلمين فقتلوه وغنموا تجارته - السيرة/ق١/٦٤٨.

[7] تاريخ الطبري/٢/٤٣٠.

عام - فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر وتعزف علينا القِيَانُ وتسمع العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها. ومضى بقريش بخيلائها وفخرها لمحاربة المسلمين وطمعاً في القضاء على الدين الجديد[١].

وبدأت قريش تناوش المسلمين أول الأمر، فدعتهم للمبارزة ثم الْتَحَم الجيشان في قتال عنيف، فأقبل أبو جهل – يومئذ - يرتجز وهو يقاتل ويقول[٢]:

ما تنقم الحرب العوان مني بازل عامين حديث سني[٣]

لمثل هذا ولدتني أمي

وقتل الذي ولدته أمه لمثل هذا، وقتل معه كثير من أشراف قومه، ثم طرحوا في القليب.

هزمت قريش إذن، ورجع فلهم إلى مكة لا يلوون على شيء، وسبقهم نبأ الهزيمة إلى مكة فذهل الناس، فهم لا يكادون يصدقون النبأ فانطلقوا ينوحون على القتلى، ثم رأوا أن يمسكوا حتى لا يشمت محمد، وأصحاب محمد واستأنوا في فداء الأسرى لكي لا يشتدوا عليهم في الفداء[٤].

ولم يطل أمد الصمت، ذلك أن الخطب الفادح قد فجر ينابيع الشعر القرشي، فخرج ينساب من أخيلة شعرائهم لمشاركة قومهم، ففي ذلك تعزية للنفوس أية تعزية، وفيه تنفيس عن الألم الدفين الذي برك على أعتاب بيوتهم، وفيه أيضاً تذكير وحث، تذكير بالمصاب الأليم وحث على الأخذ بالثأر.

وأنطقت الفاجعة لسان **ضرار بن الخطاب الفهري**، وألحت عليه بالقول، ولكن ماذا يقول وهو الفارس المقاتل الذي لا يقيم على ضيم؟ ليس لديه من شيء إلا أن يقلل من أهمية النصر، ويستخف بشجاعة المنتصرين، وعليه أن يرفض الهزيمة، ويَتَسَلَّحَ بالوعيد والتهديد فيقول[٥]:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر عليه غـــدا والدهر فيه بصائـــرُ

فإن تك قتلى غودرت من رجالنا فإننا رجـــال بعدهـــم سنغادرُ

وتردي بنا الجرد العناجيج وسطكم بني الأوس حتى يشفي النفس ثائرُ[١]

---

[1] تاريخ الطبري/٢/٤٣٨.

[2] جمهرة اللغة/٢/٢٣٨، نهاية الأرب/١٧/٢٨.

[3] الحرب العَوانُ: التي قوتل فيها مرة. والبازل من الإبل: الذي خرج نابُهُ وهو في ذلك السنّ تكمل قوته.

[4] السيرة/ق٢/١٣.

[5] السيرة/ق٢/١٣.

فنترك صرعى تعصب الطير حولهم   وليس لهـــم إلا الأمـــاني ناصرُ[2]

ويعترف **أبو أسامة معاوية بن زهير بالهزيمة**، ويقر بفرار قومه أمام جيش المسلمين الزاحف كالبحر، هذا الجيش الذي تعقب قريشاً فترك سادتهم صرعى. ولكن أبا أسامة يتخذ من انكسار قومه مسرباً للفخر بنفسه، ومتنفساً للإشادة بثباته، ووسيلة لإظهار شجاعته فيقول[3]:

ولما أنْ رأيتُ القومَ خفُّوا   وقد زالت نعامتهم لنَفْرِ

وكانت جمـــة وافت حِماماً   ولُقِينَا المنايـــا يـــوم بدرِ[4]

نصد من الطريق وأدركونا   كأن زهاءهم غطيان بحرِ[5]

أنا الجشميُّ كيما تعرفوني   أبين نسبتي نَقْـــراً بنقْرِ[6]

فقد أحمي الأباءة من كلاف   فمـــا يدنو له أحدٌ بنقْرِ[7]

هكذا كان مصير قريش في يوم بدر، ما بين قتيل مطروح في القليب، وفار يصد عن الطريق هارباً، وأسيرٍ في قبضة محمد بالمدينة الظافرة. أما القتلى فليس إليهم من سبيل، ولا نصيبَ لهم إلا البكاء والنواح، وأما الأسرى فبعثت قريش في فدائهم. فهذا **مكرز بن حفص** يقدم في فداء سهيل بن عمرو خطيب قريش وأحَدُ زعمائهم البارزين، ويقاول المسلمين على أن يأسروه بدلاً منه حتى يبعث بفدائه، ويُخلّي الرسول الكريم سبيل سهيل ويحبس مكرزاً مكانه. ولما كان سهيل سيداً من سادات مكة، كان افتداؤه مفخرة أيّ مفخرة، ولهذا انطلق لسان مكرز يُردّد[8]:

فديتُ بأذوادٍ ثمـــانٍ سِبَا فتى   ينالُ الصميمَ غُرْمُها إلا المواليا[9]

رهنت يدي والمال أيسر من يدي   علي ولكني خشيت المخازيا

---

[1] تردى: تسرع، والجرد: الخيل العتاق القصيرات الشعر والمناجيج: جمع عنجوج وهو الطويل السريع. والثائر: الطالب بثأره.

[2] تعصب: تجتمع عصائب عصائب.

[3] السيرة/ق٢/٣٤ -٣٥.

[4] جمة: جماعة من الناس، وأكثر ما يقال في الجماعة الذين يأتون يسألون في الدّية.

[5] غطيان بحر: فيضانه.

[6] النقر: الطعن في النسب.

[7] أحمي: جعلها حمى لا تُقْرَب. والأباءة: أجمة الأسد. وكلاف: قال أبو ذر: هو اسم موضع.

[8] السيرة/ق١/٦٥٠، معجم الشعراء/٢٧٠.

[9] ثمان: جمع ثمين بمعنى عالٍ.

وقلت سهيل خيرنا فاذهبـــوا به لأبنائنـــا حتى ندير الأمانيـــا

وناحت قريش على قتلاهم فأكثروا من النواح، ذلك أن حرارة الفاجعة قد أحرقت أكبادهم، وأشعلت الآلام في أجوافهم، حتى أصبحوا لا يرغبون بالسلامة والحياة. وهذا واحد من المصابين — هو أبو بكر بن شعوب - يعود إلى مكة مع العائدين فتحييه زوجُه أم بكرٍ بالسلامة، فيلومها أبو بكر ويذكرها بقومه الذين طرحوا في القليب، فهي لو رأتهم وهم صرعى على ماء بدر، لظلت واجدة حزينة حزن الناقة التي يموت سقبها حين تضعه أو كما يقول[1]:

تُحيّي بالسَّلامةِ أمُّ بَكـــرٍ	وهل لي بعد قومي من سلامِ
ومـــاذا بالقليب قليب بدر	من الشيزى تكلل بالسنامِ[2]
وكم لك بالطوي طوي بدر	من الحومات والنَّعَمَ المسامِ[3]
وإنك لو رأيت أبـــا عقيل	وأصحاب الثنيَّة من نعامِ[4]
إذاً لظللت من وجدٍ عليهم	كـــأُمّ السَّقْب جائلة المرامِ[5]

ولئن بكى رجال قريش فأكثروا[6]، ولئن كان هذا شأنهم في الحزن والأسى، فإن حزن النساء وشجوهن كان أكثر من ذلك، فالنساء من طبيعتهن النواح وشق الجيوب والبكاء بدمع سرب، لعواطفهن الفياضة وأَحَاسِيسهنَّ المرهفة، وشعورهن بالضعف. فهذه هند بنت عتبة تلتمس أباها في العائدين فلا تجده، فيفيض حزنها فتندفع باكية تنوح[7]:

أعينيَّ جودا بدمع سَرِبْ	على خير خِنْدِفَ لم ينقلبْ
بداعس له رهطه غدوة	بنو هاشم وبنـــو المطلبْ
يجرُّونـــه وعفير التراب	على وجهه عارياً قد سلبْ

---

[1] السيرة/ق٢/٢٩، أنساب الأشراف/١/٣٠٧.

[2] الشيزى: جفان تصنع من خشب وإنما أراد أصحابها الذي يطعمون فيها. السدام: لحم ظهر البعير.

[3] الطويّ: البئر المطوية بالحجارة. والحومات: جمع حومة وهي القطعة من الإبل. والمسام: المرسل في المرعى، يقال: أسام إبله: إذا أرسلها ترعى دون راع.

[4] القينة: فرجة بين جبلين. ونعام/ مرضع.

[5] السقب: ولد الناقة حين تضعه.

[6] السيرة/ق١/٦٤٨- ق٢/٢٦، ٢٧، ٢٨.

[7] السيرة/ق٢/٣٨.

وكـــان لنا جبلاً راسياً جميل المرَاةِ كثير العشُبْ[1]

وكما ناحت هند على ابيها، فقد ناحت غيرها على ذويهن أيضا[2]. ونترك النساء وشأهن، ثم نمضي مع هذه الغزوات التي وقفت فيها قريش تدافع عن كياها السياسي وتدفع عن تقاليدها و معتقداها فنجد أنفسنا على أبواب مكة.

وكانت غزوة الفتح آخر مراحل الصراع بين المدينة ومكة، حيث سار الرسول الكريم إلى مكة بجيش عظيم، فلما رأى أبو سفيان بن حرب -زعيم مكة يومئذ- قوة جيش المسلمين، طلب إلى أهل مكة أن يستسلموا ليدخلها محمد بلا قتال، ولكن **صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو** قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا المسلمين[3].

وكان **حماس بن قيس بن خالد** يعد سلاحاً قبل دخول رسول الله مكة ويصلح منه، فقالت له امرأته: لماذا تُعِدُّ ما أرى: قال: لمحمد وأصحابه فقالت: والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء، فقال والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم شهد الخندمة مع صفوان وعكرمة وسهيل فناوشوا المسلمين شيئاً من قتال ثم انهزموا، فخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته ثم قال لامرأته: أغلقي علي بابي، قالت : فأين ما كنت تقول؟ فأحس حماس أنه متهم في شجاعته فاندفع يسوغ لها سبب فراره ويقول[4]:

إنكِ لو شهدتِ يوم الخندِمَةْ إذ فــرَّ صفوان وفــرَّ عِكْرِمَةْ

وأبو يزيد قائمٌ كالُموتَمَةْ واستقبلتهم بالسيوف المُسْلِمَةْ[5]

قطَعْنَ كلَّ ساعدٍ وجَمُجُمهْ ضرباً فلا يسمع إلا غَمْغَمَةْ[6]

لهُمْ نَهيتٌ خَلْفَنا وهَمْهَمةْ لم تنطقي باللَّــوم أدنى كَلِمَةْ[7]

---

[1] جميل المرأة: أرادت مرآة العين.

[2] السيرة/ق٢/٤٠/٤٢.

[3] تاريخ الطبري/٣/٥٧.

[4] تاريخ الطبري/٣/٥٨،معجم ما استعجم/١/٥١٢ -٥١٣

[5] أبو يزيد: هو سهيل بن عمرو. والموتمة والموتم:المرأة مات زوجها وترك لها أيتاما.

[6] الغمغمة: أصوات غير مفهومة لاختلاطها.

[7] النهيت: صوت الصدر، وأكثر ما يوصف به الأسد. والهمهمة: صوت في الصدر أيضا .

دانت مكة لسيادة الشرع الحنيف، وخضعت لسلطان رسول الله، ووضعت قريش سلاحها الذي شهرته بوجه الإسلام لسنوات عديدة، فانتهى بذلك أعنف صراع فكري وعسكري وأدبي عرفته الجزيرة.

وفر الشعراء في كل وجه، ولما ضاقت عليهم الأرض عادوا إلى رسول الله مسلمين. أما هبيرة بن أبي وهب المخزومي فقد فر إلى نجران. وأعلن عن إصراره على مناوأة الإسلام، فظل خارجاً على نظامه حتى مات هنالك كافراً. وحين فقد الأمل والرجاء وخسر المعركة إلى الأبد، كان لا بد من أن يعزي نفسه على هذه الخسارة، ففزع إلى ماضيه وماضي قومه، وجعل يستعرض دوره في الدفاع عن قريش، ويبرز عنفه على خصومه ويقول[1]:

فإني لمن قوم إذا جد جدهم	على أي حال أصبح اليوم حالها
وإني لحام من وراء عشيرتي	إذا كان من تحت العوالي مجالها[2]
وصارت بأيديها السيوف كأنها	مخاريقُ ولدانٍ ومنها ظِلالها[3]

وصمت شعراء قريش إلا قليلاً فكأن الهزيمة السياسية والعسكرية قد تبعتهما هزيمة أدبية أيضاً، فلم نسمع من خصوم الأمس غير إسلام واعتذار وتوبة ، إلا ما كان من هبيرة الذي ظل متمرداً حتى هلك في أرض بعيدة عن مكة، تلك التي كان يسدد منها قوافيه إلى قلب المدينة.

أمابعد،

فقد عرضنا صورة لشعر قريش في غزواتها الدفاعية، واطلعنا على حيوية الشعراء في الصراع، ومدى نشاطهم في الدفاع عن تقاليدهم بقدر ما أسعفتنا به ظروف البحث وطبيعته. ولدى وقوفنا على هذا الشعر لاحظنا كثرة الشعر الموتور فيه، فشعر بدرٍ مثلاً غلبت عليه روح الانهزام والسلبية فَاتَّجهَ في جمهرته إلى البكاء والنواح. ولولا أبيات لأبي أسامة معاوية بن زهير، وأبيات أخرى لضرار بن الخطاب الفهري في الفخر والوعد والوعيد، لأبحنا لأنفسنا أن نزعم بأن شعر بدر المكي كله ندب ورثاء ونواح.

---

[1] السيرة /ق٢/ ٤٢٠.

[2] العوالي: أعالي الرماح

[3] المخاريق:جمع مخراق وهي مناديل تلف ويمسك بها الصبيان يضرب بها بعضهم بعضاً، شبه السيوف بها.

ولعل أهم ما يلفت النظر في هذه الغزوات، هو قلة ما يطالعنا فيها من الشعر المكي، على الرغم من كثرة الشعراء المكيين الذين شاركوا فيها وعدائهم العنيف لدين الحق.

وحين وقفنا على نشاط هؤلاء الشعراء، وجدنا أن هناك شعراء كثيرين منهم قد غـابوا عـن الساحة الأدبية في يوم بدر، غاب عنها أبو سفيان بن الحارث وأبو عزة الجمحي وهـبيرة بـن أبي وهب المخزومي وعمرو بن العاص ومسافع بن عبد مناف وغيرهم. أما عبـد الله بـن الزبعـرى وضرار بن الخطاب الفهري والحارث بن هشام فقد قصرت ألسنتهم وعيت عن النطق أو كادت، ذلك أننا لم نجد لكل منهم سوى نصٍ واحدٍ ، وحتى هذه النصوص، فإن ابن هشام قد شك فيها[1]. وإذا ما سلمنا بوضعها واختلاقها نكون أمام شعراء قد صمتوا عن كل شيء يوم بدر إلا الرثـاء، أي أنهم غابوا عن المشاركة في الصراع، واختفوا عن ساحة المعركة فلم يظهر لهم وجود إلا عنـد تشييع الجنائز، وكأنما أعدوا أنفسهم إعدادا لتقديم التعازي فحسب.

وإزاء هذه القلة المفرطة لشعر المشركين، نجد شعرا كثيراً لخصومهم المسلمين، الأمـر الـذي يدعونا إلى الشك، ويلح علينا بالحذر، لسبب بسيط، وهو أنه إذا كان العرب قد ضـجوا لهـول المصيبة يوم بدر، وبادر شعراؤهم إلى مشاركة قريش في مصابها ورثاء قتلاها والتعريض بخصومها[2]، فما أولى شعراء قريش أنفسهم أن يفعلوا ذلك، وأن يقولوا فيكثروا القول. وعلى هـذا نظـن أن معظم شعرهم قد سلخ عن جثمان حياتهم الأدبية ثم قذف به في زوايا النسيان.

على أن هناك شيئاً آخر، وإن شئت فقل شيئين: **أولهما:** عبارات الشك التي أثبتها ابن هـشام بعد أكثر النصوص التي أوردها لشعراء المشركين، فهو قد شك في شعر الحارث ابن هشام وشعر عبد الله بن الزبعرى وشك أيضاً في شعر ضرار ابن الخطاب الفهري وفي أكثر ما روي من شـعر هند بنت عتبة. **وثانيهما:** أن الرواة قد أغفلوا بعض ما قلاله شعراء المشركين هؤلاء، إن لم يكـن أكثره. وليس أدل على ذلك من قول ابن هشام نفسه عندما أورد شعر أبي أسامة معاوية ابن زهير يوم بدر فهو قد قال[3] : " تركت قصيدة لأبي أسامة على اللام ليس فيها ذكر بدر إلا في أول بيت والثاني"

---

[1] السيرة/ ق٢/٢٨،١٥،١١

[2] نفسه/ ١٥، ٣٠، ٣٣

[3] السيرة/ ق٢ / ٣٨

ويخلو الشعر المكي في يوم بدر وغيرها من عبارات التعريض بالإسلام، والتنديد بأفكاره، ونقد مفاهيمه. وهذا يدفعنا إلى الظن بأن شعراً كثيراً للمشركين قد ضاع وعفى عليه الزمان، إذ ليس من المعقول بداهة أن يتعرض المسلمون لدين قريش وأصنامهم، وأن ينالوا مها ويعيبوها، ويبقى شعراء قريش صامتين. وإذا كانت هند بنت عتبة قد نذرت أن تأكل كبد حمزة بن عبد المطلب إن هي ظفرت به ، فكيف بها تكتفي برثاء قتلاها وبكائهم فلا تهجو ولا تشتم من قتلهم، مع أن السب والشتم من طبيعة المرأة وتعبير عن ضعفها.

ونظن أن جميع شعراء قريش قد شاركوا في الصراع ضد المسلمين، وأنه لم يتخلف منهم أحد، ونظن أيضاً أنهم كانوا عنيفين في صراعهم مع المسلمين، وأن شعرهم كان يَقْصُرُ حقداً وبغضاً وكراهية لمحمد وأصحابة وأنصاره. وأن هذا الحقد وهذه الكراهية قد صبتهما الهزيمة في قوالب شعرية مؤلمة، فإذا كانت قريش قد بذلوا مال تجارة بدر كله للإعداد والحرب، وإذا كان المكيون قد امتنعوا عن بكاء قتلاهم أنفة وترفعاً ورفضاً للهزيمة، وإذا كانوا قد جندوا جميع إمكاناتهم المادية والمعنوية والسياسية لمحاربة الإسلام ودفعه، فمن البديهي إذن أن يجندوا شعرهم كذلك، وأن يدفعوا به إلى ساحة المعركة، ليشحذ العزائم ويستحث الهمم، ويبعث الضغائن، ويثير الأحقاد.

وبهذا نرى أن صورة كفاح المشركين وقصة نضالهم، قد ظلتا مشوهتين غير واضحتي المعالم، فما بين أيدينا من أشعارهم يوم بدر لا ينقل إلينا ملامح الصورة الحقيقية لشعراء موتورين ، ولا يمكن أن يكون المعبر الحقيقي عن مشاعرهم ضد الإسلام وموقفهم العنيف نحوه، كما فعلت كتب التاريخ والسير في رصدها للأحداث. ولو وجد بين أيدينا جميع ما قيل من الشعر، لأمكن أن نكشف به عن مجالات الصراع ومراحله على حقيقتها، ولكنّا أمام ملحمة شعرية ضخمة ترسم لنا صورة واضحة من صور الكفاح بين عقيدتين متنابذتين.

الغزوات الهجومية :

وتمثل هذه الغزوات مواقف قريش في المبادرة إلى مجابهة الكيان الإسلامي، وتسجل دورها في مبادأة هذا الكيان، والوقوف في سبيل توسعه، ثم التخلص من وجوده. وقد حملتها هذه المواقف على الاستعانة باليهود وبالقبائل العربية الأخرى.

وكانت غزوة أحد أول هذه المواقف الهجومية، فحين أصيبت قريش في بدر، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة في رجال من قريش فَكَلَّموا أبا

سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ،ليعينوا بمال التجارة على حرب محمد والنيـــل منه[1].

وحين أجمعت قريش على المسير إلى أحد بعثوا بعض شعرائهم يسيرون في العرب يدعونهم على نصرهم، ويحرضونهم على محمد ودولته، ويجسمون لهم خطر هذه الدولة على مصير العرب جميعاً. وخرج **عمرو بن العاص السهمي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي وعبد الله ابن الزبعرى وأبو عزة الجمحي**[2] **ومسافع بن عبد مناف الجمحي** فساروا إلى العرب يظاهرون على رسول الله ويحرضون على قتاله [3]

ونشط بعض هؤلاء الشعراء نشاطاً ملحوظاً، واستغلوا شعرهم للتحضيض والتحريض، فهـــذا **أبو عزة** أسير يوم بدر الذي عاهد رسول الله ألا يظاهر عليه، يخرج في تهامة فيدعو بـــني كنانـــة إلى مشاركة قريش في حربهم فيقول[4]

أيهاً بني عبد منـــاة الرَّزَامْ　　　أنتم حماةٌ وأبـــوكم حامْ[5]

لا تعدوني نصركم بعد العام　　　لا تُسلموني لا يحِلُّ إسلامْ

وهذا **مسافع بن عبد مناف** يخرج إلى بني مالك بن كنانة يحضضهم على الرسول الكريم، ويدعوهم إلى التحالف لقتاله في وسط البلد المحرم مكة، وعند حطيم الكعبة المعظم فيقول[6]

يا مال مـــال الحسب المقدم　　　أنشد ذا القربى وذا التذمُّمِ[7]

من كان ذا رُحْمٍ ومن لم يرحم　　　الحلف وسط البلد المحرَّمِ

عند حَطِيم الكعبة المعظَّمِ

واستجاب أهل تهامة، واستجاب بنو كنانة أيضاً، وخرجت قريش بحدها وجـــدها، وحديـــدها وأحابيشها ومن تابعها واصطحبوا معهم نساءهم، الْتماس الحفيظة وخشية الفرار، وأقبلت قـــريش حتى نزلوا مقابل المدينة، وتعبأوا للقتال، وجعل أبو سفيان بن حرب يحرض الناس ويَحُثُّ أصحاب اللواء على الثبات.

---

[1] تاريخ الطبري/٢/٥٠٠

[2] المغازي/١٩٩ – أنساب الأشراف /١/٣١٢

[3] السيرة / ق٢ /٦١ – تاريخ الطبري/٢/٥٠١

[4] السيرة /ق٢/٦١ – المغازي /١٩٩

[5] الرزام: جمع رازم وهو الذي يثبت ولا يبرح مكانه، يريد أنهم يثبتون في الحرب فلا ينهزمون

[6] السيرة / ق٢ /٦١ .

[7] يا مال: أراد يا مالك. وذو التذمم: هو الذي له ذمام، أي عهد.

وخرج رسول الله من المدينة فترل الشعب من أحد، وعبأ المسلمين للقتال، ثم التقى الناس ودنا بعضهم من بعض فاقتتلوا حتى حميت الحرب. وقامت هند بنت عتبة ومن معها من النسوة يضربن الدفوف خلف الرجال، يشجعنهم على الثبات ويحرضنهم على القتال ويذكرهم بيوم بدر ويرددن[1]:

ويهاً بني عبد الدارْ ويهاً حماة الأدبارْ[2]

ضرباً بكل بتارْ

وتنشد هند بنت عتبه وينشدن بعدها[3]

إن تقبلوا نعانقْ ونفرش النمارقْ[4]

أو تدبروا نفارقْ فراق غير وامقْ[5]

واشتدت حدة القتال وكاد أبو سفيان بن حرب أن يقتل، فقد استعلاه حنظلة **ابن أبي عامر الأنصاري** ليقتله، فلما رآه **شداد بن الأسود** بادر إلى حنظلة فقتله، ثم مضى يفخر بتخليصه أبا سفيان ويَمُنُّ عليه ويذكر يده عنده فيما دفع عنه ويقول:[6]

ولو دفاعي يا ابن حرب ومشهدي لألفيت يوم النعف غير مُجيبِ[7]

ولولا مكري المهر بالنعف قرقرت ضباع عليه أو ضراء كليب[8]

وقتل **حمزة بن عبد المطلب**، وقتل كثيرون غيره من أصحاب محمد، ووقعت هند بنت عتبة ومن معها من النساء يمثلن بالقتلى، وبلغ من حقدها وبُغْضها للإسلام ولحمزة بالذات أن بقرت عن كبده فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

---

[1] المغازي /٤ ٢٢ –تاريخ الطبري /٢/٢ ٥١

[2] حماة الأدبار: الذي يحمون أعقاب الناس

[3] الطباقت الكبرى /٢/٠ ٤ – تاريخ الطبري/٢/٢ ٥١

[4] النمارق: جمع نمرقة وهي الوسادة الصغيرة

[5] الوامق: المحب

[6] الأحكام السلطانية / ٢ ٤ – السيرة /ق٢ /٧٧

[7] النعف: اسفل الجبل .

[8] قرقرت: أسرعت وخفت لألكه، والضراء: الضارية المتعودة الصيد أو أكل لحوم الناس، وكليب: اسم لجماعة الكلاب.

وكان قتل حمزة والتمثيل به شفاء لما في نفسها من الحزن على قتل ذويها يوم بدر، وتخفيفاً عما تحس به من الألم. وتنفيساً عما يملأ قلبها من حقد وكراهية، أو كما تقول:[1]

شفيت من حمزة نفسي بأحد	حتى بقرت بطنه عن الكبدْ
أذهب عني ذاك ما كنت أجدْ	من لذعة الحزن الشديد المعتمدْ[2]
والحرب تعلوكم بشؤبوب بردْ	تقدم إقداماً عليكم كالأسدْ[3]

وأحست قريش بزهو الانتصار حتى أن أبا سفيان بن حرب حين أراد الآنصراف إلى مكة، أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت فعال، وإن الحرب سجال، يوم بيوم، ثم قال: إن موعدكم بدر للعام المقبل، ثم عاد بقريش إلى مكة.[4]

وانطلق شعراء مكة يملأون الدنيا ضجيجاً بانتصارهم، ويفاخرون بما حققوا من ظهور على محمد وأصحابه، ويعلنون نتيجة أحد على العرب جميعاً، فهذا هبيرة بن أبي وهب المخزومي الذي أعياه القتال يوم بدر،ثم فر هارباً يومئذ، نراه اليوم يذكر خروج قريش ومن ناصرهم، ثم يفخر بشجاعته وشجاعة قومه فيجعل من نفسه ومن قومه أسوداً ضارية فيقول:[5]

سُقنا كنانة من أطراف ذي يمنٍ	عرض البلاد على ما كان يزجيها[6]
نحن الفوارس يوم الجر من أحد	هابت معد فقلنا نحن نأتيها[7]
هابوا ضراباً وطعناً صادقاً خدماً	مما يرون وقد ضُمَّتْ قواصيها[8]
ثمت رحنا كأنا عارض بَرِدٌ	وقام هامُ بني النجار يبكيها

وهذا الانتصار نفسه هو الذي جعل ضرار بن الفهري يندفع بنفسية الفارس المحب للظهور، فيتغنى بشجاعة قريش، ويشيد ببلائه في القتال، فهو أولاً منتطق سيفاً قطاعاً،وهو ثانياً ينتمي إلى

---

[1] السيرة /ق٢ / ٩٢.

[2] اللذعة: ألم النار وما يشبه بها، والمعتمد: القاصد المؤلم.

[3] الشؤبوب: دفعة المطر الشديدة، وبرد: ذو برد، شبهت الحرب بها.

[4] السيرة/ق٢ /٩٤.

[5] نفسه / ١٣٠.

[6] يزجيها: يسوقها، وعرض البلاد: سعتها

[7] الجر: أصل الجبل.

[8] الخَدِمُ: الذي يقطع اللحم سريعاً، وقواصيها: ما تفرق منها وما بعد.

رجال أبطال لا يتصفون بشيء من الضعف والجُبْنِ واللؤم،بل هم قوم أعزاء شجعان يسعون إلى الموت سعياً حثيثاً، أو كما يقول:[1]

إني وجدك لا أنفك منتطقاً	بصارم مثل لون الملح قطاعِ
وما انتميت إلى خور ولا كشف	ولا لئام غداة البأس أوراعِ[2]
بل ضاربين حبيك البيض إذ لحقوا	شم العرانين عند الموت لذاعِ[3]
شُمٌّ بهاليل مسترخٍ حمائلهم	يسعون للموت سعياً غير دعداعِ[4]

وأنطق الانتصار عبد الله بن الزبعرى، بل جعله يزهو ويفخر فيطيل، وكأن ظهور قومه يوم أحد قد أتاح له هذا الفخر وهذه الإطالة، وأتاح له أيضاً أن يسرد حكاية غزوهم للمدينة، ولكن ما يعنينا من حكاية عبد الله هو هذه النتيجة التي يجملها في قوله:[5]

وقد عريت بيض كأنَّ وميضها	حريق ترقى في الأباء سريعُ[6]
فغادرن قتلى الأوس غاصبة بهم	ضباع وطير يعتفين وقوعُ[7]
وجمع بني النجار في كل تلعة	بأبدانهم من وقعهن نجيعُ[8]
ولولا علو الشعب غادرن أحمداً	ولكن علا والسمهري شروعُ[9]
بأحد وأرماح الكماة يردهم	كما غال أشطان الدلاء نزوعُ[10]

ويرى **ضرار بن الخطاب** أن عوامل الاحتفال بهذا النصر العظيم لم تتم، وسبب ذلك في رأيه هو غياب أبي جهل وعتبة وغيرهما من رجالات قريش، أولئك النفر الذين قضوا وهم يدافعون عن مجد قريش وشرفها، فيا ليتهم في هذا الجمع العظيم المتقد الذي قدم من مكة ليأخذ بثأرهم، ليتهم فيه

---

[1] السيرة /ق٢ /١٤٥

[2] لخور: الضعفاء، والكشف: جمع أكشف هو من لا ترس معه في الحرب، والأوراع: جمع ورع وهو الجبان.

[3] الحبيك: الأبيض طرائقه، والعرانين: الأنوف، يصفهم بالعزة.

[4] البهاليل: السادة، والدعداع: الضعيف البطيء.

[5] السيرة / ق٢/١٤١ - ١٤٢

[6] الأباء: الأجمة الملتفة الأغصان

[7] عاصبة: لاصقة، ويعتفين: يطلبن الرزق.

[8] النجيع: الدم

[9] الشعب: الطريق في الجبل، وشروع: ماثلة للطعن.

[10] غال: أهلك، والأشطان: الحبال، والنزوع: جذب الدلو وإخراجها من البئر، والنزع: المستقى

فيشفوا نفوسهم الموتورة بمن قتل من رجال الأوس والخزرج، ويشفوا نفوسهم أيضاً بقتل حمـــزة، هذا الذي دوخ رجالهم في يوم بدر أو كما يقول:[1]

فياليت عمـــراً وأشياعـــهُ	وعُتبةَ في جمعنـــا السَّوْرَجِ[2]
فيشفوا النفوس بأوتارها	بقتلى أصيبت من الخزرجِ[3]
وقتلى من الأوس في معركٍ	أصيبوا جميعاً بذي الأضوُجِ
ومقتل حمزة تحت اللـــواءِ	بمطرد، مـــارنٍ مُخلـــجِ[4]
بأحُـــدٍ وأسيافنا فيهـــمُ	تَلَهَّبُ كاللَّهبِ المـــوهَـــجِ

هكذا كانت نفسيات شعراء قريش يوم أُحُدٍ، سكروا بنشوة النصر، فملأوا الدنيا ضـــجيجاً وعجيجاً، وظلوا يَتَغَنّون بالظهور، ولكنهم مع ذلك، كانوا يدركون أن الصراع بينهم وبين محمـــد – عليه السلام – لَمّا ينْتَهِ بعد، فما غزوة أحد إلا جولة، سوف تتبعها جولات كثيرة. وعلى هذا، راحوا يرفعون المعنويات، ويَشْحَذون الهمم، ويؤلّبون العربَ، ويحثُّون قومهم على الإعداد والتَّهيُّؤ.

وأقامت قريش تنتظر الظروف السياسية المواتية، ليعيدوا الكرة على المدينة، ونـــشط خـــصوم الإسلام جميعاً، فجعلوا يرتبون اللقاءات ، ويعقدون الاجتماعات، ويُبرمـــون العقـــود، ويهيّئـــون لتوحيد الصفوف. يفعلون هذا وأكثر منه، للتخلص من دولة محمد، التي كانت بمثابة شوكةٍ مُدَبَّبةٍ تدمي جنوبهم، بل ونفوسهم أيضاً.

وبدأ هذا النشاط السياسي حين خرج نَفَرٌ من سادة يهود بني النضير، وبني وائـــل إلى مكـــة، فطرحوا على قريش قضية التخريب على محمد – عليه السلام – وعاهدوهم على بذل العون حتى يستأصلوه، فنشطت قريش لما دعوهم إليه، واجتمعوا لذلك، واتَّعدوا له. وخرج هـــؤلاء النفـــر أنفسهم حتى جاءوا غطفان، فدعوهم لمثل ما دعوا قريشاً إليه، فاجتمعوا معهم فيه.

وخرج الأحزاب إلى المدينة، خرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفـــان وقائدها عيينة بن حصن الفزاري في بني فزارة، والحارث بن عوف المُرّي في بني مرة، ومِسْعَرُ بـــن رخيلة الأشجعي فيمن تابعه من أشجع، وأقبلوا في عشرة آلاف حتى نزلوا حول المدينة، وشَـــدَّدوا

---

[1] السيرة/ ق٢ /١٤٠

[2] السورج: المتقد

[3] الأوتار: جمع وتر، وهو طلب الثأر

[4] المطرد: الذي يهتز ويعني به رمحاً. والمارن: اللين. والمخلج: الذي يطعن بسرعة.

عليها الحصار، ثم نَقَضَ بنو قريظة عهدهم مع المسلمين، فقَوّوْا من شوكة الأحزاب، واستطاعوا بذلك أن يُهدِّدوا أمن المدينة وأن يُضيّقوا على رجالها.

ولما طال الحصار، نفذ صبر الفرسان، فحاول نفر من فرسان قريش أن يقتحموا الخندق، يريدون بذلك أن يفتحوا فيه ثغرة يدخل منها الجيش المحاصر، ولكنهم فشلوا في ذلك، وقتل فارسهم الأول عمرو بن عبد ود العامري وفَرَّ من معه من الفرسان.

وكان شعراء قريش في صفوف المحاربين، بل كان منهم من شارك عمراً في اقتحام الخندق، وفر من حوله، فأثَّرَ فيهم مصيرُ فارسهم أيما تأثير، وأخذوا يوجهون اللوم لمن فروا عنه وتركوه، فهذا مسافع بن عبد مناف يؤنب أولئك الفرسان الذين كانوا معه فأجلوا عنه وأسلموه فيقول:[1]

عمرو بن عبد والجياد يقودها	خيل تقاد له وخيل تنعلُ[2]
أجلت فوارسه وغادر رهطه	ركناً عظيماً كان فيها أولُ
وضرار كان البأس منه محضراً	ولى كما ولى اللئيم الأعزلُ

ويعتذر هبيرة بن أبي وهب المخزومي عن فراره من حول عمرو فيقول:[3]

وقفت فلما لم أجد لي مقدماً	صددت كضرغام هزير أبي شبل[4]
ثنى عطفه عن قرنه حين لم يجد	مكراً وقدماً كان ذلك من فعلي[5]

وأدرك الأحزاب أن لا طائل من الحصار، فلا بد من القتال إذن، وعلى هذا، أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى يهود بني قريظة ليقاتلوا، ولكن اليهود رفضوا المشاركة في القتال. ودب الخلاف بين الأحزاب واشتدت عليهم الريح حتى ما تطمئن لهم قدر، ولا تقوم لهم نار، ولا يستمسك لهم بناء، فقر قرارهم على الرحيل فانشمروا راجعين إلى بلادهم. وعلى الرغم من هذا الفشل الذي مني به الأحزاب في غزوهم، فإن شعراء قريش قد رفعوا أصواتهم معتزين بأنفسهم معجبين بكثرتهم وقوتهم. ولعل سبب هذا الإعجاب أنهم برزوا كقوة عسكرية مهاجمة لها خطرها

---

1 السيرة/ق٢/ ٢٦٧

2 تنعل: تلبس النعال من الحديد لتقوى

3 السيرة / ق٢/ ٢٦٧ -٢٦٨

4 الضرغام: الأسد. والهزير: الشديد

5 العطف: الجانب. والقرن: الذي يقاومك في شدة أو قتال.

بين العرب، وأنهم استطاعوا أن يلزموا المسلمين بالدفاع عن أنفسهم، وكيانهم،وأن يجبروهم على الاحتماء بالخندق، فعبد الله بن الزبعرى يحدثنا عن سير قومه إلى يثرب فيقول:[1]

وأذكر بلاء معاشر واشكرهم ساروا بأجمعهم مـن الأنصابِ[2]

أنصاب مكة عامدين ليثرب في ذي غياطل جحفل جبجابِ[3]

فيها الجياد شوازب مجنونة فبالبطون لواحق الأقرابِ[4]

جيش عيينة قاصد بلوائه فيه، وصخر قائد الأحزابِ

ولئن حدثنا عبد الله عن هذا الجيش العظيم الذي عمد إلى يثرب، وكشف النقاب عن قادته العسكريين، فإن ضرار بن الخطاب قد تولى شرح الموقف العسكري في ساحة المعركة، فهو يحدثنا أن قومه قد أموا المدينة بخيول عتاق مرسلة وبفرسان مدججين بالسلاح، وجيش قوي طاحن. ويحدثنا أيضاً عن هذه المبارزة التي كانت تحدث بينهم وبين المسلمين من حين لآخر، ولا ينسى أن يجرد خصومه من الرشد والشجاعة، وأن يبين جراحة مواقفهم من الحصار وظهور قومه عليهم فيقول:[5]

وجرداً كالقداح مسومات نَؤمُّ بها الغواة الخاطبينا[6]

كأنهم إذا صالوا وصلنا بباب الخندقين مصافحونا

أناس لا نرى فيهم رشيداً وقد قالوا: ألسنا راشدينا

فأحجرناهم شهراً كريتاً وكنا فوقهم كالقاهرينا[7]

نراوحهم ونغدو كل يومٍ عليهم في السلاح مدججينا[8]

---

1 السيرة /ق٢ /٢٥٧

2 الانصاب: (هنا): الحجارة التي يعلم بها الحرم.

3 ذي غياطل: جيش كثير الأصوات، والغياطل:جمع غيطلة وهيالصوت هنا. وجبجاب: كثير

4 الشوازب: الضامرة.والمجنونة: المقودة. وقب: ضامرة ولواحق: ضامرة أيضاً، والأقراب: جمع قرب وهي الخاصرة وما يليها.

5 السيرة /ق٢/٢٥٥

6 القداح: سهام . والمسومات: المرسلات ويقال هي الغالية الأسوام

7 أحجرناهم: حجرناهم. وشهراً كريتاً:تاماً كاملاً

8 المدجج: الكامل السلاح

وأصيبت قريش في شخص عمرو بن عبدود كما قلنا، لأنه كان فارساً من خـيرة فرسـانهم، وبطلاً من أجرأ أبطالهم. وليس غريباً إذن أن يبكوه بدمع غزير، وبشعر كثير، فهذا مسافع بن عبد مناف يقول فيه:[1]

ولقد تكنفت الأسئلة ماجداً بجنوب سلع غير نكس أميل

نفسي الفداء لفارس من غالب لاقى حمام الموت لم يتحلحل[2]

أعني الذي جزع المذاد بمهره طلباً لثأر معاشر لم يتخذل

وهذا هبيرة بن أبي وهب المخزومي يحزن على موته ويأسو لفراقه فيقول:[3]

فلا تبعدن يا عمرو حياً وهالكاً وحق لحسن المدح مثلك من مثلي

فمن لطراد الخيل تقدع بالقنا وللفخر يومـاً عند قرقرة البزل[4]

أمابعد: فهذه هي الغزوات التي بادرت فيها قريش بمهاجمة الإسلام في معقله، وقد عرضنا بعض ما قيل فيها من شعر، ورسمنا له صورة تبين - فيما نظن - مدى مساهمته في الصراع المـستمر بـين مكة والمدينة جميعاً آنئذ. وقد لاحظنا أن أول ظاهرة تبدو على هذا الشعر هي قلته بعامة، فلـدى وقوفنا عليه، لم نجد لشعراء المشركين من قريش غير تسع عشرة مقطوعة في غزوة أحـد وثـلاث عشرة مقطوعة أخرى في يوم الأحزاب، وأكثرها مقطوعات قصيرة وأراجيز، بينمـا نجـد شـعر المسلمين أكثر من ذلك بكثير، بالإضافة إلى شيوع القصائد الطويلة فيه.

على أن هذا الشعر -على قلته - كان في يوم الأحزاب أقل منه في يوم أحد. وقد تكون قلـة دواعي القول ومناسباته يوم الأحزاب، هي التي أحدثت عملية الجزر فيه. إذ لم يحدث قتـال بـين الطرفين ، ولم تشتبك سيوفهم إلا ما كان من أمر المبارزة التي قتل فيها عمرو ابن عبدود العامري، الذي بعث مقلته دواعي القول عند المشركين والمسلمين على الـسواء، فقيـل في ذلـك عـدة مقطوعات. ونحن نعرف أن الشعر إنما ينشط في ظل وجود الصراع الدامي، ولعل في كثرة ما قيل من الشعر في غزوتي أحد وبدر أبسط دليل على ما نقول.

---

[1] السيرة / ق٢/٢٦٦- ٢٦٧

[2] لم يتحلحل: لم يبرح مكانة.

[3] السيرة /ق٢/ ٢٦٨

[4] تقدع: تكف ، القرقرة:من أصوات فحول الإبل. البزل: الإبل القوية

وثمة ظاهرة أخرى برزت لنا في أثناء البحث، وهي عدم مشاركة بعض الشعراء المشهورين كأبي سفيان بن الحارث الذي عرف بعدائه الشديد للإسلام ،وأبي أسامة معاوية ابن زهير الذي ينسب إليه أصح شعر بدر[1] وغيرها.

وحتى الشعراء الذين شاركوا في القول كهبيرة بن أبي وهب المخزومي، والحارث بن هشام ومسافع بن عبد مناف، كان شعرهم قليلاً قلة مفرطة، هذا يوم أحد، أما يوم الأحزاب، فغاب عنه شعراء كثيرون من قريش مثل أبي سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص والحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب وغيرهم. أما عبد الله بن الزبعرى وضرار ابن الخطاب، فقد شارك كل منهما في قصيدة واحدة ليس غير.

على أن هناك شعراء آخرين قد ذكروا في بطون الكتب على أنهم من شعراء قريش في صدر الإسلام، ومع هذا لم يبرز لهم نشاط، فكأنهم كانوا يعيشون في معزل عن أحداث قومهم، من هؤلاء: عوف بن دهر بن تيم[2] وشديد بن عامر بن لقيط[3] وذلك الشاعر الذي يقول فيه حسان[4]:

يا آل تيم ألا تنهون جاهلكم قبل القذاف بأمثال الجلاميد

وهو مسافع بن عياض التيمي.

أما النساء الشواعر فلم نجد لهن شيئاً ألبتة، وربما كان ذلك لقلة دواعي القول عندهن.

وقد أثار غياب هؤلاء الشعراء -عن مشاركة قومهم في الغزوات - فضولنا فانطلقنا نبحث عن سبب يقنعنا بغيابهم وضمتهم ، ولكنا لم نذهب بعيداً في بحثنا، فقد وجدنا ضالتنا عند ابن سلام الذي نص على سقوط شعر أبي سفيان بن الحارث[5]، وعند السهيلي الذي أعلن عن رفضه رواية أشعار الكفرة الذين نالوا فيها من رسول الله[6] وعند غيرهما أيضاً[7]. وهذا ما يحملنا على الظن بأن معظم شعر هؤلاء الشعراء قد ضاع، وأن غيابهم عن المشاركة في هذه الغزوات ليس طبيعياً وإنما

[1] السيرة /ق٢/٣٤
[2] الاشتقاق/ ١/١٠٦
[3] الاشتقاق /١/١١٤
[4] السدوسي:كتاب حذف من نسب قريش /٧٩
[5] طبقات الشعراء /٩٦
[6] الروض الأنف /٢/٥٧
[7] نفسه/٥٧

هو مفتعل، فالذي يبدو لنا أن الرواة قد تحرجوا من رواية شعرهم، فضاع ولم يصل إلينا منه غير ما جاد علينا به هؤلاء الرواة ورضوا بحمله وروايته.

وحتى هذا الكم الذي وصلنا من شعرهم، الذي حمله لنا الرواة نراه يخلو خلواً تاماً من هجاء النبي وأصحابه، ويكاد يخلو من التعريض بالإسلام،مع أن طبيعة الصراع تقتضيهم أن يتعرضوا للنبي وللمسلمين، بل ولمن يناصر النبي الكريم ويعطف على دعوته.

والإشارات إلى هجاء المشركين للرسول الكريم، وتعريضهم به وبدعوته كثيرة نجدها في كثير من المصادر التي نقلت لنا شعر الصراع أو بعضاً منه، نجدها في السيرة[1] ونجدها في الطبقات الكبرى[2] ونجدها أيضاً في الأغاني[3] وفي غيره.

ونظن أن هذا الهجاء هو الذي حمل النبي على إهدار دمائهم ،ونظن أيضاً أن هذا الهجاء نفسه هو الذي دفع النبي الكريم إلى أن يقول لأم سلمة عندما كلمته في أبي سفيان ابن الحارث:" أما ابن عمي فهتك عرضي"[4] ومن ينظر في ديوان حسان بن ثابت يجد فيه هجاء مقذعاً كثيراً في عبد الله بن الزبعرى وأبي سفيان بن الحارث وغيرهما من شعراء المشركين. ومن الطبيعي أن ينهض هؤلاء الشعراء للدفاع عن أنفسهم بهجاء مثله، أو ربما يزيد عليه إفحاشاً وإقذاعاً.

ومن هنا يتبين لنا سبب قلة ما بين أيدينا من شعر المشركين، ويتكشف لنا سبب صمتهم أو غيابهم عن هذه الغزوات، أو قلة ما قالوا فيها، وهذا كله يجعلنا نرجح أن الشعر الذي نالوا فيه من النبي والمسلمين قد ضاع.

---

[1] السيرة /ق٢/١١

[2] الطبقات الكبرى/٤/٤٩

[3] الأغاني /٤/٤ ، ١١/١٤

[4] السيرة/ق٢/٤٠٠

الفصل الخامس
دور شعراء القبائل في الصراع

تمهيد

القبائل العربية والإسلام

أولاً: شعراء القبائل

أمية بن أبي الصلت الثقفي

كعب بن زهير المزني

العباس بن مرداس السلمي

مالك بن عوف النصري

لبيد بن ربيعة العامري

النابغة الجعدي

الأعشى البكري

عمرو بن سالم الخزاعي

كعب بن الأشرف النضري اليهودي

ثانياً: دور اليهود في الصراع

ثالثاً: شعراء القبائل وأحداث الصراع

موقف معارض للدعوة

موقف مؤيد للدعوة

رابعاً: شعر الوفود

وفود مناظرة

وفود مقاتلة

وفود مسلمة

القبائل العربية وموقفها من الإسلام

حين ظهرت دعوة الإسلام في مكة كانت القبائل العربية في منأى عن أحداثها بادئ ذي بدء، وبخاصة في سنواتها الأولى، فلم يكترثوا بها ولم يعيروها أدنى الْتِفَاتة، وظلوا منصرفين عن أمر النبي إلى الحروب والأخذ بالثأر. وقد كان هذا الانصراف عاماً بين القبائل حتى تلك التي كانت تعيش على مقربة من مكة مركزالدعوة ومهبط الوحي.

وفي الوقت الذي كان فيه الرسول يجهر بدعوته في **بطاح مكة** ،كانت قبيلتا بكر وتميم تكتويان بنار أيام متصلة كيوم النباح ويوم جدود ويوم النسار وغيرها.[1] واستمرت هذه الحروب مشتعلة بينهما إلى ما بعد الهجرة، وذلك في يوم الشيطين.[2] وكان ينو الحارث بن كعب المذججين وقبائل مراد وجعفى وزبيد وختعم تغير على بني عامر بن صعصعة بفيف الريح[3] وكانت غطفان تشتبك مع بني عامر في يوم الرقم[4]، وعبس تقارع بني عامر أيضاً في يوم النتاءة[5]، كما كانت الخزرج تحالف جهينة وأشجع على الأوس ومزينة وغطفان استعداداً للقاء في يوم بعاث[6]، ذلك اليوم الذي أضعف بطون يثرب كلها، وأدخل فيها الميل إلى الاتحاد، حتى أرادت أن تملك عليها ملكاً من الخزرج.[7] ولعل هذا الوضع المتردي في يثرب هو الذي هيأ الأوس والخزرج لحمل الدعوة، ودفعهم إلى نصرة النبي وحمايته فيما بعد.

وهكذا كانت القبائل العربية لاهيةً عن ذلك الصراع الفكري العنيف الذي كان يدور في مكة بين الرسول وأصحابه في جانب وجهابذة الشرك وعبدة الأوثان في الجانب الآخر بالقتال والإغارة والاستعداد لأخذ الثأر فيما بينهما.

على أن بعض القبائل القريبة من مكة كالأحابيش - وهم **بنو الحارث بن عبد مناة الكنانيين**، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق الخزاعيون - كانوا يواكبون أحداث الصراع، ويرقبون أخبار محمد وأصحاب محمد، ولكنهم لم يشاركوا في الصراع ضدهم، بل نرى أن الدعوة الجديدة قد استفادت من قانون الجوار الذي كان سائداً بين القبائل آنذاك، فقد حدثنا ابن هشام في السيرة

---

[1] نهاية الأرب /١٥/٣٨١ ، ٣٨٩

[2] ابن الأثير / الكامل / ١/٦٥٤، نهاية الأرب/١٥/٣٩٣

[3] نهاية الأرب/١٥/٤١٤

[4] نفسه / ٣٦٤

[5] نفسه/٣٦٤

[6] ديوان قيس بن الحطيم /٧٢

[7] تاريخ اليهود في بلاد العرب/٦٩ (ولفنسون)

أن ابن الدُّغُنَّة سيد الأحابيش، لقي أبا بكر الصديق مهاجراً إلى الحبشة، فأجاره ورجع معه، حتى إذا دخل مكة قام فقال: يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضن له أحد إلا بخير.[1]

ولعل عدم وقوف الأحابيش في وجه النبي، مرده إلى أنهم لم يروا في دعوته خطراً على كيانهم أو تهديداً لمصالحهم أو نيلاً من عصبيتهم، أو أنهم ظنوا أن الدعوة لا تزيد على أن تكون ثورة مؤقتة على عبادة الأصنام كتلك النزوات الفردية التي كانت تقوم في مكة وفي غير مكة من حين لأخر من قبل أفراد من الأحناف كزيد بن عمرو بن نفيل وغيره.

ولكن القبائل لم تبق في معزل عن الأحداث إلى مدة طويلة، ذلك أن الرسول - وبعد أن جهر بدعوته كان يوافي المواسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز يدعوهم، حتى بلغ رسالة ربه تعالى.[2] ومن هنا فقد وصل صوت الإسلام إلى أكثر القبائل العربية، وصل إلى بني عامر بن صعصعة ومحارب بن خصفة وفزارة وغسان ومرة وحنيفة وسليم وعبس وبني نصر وبني البكاء وكندة وكلب والحارث. بن كعب وعذرة والحضارمة[3]، كما وصل إلى بني ذهل بن ربيعة[4] وبني شيبان ابن ثعلبة[5] وثقيف[6] ،ولكن هذه القبائل جميعاً قد أداروا ظهورهم، ووضعوا أصابعهم في آذانهم، وأصروا واستكبروا عن الإجابة.

ومرد هذا الأعراض عن الدعوة فيما نظن، أن هذه القبائل كانت منصرفة إلى القتال والأخذ بالثأر فيما بينها، وكان زعماؤها يتطلعون إلى السيادة والعزة، فكأنه شق عليهم أن يدينوا بالولاء لأحد من غير عصبيتهم حتى ولو كان نبياً مرسلاً. وهذا الاعتزاز بالعصبية هو الذي حمل بني تميم على مفاخرة الرسول بأحسابهم وأنسابهم ومآثرهم عندما وفدوا عليه بعد الفتح. واستكبار القبائل عن الإجابة، يفسر لنا السبب الذي دفع الرسول إلى أن يكلف أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، لأنه لم يجد من هذه القبائل من يناصره ويعطف على دعوته ويجير أصحابه ويمنع عنهم الأذى.

وكانت ثقيف وبنو حنيفة وبنو عامر، أكثر معارضة للدعوة ،ولعل مرد ذلك أنها كانت تنشد ود قريش وترعى حق جوارها من ناحية، وأنها كانت ترتبط معها في علاقات تجارية ودينية من

---

1 السيرة/ق١ /٣٧٣

2 نهاية الأرب/١٦/٣٠٢

3 نهاية الأرب/١٦/٣٠٣

4 نفسه /٣٠٧

5 نفسه/٣٠٨

6 السيرة/ق١/ ٤٢٠

ناحية أخرى. وبرزت هذه المعارضة بشكل سافر، عندما خرج الرسول يبحث عن النصرة بين العرب، ويقف على منزل كل قبيلة في الأسواق، يدعوهم إلى أن يخلعوا ما يعبدون من دون الله من الأنداد، ويسألهم أن يصدقوا به ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به.[1] وهنا رأوا في هذه الدعوة السافرة خروجاً على دين الآباء والأجداد، وخرقاً للأعراف والتقاليد القبلية التي طالما آمنوا بها، وأقاموا على الولاء لها، فبادرت ثقيف إلى رد النبي ورفض دعوته، وليس هذا فحسب، بل أغلظوا له القول، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وأدْمَوْا عراقيب رجليه.[2]

وكان بنو حنيفة من أقبح العرب رداً عليه[3] أما بنو عامر بن صعصعة فقد ساوموه على أنيحكموا العرب من بعده، فلما أبى عليهم ذلك رفضوا نصرته.[4] وهذا ما يفسر لنا سبب مهاجمة القرآن الكريم للعرب بقوله: " أفحكم الجاهلية يبغون"

وفي الوقت الذي كان الرسول – صلى الله عليه وسلم - يطلب فيه النصرة من القبائل فلا يجدها، كانت بطون يثرب قد أنهكتهم حرب بعاث، وبعثت فيهم الميل إلى الاتحاد. ولعل العبارات الساقطة: ولعل هذا الميل، هو الذي حمل أولئك النفر الخزرجيين على الاستجابة لدعوة الإسلام عندما عرضت عليهم في موسم الحج. ولذا رأيناهم يقولون للرسول بعد أن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم:" **إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك**"[5]

وعندما تمت هجرة الرسول الكريم وظهرت دولته بنظامها الجديد، أخذ إعراض القبائل عن الإسلام وقعودهم عن نصرته، يتحول إلى تآمر وكيد في أول الأمر، ثم إلى قتال عنيف بعد ذلك.

ولكن عداء القبائل للإسلام لم يكن على درجة واحدة في هذا الدور، وإنما كان يخضع لموقف الرسول – صلى الله عليه وسلم - من القبيلة من جانب، كما كان رهناً بقرب هذه القبيلة أو بعدها عن حدود المدينة من جانب آخر.فالعربي يفزع إلى القتال عندما يُعْتَدَى على حماه، أو تُهَددُ مصالح قبيلته، أو تنتهك حرماتها. ومن هنا انصرفت هوازن وغيرها من القبائل البعيدة عن قتال

---

[1] السيرة/ق١/٤٢٣

[2] نفسه /٤١٩ -٤٢٠، نهاية الأرب/١٦/٢٨٠

[3] السيرة / ق١/٤٢٤، تاريخ الطبري/٢/٣٥٠

[4] نفسه /٤٢٥، نهاية الأرب/١٦/٣٠٤

[5] نهاية الأرب/١٦/٣١١

الرسول في أول الأمر، حتى إذا ما فتحت مكة وأحست بالخطر على كيانها. جمعت عشائرها وبطونها ثم هبت للدفاع عن أحسابها وتقاليدها ودينها، في حين أن القبائل القريبة من المدينة بدأت تقارع الدولة الإسلامية منذ قيامها، وتتحين الفرص المواتية للنيل منها أو الإغارة عليها. وسبب ذلك أنها رأت في الإسلام تهديداً لأمنها، وخطراً على كياناتها، ومنافساً قوياً لعصبيتها.

وقد حملت لنا الأخبار أن الرسول الكريم غزا سليماً يوم قرقرة الكدر، لأن به جمعاً منهم ومن غطفان[1] وغزا بني ثعلبة وبني محارب الغطفانيين بذي أمر، لأنهم تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف دولته[2] وغزا بُحْرَان، لأنه بلغه أن بها جمعاً من بني سليم.[3]

واشتد عنف هذه القبائل بعد هزيمة يوم أحد مباشرة، فكأنهم رأوا أن الظرف السياسي قد أصبح ملائماً للتخلص من المسلمين، فأخذوا يعدون أنفسهم للقتال، ولكن أخبار إعدادهم وتجمعهم كانت تنتهي إلى المدينة، فيسارع الرسول الكريم إلى مفاجأتهم في منازلهم وديارهم. يحدثنا النويري أن الرسول – صلى الله عليه وسلم - بعث أبا سلمة بن عبد الأسد بسرية إلى بني أسد بن خزيمة،لأن طليحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما وفيمن أطاعهما يدعوانهم إلى حربه.[4] وبعث عبد الله بن أنيس على رأس سرية لقتل سفيان بن خالد الهذلي الذي جمع الجموع لقتال المسلمين.[5] وقام بغزو بني المصطلق الخزاعيين بنفسه، لأن سيدهم **الحارث بن أبي ضرار** قد سار في قومه وفيمن قدر عليه من العرب، ودعاهم إلى الحرب الرسول الكريم[6]، كما غزا أنماراً وثعلبة للسبب نفسه.[7]

ولم تكن هذه القبائل لَتكُفّ عن التحرش بالمسلمين ولِتَنْزِعَ عن إلحاق الأذى بهم، فقد دأبت على تَحيُّن الظروف الملائمة لتأخذ بثأرها، ولتنتصر لكرامتها وشرفها، فلم يكن غريباً إذن أن تَخْفِرَ عُصَيَّةُ ورعل وذكر أن السلميون جوار أبي براء عامر بن مالك العامري فيغدروا بأصحاب بئر

---

[1] النويري/ نهاية الأرب/١٧/٧٢

[2] نفسه /٧٨

[3] نفسه/٧٩

[4] نفسه/ ١٢٧

[5] نفسه/١٢٨

[6] نفسه/١٦٤

[7] نهاية الأرب/١٧/١٥٨

معونة من المسلمين،[1] ، لأن الرسول الكريم قد غزاهم وغنم أنعامهم. ولم يكن غريباً أيضاً أن تغدر هذيل ورهط من عضل والقارة - وهم إلى الهون بن خزيمة - بأصحاب الرجيع ليأخذوا بثأر **سفيان بن خالد** الهذلي الذي قتله المسلمون،[2]

ولم تقف القبائل في عدائها للإسلام والرسول عند حد التآمر والغدر، بل تجرأت بعضها فأغارت على مدينة الرسول، أغار عليها **كرزبن جابر الفهري**،[3] ثم أغار عليها بعد ذلك عيينة ابن **حذيفة سيد فزارة** في خيل من غطفان.[4]

ولعل حرص بعض القبائل على الانتقام، ورغبتهم في رفع الضيم ودفع العدوان، ثم إحساسية بالعجز والضعف والتخاذل أمام المسلمين، هو الذي حملهم على التحالف والتحزب مع قريش في يوم الخندق، فشارك منهم في هذه الغزوة: بنو سليم وبنو أسد وبنو مرة وغطفان وفزارة وأشجع، كما شارك فيها الأحابيش وبعض كنانة وغيرهم من العرب[5] وكانت هذه القبائل جميعاً تترل في البيئة الجغرافية التي دارت على أرضها أحداث الصراع، وهذا يفسر لنا أن القبيلة إنما تندفع إلى القتال عندما يستهدف كيانها، وتتهدد مصالحها.

ولئن حملتها مصالحها على التحالف ضد الرسول الكريم في يوم الخندق، فقد دفعت بها هذه المصالح إلى التحالف معه في يوم الفتح وما بعده، فعندما توالت انتصارات الرسول، ورأت هذه القبائل أن لا قِبَلَ لها بالمسلمين، أخذت تغير من مواقفها حماية لأبنائها من أن تصيبهم هلكة، وطمعاً في الغنائم التي كانت من الأمور التي تحفزها على الإغارة على غيرها من القبائل، فأقبلت على اعتناق الدين الجديد. ثم خرجت تشارك الرسول في غزواته ضد المشركين. وقد شارك منهم في يوم الفتح: اسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم وخزاعة وغيرهم.[6]

أما القبائل التي كانت بعيدة عن موطن الصراع فقد ظلت ترقب الأحداث دون أن تشارك فيها مشاركة حاسمة، حتى إذا ما هدد أمنها، وأصبح الخطر على أعتابها، قامت تدفع عن نفسها

---

[1] تاريخ الطبري /٢/٥٦٤، نهاية الأرب /١٧/١٣١

[2] تاريخ الطبري/٢/٥٣٨، نهاية الأرب /١٧/١٣٣.

[3] السيرة/ق١/٦٠١

[4] نفسه/ق٢/٢٨١

[5] نهاية الأرب/١٧/١٦٧.

[6] نفسه/٢٩٦

العدوان، كما كان الحال عند هوازن، فحين فتحت مكة وبات من المؤكد أن الرسول – صلى الله عليه وسلم - سيخرج إلى هوازن، مشت أشرافهم وأشراف ثقيف بعضهم إلى بعض، وحشدوا حشوداً كثيرة، فاجتمعت بنو نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وثقيف وناس من بني هلال[1]، وقاتلت المسلمين قتالاً مريراً في يوم حنين. على أن هنالك قبائل كثيرة قد غابت عن المشاركة في أحداث الصراع، منها قبائل سلكت سبيل الحياد، فوادعت الرسول وأمسكت عن معارضته، إما لعطف سيدها على الإسلام كبني عامر[2]، وإما بسبب ضعفها أو طلباً للأمن وإيثار العافية كبني مدلج[3] وبعض جهينة[4] وبني ضمرة بن بكر[5] الكنانيين. روى ابن هشام في السيرة **أن أبا براء بن مالك ملاعب الأسنة**، قدم على الرسول – صلى الله عليه وسلم - فعرض عليه رسول الله الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام، وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد تدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله: "**إني أخشى عليهم أهل نجد**"، قال أبو براء: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك. [6]

وروى في موضع آخر أن الرسول قد أقام على بدر ينتظر أبا سفيان بن حرب لميعاده، فأتاه مَخْشِيُّ بن عمرو الضمري - وهو الذي وادعه على بني ضمرة في غزوة وَدَّان -فقال يا محمد: أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال:" نعم يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك ،رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك"،قال: لا والله يا محمد مالنا بذلك منك من حاجة.[7]

ومنها قبائل لم تر ما يحملها على المشاركة في الصراع، وسبب ذلك أنها كانت بعيدة عن موطنه فلم تشتبك مع المسلمين في قتال، ولم يلحقها منهم أذى، أو يقع عليهم ضيم من ناحية، وأن بعضها كانت منصرفة إلى القتال فيما بينها من ناحية أخرى[8]. وحين ظهر الإسلام في الحجاز،

---

1 السيرة/ق٢/٤٣٧، نهاية الأرب/١٧/٣٢٤

2 السيرة/ق٢/١٨٤

3 تاريخ الطبري/٢/٤٠٦

4 نفسه/٤٠٥

5 السيرة/ق١/٥٩١

6 السيرة/ق٢/١٨٤

1نهاية الأدب/١٨/٧٦-١٢٠

8 نهاية الأرب/١٥/٤١٤

خرجت وفود هذه القبائل إلى المدينة، فأعلنت إسلامها، ومن هذه القبائل خولان ومـــراد وزبيـــد وكندة والأزد وخثعم وحمير وغيرها من قبائل اليمن، وما جاورها كمهرة وحضرموت وعمان.[1]

وصفوة القول فإن القبائل العربية كانت كلها تعارض الإسلام - كما بيننـــا في طلـــب الرســـول لنصرتها له قبل الهجرة - إلا أن العصبية الضيقة قد حالت في أغلب الأحيان دون اتحادها لمواجهـــة الرسول، فاعتمدت كل قبيلة على نفسها في مواجهة الخطر، وربما استعانت القبيلة بالقبائل الأخرى التي تربطها بها صلة النسب والقربى كما حدث في غزوة حنين حيث استعانت هوازن وثقيف بجشم وسعد بن بكر وهلال، ولكنا لم نجد تحالفاً قبلياً ضد الإسلام إلا في الأحزاب، ومع هذا، فإن تلـــك القبائل المتحالفة يومئذ لم تكن لتزيد عن عدة قبائل.

أمابعد فهذا موقف القبائل من الإسلام ودعوته بوجه عام. وسوف نمضي مع الأحداث لنـــرى مدى مساهمة هذه القبائل في الصراع الأدبي، سواء أكان مع الإسلام أم عليه، ونبدأ بدراسة شعراء القبائل لنعرف مواقفهم من الدعوة باعتبارهم يمثلون قبائلهم ويعبرون عن أفكارها ومشاعرها.

شعراء القبائل:

كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم، ومنتهى حكمتهم به يأخذون وإليه يصيرون، وكانت القبيلة إذا ما نبغ فيها شاعر صنعت الأطعمة ولعبت النساء بـــالمزاهر - كمـــا يفعلـــن في الأعراس - وتباشر الرجال والولدان، وهنأتها بذلك القبائل الأخرى، فهم يحسبون أن قدر القبيلـــة رهن باختيار الشاعر لكلماته.[2]

ومن هنا كان الشعراء يحتلون مركزاً مرموقاً في المجتمع الجاهلي، لأن الشاعر داعيـــة العـــرب وهَجَّاءَهم وكاهنهم الحكيم، وأبعدهم إحاطة بتاريخهم ومفاخر أنـــسابهم، وأعـــرفهم بحقـــوقهم، وأبصرهم بمثالب أعدائهم وأقدرهم على الافتنان في القول وإصابة الغرض.فكان في ميسور حملاته اللاذعة أن تفل سيوف العدو، وأن تكفل لقبيلته النصر والظهور.[3]

فالشاعر إذن، لسان حال القبيلة - شأن الصحيفة اليوم - والناطق الرسمي بلـــسانها، ولـــه دور خطير في الحرب والسلم، فهو الذي يتولى إثارة المشاعر وإذكاء الحماس، وبعث الحمية في النفوس،

---

[1] نفسه/١٨/٧٦ - ١٢٠

[2] المزهر/٢/٤٧٣،

[3] روم لاندو/الإسلام والعرب/١٨

وهو الذي ينشر أخبار المعارك ويتولى الدعوة إلى الصلح، ويتصدى للخصوم، فكان لذلك ذا أثـــر بالغ في السياسة والحياة العامة.[1]

ولما جاء الإسلام،وأعلن ثورته السافرة على العقيدة الجاهلية، واستهدف العــادات والتقاليـــد القديمة، وجهر بعدائها ومناجزتها، ونادى بمحوها وإزالتها، كان من الطبيعي أن يهب العرب جميعاً للدفاع عنها، فاتفقوا لذلك على محاربته وقتاله،وجندوا جميع طاقاتهم للمعركة الحاسمة، وكان الشعر ذا تأثير قوي في القتال والمعارك، فبادر الشعراء إلى المعارضة والتحــريض، ونهجــوا إلى العــداوة والتأليب، وأدخلوا سلاحهم البتار في المعركة.

وعلى هذا، فقد أذكى الصراع جذوة الشعر، فسال على ألسنة الشعراء في طــول الجزيـــرة وعرضها، ولم يقتصر الأمر فيه على المشهورين من الشعراء، وإنما ظهــر هنـــاك شــعر لــشعراء مغمورين، سجلوا - من خلاله -مواقفهم من الإسلام ودعوته، فتناول الرواة بعض هـــذا الــشعر وحفظوه.

وقد تفاوت شعراء القبائل في عدائهم للإسلام ،فكان هذا العداء يشتد ويقوى حــين تــدخل القبيلة في صراع مباشر مع المسلمين، ولهذا كان شعراء قريش والطائف واليهود من أكثر الشعراء عنفاً وصلابة على الإسلام ورسوله. أما شعراء قريش فقد عرضنا موقفهم في موضعه مـــن هـــذا المبحث، وأما شعراء القبائل الأخرى وشعراء اليهود، فسوف نعيش معهم في هذا الفصل، لنقــف على دورهم في مجال الصراع، ونعرف حظهم من النشاط في المعارضة أو التأييـــد، ومـــن هـــؤلاء الشعراء:

أمية بن أبي الصلت:

كان طامعاً في النبوة[2]، وكان لذلك يتجه بشعره لاستغراق المعاني الدينيـــة، فـــذكر إبـــراهيم واسماعيل والحنيفية، ووصف الجنة والنار في شعره. وقد شك أمية في الأوثان، وحَرَّمَ الخمر وصام، وقرأ الكتب ولبس المسوح وتنصر[3]، ولذلك كان بعض العلماء يقول: لولا النبي لادَّعَتْ ثقيف أن

---

[1] درويش/حسان بن ثابت/٧٠

[2] الخزانة/٢/١٢١

[3] الأغاني /٣/١٨٧، الخزانة /٢/١٢١، الإصابة /١/١٣٣

أمية نبي، لأنه قد دارس النصارى، وقرأ معهم ودارس اليهود وقرأ الكتب[1]. وقد جاء في المصادر القديمة قصة نُسِبَتْ إلى أخت أمية تعزز هذا القول. [2]

وكان أمية كثير العجائب يذكر في شعره خلق السموات والأرض،ويذكر الملائكة، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء، وكان قد شام أهل الكتاب.[3] وإذا قالوا في ابن الرومي: إنه طائر يغني في غير سربة، فأمية كان ذلك الطائر الغريب حقاً في عصره، فقد كان التوحيد والإيمان يشيعان في شعره في زمن كان الناس فيه منصرفين إلى عبادة الأصنام وتعدد الآلهة والإقبال على ملذات الدنيا، فمن ذلك قوله:[4]

كل دين يوم القيامة عند — الله – إلا دين الحنيفية زور

وقوله:[5]

يا رب لا تجعلني كافراً أبداً — واجعل سريرة قلبي الدهر إيمانا

وكان أمية وورقة بن نوفل قد طلبا الدين في الجاهلية، فقال له أمية:يا باغي الخير هل وجدت؟ قال: لا، قال: ولم أوت من طلب، قال: أبى علماء أهل الكتاب إلا أنه منا أو منكم أو من أهل فلسطين.[6] وعندما ظهر الإسلام كان أمية في البحرين، فعاد إلى الطائف يتسقط أخباره، ثم قدم على محمد بمكة وسمع منه آيات من القرآن، ثم انصرف عنه[7].

وقالوا إن النبي الكريم كان يستنشد شعر أمية ويحب سماعه، وكان يصدقه في بعض شعره ويقول:" **كاد أمية أن يسلم**"[8]وحين أنشد قوله:

زحل وثور تحت رجل يمينه — والنسر للأخرى وليث مرصدُ

والشمس تطلع كل آخر ليلة — حمراء يصبح لونها يتوردُ

ليست بطالعة لهم في رسلها — إلا معذبة وإلا تجلدُ

---

[1] الإشتقاق /٢/٣٠٣

[2] طبقاتالشعراء /١٠٤ -١٠٥، الأغاني /٣/١٨٩

[3] طبقات الشعراء/١٠٣

[4] مارون عبود: أدب العرب/٨٥

[5] الأغاني /٣/ ١٩٠ / خزانة الأدب/١/١٢٠

[6] طبقات الشعراء/١٠٣

[7] الزركلي: الأعلام /١/٣٦٤

[8] تفسير القرطبي /١٣/١٤٦

قال:" **آمن لسانه وكفر قلبه**"[1] بل قالوا أكثر من ذلك فيه، قالوا: إن النبي الكريم لم يتمثل ببيت من الشعر صحيحاً إلا ببيت أمية:[2]

إن تغفر اللهم تغفر جما   وأي عبد لك لا ألما

ولعل سماع النبي لشعر أمية ، وشيوع المعاني الدينية في هذا الشعر، قد دفعا بعض العلماء إلى الظن بأنه آمن بالنبي: من ذلك ما روي أن أمية كان قدم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف،ويهاجر إلى المدينة، فلما نزل بدراً قيل له: إلى أين يا أبا عثمان؟ قال: أريد أن أَتَّبِعَ محمداً، فقيل له: هل تدري ما في هذا القليب؟ فقال: لا، قيل له : فيه شيبه وعتبة ابنا خالك، فجدع أنف ناقته، وشق ثوبه وبكى، ورجع إلى الطائف فمات بها كافراً[3] والقصة كما يبدو ظاهرة الوضع والاختلاق لعدة أسباب:

أولها: أنها شبيهة بقصة الأعشى في خروجه إلى النبي ورجوعه قبل أن يصل إلى المدينة مما يوحي بأن واضعهما واحد. **وثانيها**: يعود إلى نفسية أمية ذاتها، فقد روي أنه حسد النبي - عليه السلام - وأبغضه، بل وجاهر بعدائه له، وشارك الكفار في التأليب عليه، لأنه كان يطمع في النبوة، روي عنه أنه قال لأبي سفيان بن حرب عندما علم أن النبي قد بعث: اتَّبعْهُ فإنه على الحق، أما أنا فإني أستحيي من نسيات ثقيف أني كنت أحدثهم أنني هو ، ثم يرينني تابعاً لغلام من عبد مناف.[4]
وثالثها: أن أمية لم يكن غائباً عن خبر بدر، ولم يكن جاهلاً بنتيجتها، فالصلة بين الطائف ومكة لا تنقطع، يضاف إلى ذلك أنه كان يتابع الأحداث السياسية، ويراقب أخبار النبي وانتصاراته ليتأكد من انطباق أخباره في الكتب السماوية على واقع الحياة. لهذا، فإنا نشك في صحة أمر خروجه إلى النبي، وتطلعه إلى الإيمان بنبوته.

ويبدو أن أمية كان ذا مكانة سياسية مرموقة بين العرب، وهذا يكشف لنا سر اهتمام القدماء به واحتفالهم بشعره، حتى ذهبوا إلى أنه وفد على النبي ومدحه. قال صاحب الخزانة إنه رأى في ديوان أمية قصيدة مدح بها النبي، مطلعها:[5]

---

1 مسند أحمد/٤/٨٩، تفسير القرطبي/١٥/٦٤

2 تفسير القرطبي/١٧/١٠٧

3 خزانة الأدب /١/١٢١، الإصابة/١/١٣٣

4 الإصابة /١/١٣٣

5 الخزانة /١/١٢٢

لك الحمد والمن رب العبا	د وأنت المليك وأنت الحكم

وفيها يقول:

محمـــد أرسله بالهـــدى	فعـــاش غنياً ولـــم يُتَّهَم
عطاء مـــن الله أعْطِيَتَهُ	وخص بـــه الله أرض الحرم
وقد علمـــوا أنه خيرهم	وفي بيتهم ذي الندى والكرم
يعيبون ما قال لمـــا دعـــا	وقد فـــرج الله إحدى البهم
أطيعوا الرسول عباد الإله	تنجون مـــن شر يـــوم أَلَمَّ
بـــه ختم الله مـــن قبله	ومـــن بعده مـــن نبي ختم

والقصيدة ظاهرة الوضع والنحل، فهي ضعيفة السبك، خالية من حرارة الإيمان التي نحـــسها في شعر أمية، كما أنها تناقِضُ في مضمونها ما سبق وعرفناه عن أخبار أمية، وموقفه من الإسلام ونبيه، فأولى به أن يسلم أولاً قبل أن ينهض بالدعوة إلى الإسلام. أضف إلى ذلك، أن أمية كان واحداً من الشعراء الذين كثر عليهم الاختلاق، ولعل لهجه في شعره إلى ذكر الدين – كما بينا - ومعاصـــرته لدعوة النبي الدينية، وموقفه العدائي من هذه الدعوة، كانت أسباباً مباشرة لهذا الاختلاق عليـــه. وإذا رجعنا إلى كتاب البدء والتاريخ **لمطهر بن طاهر المقدسي** - من علماء القرن الرابـــع للـــهجرة - وجدنا أن ما فيه من شعر أمية مملوء عبارات وألفاظاً قرآنية.[1]

وقد شارك أمية في الصراع ضد الإسلام منذ ظهوره، فلما علم بقتل ابني خاله عتبة وشيبة يوم بدر، اشْتَدَّتْ نقمته على محمد، فمضى يحرض عليه، وينوح على من قتل من المشركين يـــوم بـــدر بقوله:[2]

ألا بكيت على الكرا	م بني الكـــرام أولي الممادح
كبكا الحمام على فرو	ع الأيك في الغصن الجوانح
يبكين حرى ستيكنات	يرحـــن مـــع الروائـــع
ماذا ببدر فالعقنقل من	مـــرازبـــة جحـــاجـــح
فمدافع البَرقْينَ فالحنان	مـــن طـــرف الأواشح[3]

---

[1] البدء والتاريخ ٢٠٣/٢٠٢/١

[2] السيرة/ق٢/٣٠، الأغاني ١٨٧/٣، طبقات الشعراء/١٠٣

[3] البرقين: موضع. الحنان: الكثيب من الرمل.الأواشح: موضع

شمط وشبان بها ... ليل مغاوير وحاوح[1]
ألا ترون لما أرى ... ولقد أبان لكل لامح
أن قد تغير بطن مكة ... فهي موحشة الأباطح
كل بطريق لبطريق ... نقيٍّ القون واضح[2]
دعموص أبواب الملو ... ك وجائب للخرق فاتح[3]
خذلتهم فئة وهم ... يحمون عورات الفضائح

ونال أمية في قصيدته هذه من أصحاب الرسول، ولذلك رأينا ابن هشام يحذف منها بيتين لأنه أقذع فيهما على الصحابة الكرام.[٤]

ومضى أمية إلى بكاء من قتل من قريش، فسال دمعه على **زمعة بن الأسود** وقتلى بني أسد، كما سال على سائر القتلى من قريش. وبنو أسد في نظر أمية يَسْتَحقُون البكاء لما يتصفون به من شجاعة ومكانة رفيعة في كعب، ولما هم عليه من كرم إذا اقحط الناس فيقول:[٥]

عين بكي بالمسبلات أبا الحا ... رث لا تذخري على زَمَعَةْ[٦]
وعقيل بن أسود أسد البأ ... س ليوم الهياج والدَّفَعَة
فعلى مثل هلكهم خوت الجو ... زاء لا خانة ولا خَدَعَةْ [٧]
وهم الأسرة الوسيطة من كعب ... ، وفيهم كذروة القَمَعَة [٨]
أنبتوا من معاشر شعر الرأ ... س، وهم ألحقوهم المَنَعَه
فبنوا عمهم إذا حضر البأ ... س عليهم أكبادهم وَجِعَةْ
وهم المطعمون إذ قحط ... القطر وحالت فلا ترى قزعة [١]

---

[1] الشمط: الذين خالطهم الشيب. والوحاوح: جمع وحواح وهو الحديد النفس

[2] البطريق: رئيس القوم

[3] الدعموص: دويبة تغوص في الماء، يريد أنهم يكثرون الدخول على الملوك. الجائب : القاطع، الخرق: الخلاة الواسعة.

[4] السيرة/ق٢/٣٢

[5] نفسه/٣٣

[6] المسبلات: الدموع السائلة.

[7] الجوزاء: اسم نجم. خانة : جمع خائن. خدعة: جمع جادع

[8] الوسيطة: الشريفة. القمعة: السنام

ونظر أن أمية قال شعراً في الإسلام غير هذا، فإن وفاته كانت في السنة التاسعة للهجرة وهذا يدل على أنه شهد حصار الطائف، فإذا كان قد شارك قريشاً مصابها وألم لفاجعتها، فأولى بـــه أن ينهض للدفاع عن قومه، وأن يتصدى لخصومهم ويهجو أعداءهم، قال أبو الفرج [٢]" **قد ضاع أكثر شعر أمية**" وشعر أمية في رثائه لا يرقى إلى مستوى شعر قريش في رثاء أشرافها، قوة وصدق عاطفة ففرق كبير بين عاطفة المواسي المناصر وعاطفة المصاب الموتور. ويلاحظ على شعره بعامـــة، لـــين وضعف وركاكة، ولم يحتج أهل اللغة به لأنه أتى بألفاظ غريبة لم يعرفها العرب، أخذها من أهـــل الكتاب وأدخلها في شعره. [٣]

كعب بن زهير المزني:

كان كعب شاعراً مجوداً كثير الشعر، قال عنه خلف الأحمر: لولا قصائد لزهير ما فضلته علـــى ابنه كعب. [٤]

وحين ظهر الإسلام وقف كعب موقفاً مناوئاً له، فأخباره تنص على أنه قد أقام علـــى الكفـــر والتشبيب بنساء المسلمين ، وأنه قد ذكر الرسول الكريم بما أحفظه. [٥]ونظن أن كعباً كان يتـــزعم حركة معارضة قوية ضد الرسول وأصحابه، وأنه كان يؤلب عليهم العرب. ولعل هذا الموقف من كعب هو الذي حمل الرسول الكريم على إهدار دمه وعلى تهديده بقوله: " **لَئِنْ وقع كعب بن زهير في يدي لأقطعن لسانه**" [٦]وأسلم أخوه" بجير " وأسلم أكثر أهل قبيلته مزينة أيضاً، فلما علم بذلك بعث إلى أخيه يبكته ويعنف في لومه على إسلامه حيث يقول: [٧]

مـــن مبلغ عني بجيراً رسالة	فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا[٨]
شربت مع المأمـــون كأسا روية	فأنهلك المأمـــون منهـــا وعلكـــا

---

[1] الخزانة/١/١٢١

[2] الأغاني /٣/١٨٧

[3] تاريخ الآداب العربية/نالينو/٩٣

[4] الاستيعاب/٣/١٣١٥

[5] خزانة الأدب/٤/١٢

[6] نفسه/١٢

[7] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي/١/١٥٦

[8] السيرة/ق٢/٥٠٢، ديوانه /٣ -٤

وخالفت أسباب الهدى واتَّبَعْتَهُ على أي شيء وَيْبَ غيرك دلكا[1]

على خلق لـــم تلف أما ولا أبا عليه ولم تدرك عليه أخـــا لكـــا

فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل إمـــا عثرت لمـــا لعاً لكـــا

وانتهى أمر هذه الأبيات إلى المدينة – فيما كان ينتهي إليها من الشعر الذي كان يقال في هجاء النبي والتحريض عليه - فكره بجير أن يكتم رسول الله أمر أخيه، فأنشده إياها، فلما سمع قولـــه: " **فأنهلك المأمون**" قال: "**صدق وإنه لكذوب أنا المأمون**" وتوعد كعباً وهدده وأباح دمـــه لمـــن لقيـــه مـــن المسلمين. [2]

ودان العرب لنظام الإسلام، فضاقت الدنيا بأعدائه ومعارضيه ومن كانوا يطرحون الشوك في طريق انتشاره. وكان كعب واحداً من هؤلاء، فكتب إليه أخوه بجير يخبره أن رسول الله قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة، فطر إلى رسول الله، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعـــل فـــانْجُ إلى نجائك من الأرض[3]، وضَمَّنَ كتابه هذا الابيات: [4]

فمن مبلـــغ كعباً فهـــل لك في التي تلـــوم عليها باطلاً وهـــي أَحْزَمُ

إلى الله–لا العزى ولا اللات -وحده فتنجو إذا كـــان النجاء وتسلم

لدى يـــوم لا ينجـــو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم

فلما بلغه الكتاب، ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، فلجأ إلى قبيلته مزينة، غير أنها أبـــت عليه، فأدرك أنه مأخوذ لا محالة، وظل خائفاً يترقب، فلما لم يجد من شيء أبداً، قر قـــراره علـــى الإسلام، فخرج إلى المدينة متنكراً، فأتى أبا بكر، فلما صلى الصبح أتى به وهو متلـــثم بعمامتـــه فقال: يا رسول الله: رجل يبايعك على الإسلام ،وبسط يده وحسر عن وجهه وقال: بـــأبي أنـــت وأمي يا رسول الله، مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير، فَتَجَهَمَّتْهُ الأنصار وغَلَّظَتْ عليه لما ذكـــر

---

[1] الخيف: أسفل الجبل، ويريد به - هنا - خيف منى

[2] ديوانه /٤، السيرة /ق٢/٥٠٢

[3] السيرة /ق٢/٥٠١

[4] ديوانه/٤، الاستيعاب/١/١٤٩

به رسول الله، ولانَتْ له قريش وأحبوا إسلامه وإيمانه، فأمنه رسول الله، فانطلق كعب يمدح الرسول بقصيدته المشهورة التي مطلعها:[1]

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلبِي اليوم مَتبُولُ   مُتَيَّمٌ إثْرها لم يُفْد مَكْبُولُ

فلما انتهى إلى قوله:[2]

إن الرسول لنور يستضاء به   وصارم من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم   ببطن مكة لما أسلموا زولوا[3]

زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كشف   عند اللقاء، ولا ميل معازيل[4]

شُمُّ العرانين أبطال لبوسهم   من نسج داود في الهيجا سرابيل[5]

فنظر النبي إلى من عنده من قريش: أن اسمعوا، حتى قال:[6]

يعرض بالأنصار لغلظتهم كانت عليه، فأنكرت قريش ذلك وقالوا: لم تمدحنا إذ هجوتهم[7] ونحن نخالف ابن سلام في رأيه فلا نرى في البيت ما يشير إلى هجاء الأنصار، إذ ليس فيه قرينة تدل على ذلك، وكل ما في الأمر أن كعباً نهج في مديحه للرسول – صلى الله عليه وسلم - منهج الجاهليين في مديح الملوك حين يفدون عليهم، فلم يكونوا يذكرون سوى الملك وأهل بيته، وأن السكوت عن ذكر الأنصار لا يعني هجاءهم. قال صاحب الاستيعاب: إنه اثنى على المهاجرين، ولم يذكر الأنصار، فَكَلَّمَتْهُ الأنصار فصنع فيهم - حينئذ -شعراً، [8] هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن كعباً - كما نظن - لم ينشد قصيدته ارتجالاً، وإنما قام بإعدادها وتحكيكها وتقليب النظر فيها - شأن مدرسة أبيه - قبل أن يصل المدينة، فكيف عرف إذن أن الأنصار سوف يقفون منه موقفا صلباً حتى يعد بيتاً واحداً في هجائهم والتعريض بهم؟ أضف إلى ذلك، أن الإسلام قد منع الهجاء بعامة.

---

[1] طبقات الشعراء/٣٤، الشعر والشعراء/١/١٥٤

[2] ديوانه/٢٣، جمهرة أشعار العرب/٢٨٧

[3] زولوا: تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة.

[4] الانكاس: جمع نكس وهو الرجل الضعفيف، والكشف : جمع أكشف، وهم الذين لا ينكشفون في الحرب. والميل: جمع أميل وهو الذي لا يحسن الركوب فيميل عن السرج.

[5] السرابيل : جمع سربال، وهو القميص أو الدرع.

[6] طبقات الشعراء/٣٤

[7] نفسه/٣٤

[8] الاستيعاب/٣/١٣١٣

الهجاء بعامة. وإهدار دم كعب نفسه، إنما كان بسبب هذا الهجاء، فكيف يجرؤ أن يهجـــو أحـــب الناس إلى رسول الله؟ وهو قد جاءه عائذاً تائباً؟ ناهيك أيضاً عن أن الرســـول لا يـــسمح بهجـــاء الأنصار، لما لهم من المكانة في نفسه وفيهم يقـــول:[1] ((**والله لو سلك الناس شعبا، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**)).

ولهذا نحن نستبعد أن يكون كعب قد هجا الأنصار أو عَرَّضَ بهم، وكل ما فعله أنه أغفل ذكرهم في حين ذكر المهاجرين ، فلما قال له الرسول: [2]" **لولا ذكرت الأنصار، فإنهم لذلك أهل**" قـــال فيهم: [3]

من سره كـــرم الحياة فلا يزل	في مقنب من صالحي الأنصار[4]
ورثوا السيادة كابرأ عن كابر	إن الكرام هـــم بنو الأخيار[5]
المكرهين السمهري بأذرع	كصواقـــل الهندي غير قصار
والباذلين نفوسهم لنبيهم	يـــوم الهياج وقبة الجَبـــَّار[6]

وليس هذا فحسب، بل يرى فيهم معقلاً لمن نزل إليهم وطلب حمايتهم، فإن انتصارهم في يوم بدر قد أثبت أنهم أهل لذلك: [7]

وإذا نزلت ليمنعوك إليهم	أصبحت عند معاقل الأغفارِ[8]
لو يعلم الأحياء علمي فيهم	حقـــاً لصدقني الذين أماري
صدموا علياً يوم بدر صدمة	دانت عَلي بعدهـــا لنزار[9]

---

[1] تاريخ الطبري/٣/٩٤

[2] السيرة/ق٢/١٥١

[3] الديوان/٢٥، تفسير القرطبي/٨/٦٦/٦٧، الشعر والشعراء/١/١٥٥ -١٥٦

[4] المقنب: الجماعة من الخيل، يريد به، القوم على ظهور جيادهم.

[5] كابراً عن كابر: أي كبير شريف عن كبير شريف.

[6] الهياج: الحرب، وأصله الحركة في الشر، قبة الجبار: أراد بيت الله الحرام .

[7] الديوان/٣١، والسيرة/ق٢/٥١٥

[8] المعاقل: الحصون، والأغفار: أولاد الأروى واحدها غفر.

[9] علي: هو علي بن بكر بن وائل، ويقال: هو أخو عبد مناة بن كنانة بن خزيمة من أمه.

وحسن إسلام كعب وصلح شأنه ، فركب إلى قومه يدعوهم إلى الدخول فيما دخل فيه - وكان في قومه بعض الخلاف - فأسلم ناس كثيرون، فقال كعب يبين دوره في ذلك: [1]

رحلت إلى قومي لأدعو جلهم إلى أمر حزم أحكمته الجوامع [2]

ليوفوا بما كانوا عليه تعاقدوا بخيف منى والله راء وسامع

وتوصل أرحام ويفرج مَغْرَمٌ وترجع بالود القديم الرواجع

فأبلغ بها أفناء عثمان كلها وأوساً فبلغها الذي أنا صانع

سأدعوهم جهدي إلى البر والتقى وأمر العلا ما شايعتني الأصابع

فكونوا جميعاً ما استطعتم فإنه سيلبسكم ثوب من الله واسع

وأقبل كعب على الدين الجديد، وعاهد الله لَيَلْبَسَنَّ ثوبه على الإسلام ويخلص لربه الذي يحيي ويميت، ويحفظ النائم والمستيقظ من الأشياء المهلكة: [3]

فأقسمت بالرحمن لا شيء غيره يمين أمريء بر ولا أتحلل [4]

لأسْتَشْعِرَنْ أعلى دَريسَيِّ مسلماً لوجه الذي يُحْيي الأنام ويقتل [5]

هو الحافظ الوسنان بالليل ميتاً على أنه حي من النوم مثقل [6]

من الأسود الساري وإن كان ثائراً على حد نابيه السمام المثمل [7]

وهكذا هذب الإسلام نفسيته وتمكن من شِغَافِ قلبه، فغير نظرته للحياة ،وعمق عنده الإيمان والتقوى، فزهد في هذه الحياة الدنيا، وقنع بعطاء الله،فلم يعد يخشى عوادي الفقر. وكيف

---

[1] الديوان/١١٢

[2] نسب الأصمعي هذه الأبيات لأوس بن حجر، ونحن نستبعد ذلك ونرجح أنها لكعب، فإن فيها من المعاني الإسلامية ما يوحي بأنها قيلت في ظل الإسلام، كما ان فيها إشارة إلى حادث" الغراف" وهو ما حدث بالخيف من منى بين كعب وأخيه بجير وقصة إسلامه.

[3] الديوان/٥٦.

[4] بر: أي غير آثم، ولا أتحلل: لا أستثني، وتحلة اليمين: إن شاء الله.

[5] الدريس: الثوب الخلق، والدرسان: الثياب الأخلاق، الواحد دريس.

[6] الوسن: النوم : والسنة اختلاط النوم بالعين

[7] الأسود: الحية: الساري: الذي يأتي ليلاً في أي وقت كان. الثائر: الطالب بثأر وهو هنا غير طالب. المثمل: المجمع

يخشى ذلك وهو يؤمن أن الرزق بيد الله، يرزق من يشاء ويمنع الرزق ممن يشاء ، وهو يعلن عـــن ذلك بقوله: [1]

قد يعوز الحازم المحمـــود نيته	بعد الثراء ويُثْرى العاجز الحَمِقُ
فلا تخافي علينا الفقر وانتظري	فضل الذي يالغنى من عنده نثق
إن يَفْنَ مـــا عندنا فالله يرزقنا	ومـــن سوانا ولسنا نحن نرتزق

وأصبح كعب محباً للنبي معجباً بشخصيته نادماً على معارضته له، والتحضيض عليه، فهو لا يفتأ يذكره ،ويرى فيه البدر المبدد للظلمة [2] :

تحمله الناقة الأدماء معتجراً	بالبرد كالبدر جلى ليلة الظلم
وفي عَطَافَيْه مع أثناء ريطته	ما يعلم الله من دين ومن كرم

وشعر كعب قوي التماسك، جزل اللفظ سامي المعنى حافظ فيه على الأسلوب الجاهلي، فقـــد كانت مدحته اللامية للنبي على منوال قصائد أهل البادية، ولولا أبيات قليلة ذكر فيها النبي لصح أن نقول بأنه إنما أراد قائداً أو سيداً من قومه، لا نبياً كريما أتى بدين جديد.وعندما انتهى فيها إلى مديح المهاجرين وصفهم بالشجاعة والحماسة، فشتان أسلوب بردته هذه والعواطف والعبـــارات الدينية التي تنبعث من بردة البوصيري. وقد فعل مثل ذلك في مدحته للأنصار، فلم يجعل فيها بيتـــا يخرج عن منهج المديح البدوى، ويشير إلى مفاهيم الإسلام السمحة.

على أن قدرته على التفنن في المعاني، قد أتاحت له أن يستفيد من الإسلام، فاستطاع أن يصبغ شعره الإسلامي ببعض معانيه، وأن يضمنه بعض المفاهيم التي وعاها في ظل الدين الجديد.

العباس بن مرداس السلمي:

كان العباس فارساً شاعراً شديد العارضة والبيان، وكان سيداً في قومه بـــني ســـليم معروفـــاً بالشجاعة والإقدام، فكان يدعى فارس العُبَيْد.[3]روي أن عبد الملك بن مروان قال يوماً: وقد ذُكِرَ الشعراء في الشجاعة - أشجع الناس في الشعر العباس بن مرداس حيث يقول:[4]

أقاتل في الكتيبة لا أبالي	أحتفي كان فيها أو سواها

---

[1] الديوان/٢٢٨

[2] معجم الشعراء/٣٤٣، العمدة/٢/١٣٦

[3] بالتصغير، وهو فرسه -الاعلام/٤/٣٩

[4] الاستيعاب/٢/٨١٨، حسن الصحابة/ ١/١٠٨

والعباس بدوي قح لم يسكن مكة ولا المدينة، ولكنه كان واسع الأفق نيراً، فقد حرم الخمر على نفسه في الجاهلية وذمها.[1] وكان على علاقة طيبة بيهود المدينة، يزورهم ويترل عليهم فيكرمونـــه. ولما شب الصراع بينهم وبين المسلمين وتم إجلاؤهم عن المدينة – وخاصة بني النـــضير - شـــارك العباس في الصراع، ووقف إلى جانب اليهود يمدحهم ويبكي عزهم الداثر، وحين عـــيره **خوات بن جبير الأنصاري** بذلك قال: ((**كانوا قوما أنزل عليهم فيكرمونني، ومثلي يشكر ما صنع إليه من جميل**))[2].

وبدأت صلة العباس بالإسلام قبل الفتح بقليل، إذ رأى انتصارات الإسلام الساحقة وظهـــور الرسول على المشركين، فبادر إلى الإسلام فأسلم، وكان من المؤلفة قلوبهم[3]. وقصة إسلامه طريفة رغم ما فيها من افتعال، وتلك سمة يتسم بها إسلام الشعراء والزعماء واصحاب النفوذ من العرب، فما من شاعر أو زعيم أقبل على رسول الله مسلماً إلا ونجد له قصة. روى صاحب الأغاني[4] أنـــه كان لمرداس السلمي - والدعباس - صنم أسمه ((ضماد)). فلما حضره الموت أوصى ابنه العبـــاس بعبادة الصنم والقيام عليه، فجعله في بيت،وجعل يأتيه كل يوم وليلة مرة، فلما ظهر أمر رسول الله سمع صوتاً في جوف الليل فوثب إلى ضماد، فإذا الصوت في جوفه يقول: [5]

قل للقبائل مـــن سليم كلها	هلك الأنيس وعاش أهل المسجد
إن الذي ورث النبوة والهدى	بعد ابن مريم مـــن قريش مهتد
أودى الضماد وكان يُعْبَدُ مرة	قبل الكتاب إلى النبي محمـــد

فلما سمع ذلك حرق ضماداً ثم خرج حتى انتهى إلى أبله - وهو يريد النبي - فبات بهـــا، فلمـــا أصبح دعا براعيه فأوصاه بإبله وقال له:

من سألك عني فحدثه أني لحقت بيثرب، ولا أحسبني إن شاء الله تعالى إلا آتياً محمداً – وكائناً معه، ثم سار نحو النبي وانتهى الراعي نحو إبله، فأتى امرأة العباس فأخبرها بالذي كان مـــن أمـــره ومسيره إلى النبي، فقامت فَقَوَّضَتْ بيتها ولحقت بأهلها، وقالت تعلن استنكارها فعل زوجها: [6]

---

[1] نفسه/٨١٩

[2] الأغاني/١٣/٧١

[3] خزانة الأدب/١/٧٣

[4] الأغاني/١٣/٦٥ -٦٦

[5] الأغاني/١٣/٦٥

[6] نفسه/١٣/٦٦

لعمري لئن تابعت دين محمـــد وفارقت إخوان الصفا والصنائع

لبدلت تلك النفس ذلاً بعـــزة غداة أختلاف المرهفات القواطع

وقوم هم الرأس المقدم في الوغى وأصل الحجا فينا، وأهل الدسائع

ألم يَنْهَ عباس بـــن مرداس أنني رأيت الورى مخصوصة بالفجائـــع

أتاهم من الأنصار كـــل سَمِيدَعٍ من القوم يحمي قومه في الوقائع [1]

بكل شديد الوقع عَضْب يقوده إلى الموت هـــام المقربات البرائع

وقصة إسلام العباس شبيهة بقصة إسلام بجير بن زهير، والبيت الأول في شعر زوج العباس يذكرنا بقول كعب بن زهير في لوم أخيه على إسلامه[2]: ، مما يوحي بأن واضع القصتين واحد.

وأسلم عباس، فقال يصف إسلامه ويعلن ندمه على ما فاته من أيام الشرك:[3]

لعمري أني يـــوم أجعـــل جاهـــداً ضماداً لرب العالمين مشاركـــا

وتركي رسول الله والأوس حوله أولئك أنصار لـــه مـــا أولئكا

كتارك سهل الأرض والحزن يبتغي ليسلك في غيب الأمور المسالكا

فآمنت بالله الذي أنـــا عبده وخالفت من أمسى يريد الممالكا

ووجهت وجهي نحو يثرب قاصداً وتابعت بين الأحشبين المباركـــا

نبي أتـــانـــا بعد عيسى بناطـــقٍ من الحق فيه الفصل منه كذلكا

ومضى عباس يجاهد في سبيل الله منذ اسلم، حيث جند نفسه لخدمة الدين الجديد، وأخذ يُعِـــدُّ قومه لمناصرة الرسول الكريم، فعندما هَمَّ الرسول بفتح مكة قال لعباس: " الْقَنِي أنـــت وقومـــك بقديد" فلقيه في ألف من بني سليمٍ ليشاركوا في فتح مكة. وكانت مشاركة سليم [4] في القتال مجالاً رحباً لشاعرية عباس، فانطلق على عادة الشعراء الفرسان يسجل بَرَّهُ بوعده وبيفخـــر بـــشجاعته وشجاعة قومه ويذكر طاعتهم للرسول حيث يقول[5]:

---

[1] سميدع: شجاع

[2] ديوان كعب بن زهير/٤

[3] الأغاني/١٣/٦٥ -٦٦

[4] نفسه/٦٦

[5] السيرة/ق٢/٤٦٩ -٤٧٠

مـــن مبلـــغ الأقوام أن محمداً　　رسول الإله راشد حيث يممـــا

سرينا وواعدنا قديداً محمــــداً　　يؤم بنا أمراً مـــن الله محكمـــا

حلفت يمينـــاً بـــرة لمحمـــد　　فأكملتها ألفـــاً من الخيل ملجما

وقـــال نبي المؤمنين تقدمـــوا　　وحب إلينا أن نكـــون المقدما

أطعناك حتى أسلم الناس كلهم　　وحتى صبحنا الجمع أهل يلملما[1]

وسيطر الفكر الإسلامي على مشاعره، فاتخذ من شعره أداة لإعلان انتصاره، وبـــث أفكـــاره والدعوة له، ولكنها دعوة على أسلوب الفرسان، تتسم بالعنف والتهديد، ومثال ذلك قوله يدعو بني معاوية بن بكر: [2]

كأن بني معاوية بن بكر　　إلـــى الإسلام ضائنة تخـــور [3]

فقلنا أسلموا أنا أخوكم　　وقد برأت من الاحن الصدور [4]

ولكنه مع ذلك كان رقيق الإسلام، وبدا ذلك واضحاً عندما جاء وفد هـــوازن إلى الرســـول يسألونه أن يرد عليهم نساءهم وأبناءهم حيث قال الرسول:" وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم" وقال المهاجرونه: وما كان لنا فو لرسول الله، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله، . أمـــا عباس بن مرداس فقال: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله فقال لهم عباس: وهنتموني. [5]

وكان الرسول قد قسم غنائم هوازن بين المسلمين، وأعطى المؤلفة قلوبهم وكانوا أشرافا مـــن أشـــراف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم – فأعطى كل واحد منهم مائة بعثير، وأعطى عباس بن مـــرداس أبـــاعر فسخطها ورأى أنها لا توازي بلاءه في جهاد، فكان الشعر وسيلته لإبلاغ تظلمه إلى الرســـول حيـــث قال: [6].

[1] يلملم أو الملم: ميقات الحاج القادم من جهة اليمن وهو جبل على مرحلتين من مكة

[2] السيرة/ق٢/٤٥٢، الديوان/٥٢

[3] تخور: تصيح الحن: جمع احنة، وهي العداوة

[4] السيرة /ق٢/٤٨٩

[5] السيرة/ق٢/٤٩٣، الأحكام السلطانية/ ١٢٣، اشلعر والـــشعراء/١/٣٠٠، الـــديوان/٨٤، طبقـــات ابـــن سعد/٤/٤٧٢

[6] نهابا: جمع نهب، وهو ما ينهب ويغنم: يريد الماشية والإبل. الأجرع: المكان السهل

كـــانت نهابـــاً تلافيتهـــا	بكري على المهر في الأجرع[1]
وايقاظي القـــوم أن يرقدوا	إذا هجع الناس لـــم أهجع
فأصبـــح نهبي، ونهب العبيد	بيـــن عيينـــة والأقـــرع[2]
وقد كنت في الحرب ذا تدرأ	فلـــم أعط شيئاً ولم أمنع[3]
إلا أفائـــــل أعطيتهـــــا	عديد قوائمهـــا الأربـــع[4]
وما كـــان حصن ولا حابس	يفوقان مرداس فـــي المجمع
وما كنت دون أمريء منهما	ومـــن تضع اليوم لا يرفع

وللعباس شعر كثير يوم حنين ولكنه متشابه، فهو شعر حرب فيه فخر وبطولة واعتزاز بقومـــه الألف الذين نصروا النبي وشاركوا في فتح مكة وغزوة حنين، فهم فرسان أشداء يمتازون بالقيـــادة الحكيمة والشجاعة النادرة. ولم يخرج شعره إلى ذكر قوم غير قومه إلا ما جاء عرضاً كقوله: [5]

وجند من الأنصار لا يخذلونه أطاعوا فما يعصونه ما تكلما

فالروح القبلية والاعتزاز بالقوم والفخر بهم وبشجاعتهم أهم ما يميز شعر عباس في الإســـلام، فكـــأن حداثة عهده بالدين الجديد لم تنزع من نفسه الولاء للقبيلة والشعور بالعصبية، وقد شاع ذلـــك في كـــل شعره تقريباً، حتى وهو يمدح الرسول ومن ذلك قوله: [6]

يا خير من ركب المطي ومن مشى	فـــوق التراب إذا تعد الأنفس
إنـــــا وفينا بالذي عاهدتنـــا	والخيـــل تقدع بالكماة وتضرس[1]
حتى صبحنا أهـــل مكـــة فيلقـــاً	شهباء يقدمها الهمـــام الأشوس [2]
من كـــل أغلب من سليم فوقه	بيضاء محكمة الدخـــال وقونس[3]
وغداة أوطـــاس شددنا شدة	كفت العدو وقيل منها: يا احبسوا

---

[1] العبيد: اسم فرس عباس بن مرداس.

[2]

[3] ذا تدرأك ذا دفع عن قومي

[4] الأفائل: الصغار من الأبل، الواحد: أفيل

[5] السيرة/ق٢/٤٦٩/، الديوان /١٠٢

[6] السيرة/ق٢/٤٦٨

ويبين دور قومه في الجهاد فيمضي إلى الفخر بالألف منهم الذين أجابوا الرسول، وشاركوا في الفتح ويعتز بشباهم لهوازن في يوم حنين فيقول: [٤]

فجئنا بألف من سليم عليهم	لبوس لهم من نسج دود رائع [٥]
فجسنا مع المهدي مكة عنوة	بأسيافنا والنقع كاب وساطع [٦]
ويوم حنين حين سارت هوازن	إلينا وضاقت بالنفوس الأضالع
صبرنا مع الضحاك لا يستفزنا	قراع الأعادي منهم والوقائع [٧]

وهكذا شارك عباس بن مرداس في الصراع منذ بدايته ، فبكى عِزّ اليهود الدائر عندما كان على دين الشرك وسجل دوره ودور قومه في الصراع عندما أسلم. ومن هنا، كان شعره يمثل اتجاهين متناقضين فرضتهما طبيعة الصراع **أولهما**: ضد الإسلام وبدا في وقوفه إلى جانب اليهود، ومناقضته لخوات بن جبير الأنصاري، وسوف نعرض شواهد من هذا الشعر عند حديثا عن شعر المعارضة بعد قليل.

وثانيهما: ضد الشرك وظهر في مشاركته في الصراع بسيفه ولسانه، وتسجيل دور قومه بني سليم فيه والأعتزاز بهذا الدور. وشعر عباس وإن كان ضيق المعاني، ومتجهاً في أكثره إلى الفخر بقومه الألف، والإشادة بقيادة الضحاك، إلا أنه يكشف لنا عن جانب من جوانب الصراع، فهو يصور لنا دور قبيلته في فتح مكة وفي يوم حنين والطائف.

مالك بن عوف النصري:

هو رئيس هوازن وقائدهم لحرب النبي في يوم حنين. وأخبار مالك تدل على أنه كان فارساً شاعراً صلباً قوي الشكيمة رفيع القدر مطاعاً في قومه، وأنه كان من الجرارين، قال ابن حبيب: ولم يكن الرجل يسمى جراراً حتى يرأس ألفاً. [١]

---

[1] تقدع: تكف. وتضرس: تجرح.

[2] شهباء: لها بريق من كثرة السلاح. والهمام: السيد. والأشوس: الذي ينظر نظرالمتكبر

[3] الأغلب: الشديد الغليظ، ومحكمة الدخال: يريد قوة نسج الدرع. والقونس: أعلى بيضة الحديد

[4] السيرة/ق٢/٤٦٣، الديوان/٨١

[5] رائع: معجب

[6] . جسنا: وطئنا. والمهدي: النبي. وعنوة: قهرا. والنقع: الغبار. وكاب: مرتفع، وساطع: متفرق

[7] لا يستفزنا: لا يستخفنا.

برز اسم مالك في أحداث الصراع بعد غزوة الفتح، فقد أحس بخطورة الإسلام على قومه فبادر إلى إعداد العدة لمجابهته والوقوف في سبيل نشره، فاجتمعت له ثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال، وبعث عيوناً من رجاله ليأتوه بأخبار المسلمين.[٢]

ولما أجمع المسير إلى لقاء المسلمين حط مع الناس أموالهم ونساءهم، فقال له **دريد بن الصمة الجشمي** – وهو يومئذ شيخ كبير - يا مالك: "**إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا اليوم يوم كائن له ما بعده من الأيام**. مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ويعار الشاء وبكاء الصغير؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فزجره ثم قال: راعي ضأن والله: هل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحَتْ في أهلك ومالك، ثم قال له: إنك لم تَصْنَعْ بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى متمنع بلادهم، وعليا قومهم ثم الْقَ الصَّبَّاء –يعني المسلمين - على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك، فقال مالك: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر علمك، والله لَتُطِيُعنَّي يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. [٣]

وسار مالك بجيشه الجرار إلى وادي حنين، وكمن هو وقومه في شعابه وأحنائه ومضايقه ثم قال لقومه: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد[٤]. فلما برز المسلمون فاجأهم مالك بقوة عنيفة فانهزموا منشمرين عن الرسول. [٥]

وكانت هزيمة المسلمين في بداية المعركة مجالاً لفروسية مالك وشاعريته، فاندفع يقاتل المسلمين بعنف ويرتجز بفرسه مجاح قائلاً: [٦]

أقدم مجاح إنه يوم نكر	مثلي على مثلك يحمي وبكر [٧]
إذا أضيع الصف يوماً والدبر	ثم أحزألَّتْ زمر بعد زمر [١]

---

[1] الزركلي: الأسلام/٦/١٤١

[2] تاريخ الطبري/٣/٧٢

[3] تاريخ الطبري/٣/٧١

[4] نفسه/٧٢

[5] نفسه/٧٤

[6] السيرة/ق٢/٤٤٧

[7] مجاح: اسم فرس مالك بن عوف

كتائب يكـــل فيهـــن البصر قد أطعن الطعنة تقذي بالسبر [٢]

حين يذم المستكين المنجحـــر وأطعن النجـــلاء تعوي وتهر [٣]

أني فـــي أمثالهـــا غير غَمِرْ إذ تُخْرَج الحاصن من تحت الستر

ولكن ثبات الرسول في المعركة بعث الشجاعة في قلوب المسلمين، فندموا على فرارهم وعادوا إلى القتال بعزائم قوية، فهزمت هوازن. وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فلحق بالطائف، وغـــنم المسلمون نساء هوازن وأموالهم، فأحس مالك بجسامة المصيبة، وضخامة المسؤولية الـــتي أوكِلَـــتْ إليه،وأدرك صواب رأي دريد بن الصمة فمضى يتلمس لنفسه الأعذار، ويبحث لها عن تـــسويغ، فأرجع الهزيمة إلى خذلان قومه له وفرارهم من حوله. ثم تخفف من وطأة الهزيمة بأن فزع إلى ماضيه الغابر بقتاتُ على أفعاله في قومه، ويفخر بدوره في بناء مجدهم والدفاع عن أحسابهم فيقول: [٤]

كلفتموني ذنب آل محمـــد والله أعلم مـــن أعق وأظلم

وخذلتموني إذ أقاتل واحـــداً وخذلتمـــوني إذ تقاتل خثعم

وإذا بنيت المجد يهدم بعضكم لا يستوي بانٍ وآخـــر يهدم

وأقبّ مخماص الشتاء مسارعٍ في المجد ينهي للعلى متكرم[٥]

أكـــرهت فيـــه ألّـــةً يزنيّةً سمحاء يقدُمها سنانٌ سلجم[٦]

وتركـــت حنته تـــرد وليه وتقول ليس على فلانة مقدم[٧]

ونصبت نفسي للرماح مدجّجاً مثل الدريّة تستحـــل وتشرم[٨]

---

[1] أحزألت: ارتفعت،زمر: جماعات

[2] تقذي بالسبر: تقذف بها لكثرة ما يندفق منها من دم ونحوه. السبر: جمع سبار وخهو الفتيل يسبر به الجرح

[3] المستكين: الذليل الخاضع. المنجحر: المستر في جحره والمراد من أعتصم بمكان. النجلاء: الطعنة المتسعة. تعـــوي وتهر: أ] التي يسمع لخروج الدم منها صوت كالعواء والهرير الحاصن: العفيفة المتنعة

[4] السيرة/ق٢/٤٧٤/٤٧٥

[5] الأقب: الضامر الخصر. المخماص: الضامر البطن.

[6] الألّة: الحربة، اليزنية: المنسوبة إلى ذي يزن وهو ملك من ملوك حمير. سحماء: سوداء العصا، سنان ســـلجم: أي طويل.

[7] حنته: يعني زوجته، سميت بذلك لأنها تحنُّ إليه ويحنّ إليها.

[8] المدجج: الكامل السلاح. الدرية: الحلقة التي تنصب فيتعلم عليها الطعن، أصله دريئة. تشوم: تقطع.

ولما قدم وفد هوازن على النبي وهو بالجعرانة يسألونه أن يردّ عليهم أموالهم ونساءهم، سألهم عن مالك بن عوف، فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف. فقال: "**أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً ردَدْت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل**" فلما بلغه ذلك لحق بالنبي فأدركه بالجعرانة أو بمكة فأسلم.

فأعطاه مائة من الإبل، كما أعطى المؤلفة قلوبهم، وهو أحدهم ومعدود فيهم، وردّ إليه أهله وماله[1].

وحسن إسلام مالك وأعجب بشخص النبي، فلم يعد يرى في الناس أحسن منه في الوفاء والكرم، ولا يسمع بمثله في العلم بالمستقبل والشجاعة في القتال[2]:

مـــا إن رأيت ولا سمعت بمثله	في الناس كلهم بمثـــل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجْتُدِي	ومتى ينشأ يخبرك عما في غد
وإذا الكَتيبَةُ عردت أنيابهـــا	بالسمهري وضرب كل مهند[3]
فكأنـــه ليثٌ علـــى أشبالـــه	وسط الهباءة خادر في مرصد[4]

واستعمله النبي على من أسلم من قومه ومن قبائل قيس، وأمره بمعاودة ثقيف ففعل، وضيق عليهم فكان لا يخرج لهم سرجٌ إلا أغار عليه، فقال **أبو محجن بن حبيب الثقفي** في ذلك[5]:

هابت الأعداء جانبنا	ثم تغزونا بنـــو سلمة
وأتانـــا مالك بهـــم	ناقضاً للعهد والحرمة
وأتونـــا في منازلنا	ولقد كنا أولي نقمة

وشعر مالك –على قلته - يمثل اتجاهين مختلفين:

أولهما: جاهلي صور فيه عداءه للإسلام، وتمسكه بتقاليد القبيلة والمحافظة على كيانها ووحدتها.

وثـانيهما: إسلامي نهج فيه إلى مديح النبي والتمسك بمفاهيم الإسلام ومثله.

---

[1] السيرة/ق٢/٤٩١.

[2] نفسه/ ٤٩١، المرزباني/ معجم الشعراء/٢٦١.

[3] عردت أنيابها: قويت واشتدت، السمهري: الرمح.

[4] الهباءة: الغبار يثور عند اشتداد الحرب. الخادر: الأسد في عرينه، وهو حينئذ أشد ما يكون بأساً لخوفـــه علـــى أشباله. المرصد: المكان يرقب منه، يصفه باليقظة.

[5] السيرة/ق٢/٤٩١ -٤٩٢.

ونظن أن مالكاً قال شعراً كثيراً في الإسلام يمدح في بعضه النبي في حياته، ويرثيه بعد موته، ويذكر في بعضه الآخر بلاءه في محاربة ثقيف عندما جمدت على شركها حيناً من الدهر. ويبدو أن هذا الشعر قد سقط من أيدي الرواة وطمس، روى المرزباني في معجم الشعراء قال، قال دعبل[1]: "له –يعني مالكاً أشعار كثيرة جيادٌ مدح فيها النبي وغيره".

وإذا كان بعض شعره في الإسلام قد ضاع، فمن البديهي أن يضيع من شعره ما كان في معارضة الإسلام والوقوف في سبيله، لسببٍ بسيطٍ، وهو أن الرواة كانوا يتحرّجون من نقل الشعر الذي في تعريضٌ بالنبي وأهله ودينه، ويعرضون عن روايته.

لبيد بن ربيعة العامري:

هو أحد بني جعفر، وهم بطن من بني كلاب أحد أفخاذ بني عامر من هوازن قيس، كان فارساً شجاعاً وشاعراً عذب المنطق[2].

ولما استقام أمر النبي في المدينة أرسله بنو عامر بهدية إليه من أبي براء **عامر بن مالك** ليستشفيه - وكان أبو براء مريضاً - فأعجب بالإسلام وعلقت بنفسه أفكاره، فلما عاد إلى قومه جاءهم بذكر البعث والجنة والنار وغيرها من المفاهيم التي عرفها، غير أنهم سخروا بهذه المفاهيم، وأخذوا يعيرون لبيداً بها، فهذا **سراقة بن عوف بن الأحوص** يعيره بذلك فيقول[3]:

لعمر لبيد إنـــه لابن أمـــه — ولكن أبـــوه مسه قدم العهد

دفعناك في أرض الحجاز كأنما — دفعناك فحـــلاً فوقه قرع اللبد

فعالجت حمـــاه وداء ضلوعه — وترنيق عيشٍ مسه طرف الجهد

وجئت بدين الصابئين تشوبه — بألواح نجدٍ بعد عهدك من عهد

وإن لنا داراً زعمت ومرجعاً — وثم إياب القارظين وذي البرد

فكان عمر بن الخطاب يقول: "**وأيْمُ الله غياب القارظين وذي البرد**".

---

[1] المرزباني: معجم الشعراء/٢٦١.

[2] ابن سلام: طبقات الشعراء/ ٤٨.

[3] الأغاني/١٥/١٣٨.

ويبدو أن لبيداً قد أعجب بالإسلام وهم باعتناقه، ولكن عداء أخيه أربد وعامر بن الطفيل للنبي، ونفوذهما القوي في بني عامر قد حالا دون إسلامه، فلما ماتا قدم على النبي في وفد بني كلاب فأسلم وهاجر[1].

ونظن أن أمر إسلامه مرتبط بموت أخيه أربد وموت عامر بن الطفيل بدعوة النبي، كما هو مرتبط باشتداد الجدب على مضر بدعوة النبي أيضاً، فكأنّ لبيداً قد اسْتَشْعَرَ الخوف من الله، واتّعظَ بما أصاب قومه من غضب الله لمناوأتهم النبي، ووقوفهم في وجه دعوته. روى ابن هشام[2]: أن عامراً وأربد وفدا على النبي في وفد من بني عامر يريدون الغدر به، فلما منعه الله منهم، قال له عامر: "**أما والله لأَمْلأَنَّها عليك خيلاً ورجالاً**" **فلما ولى قال رسول الله: "اللهم أكفني عامر بن الطفيل**" وخرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر طاعوناً فقتله الله في بيت امرأة من سلول. ثم خرج أصحابه حين واروه حتى قدموا أرض بني عامر، فأتاهم قومه فقالوا: ما وراءك يا أربد؟ قال: **لا شيء والله، لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما**.

وروى صاحب الإصابة أن الجدب قد اشتدَّ على مضر بدعوة النبي، فوفد عليه وفد قيس وفيهم لبيد يسألونه أن يدعو لهم بالسقيا وبالعفو[3] فقال لبيد[4]:

أتيناك يـــا خير البرية كلها	لترحمنا ممـــا لقينا من الأزل[5]
أتينـــاك والعذراء يدمى لبانها	وقد ذهلت أم الصبي عن الطفل
وألقى تكنيه الشجاع استكانة	من الجوع صمتاً لا يُمِرُّ ولا يحلي
وليس لنا إلا إليك فرارنـــا	وأين يفـــر الناس إلا إلى الرسل

فإن تدع بالسقيا وبالعفو ترسل السماء لنا والأمر يبقى على الأصل وأصبح لبيد صادق الإسلام عميق الإيمان، ولكنه مع ذلك كان يقاسي من وطأة الحزن والأسى الذي لحقه بموت أخيه. وكان الشعر سبيله للتنفيس عن أساه فأكثر من بكائه وندبه، ونظن أن أول مراثيه الكثيرة لأخيه

---

[1] الأغاني/١٤/٩٣.

[2] السيرة/ق٢/٥٦٨ -٥٦٩.

[3] الإصابة/٦/٥.

[4] نفسه/ ٥، ديوان لبيد/ ٢٧٧.

[5] الأزل: ضيق العيش.

كانت في حادث الصاعقة، إذ نراه يستعظم الخبر، ويأسف للمصيبة التي ألّمت بقومه بني جعفر، لأنهم خسروا فتى كريماً متسامحاً شجاعاً، أو هو كما يصوره لبيد[1]:

لعمري لئن كان المخبر صادقاً لقد رزئت في حادث الدهر جعفر

أخاً لي أمـا كـل شيء سألته فيعطي، وأمـا كـل ذنب فيغفر

فإن يك نوء من سحاب أصابه فقد كـان يعلو في اللقاء ويظفر

وكان أربد عظيم الشأن في بني جعفر، ثم هو قبل ذلك كله أخو لبيد، وعلى هذا فليس غريباً أن يبكيه، وليس غريباً أيضاً أن يفزع إلى شاعريته فيستوحيها أشعاراً مشجية، وقوالب محزنة تكون سبيله في التنفيس عن مشاعره، ووسيلة للتعزية عن مصابه، فمن ذلك أنه يقول[2]:

ألا ذهب المحافظ والمحامي ومائع ضيمها يوم الخصام[3]

وأَيْقَنْتُ التفرق يوم قالوا تقسم مـال أربد بالسهام

فودع بالسلام أبا حريز وقل وداع أربد بالسلام

وكنت إمامنا ولنا نظاماً وكان الجزع يحفظ بالنظام[4]

ثم يبكيه مرة أخرى فيقول[5]:

لـن تفنيا خيرات أر بد فابكيـا حتى يعـودا

قولا هو البطل المحـا مي حين يكسون الحديدا[6]

ويصد عنا الظالمين إذا لقينـا القـوم صيدا[7]

فاعتناقـه رب البرية إذ رأى أن لا خلـودا[8]

فثوى ولم يوجـع ولم يوصب وكان هو الفقيدا[9]

---

[1] أبو تمام: ديوان الحماسة/١/٣١٢-٣١٣.

[2] السيرة/ق٢/٥٧١.

[3] الضيم: الذل.

[4] الجزع: الخرز اليماني.

[5] السيرة/ق٢/٥٧١.

[6] الحديد: يريد بها الدروع.

[7] الصيد: جمع أصيد، وهو المائل بعنقه كبراً.

[8] اعتاقه: منعه من بلوغ أمله.

[9] لم يوصب: لم يصبه وصبٌ وهو الألم.

وليس من المستغرب أن مراثيه في أربد خالية من روح التدين، لأن التلميح إلى النواحي الدينية قد كان يضعف طبيعة الرثاء لشخص يقوم مجده على المآثر الجاهلية. ولذلك تحدث لبيد عن شخص أربد، وعن تخرقه في الكرم والشجاعة وسائر صور الفتوة إلا في قصيدة واحدة[1] ففيها خلط الروح الدينية بصور الجاهلية، وما ذلك إلا لأنه قالها بعد أن كاد ينسى حزنه على أخيه، وكان قد أوغل في الحياة الإسلامية إلى حد كبير[2].

وهاجر لبيد إلى المدينة كما قلنا، وأقام بها حتى قبض الرسول الكريم ثم خرج إلى الكوفة واختارها دار إقامته، ثم أقبل على قراءة القرآن وحفظه. روى صاحب الأغاني قال[3]: كتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة —عامله على الكوفة - أن استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الإسلام، فأرسل إلى الأغلب العجلي، فقال له الأغلب:

أرجزاً تريد ام قصيداً　　　لقد طلبت هَيّناً موجوداً

ثم أرسل إلى لبيد فقال: أنشدني، فقال: إن شئت ما عُمِيَ عنه —يعني الجاهلية- فقال: لا، أنشدني ما قلت في الإسلام، فانطلق لبيد، فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها وقال: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر، فكتب بذلك المغيرة إلى عمر.

ونظن أن هذه الرواية هي التي جعلت القدماء والمحدثين من بعدهم يختلفون في شعر لبيد الإسلامي، فذهب جمهرهم إلى أنه قد أقلع عن قول الشعر وأنه لم يقل إلا بيتاً واحداً، غير أنهم عادوا فاخْتَلَفُوا في أمر هذا البيت أيضاً، فمنهم من قال هو[4]:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه　　　والمرء يصلحه الجليس الصالح

ومنهم من قال بل هو[5]:

الحمد لله أن لم يأتني أجلي　　　حتى لبست من الإسلام سربالا

والمرجح أن لبيداً قال شعراً كثيراً بعد إسلامه، ونظن أن هذا الشعر قد طمس أو أنه الْتَبَسَتْ نسبته على الرواة. قال أبو عمرو بن العلاء[1]: ما أحدٌ أحب إلي شعراً من لبيد بن ربيعة لذكره الله عز وجل

---

[1] ديوانه/ ١٧٤.

[2] إحسان عباس: مقدمة ديوان لبيد/ ٢٧.

[3] الأغاني/ ١٤/٩٧.

[4] الاستيعاب/٣/١٣٣٥، الإصابة/٦/٤، الأعلام/٦/١٠٤.

[5] الشعر والشعراء/١/٢٧٥، الأغاني/١٤/٩٧.

ولإسلامه ولذكره الدين والخير، ولكن شعره رحى بزر[1]. ويذهب بروكلمان إلى أن لبيداً قد أكثر من قول الشعر في الإسلام، فإن كثيراً من شعره –كما يقول- مطبوعٌ بطابع الوحي، ويستبعد أن تكون كل هذه الأبيات منحولة: وإن ظهر فيها شيء من التزيد عليه[2].

وإذا رجعنا إلى ديوان لبيد نجد فيه كثيراً من الشعر الذي تشيع فيه أفكار الإسلام مما يوحي بأنها قيلت في ظل النظام الجديد[3]. كما أن مراثيه لأخيه أربد قد قيلت في الإسلام وبسببه كما بينا، ولو أن لبيداً قالها في جاهليته، لكان فيها إشارات أو تلميحات ضد الإسلام كما رأينا في شعر **أبي خراش الهذليّ** الذي أوردنا أبياتاً منه في الفصل الثاني من هذا البيت. ومما يعزز هذا الزعم ما ذهب إليه الدكتور إحسان عباس من أن كل مجموعة الرثاء مما قاله لبيد وهو مسلم[4].

ولم تكن مراثيه في أخيه أربد كل ما قاله في الإسلام بل يضاف إليها قصيدتان أخريان[5]، حيث يذكر فيهما أبا براء عامر بن مالك ويرثيه، ويذكر فَقْدَ عامر بن الطفيل، وبهذا تنتفي الروايات التي تدعي أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً. على أن ما يهمنا من شعر لبيد، هو ما كان ذا صلة بالرسول وعصره، ومثل هذا الشعر قليل كما بيّنا وأجوده ما كان في رثاء أخيه أربد[6]. ونظن أن بعض شعره في هذه الفترة قد طمس، إذ نحن نستبعد أن يفد على الرسول – صلى الله عليه وسلم - في قومه ولا ينشد شعراً في مديحه. ونستبعد أيضاً أن يصمت عن رثاء النبي، فإذا كان قد بكى أخاه أربد فأكثر وأجاد، فحري به –وقد حسن إسلامه - أن يكثر من رثاء النبي أيضاً.

النابغة الجعدي:

اسمه عبد الله واسم أبيه قيس وكنيته أبو ليلى، وهو من جعدة بن كعب بن ربيعة[7]. كان شاعراً مُغْلِقاً طويل البقاء في الجاهلية والإسلام[8].

---

1 بروكلمان: تاريخ الأدب العربي/١/١٤٦.

2 نفسه/١٤٥.

3 انظر ديوانه/ ٣٤، ٣٨، ٤١، ٢١٣، ٢٥٤، ٢٧٧.

4 إحسان عباس/ مقدمة ديوان لبيد/٢٧.

5 ديوان لبيد/ ١، ٤٦.

6 الشعر والشعراء/١/٢٧٨.

7 نفسه/١/٢٨٩.

8 المرزباني/ معجم الشعراء/ ٣٢١.

وكان ممن فكر في الجاهلية فأنكر الخمر والسكر وهجر الأوثان واجْتَنبَ الأصنام[1]. وقيل إنه كان يذكر دين إبراهيم والحنيفية ويصوم ويستغفر ويتوقع أشياء لعواقبها[2]. ويبدو أنه همّ بالنصرانية ثم أمسك عنها، يدلّ على ذلك قوله[3]:

وما زلت أسعى بين باب ودارة ... بنجران حتى خفت أن أَتَنَصرا

وحين تم النصر للإسلام، وفد أبو ليلى في نفرٍ من قومه على النبي فأسلم، وأنشد النبي قوله[4]:

خليليّ عوجا ساعةً وتهجرا ... ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا

ولا تجزعا إن الحياة ذميمةٌ ... فخفّا لروعات الحوادث أوقرا

وإن جاء أمرٌ لا تطيقان دفعه ... فلا تجزعا مما قضى الله وأصبرا

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا

وجاهدت حتى ما أحس ومن معي ... سهيلا إذا ما لاح ثُمَّتَ غوّرا

أقيم على التقوى وأرضى بفعله ... وكنت من النار المخوفة أوجرا

فلما نزع إلى الفخر بقومه، قائلاً[5]:

إنا لقومٌ ما نُعَودُ خيلنا ... إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا

وننكر يوم الروع ألوان خيلنا ... من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا

وليس بِمَعْروفٍ لنا أن نردّها ... صحاحاً ولا مستنكراً أن تعقّرا

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

قال له النبي: "**إلى أين يا أبا ليلى؟**" فقال: إلى الجنة فقال له النبي "نعم إن شاء الله تعالى"، وعندما سمعه النبي يقول[6]:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدّرا

---

[1] الإصابة/٦/٢١٩.

[2] الأغاني/٤/١٣١.

[3] ابو زيد القرشي/ جمهرة أشعار العرب/٧٥.

[4] جمهرة أشعار العرب/٢٧٥، والاستيعاب/٤/١٥٢٠.

[5] رسائل الجاحظ/١/٣٦٣، والشعر والشعراء/١/٢٨٩، والاستيعاب/٤/١٥٢٠.

[6] الأغاني/٤/١٣١، معجم الشعراء/٣٢١، الشعر والشعراء/١/٢٨٩.

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال له: "**لا يفضض الله فاك**"، قال ابن قتيبة[1]: فبقي عمره لم تنفضّ له سِنّ.

والقصيدة طويلة، قال عنها صاحب الخزانة[2]: والقصيدة طويلةٌ في نحو مائتي بيت وهي أحسن ما قيل من الشعر في الفخر بالشجاعة سباطة ونقاوة وحلاوة.

وحسن إسلام النابغة، وأقبل على الإسلام بكل جوارحه حتى لبس منه ثوباً واسعاً أو كما قال[3]:

وعُمِرْتُ حتى جاء أحمد بالهدى وقوارع تتلى من الفرقان

ولبست ملإ سلام ثوباً واسعاً من سيب لا حرم ولا منان

ويبدو أنه وعى العقيدة الإسلامية، وفهم آيات القرآن الكريم فهماً عميقاً ثم مضى يصدر عنها في شعره، مثال ذلك قوله[4]:

الحمد لله لا شريك لــه مــن لم يقلها فنفسه ظلما

المولج الليــل في النهــار وفي الليل نهاراً يفرج الظلما

الخافض الرافع السماء على الأرض ولم يبن تحتها دِعَماً[5]

من نطفة قدهــا مقدرهــا يخلق منها الأبشار والنسما

وفي الأغاني أنه قال هذه الابيات في الجاهلية[6]، ولكنا نظن أنها إسلامية، ففيها ذكرٌ للبعث والحساب والجنة والنار، ومعانيها مقتبسة من بعض الآيات القرآنية.

الأعشى البكري:

اسمه ميمون بن قيس بن جندل، وكنيته أبو بصير، أما نسبه فينتهي إلى بكر بن وائل بن ربيعة. كان من الشعراء المرموقين وفحولهم، ويقال إنه كان نصرانياً[7].

---

1 الشعر والشعراء/١/٢٨٩.

2 البغدادي/١/٥١٤.

3 كتاب المعمرين (السجستاني)/٦٥.

4 الشعر والشعراء/١/٢٩٤.

5 دعما: جمع دعمة، وهي الخشب المنصوبة للتمريش.

6 الأغاني/٤/١٣١.

7 معجم الشعراء (المرزباني) ٤٠١.

وحين فشا الإسلام في جزيرة العرب، واستقام أمر النبي في المدينة، كان الأعشى في آخر عمره، فلما كان صلح الحديبية بين الرسول ومشركي مكة، خرج الأعشى إلى النبي ليسلم، فسأله أبو سفيان بن حرب عن وجهه الذي يريد؟ فقال: أريد محمداً، فقال أبو سفيان: إنه يحرّم عليك الخمر والزنا والقمار، فقال: أما الزنا فقد تركني ولم أتركه، وأما الخمر فقد قضيت منها وطراً، وأما القمار فلعلي أصيب منه خلفاً، قال فهل لك إلى خيرٍ؟ قال: وما هو؟ قال: بيننا وبينه هدنة فترجع عامك هذا وتأخذ مائة ناقة حمراء، فإن ظهر بعد ذلك أتيته وإن ظفرنا به كنت قد أصبت عوضاً من رحلتك، فقال: لا أبالي، فانطلق به أبو سفيان إلى منزله وجمع إليه أصحابه وقال: يا معشر قريش هذا أعشى قيس وقد علمتم شعره، ولئن وصل إلى محمد ليضربن عليكم العرب قاطبة بشعره، فجمعوا له مائة ناقة حمراء فانصرف، فلما صار بناحية اليمامة ألقاه بعيره فقتله[١].

وحين خرج الأعشى إلى المدينة يريد الإسلام، كان قد أعدّ قصيدة في مدح النبي –على عادته عندما يفد على الملوك والأمراء - مطلعها[٢]:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبتّ كما بات السليم مسهّدا

والأعشى شاعر سائل يتخذ من شعره مهنة للتكسب وجمع المال، ولا يترفع عن السؤال حتى ولو وفد على نبيّ مرسل كما يقول[٣]:

وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع وليداً وكهلاً حين شبت وأمردا[٤]

وأبتذل العيس المراقيل تغتلي مسافة مـــا بين النجير فصرخدا[٥]

ويشير إلى رحلته إلى المدينة فيصف ناقته وقوتها على السير، ويحثها على تحمل النصب والمشقة، ويمنيها بالراحة عند وصول المدينة، ويمني نفسه بعطاء النبي فيقول[٦]:

ألا أيهذا السائلي أيـــن يممت فإن لهـــا في أهـــل يثب موعـــدا[٧]

---

[1] الشعر والشعراء/١/٢٥٧.

[2] الديوان/١٧، الأغاني/٨/٨٥.

[3] السيرة/ق٢/٣٨٦، الديوان/١٧.

[4] اليافع: الذي قارب الاحتلام.

[5] العيس: الإبل البيض تخالطها حمرة. المراقيل من: الإرقال وهو السرعة في السير. تغتلي يزيد بعضها على بعـــض في الـــسيرز النجير: موضع في حضرموت من اليمن. صرخد: موضع بالجزيرة.

[6] الديوان/ ١٧، السيرة/ق١/٣٨٦، ابن كثير/٣/١٠٢.

[7] يممت: قصدت.

فإن تسألي عني فيا رب سائل حفيّ عن الأعشى به حيث أصعدا[1]
أجدّت برجليها النجاء وراجعت يداها خنافاً ليناً غير أحردا[2]
وفيها إذا ما هجرت عجرفية إذا خلت حرباء الظهيرة أصيدا[3]
وآليت لا آوي لها من كلالة ولا من حفيً حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشمٍ تراحي وتلقي من فواضله ندى[4]
نبياً يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا[5]
له صدقات ما تغب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا

ثم يذكر بعض أفكار الإسلام[6]:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله فترصد للأمر الذي كان أرصدا[7]
ولا تقربن حرة كان سرها عليك حراماً فَانْكحِنْ أو تأبدا[8]
ولا تسخرن من بائس ذي ضراوة ولا تحسبن المال للمرء مخلدا[9]

وقصة وفادة الأعشى هذه شبيهة بقصة إسلام كعب بن زهير، مما يوحي بأنها قد افْتُعِلَتْ لتكون مناسبة لقصيدته. على أن بروكلمان لم يقل بافْتِعَال القصة وإنما ذهب إلى أن القصيدة ذاتها منحولة[10]، واستدل على ذلك بأن الدكتور طه حسين قد ساق أدلة راجحة تثبت انتحالها عليه، وأن فؤاد أفرام البستاني قد أيده في ذلك.

---

1 أصعد: ذهب.

2 النجاء: السرعة. الخناف: أن تلوي يديها في السير من النشاط، الأحرد: الذي يعتقل في المشي.

3 هجرت: مشت في الهاجرة وهي القائلة والحرباء: دويبة أكبر من العظاءة يدور بوجهه مع الشمس حيث دارت. الأصيد: المائل العنق تكبراً أو من داء أصابه.

4 الندى: الجود. اليد: النعمة.

5 أغار: بلغ الغور وهو ما انخفض من الأرض، وأنجد عكسها.

6 السيرة/ق١/٣٨٧.

7 أرصد: أعد.

8 السر: النكاح. تأبد: تعزب وبعد عن النساء.

9 ذي ضراوة: مضطر.

10 تاريخ الأدب العربي/١/١٤٨.

ونحن لا نستبعد أن يكون قالها، ونظنّ أن نسبتها إليه صحيحة، ولا نعتمد في هذا على مثل ما اعتمد بوكلمان من آراء، وإنما نستدلّ على ذلك **أولاً**: بأن بعض المصادر القديمة كالسيرة[1] والأغاني[2] ومعجم الشعراء[3] وخزانة الأدب[4] وجمهرة ابن دريد[5] وكامل المبرد[6] وتفسير القرطبي[7] قد أوردتها أو أوردت أبياتاً منها –منسوبة إلى الأعشى. **وثانياً**: بما رواه ابن عبد ربه في العقد الفريد قال[8]: إن حماداً لم يستطع أن ينحل الأعشى غير بيت واحد. وثالثاً: بأن القصيدة تمثّل ذات الطابع الجاهلي المألوف الذي كان ينهجه الأعشى في المديح.

عمرو بن سالم الخزاعي:

هو أحد بني كعب وهم من بني مليح من خزاعة. وكانت قبيلته مسلمهم ومشركهم عيبة نصح للنبي لا يخفون عنه شيئاً[9].

بدأت صلة عمرو بأحداث الصراع بعد صلح الحديبية، أما قبل ذلك فلا نكاد نجد له مجالاً. فلما كان صلح الحديبية بين النبي وقريش، كان فيما شرطوا للنبي وشرط لهم، أنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم من قبائل العرب فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده كان له ذلك، فدخلت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد الرسول وعهده.

واستغلت بنو بكر حادث الصلح لإصابة دم لهم في خزاعة، فَبَيَّتُوا بعض رجال خزاعة بالوتير، فأصابوا منهم رجلاً، وتحاوزوا واقتتلوا. وقامت قريش بإمداد حلفائها من بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفياً بالليل حتى حاوزوا خزاعة إلى الحرم. فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله – صلى الله

---

[1] السيرة/ق١/٣٨٦ -٣٨٨.

[2] الأغاني/٨/٨٥.

[3] معجم الشعراء/٤٠١.

[4] البغدادي/١/٨٥ -٨٦.

[5] جمهرة ابن دريد/١/٢٤٣، ٢/٢٣٩، ٣/٤٧، ٢٥٠.

[6] المبرد/ الكامل/ ٢٦٠، ٤١١، ٥١١.

[7] تفسير القرطبي/٢/٤١٢، ٤/٢٣٩، ٥/٧٧، ٩/١٨٤.

[8] السيوطي/ المزهر/٢/٤٠٦.

[9] السيرة/ق٢/١٠٢.

عليه وسلم - من العهد بما استَحَلُّوا من خزاعة أحلاف الرسول، خرج عمرو ابن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله، فوقف عليه وهو جالسٌ في المسجد بين ظهراني الناس فقال[1]:

يا رب إنــي ناشد محمــداً	حلف أبيه وأبينا الأتلدا[2]
قد كنتم ولــداً وكنا والــدا	ثمت أسلمنا فلم نترع يدا[3]
فانصر هــداك الله نصراً أعتدا	وادْعُ عباد الله يأتوا مددا[4]
فيهم رسول الله قــد تجــردا	إن سيم حسفا وجهه تربدا[5]
في فيلق كالبحر يجــري مزبدا	إن قريشاً أخلفوك الموعدا[6]
ونقضــوا ميثاقك المؤكــدا	وجعلوا لي في كداء رصدا[7]
وزعموا أن لست أدعو أحدا	وهــم أذل وأقــل عددا
هــم بيتونا بالوتير هجــدا	وقتلونا ركعــاً وسجدا[8]

فقال له رسول الله : "**نصرت يا عمرو بن سالم**"

وشعر عمرو يصور لنا موقف قومه خزاعة كطرف من أطراف الصراع، ويكشف لنــا عــن سياسة الأحلاف التي دفعت إليها الظروف السياسية القائمة في الجزيرة آنذاك" ويشير كــذلك إلى دور الشعر كسلاح بتار في المعركة ،وأثره في إذكاء الحماس وشحذ العزائم. وصمت عمرو بعــد فتح مكة فلم نعد نسمع له صوتاً.

---

[1] السيرة/ق٢/٣٩٤، وتاريخ الطبري/٣/٤٥، حسن الصحابة/١/٣١٦.

[2] . الأتلد: القديم. ناشد: طالب وذكر.

[3] . أسلمنا: من السلم

[4] . أعتد: حاضر من الشيء العتيد وهو الحاضر. المدد: العون.

[5] . تجرد: شكَّر وتهيأ للحرب. سيم: طلب منه وكلف. الخسف: الذل. تربَّد: تغير إلى السواد.

[6] . الفيلق:العسكر الكثير.

[7] . رصد: جمع راصد، وهو الطالب للشيء الذي يرقبه.

[8] .الوتير: ماء لخزاعة بأسفل مكة. الهجد: النيام.

كعب بن الأشرف اليهودي:

هو أحد بني نبهان الطائيين، وأمه يهودية من بني النضير.[1] كان شاعراً فارساً قوي الشكيمة، وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج قبيل الإسلام[2] .

بدأ نشاطه في الصراع منذ قدوم النبي إلى المدينة، فقد ساعده وضع المدينة الجديد على المجاهرة بعدائه النبي – عليه السلام -، ذلك أنها كانت أخلاطاً، منهم المسلمون الذين تجمعهم الدعوة الإسلامية، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود –أهل الحلقة الحصون - وهم حلفاء الحيين:الأوس الخزرج. ولماكان كعب سيداً واسع النفوذ في بني النضير آستطاع أن يستغل وضع المدينة الجديد وأن يقود اليهودوالمشركين لإيذاء النبي وأصحابه. وقدحاول النبي أن يوادعهم كما حاول أن يستصلحهم، ولكن كعباً أبى أن يترع عن المناوأة والأذى[3].

ولم يقصر نشاطه العدائي في داخل المدينة فحسب، بل جهد في تأليب العرب جميعاً على المسلمين، وبخاصة بعد انتصارهم في يوم بدر، روى الطبري قال:[4] لما ظهر المسلمون يوم بدر،وقتل من قتل من المشركين بعث النبي زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة بشيرين إلى من بالمدينة من المسلمين. فلما علم كعب بذلك ورأى الأسرى مقرونين كُبِتْ ، ثم قال لقومه: ويلكم، أحق هذا؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذي يسمي الرجلان؟ وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس. **والله لئن كان محمد قد أصاب هؤلاء القوم ، لبطن الأرض خير لنا من ظهرها**.

وهيأ كعب قومه لعداء المسلمين ثم خرج حتى قدم مكة، فترل على المطلب ابن ابي وداعة السهمي وعنده عاتكة بنت أسيد ، فأنزلته وأكرمته. وفي مكة قام كعب بنشاطه العدائي فجعل يهجو النبي وأصحابه ويخذل منه العرب، ويحرض عليه كفار قريش. وأخذ ينشد الأشعار في رثاء أصحاب القليب الذين أصيبوا ببدر من قريش، فقال قصدة مطلعها[5]:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع

---

[1] . ابن سلام/ طبقات الشعراء/ ١١٠.

[2] . الأغاني/ ١٩/ ١٠٦.

[3] . الواقدي/ المغازي/ ١٨٥.

[4] . تاريخ الطبري/٢/٤٨٨.

[5] . المغازي/ ١٨٥، السيرة/ ق٢/ ٥٢.

وعندما رجع إلى المدينة تناول أعراض المسلمين بالأذى، فأخذ يشبب بنساء النبي وبنساء المسلمين حتى آذاهم ونال منهم . من ذلك أنه شبب بأم **الفضل بنت الحارث** زوج العباس بن عبد المطلب فتحدث عن جمالها وحسبها ونسبها، وزعم أنها تواصله أو كما قال[١]:

أراحـل أنت لـم تحلل بمنقبة	وتارك أنت أم الفضـل بالحرم[٢]
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت	من ذي القوارير والحناء والكتم[٣]
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها	إذا تأتت قياماً ثم لـم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا	والحبل منها متين غير مُنْجَذِمِ[٤]
إحدى بني عامر جن الفؤاد بها	ولو تشاء شفت كعباً من السقم
فرع النساء وفرع القوم والدها	أهـل التحلة والإيفـاء بالذمم[٥]
ولم أر شمساً بليل قبلها طلعت	حتى تجلت لنا في ليلة الظلـم

ويبدو أن كعباً كان ذا تأثير قوي على المسلمين، يدل على ذلك قول النبي[٦]: ((**اللهم اكفني ابن الأشرف بم شئت في إعلانه الشر وقوله الأشعار**)). وكان النبي – عليه السلام - يرصد تحركاته فعندما علم بقدومه وانتهى إليه ما قال من أشعار، قال للمسلمين:[٧] من لي بابن الأشـرف فقـد آذاني". فخرج إليه محمد بن مسلمة في نفر من الأوس فقتلوه.

وحين مشى إليه المسلمون ليقتلوه، مشوا معه، فكان أبو نائلة – سلكان بن سلامة بناشده الأشعار. فجعل كعب يفخر بأخواله بني النضير ويذكر ما يتمتعون به من صفات حميدة كالكرم والشجاعة والثبات والحلم، ثم أشار إلى ما أصابوا من عز وغنى،ووصف آبارهم ونخيلهم فقال:[٨]

رب خال لي لـو أبصرته	سبط المشية أبـاء أنف[٩]

---

1 . تاريخ الطبري/ ٢/ ٤٨٨.

2 . منقبة: فعل كريم.

3 . رادعة: مانعة.

4 . غير منجذم: غير منقطع.

5 . فرع النساء: أشرف النساء.

6 . المغازي/ ١٨٦.

7 . نفسه/ ١٨٦.

8 .الروض الآنف/ ٢/ ١٢٥.

9 السبط: الطويل.

وكــــرام لم يشنهم حسب	أهــــل عز وحفاظ وشرف
وليوث حين يشتد الوغى	غير أنكاس ولا ميل كشف
فهم أهــــل سماح وقرى	وحفاظ لم يعابــــوا بصلف[1]
سكنوا من يثرب كل ربى	وسهول حيث حلوا في أنف
وهـــم أهل مشاريب بها	وحصـــون ونخيل وغرف
كـــل حاجاتي قد قَضَيْتُها	غير حاجاتي في بطن الجرف

وهكذا كان ابن الأشرف يتمتع بنفوذ سياسي واسع في قومه ومن معهم من المشركين. وكان شعره سلاحاً حاداً ذا خطر على النبي – عليه السلام - وأصحابه. ويبدو أن معارضته الــسياسة والأدبية للنبي قد أفسحت له مكانة مرموقة في الصراع من ناحية، واكسبته تأييداً قوياً لدى اليهود والمشركين والمنافقين من ناحية أخرى، يدل على ذلك أن اليهود قد احتجوا على قتله، فجاءوا إلى النبي - عليه السلام - فقالوا: قد طرق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا قتل غيلة بدون جـــرم ولا حدث علمناه. فقال النبي - عليه السلام -: "**لو أنه قر كما قر غيره ممن هو على مثل رائه ما اغتيل ولكنه نال منا الأذى، وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف**"[2].

وحتى المسلمون أنفسهم كانوا يدركون خطورة مكانته لدى أعداء الإسلام، ذلك أن **محمد بن مسلمة الأنصاري** الذي أنيط به أمر قتله قد انقطع عن الطعام والشراب ثلاثة أيام، وعنـــدما ســـأله الرسول عن أمره قال: قلت قولاً لا أدري أني أقوم به أم لا؟ فقال له النبي: "إنما عليك الجهد"[3].

وما بين أيدينا من شعر كعب لا يزيد عن أربع قصائد ومقطوعات، وهو علـــى قلتـــه القليلـــة يكشف لنا عن جانب من جوانب الصراع، ويلقي ضوءاً –وإن كان خافتاً - على موقف اليهـــود من النبي ودعوته.

وأكبر الظن أن شعره قد ضاع - كما ضاع غيره من شعر اليهود والمشركين - إذ لم يصلنا منـــه شيء فيه هجاء للنبي والمسلمين، أو فيه تسجيل لدور قومه في الصراع، مع أن المصادر القديمـــة[4]

---

[1] الصلف: قلة الخير، والصلف أيضاً: التكبر وثقل الروح.

[2] الواقدي/ المغازي/١٩١.

[3] تاريخ الطبري/٢/٤٨٩.

[4] المغازي/١٨٤، السيرة/ق٢/٥٢، طبقات الشعراء/١١٠، تاريخ الطبري/٢/٤٨٨، الأغاني/١٩/١٠٦، معجـــم الشعراء/٣٤٤، الروض الأنف/٢/١٢٥.

التي عنيت بأخبار فترة الصراع وأشعارها قد أجمعت على أن ابن الأشرف كان يهجو النبي - عليه السلام - وأصحابه، ويحرض عليهم بشعره. وأنه كان يشبب بنساء النبي – عليه السلام - ونساء المسلمين.

أمابعد، فهذا عرض لبعض شعراء القبائل واليهود الذين شاركوا في الصراع، وكشف لمواقفهم من الإسلام –سواء كانوا معه أو عليه - كما صورها شعرهم، ومما يلاحظ أن هؤلاء الشعراء هم من أبناء القبائل القريبة من بيئة الصراع.

ونظن أن قربهم هذا، هو الذي دفعهم إلى المشاركة في الصراع راضين أو كارهين، وهو الذي هيأ لهم أن يكونوا أكثر شعراً من غيرهم من شعراء القبائل الذين كانوا بعيدين عن موطن الصراع.

وكان إلى جانب هؤلاء الشعراء شعراء كثيرون، ولكنهم كانوا مقلين، فلم يتوفر بين أيدينا لكل منهم سوى مقطوعة أو مقطوعتين، ولهذا أرجانا إبراز نشاطهم في الصراع حتى نتحدث عن مشاركة شعر القبائل في مجال الصراع وعن شعر الوفود بعد قليل.

على أن نشاط شعراء القبائل في الصراع كان ضئيلاً بصفة عامة، وخاصة في بداية الصراع بين مكة والمدينة، وقلة شعر القبائل قبل الفتح ظاهرة تلفت النظر، وقد دفعتنا هذه الظاهرة إلى تعقب هذا الشعر في المصادر التي نقلت لنا شعر الفترة للتحقق من كميته، فوجدنا أن شعراء القبائل واليهود قد شاركوا في الصراع بما يقرب من مائة وأربعين نصاً ما بين قصيدة ومقطوعة ورجز، ووجدنا أيضاً أن أكثر هذا الشعر قد قاله قائلوه بعد الفتح، أما قبل ذلك فلم يزد ما قالوه عن اثنين وثلاثين نصاً.

ونظن أن قلة شعر القبائل قبل الفتح يعود على عدم مشاركة أكثرها في الصراع، ونظن أنها انصرفت عن المشاركة فيه لسببين:

أولهما: أنها لم تدرك خطورة الإسلام عليها من ناحية، ولأنها ظنت أن قريشاً ستكفيها حرب محمد من ناحية أخرى.

وثانيهما: يعد بعضها عن موطن الصراع وانصراف بعضها الآخر إلى القتال فيما بينها، كذلك القتال الذي كان محتدماً بين بكر وتميم. قال أبو عبيدة[1]: لما ظهر الإسلام سارت بكر بن وائل إلى السواد وقالت: نغير على بني تميم بالشَّيِّطْينِ، فإن في دين ابن عبد المطلب أنه من قتل نفساً قتل بها، فنغير هذه الغارة ثم نسلم عليها".

---

[1] نهاية الأرب: ١٥/٣٩٣.

وتضاعف نشاط شعراء القبائل بعد الفتح، حيث بدأ الصدام المباشر بين الإسلام وبعض القبائل، ووجدت دواعي القول، فظهر شعراء لم يعرفوا بشعر قبل ذلك. وعلى هذا فقد كان شعراء القبائل من حيث قول الشعر فريقين: شعراء مشهورون، وشعراء مغمورون.

أما الفريق الأول فبعضهم صمت فلم نسمع له حسيساً في الصراع المحتدم، ومنهم الحطيئة والخنساء ودريد بن الصمة ومالك ومتمم ابنا نويرة وأبو محجن الثقفي وتميم بن أبيّ بن مقبل وحميد بن ثور الهلالي وغيرهم. وبعضهم خفت صوته فلم يمثل دوراً ذا خطر، كأمية ابن أبي الصلت ولبيد بن ربيعة أعشى بكر والنابغة الجعدي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي وغيرهم. ومرد هذا الصمت والخفوت فيما نظن أنهم لم يكترثوا بالصراع ولم يعيروه كبير اهتمام، أو أنهم شاركوا فيه وضاع شعرهم. أما بعضهم الآخر فشارك مشاركة فعلية كالعباس بن مرداس السلمي وكعب بن زهير وأخيه بجير.

وأما شعراء اليهود فلم يبرز منهم في الصراع سوى كعب بن الأشرف، أما غيره من شعرائهم مثل كنانة بن ابي الحقيق، وأوس بن دني القرظي وجب بن جوال الثعلبي وسماك اليهودي، فلم يمثلوا أدواراً ذات خطر على شدة عدائهم للإسلام، وأكبر الظن أن شعرهم قد طمس ولم يصل إلينا.

والفرق الثاني وهم الشعراء المغمورون، فهم شعراء أشهرهم الأحداث فأنطقتهم حدة الصراع، وأصبح شعرهم يتردد على كل لسان، وتتناقله كتب التاريخ والسير لا لقيمته الفنية، وإنما لأنه يصور حدثاً خطيراً من أحداث التاريخ. ومن هؤلاء: الطفيل بن عمرو الدوسي وكنانة بن عبد ياليل الثقفي وعطية بن عفيف النصري وزهير بن صرد الجشمي وعمرة بنت دريد بن الصمة وغيرهم.

على أن هنالك شعراء كثيرين غير هؤلاء وأولئك ظلوا بعيدين عن المشاركة في الصراع ولكنهم مع ذلك كانوا يرقبون الأحداث.فلما رجحت كفة المسلمين قدموا إلى المدينة مادحين طائعين. وكانت السمة السياسية تشيع من خلال ما قالوا، وهؤلاء هم جمهرة شعراء اليمن وعمان، ومنهم:

فروة بن مسيك المرادي وقردة بن نفاثة السلولي وقرة بن هبيرى القشيري ومازن بن الغضوية الطائي وشريح بن ضبيعة وغيرهم، وهؤلاء جميعاً كانوا من شعراء الوفود الذين قدموا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم - مسلمين، وسوف نعرض لبعض شعرهم في موضعه من هذا الفصل.

أما الآن فسوف نقف قليلاً عند اليهود لنتعرف على دورهم في الصراع ونبين إلى أي مدى ساهم شعراؤهم في مجالاته.

دور اليهود في الصراع:

كان اليهود في المدينة قوة ذات خطر، فقد كانوا يسيطرون على أحوالها الاقتصادية، لأنهم يملكون الحصون والآطام ويحتكرون الأسواق ويمتهنون أكثر المهن، كما كانوا يؤثرون في أحداثها السياسية أيضاً، فهم قد ساهموا في إذكاء نار الخصومة بين الحيين –الأوس والخزرج- وشاركوا في الأيام التي وقعت بينهم.

ولما أقام الرسول – صلى الله عليه وسلم - صرح دولته، وقام بتنظيم شؤونها كتب بينه وبين اليهود أماناً، وشرط عليهم ألا يظاهروا عليه عدواً[1]، ولكنهم رأوا في وجوده خطراً على كيانهم، وتهديداً لوجودهم وقضاء على نفوذهم، فكان طبيعياً أن يناوئوه ويحاولوا النيل من نفوذه. وقد سفروا في عدائهم له عندما علموا بإسلام أفراد منهم، فخافوا أن يفشو الإسلام في جماهيرهم. وعلى هذا فقد قاموا يحاربون دينه، وسلكوا في عدائهم له طريقين:

أولهما: مهاجمة الإسلام في عقائده وأحكامه، فدسوا من أحبارهم من يظهر الإسلام، ليلقي على النبي – عليه السلام - من الأسئلة ويثير من القضايا ما يكفل بزعزعة العقيدة بالإسلام وزرع الشك في قلوب المسلمين واتخذوا من الدسائس والنفاق والعلم بأخبار الأنبياء وسائل لذلك، واستطاعوا أن يضموا إليهم منافقي الأوس والخزرج وأن يستغلوهم في التشكيك والجدل والكيد والتآمر.

وثانيهما: استعمال القوة والعنف، بدأ هذا الموقف في وقت مبكر من الصراع، وبالتحديد بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر، فقد قطعوا ما بينهم وبين النبي – عليه السلام - من العهد، فأرسل إليهم من جمعهم إليه في سوق بني قينقاع، فدعاهم إلى الإسلام. فقالوا: يا محمد، إنك ترى أنا كقومك! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس[2].

---

[1] أبو عبيد/ الأموال/١/٢٩٤.

[2] تاريخ الطبري/٢/٤٧٩.

وكان بنو قينقاع أول من نقض العهد من قبائل يهود، إذ اعتدوا على امرأة مسلمة، وقتلوا رجلاً من المسلمين ثم اجتمعوا على حرب الرسول[1] - صلى الله عليه وسلم -.

واشتدَّ أذى اليهود للنبي – عليه السلام - بعد غزوة بدر، ورأوا في انتصاره بداية التخلص منهم، فقام كعب بن الأشرف بالاتصالات السياسية بمكة وبغيرها، ونشط في التأليب على الرسول وتخذيل العرب عنه. وكان **أبو رافع سلام بن أبي الحقيق** يظاهر كعباً في بغيه وأذاه، وكان الرجلان ذوي نفوذ واسع بين اليهود، فكعب سيد من سادة بني النضير، وأبو رافع تاجر الحجاز، فبعث الرسول إليهما من قتلهما، فتخلص بذلك من سيدين عنيفين.

وظن اليهود أن القضاء على المسلمين بعد هزيمتهم في غزوة أحد سهل ميسور، فأخذوا يفتعلون الأسباب للتخلص منهم، فلما سار الرسول في نفر من أصحابه إلى بني النضير يستعينهم في دية رجلين من بني عامر قتلهما رجل من المسلمين، حرضهم **حيي بن أخطب** على قتله ومن معه، وندبوا **عمرو بن جحاش اليهودي** ليطرح عليه صخرة كبيرة. وعندما أجلوا عن المدينة، خرجوا إلى خيبر والشام ومعهم الدفوف والقيان والمزامير يعزفن خلفهم[2]، كأنهم بذلك يرفضون الهزيمة ويستهينون بالمصاب.

ولكن إجلاء بني النضير لم يضع حداً لعنف اليهود وحقدهم، فإن **حيي بن أخطب** قد سار إلى خيبر حيث ترك ماله وأهله، ثم خرج في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل فحزّبوا قريشاً وغطفان على حرب الرسول، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، ثم انطلق حُيَي إلى **كعب بن أسد القرظي** صاحب عقد بني قريظة وعهدهم فزين له سهولة القضاء على المسلمين وطلب منه نقض عهده مع محمد، فتردد كعب في أول الأمر، فلم يزل به حتى قبل[3].

وهكذا شارك بنو قريظة في غزوة الخندق، وأخذوا يعيرون المسلمين بالكذب والسحر ويهجون النبي وأزواجه[4].

وكانت خيبر أكبر القوى اليهودية ومركز التآمر، وبؤرة الحقد على الإسلام،ففيها يعقدون الاجتماعات ضد الرسول، ومنها ينطلقون إلى القبائل للتأليب عليه. خرج منها كعب بن الأشرف

---

[1] المغازي/١٧٨.

[2] تاريخ الطبري/٢/٥٥٣-٥٥٤.

[3] الواقدي: المغازي/٣٦٤.

[4] نفسه/٣٧١.

إلى مكة، وخرج منها حيي بن الأخطب في نفر من اليهود على قريش وغطفان للتحريض على الرسول – صلى الله عليه وسلم -. فلما رأت خيبر ما حل ببني قريظة من القتل والسبي أدركوا أنهم مأخوذون لا محالة، وخاصة بعد أن عقد صلح الحديبية وأصبح الرسول ذا مركز سياسي قوي، فازدادوا تصميماً على محاربته وقر قرارهم على مفاجأته في المدينة قبل أن يتمكن منهم، فسعوا بذلك إلى بني عمهم في تيماء وفدك ووادي القرى. وعلم الرسول الكريم باستعدادهم، وتناهت إليه أخبارهم، فسار إلى خيبر معقد هذا الحلف، والرأس المهيمنة عليه، فقاتلهم حتى تمكن منهم، ودانوا لحكم محمد كما دان غيرهم من يهود القرى المجاورة[1].

هكذا وقف اليهود في وجه الدعوة الإسلامية، وجهدوا ما وسعهم الجهد في القضاء عليها، وسخروا جميع طاقاتهم لاستئصالها.

وكان طبيعياً أن يشارك الشعر في الصراع، وأن يدخل الشعراء معترك الحرب فيسخّروا شعرهم للنيل من رسول الله والتحضيض عليه. فهذا **كعب بن الأشرف النضري** يخرج إلى مكة بعد غزوة بدر يحرض قريشاً على محمد، ويشجعهم على حربه، ويتباكى على قتلاهم من أصحاب القليب فيقول[2]:

قتلت سراة القوم حول حياضهم	لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد	ذي بهجة يأوي إليه الضيع[3]
ويقول أقوام أسر بسخطهم	إن ابن الأشرف ظل كعباً يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا	ظلت تسوخ بأهلها وتصدع

ويمضي كعب فَيُشْعِلُ جذوة الحقد، ويؤجج نار الضغن ويستثير العزائم. يقول بأنه نُبِيء أن بني المغيرة قد خشعوا وذهب عزهم بعد مقتل أبي جهل وغيره، ونُبِيء أيضاً أن الحارث بن هشام يُعِدُّ جموع قريش للإغارة على يثرب. والخروج إلى يثرب لا يزيد على كونه زيارة، فمحمد وأصحابه ليسوا من القوة بحيث يستطيعون الثبات[4]:

1 حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي/١/١٣٣.

2 المغازي/١٨٦، أنساب الأشراف/١/٢٨٤.

3 الضيع: جمع ضائع، وهو الفقير.

4 السيرة/ق٢/٥٢، أنساب الأشراف/١/٢٨٤.

نبئت أن بنـــي المغيرة كلهـــم خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا[1]

وابنـــا ربيعة عنده ومنبـــه مـــا نـــال مثل المهلكين وتبع[2]

نبئت أن الحارث بن هشامهم فـــي الناس يبني الصالحات ويجمع

ليزور يثرب بالجمـــوع وإنما يحمي على الحسب الكريم الأروع[3]

وقام شعراء المسلمين يردون على كعب ويستخفون بأمره ويعيرونه بالبكاء على الكفار، غير أنه ثبت على عدائه، بل وتجاوز البكاء على قتلى قريش إلى هجاء المسلمين.

ومات كعب وماتت معه زعامته، ومات معه لسانه أيضاً، ذلك اللسان الطويل الذي طالما نـــال من أعراض المسلمين، وطالما سال منه الشعر الذي يثير الحمية ويبعث الأحقاد. وكان لا بد من أن يثير مقتله مشاعر قومه، وأن يحرك عواطف شعرائهم. فهذا سماك اليهودي قد طال ليلهُ وضافه هم كبير، لأن مقتل سيد الأحبار إنما هو قتل لبني النضير جميعاً أو كما يقول[4]:

أرقت وضافني هم كبير بليـــل غيـــره ليل قصير[5]

أرى الأحبار تنكره جميعاً وكلهم لـــه علـــم خبير

قتلتم سيد الأحبار كعباً وقِدْماً كـــان يأمن من يجير

تدلى نحـــو محمود أخيه ومحمود سريرته الفجـــور

فغادره كـــأن دماً نجيعاً يسيل على مدارعـــه عبير[6]

فقد وأبيكم وأبي جميعاً أصيبت إذ أصيب به النضير

ويتهدد المسلمين بالثأر لدم كعب، ويتوعدهم بيوم كيوم أحد، ولكن تهديده تهديد رجل مصاب قد فقد كل عوامل المبادرة والقدرة، فهو ينشد السلامة أولاً[7]:

فإن نسلم لكم نترك رجالاً بكعب حولهـــم طير تدور

كما لاقيتم من بأس صخر بأحد حيث ليس لكم نصير[1]

---

[1] التجديع: قطع الأنوف ويريد –هنا -: ذهاب عزهم.

[2] تبع: ملك من ملوك اليمن.

[3] الأروع: من يروعك بحسنه وجماله.

[4] السيرة/ق٢/٢٠٠.

[5] أرقت: امتنع النوم عني.

[6] المدارع: جمع مدرعة، وهي ثوب يلبس. والعبير: الزعفران.

[7] السيرة/ق٢/٢٠٠.

وحوصر بنو النضير وقطعت نخيلهم وحرقت، ثم أجلوا عن المدينة بعد ذلك، فـأحس اليهـود بالفاجعة، وفاض شعرهم بالحقد على المسلمين، والأسى على مصابهم. فسماك الذي أَلَمِ لمقتل ابـن الأشرف يألم مرة أخرى لمصير بني النضير ويستعظم الأمر ويستغرب المحنة. هو لا يكاد يصدق مـا يرى، أليس قومه شعب الله المختار، أليسوا هم ورثة موسى عليه السلام؟ ثم أليس المسلمون رعـاة شاء؟ أو كما يقول[٢]:

ألسنا ورثنا الكتاب الحكيم	**على عهد موسى فلم نصرف**
وأنتم رعاء لشاء عجـاف	**بسهل تهـامـة الأحنـف**
ترون الرعاية مجـداً لكم	**كذا كل دهـر بكم مجحف**
فيا أيها الشاهدون انتهوا	**عـن الظلم والنطق المُؤْنِفِ**

ويذكره حادث قتل النضير وأحلافهم وعقر نخيلهم، بقتل كعب بن الأشرف وغدر المسلمين به – كما يقول - فيندفع إلى التعريض بالرسول الكريم.

ولما كان قومه لا يملكون القوة التي يدفعون بها عن أنفسهم، لجأ إلى تهديد المسلمين بتحزيـب قريش وأشياعها حيث يقول[٣]:

وإن تَفْخَروا فهو فخر لكم	**بمقتل كعب أبي الأشرف**
غـداة غَدَوْتُمُ على حتفه	**ولم يأت غدراً ولم يخلف**
فعل الليالي وصرف الدهور	**يديل من العادل المنصف[٤]**
بقتل النضير وأحـلافهـا	**وعقر النخيل ولم تقطف[٥]**
فـإن لا أمُتْ نأتكـم بالقنا	**وكل حسام معاً مرهف[٦]**
مع القوم صخر وأشياعه	**إذا غاور القوم لم يضعف**

---

[1] **صخر: هو أبو سفيان بن حرب.**

[2] **الأحكام السلطانية/٥٢، وتفسير القرطبي/ ١٨/٧.**

[3] **السيرة/ق٢/١٩٨.**

[4] **يريد بالعادل المنصف النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو ذر: فإن قيل: كيف قال اليهودي فيه: العادل المنصف، وهو لا يعتقد ذلك؟ فالجواب أن يقال: أن يكون ذلك مما لفظه المدح ومعناه الذم مثل قوله تعالى: {ذق إنك أنـت العزيز الحكيم}.**

[5] **الأحلاف: جمع حلف وهو الصاحب.**

[6] **الحسام المرهف: السيف القاطع.**

وكان **حيي بن أخطب النضري** من أشد اليهود عداوة للرسول الكريم، فهو الذي قـام بتحزيـب الأحزاب يوم الخندق، وهو الذي حمل بني قريظة على نقض عهدهم مع الرسول وحين أتـى بـه مجموعة يداه إلى عُنُقِهِ بحبل يوم بني قريظة، نظر إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ثم قـال: **أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخْذَلُ ثم أقبل على النـاس فقـال: أيها النـاس إنـه لا بـأس بـأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.**

وبعث هذا الموقف المؤثر الحزن والشجا في نفس **جبل بن جوال اليهودي** وبعث فيها أيضاً الفخـر والاعْتزَازَ بشجاعة حيي حتى في لحظة الموت، فاندفع يتمثل كلامه ويقول[1]:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ... ولكنه مـن يخذل الله يخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها ... وقلقل يبغي العز كل مقلقل[2]

وعندما نفذ حكم **سعد بن معاذ الأوسي** في يهود بني قريظة، وقتل رجـالهم، وسـبيت نـساؤهم وأموالهم، خفت نبرة التهديد في شعر اليهود، وتضاعفت رنة الحزن والأسى. فهذا جبل بن جوال الثعلبي يسجل محنة قومه في صراعهم الدامي مع المسلمين، ويعرض بسعد بن معاذ الأوسي لموقفـه من بني قريظة حلفائه في الجاهلية، ويشيد بعبد الله بن أبي المنافق لموقفه من حلفائه بني قينقاع وبـني النضير،ثم يفزع إلى الماضي فيبكي عز قومه الدَّاثِرِ، ويأسو على من قتل من سـادتهم وأحبـارهم فيقول[3]:

ألا يا سعد سعد بني معاذ ... لمـا لقيت قريظـة والنضير
فأما الخزرجي أبـو حباب ... فقـال لقينقاع لا تسيروا
وبدلت الموالي مـن حضير ... أسيداً والدوائر قـد تدور[4]
وأقفرت البويرة مـن سلام ... وسَعْيَةَ وابن أخطب فهي بور
فإن يهلك أبـو حكم سلام ... فلا رثَّ السلاح ولا دثور[5]
وجدنا المجـد قد ثبتوا عليه ... بمجـد لا تغيبه البدور[6]

---

[1] صحيح مسلم/٥/١٦١ -١٦٢، تاريخ الطبري/٢/٥٨٩.
[2] قلقل: تحرك.
[3] السيرة/ق٢/٢٧٢ -٢٧٣.
[4] الموالي: الحلفاء. وأسيد وحضير: قبيلتان.
[5] الرث: الخلق. والدثور: الدارس المتغير.
[6] البدور: الشهور والدهور.

أقيموا يا سراة الأوس فيها كأنكم مـــن المخزاة عور[1]
تركتم قدركم لا شيء فيها وقدر القوم حامية تفـــور

ولقي المسلمون يوم خيبر مقاومة عنيفة من يهودها، وسبب ذلك أنها كانـــت أكـــبر القـــرى اليهودية، وأعزها وأمنعها. ولما طال حصار المسلمين لحصونها، خرج فرســـانهم لمبـــارزة فرســـان المسلمين،وكان **مرحب اليهودي** أشد هؤلاء الفرسان فقد خرج من حصنهم وقد جمع سلاحه يـــدعو المسلمين للمبارزة وهو يقول[2]:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب[3]
أطعن أحيانا وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تحرب[4]
إن حماي للحمى لا يقرب

وعندما قتله **علي بن أبي طالب**، خرج أخوه ياسر وهو يقول[5]:

قـــد علمت أني ياسر شاكي السلاح بطـــل مُغَاور
إذا الليوث أقبلت تبادر وأحجمت من صولتي المخاطر
إن حماي فيه موت حاضر

أمابعد، فهذا جل ما وجدناه ذا صلة بالفترة من شعر اليهود، بيد أن صاحب الأغاني قد زودنا بمقطوعة أخرى **لأوس بن قرظي** ذات صلة بالصراع الفكري بين اليهودية والإسلام.

فقد كانت لأوسي هذا امرأة من بني قريظة فأسلمت وفارقته، ثم نازعتها نفـــسها إليـــه فأتتـــه وجعلت ترغبه في الإسلام فقال[6]:

دعتني إلى الإسلام يوم لقيتها فقلت لهـــا لا بل تعالي تهودي
فنحن على توراة موسى ودينه ونعم لعمري الدين دين محمد
كلانا يـــرى أن الرسالة دينه ومن يهد أبواب المراشد يرشد

---

1 عور: جمع أعور.
2 المغازي/٣٩٠، الطبقات الكبرى/٢/١١٢.
3 شاكي السلاح: حادّ السلاح.
4 تحرب: أي مغضبة.
5 إمتاع الأسماع/١/٣١٥-٣١٦.
6 الأغاني/١٩/٩٧.

ولعل أول ما يلفت النظر إلى شعر اليهود: أنه قليل، إذ لا يتناسب مع ضخامة الأحداث، وحدة الصراع التي قامت بينهم وبين المسلمين، فلم نجد سوى مقطوعتين تقريباً في كل غزوة، بينما نجد شعر المسلمين في هذه الغزوات نفسها من الكثرة بمكان.

ويلاحظ على هذا الشعر القليل أنه يخلو من الفحش والسباب وهجاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع شدة كراهيتهم له وحقدهم عليه - كما يخلو من هجاء الإسلام والتعريض به، بينما نجد مصادر هذا الشعر تشير بوضوح إلى هجاء اليهود للرسول وأصحابه ودينه وتشبيبهم بنساء المسلمين[1].

وثمة شيء آخر نلاحظه، وهو قلة الشعراء اليهود المشاركين في الصراع، فلم تردد هذه المصادر من أسمائهم غير كعب بن الأشرف وسماك اليهودي وجبل ابن جوال الثعلبي. أما غير هؤلاء من شعراء فقد صمتوا أو أريد لهم ذلك.

ونظن أن شعراء اليهود في فترة الصراع كان كثيراً، وقد أشار بروكلمان إلى نبوغ شعراء كثيرين من يهود قريظة على عهد الرسول[2] - صلى الله عليه وسلم - ورجح ولفنسون ضياع شعر اليهود، وبقاء أسماء بعض الشعراء[3].

وليس يسيراً أن يصلنا شعر قوم موتورين، غلبوا على أمرهم، وطردوا من ديارهم، وقاوموا دعوة الحق الظافرة، ونزلت عليهم لعنة الله تعالى، وأخذت بضبعهم لعنة رسوله – صلى الله عليه وسلم -. وإذا كان الرواة قد تحرجوا من رواية بعض شعر المشركين الذين أسلموا بعد الفتح، بل وحسن إسلامهم، فأولى بهؤلاء الرواة أن يتحرجوا من رواية شعر الشعراء الذين لم يسلموا، كهؤلاء الشعراء، فالسهيلي مثلاً قد أشار صراحة إلى إعراضه عن رواية أشعار الكفرة، ونَبَّه بعضُ العلماء على حرمة رواية نصف بيت من أشعار أولئك الذين نَاوأُوا الإسلام وقاوموه[4]. وعلى هذا فنحن لا نستبعد أن يكون شعر اليهود قد سقط من يد الزمن نتيجة إهمال الرواة والناقلين.

وعرض الشعر –على قلته - وجهة نظر اليهود باعتبارهم طرفاً من أطراف الصراع، وبين مواقفهم من الإسلام ودعوته، فقد تمثل بعض جوانب الصراع وأحداثه كقتل زعماء اليهود، وقطع

---

[1] الواقدي/ المغازي/ ٣٧١، وتاريخ الطبري/٢/٤٨٨، والأغاني/٩/١٠٦، ومعجم الشعراء للمرزباني/٣٤٤.

[2] بروكلمان/١/١٢٢.

[3] ولفنسون/ تاريخ اليهود في بلاد العرب/٢٤.

[4] الروض الأنف/٢/٥٧.

نخيل بني النضير، وذكر أحبار اليهود وعلمهم وآرائهم من نبوة محمد – عليه السلام - وذكر يوم أحد، كما تناول مواقف زعيمي الأوس والخزرج من حلفائهم اليهود، غير أن تمثله لهذه الجوانب كان في الغالب بأبيات قليلة.

وتغلب على شعر اليهود الذي عرضناه، رنة الحزن والألم، وخاصة بعد غزوتي: النضير وقريظة، ولو وصلنا شعرهم كاملاً لاستطعنا أن نرى فيه صورة كفاحهم وقتالهم ضد الإسلام، ونقرأ من خلاله تجسيم مآسيهم بصورة أدق.

مشاركة شعر القبائل في أحداث الصراع

وإذا كان الشعر قد واكب الصراع بين قبيلتين أو أكثر في حروب الأيام، وتمثل أحداث هذا الصراع، وتعقب مجالاته وظروفه وملابساته، فأولى به أن يواكب هذا الصراع المرير الذي وجد بعد ظهور الإسلام، وشمل الجزيرة العربية كلها، ودفع القبائل العربية إلى المشاركة فيه راضين أو كارهين، فقد كان هذا الصراع بين الإسلام وخصومه أشد عنفاً من غيره، لأن الإسلام كان ثورة سافرة على عادات الجاهلية وتقاليدها ومعتقداتها.

وكان لهذا الصراع بين الدين الجديد وخصومه أثر كبير في تأكيد قيمة الشعر، وتحديد مهمته في تثبيت دعائم الفكر الإسلامي والدعوة له، ودحض افتراءات مناوئيه، فقد انطلق المشركون في الجزيرة يغرون شعراءهم بالإسلام ورسوله، ويحرضونهم على النيل منهما، وكان لهذا المسلك العدائي أثره العميق في نفس النبي الكريم وأصحابه، لأنهم يدركون خطورة هذا السلاح الحاد وأثره في تعويق الدعوة، أو التنفير منها وتشويه غاياتها وأهدافها، وبخاصة بين أولئك الذين يرون في الإسلام فكراً هادماً لأمجادهم ومنتقصاً من مكاسبهم وأطماعهم السياسية، وأولئك الذين يعطون الشعر الذي يصدر عن شعراء القبائل وغيرهم قيمة خاصة لما للشاعر في نفوسهم من مكانة في العلم والوعي والمعرفة.

ولدى تعقبنا للشعر القبلي الذي شارك في أحداث الصراع، وجدنا أنه قليل وموزع على الغزوات، فهو لم يكثر في غزوة معينة أو يقل في غيرها كما هو الحال في شعر المسلمين وشعر المشركين من قريش، وإنما هو مبعثر بعثرة مرتبطة بمناسبات القول ودوافعه ومسوغاته، وهو مشارك لموقف قريش مرة، ومساند لموقف الرسول الكريم مرة ثانية، إذ كان الصراع الرئيس والمباشر بين

مكة والمدينة. وعلى هذا، كان دور شعراء القبائل ثانوياً في مجال الصراع، فبعضهم وقف يؤيد قريشاً،وبعضهم الآخر وقف يساند الرسول الكريم.

وحين فتحت مكة تغير الموقف، إذ أسلمت أكثر هذه القبائل وأسلم معهم شعراؤهم بل إن بعض هذه القبائل قد شارك في الفتح. ومع هذا فقد بقي للصراع بقية في هوازن وثقيف وهذيل وبني جذيمة، واستمر هذا الصراع خافتاً حتى تم النصر للإسلام في الجزيرة العربية كلها. ومن هذا، يتبين لنا أن شعراء القبائل المشاركين في الصراع كانوا فريقين: فريقاً شارك قريشاً واليهود في حربهم ضد الرسول – صلى الله عليه وسلم - ثم صمتوا أو غيروا مواقفهم بعد الفتح، وفريقاً آخر شارك الرسول الكريم، واستمرّ دوره حتى خضعت العرب كلها لسلطان الإسلام.

وقد آثرنا أن ندرس شعر القبائل حسب موقفهم من الإسلام -معه أو عليه - وذلك لسببين:

أولهما: قلة شعر القبائل - كما قلنا - بحيث لا يستوي أن يدرس مع الغزوات، وسبب ذلك أنه لم تقم بين شعراء القبائل هؤلاء وشعراء المسلمين مناقضات شعرية على نحو ما كان بين مكة والمدينة، أو بين اليهود والمسلمين، لأنه لم يحدث بينهم قتال مباشر وعنيف إلا في غزوتي حنين والطائف وفي حرب خالد بن الوليد لبني جذيمة.

وثانيهما: لأن شعراء القبائل أنفسهم مروا بمرحلتين فنيتين في أشعارهم، مرحلة جاهلية كان شعرهم فيها ضد الإسلام الحنيف، ومرحلة في الإسلام كان شعرهم فيها سلاحاً من أسلحة الدعوة الجديدة. وعلى هذا، فسوف نتناول موقف شعراء القبائل ضد الإسلام أولا، ثم نقوم بدراسة موقفهم إلى جانب الإسلام بعد ذلك. سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، فهذا النهج –فيما نرى - هو خير وسيلة لكشف دور شعراء القبائل في الصراع وإبراز نشاطهم الأدبي في الغزوات.

أولاً – موقف معارض للدعوة:

كانت مكة تحظى بمكانة عظيمة في نفوس العرب أجمعين، فاكتسبت قريش بذلك زعامة قبائل العرب وقيادتهم. وليس غريباً لذلك أن تبادر بعض هذه القبائل إلى مشاركة قريش في عدائها للرسول الكريم، وأن تشد من أزرها في صراعها معه، سواء في المجال العسكري أم في المجال الأدبي، وليس غريباً أيضاً أن يهب شعراؤهم للمنافحة عن قريش،وبكاء قتلاهم والتأليب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم - والتحضيض عليه.

وبدأت مشاركة شعراء هذه القبائل لقريش بعد غزوة بدر مباشرة، فهذا أمية بن أبي الصلت يعلم بهزيمة قريش وقتل أبنائهم فيألم لذلك أشد الألم، ولكنه لا يجد من وسيلة للمشاركة في المصاب

سوى شعره إليه فيفزع غليه يبكي من قتل من أصحاب القليب، ويحرض على أخذ الثأر، ويـــزين لهم غزو المدينة فيقول[1]:

ولقد عناني صوتهم — من بين مستسق وصائح[2]

لله در بني علي — أَيِّمٍ منهـــم وناكـــح[3]

مرداً على جرد إلى — أسد مكـــالبة كـــوالح[4]

بزهاء ألف ثم ألف — بين ذي بدن ورامـــح[5]

أما **الأعشى بن النباش التميمي** حليف بني نوفل، فقد آلمه قتل نبيه ومنبه ابني الحجاج وقتل غيرهم من سادة قريش وأشرافهم، فمضى يبكي عزهم ومجدهم ويقول[6]:

قـــذى بعينك أم بالعين عـــوار — بل حزنها أن خلت من أهلها الدار

وقد أراهـــا حديثاً وهـــي آنسة — لا يشتكي أهلها ضيف ولا جـــار

ويل ابن أم بني الحجاج إن ندبوا — لا بخل فيهم ولا فـــي الخصم إيثار

نجوم مكـــة يستسقى الغمام بهم — وهم لمـــن يجتدي المعروف أخيار[7]

لو كان مجد على الجوزاء أنزلهم — مجـــد تليد وأحـــلام وأخطـــار[8]

وكانت صلات يهود المدينة ببعض القبائل قوية ومؤثرة، فكان **عباس بن مرداس** شاعر بني سليم وفارسهم يزورهم فيكرمونه. وعندما أجلي بنو النضير عن أرض المدينة، لم يـــستطع العبـــاس أن يساعدهم بسلاحه أو بسلاح قومه، وعز عليه أن يتخلى عنهم في ساعة المحنة، فعمـــد إلى شـــعره

---

1 السيرة/ق٢/٣٢.

2 عناني/ أحزنني وشق علي.

3 الأيم: الذي لم يتزوج.

4 الجرد: الخيل العتاق، والمكالبة: هم الذين بهم شبه الكلب، وهو السعار، يعني حـــدّتهم في الحـــرب، والكـــوالح: العوابس.

5 البدن: الدرع.

6 الآمدي/ المؤتلف والمختلف/٢١.

7 يجتدي: يسأل.

8 الجوزاء: نجم في السماء.

حيث سجل فيه مجدهم وكرمهم، ومضى يبكي خلو دارهم ويأسف لضياع عزهم، لا لأنه مــولى **سلام بن مشكم أو حيي بن أخطب**، بل لأنهم أهل عز وكرم أو كما يقول[١]:

ولو أن أهــل الدار لــم يتصدعوا رأيت خلال الدار ملهى وملعبا[٢]
فإنك عمــري هــل أريك ظعائناً سلكن على ركن الشطاة فَتَيأبا[٣]
إذا جــاء باغي الخير قلن فجاءة لــه بوجــوه كالدنانير مرحبا
وأهــلاً فلا ممنــوع خير طلبته ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنبا
فلا تحسبني كنت مولى ابن مشكم سلام ولا مولى حيي بن أخطبا[٤]

ويلومه خوات بن جبير الأنصاري ويشتد في تعنيفه، ولكن عاطفة عباس لا زالت تجيش بالحزن والألم على كرم أصدقائه وعزهم اللذين رحلا عن المدينة برحيلهم، فكان لابد من أن يرد علــى خواتٍ وأن يتهمه بالتحامل، فهو لو كان منصفاً ومعرضاً عن المكروه منهم لَغَيَّــرَ رأيــه فــيهم، وشاركه في البكاء على عزهم أو كما يقول له[٥]:

أخوات أذر الدمع بالدمع وابْكِهِمْ وأعرض عن المكروه منهم ونكبا[٦]
فإنك لــو لاقيتهم في ديارهــم لألفيت عما قد تقــول منكبا
سراع إلى العليا كرام لدى الوغى يقال لباغي الخير أهــلاً ومرحبا

وغاض شعر القبائل المناوئ للإسلام بعد بني النضير، فلم نعد نسمع لشعراء القبائل صوتاً ضد الإسلام،واستمر هذا الموقف إلى ما بعد الفتح بقليل، فلما فتحت مكة تَفَتَّحتْ قرائح الشعراء،فجاء بنو الدّيلِ إلى النبي – عليه السلام - يعتذرون. وسبب هذا الاعتذار أن عمرو بن سالم الخزاعــي كان أبلغ النبي الكريم أن شاعرهم **أنس بن زنيم** قد هجاه، فأهدر دم أنس كما أهدرت دماء غــيره من المناوئين والمعتدين، فكان لا بد أن يتوب أنس، وكان لا بد من أن يعتذر عــن موقفــه مــن الإسلام، فقد وضح النور لكل ذي عينين، فأسلم لله وبايع الرسول – صلى الله عليه وسلم - على

---

[1] السيرة/ق٢/٢٠١، الأغاني/١٣/٦٨.
[2] لم يتصدّعوا: لم يتفرقوا.
[3] الظعائن: النساء في الهوادج. والشطاة وتيأب: موضعان.
[4] المولى (هنا) الحليف والصاحب.
[5] السيرة/ق٢/٢٠٢.
[6] نكب: عرج عن.

الطاعة، ثم عمد إلى مدح النبي – عليه السلام - والتنصل مما رمي به من أمر الهجاء والمعارضة فانطلق يقول[1]:

أأنت الذي تهدى معد بأمره	بل الله يهديهم وقال لك اشهد
وما حملت من ناقة فوق رحلها	أبر وأوفى ذمة من محمد
تعلم رسول الله أنك مدركي	وأن وعيداً منك كالأخذ باليد[2]
تعلم بأن الركب ركب عويمر	هم الكاذبون المخلفو كل موعد
ونبوا رسول الله أني هجوته	فلا حملت سوطي إلى اذن يدي
سوى أنني قد قلت ويل أمّ فتية	أصيبوا بنحس لا بطلق[3] وأسعد
أصابهم من لم يكن لدمائهم	كفاء فعزت عبرتي وتبلدي
فإني لا ديناً فتقت ولا دماً	هرقت تبين عالم الحق واقْصِدِ

وسار خالد بن الوليد إلى بني جذيمة الكنانيين يدعوهم إلى الإسلام، فلما أدركهم طلب منهم أن يضعوا سلاحهم، وتشكك بعض القوم في نية خالد، فقال رجل منهم: إنه خالد والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً، فلم يزل به قومه حتى نزعوا سلاحه. وأمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضهم على السيف، فقتل منهم ناساً كثيراً، وعلم النبي – عليه السلام - بذلك فقال: ((**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد**))[4].

وحين استحر القتل ببني جذيمة، هب بعض شبابهم لملاقاة المسلمين، وأعدوا أنفسهم لحرب خالد وناوشوه شيئاً من قتال، بل إن بعض هؤلاء الشباب قد صمم على الحرب واستعد لضرب المسلمين ضرباً سريعاً مؤثراً كما يقول أحدهم[5]:

قد علمت صفراء تلهي العرسا	لا تملأ الحيزوم منها نَهْسَا[6]
لأضربن اليوم ضرباً وعسا	ضرب المحلين مخاضاً قعسا[1]

---

[1] السيرة/ق٢/٤٢٤، الإصابة/٢/٦٩.

[2] تعلم: اعلم. والوعيد: التهديد.

[3] الطلق: الأيام السعيدة يقال يوم طلق: إذا لم يكن فيه حر ولا برد ولا شيء يؤذي وكذلك ليلة طلق وطلقة.

[4] المغازي/ ٤١٦ -٤١٧.

[5] الطبقات الكبرى/ ٢/١٤٨.

[6] الحيزوم: أسفل عظام الدصر وهو ما يقع عليه الحزام، والنهس: أكل اللحم بمقدم الأسنان يريد أنها قليلة الأكل.

وقام رجل آخر منهم يقسم على الثبات ويعقد العزم على القتال كما يقاتل الأسد العابس الوجه ويقول[2]:

أقسمت ما إن خادر ذو لبده	شثن البنان في غداة برده[3]
جهم المحيا ذو سبال وردة	يرزم بين أيكة وجحده[4]
ضارٍ بتأكال الرجال وحده	بأصدق الغداة مني نجده[5]

ويبدو أن خالداً قد قتل فأسرف في القتل، يدل على ذلك هذه الصرخات من الاحتجاج التي انْبَعَثَتَ من أفواه شعرائهم، يعلنون فيها التمرد على الدين الجديد الذي سمعوا عنه بأنه رحيم بمن دخل فيه، وأنه يجب ما قبله من أعمال الجاهلية وآثامها، ولكنهم رأوا الدماء تسيل، فقاموا يرفضون الامتثال لأوامره. هذه شاعرة منهم – يقولون: اسمها سلمى - تستنكر أفعال خالد وتتهمه بالغدر والخيانة، ثم تذكر مصاب قومها يوم الغميصاء هذا فتقول[6]:

ولولا مقال القوم للقوم أسلموا	للاقت سليم يوم ذلك ناطحا
لما صَعَهُمْ بسر وأصحاب جحدم	ومرة حتى يتركوا البرك ضابحا[7]
فكائن ترى يوم الغميصاء من فتى	أصيب ولم يجرح وقد كان جارحا[8]
ألظت بخطاب الأيامى وطلقت	غداتئذٍ منهن من كان ناكحا[9]

---

1 وعساً: سريعاً، والمحلون: الذين خرجوا من الحرم إلى الحل. والمخاض: الإبل الحوامل، والقعس: التي تتأخر وتأبى أن تمشي.

2 الطبقات الكبرى/ ٢/١٣٦، الكامل في التاريخ/ ٢/١٧٤.

3 الخادر: الأسد الداخل في الخدر، والخدر: الأجمة، واللبدة: الشعر الذي فوق كتفيه، وشثن: غليظ، والبنان: الأصابع، وبردة: باردة.

4 جهم: عابس، والمحيا: الوجه، والسبال: الشعر الذي حول فمه، ويرزم: يصوت، والجحدة: القليلة الورق والأغصان.

5 ضار: متعود، والتأكال: الأكل.

6 السيرة/ ق٢/٤٣٢.

7 المماصعة والمصاع: المضاربة بالسيوف، والبرك: الإبل الباركة، وضابحاً: صائحاً، وأصل الضبح: نفس الخيل والإبل إذا أعيت.

8 الغميصاء: موضع.

9 ألظت: لزمت وألمت، والأيامى: جمع أيم وهي التي لا زوج لها.

وكان يوم الغميصاء شديد الوقع على نفوس الجذميين، فكأنه قد جـرح كبرياءهم وأدمى كرامتهم، ولهذا تعالت صرخات الألم من أفواه شعرائهم بين الحين والحين، يذكرون إذلال خالد لهم، ويصورون ما يداخل نفوسهم من الآمٍ، فيوم الغميصاء قد أمسى كالداء المزمن الذي لا سبيل إلى الشفاء من أوجاعه كما يقول رجل منهم[1]:

ليهنئ بني كعب مقدم خالد	وأصحابه إذ صبحتنا الكتائب
فلا ترة يسعى بها ابن خويلد	وقد كنت مكفياً لو أنك غائب[2]
فلا قومنا ينهون عنا غواهم	ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهب[3]

وشعر بني جذيمة –على قلته- يعبر عن مأساهم ومصيبتهم، ويصور أبعاد هذه النكبة التي نزلت بهم وقصمت ظهورهم وأوجعتهم يوم الغميصاء، وتشيع فيه عبارات التمرد والاحتجاج. وعلى الرغم من أن رسول الله قد تأثر لمصابهم وبعث إليهم علي بن أبي طالب، فلم يبق لهم شيء من مال ولا دم إلا وداه – حتى إنه ليدي لهم ميلغة الكلب[4] - إلا أنه بقي في نفوسهم حاجة، فلم يكن في مقدورهم أن ينسوا ما حل بهم من التقتيل والتشريد.

وبقيت للصراع بقية في هوازن وثقيف وغيرهما من القبائل الأخرى فجمعهم **مالك بن عوف النصري** لقتال المسلمين، وفي بني جشم **دريد بن الصمة** شيخ كبير ليس فيه إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخاً مجرباً[5]. وعندما انهزم المشركون لحقوا بالطائف ومعهم مالك بن عوف – قائدهم في حنين - وعسكر بهم بأوطاس وتَوَجَّهَ بعضهم إلى نخلة[6].

وتبعت خيل رسول الله – صلى الله عليه وسلم - من سلك نخلة من المشركين فأدرك **ربيعة بن رفيع السلمى** - وكان يقال له ابن لذعة - دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله فأناخ به، فقال له دريد: ماذا تريد بي؟ قال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ قال: ربيعة بن رفيع السلمي ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئاً، فقال: بئس والله ما سلحتك أمك، خذ سيفي ثم أضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن

---

[1] السيرة/ ق٢/٤٣٥.

[2] الترة: العداوة وطلب الثأر.

[3] غواهم: سفهاءهم.

[4] الميلغة: شيء يحفر من خشب ويجعل ليلغ فيه الكلب، يكون عند أصحاب الغنم وأهل البادية – تاريخ الطبري/٣/٦٧.

[5] السيرة/ ق٢/ ٤٣٧.

[6] تاريخ الطبري/ ٣/٧٨.

الدماغ، فإني كنت كذلك ضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب - والله - يوم قد منعت فيه نساءك[1] ثم أنشد[2]:

ويح ابن لذعة ماذا يريد ... من المرعش الذاهب الأدرد[3]

فأقسم لو أن بي قوة ... لولت فرائصه ترعد[4]

ويا لهف نفسي أن لا تكون ... معي قوة الشامخ الأمرد

فبادر إليه السلمي فقتله. وشاء بعض الرواة أن ينطقوا ابنته عمرة بشعر الرثاء، وقالوا إنها ما إن علمت بمقتل أبيها حتى فاضت مدامعها على موته فقالت تبكيه[5]:

لعمرك ما خشيت على دريد ... ببطن سميرة جيش العناق[6]

جزى عنه الإله بني سليم ... وعقتهم بما فعلوا عقاق[7]

فرب عظيمة دافعت عنهم ... وقد بلغت نفوسهم التراقي

ورب كريمة أعتقت منهم ... وأخرى قد فككت من الوثاق

فكان جزاؤنا منهم عقوقاً ... وهما ماع منه مخ ساقي[8]

عفت آثار خيلك بعد أينٍ ... بذي بقر إلى فيف النهاق[9]

ونظن أن الأبيات موضوعة على عمرة، ويبدو أنها اخْتُلِقَتْ لتناسب هذا الحدث التاريخي، وهو مقتل دريد بن الصمة الجشمي الشاعر الفارس المشهور، فالأبيات تخلو من عاطفة الحزن وحرارة الأسى التي نجدها عادة عند الثاكل الموتور، وخاصة في شعر النساء اللواتي فقدن آباءهن أو أزواجهن أو إخوانهن في ساحة المعركة، وفرق كبير بين هذا الرثاء ورثاء القرشيتين **هند بنت عتبة وقتيلة بنت النصر** لأبيهما اللذين قتلا يوم بدر. والأبيات تشيع فيها بعض المعاني الإسلامية، وخاصة

---

[1] نفسه/ ٧٩.

[2] الأغاني/ ٩/١٥.

[3] الأدرد: الذي سقطت أسنانه كلها.

[4] فرائصه: الفريصة لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع.

[5] السيرة/ ق٢/٤٥٣ -٤٥٤ وبلاغات النساء/ ١٧٩.

[6] سميرة: واد قرب حنين. قتل فيه دريد بن الصمه، والعناق: الخيبة أو الداهية.

[7] عقاق (على وزن فعال بكسر اللام) من العقوق.

[8] ماع: ذاب، وكل سائل مائع (عن أبي ذر).

[9] ذو بقر: موضع والفيف: الفقر. والنهاق: موضع.

في البيت الثالث الذي نظن أنه مقتبس من قوله تعالى[١]: "**كلا إذا بلغت التراقي**" مع أن عمرة كانت على دين الشرك. وكانت هوازن شديدة العنف في القتال يوم حنين، فانشمر المسلمون في بداية المعركة، وفر كبار الصحابة من حول نبيهم – عليهم السلام - فلم يثبت معه إلا نفر قليل. وهذا **رجل من هوازن** ينقل لنا أنباء القتال فيشيد بقيادة مالك بن عوف، ويذكر قوة هوازن وشدة بأسها في حرب المسلمين، ويشير إلى فرار الصحابة من حول النبي – عليه السلام -، وعندما أوشكوا على إحراز النصر تدخلت إرادة الله فحسمت الموقف لصالح المسلمين أو كما يقول[٢]:

ومالك مالك ما فوقه أحد	يوم حنين عليه التاج يأتلق[٣]
حتى لقوا الباس حين الباس يَقْدُمُهْم	عليهم البيض والأبدان والدرق[٤]
فضاربوا الناس حتى لم يروا أحداً	حول النبي وحتى جَنّهُ الغسق[٥]
ثمت نزل جبريل بنصرهم	من السماء فمهزوم ومعتنق[٦]
منا ولو غير جبريل يقاتلنا	لمنعتنا إذن أسيافنا العتق[٧]
وفاتنا عمر الفاروق إذ هزموا	بطعنة بل منها سرجه العلق[٨]

ومضى الشعر يسجل هزيمة هوازن، وينقل مشاعر المهزومين ،ويصور أحاسيسهم ويبين مواقفهم من الدين الجديد. أما **مالك بن عوف** ذلك الرجل الذي ليس فوقه أحد كما قال شاعرهم، فقد أذهلته المصيبة ومنعت النوم عن عينيه وكأنه أحس أنه سبب الهزيمة ومصدر الفشل، فطالما نصحه دريد بن الصمة ذلك الشيخ المجرب، وطالما أشار عليه –وعلى غيره من سراة القوم - خديج بن أبي العوجاء النصري بعدم محاربة المسلمين[٩]:

---

[1] سورة القيامة/ ٢٦.

[2] السيرة/ ق٢/ ٤٧٥.

[3] يأتلق: يلمع.

[4] البيض: جمع بيضة، وهي المغفر، والأبدان (هنا) جمع بدن وهو الدرع. والدرق: جمع درقة وهي الترس من جلد بلا خشب ولا عقب.

[5] جنّه: ستره، الغسق: الظلمة يعني ظلمة الغبار.

[6] معتنق: أسير.

[7] العتق: جمع عتيق، وهو النفيس.

[8] العلق: الدم.

[9] السيرة/ ق٢/ ٤٧٨.

ولو أن قومي طاوعتني سراهم   إذن ما لقينا العارض المتكشفا[1]

إذن ما لقينا جُنْدَ آل محمد   ثمانين ألفاً واستَمُّدوا بخندفا[2]

ولكن مالكاً أصر على القتال، وعلى هذا كان عليه أن يسوغ موقفه، وأن يُبَرّيء نفسه من مسئولية الهزيمة، فمضى يشيد بفضله على قومه وحسن قيادته لهم وشدته على أعدائهم. فعل كل ذلك ليدفع عن نفسه تهمة الجبن والتعيير بالفرار فانطلق يقول[3]:

منع الرقاد فما أغمض ساعة   نعم بأجزاع الطريق مخضرم[4]

سائل هوازن هل أضر عدوها   وأعين غارمها إذا ما يغرم

ومقدم تعيا النفوس لضيقه   قدمته وشهود قومي أعلم[5]

فوردته وتركت إخواناً له   يردون غمرته وغمرته الدم[6]

فإذا انْجَلَتْ عمراته أورثتني   مجد الحياة ومجد غنم يقسم

وفر **سلمة بن دريد** بزوجه وقام بحمايتها من أعدائه، في حين هرب كل مخلص عن أمه وخليله فاتخذ من حماية عرضه وسيلة للفخر بالمروءة والشجاعة بعد أن افتقد عوامل الفخر بالنصر وذلك حيث يقول[7]:

نسيتني ما كنت غير مصابة   ولقد عرفت غداة نعف الأظرب[8]

أني منعتك والركوب محبب   ومشيت خلفك مثل مشي الأنكب[9]

إذ فر كل مهذب ذي لمة   عن أمه وخليله لم يعقب[1]

---

[1] العارض (هنا): السحاب. والمتكشف: الظاهر.

[2] خندف: قبيلة.

[3] السيرة/ ق٢/ ٤٧٤.

[4] النعم: الإبل، أو كل ماشية أكثرها الإبل وأجزاع الطريق: جمع جزع وهو ما انعطف منه، ومخضرم: صفة النعم، وهو الذي قطع من أذنه ليكون ذلك علامة له.

[5] مقدم: يعني موضعاً لا يتقدم فيه إلا الشجعان.

[6] الغمرة: الشدة.

[7] السيرة/ ق٢/٤٥٦.

[8] النعف: أسفل الجهل. والأظرب: موضع.

[9] الأنكب: المائل إلى جهة.

وقدم فَلُّ ثقيف الطائف فأغلقوا عليهم أبواب المدينة، وأخذوا يُعِدُّون لقتال المسلمين. وسار الرسول يريد الطائف. فقال كعب بن مالك قصيدته التي مطلعها[٢]:

قضينا من تهامة كل ريب … وخيبر ثم أجْمَعنا السُّيُوفا

فانتهى تهديده إلى الطائف، فبادر **كنانة بن عبد ياليل** إلى الرد على كعب ورفض تهديده، وأعلن عن تصميم قومه على الثبات في بلد الآباء والأجداد، فهم طالما قوموا المعتدين المتكبرين، وقد جرّبتهم عمرو بن عامر فقاست من بأسهم شيئاً كثيراً أو كما يقول[٣]:

من كان يبغينا يريد قتالنا … فإنا بدار معلم لا نريعها[٤]
وجدنا بها الآباء من قبل ما ترى … وكانت لنا أطواؤها وكرومها[٥]
وقد جربتنا قبل عمرو بن عامر … فأخبرها ذو رأيها وحليمها[٦]
وقد علمت إن قالت الحق أننا … إذا ما أبت صعر الخدود نقيمها[٧]
نقومها حتى يلين شريسها … ويعرف للحق المهين ظلومها[٨]

ورجع الرسول الكريم عن الطائف ونزل بالجعرانة ومعه سبي هوازن، ستة آلاف من الذراري والنساء ومن الإبل والشاء وغير ذلك ما لا يُدْرى ما عدته وأتاه وفد هوازن وقد أسلموا فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا من الله عليك، وقام زهير أحد بني سعد بن بكر ويكنى أبا صرد السعدي، فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر[٩]

---

1 المهذب: الخالص من العيوب والمهذب (أيضاً): المسرع من التهذيب في السير وهو الإسراع. ولم يعقب: لم يرجع.

2 السيرة/ ق٢/٤٧٩.

3 السيرة/ ق٢/٤٨١.

4 معلم: مشهورة. لا نريعها: لا نبرح منها ولا نزول.

5 الأطواء: جمع طوي، وهي البئر.

6 عمرو بن عامر: هم بنو عمرو بن عامر بن صعصعة وكانوا مجاورين لثقيف، وكانت ثقيف قد أنزلت بني عمرو في أرضهم ليعملوا فيها ويكون لهم النصف في الزرع والثمر. ثم إن ثقيفاً منعتهم ذلك وتحصنوا بالحائط الذي بنوا حول حاضرتهم، فحاربتهم بنو عمرو فلم يظفروا منهم بشيء، وجَلَوا عن تلك البلاد (انظر السهيلي).

7 صعر الخدود: هي المائلة إلى جهة تكبراً وعجباً.

8 شريسها: شديدها.

9 الحظائر: جمع حظيرة وهي الزرب الذي يصنع للإبل والغنم وكان السبي في حظائر مثلها.

عماتك وخالاتك وحواضنك[1] واللاتي كن يكفلنك ولو أنا أرضعنا للحارث بن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ثم نزل منا أحدهم بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين[2] ثم أنشد[3]:

امنُنْ علينا رسول الله فـــي كـــرم	فإنك المـــرء نرجـــوه وندخر
يا خير طفل ومولـــود ومنتخب	في العالمين إذا مـــا حصل البشر
امنُنْ على نسوة قد كنت ترضعها	إذ فوك يملوه من محضها الدرر
لا تجعلنا كمـــن شالت نعامته	واسْتَبقِ منا فإنا معشر زهـــر
إنـــا لنشكر آلاء وإن كثرت	وعندنا بعد هذا اليوم مدخر[4]
فاغفر عفـــا الله عمـــا أنت راهبه	يوم القيامة إذ يهدى لك الظَّفر

وتأثر رسول الله لهذا الموقف ورق لهم، ثم من عليهم فرد نساءهم وأبناءهم وبعض أموالهم.

أمابعد:

فهذه صورة من موقف المعارضة الذي وقفته بعض القبائل، ووقفه معها شعراؤها من الإســـلام ودعوته، وهي صورة تكشف عن هذه المشاركة في الصراع بين الإسلام وخصومه في عصر النبوة. ولكن مشاركة هذه القبائل في الصراع لم تكن مباشرة كما بينا، وإنما كانت جانبيـــة وثانويـــة، إذ كانت مرتبطة بمصالح هذه القبائل ومصائرها أكثر من ارتباطها بأي شيء آخـــر، فكلمـــا أشـــتد التهديد لها بادرت إلى المشاركة وساهمت في القتال.

وشهد شعر المعارضة بعض المشاهد وغاب عن بعضها الآخر كما لاحظنا، وهذا يفسر لنـــا أن القبائل البعيدة عن مجال الصراع لم يكن يعنيها أمر الإسلام في كثير، إذ لم تكن ترى فيه خطراً على سيادتها، وتهديداً لقبائلها. ومن هنا وجدنا شعر المعارضة القبلي يغيب عن أحد والخنـــدق وخيـــبر وغيرها من المشاهد التي وقعت بين الرسول الكريم وقريش، أو بينه وبين اليهود، بل وجدناه يكاد يغيب عن غزوة بدر أيضاً، فلم نجد منه في هذه المشاهد كلها سوى قصائد ومقطوعات قليلة تـــبرز فيها المصلحة الفردية أحياناً على نحو ما رأينا من مشاركة أمية بن أبي الصلت يوم بدر، وتبرز فيها

---

[1] حواضنك: يعني اللائي أرضعن النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت حاضنته من بني سعد بن بكر.

[2] تاريخ الطبري/ ٣/٨٦.

[3] الأحكام السلطانية/ ١٣٥، إمتاع الإسماع/ ١/٤٢٧.

[4] آلاء: نعم.

مصلحة القبيلة في أغلب الأحيان كما رأينا في شعر **أبي صردٍ وخديج بن أبى العوجاء وكنانة بن عبد ياليل** وغيرهم.

ولعل أهم ما يلفت النظر،هو قلة شعر المعارضة في القبائل التي كانت تقيم حول المدينة أو تنزل في منازل قريبة منها، كهذيل وبني عامر وسليم ومزينة وغطفان، فإن هذه القبائل قد اكتون بنـــار الصراع منذ اشتعالها، وساهمت في قتال المسلمين مشاركة لقريش ومنفردة، وقد رأينا فيما مــضى من هذا البحث أن حسان بن ثابت وغيره من شعراء المسلمين قد أكثروا من هجاء هــذيل يــوم الرجيع إذ تناولها حسان بلسان حساد فأقذع في هجائه لها لغدرها ببعض الصحابة الكرام. وكـــان طبيعياً –والحالة هذه – أن ترد هذيل على الهجاء بمثله، غير أنه لم يصلنا لهـــم شـــعر في معارضـــة الإسلام مع أنهم كانوا من أشعر العرب حياً[1]، وأنهم قد أعرقوا فيه حتى كان الرجل منهم ربما أنجب عشرة من البنين كلهم شعراء[2]. وكذلك الحال عند بني عامر يوم بئر معونة فقد هجـــاهم شـــعراء المسلمين فأوجعوهم وعرضوا بزعيمهم أبي براء ومع هذا لم يصلنا لهم شعر يوحي باستنكارهم، مع أنه كان فيهم شعراء فحول كلبيد مثلا، وكان فيهم عامر بن الطفيل الشاعر الفارس الذي غـــدر بأصحاب بئر معونة.ولا نجد تفسيراً لهذا الصمت الذي يكاد يكون مطبقاً سوى ضياع الشعر الذي فيه تعريض بالإسلام،وطمس هذه القبائل لكل ما قالوه من شعر معارض للدين الجديد حقنا لدماء أبنائهم من جهة، ولأن معارضة الإسلام أصبحت مغمزة يعَابُ بها العربي، وخاصة بعـــد أن أســـلم العرب وفقهوا أفكار الإسلام.

ومما يدعو إلى الاستغراب أن نجد شعراء مشهورين كعدي بن حاتم الطائي وحميد بن ثور الهلالي وأبي الطفيل عامر بن وائلة والأسود بن سريع يروون عن النبي الحديث[3] –مما يدل على أنهم عاشوا أحداث الصراع - ولا نجد لهم شعراً في فترة الصراع. ونظن أن هؤلاء الشعراء وأمثالهم لم يغيبـــوا عن الصراع، وإنما قالوا شعراً يحددون فيه مواقفهم ومواقف قبائلهم من الدعوة الإسلامية ودعاتها.

على أن شعر المعارضة قد كثر -نوعاً ما - بعد فتح مكة، فقد نشط شعراء بني جذيمة الكنـــانيين وبعض شعراء هوازن وثقيف، غير أن ما وصلنا من أشعارهم كان قليلاً بعامة، فهو لا يكاد يتناسب مع أحداث الصراع العنيف الذي دار بين المسلمين وكنانة، ثم بينهم وبين هوازن ومن ناصرها فيما

---

[1] الشعر والشعراء/٢/٦٥٣.

[2] ديوان الهذليين/ مقدمة القسم الثالث.

[3] الاستيعاب/ ٤/١٥٢١.

بعد، كما أن هذا الشعر يكاد يخلو من هجاء الإسلام والتعريض به فشعر بني جذيمة مثلاً اتَّجه إلى البكاء ورثاء القتلى، وشاعت فيه رنة الحزن والأسى، كما أن أكثره شعر رجز قصير يفتقر إلى الناحية الفنية. وسبب ذلك أنه قيل في أثناء قتالهم للمسلمين. ونظن أن شعراً آخر قاله هؤلاء الشعراء فيه مساس بالإسلام، إذ لا يعقل أن يسكتوا عن ذكر قوم أوقعوا فيهم وأكثروا من قتلهم.

وقد حمل إلينا شعر الرثاء الذي قيل بعد الفتح إشارات وتلميحات ضد الإسلام، ويبدو ذلك واضحاً في قصيدة أبي خراش الهذلي التي رثى فيها ابن عمه زهير بن العجوة يوم حنين[1]، وقد أوردنا أبياتاً منها فيما سبق من هذا البحث في أثناء حديثنا عن النفاق.

وصفوة القول، فقد كنا نطمح أن نجد شعراً كثيراً لشعراء القبائل، وكنا نأمل في أن يشارك شعرهم في الغزوات ويساهم في تسجيل الأحداث، ولكن الشعر الذي وجدناه لهؤلاء الشعراء كان قليلاً، الأمر الذي يدفعنا إلى الظن بأن كثيراً من شعرهم في فترة الصراع قد طمس وبخاصة ما كان فيه تعريض بالإسلام والمسلمين.

ثانياً: موقف مؤيد للدعوة

ولئن وقفت بعض القبائل ضد الدعوة الإسلامية وشاركت قريشاً في مناوأتها للنبي الكريم، فإن قبائل أخرى قد وقفت إلى جانبه، وشارك شعراؤها في الصراع الأدبي، فقاموا يسجلون انتصارات الإسلام، ويحطون على أعدائه وينالون من مناوئيه.

وبدأت مشاركة الشعراء المؤيدين منذ غزوة أحد، وكان شعراء خزاعة أول هؤلاء الشعراء، فقد كان مسلمهم ومشركهم مع النبي – عليه السلام - ينقلون له أخبار قريش، ويدفعون عنه أذاهم، فلما خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم - يطلب قريشاً بعد هزيمة أحد، مر به **معبد بن أبي معبد الخزاعي** وهو بحمراء الأسد[2] ثم خرج حتى لقي قريشاً بالروحاء، وقد أجمعوا العودة إلى المسلمين ليستأصلوهم ويفرغوا من أمرهم. وحين رآه أبو سفيان قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، والله

[1] ديوان الهذليين/ ق٢/١٤٨ - ١٥٠.

[2] موضع على ثمانية أميال من المدينة.

ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، فوالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتاً من شعر" قال وماذا قلت؟ فانطلق معبد يقول[1]:

كادت تهد من الأصوات راحلتي	إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل[2]
فظلت عدواً أظن الأرض مائلة	لما سمـــوا برئيس غير مخذول
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم	إذا تغطمطت البطحاء بالجيل[3]
إني نذير لأهـــل البسل ضاحية	لِكُلّ ذي غربة مهم ومعقول[4]
مـــن جيش أحمد لا وخش قنابله	ولي سيوصف ما أنذرت بالقيل[5]

فلما سمع أبو سفيان شعر معبد تراجع عن رأيه ثم قفل عائداً إلى مكة.

وحين أجلي النضير عن المدينة شفيت صدور بعض شعراء القبائل، فاحتفلوا بـــإجلائهم أيمـــا احتفال، فهذا **قيس بن بحر الأشجعي** يشيد بفعل رسول الله – صلى الله عليه السلام - ويسجل غارة المسلمين على غطفان وينصح قريشاً أن تثوب إلى رشدها، وأن تفيء إلى أمر الله فقد كان في يـــوم بدر وفي قتلى القليب عبرة لمن شاء أن يعتبر فيقول[6]:

أهلي فداء لامـــريء غير هالك	أحـــل اليهـــود بالحسي المزنم[7]
فإن يك ظني صادقاً بمحمـــد	تروا خيله بين الصلا ويرمـــرم[8]
يَومٌّ بهـــا عمرو بن بهشَةَ إنهـــم	عدو وماحي صديق كمجـــرم
فمـــن مبلغ عني قريشاً رسالة	فهل بعدهم في المجد مـــن متكرم
بأن أخاكـــم فاعْلمُنَّ محمـــداً	تليد الندى بين الحجون وزمزم[9]

---

[1] تاريخ الطبري/ ٢/٥٣٥ -٥٣٦.

[2] تهد: تسقط لهول ما رأت من أصوات الجيش وكثرته. والجرد: الخيل العتاق. والأبابيل الجماعات.

[3] تغطمطت: اضطربت. والجيل: الأمة وكل صنف من الناس.

[4] أهل البسل: قريش لأنهم أهل مكة، ومكة حرام. وضاحية: علانية. والمعقول: العقل.

[5] الوخش: رذالة الناس وأخساؤهم. والقنابل: جمع قنبلة وهي الطائفة من الناس.

[6] السيرة/ ق٢/١٩٥ -١٩٦.

[7] قال أبو ذر: الحسي والحساء: مياه تغور في الرمل تمسكها صلابة الأرض، فإذا حفر عنها وجدت. والمزنم: المقلل اليسير.

[8] الصلا ويرمرم: موضعان.

[9] الحجون: موضع بمكة.

فدينوا له بالحق تجسم أموركم وتسموا من الدنيا إلى كل معظم
فقد كان في بدر لعمري عبرة لكم يـــا قريشاً والقليب الململم[1]

ومضى الشعراء المؤيدون للرسول الكريم مع الأحداث، وجعلوا يراقبون أخبار الظفر والظهور فيعمدون إلى تسجيلها من وقت لآخر، فعندما افتتح رسول الله – صلى الله عليه وسلم - خيـــبر أعطى **ابن لقيم العبسي** ما بها من دجاجة أو داجن، فاختفى العبسي بهذا العطاء، ثم أنطلـــق يـــصف الفتح ويسجل انتصار محمد على مناوئيه من يهود وغيرهم فقال[2]:

رميت نطاة مـــن الرسول بفيلق شهباء ذات مناكب وفقار[3]
واستيقظت بالذُّلّ لمـــا شيعت ورجـــال أسلم وسطها وغفار[4]
صبحت بني عمرو بن زرعة غدوة والشق أظلم أهله بنهـــار[5]
جرت بأبطحها الذيول فلم تدع إلا الدجاج تصيح في الأسحار[6]
ولقد علمت ليغلبن مـــحمـــد وليثوين بهـــا إلـــى أصفـــار[7]
فرت يهـــود يوم ذلك في الوغى تحت العجاج غمائم الأبصار[8]

أما **قيس بن المسحر اليعمري** فقد شارك في غزوة مؤتة، وقاتل هناك مع المقاتلين وشـــهد مـــصرع أمراء الجيش وغيرهم من المجاهدين، وكتب الله له الحياة فعاد مع الجيش العائد، وما كاد الجـــيش يصل إلى المدينة حتى لقيهم المسلمون، فجعلوا يحثون عليهم التراب ويعيرونهم بالفرار مـــن مجاهـــة الكفار ولكن النبي الكريم كان يرفع من معنوياتهم فيقـــول: **"ليسوا بـالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى"**[9].

---

1 الململم: المجموع.

2 السيرة/ ق٢/٣٤١، معجم ما استعجم/٢/٥٢٤.

3 نطاة: حصن بخيبر، وقيل عين بها. والشهباء: الكتيبة الكثيرة السلاح تلمع فيها السيوف والأسنة، وذات مناكب وفقار: أي شديدة.

4 شيعت: فرقت. واسلم وغفار: قبيلتان.

5 الشق: من حصون خيبر، وأظلم أهله: يعني ما أصابهم من شدة وسوء حال.

6 الأبطح: المكان السهل.

7 يثوين: يقيمن. وأصفار: جمع صفر وهو الشهر المعروف.

8 المجلج: الغبار والغمائم: جفون العين.

9 تاريخ الطبري/ ٣/٤٢.

وتأثر قيس بن المسحر لهذا الموقف، فأخذ يلوم نفسه على الرجوع، ويعتــذر ممــــا صــنع - يومئذ - وصنع الناس ويُسّوغُ رجوعه برجوع خالد بن الوليد قائد الجيش ثم يذكر استشهاد جعفر بن أبي طالب وغيره من المسلمين فيقول[1]:

فوالله لا تنفك نفسي تلــومني	على موقفي والخيل قابعة قبل
وقفت بهـــا لا مستجيراً فنافذاً	ولا مانعاً من كان حم له القتل
علــى أنني آسيت نفسي بخالد	ألا خالد في القوم ليس له مثل
وجاشت إلي النفس من نحو جعفر	بِموته إذ لا ينفع النابل النبل
وضم إلينا حجزتيهم كليهمـــا	مهاجرة لا مشركون ولا عزل[2]

وعندما سار الرسول لفتح مكة، هبت بعض القبائل تشارك في الفتح وتلبي نداء الجهاد. وأخذ شعراؤهم يفخرون بهذه المشاركة ويسجلون أدوار قبائلهم في المعركة، فهذا **عباس بن مرداس السلمي** الشاعر الفارس يفخر بقومه الألف الذين شاركوا في الفتح ويسجل ثباهم في القتال وشـــجاعتهم عند لقاء المشركين فيقول[3]:

منا بمكـــة يــوم فتح محمد	ألف تسيل به البطـــاح مسوم
نصروا الرسول وشاهدوا أيامه	وشعارهم يــوم اللقاء مقدم[4]
في مترل ثبتت بــه أقدامهم	ضنك كأن الهـــام فيه الحنتم[5]
جرت سنابكهـــا بنجد قبلها	حتى استقاد لها الحجاز الأدهم
الله مكنــه لـــــه وأذلـــه	حكم السيوف لنا وجد مزحم[6]
عـــود الرياسة شامخ عِرْنينُهُ	متطلع ثغر المكـــارم خضرم[7]

ولئن أشاد شاعر سليم بدور قومه في الفتح، وتغنى بشجاعة رجالهم الألف وذكر مكانتهم مـــن النبي، فقد ذهب شعراء خزاعة إلى أبعد من ذلك، ذهبوا إلى أن الله قد أنشأ السحاب بنـــصرهم،

---

1 السيرة/ ق٢/٣٨٣، تاريخ الطبري/٣/٤٢.

2 حجزتيهم: ناحيتهم، يقال: بعد حجزة أي ناحية.

3 السيرة/ ق٢/٤٢٦، والديوان/ ١٤٣.

4 شعارهم: علامتهم في الحرب.

5 ضنك: ضيق، والحنتم: الحنظل.

6 مزحم: كثير المزاحمة، يريد: أن جدّهم غالب.

7 العود –هنا -: الرجل المُسِنّ، وشامخ: مرتفع، والعرنين: طرف الأنف، وخضرم: جواد كثير العطاء.

وأن إحلال حرمة مكة –بلد الله الحرام - كان من أجلهم أو كما يقول **بجيد بن عمران الخزاعي**[١]:

وقد أنشأ الله السحاب بنصرنا ركام صحاب الهيدب المتراكب[٢]

وهجرتنا في أرضنا عندنا بهـــا كتاب أتى من خير ممل وكاتب

ومن أجلنا حلت بمكة حرمة لندرك ثأراً بالسيوف القواضب[٣]

ولم يكن **بجير بن زهير المزني** ليصمت، فقد ساهم قومه هم الآخرون، ساهموا بـــألف مـــن بـــني عثمان، أولئك الذين ناصروا النبي الكريم وواثقوه، فعادوا غانمين بما تطلعت إليه نفوسهم من عـــز وشرف، وعلى هذا كان لا بد أن يقول[٤]:

ضربناهم بمكة يوم فتح النبي الخير بالبيض الخفـــاف

صبحناهم بسبع من سليم وألف من بني عثمان واف[٥]

نطا أكتافهم ضرباً وطعناً ورشقاً بالمريشة اللطاف[٦]

فأبنا غانمين بمـــــا اشْتَهْينا وآبوا نادمين على الخلاف

وأعطينا رسول الله منـــا مواثقنا على حسن التصافي

وفاءت قريش إلى أمر الله، فانطلق الجيش الإسلامي إلى القبائل يدعوها إلى الإسلام أو يخضعها بالسيف إن أبت عليه، وفرغ من أمر هذه القبائل، وأصبح التفكير يتجه إلى ضرب هوازن وثقيف، لأنهم يشكلون قوة مادية ضخمة تقف في سبيل انتشار الإسلام.

وسار الرسول – صلى الله عليه وسلم - إليهم بجيش عظيم، فأعجب المسلمون بقوتهم وظنـــوا أن النصر لا بد حليفهم، فأخذ شُعَراؤُهُم يفخرون بقوة الجيش وضخامته وينذرون هوازن وثقيفـــاً بسوء المصير، فهذا **عباس بن مرداس** ينصح هوازن أن تفيء إلى أمر الله، لأنه يظـــن أن رســـول الله

---

1 السيرة/ ق٢/٤٢٨.

2 المتراكب: الذي يركب بعضه بعضاً، والهيدب: المتداني من الأرض.

3 القواضب: القواطع.

4 السيرة/ ق٢/٤٢٦.

5 بسبع: أي بسبعمائة، وبنو عثمان: قبيلة مُزَينةَ.

6 الرشق: الرمي السريع، والمريشة: يعني بها السهام ذوات الريش.

سيفاجئهم بجيش عظيم من المهاجرين والأنصار وبعض القبائل تكاد ترجف منه الأرض أو كما يقول[1]:

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها	مني رسالة نصح فيه تبيان
أني أظن رسول الله صابحكم	جيشاً له في فضاء الأرض أركان
فيهم أخوكم سليم غير تارككم	والمسلون عباد الله غسان
وفي عضادته اليمنى بنو أسد	والأجربان: بنو عبس وذبيان[2]
تكاد ترجف منه الأرض رهبته	وفي مُقَدَّمِةِ أوس وعثمان[3]

وهكذا يصبح الجهاد مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم - مفخرة، ويغدو عزاً تنشده القبائل وتشيد بدورها فيه بعد أن كانت هذه القبائل نفسها تحارب الرسول الكريم وتسد عليه مسالك دعوته، فها هو ذا **الجحاف بن حكيم السلمي** يشيد بفعال قبيلته في جهاد المشركين، هذه القبيلة التي شاركت في فتح مكة وشاركت في غزوة خالد لبني جذيمة، ثم أبلت في قِتَال هوازن يوم حنين ويعلن عن استعداده لكل طارئ فيقول[4]:

شهدن مع النبي مسومات	حنيناً وهي دامية الكلام[5]
وغزوة خالد شهدت وجرت	سنابكهن بالبلد الحرام[6]
نعرض للطعان إذا الْتَقينا	وجوها لا تعرض للطام
ولست بخالع عني ثيابي	إذا هز الكماة ولا أرامي
ولكني يجول المهر تحتي	إلى العلوات بالعضب الحسام

ولئن لحقت ثقيف بالطائف، وامْتَنعَتْ بحصونها، واستطاعت أن تمنع المسلمين من اقتحامها، فإنها لم تستطع أن تمنع سلاح الشعر الحاد من اقتحام هذه الحصون واختراقها. فقد لاحقهم هذا الشعر

---

[1] السيرة/ ق٢/٤٤١.

[2] سميا الأجربين: تشبيهاً لهما بالأجرب الذي يفرّ الناس منه.

[3] أوس وعثمان: من مزينة.

[4] السيرة/ ق٢/٤٣٣.

[5] المسومات: يعني: الخيل مسومات أي مرسلات، والكلام: الجراح جمع كلمٍ.

[6] سنابكهن: مقدم أطراف حوافرهن. والبلد الحرام: يعني مكة.

وتعقب فلولهم وأقام على أبواب الطائف، بل واخترق هذه الأبواب يُعَيِر ثقيفاً بالجبن، وينـــذرهم بسوء المصير، فهذا **عباس بن مرداس** يرميهم بقوله[١]:

يوم الجمع جمـــع بني قسي	على حنق نكاد له نطير[٢]
وأقسم لو هم مكثوا لسرنا	إليهم بالجنود ولم يغوروا[٣]
فكنا أسد ليلة ثـــم حتى	أبحناها وأسلمت النصور[٤]

أما **ضمضم بن الحارث السلمي** فقد اتخذ من المشاركة في حرب ثقيف وسيلة لإدراك مصلحة قومية، إذ كانت ثقيف قد أصابت **كنانة بن الحكم بن خالد بن الشريد"**، فانتهز ضمضم هذه الفرصة، فقتل به محجناً وابن عم له، وهما من ثقيف – ثم انبعث يفخر بأخذ الثأر، ويشيد بشجاعته وشجاعة قومـــه فقال[٥]:

ونحن جلبنا الخيل من غير مجلب	إلى جرش من أهل زبان والفم[٦]
نقتل أشبال الأســـود ونبتغي	طواغي كانت قبلنا لم تهدم[٧]
فإن تفخروا بابن الشريد فإنني	تركت بوج مأتما بعد مأتم[٨]
أبأتهما بابن الشريد وغـــرة	جواركم أو كان غير مذمم[٩]
تصيب رجالاً من ثقيف رماحنا	وأسيافنا يكلمنهم كل مكلم[١٠]

---

1 السيرة/ ق٢/٤٥١.

2 الحنق: الغضب.

3 لم يغوروا: لم يذهبوا.

4 لية: اسم موضع قريب من الطائف، والنصور من هوازن وهم رهط مالك بن عوف النصري (انظر السهيلي).

5 السيرة/ ق٢/٤٧٠-٤٧١.

6 جرش: من مدن اليمن من جهة مكة. والفم: موضع.

7 طواغي: جمع طاغية وأراد بها هنا البيوت التي كانوا يتعبدون فيها في الجاهلية ويعظمونها سوى البيت الحرام.

8 وج: موضع بالطائف والمأتم: جماعة من النساء يجتمعن في الخير والشر، وأراد هنا اجْتماعهنَّ في الحزن.

9 أبأتهما: جعلتهما بواء أو سواء به أي قتلتهما به.

10 يكلمنهم: يجرحنهم.

ولكن **شداد بن عارض الجشمي** قد تناول المصلحة العامة، فمضى يندد بعقيدة الشرك ويشير إلى عجز الأصنام كاللات والعزى وغيرها، ويحذر العرب من الانتصار لها والدفاع عنها، فكيف ينصرون آلهة لا تستطيع الانتصار لنفسها أو كما يقول[1]:

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها	وكيف ينصر من هو ليس ينتصر
إن التي حرقت بالسد فاشْتَعَلتْ	ولم يقاتل لدى أحجارها هدر[2]
إن الرسول متى ينزل بلادكم	يظْعَنْ وليس بها من أهلها بشر[3]

وبعد،

فهذا عرض لموقف شعراء القبائل الذين وقفوا ينافحون عن الإسلام ويشيدون بانتصاراته سواء كانوا مسلمين أو مشركين، وسواء أكان شعرهم بدافع فردي أم بدافع جماعي.

وقد لاحظنا أن شعر التأييد للإسلام قد بدأ بعد غزوة أحد أما قبل ذلك فلا نكاد نجد منه شيئاً،ويرجع سبب هذا التأخر عن المشاركة – فيما نظن - إلى عدم وعي القبائل العربية على مفاهيم الإسلام وعدم القدرة على فهمها وإدراك كنهها، ويرجع إلى شيء آخر مهم، وهو استهانة العرب بالدين الجديد في أول الأمر، وعدم الاقتناع بإمكان انتصاره وسيطرته على مناوئيه. وعندما حقق انتصاره على قريش يوم بدر، أخذت بعض القبائل تعيد النظر في مواقفها، وبدأت تلتفت نحو المدينة حاضرة الدين الجديد وتلتمس ودها وتنشد رضاها.

على أن بعض هذه القبائل ظلت متحفظة في مواقفها حتى صلح الحديبية، فأدركت حينئذ أن محمداً ظاهر لا محالة، فأخذت تعقد المعاهدات مع دولته، وتشارك في الصراع إلى جانبه مشاركةً جادةً وفعالة، وبادر شعراؤها من يومئذ بتسجيل دورهم ودور قبائلهم في سجل الأحداث. غير أن الشعر المؤيد للدعوة ظل مقصراً عن أداء دوره الطليعي في المعركة حتى تم الفتح، حيث بدأ – حينئذ - دوره الحاسم في تمثل الأحداث والدفاع عن قضايا المسلمين وتصوير انتصاراتهم.

وكان أكثر شعر القبائل في غزوة مكة وحنين والطائف، وسبب ذلك أن بعض القبائل قد شاركت في الفتح وما بعده، واتخذت مواقعها في صفوف الجيش الإسلامي الفاتح، فنشط

---

[1] السيرة/ ق٢/٤٨١ -٤٨٢.

[2] هدر: باطل لا يؤخذ بثأره.

[3] يظعن: يرحل.

شعراؤهم - عندئذ - وساروا مع قبائلهم يروجون لانتصارات الإسلام من خلال التغني بـــشجاعة فرسانهم والفخر بقبائلهم والإشادة بفضلها في تحقيق الانتصارات.

والشعر المؤيد للدعوة يكاد ينحصر في قبائل: سليم وخزاعة ومزينة، غير أن شعراء سليم كانوا أكثر شعراء هذه القبائل إنتاجاً، حيث كان **عباس بن مرداس** الشاعر المجلي في ميدان الصراع، فقال شعراً كثيراً يوم الفتح وفي غزوتي: حنين والطائف[1]، وشاركه أحيانا شاعران آخران من قومه هما: **الجحاف بن حكيم وضمضم بن الحارث**، وقد يكون ذلك لأن بني سليم كانوا من أصدق العرب إســـلاماً بعد المهاجرين والأنصار[2].

وشاعت المعاني الإسلامية عند بعض الشعراء، وخاصة شعراء خزاعة الذين تمثلوا بعض المفاهيم الإسلامية واسعملوها في أشعارهم، كقول الرسول عندما استنصروه على قريش وبكـــر: **" إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب"**[3]، وكقوله أيضاً: **" أحلت لي مكة ساعة من نهار ولم تحلل لي إلا هذه الساعة"**[4].

كما و شاعت روح الإسلام الحنيف في شعر **بجير بن زهير المزني** كذلك، وأما شعراء سليم فأكثر معانيهم جاهلية محدودة وموجهة إلى تمجيد القبيلة والإشادة بدورها في الصراع، ومدى اسْتجابتِها للرسول – صلى الله عليه وسلم - وبلائها في نصرته، وإن وردت بعـــض المعـــاني الإســـلامية في أشعارهم فهي لا تعدو أن تكون وسيلة للفخر بالقبيلة والإشادة بعزها.

ويلاحظ على هذا الشعر أيضاً أنه في الأغلب الأعم مقطوعات قصيرة،إلا ما كان من أمر **عباس بن مرداس السلمي** حيث طال نفسه نوعاً في أكثر شعره.

وحتى تكتمل الملامح العامة لصورة شعر القبائل نمضي في بحثنا لنقف على شعره الوفود لكـــي نَسْتَطِيعَ آراء القبائل من الإسلام ودعوته بعد انْتِصارِهِ وظهوره.

---

[1] السيرة/ ق٢/ ٤٦٠ -٤٧٠.

[2] تاريخ الطبري/ ٣/ ٨٧.

[3] تاريخ الطبري/٣/٤٥.

[4] السيرة/ ق٢/٤١٦.

شعر الوفود:

بدأت صلة القبائل بالدولة الجديدة في وقت مبكر من الهجرة، إذ أحست القبائل المحيطة بالمدينة بخطورة النظام الجديد على كياناها، وخاصة بعد انتصاره على قريش في غزوة بدر، فأخذت تعد العدة لحربه، وتتحين الفرص لاستئصاله والقضاء عليه، ومما ساعد على إذكاء نار الخصومة، ذلك الدور العنيف الذي قام به اليهود في التأليب على محمد والتحريض على دينه، فبادرت بعض هذه القبائل إلى مشاركة قريش في صراعها ضد محمد، إذ كانت ترى في قريش إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون[1].

ويبدو أن عداء القبائل للإسلام لم يكن عاماً وشاملاً فإن بعض الأفراد المستنيرين من هذه القبائل قد رأى في الإسلام دين العقل والفطرة، فثار على النظام التقليدي للقبيلة وهجر عبادة الأوثان والأصنام، ثم حزم رأيه على تلبية نداء الإسلام، فسارع إلى الهجرة والوفادة على النبي، مخالفاً بذلك تقاليد القبيلة وعاداها.

وقد شارك الشعر في تصوير هذه الوفادة الفردية، وسجل عواطف الشعراء الوافدين، فاتجه في أكثره إلى النعي على عبادة الأصنام، والحملة العنيفة على دين الشرك، من ذلك ما روى ابن سعد في الطبقات أن رجلاً من بني **أنس الله بن سعد** العشيرة – اسمه ذباب - قد وثب إلى صنم لقبيلته يقال له **فراض**، فحطمه، ثم وفد إلى النبي مسلماً. وقال[2]:

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى	وخلفت فراضاً بدار هوان
شددت عليه شدة فتركته	كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
فلما رأيت الله أظهر دينه	أجبت رسول الله حين دعاني
فأصبحت للإسلام ما عشت ناصراً	وألقيت فيها كلكلي وجراني
فمن مبلغ سعد العشيرة أنني	شريت الذي يبقى بآخر فان

وهذا عبد **عمرو بن جبلة الكلبي** يستجيب للرسول فيترك الخمر ويهجر الأصنام، ثم يفد إلى المدينة مسلماً ويلخص حادث إسلامه بقوله[3]:

أجبت رسول الله إذ جاء بالهدى	وأصبحت بعد الجحد بالله أوجرا

---

[1] السيرة/ ق٢/ ٥١٠.

[2] الطبقات الكبرى/ ١/ ٣٤٢.

[3] الطبقات الكبرى/١/ ٣٣٤، الإصابة/٤/ ١٨٩.

وودعت لذات القداح وقد أرى　　بها سدكا عمري وللهـــو أصورا
وآمنت بالله العلي مكـــانــه　　وأصبحت للأصنام ما عشت منكراً

أما **خزاعة بن عثمان بن عبد نهم المزني** فكان يحجب صنماً لقبيلته يقال له "**نهم**" فلما هاجر النبي – عليه السلام - إلى المدينة عمد خزاعة إلى الصنم فَكَسَرَهُ ولحق بالنبي في عشرة من قومـــه منـــهم **النعمان بن قرن**، فبايعه على مزينة وقال في ذلك[1]:

ذهبت إلـــى نُهـــم لأذبـــح عنده　　عتيرة نسك كالتي كنت أفعل
وقلت لنفسي حين راجعت حزمها　　أهـــذا إله أبكم ليس يعقل
أبيت فديني اليـــوم ديـــن محمد　　إله السماء الماجـــد المتفضل

ومما يلاحظ على هذا الشعر أنه متشابه في روحه وأسلوبه ومعانيه، مما يوحي بأن الاختلاق قـــد لعب دوراً واضحاً فيه أو في معظمه، إذ أصبحت القبائل –بعد إسلامها - تَعُدُّ الوفادة على الـــنبي مفخرة من المفاخر. ونظن أن ذلك قد دفعها إلى اختلاق الشعر ووضعه على أول من أسلم مـــن أبنائها، لتظهر مكانها من الرسول ودعوته ولتسجل سبق أبنائها إلى الدين الجديد والاستجابة لأمره، يدل على ذلك أن هذا الشعر يفيض بالأفكار الإسلامية، ويَمْتليء بالمشاعر المؤيدة للرسول، مع أن قائليه كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم تسنح لهم ظروفهم السياسية أن يجتمعوا بالرسول – صـــلى الله عليه وسلم - ويسمعوا منه ويعوا مفاهيم دعوته.

على أن انتصار الإسلام الساحق على قريش حمل بعض القبائل على إعادة النظـــر في مواقفهـــا وبخاصة عندما رأت أن الإسلام قد دوخ قريشاً فاضطرت راغمة إلى توقيع صلح الحديبيـــة مـــع الرسول، ذلك الصلح الذي يعتبر اعترافاً صريحاً بالكيان السياسي للدولة الإسلامية. ولعل هـــذا الموقف من قريش هو الذي دفع بعض القبائل إلى الوفادة على المدينـــة وإعـــلان إســـلامها، بـــل ومشاركتها في الصراع إلى جانب الرسول.

وكانت بنو سليم أول هذه القبائل الوافدة، حيث وفد **قيس بن نشبة السلمي** - وكان قرأ الكتب ونظر فيها – على النبي فأسلم وقال للنبي: ما أمرت إلا بحسن، وما نهيت إلا عن قبيح. وكان النبي يسميه حبر بني سليم. ورأى قيس أن يسجل قصة إسلامه ولقائه للرسول فقال[2]:

تابعت دين محمـــد ورضيته　　كـــل الرضـــا لأمانتي ولديني

---

[1] الإصابة/٢/١١٠.

[2] الإصابة/٢/٢٦٦.

ذاك امرؤٌ نازعته قول العدا | وعقدت فيـــه يمينـــه بيميني
قد كنت آمله وأنظر دهره | فالله قـــدر أنــــــه يهديني
أعني ابن آمنة الأمين ومن به | أرجو السلامة من عذاب الهون

ثم وفد **قدد بن عمار بن مالك السلمي**[1] بعد ذلك وعاهد الرسول على أن يأتيه بألف مقاتـــل مـــن سليم للمشاركة في فتح مكة، وصور قدد ذلك العهد بقوله[2]:

عقدت يميني إذ أتيت محمداً | لخير يدٍ شدت بحجزة مئزر
وذاك امرؤٌ قاسمته نصف دينه | فأعطيته كف امريءٍ غير معسر
وإن امرءاً فارقته عند يثرب | لخير نصيح مـــن معد وحمير

ولما أطل العام التاسع للهجرة، عرفت العرب أن لا طاقة لهم بحـــرب الرســـول ولا عداوتـــه، وخاصة بعد أن دانت قريش – حاملة لواء هذا العداء - وأعلنت ولاءها للرسول ودعوته، فسارع العرب إلى الدخول في دين الله أفواجاً يضربون إليه من كل وجه. وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: " **إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً**".

على أن هذه القبائل لم تكن كلها على موقف واحد من الإسلام فمنها مـــن جـــاءت مـــسلمة طائعة، ترى في الإسلام ديناً صحيحاً، وترى في محمد نبي هذه الأمة، فأعلنت له الولاء والطاعـــة، ومنها من رأت في نفسها قوة وعزة، وغرها ماضيها الحافل بالسيادة والشرف، فأقبلت على الـــنبي تفاخره بأحسابها أو تعاديه، وتطمع في أن تجد لديه الحظوة والإيثار أو أن تخلفه في أمر العرب. وقد لاحظنا أن مواقف هذه القبائل الوافدة تكاد تنحصر في ثلاثة:

قبائل مناظرة طامعة وقبائل معادية وأخرى مسلمة طائعة:

وقد حرص كل وفد من هذه الوفود أن يصطحب شاعره أو شعراءه، إما لتقديم الولاء والتعـــبير عن صادق الإخلاص وإما للمفاخرة والمناظرة. وهكذا أصبح الشعر وسيلة مـــن وســـائل مـــدح الرسول وكسب وده واسْتِرْضَائِهِ بعد أن كان سلاحاً حاداً من أسلحة التأليب عليه والتحـــريض على حربه.

وكانت قبيلة تميم إحدى هذه القبائل الوافدة حيث وفد **عطارد بن حاجب التميمي** ووفد معه رجال من أشراف قومه منهم الزبرقان بن بدر الشاعر في وفد عظيم من تميم. وأخبار وفادة تميم تقول بأنهـــا

---

[1] قال ابن سعد: هو قِدْرٌ، الطبقات الكبرى/١/٣٠٨.
[2] الإصابة/٥/٢٣٤.

جاءت رسول الله تفاخره بالزعامة والسيادة وتناظره بالشرف والسؤدد. فما كاد الوفد يدخل مسجد رسول الله حتى علت أصواهم، وأخذوا ينادون الرسول الكريم من وراء حجراته يسألونه أن يخرج إليهم. وضج القرآن من هذا الأسلوب البدوي الخشن فقال فيهم[1]: " **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**"، وتأذى رسول الله من صياحهم، ولكنه طالما تحمل الأذى والعدوان في سبيل هذا الدين.

وخرج إليهم الرسول الكريم، فقالوا: "**يا محمد إنما جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا**". وأذن رسول الله لخطيبهم فانطلق مطارد بن حاجب يشيد بأحساب تميم ويفخر بمكانتهم بين العرب، ورد عليه ثابت ابن قيس بن شماس الأنصاري فأحسن، ثم قام الزبرقان بن بدر يقول[2]:

نحن الكرام فلا حـي يعادلنا	منا الملوك وفينا تنصب البيع[3]
ثم ترى الناس تأتينا سراقم	من كل أرض هوياً ثم نصطنع[4]
فننحر الكوم عبطاً في أرومتنا	للنازلين إذا مـا أنزلوا شبعوا[5]
إنا أبينا ولن يأبى لنا أحد	إنا كذلك عند الفخر نرتفـع
فمن يقادرنا في ذاك يعرفنا	فيرجع القول والأخبار تستمع

وفرغ الزبرقان بن بدر من فخره، فندب رسول الله حساناً للرد عليه فلما فرغ قال الزبرقان: وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواقم أحلى من أصواتنا". ولعل هذا هو الذي شجعهم على اعتناق الإسلام، فأسلموا وبايعوا الرسول الكريم على الطاعة فجوزهم وأحسن إليهم.

وفي السنة العاشرة للهجرة وفد **الجارود بن عمرو بن المعلى**[6] في وفد عبد القيس، وكان الجارود هذا سيد قومه ويدين بالنصرانية. ولما رآه الرسول الكريم عرض عليه الإسلام ورغبه فيه. ويبدو أن الجارود كان حريصاً على التدين والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى. ولعل هذا الحرص هو الذي

---

[1] سورة الحجرات/٤.

[2] السيرة/ ق٢/٥٦٣، تاريخ الطبري/٣/١١٧، إمتاع الأسماع/١/٤٣٦ -٤٣٧.

[3] البيع: مواضع الصلوات والعبادات، واحدها بيعة.

[4] هويّاً: سراعاً.

[5] الكوم: جمع كوماء، وهي العظيمة السنام من النوق، وعبطاً: أي عن غير علة. وفي أرومتنا: أي أن هذا الكرم متأصل فينا.

[6] في اسمه خلاف – انظر أسد الغابة/١/٣١١.

دفعه إلى أن يقول للرسول: **يا محمد إني قد كنت على دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟ فقال له النبي الكريم: " نعم" أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه.**

وأسلم الجارود وشهد بأن الله حق، أسلم معه وفد عبد القيس ثم مضى يسجل قصة إسلامه بقوله[1]:

شهدت بأن الله حق وسامحت	بنات فؤادي بالشهادة والنهض
فأبلغ رسول الله عني رسالة	بأني حنيف حيث كنت من الأرض
فإن لم تكن داري بيثرب فيكم	فإني لكم عند الإقامة والخفض
وأجعل نفسي دون كل ملمة	لكم جنة من دون عرضكم عرضي[2]

وفود مقاتلة:

ولئن جاءت وفود مفاخرة مناظرة، فإن هنالك وفوداً أخرى قد جاءت مهددة بالقتال. فهذا عامر بن الطفيل يجمع رجالا من بني عامر بن صعصعة فيهم: **أربد بن قيس وحيان بن سلمى** - وكان عامر وصاحباه من رؤوس القوم وشياطينهم - ثم يفد بهم على الرسول الكريم.

ودعاهم رسول الله إلى الدين الجديد، وبسط لهم مفاهيمه السمحة، غير أن عامراً لم يكن يرغب في شيء من هذا، وإنما كان يترع إلى السلطة والسيادة، وينشد عرض الدنيا ومتاعها، فلم يرق له الإسلام ولم تعجبه أفكاره بل تآمر مع أربد على الرسول الكريم وحاولا الغدر به، وحين فشل في مسعاه تصدى لرسول الله وقال: **تجعل لي نصف ثمار المدينة وتجعلني ولي الأمر من بعدك، وأسلم.**

وعرف النبي الكريم أنه يتطلع إلى المكاسب الدنيوية، ورأى فيه خطراً على دولته فدعا عليه بقوله:" أللهم اكفني عامراً واهد بني عامر" فانصرف عامر وهو يتهدد الرسول بقوله:"لأملأنّها عليك خيلاً جرداً، ورجالاً مرداً ولأربطن بكل نخلة فرساً"[3].

ولما خرج الوفد من المدينة قال عامر لأربد: ويلك أين ما كنت أوصيتك به؟ **والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً، قال أربد: لا تعجل لا أبالك،**

---

[1] الاستيعاب/١/٢٦٣، الإصابة/١/٢٢٦.

[2] جُنّةٌ: وقاية.

[3] الشعر والشعراء/١/٣٣٥.

والله ما هممت بالذي أمرتني به من مرة إلا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف؟ فقال عامر[1]:

بعث الرسول بما ترى فكأنما	عَبْدٌ أشد على المقانب غارا
ولقد وردن بنا المدينة سُرياً	ولقد قتلن بجوها الأنصارا

وطعن عامر وهو راجع إلى قومه فمات وهو يقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية[2].

وفود مسلمة:

وتحول الموقف السياسي إلى جانب الرسول، فالقبائل التي كانت تقف في سبيل دعوته أو تتجاهل أمر هذه الدعوة في أول الأمر، أصبحت تشد الرحال إليه، تعلن تأييدها له وتبايعه على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وتخضع لسيادة دينه، تنشد الأشعار في مديحه.

ولم تكن وفادات العرب من القبائل الحجازية فحسب، بل وكانت من القبائل اليمنية أيضاً، فهذا **زيد الخيل** سيد طيىء يفد على رسول الله في وفد من قومه وفيهم: **وزربن جابر النبهاني** –قاتل عنترة - **وقبيصة بن الأسود** من جرم طيىء **ومالك بن عبد الله** من بني معن وغيرهم، فدخلوا المدينة ورسول الله – صلى الله عليه وسلم - في المسجد، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا، فقال رسول الله: ((**ما وصف لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لي إلا ما كان من زيد الخيل فإنه لم يبغ كل ما كان فيه**))[3].

ثم وفد **مازن بن الغضوبة الطائي** فأسلم وحسن إسلامه، وحفظ شطر القرآن وحج، فقال يذكر رحلته إلى الرسول الكريم، ويسجل أمر إسلامه ويستعرض ماضيه الحافل في جاهليته[4]:

إليك رسول الله خبت مطيتي	تجوب الفيافي من عُمان على العرج
لتشفع لي يا خير من وطئ الحصى	فيغفر لي ربي فأرجع بالفلج[5]
إلى معشر جانبت في الله دينهم	فلا دينهم ديني ولا شرجهم شرجي[6]
وكنت امرءاً باللهو والخمر مولعاً	شبابي إلى أن أذن الجسم بالنهج

---

1 الأغاني/١٥/١٣٧.

2 الشعر والشعراء/١/٣٣٥.

3 نهاية الأرب/١٨/٧٦.

4 الاستيعاب/٣/١٣٤٤، الإصابة/٦/١٦.

5 الفلج: الظّفَر، يقال: فلج بحاجته: إذا ظفر بها.

6 شرجي: فرقتي، يقال: أصبحوا في هذا الأمر شرجين.

فأصبحت همي فـــي الجهاد ونيتي فلله مـــا صومـــي ولله مـــا حجي

أما **فروة بن مسيك المرادي**، فقد فارق ملوك كندة وباعد لهم إلى النبي الكـــريم، ثم قـــدم مدينـــة الرسول – صلى الله عليه وسلم - وفي نفسه ميل إلى الدين الجديد، فما أن عرض الرسول عليـــه الإسلام حتى قبله وبايع رسول الله على الطاعة ثم اندفع يقول[1]:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت كالرجل خان الرجل عرق نسائها[2]

قربت راحلتي أؤم محـــمـــداً أرجـــو فواضلها وحسن ثرائها

وكان الرسول الكريم قد لمس فيه الإخلاص للدعوة الإسلامية فاستعمله علـــى مـــراد وزبيـــد ومذحج كلها، وبعث معه **خالد بن سعيد بن العاص** على الصدقة، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله[3].

ولم تسلم كل مراد، فقد امتنع بعض سادتهم وأصحاب الرأي فيهم عن قبول الـــدين الجديـــد، بـــل وخاصموا من خالفهم في ذلك وهددوه من هؤلاء: قيس بن مكشوح المرادي، روى الطبري قال " قـــال **عمرو بن معد يكرب لقيس بن مكشوح المرادي** حين انتهى إليهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا قيس إنك سيد قومك اليوم، وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول: إني نبي فـــانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبياً كما يقول فإنه لا يخفى عليك إذا لقيناه اتبعناه وإن كان غير ذلـــك علمنا علمه، فأبى عليه ذلك قيس بن مكشوح وسفه رأيه، فركب عمرو بن معد يكرب في وفد من زبيـــد وانطلق حتى قدم على رسول الله فصدقة وآمن به، فلما بلغ ذلك قيساً أوعد عمراً وتحفظ عليـــه وقـــال: خالفني وترك رأيي[4].

وبلغ التهديد عمراً فاسْتَخَفَّ به، ومضى يبين صواب رأيه وينعى على قـــيس إعراضـــه عـــن الإسلام فقال[5]:

أمرتك يـــــوم ذي صنعا أمـــــراً بادياً رشده

أمرتك باتقـــــاء اللـــــــ ـــه والمعروف تتعده

خرجت من المنى مثل الحمير غـــــره وتـــــده

---

[1] الأغاني/١٤/٢٦، خزانة الأدب/٢/١٢٣.

[2] النسا: عرق مستبطن في الفخذ، وهو مقصور ومُدّ –هنا - للشعر.

[3] السيرة/ ق٢/٥٨٣.

[4] تاريخ الطبري/٣/١٣٢.

[5] السيرة/ ق٢/٥٨٣، تاريخ الطبري/٣/١٣٣، الأغاني/١٤/٢٦.

تمنانـــي علـــى فرس عليـه جالساً أسده

وجعل يتهدد قيساً ويعرض به ويستهين بأمره، ثم نزع إلى الفخر بنفسه والإشادة بقوته فقال[١]:

فلـو لاقيتني للقيت ليثاً فوقـه لبده[٢]

يسامي القرن إن قرن تيممـه فيعتضده[٣]

فيأخـذه فيرفعـه فيخفضه فيقتصده[٤]

ومهما يكن من أمر قيس، فإن المدينة قد أصبحت قبلة أنظار العرب، ومحط رحالهم أجمعين، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. وكان وفد ملوك كندة من هذه الأفواج الداخلة، فقد قدم **الأشعث بن قيس** في ثمانين راكباً من كندة، فدخلوا على رسول الله مسجده وقد رَجَّلُوا جُمَعَهُمْ[٥] وتَكَحَّلُوا وعليهم جُبَبُ الحِبَرةِ وقد كفَّفوها بالحرير[٦]، فلما دخلوا على رسول الله قال: ألم تسلموا؟ قالوا: بلى قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ فشقوه منها فألقوه[٧] فقال **الجفشيش وهو معدان بن الأسود الكندي** يصف هذه الوفادة[٨].

جادت بنا العيس من أعراب ذي يمن تغور غوراً بنا مـن بعد إنجـاد[٩]

حتى أنخنا بجنب النصب مـن قللٍ إلى الرسول الأمين الصادق الهادي

ثم قدم وفد همدان ومنهم: مالك بن نمط وأبو ثور وهو ذو المشعار ومالك بن أيفع وضمام بن مالك السلماني وعميرة بن مالك الخارفي فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك وعليهم مقطعات الحبرات[١٠] والعمائم العدنية برحال الميس[١١] على المهرية[١] والأرحبية[٢] وراجزهم يقول[٣]:

---

[1] تاريخ الطبري/٣/١٣٣، نهاية الأرب/١٨/٨٧.

[2] اللبد: جمع لبدة، وهي ما على كتفيْ الأسد ورأسه من الشعر.

[3] يعتضده: يأخذه تحت عضده ليصرعه.

[4] يقتصده: يقتله.

[5] رجلوا: سرحوا ومشطوا. الجُمَمُ: جمع جُمَّةٍ وهي مجتمع شعر الناصية الذي يصل إلى المنكبين.

[6] كففوها: جعلوا سجفاً من الحرير.

[7] تاريخ الطبري/٣/١٣٩، السيرة/ ق٢/٥٨٥.

[8] الإصابة/١/٢٥١.

[9] العيس: الإبل.

[10] مقطعات: ثياب مخيطة. والحبرات: برود يمنية.

[11] الميس: خشب تصنع منه الرحال التي تكون على ظهور الإبل.

إليك جاوزن سواد الريف في هبوات الصيف والخريف[٤]

مخطمات بحبال الليف[٥]

وعندما قابلوا رسول الله قام **مالك بن نمط** بين يديه فقال: **يا رسول الله نصية[٦] من همدان من كل حاضر وباد أتوك على قلص نواج[٧] متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم من مخلاف[٨] حارف ويامٍ وشاكر[٩] أهل السود والقود[١٠] أجابوا دعوة الرسول وفارقوا الإلهات الأنصاب[١١] عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع[١٢] وما جرى اليعفور بصلع[١٣]**.

وكتب لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - كتاباً أقرهم فيه على أرضهم ومالهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فقال مالك بن نمط يذكر رحلتهم إلى مدينة الرسول ويشيد بالنبي وكرمه[١٤]:

ذكرت رسول الله في فحمة الدجى ونحن بأعلى رحرحان وصلدد[١٥]

وهن بنا خوص طلائح تغتدي بركبانها في لاحب متمدد[١٦]

---

[1] المهرية: الإبل النجيبة تنسب إلى مهرة قبيلة باليمن.

[2] الأرحبية: إبل تنسب إلى أرحب وهم قبيلة من همدان أو فحل أو مكان تنسب إليه النجائب.

[3] السيرة/ ق٢/٥٩٧.

[4] السواد (هنا) القرى الكثيرة الشجر والنخل. والريف: الأرض التي تقرب من الأنهار والمياه الغزيرة والهبوات: جمع هبوة وهي الغبرة.

[5] مخطمات: جعل لها خطم وهي الحبال التي تُشَدُّ في رؤوس الإبل على آنافها.

[6] النصية: خيار القوم.

[7] القلص: الإبل الفتية الواحد: قلوص، ونواج: مسرعة.

[8] المخلاف: المدينة بلغة اليمن.

[9] خارف وبام وشاكر: قبائل من اليمن.

[10] السود: الإبل. والقود: الخيل.

[11] الأنصاب: حجارة كانوا يذبحون لها.

[12] لعلع: جبل.

[13] اليعفور: ولد الظبية. وصلع: اسم موضع.

[14] السيرة/ ق٢/٥٩٨، معجم ما استعجم/٣/٨٤٨.

[15] الفحمة: السواد. والدجى: جمع دجية وهي الظلمة، ورحرحان وصلدد: موضعان.

[16] الخوص: الغائر العيون الواحدة خوصاء. وطلائح: معيبة، وتغتدي: تشتد في سيرها، واللاحب: الطريق البين.

حلفت برب الراقصات إلى منى صوادر بالركبان من هضب قردد[1]

بأن رسول الله فينا مصدق رسول أتى من عند ذي العرش مهتدي

فما حملت من ناقة فوق رحلها أشد على أعدائه من محمد

وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه وأمضى بحد المشرفي المهند

وكان النبي الكريم يحتفي بالوفود فيكرمهم ويتألفهم ويثني عليهم وقد يولي بعض زعمائهم.

فهذا **قرة بن هبيرة بن سلمة القشيري** يفد على رسول الله فيقول: يا رسول الله إنه كان لنا ربات وأرباب نعبدهن من دون الله فبعثك الله، فدعوناهن فلم يجبن، وسألناهن فلم يعطين وجئناك فهدانا الله بك. ويقول له الرسول الكريم: "**أفلح من رزق لُبّاً**"، ثم أعطى قرة وكساه برداً وولاه صدقة قومه، فانطلق قرة يصف هذا العطاء فقال[2]:

حباها رسول الله إذ نزلت به وأمسكتها من نائل غير منفذ

فأضحت بروض الخضر وهي حثيثة وقد أنجحت حاجاتها من محمد

عليها فتى لا يردف الذم رحلة تروك لأمر العاجز المتردد

أما بعد،

فهذا عرض لبعض شعر الوفود التي قدمت على رسول الله، وهو عرض يكاد يعطي صورة واضحة - فيما نظن - لملامح هذا الشعر وأغراضه واتجاهاته، كما يعطي صورة عن أفكار العرب ومشاعرهم تجاه الدين الجديد المنتصر، وتجاه النبي الكريم حامل لواء هذا الدين.

على أننا نظن أن شعر الوفود بعامة الذي حفظته لنا المصادر التي عنيت بروايته لا يخلو من بعض الوضع والافتعال لسبب بسيط، هو أن الوفادة على رسول الله وصحبته أو مجرد رؤيته أصبحت مفخرة من مفاخر القبائل الوافدة، فليس يبعد –والحالة هذه - أن تلجأ بعض القبائل إلى خلق الظروف المناسبة لافتعال القصص، ووضع الأشعار لتضيف إلى مفاخرها ومحامدها محمدة السبق إلى الإسلام وشرف صحبة الرسول الكريم ومدحه. ولعل قصة إسلام **سواد بن قارب**

---

[1] الراقصات: الإبل، والرقص والرقصان: ضرب من السير فيه حركة وصوادر: رواجع والقردد: ما ارتفع من الأرض.

[2] الطبقات الكبرى/١/٣٠٣.

السدوسي[١] وقصة إسلام **خطر بن مالك اللهبي**[٢]، والأشعار التي وردت في هاتين القصتين على لسان الجن وغير الجن أقوى شاهد على هذا الوضع والاختلاق.

ونظن أن شعر الوفود كان كثيراً، فما من وفد قدم على الرسول الكريم إلا ومعه شاعره أو شُعَرَاؤُه ُليقف أو يقفوا بين يدي رسول الله مادحين أو سائلين، وذلك على عادة العرب في وفادهم على الملوك والأمراء في جاهليتهم. وإذا عرفنا أن عدد الوفود التي قدمت مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم - قد زاد على سبعين وفداً[٣]، حكمنا بغزارة هذا الشعر وكثرته. ناهيك عن ذلك الشعر القبلي الذي يحمل الصبغة الفردية في الوفادة، إذ وفد بعض أبناء هذه القبائل على رسول الله في أثناء فترة الصراع مع مكة ثائرين على عبادة الأصنام، وكان بعض هؤلاء يعبر عن ذلك بقول الشعر بين يدي رسول الله.

ويلاحظ على شعر الوفود أنه مقطوعات قصيرة[٤]، تتناسب ذلك الموقف الذي كانت تقفه الوفود من الرسول الكريم، إذ كان جل هم شارع الوفد أن يلخص سياسة قومه في أبيات قليلة يعلن فيها إسلامهم، ويمدح بها رسول الله ويقدم له الطاعة بعد ذلك. وهذا فيما نرى –لا يحتاج على ذلك النفس الطويل الذي نراه في الشعر الجاهلي لأن الشاعر حينذاك كان يحفل بالمقدمات وذكر الناقة، وتضمين تجاربه ومعاناته، وذكر حبه وغرامه إلى غير ذلك من معان. وأهم من هذا كله أنه كان يملك حرية القول فينطلق على سجيته، يسجل في شعره إحساساته ومشاعره.

وقد لمعت في هذا المجال أسماء شعراء كثيرين[٥]، لم ترتفع أصواتهم خلال فترة الصراع بين المدينة ومكة، وبين المدينة والقبائل العربية الأخرى، ولم نجد سبباً يحملهم على التخفف من المشاركة في أحداث الصراع، سوى بُعْدِ قبائهم عن موطن الصراع. ونظن أن هذا البعد هو الذي جعلهم يلتزمون الصمت، فهم لم يجدوا الدوافع للقول، إذ لم يكن بينهم وبين الإسلام ثائرة.

---

[1] الاستيعاب/٢/٦٧٤ -٦٧٥، الإصابة/٣/١٤٩، أسد الغابة/٢/٤٨٥.

[2] نفسه/٣/١٣٤١ -١٣٤٢، نفسه/٦/١٠.

[3] الطبقات الكبرى/١/٢٩١ -٣٥٩.

[4] الاستيعاب/١/١٤٣ -٢/٥٥٩، ٥٦١، ٧٧٨، ٧٤٧، ٦٤٣، الإصابة/١/٢٥١، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٩٦ -٢/٢٤٤ -٤/١٨٩، ١٢٥، ١٠٥، ٢٦٩.

[5] أسد الغابة ١/١٢٠، ٩٦، ١٨٩، ١٧٩ -٢/٣١، ١٧٩، ١٧٩، ٤٢٦، ٥٠٨، نهاية الأرب/١٨/١٨، ٢٣، ٢٥، ٢٩، ٩١، ١٢١، ١٤٦.

ونهج شعر الوفود نهجاً جاهلياً، إن في شكله أو في مضمونه، كما رأينا في شعر **الزبرقان بن بدر التميمي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ومالك بن نمط الهمداني وغيرهم.** وقد ضاقت معاني هذا الشعر حتى انحصرت في الفخر والمديح ووصف الرحلة وتقديم الطاعة، وتلاشى شعر الحماسة والرثاء،ولعل سبب ذلك أنهما ينهضان في ظل الحرب والغزو وكثرة القتلى، والقبائل إنما قدمت مدينة الرسول لتضع حداً لسياسة الحرب، ولتعلن انصرافها عن القتال، وذلك بطلب العفو وتقديم الطاعة واعتناق الإسلام.

وثمة شيء آخر يشد النظر في شعر الوفود، وهو خلو هذا الشعر خلواً تاماً من معاني العداء للإسلام أو حتى التلميح بذلك، بل هو على العكس من ذلك اتَّجه إلى التعريض بالأصنام وتسفيهها والنعي على عبادتها وإعلان التبرؤ منها.

ونظن أن سبب ذلك يرجع إلى انتصار الدين الجديد على خصومه جميعاً، وضعف القبائل عن الوقوف في وجهه منفردة للدفاع عن معتقداتها وأفكارها، الأمر الذي حمل هذه القبائل على تقديم الطاعة والولاء.

وشاعت المعاني الإسلامية في شعر الوفود فنهج الشعراء الوافدون إلى الإشادة والفخر والاعتزاز بالاستجابة له وباعتناقه، غير أن أثر الإسلام في الشعراء يقل كلما ابتعد موطن قبائلهم عن المدينة حاضرة الدولة ومركز نفوذها حتى يكاد يتلاشى في شعر القبائل اليمنية إلا نادراً، ولعل تأثير الإسلام الضئيل في هذه القبائل هو الذي جعلها أول العرب ارتداداً عن الإسلام بعد موت الرسول الكريم.

وبعد أن وقفنا على شعر القبائل ودوره في الصراع نتيجة إلى دراسة الملامح الأدبية العامة لشعر الصراع حتى نتبين قيمته الفنية، ونعرف مكانته بين الشعر العربي على مر العصور.

الفصل السادس
الملامح الأدبية في شعر الصراع

أصول شعر الصراع ومقوماته وطوابعه:

لا ريب أن النمو الأدبي والفكري في أمة من الأمم يمتد ويسمو إلى الـدرجات الرفيعـة مـع امتداد، النمو السياسي وازدياد الرقي إلى ذرى المجد بقوة السيف، كما نراه يسقط شـيئاً فـشيئاً ويتدهور تدريجياً كلما تدهورت القوة المادية في تلك الأمة وضعف سلطانها[1].

وقد ارتبطت الحياة الأدبية للعرب بحياتهم السياسية، بل وخضعت لمؤثراتها، سواء في العصرين: الجاهلي والإسلامي أم في غيرهما من العصور الأخرى، فتاريخ القبائل العربية في الجاهليـة حافـل بالأيام والغزوات والإغارة والسلب والنهب حتى صار ذلك ظاهرة طبيعيـة ومألوفـة في الحيـاة الجاهلية بصفة عامة. وقد شملت هذه العلاقات العدائية قبائل العرب جميعها، العزيزة منها والذليلة، والقوية منها والضعيفة، ومنها ما كان بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية، ومنها ما كان بـين قبائل ربيعة، ومنها ما كان بين قبائل مضر، ومنها ما كان بين غيرهما من القبائل.

وحرب البسوس من أقدم هذه الأيام وأشهرها، وقد دارت معاركها في ربيعة بين بكر وتغلـب – وكلاهما على النصرانية - ابني وائل في الشمال الشرقي من بلاد العرب في نهاية القرن الخـامس الميلادي. وأحَّجَ الشعراء أوراها بشعرهم وتحريضهم **ولمهلهل بن ربيعة والحارث بن عباد البكري وجليلة بنت مرة زوج** كليب وأخت حساس، شعر جميل في هذه الحرب التي انتهت سنة خمـس وعـشرين وخمسمائة للميلاد[2].

ولا يقل عنها شهرة حرب **داحس والغبراء** في مضر بين عبس وذبيان مـن غطفـان في وسـط الجزيرة، كانت في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، وكان للشعراء فيها أثر بارز، ومـن أولئك الشعراء: **قيس بن زهير العبسي وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد الشاعر الفارس**[3].

ومنها أيام الفجار –وهي أربعة - وفيها كانت قريش ومن معها من كنانة على هوازن، وسميت بذلك لوقوعها في الأشهر التي يحرم فيها القتال. وقد شهد النبي – عليه السلام - وهو فتى إحدى هذه الأيام وكان ينبل على أعمامه[4].

---

[1] تاريخ اليهود في بلاد العرب/٧١.

[2] حتى: تاريخ العرب/١٠٦.

[3] نفسه/١٠٧.

[4] نهاية الأرب/١٥/٤٢٣ -٤٢٨.

ومنها أيضاً أيام الأوس والخزرج سكان يثرب، وكان آخرها يوم بعاث التي وقعت قبل الهجرة ببضع سنين[1]، وشارك فيها الشعراء مشاركة فعالة **كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة من الخزرج وقيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت من الأوس**.

والأسباب الدافعة لتلك الأيام كثيرة ومتعددة، تساير طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كان يحياها المجتمع الجاهلي، ومن تلك الأسباب الطمع والرغبة في السلب والنهب والسبي، ومنها الغضب للكرامة والشرف والوشايات والعوامل السياسية، ومنها الملاحاة والمراء الذي يوغر الصدور ويثير الحفاظ، أو حماية الجار أو الملاحاة والمفاخرة، ومنها الثأر والانتقام. وقد يكون السبب هو الغربة في التسلط وفرض السيادة، ورفع الضيم والتشبث بالحرية إلى غير ذلك من أسباب[2].

ومن الطبيعي أن ينشأ فن الحماسة دعوة إلى القتال في سبيل العيش والكرامة من جانب كل قبيلة، وأن يتبع النصر أو الهزيمة فخر أو وعيد وتهديد بالانتقام، أو حفز للأخذ بالثأر أو تسجيل الانتصار. وذلك يستتبع هجاء العدو ونشر مخازيه وذكر جبنه وفراره أو خضوعه وأسره، ثم يكون بكاء القتلى والعزم على الثأر لهم وبذلك تتجاوب أرجاء الجزيرة بهذا الشعر الحربي الذي كان وقوداً لهذه النار، ومادة صالحة لزيادة اشتعالها واستمرارها[3].

وكانت الأنساب والأيام والوقائع والغزوات، هي المادة الدسمة التي تغذي الشعر وتؤجج ناره بين المقاتلين، فكان شعراء القبائل ينافرون ويفاخرون ويدعون إلى القتال وأخذ الثأر، أو إلى الصلح والسلام وحقن الدماء.

وهكذا كان الشعر حرباً أدبية حامية تساير الحروب المادية المستعرة بين القبائل، وقد تطور هذا الشعر الحربي وتنوعت فنونه، فاصطنع الفخر والحماسة والهجاء والرثاء والوصف وغيرها في سبيل التعبير عن المشاعر واستكشاف الأسباب والنتائج وتسجيل الانتصارات والهزائم لتلك الأيام والحروب. وكان هذا الصراع الشعري في أول الأمر بين القبائل المتصارعة على المكاسب المادية – كما بينا - ثم صار بين الإسلام والوثنية، ثم صار بين المسلمين أنفسهم بعد مقتل عثمان، ولم يكن هذا الشعر صورة أفراد، بل كان صورة قوى متنازعة على المصالح والحاجات.

---

[1] الكامل في التاريخ/١/٦٨٠.

[2] تاريخ النقائض في الشعر العربي/٦٨.

[3] الشعر والشعراء/١/٣٣.

وعندما جاء الإسلام أحدث هزة قوية في نفوس العرب وعقلياهم لأنه استهدف المفاخر والأحساب والعصبيات للقبائل العربية، فكانت الدعوة إليه والتمسك به وحمله إلى الناس سبباً جديداً ومباشراً للصراع، فقامت قريش ترد اعتبارها وتواجه التحدي وتسعى لرفع الضيم عنها، والدفاع عن تلك المكانة التي أحرزتها بين العرب في الجزيرة، فاشتد الصراع بين الفريقين، واتخذ شكل الاصطدام العسكري بعد الهجرة، واتسعت دائرة هذا الصدام حتى شملت اليهود وسائر القبائل في الجزيرة مما أفقد قريشاً صوابها وحلمها فهبت تدافع عن مآثرها بكل الإمكانات التي تملكها، وبذلك بدأت الأيام والغزوات الإسلامية كغزوة بدر وأحد والخندق وغيرها. وأخذت تشد أنظار القبائل العربية إليها وتدفعها إلى تحديد موقفها، واندفع الشعراء إلى المعركة وشاركوا في مجالاتها، قال ابن قتيبة[1]:

وللشعر دواع تحثُّ البطيء وتبعت المتكلف، منها الطمع ومنها الشوق ومنها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب".

وإذا كانت قد اندثرت دواع ودوافع لقول الشعر في ظل الإسلام، فقد نشطت وزهت دواع ودوافع غيرها، ذلك أن كثيراً من موروثات الفن الجاهلي قد بقيت في العهد الجديد على الرغم من نهي الإسلام عنها فبقي الشعر في كثرته جاهلياً. كما أن شعر الأهاجي والمناقضات بين الأوس والخزرج وبين غيرهما من القبائل العربية في الجاهلية قد تحول في ظل النظام الجديد إلى مناقضات بين المسلمين والمشركين، فهي وإن اختلفت في اتجاهاتها فقد ظلت محتفظة بأساليبها ونهجها، بل وبكثير من موضوعاتها كذلك.

هكذا نهض الشعر في ظل الثورة الإنسانية العارمة التي انْبَلجَ بها فجر الإسلام، وأخذ دوره في الصراع الذي نشب حيناً من الدهر بين النبي والمهاجرين والأنصار في جانب، وقريش واليهود وسائر العرب في الجانب الآخر.

مقومات طوابع جاهلية:

على أن شعر الصراع الذي لازم الدعوة الإسلامية ظل معتمداً على المثل الجاهلية ومتكئاً على قواعدها وامتداداً لنهجها فاعتمد على الأنساب والعصبية القبلية وحماية الجار والدفع إلى الثأر وذم الجبن، وكشف العورات والمثالب، ولكنه أضاف إلى ذلك بعض المفاهيم من الدين الجديد من تعيير

[1] الشعر والشعراء/١/٢٣.

بالشرك ومخالفةٍ لدين الله وعبادة للأوثان وتهديد بنار جهنم. ومَرَدَّ ولاء الشعراء للمثل الجاهلية أنهم عاشوا دهراً في ذلك العصر، وبدأوا فيه نشاطهم الفني فاستقامت أساليبهم وتم نضجها، وليس من السهل الانسلاخ عن المواهب الأصلية التي رسخت في النفوس، وتغير ملكات الشعر ومواهبه كتغير الطبائع والعادات لا يتم إلا على يد جيل جديد، لذلك فإنهم لم يستطيعوا في ظل النظام الجديد أن ينفلتوا مما درجوا عليه من نهج وأسلوب قديمين.

واختلف تأثر الشعراء الذين أدركهم الإسلام في معانيهم وفي أساليبهم بمفاهيمه لاختلاف بيئاتهم الشعرية وتبعاً لمبلغ اتصالهم بالإسلام وتأثرهم به ومدى خضوعهم لحوادثه وتغلغل روحه فيهم. وحاول بعضهم أن يفيد منه في معانية وأسلوبه فكان للأنصار في هجاء قريش مذهبان: **أحدهما** يوشك أن يكون جاهلياً ويمثله حسان **بن ثابت وكعب بن مالك والآخر إسلامي ويمثله عبد الله بن رواحة**، فقد روى أبو الفرج في الأغاني[1] أن حساناً وكعباً كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب وكان ابن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة.

وقد سبق القرآن إلى الرد على أعداء الإسلام – فتناول المشركين فأصلاهم ناراً حامية وصب عليهم سوط عذاب فأنذرهم وتهددهم وتوعدهم، وهجا الشعراء المشركين فجعلهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون، ووصف المنافقين بالكذب وندد بسوء أعمالهم وأنهم مرضى القلوب، وأن لهم عذاباً أليماً، فهم السفهاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. وهجا اليهود وجعل لهم الخزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ولعنهم بكذبهم وباءوا بغضب على غضب، وذكرهم بما كان منهم نحو الأنبياء والمرسلين، وأنذرهم بسوء المصير ورسم لهم صورة بارعةً عظيمة فقال[2] "**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنة الله وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل**)[3].

---

[1] الأغاني/١٤/٤.

[2] سورة المائدة/٦٠.

[3] مجموعة من الأدباء: فنون الأدب العربي/ الهجاء/ ٧٠-٧١.

وهكذا نهج القرآن في هجاء أعداء الله فلم يهددهم بغارة تسيل فيها الدماء وتسبى فيها النساء، ولم يخوفهم بشعر شرود يتحدث به الركبان، ويذيع في كل مكان، ولكنه ينذرهم نـاراً وسـعيراً وعذاباً أليماً وألواناً من النكال تنتظرهم حين ينقلبون إلى ربهم، ولا يعيرهم بالضعف والفقر وخمول الأحساب، ولكنه يعيرهم بالكفر والضلال وقصر النظر وانْطِمَاس البصيرة[1].

ومع هذا فلم يوفق شعراء الأنصار في تمثيل الدعوة على الوجه الأكمل، على الرغم من أنهـم كانوا أعمدة الشعر الإسلامي وألسن الدعوة، فشعرهم لم يرتفع إلى مستوى الحدث، فهو وإن كان قريب الصلة بالدين إلا أنه لم يوفق التوفيق الكامل المرتجى في إبراز وجه الدعوة الإسلامية وأفكـار الدين الحنيف إلا بقدر. ذلك لأن الشاعر في هذه الفترة كان يعبر عن حاجات الجاهلية التي نـشأ عليها وألفها واستجاب لها وصارت جزءً هاماً من تكوينه الفكري والخلقي والفـني، وحاجـات الإسلام الجديدة التي صارت جزءاً من حياة الشاعر وضرورة تمليها عليه أفكار الإسلام ومبـادئ الدين، وكان لا بد للشاعر أن يوفق بين الحاجتين فهو لن يستطيع أن ينزع عنه موروثات الجاهلية وآثارها —حتى لو أراد - ولذلك نجد أن الشعر في هذه الفترة يبدو —لأول وهلة -مقصراً عن تأدية المهمات التي أنيطت به، ولكن هذا الأمر في حقيقته طبيعي إذا ما نظر للظروف العامة التي تحـيط بالشاعر. وبناء على هذا نجد استمرار النفس الجاهلي في هذا الشعر وبخاصة في أول العهد بالدين، وإذا جاء المعنى الديني في القصيدة فيكون محصوراً في بيت أو أبيات ويأتي مقتضباً من غير عمق أو توسع، ولا استرسال أو تفصيل، فتذكر - غالباً - ألفاظاً دينية كالكافر والمسلم والفاجر والمـؤمن والضلال والهدى والنار والجنة، أو الذين نصروا الإله أو البر الحنيف.

ومع أن السور والآيات كانت تنزل في الأحداث، وفيها حث وتوجيـه، وفـرض الفـروض، ومخاطبة المشركين وتحريض المؤمنين، مع كل ذلك لم تكن إفادة الشعراء من المعـاني القرآنيـة إلا قليلاً[2].

أما شعراء قريش المشركين فحافظوا على الطابع الجاهلي شكلاً ومضموناً، وهذا أمر طبيعـي، فهم لم يقروا بالإسلام ولم يعترفوا بنبيه، بل ورأوا في الدين الجديد تهديداً لعقيدتهم الجاهلية، فقاموا يهاجمونه ويعرضون به، ويدافعون عن أحسابهم وأنسابهم ومكاسبهم، فـبرز في شـعرهم العـداء

---

[1] محمد محمد حسين (الهجاء والهجاؤون في الجاهلية)/ ١٧٦.

[2] يحيى الجبوري/ شعر المخضرمين/ ١١٧.

الشديد للنبي – عليه السلام - والمسلمين، وخاصة الأنصار الذين بايعوا النبي على حربهم كما برز فيه التعصب القبلي واضحاً، فالطابع الجاهلي هو أبرز ما يتميز به شعر مكة.

على أن هذا لا يعني أنهم لم يذكروا الإسلام ولم يتأثروا به، فإن طبيعة الصراع القائم قد دفعتهم إلى ذلك دفعاً، فاضطروا إلى معرفة مفاهيمه وأفكاره، وَتَبيُّنها ليتمكنوا من الردّ على دُعَاتِهِ وحامليه ولِيسْتطيعوا مهاجمته في أفكاره، وليُبيّنوا تمسكهم بالقيم الجاهلية لأنها مهددة، فأبو بكر بن شعوب الليثي -مثلاً - يهاجم العقيدة الإسلامية وينكر البعث والنشور عندما يقول[1]:

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام

وحافظ شعر القبائل على طابعه الجاهلين وحمل ما يحمل الشعر الجاهلي من خصائص وسمات، فلم يظهر تأثير الإسلام في أفكار الشعراء وعواطفهم وموضوع قريضهم كأن أحوالهم ما تغيرت منذ انتهاء عصر الجاهلية، فأهل البادية كانوا من أبعد الناس عن روح الإسلام، ولا ميل لهم إلى تأمل أمور الدين وفهمها، فصعب دخول الإيمان في قلوبهم، فلم يزالوا إلى أيامنا هذه موصوفين بقلة عواطفهم الدينية[2]، ونعى عليهم القرآن ذلك بقوله: " الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعملوا حدود ما أنزل الله على رسوله، والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم"[3]، "قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم"[4].

واتجه شعرهم إلى الإغراب على عادة الجاهليين فاختلف بذلك عن شعر القرى الذي يتسم بالليونة ورقة الحاشية، كما اختلف عنه بطول النفس الذي رأيناه في شعر كعب بن زهير والنابغة الجعدي والعباس بن مرداس، إلا أن شعر الوفود كان في معظمه مقطوعات قصيرة كما تبينا ذلك من قبل.

---

[1] السيرة/ ق٢/٢٩.

[2] نالينو: تاريخ الآداب العربية/ ١١٢.

[3] سورة التوبة/ ٩٧ -٩٨.

[4] سورة الحجرات/ ١٤.

وظل شعر القبائل معزولاً عن الحياة الإسلامية إلى حين، لأنه كان بعيداً عن أرض المعركة، فلم يساهم فيها إلا بقدر، على نحو ما شاهدنا من نشاط شعراء اليهود، بخلاف شعر القريتين الذي دار حول النقائض التي فرضتها ظروف الصراع المباشر بين الفريقين.

وكان مجال شعر القبائل يوم الفتح وما بعدها كحنين والطائف، وكذلك في عام الوفود، وعلى الرغم من أنه قيل في انتصارات الإسلام وتقديم الولاء والطاعة للنبي – عليه السلام -، إلا أنه نهج إلى الفخر والتغني بالبطولات الفردية والقبلية، ولم يلتفت إلى جماعة المسلمين إلا لماماً، ويمثل هذه النزعة أوضح تمثيل **العباس بن مرداس السلمي**، فشعره في حنين – على كثرته أكثره فخر بقبيلته.

وكان **الحطيئة** أقل شعراء القبائل تأثراً بالإسلام واحتفالاً بدعوته، وأكثرهم تمسكاً بالطابع الجاهلي في أغراضه، ومعانيه وأساليبه وألفاظه، ومرد ذلك إلى أنه كان بعيداً عن مجرى الأحداث حتى بعد إسلامه، وكان نفعي النزعة، إذ عاش متنقلاً في القبائل يمدح ويهجو، طمعاً في العطاء وبحثاً عن لقمة العيش، واتَّخذَ من الشعر مهنة يطرق بها أعتاب الأمراء والزعماء فظل عقله جافاً عاجزاً عن فهم الإسلام، وبقيت نفسه صلبة قاسية - فلم تألف الفكر الجديد ولم ترتضه، ولم يكن يدور بخلده أن يعيش مع الأحداث، وأن يفكر في أمر الجزيرة العربية، فتوارى عن المشاركة في الصراع وتحجرت أساليبه فلم تكن له في الشعر جِدَّة.

ومهما يكن من أمر، فإن المحافظة على الطابع الجاهلي كانت ظاهرة عامة في شعر الصراع، وأول ما يلفت النظر إلى ذلك تلك المطالع التي درج عليها شعراء الجاهلية، ومرنوا على استعمالها، وأصبحت تقليداً متبعاً لا سبيل إلى هجره، فقد برزت هذه المطالع عند بعض شعراء الفترة، فهذا عبد الله بن الزِّبَعْرى يوم الخندق يذكر زحف جيش الأحزاب على المدينة ولكنه يقف قبل ذلك على الديار فيقول[1]:

حتى الديار محا معارف رسمها ... طول البلى وتراوح الأحقاب
فكأنما كتب اليهود رسومها ... إلا الكنيف ومعقد الأطناب[2]
قفراً كأنك لم تكن تلهو بها ... في نعمة بأوانس أتراب[3]

---

[1] السيرة/ ق٢/٢٥٧.

[2] الكنيف: الحظيرة والزرب الذي يصنع للإبل وسمي كنيفاً لأنه يكنفها أي يسترها، والأطناب: الحبال التي تُشَدّ بها الأخبية وبيوت العرب.

[3] الأتراب: جمع ترب وهن المتساويات في السنّ.

فأترِكْ تذكر ما مضى من عيشة　　　ومحلة خلق المقـــام يباب[1]

ولئن وقف عبد الله على الديار يوم الخندق يندب حاضرها، ويذكر ماضيها ثم رحل لشأنه من الفخر والاعتزاز بقومه، فقد وقف عليها **حسان بن ثابت** من قبله يوم أحد يغمره الحزن والأسى على مقتل حمزة بن عبد المطلب فقال[2]:

أتعرف الدار عفـــا رسمهـــا　　　بعدك صوب المسبل الهاطل[3]

بين السراديح فأدمـــانـــة　　　فمدفع الروحـــاء في حائل[4]

سَاءَلْتُها عن ذاك فاسْتَعجَمَتْ　　　لم تدر ما مرجوعة السائل[5]

د ع عنك داراً قد عفا رسمها　　　وابك على حمزة ذي النائل[6]

وكما قدم حسان لقصيدته هذه قدم لها **كعب بن مالك** أيضاً إلا أن حساناً صدرها بذكر الأطلال والديار، وأما كعب فقد اسْتهلَّها ببيتين من الغزل التقليدي مع أنها في رثاء حمزة أيضاً وذلك حيث يقول[7]:

طرقت همومك فالرقاد مسهد　　　وجزعت أن سلخ الشباب الأغيد[8]

ودعت فؤادك للهوى ضمرية　　　فهـــواك غوري وصحوك منجد[9]

أما **هبيرة بن أبي وهب المخزومي** فلا شأن له في الديار فقد شغلته هنده بالعتاب والعذل غير أنه راح يستمهلها ليبين لها عذره فقال[10]:

ما بال هم عميد بات يطرقني　　　بالود مـــن هند إذ تَعْدُوعواديها[11]

---

[1] اليباب: القفر.

[2] السيرة/ ق٢/١٥٥.

[3] الصوب: المطر، والمسبل: المطر الهاطل.

[4] سراديح: جمع سرداح: وهو الوادي أو المكان المتسع، وأدمانة: موضع.

[5] مرجوعة السائل: رجع الجواب.

[6] النائل: العطاء.

[7] السيرة/ ق٢/١٥٧.

[8] سلخ: أزيل، والأغيد: الناعم.

[9] ضمرية: نسبة إلى قبيلة ضمرة.

[10] السيرة/ ق٢/١٢٩.

[11] العصيد: المؤلم الموجع، والعوادي: الشواغل.

باتت تعاتبني هند وتعذلني   والحرب قـــد شغلت عني مواليها

مهلاً فلا تعذليني إن من خلقي   ما قد علمت وما إن لست أخفيها

مساعف لبني كعب بما كلفوا   حمـــال عبء وأثقـــال أعانيها[١]

وإن كانت هند هبيرة قد قست عليه بالعتاب، فإن سعاد كعب بن زهير قد قست أكثر منـــها، ذلك أنها قد قَلَتْهُ وارْتَحَلتْ عنه بعد أن تيمت قلبه إثرها وكبلته، وتركته يلح في وصـــف ثغرهـــا الجميل، ويئن من تباريح الهوى فيقول[٢]:

بانت سعاد فقلبي اليـــوم متبـــول   متيم إثرهـــا لـــم يفد مكبول[٣]

ومـــا سعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول[٤]

هيفـــاء مقبلـــةً عجـــزاء مدبرة   لا يشتكى قصر منها ولا طول[٥]

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت   كأنه منهـــل بالـــراح معلول[٦]

وترى كعباً في البيت الأول يصور في إيجاز ظاهر ما صوره زهير في بيتين حين قال:

إن الخليط أجد البين ما انفرقا   وعلـــق القلب من أسماء ما علقا

وفارقتك برهن لافكـــاك له   يوم الوادي فأمسى الرهن قد غلقا

فأوجز حيث أطنب أبوه، وآثر قافية أيسر وأحلى موقعاً من قافية أبيه[٧]. ولكن هـــذا الطـــابع الجاهلي عند شعراء المسلمين ،لم يكن في السنوات الأولى للصراع فحسب وإنما امتَدَّ أثره إلى يـــوم الفتح، فعندما وقف حسان يحتفل بالنصر المؤزر على المشركين لم يجد ما يمنع من الوقـــوف علـــى الديار المقفرة ويذكر شعثاء، تلك المرأة التي قد تيمته فقال[٨]:

---

1 مساعف: مطيع.

2 ديوانه/ ٦ -٧.

3 متبول: أسقمه الحب وأضناه، ومتيم، ذليل مستعبد، لم يُفْد مكبول: لم يخلص من القيد.

4 الأغنّ: الظبي الصغير الذي في صوته غُنّة، وهي صوت يخرج من الخياشيم، وغضيض الطرف: فاتره.

5 هيفاء: ضامرة البطن دقيقة الخاصرة، وعجزاء: كبيرة العجز وهو الردف.

6 تجلو: تصقل وتكشف، والعوارض: جمع عارض أو عارضة وهي الأسنان كلها أو الضواحك فيها خاصة، والظلم: ماء الأسنان وبريقها أو هو رقتها وبياضها، والراح: الخمر.

7 حديث الأربعاء/ ١/١٢١ -١٢٢.

8 ديوانه/ ٥٧ -٥٨.

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خـــلاء[1]
ديار من بني الحسحاس قفر تعفيها الروامس والسماء[2]
وكانت لا يزال بهـــا أنيس خلال مروجها نعم وشاء
فدع هذا ولكن من لطيف يؤرقني إذا ذهب العشاء
لشعثاء التي قـــد تيمته فليس لقلبه منهـــا شفاء

ولم يكد ينتهي من وقوفه على الديار، ويفرغ من أمر شعثاء، حتى مضى إلى وصف الخمر وشـــربها فقال[3]:

كأن سبيئة مـــن بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء[4]
على أنيابها أو طعم غض من التفاح هصره الجناء[5]
إذا ما الأشربات ذكرن يوماً فهن لطيب الراح الفداء
نوليهـــا الملامـــة إن ألمنـــا إذا ما كان مغث أو لحاء
ونشربها فتتركنا ملوكـــاً وأسدا ما ينهنهنا اللقاء[6]

وليس هذا فحسب بلى مضى شعراء الفترة إلى ذكر سفينتهم المفـــضلة الـــتي تمخـــر عبـــاب الصحراء الواسعة المخيفة متى أرادوا وأنى شاءوا كما كان شأن أسلافهم الجاهليين على الرغم من إسلامهم ووجود الأفكار والمعاني الكثيرة التي جاء بها الإسلام. وكان كعب بن زهير وغـــيره مـــن شعراء القبائل أكثر هؤلاء الشعراء احتفالاً بالناقة، فهو لم ينس ذكرها حتى في مديحـــه للرســـول

---

[1] ذات الأصابع والجواء: موضعان بالشام بأكناف دمشق، وعذراء: موضع على بريد دمشق.

[2] بني الحسحاس: قوم من العرب، والروامس: الرياح الزافيات التي تثير التراب فترمس به الآثار تعفيها وتدفنها وتسوي بها الأرض كأن لم تَغْنَ بالأمس.

[3] .

[4] السبيئة: الخمر سميت بذلك لأنها تُسْتَبى، أي تشترى لتشرب، ولا يقال ذلك إلا في الخمر.

[5] هصره: أماله.

[6] روى صاحب الاستيعاب أن حساناً قال صدر هذه القصيدة في الجاهلية، وقال آخرها في الإسلام، وأن هذا البيت قد قاله في الجاهلية، وفيما قاله نظر، انظر: الاستيعاب/١/٣٤٤.

الكريم، فهي وسيلته الوحيدة في ترحاله ورفيقته الصابرة على وعثاء السفر، واعترافاً منه بفضلها فقد ذكرها فأطال، واقتطع لها وحدها تسعة عشر بيتاً من قصيدته التي مدح بها الرسول منها[1]:

عيرانة قذفت في اللحم عن عرض مرفقها عن بنات الزور مفتول[2]

كأن ما فات عينيها ومذبحها من خطمها ومن اللحيين برطيل[3]

قنواء في حرتيها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيل[4]

وكما وصف كعب ناقته بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم - عند وفادته عليه فكذلك فعل **النابغة** الجعدي في المناسبة نفسها. والنابغة لم يكتف بذكر ناقته فحسب بل ذكر فرسه أيضاً فقال[5]:

له عنق في كاهل غير جانب ولج بلحييه ونحى مدبرا[6]

وبطن كظهر الترس لو شل أربعاً لأصبح صفراً بطنه ما تجرجرا[7]

وحين أسلم **كعب بن زهير**، عاد إلى قومه يدعوهم إلى الدين الجديد، وفي طريق عودته لم يجد ما يؤنسه في الصحراء الموحشة غير ذئب وغراب جائعين، فلقيهما كعب وقد خرجا يبحثان عما يقيم أودهما، فطمعا في غير مطمع، لأن كعباً لم يكن أحسن حالاً منهما، فقد كان مرملاً من الزاد أو كما يقول[8]:

غراب وذئب ينظران متى أرى مناخ مبيت أو مقيلاً فأنزل

أغارا على ما خيلت وكلاهما سيخلفه مني الذي كان يأمل[9]

---

[1] ديوانه/١٢.

[2] عيرانه: تشبه العير لصلابتها، وعن عرض: أي رميت باللحم في أعراضها، وبنات الزور: العضلتان والملاطان والمذبح، والزور: عظام الصدر.

[3] الخطم: الأنف وما حوله، واللحيان: العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى من الإنسان وغيره، والبرطيل: حجر مستطيل وقد يكون المعول.

[4] القنواء: المحدودية الأنف، والحرتان: الأذنان، والعتق: الكرم، وتسهيل: سهولة ولين.

[5] جمهرة أشعار العرب/٢٧٧.

[6] الجانب: الغرس البعيد بين الرجلين.

[7] تجرجر البعير: صوت من أنفه.

[8] ديوانه/ ٥١ -٥٢.

[9] على ما خيلت: أي على مالها.

وقد دلفا نحوي جميعاً كلاهما | وقد علما أني من الزاد مرمل
فلـــم يجدا إلا منـــاخ مطية | تجافى بهـــا زور نبيل وكلكل

ولم تكن المقدمات الطللية أو الغزلية شائعة شيوعاً عاماً وشاملاً عند شعراء الفترة جميعهم، وإنما هي جاءت في قصائد معينة وعند شعراء قليلين. وكذلك الحال في أمر ذكـــر حيـــوان الـــصحراء الأليف وغير الأليف كالناقة والذئب والأسد والغراب وغيرها، فلم يكن شاعر الصراع ليحفـــل بهذه الحيوانات كثيراً إلا إذا خدمت غَرَضَهُ أو ساعدته على أداء مهمته في صراعه مع خصومه كأن يستغل هذه الحيوانات في تشبيهاته واستعاراته ليقرب بوساطتها صُوَرَهُ إلى الأذهان ويجعلها واضحة جلية. وقد يرجع سبب ذلك إلى ضياع مطالع بعض القصائد أو إلى عوامل السرعة والارْتِجَال التي تفرضها طبيعة الصراع، أو لأن أغلب شعر الصراع شعر مقطوعات ورجز، وهذا النوع من الشعر لا يحتاج إلى مقدمات فالشاعر فيه مضطر لأن يتناول موضوعه مباشرة.

وليس غريباً أن تبرز العصبية في شعر المشركين، وأن يظهر فيه الاعتزاز بالـــشجاعة والـــتغني بالبطولة، فهم قد قاوموا الإسلام من أجلها وحاربوه بسببها. ولا نستغرب أن نحس بـــنفس **عنترة العبسي** أو غيره من الشعراء الفرسان في الجاهلية الذين كانوا يمجدون البطولة الفرديـــة يتـــردد في قوافي **هبيرة بن أبي وهب المخزومي** عندما يقول[1]:

قد نبذل المال سحاً لا حساب له | ونطعن الخيل شزراً فـــي مآقيها[2]
وليلة مـــن جمـــادى ذات أندية | جربا جمـــادية وقد بت أسريها[3]
أوقدت فيها لذي الضراء جاحمة | كالبرق ذاكية الأركـــان أحميها[4]
أورثني ذاكـــم عمرو ووالده | مـــن قبله كـــان بالمثنى يغاليها[5]
كانوا يبارون أنواء النجوم فما | دنت عن السورة العليا مساعيها[6]

ولا نستغرب أيضاً أن تبرز العصبية بصورة أدق وأقوى عند **الحارث بن هشام** عندما يقول[7]:

---

[1] السيرة/٢/١٣١.

[2] سحّاً: صبا، والزر: الطعن عن يمين وشمال.

[3] أندية: يريد بها الرذاذ والرشاش. وجربا: شديدة البرد مؤلمة أو قحطة لا مطر فيها.

[4] لذي الضراء: لذي الحاجة والعوز والجاحمة: الملتهبة، وذاكية: مضيئة.

[5] بالمثنى: يريد مرة بعد مرة.

[6] يبارون: يعارضون، ودنّت: قصرت، والسورة: الرفعة والمترلة.

[7] السيرة/٢/١٠.

فيال لؤي ذببوا عن حريمكم ... وآلهة لا تتركـــوهـــا لذي الفخر[1]
فما لحليم قد أراد هلاككم ... فلا تعذروه آل غالب مـــن عذر
وجدوا لمن عاديتم وتوازروا ... وكونوا جميعاً في التأسي وفي الصبر[2]

ولكن الغريب حقاً أن نجد هذه العصبية قوية في شعر المسلمين، من الغريب ألا ينساها **حسان بن ثابت** مع أنه أسلم منذ دخول الإسلام المدينة، وكان شاعر الدولة الأثير لدى رسول الله – صلى الله عليه وسلم -. ويبدو أن الإسلام –على عمقه - لم يكن لينسيه قومه وينزع من نفسه التعصب الشديد لهم والتغني بأمجادهم، فكثيراً ما كان يشطح – عندما ينشد في المناسبات الإسلامية - فيذكر مكانة قومه ومفاخرهم. وظل النفس الجاهلي يسيطر على قوافي حسان، فقل أن نقع له على مطولة تخلو من الفخر بقومه، والإشادة بعزهم وسيادتهم وحسن بلائهم. وكيف ينزع عن ذلك وقد كان قومه ملوك الناس قبل محمد إن صح قوله[3]:

وكنا ملوك الناس قبل محمد ... فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل
وأكرمنا الله الذي ليس غيره ... إله بأيـــام مضت مالهـــا شكل
بنصر الإله والرسول ودينه ... وأكرمنا باسم مضى مالـــه مثل

ولكنه سرعان ما يقفز إلى تلك المعاني الجاهلية التي طبع عليها وألفتها نفسه فيفزع إلى الفخـــر بقومه وتسجيل مآثرهم فيقول[4]:

أولئك قومي خير قـــوم بأسرهم ... وليس على معروفهم أبداً قفـــل
يربون بالمعروف معروف من مضى ... فما عد من خير فقومي له أهل[5]
إذا حاربوا أو سالمـــوا لم يشبهوا ... فَحَرْبُهُمُ خوف وسلمهم سهل
وقائلهـــم بالحـــق أول قائـــل ... فحكمهم عـــدل وقولهم فصل

---

[1] ذببوا: امنعوا وادفعوا.

[2] توازروا: تعاونوا.

[3] ديوانه/ ٣٨٤.

[4] ديوانه/ ٣٨٤ -٣٨٥.

[5] يربون: ينمون.

وخالطت المعاني الجاهلية شعر **كعب بن مالك** أيضاً فلم يستطع أن يترع عن ذكـــر مـــآثر قومـــه ومفاخرهم ولم يدرك التحرر من اصطناع أسلوب الجاهليين في الذود عن الأحساب والتلاد وذكر السلاح والقوة. وقد اندفع إلى تلك المعاني في مواضع كثيرة من شعره، منها قوله في يوم ذي قرد[١]:

وإنا لنقري الضيف من قمع الذرا ... ونضرب رأس الأبلخ المتشاوس[٢]

نرد كمـــاة المعلمين إذا انْتَخـــوا ... بضرب يسلي نخـــوة المتقاعس[٣]

بكــــل فتى حامي الحقيقة ماجد ... كريم كسرحـــان الغضاة مخالس[٤]

يذودون عن أحسابهم وتلادهم ... ببيض تقد الهـــام تحت القوانس[٥]

وتَتَّضِحُ صلة كعب بالشعر الجاهلي من تلك التعبيرات والمعاني الكثيرة التي ذكرها في شـــعره وقد ترددت في شعر الجاهليين من قبله كقوله[٦]:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا ... قدماً ونلحقها إذا لم تلحق

فقد جاء هذا المعنى في قول قيس بن الخطيم[٧]:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها ... خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وأما قوله[٨]:

صبرنا لهم والصبر منا سجية ... إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق[٩]

فورد معنى الشطر الأول منه في قول الحصين بن الحمام[١٠]:

---

1 السيرة/٢/٢٨٨.

2 القمع: جمع قمعة وهي أعلى سنام البعير، والذرا: الأسنمة، والأبلخ: المتكبر، والمتشاوس: الذي ينظر بعينه نظر المتكبر.

3 انتخوا: تكبروا، والمتقاعس: الذي لا يلين ولا ينقاد.

4 السرحان: الذئب، والغضا: شجرة جمعها غضى.

5 يذودون: يمنعون ويدفعون، والتلاد: المال القديم، والقوانس: أعلى أعالي بيض الحديد واحدها: قونسة.

6 السيرة/ق٢/٢٦٢.

7 ديوانه/ ٤١.

8 السيرة/ق٢/١٤٤.

9 الأبرام: اللئام الواحد برم، ونرتق: نسدّ ونصلح.

10 حماسة أبي تمام/١/١٥٤.

صبرنا وكان الصبر منا سجية　　　بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما

وإن وقفنا عند قوله[1]:

فلست لحاصن إن لم تروها　　　بساحة داركم منا ألوفا

وجدنا أن قيس بن الخطيم قد سبق إلى الشطر الأول منه في قوله[2]:

فلست لحاصن إن لم ترونا　　　نجالدكم كأنا شرب خمر

ويرى كعب أن شدة الأنصار في الحرب مردها إلى تلك التربية العسكرية التي تعهدهم بها آباؤهم فيقول[3]:

وعلمنا الضرب آباؤنا　　　وسوف نعلم أيضاً بنينا

جلاد الكماة وبذل التلا　　　د عن جل أحسابنا ما بقينا

على أن التفاخر بالعصبية والتغني بالأحساب والمآثر تبدو أكثر وضوحاً عند شعراء القبائل، ومرد ذلك إلى حداثة عهدهم بالإسلام من ناحية، وبعدهم عن المدينة –حاضرة الدولة - من ناحية أخرى، فلم تتح لهم حياتهم هذه أن يسيغوا أفكار الإسلام، وأن يفهموا مفاهيمه السمحة فبقيت الأفكار الإسلامية ضعيفة في نفوسهم. وقد رأيناهم لذلك يسارعون إلى الردة عن الإسلام عندما قبض الرسول الكريم.

وليس غريباً -والحالة هذه - أن يبقى شعرهم –كحياتهم - مطبوعاً بطابع الجاهلية وخاضعاً لأساليبها ومستوحياً لروحها. وممن يمثل هذه النزعة في بحثنا هذا **عباس بن مرداس السلمي** فجل شعره فخر بقومه وبأعمالهم وبطولاتهم، وليس أدل على ذلك من كونه يعزو سبب انتصار المسلمين يوم حنين إلى شجاعة قومه وشدة بأسهم عندما يقول[4]:

إذ خاف حدهم النبي وأسندوا　　　جمعاً تكاد الشمس منه تخشع[5]

تدعى بنو جشم وتدعى وسطه　　　أفناء نصر والأسنة شرع[6]

حتى إذا قال الرسول محمد　　　أبني سليم قد وفيتم فارفعوا[1]

---

1 السيرة/ق٢/٤٧٦.

2 ديوانه/١٢١.

3 السيرة/ق٢/١٦٠.

4 السيرة/ق٢/٤٦٣.

5 تخشع: ينقص ضياؤها.

6 الأفناء: جماعة مجتمعة من قبائل شتى، وشرع: مائلة إلى الطعن.

رُحنا ولولا نحن أجحف بأسهم بالمؤمنين وأحرزوا ما جمعوا[2]

وعباس لا يفتأ يذكر فضل قومه في كل شعره ويعتز بعددهم وعدهم، فكما ربط نتيجة غـــزوة حنين بوجودهم وبلائهم فكذلك فعل من قبل يوم فتح مكة، إذ نراه يفخر بعصبيته ويسجل مـــآثر قومه فيقول[3]:

بمكـــة إذ جئنا كـــأن لواءنـــا عقاب أرادت بعد تحليقها خطفا

على شخص الأبصار تحسب بينها إذا هي جالت في مراودها عزفا[4]

بمعترك لا يسمع القـــوم وسطه لنا زَحْمَـــةٍ إلا التذامر والنقفا[5]

وكان شعر الوفود مثالاً للشعر القبلي مع أنه قيل في ظل الإسلام. وبـــسببه، ويظهـــر ذلـــك بوضوح في شعر تميم، فقد نهج **الزبرقان بن بدر** التميمي إلى المفافرة بالأحساب والأنساب والإغارة بين يدي رسول الله بقوله[6]:

بأنا فروع الناس في كل موطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم[7]

وأنا نذود المعلمين إذا انتخوا ونضرب رأس الأصيد المتفاقم[8]

وأن لنا المرباع في كل غارة نغير بنجد أو بأرض الأعاجم[9]

ولئن كانت تميم خير من في الحجاز من الناس، وكانوا أصحاب المرباع في كل غارة، فإن همدان لم يكن لهم في العالمين أمثال، إذ كانوا خير الناس طراً، أو كما قال شاعرهم عندما وفـــدوا علـــى النبي[1]:

---

1 ارفعها: كُفّوا أيديكم عن القتل.

2 أجحف: نقص وأضر.

3 السيرة/ق٢/٤٦٥.

4 شخص: جمع شاخص وهو الذي يفتح عينه ولا يطرف، والمراود: جمع مرود وهو الوتد، والعزف: الصوت والحركة.

5 زجمة: صوت، والتذامر: أن يحض بعضهم بعضاً على القتال، والنقف: كسر الرؤوس، ومنه ناقف الحنظلة وهو كاسرها ومستخرج ما فيها.

6 السيرة/ق٢/٥٦٥- ٥٦٦.

7 دارم: من بني تميم.

8 الأصيد: المتكبر الذي لا يلوي عنقه يميناً ولا شمالاً، والمتفاقم، المتعاظم.

9 المرباع: أخذ الربع من الغنيمة، يريد أنهم رؤساء، يربد بنجد: بلاد العرب.

همدان خير سوقة وأقيـــال ليس لها في العالمين أمثال[2]

محلها الهضب ومنها الأبطال لها إطابات بهـــا وآكال[3]

وكان شعراء الوفود ينهجون في مدحهم للنبي – عليه السلام - كمـــا كـــانوا ينـــهجون في جاهليتهم عند الوفود على الملوك والأمراء فما أشبه قول كعب بن زهير للنبي[4]:

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

يقول النابغة الذبياني للنعمان[5]:

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا مقام على زأر من الأسد

ومثل ذلك مدح **كعب بن زهير** للمهاجرين الذين أبلوا في الله بلاء حسناً، فهو لا يمدحهم بتقواهم وقوة إيمانهم، وإنما يثني عليهم لشدتهم على الأعداء، ولبطولتهم وثباتهم عند اللقاء وذلك قوله[6]:

شم العرانين أبطـــال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرابيل

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

وهكذا درج شعراء الفترة على اصْطَناعِ الموضوعات التي كانت شائعة عند شعراء الجاهلية من فخر ومديح ورثاء وهجاء ووصف، وساروا على النهج نفسه تقريباً إلا ما كان من أمـــر حـــسان وكعب وغيرهما من شعراء المسلمين، فقد حاولوا التجديد والتوليـــد في المـــضمون فأضـــافوا إلى ذخيرتهم الجاهلية حصيلة أخرى من المعاني والمفاهيم الجديدة التي جاء بها الإسلام.

وكثيراً ما كان حسان وكعب يهجون الكفار على الأسلوب الجاهلي القديم، مثلما كان شعراء الكفار يهجون النبي والمسلمين، ومن هذا القبيل مثلاً ما قاله حسان في الهذليين لما أسروا المسلمين وباعوهم من قريش[7]:

ترى من اللؤم رقماً بين أعينهم كما كوى أذرع العانات كاويها[1]

---

[1] السيرة/ق٢/٥٩٧.

[2] سوقه: من دون الملك من الناس، والأفيال: الملوك دون الملك الأكبر واحدهم قيل.

[3] الإطابات: الأموال الطيبة. والآكال: ما يأخذه الملك من رعيته وظيفة له عليهم.

[4] ديوانه/٢٠.

[5] ديوانه/٣٥.

[6] ديوانه/٢٣.

[7] ديوانه/ ٤٨٥ -٤٨٦.

تبكي القبور إذا ما مات ميتهم حتى يصيح بمن في الأرض داعيها

مثل القنافذ تخزى أن تفاجئها شد النهار ويلقى الليل ساريها

ولهذا كان المشركون يخافون لسانه، لأنه كان يهجوهم بالأنساب والأيام وقد أمره الرسول – صلى الله عليه وسلم - أن يذهب إلى **أبي بكر** ليحدثه حديث قريش وأيامهم وأحسابهم ثم يتفرغ لهجائهم[2]. ولذلك نراه كثيراً ما يقذع في هجائه لبعض أفراد من قريش، إذ ربما يذكر العورات ويلصق الفحش بالمهجو، كما نرى في هجائه لأبي **سفيان بن الحارث** مثلاً[3]:

أجمعت أنك أنت الأم من مشى في فحش مومسة وزوك غراب[4]

وكذلك ورثك الأوائل أنهم ذهبوا وصرت بخزية وعذاب

فورثت والدك الخيانة والخنا واللؤم عند تقايس الأحساب[5]

حتى مدحهم للرسول كان مطبوعاً هو الآخر بطابع الجاهلية، فقد أضفى عليه **كعب ابن مالك** نفس الصفات التي كان يسبغها شعراء الجاهلية على ممدوحيهم كقوله[6]:

نجد المقدم ماضي الهم معتزم حين القلوب على رجف من الرعب

يمضي ويذمرنا عن غير معصية كأنه البدر لم يطبع على الكذب

وفرق كبير بين هذا المديح وذاك الذي مدحه للرسول – صلى الله عليه وسلم - بعد غزوة حنين، إذ بدأت المعاني الإسلامية تتعمق في شعره وشعر غيره كما تعمق الإسلام في نفوسهم وذلك حيث يقول[7]:

رئيسهم النبي وكان صلباً نقي القلب مصطبراً عزوفا

رشيد الأمر ذو حكم وعلم وحلم لم يكن نزقاً خفيفا

فهو متأثر بقوله تعالى: "**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**".

---

[1] العانات: جمع عانة وهي الأتان.

[2] الأغاني/٤/٤.

[3] ديوانه/١١٦.

[4] امرأة مومس ومومسة: فاجرة جهاراً والزوك: مشي الغراب وهو الخطو المتقارب وزاك في مشيته يزوك زوكاناً: حرك منكبيه وأليتيه وفرج بين رجليه.

[5] تقابس الأحساب: تسابق الأحساب.

[6] السيرة/ق٢/١٦٢.

[7] نفسه/٤٨٠.

وفعلوا مثل ذلك في الرثاء فتهددوا وتوعدوا كما كانوا يفعلون في الجاهلية على شاكلة قـــول حسان في بني هذيل يوم الرجيع[1]:

قبيلة ليس الوفـــــاء يهمهم وإن ظلموا لم يدفعوا كف ظالم

إذا الناس حلوا بالفضاء رأيتهم بمجرى مسيل الماء بين المخارم[2]

وقد يسبغون على فقيدهم تلك الصفات والمزايا التي كان يسبغها الجاهليون على قـــتلاهم في الحروب، فهذا **كعب بن مالك** يرثي **حمزة بن عبد المطلب** عندما اسْتَشْهدَ في يوم أحد فلم يصفه بالإيمان والتقوى والطاعة، ولم يذكر دوره وبلاءه في سبيل الله، ولم يتعرض لمكانته عند الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإنما قال[3]:

والعاقر الكوم الجلاد إذا غدت ريح يكاد الماء منها يجمد[4]

والتارك القرن الكمي مجدلاً يوم الكريهة والقنا يتقصد[5]

أما شعر النساء فلم يخرج على تقاليد الجاهلية في شيء إذ نهجت شواعر الفتـــرة ذات النـــهج الذي كان شائعاً لدى شواعر الجاهلية في أيام العرب الأولى وطرق ذات الموضوعات مـــن بكـــاء القتلى من ذويهن، والاشتفاء بقتلى أعدائهن، والتحريض على القتال وأخذ الثأر. وهـــو بالتـــالي يصور تلك الأزمات النفسية التي تحس بها المرأة الثاكلة فيجسد المصاب حثاً لأخذ الثأر على نحو ما نرى في قول **هند بنت عتبة**[6]:

لله عينـــاً مـــن رأى هلكاً كهلك رِجَاليهْ

يا رب بـــاك لي غداً في النائبات وبَاكيهْ

قد كنت أحذر ما أرى فاليوم حق حِذَاريهْ

يـــا رب قائلة غـــداً يا ويح أم مُعَاوِيَهْ

---

[1] نفسه/١٨١.

[2] المخارم: مسايل الماء التي يجري فيها السيل.

[3] السيرة/ق٢/١٥٧.

[4] الكوم: جمع كوماء وهي العظيمة السنام من الإبل والجلاد: القوية.

[5] مجدلاً: مطروحاً على الجدالة وهي الأرض، ويتقصد: ينكسر.

[6] أنساب الأشراف/١/١٥٢ -١٥٣.

وحتى شعر النساء المسلمات لا يكاد يختلف عن شعر النساء الجاهليات، فلم يظهر أثر الإسلام في أشعارهن إلا قليلاً، فقد تُسَقّطُ بعض المعاني الدينية وبخاصة عند صفية بنت عبد المطلب[1].

ويتضح مما سبق أن أكثر الشواهد التي أثبتناها في هذا المجال كانت لشعراء الإسلام والمنافحين عنه، وأما غيرهم من الشعراء فقد ظفروا بنصيب أقل، ونحن قصدنا إلى ذلك قصداً، ليتبين لنا مدى تشبث شعراء الفترة من المسلمين بالأساليب الجاهلية. أما شعراء المشركين من قريش وسائر العرب فقد ظلت حياتهم جاهلية في كل شيء، ولم يطرأ عليها تغيير ذو بال سوى ما كان من أمر الدعوة الجديدة ومجابهتها.

وتبدو المحافظة على الطابع الجاهلي –أكثر ما تبدو - في تعدد موضوعات القصيدة التي وجدناها عند بعض شعراء الفترة كأبي طالب وكعب ابن زهير والنابغة الجعدي. واستمر هذا النهج قوياً عند بعض الشعراء إلى عصر الراشدين كالحطيئة وغيرهِ، فكان **تميم بن مقبل** في الإسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرهم[2].

وصفوة القول،فقد كان شعر الفترة على العموم مطبوعاً بطابع الجاهلية لفظاً ومعنى، أسلوباً وغرضاً، ولم يستطع الإسلام بأحداثه العظيمة أن يغير منها، لأنها كانت ثمرة ملكات فنية وعقلية تمَّ نضجها واستمرت أساليبها خلال فترة طويلة من الزمان.

مقومات طوابع إسلامية

ولكنا حين نتعقب شعر الشعراء في هذه الفترة ،نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر في نسجه من حين إلى حين، فمن طبائع الأشياء أن يتأثر الشعراء كما يتأثر سائر الناس -بكل فكر جديد– ولو بقدر. وتبعاً لهذه القاعدة الطبيعية فقد تناول الشعر شيئاً لم يتناوله الشعر القديم، وهو المعاني الدينية التي شاعت عند شعراء المسلمين فحفظ شعرهم ألفاظاً لم يذكرها من سبقهم من الشعراء.

ولكن تأثر الشعر بالإسلام يختلف باختلاف الشعراء الذين قالوا هذا الشعر، ولا سيما أنهم كانوا جاهليين في فنهم وعقليتهم مختلفي البيئات الشعرية، ثم اختلفوا كذلك في مقدار اتصالهم بالإسلام وتأثرهم به وخضوعهم لأفكاره الجديدة.

ولا ريب أن أثر القرآن على الشعراء كان قوياً، فهو قد حمل إلى العرب تلك الأفكار والآداب والأحكام والمواعظ، وقص عليهم أحسن القصص، ودعاهم إلى التفكير في الخالق المدبر وحملهم

---

[1] تفسير القرطبي٤/ ٢٢٤ – الطبقات الكبرى/ ٢/ ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠.

[2] طبقات الشعراء/ ٥٦ – الأشناندابي/ معاني الشعر/ ١٣٨.

على النظر في ملكوت السموات والأرض فأعجزهم وبهر عقولهم بآياته البينات وأسلوبه الفذ، وهم أهل الفصاحة واللسن فشغلوا به حيناً من الدهر يقرءونه ويتدبرونه ويعالجون فنونـــه ويحـــاولون محاكاة أساليبه. وكان لذلك أثره في لغتهم عامة وشعرهم خاصة، فاسْـــتجدَّتْ في اللغـــة مفـــاهيم وألفاظ لم تكن معروفة من قبل كالمؤمن والمسلم والكافر والمنافق[١] والـــصلاة والـــصيام والحـــج والزكاة[٢] والخضرمة[٣] والفسق وغيرها حتى لفظ الجاهلية نفسه حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة[٤]. وما زالت مفاهيم وألفاظ جاهلية كالمرباع والنشيطة والفضول والإتـــاوة والمكـــس والحلوان ،وأنعم صباحاً وأنعم ظلاماً وأبيت اللعن[٥] وغيرها[٦].

وكان طبيعياً أن يتأثر الشعراء بهذه المفاهيم الجديدة وبخاصة شعراء المسلمين في المدينة حيـــث تطبق أحكام الدين الجديد، وتبدو حية مجسدة في مجتمعهم. أضف إلى ذلك أن النبي - عليه السلام – عليه السلام - كان يرعى شعراءه ويوجههم الوجهة الإسلامية الصحيحة فينهاهم عـــن أمـــور ويحضهم على أمور غيرها.

فمن ذلك مثلاً أنه كان لا يرضى أن ينال شعراؤه من أعراض قريش أو غيرها أو ينتقصوا مـــن أحسابهم أو يعيروهم بضعة الشأن والنسب وفق السنن الجاهلية، فقد روى ابن سلام[٧] أن عبد الله بن رواحة مر بمسجد رسول الله وهو جالس في نفر من أصحابه فأضب القوم يا عبد الله بن رواحة،

---

[1] المزهر ١/٢٩٤.

[2] نفسه ٢٩٥.

[3] نفسه/ ٢٩٦.

[4] نفسه/ ٣٠١.

[5] المزهر/١/٢٩٦ – عرفت العرب المؤمن من الإيمان والأماني وهو التصديق، ثم سُمّي في الإسلام.

[6] بالإطلاق مؤمناً وكذلك الإسلام والمسلم، إنما عرفت منه إسلام الشيء، وكانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر، والمنافق من نافقاء اليربوع، ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم: فسقت الرّطبة: إذا خرجت من قشرها، والصلاة أصله في لغتهم الدعاء، وقد كانوا يعرفون الركوع والسجود وإن لم يكن على هذه الهيئة، قال أبو عمرو: أسجد الرجل: طأطأ رأسه وانحنى وأنشد:

فقلت له أسجد لليلى فأسجدا

يعني البعير: إذا طأطأ رأسه لتركبه.

والصيام كان أصله عندهم الإمساك ثم زاد الإسلام النية، ولم يكن في الحج عندهم غير القصد، وكذلك الزكاة فلم تكن العرب تعرفها إلا من ناحية النماء – المزهر/ ١/٢٩٥.

[7] طبقات الشعراء/٨٧.

يا عبد الله بن رواحة فعرف أن الرسول دعاه، فانطلق إليهم مسرعاً فسلم، فقال رسول صلى الله عليه وسلم : ههنا، فجلس بين يديه فقال له الرسول: " **كيف تقول الشعر إذا قلت**؟" فقال: أنظر في ذلك ثم أقول: قال: " فعليك بالمشركين " فأنشد:

فخبروني أثمان العباء متى   كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر

فكأنه عرف في وجهه رسول الله الكراهة أن جعل قومه أثمان العباء، فلما انتهى إلى قوله:

فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

أقبل عليه بوجهه مبتسماً ثم قال: " **وإياك فثبت الله**"

ومن ذلك أيضاً أنه قال **لكعب بن مالك** عندما سمع قوله[1]:

مجالدنا عن جذمنا كل فخمة   مذرية فيها القوانس تلمع

"**أيصلح أن نقول: مجالدنا عن ديننا**"؟ فقال كعب" نعم. فقال الرسول" " فهو أحسن"[2]، فهو لا يريد لكعب ولعبد الله ولغيرهما من شعراء المسلمين أن يجعلوا فخرهم بالأنساب أو يطعنوا الناس في أحسابهم. باعتبار ذلك من رواسب الجاهلية فالإسلام شرع الجهاد لنشر الدعوة والدفاع عنها لا للدفاع عن الأصل والحسب وغيرها من المآثر الغابرة التي جاء لإماتتها ودفنها.

وكان شعر المهاجرين –على قلته - قد أشرب بروح الإسلام، فانطلق الشعراء يصدرون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم، ومرد ذلك أنهم عاصروا الدعوة منذ انطلاقها في مكة ولاقوا في سبيلها مشقات ومصاعب كثيرة إذ اضْطُرُّوا إلى الهجرة إلى الحبشة قبل أن يهاجروا إلى المدينة، فهذا **عبد الله بن الحارث السهمي** يقول عند هجرته إلى الحبشة[3]:

إنا وجدنا بلاد الله واسعة   تنجي من الذل والمخزاة والهون

فكأنه أراد قوله تعالى" **قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها**"

ويشير إلى جمود قريش على الكفر وجحودها أمر الله كما جحدت عاد ومدين والحجر فيقول[4]:

---

[1] السيرة/ق٢/١٣٣.

[2] السيرة/ق٢/١٣٦.

[3] السيرة/ق١/٣٣١.

[4] نفسه/ ٣٣١.

وتلك قريش تجحد الله حقه　　　كما جحدت عاد ودين والحجر

ويبدو التسليم بقضاء الله والإشارة إلى الهجرة واضحاً في قول **أبي أحمد بن جحش**[1]:

فقلت لها بل يثرب اليوم وجهنا　　　وما يشأ الرحمن فالعبد يركب

إلى الله وجهي والرسول ومن يقم　　　إلى الله يوماً وجهه لا يخيب

وقول عبد الله بن جحش[2]:

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة　　　وأعظم منه لو يرى الرشد راشد

صدودكم عما يقول محمد　　　وكفر بـه والله راء وشاهد

فهو متأثر بقوله تعالى: ((**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام و إخراج أهله منه أكبر عند الله**..))

وتبدو المعاني الإسلامية أكثر وضوحاً عند عبد الله بن الحارث السهمي يعد هجرته إلى المدينة، من ذلك قوله بعد انتصار المسلمين يوم بدر[3]:

مستعصمين بحبل غير منجذم　　　مستحكم من حبال الله ممدود

فهو متأثر بالآية الكريمة " **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**.."

ويبدو **عبيدة بن الحارث بن المطلب** مطئناً إلى قضاء الله فيرى في رضا الله عنه وطمعه في جنته مع الحور العين تعويضاً عن قطع رجله يوم بدر فيقول[4]:

فإن تقطعوا رجلي فإنـي مسلم　　　أرجي بها عيشاً من الله دانيا

مع الحور أمثال التماثيل أخلصت　　　مع الجنة العليا لمن كان عاليا

ولكن شعراء المهاجرين على أية حال لم يبلغوا شأو شعراء الأنصار في هذا الميدان، فإن شعراء الأنصار الثلاثة **حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة** كانوا فرسان الحلبة الذين وقفوا مع الرسول منذ نزوله في ظهرانيهم وبرزوا على سطح الحياة الإسلامية الحافلة، وتولوا أمر الدفاع والمنافحة عن المبدأ الإسلامي، وقاموا بمهاجمة خصومه والتصدي لهم فكان شعرهم يمثل الوُجْهَةَ الإسلامية في أول الدعوة.

---

[1] السيرة/ق١/٤٧٣.

[2] تفسير القرطبي/٣/٤٦.

[3] السيرة/ق٢/٢٠.

[4] السيرة/ق٢/٢٤.

وكان حسان صاحب القدح المعلى، إذ ندبه الرسول – صلى الله عليه وسلم - للرد على شعراء المشركين، ودعا له بالتأييد وأقام له منبراً ينشد الشعر من فوقه. وقد حاول من أجل ذلك أن يصبغ شعره بالصبغة الإسلامية في أغراضه ومعانيه وألفاظه وأساليبه، وأن يفيد من القرآن الكريم في ذلك ما أستطاع، فمضى يستلهم القرآن في هجائه لأعداء الله على شاكلة قوله في فضل الأنصار[1]:

وفوا إذ كفرتم يا سخين بربكم ولا يستوي عَبدٌ وَفِيٌّ ومُضْيعُ

ويرى أن إعزاز الله ونصرة دينه مرتبط بالإيمان كما هو مرتبط بإعداد القوة الضاربة والسيوف البتارة التي[2]:

بهن نعز الله حتى يعزنا وإن كان أمر يا سخين فظيع

فقوله هذا مستفاد من قوله تعالى:" **إن تنصروا الله ينصركم**.."

وكأنه نظر في قوله تعالى:" **ليس لهم طعام إلا من ضريع**" عندما قال في رثاء حمزة[3]:

وقتلاكم في النار أفضل رزقهم حميم معاً في جوفها وضريع

ويذكر الحلال والحرام عندما يعرض لهجاء هذيل بقوله[4]:

فقد أرادوا خلال الفحش ويحهم وإن يحلوا حراماً كان في الكتب

واستفاد كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة من معاني القرآن الكريم كما استفاد صاحبهما وحاولا أن يصبغا شعرهما بالصبغة الإسلامية كما حاول، فطبعت بعض جوانب في أشعارهما بطابع الإسلام على شاكلة قول كعب في التوحيد والقضاء[5]:

شهدنا بأن الله لا رب غيره وأن رسول الله بالحق ظاهر

لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حَمَّهُ الله زاجر

فهو متأثر بقوله تعالى: ((**وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال**" أو **بقوله تعالى**: " **ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين**)).

---

[1] السيرة/ق٢/١٤٣.

[2] نفسه/١٤٣.

[3] نفسه/ ١٤٣.

[4] السيرة/ق٢/١٨٠.

[5] السيرة/ق٢/١١٤.

ويذكر جبريل وميكال وغيرهم من الملائكة و يُظْهِرفضلهم في مساعدة المسلمين يوم بدر فيقول[1]:

بنصر الله روح القدس فيها   وميكال فيا طيب الملاء

ويشير إلى الوحي ونزول القرآن ويبين مدى تمسك المسلمين بالرسول – صلى الله عليه وسلم - وإطاعتهم له فيقول[2]:

تدلى عليه الروح من عند ربه   يترل من جو السماء ويرفع

نشاوره فيما نريد وقصدنا   إذا ما اشْتَهى أنا نطيع ونسمع

وهكذا ازدان شعره بالمفاهيم الإسلامية واتَّشَحَتْ معانيه بالأفكار الجديدة، فأخذ يعير المشركين بالإدبار عن الدعوة وتكذيب النبي على شاكلة قوله[3]:

وكان رسول الله قد قال أقبلوا   فولوا وقالوا إنما أنت ساحر

كأنه اغترف هذا المعنى من قوله عز وجل: ((**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب**)).

وتزداد صلة كعب بالإسلام فتزداد صلة شعره بمعانيه كقوله[4]:

فإن يك موسى كل الله جهرة   على جبل الطور المنيف المعظم

ونراه متأثراً بالآية الكريمة: ((**ورسلاً قد قصصنا هم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً**)).

ولكن معاني الإسلام -على كثرتها - كانت ضيقة محدودة في شعره أول الأمر وحملته كثرة دواعي القول والرد على المشركين على تكرير هذه المعاني السامية التي وعاها وتركزت في نفسه كقوله[5]:

فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى   وليس لأمر حمَّ الله مدفع

إذ كرر الشطر الثاني من البيت من قوله السابق[6]:

---

1 السيرة/ق٢/٢٦.

2 نفسه/ ١٣٣.

3 نفسه/ ١٥.

4 مناقب آل أبي طالب/١/٢٢٣.

5 نفسه/ ١٣٤.

6 مناقب آل أبي طالب/١/١٥.

لأمر أراد الله أن يهلكوا به   وليس لأمر حصة الله زاجر

وأما **عبد الله بن رواحة** فكان واحداً من نقباء العقبة الثانية، كما كان أثيراً لدى رسول الله. وقد أتاح له ذلك أن يفهم أفكار الإسلام السمحة أكثر صاحبيه، فمضى يصدر عنها في شعره على شاكلة قوله[1]:

شهدت بأن وعد الله حق   وأن النار مثوى الكافرينا

وحتى في الرثاء فإنه لا ينسى أن يأتي بمعاني الإسلام السمحة، فنراه لا ينعت الميت بالجود والكرم والشجاعة وأصالة النسب على عادة الجاهلية، وإنما يصفه بالوفاء والصدق والصبر وقول السداد وابتغاء رضوان الله أو كما يقول[2]:

رحم الله نافع بن بديل   رحمة المبتغي ثواب الجهاد

صابر صادق وفي إذا ما   أكثر القوم قال قول السداد

ويبدو الإيمان بالقضاء واضحاً في شعر عبد الله، فهو يؤمن أن العمر بيد الله، فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون كما نرى في قوله[3]:

يا نفس إلا تقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت   إن تفعلي فِعلَهُما هديت

فهو متأثر بقوله تعالى: ((**أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة**)). على أن التأثر بروح الإسلام كان ظاهرة واضحة في شعر الأنصار، وإن اختلف مقدار هذا التأثر قوة وضعفاً، ففي قول **أبي قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري**[4]:

ونعلم أن الله لا شيء غيره   وأن كتاب الله أصبح هاديا

وقول أبي الدرداء[5]:

يريد المرء أن يؤتى مناه   ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتي ومالي   وتقوى الله أفضل ما استفادا

---

[1] الاستيعاب/٣/٩٠١.

[2] السيرة/ق٢/١٨٨.

[3] نفسه/٣٧٩.

[4] نفسه/ ق١/٥١٣.

[5] الاستيعاب/٤/١٨٦٤ – تفسير القرطبي/١/١٦٢.

ما يدل على تأثر عميق بأفكار الدين الجديد.

وتمكن الإسلام من نفوس الشعراء فَصُقَلتْ مواهبهم، وأخذت تعطي أكلها عند غزوة الخندق أو بعدها بقليل، ولكن المعنى الإسلامي عندهم بدا واضحاً عميقاً عند الفتح.

وصارت الشخصية الإسلامية في الشعر تتميز تماماً عن الشخصية الجاهلية فيه، فبعد أن كان الفخر في الحرب بقوة العدد وبلاء القبيلة وكسب المغنم وسبي النساء، صار بالتسابق إلى شرف الجهاد ونيل الشهادة وانتصار جند الله على أعدائه، وأصبح الكسب كسب الآخرة ونوال رضوان الله، لا كسب الشاة والبعير وغيرهما من عرض الدنيا الزائل.

ومن أمثلة ذلك قول كعب بن مالك في يوم الخندق[1]:

ونعد للأعداء كل مقلص ... ورد ومحجول القوائم أبلق[2]

أمر الإله بربطه لعدوه ... في الحرب، إن الله خير موفق

لتكون غيظاً للعدو وحيطاً ... للدار إن دلفت خيول النزق[3]

فهو متأثر بالآية التي تقول: ((**وأعدوا لهم ما اسْتَطَعتُم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**...))

وأصبح التوكل على الله والاعتماد عليه بدل الاعْتمادِ على القوة والعدد على شاكلة قوله[4]:

إذا قالت لنا النذر اسْتَعدُّوا ... توكلنا على رب العباد

وقلنا لن يفرج ما لقينا ... سوى ضرب القوانس والجهاد

وهكذا بدأ الشعراء يتعمقون المعاني الإسلامية، ويستوحون القرآن في أشعارهم فيقتبسون منه تلك المعاني التي تناسب الحدث، كما نرى ذلك واضحاً عند حسان يوم الخندق في قوله[5]:

فكفى الإله المؤمنين قتالهم ... وأثابهم في الأجر خير ثواب

من بعد ما قنطوا ففرق جمعهم ... تنزيل نصر مليكنا الوهاب

---

[1] السيرة/ق٢/٢٦٢.

[2] المقلص: الفرس الخفيف.

[3] حيط: جمع حائط وهو اسم الفاعل من حاط يحوط، ودلفت: قربت، والنزق: الغاضبون السيئو الخلق الواحد نازق.

[4] السيرة/ق٢/٢٦٥.

[5] نفسه/٢٥٨.

فمما لا ريب فيه أن حساناً قد قرأ آيات سورة الأحزاب التي تقول: ((**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابْتُلِيَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً**)) إلى قوله تعالى: ((ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوماً عزيزاً)) قبل أن يرسم لنا هذه الصورة الشعرية.

وتبدو المعاني الإسلامية أشد وضوحاً في قول **عامر بن الأكوع** عند مسير المسلمين إلى خيبر[1]:

فأنزلن سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا

قول عبد الله بن رواحة[2]:

أركسو في فتنة مظلمة   كسواد الليل يتلوها فتن

وبدا التمسك بالقرآن الكريم والمضي في الجهاد واضحاً في قول حسان[3]:

نجالد الناس لا نبقي على أحد   ولا نضيع ما توحي به السور

حتى مدح الله لرسوله اقتبَسه حسان من القرآن الكريم وسجله في شعره وذلك قوله[4]:

عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى   حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

عطوف عليهم لا يثني جناحه   إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

فهو متأثر بقول الله عز وجل: " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم". وقوله: ((**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك**..))

هكذا كان أثر الدين الإسلامي في شعر شعراء الإسلام، إلا أن هذا الأثر كما رأينا – كان محدوداً، إذ كان وقفاً على استعمال ألفاظ وتعابير معينة، ورصداً لبعض الأحداث والمناسبات، وتضميناً لبعض آيات القرآن، ومدحاً للإسلام ورسوله وشهدائه. وقد أفرغوا جهدهم الفني – كما يبدو - في النقل والاقتباس، فلم يفيدوا من أسلوب القرآن الفكري في المحاجة والجدل، وحمل

---

[1] أسد الغابة/٣/١٢٥.

[2] تفسير القرطبي/٥/٣٠٧.

[3] السيرة/ق٢/٤٩٨.

[4] ديوانه/ ١٤٩.

الكفار على التفكير وإعادة النظر في عقيدهم الشركية، ولم يفيدوا كذلك من أسلوب القرآن القصصي في الوعظ والتخويف مع أن موقف الصراع مع المشركين كان يقتضي إبراز مثل هذه المعاني السامية.

وإذا ما تركنا شعراء المسلمين في المدينة –بعد إطالة الوقوف معهم - وتحولنا إلى شعراء مكة المشركين نجد الأثر الإسلامي مطموساً في أشعارهم، وهذا أمر طبيعي لأنهم لم يؤمنوا بالإسلام ولم يعترفوا بالنبوة، وكل ما فعلوه أنهم أفرغوا جهدهم في ذكر المثالب والهزائم، والانتقاص من الأحساب والوعيد والتهديد، ولم نجد لهم شعراً فيه تعريض بالإسلام والنبي مع أن القرآن الكريم تناول آلهتهم وعقولهم بالتسفيه، وأثبت عجزهم وعجز آلهتهم.

وتحول الموقف بعد الفتح فأقبل شعراء مكة على الإسلام يذكرونه بالخير ويمدحون النبي – عليه السلام - ، ويعلنون عن دخولهم فيه ويكفرون عما نطقت به ألسنتهم من هجاء بأشعار يعتذرون فيها للرسول. وحملت أشعارهم تلك بعض المعاني الإسلامية التي تدل على قوة الإيمان، وصدق العقيدة على شاكلة قول عبد الله بن الزِّبَعرى للرسول[1]:

آمن اللحم والعظام لربي　　　ثم قلبي الشهيد أنت النذير

وقول أبي سفيان بن الحارث في رثاء الرسول[2]:

نَبِيٌّ كان يجلو الشك عنا　　　بما يوحى إليه وما يقول

أما الطوابع الإسلامية في شعر القبائل فمحدودة وبسيطة فلا تكاد تتعدى المفاهيم العامة للفكر الإسلامي كالتوحيد والقرآن والنبوة والبيعة والهجرة والنصرة إلا قليلاً، فالبدوي طلاع إلى التنقل والحرية، مطبوع على البساطة والعفوية، ينفر من التعقيد والشرح والتأويل، وشعره كحياته فقصيدته لا تعالج غرضاً واحداً فحسب وإنما تعالج موضوعات عدة.

واحتفظ الشاعر البدوي بهذا النهج في الإسلام، ولذلك نراه لا يطيل الوقوف عند المعاني الإسلامية، وإنما يلم بها إلماماً سواء في ذلك المتأثر بالاسم تأثراً قوياً أم الذي كان تأثره بالإسلام ضعيفاً.

ظلت المعاني الإسلامية في شعر القبائل عامة وبسيطة، من ذلك قول ابن لقيم العبسي[3]:

---

[1] السيرة/ق٢/٤١٩.

[2] الروض الأنف/٢/٣٨٠.

[3] السيرة/ق٢/١٩٦.

معاناً بروح القدس ينكي عدوه   رسولاً من الرحمن حقاً بمعلم

رسولاً من الرحمن يتلو كتابه   فلما أنار الحق لم يتلعثم

وشبيه بهذا قول النابغة الجعدي[1]:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى   ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا

وشبيه به أيضاً قول كعب بن زهير[2]:

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

وكان تأثير الإسلام عليه أقوى عندما قال في مدح الأنصار[3]:

يتطهرون يرونه نسكاً لهم   بدماء من علقوا من الكفار

ويبدو أن تأثير الإسلام في أخيه بجير كان أقوى وأعمق، ولعل مَرَدَّ ذلك يرجع إلى سبقه في الإسلام، وإقباله على أفكاره وفهمه لأحداثه ويظهر ذلك في قوله[4]:

والله أكرمنا وأظهر ديننا   وأعزنا بعبادة الرحمن

والله أهلكهم وفرق جمعهم   وأذلهم بعبادة الشيطان

فهو متأثر بقوله تعالى " **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**"

على أن أفكار الإسلام ومفاهيمه قد أخذت تتضح عند العرب منذ فتح مكة، وصار الشعراء يصدرون عنها في قريضهم، فهذا **فضالة بن عمير الليثي** يمتنع عن العبث والمجون على الرغم من حداثة عهده بالإسلام وتدعوه امرأة مشركة إلى الحديث واللهو فيعلن عن رفضه بقوله[5]:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا   يأبى عليك الله والإسلام

لو ما رأيت محمداً وقبيله   بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بينا   والشرك يغشى وجهه الإظلام

فكأنه متأثر بقول الله تعالى: ((وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)).

---

[1] جمهرة أشعار العرب/٢٧٥.

[2] ديوانه/٢٣.

[3] ديوانه/ ٣٥ – طبقات الشعراء/ ٣٤.

[4] السيرة/ق٢/٤٥٩.

[5] السيرة/ق٢/٤١٧.

وأثَّرّ الإسلام في نفس **عباس بن مرداس** – رغم ولائه الشديد لقبيلته، وفخره الدائب بأمجادها. وظهر هذا الثر في أبيات متناثرة من شعره على شاكلة قوله في مفهوم البيعة[1]:

نبايعه بالأخشبين وإنما ... يد الله بين الأخشبين نبايع

فهو ولا شك متأثر بالآية الكريمة التي تنص على: ((**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً**)).

ويعلن عباس أن جهاده وجهاد قومه إنما هو في سبيل الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور بقوله[2]:

رضا الله ننوي لا رضا الناس نبتغي ... ولله ما يبدو جميعاً وما يخفى

فهو متأثر بقوله تعالى: ((**ومن الناس من يشري نفسه ابْتِغَاءَ مرضاة الله والله رؤوف بالعباد**))

وأما قوله[3]:

ولكن دين الله دين محمد ... رضينا به فيه الهدى والشرائع

أقام به بعد الضلالة أمرنا ... وليس لأمر حصة الله دافع

فمن قوله تعالى: ((**كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**)).

وتظهر الروح الإسلامية واضحة في قول **لبيد**[4]:

وما الناس إلا كالديار وأهلها ... بها يوم حلوها، وغدوا بلا قع

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

وما البر إلا مُضْمَراتِ من التقى ... وما المال إلا عاريات ودائع

وشبيه بهذا المعنى قوله[5]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وكل أناس سوف تدخل بينهم ... دويهية تصفر منها الأنامل

---

[1] نفسه/ ٤٦٣.

[2] نفسه/ ٤٦٦.

[3] السيرة/ق٢/٤٦٤.

[4] الشعر والشعراء/١/٢٧٨.

[5] نفسه/ ٢٧٩ – الأغاني/١٤/٩٩.

فهو في البيت الأول متأثر بقوله تعالى: ((**كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**)) أما البيت الثاني فمقتبس من الآية: ((**كل نفس ذائقة الموت**)).

وتبدو بعض الملامح الإسلامية في قول بشير بن علقمة النجراني –وكان نصرانياً فأسلم– للرسول[1] - صلى الله عليه وسلم -:

إليك يعدو قلقاً وضينها مخالفاً دين النصارى دينها

كما يظهر التعريض باليهودية والنصرانية والتصريح بالولاء للدين الإسلامي الحنيف في قول **العوام بن جهل الهمداني**[2]:

من مبلغ عنا شآمي قومنا ومن حل بالأجواف سراً وجهرا

بأنا هدانا الله للحق بعدما تهود منا حائر وتنصرا

وأنا سرينا من يغوث وقربه يعوق وتابعناك يا خير الورى

وهكذا أثر الإسلام في شعراء الفترة، فأصبحت أفكاره تخالط قوافيهم كما خالطت نفوسهم، وأخذوا يصدون في أشعارهم عن معانيه السامية، ولكن هذا التأثير كان –بطبيعة الحال- يختلف قوة وضعفاً، حسب موقف هؤلاء الشعراء من الإسلام، وقد بينا أنهم لم يستطيعوا أن يفيدوا من معانيه تلك الإفادة التي كنا نرجوها ونتطلع إلها، فوقفوا عند معانيه العامة التي أتاحت لهم ظروفهم السياسية أن يعوها ويفهموا أبعادها.

أشكال شعر الصراع:

عرضنا -في الفصول السابقة- الصراع الذي احْتَدَمَ بين الإسلام وخصومه في عصر النبي، ووقفنا على دور كل طرف من أطراف هذا الصراع، وبينا الاتّجَاهَاتِ التي كانت تشد إليها كل طرف من هذه الأطراف، ثم كشفنا عن مشاعر العرب وأحاسيسهم تجاه الدعوة الفكرية التي جدت على بيئتهم في تلك الفترة من الزمن.

وكان طبيعياً أن ينفس العرب عن هذه المشاعر والأحاسيس، وأن يصوروا خبايا نفوسهم وأن ينقلوا ما يضطرم في هذه النفوس من العواطف -سواء في ذلك من حمل الفكر الجديد وتبنى أحكامه وعمل على ظهوره، أم أولئك الذين جمدوا على الكفر والشرك، ذل أن السيف وحده لم يكن يكفى للتعبير عما يخالج النفوس من العواطف والأحاسيس.

---

[1] الإصابة/١/١٦٥.

[2] نفسه/٥/٤١-٤٢.

وقد رأينا أن هذا التنفيس عن خبايا النفوس قد اقْتَرنَ بالتعبير الشعري الذي انطلق من أفـــواه الشعراء المتحاربين ليصور ما يحسون به ويسجل ما يتألمون منه وما يألمون له. واضطلع الشعر بهذه المهمة فمضى يلاحق الأحداث ويرصد عنف القتال ويسجل الانتصارات والهزائم ويرسم لوحات صادقة معبرة لنفسيات الأطراف المتصارعة فاتَّسَمَ بسمات واضحة، واصْطَبغَ بصبغات معينة تختلف عما عرفه هذا الشعر عند الجاهليين، سواء فيما يحفظ به من شكل أم فيما يحصل بين قوافيـــه مـــن مضمون.

ولدى تتبعنا أنواع هذا الشعر وجدنا أنه ينقسم إلى نوعين كبيرين من حيث الشكل الفني وهما: الرجز والقصيد.

أولاً: الرجز

وقد شاع الرجز في عصر النبي، ذلك أن الصراع العنيف الذي دارت رحـــاه بـــين الإســـلام وخصومه قد أذكت جذوة الشعر بجميع ألوانه فَسَالَ على ألسنة الشعراء المتخاصمين، واسْـــتَمرُّوا على قوله وإنشاده كما كانوا يفعلون في جاهليتهم. والرجز بصفة خاصة يتميز بـــدور كـــبير في ظروف القتال – لم يَتَسنَّ للشعر - في التحميس، ورفع روح المحاربة لسهولة نظمـــه وقربـــه مـــن السليقة العربية من ناحية ولانسجامه مع مثل هذه المواقف والظروف النفسية التي تتميز بالحركـــة والاضطراب وتتسم بالسرعة ولانفصال من ناحية أخرى، فهو شبيه بها في سرعة انحداره من أفواه منشديه[1]. قال الجاحظ في البيان والتبين: وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وإنمـــا هـــو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى الرجز يوم الخصام أو حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عنـــد المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وَهْمَهُ إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني أرسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً"[2]. ومن هنا انتشر الرجـــز بين شعراء الصراع وخاصة المغمورين منهم، لأنه كان أصلح أشكال الشعر للتعبير عن الحاجـــات اليومية الطارئة، يقول أحد المسلمين في بناء مسجد المدينة[3]:

لئن قعدنا والنبي يعمل   لذاك منا العمل المضلل

---

[1] شاكر الجودي/ إمامه في الرجز/٣٠.

[2] البيان والتبين/٣/١٣.

[3] السيرة/ق١/٤٩٦.

وارْتَجاز المسلمين وهم يقومون بالبناء[1]:

لا هم إن الأجر أجر الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة

فضلاً عن أنه أداة من أدوات التحميس في القتال لسهولته وشعبيته كقول الأنصار وهم يشاركون في حفر الخندق[2]:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما حيينا أبداً

وقد واكب الرجز أحداث الصراع منذ الهجرة إلى ما بعد الفتح ،كما أنشده بعض شعراء الوفود بين يدي الرسول عندما دانت العرب لسلطان الإسلام[3].

وعندما قمنا بإحصاء ما قيل من هذا الشعر في فترة الصراع، توافر لدينا منه ما يقرب من ثمانين نصاً قيل معظمها في ساحة المعركة، وقد وجدنا ستة نصوص منها تزيد عن عشرة أبيات من الرجز المشطور[4] وخمسة عشر نصاً تزيد عن خمسة نشير إلى مصادر بعضها[5]، أما النصوص الباقية فتقل عن خمسة أبيات ومرد ذلك:

أولاً - أن هذه الفترة التي نقوم بدراستها كانت وثيقة الصلة بالجاهلية، والعرب في جاهليتهم لم يكونوا يطيلون الأراجيز وإنما أطالها المخضرمون والإسلاميون **كالأغلب العجلي الصحابي وأبي النجم والعجاج ورؤبة**[6].

وثانياً: أن هذه الفترة كانت فترة صراع وقتال، مما يحمل الشاعر على التعبير عن مشاعره والتنفيس عن عواطفه بأوجز العبارات الشعرية للتحميس، ورفع معنويات المحاربين من قومه، وتثبيط عزائم المقاتلين من أعدائه.

وثالثاً: أن الرجز لشيوعه وسهولته وقربه من السليقة العربية كان سبيل الشعراء المغمورين الذين أنطقتهم الأحداث بأنفاس قصيرة لاهثة وهم كثرة كثيرة في فترة الصراع.

---

[1] صحيح البخاري/٤/٣١، صحيح مسلم٥/١٨٩.

[2] صحيح مسلم/٥/١٨٩.

[3] السيرة/ق٢/٥٩٧ – جمهرة اللغة/٢/٤١٥ -٤١٦.

[4] مسند أحمد/١١/١٢١ -٦٤٣، السيرة/١/٦٣٠، السيرة، ق٢/٤٠، ٣٩٤، ٤٤٧، ٥٧٢.

[5] السيرة/ ق١/ ٤٥٣، ٦٤٣، السيرة/ق٢/٩١، ٩٢، ١٦٦، ١٧٠، ٣٢٨، ٣٣٣، ٣٧١، ٣٧٩، ٤٠٨، ٤٣٦.

[6] البكري/ أراجيز العرب/٤.

ورابعاً: أن يكون هذا الشعر قد تناوله الضياع والعبث أو البتر والتحريف نتيجة إهمال الرواة لنقله وتدوينه باعتباره يمثل الأدب الشعبي عند العرب يومئذ.

وقد توزعت هذه الأراجيز على شعراء الفترة، المسلمين منهم والمشركين فكان نصيب شعراء المشركين ما يقرب من أربعين رجزاً قال أكثرها شعراء القبائل، ونشير هنا إلى مصادر بعضها[1]. ولكن هذه الأراجيز كانت سبيل الشعراء المغمورين الذين أنطقتهم قسوة القتال. أما الشعراء الممتازون فكانوا يترفعون عن النظم في الرجز كأنه ليس أهلاً لمترلتهم الشعرية وينصرفون عنه إلى القصيد، فلم نجد لحسان بن ثابت غير رجز واحد من ثلاثة أشطر قاله لاسْتِرضَاء **سعد بن زيد** الذي حلف ألا يكلمه أبداً[2]، ورجزين **لكعب بن مالك**[3] **وأربعة أراجيز لعبد الله بن رواحة**[4] **ورجز لأبي سفيان بن الحارث** في يوم حنين[5]. أما عبد الله بن الزبعري وضرار بن الخطاب وأبو سفيان ابن حرب وكعب بن زهير وكعب بن الأشرف والعباس بن مرداس فلم نجد لهم شيئاً، فكأن الرجز لا يليق بصاحب الشاعرية القوية أن يقف عنده أو يقوله إلا عرضاً كما رأينا من أمر حسان، وهذا يفسر لنا سبب نسبة أراجيز الفترة إلى شعراء مغمورين، كما يفسر لنا أيضاً سبب اختلاط نسبة بعضها ووقوع التحريف والابتسار في بعضها الآخر.

على أن من هذا الرجز ما وصلنا مجهول القائل، فقد حملت لنا مصادر الفترة ستة عشر نصاً منه غير معزوة إلى قائل[6]، وسبب ذلك –فيما نظن- أن الرواة قد اعتبروه بضاعة كاسدة فتخففوا من حمله وروايته وصبوا عنايتهم على القصيد، أو أن ظروف الحرب والصراع لا تمكن من معرفة القائل وبخاصة ما كان منه في ساحة القتال، ذلك أن صليل السيوف وتساقط القتلى وضجيج المعركة لا يساعد على التحقق من القائل وكل ما يعني الرواة في مثل هذه المواقف، هو أن يتحققوا من النص فقط، لعلاقته بخبر المعركة وأسبابها ونتائجها.

---

[1] السيرة/ق٢/٤٠٨، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤٨، ٤٥٥، تاريخ الطبري٣/١١، أنساب الأشراف/١/٣٦٧، المسند/١١/١٢.

[2] السيرة/ق٢/٢٨٧.

[3] السيرة/ق٢/٣٣٣، الأغاني/١٦/٢٣٠.

[4] سير أعلام النبلاء/٢/١٧٢، تاريخ الطبري/٣/٣٩، تفسير القرطبي/١٢/٤، كتاب سيبويه/٢/٢٠٦.

[5] أنساب الأشراف/١/٣٦٥.

[6] السيرة/ق١/٤٩٦، السيرة/ق٢/٤٣٥ – صحيح البخاري/٤/٣١.

وأراجيز الفترة - على قصرها وإيجازها - تناولت أكثر الأغراض التي تناولها شعر الفترة خاصة، والشعر العربي عامة، فقد قالها الشعراء في الفخر والحماسة، وقالوها في التهديد والوعيد، وقالوهـــا في الرثاء والمديح ،كما قالوها في المناقضات[1] والدين[2] وحصار المدن[3]، فهذه **هند بنت عتبة** تصاحب جيش المشركين إلى غزوة أحد، وتتولى تحميس المقاتلين بقولها[4]:

ويهاً بني عبد الدار ويهاً   حماة الأدبار ضرباً بكل بتار

وهذا **شداد بن الأسود** يندفع إلى قلب المعركة صائحاً[5]:

لأحَمِيَنَّ صاحبي ونفسي   بطعنة مثل شعاع الشمس

وكان الرجز سبيل بعض الفرسان يقولونه وهم يخوضون غمار المعركة لإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، فهذا أبو زعنة الخزرجي يرى في القتال ألماً ولكن الفرار والهزيمة مخزاة، ولذلك فقد حملـــه حرصه على حماية الذمار أن يندفع إلى لقاء المشركين وهو يرتجز[6]:

أنا أبو زعنة يعدو بي الهزم   لم تمنع المخزاة إلا بالألم

يحمي الذمار خزرجي من جشم

ويبرز دور الرجز -أكثر ما يبرز - في ساحة القتال، فتعقد قوافيه أو تطلق لتحميس المقـــاتلين ورفـــع معنوياتهم، فإذا ما نجح الفارس في أداء مهمته، واستطاع أن يهزم أعداءه أو يرد المغيرين على حِماهُ، بـــادر الشاعر إلى مدحه والإشادة ببطولته، وأسهل شكل للتعبير عن ذلك إنما هو الرجز.

فهذا **حسان بن ثابت** يبادر إلى مديح سعد بن زيد الذي طارد عيينة ابن حصن **الفزاري** عندما أغـــار على سرح المدينة فيقول[7]:

إذا أردت السيد الأشدا   من الرجال فعليك سعدا

سعد بن زيد فاتَّخذهُ جنداً   ليس بخوار يهـــد هـــدا

---

[1] السيرة/ق٢/٩١.

[2] السيرة/ق١/٤٩٦، السيرة/ق١/٤٥٣.

[3] أنساب الأشراف/١/٣٦٧.

[4] السيرة/ق٢/٦٨ – تاريخ الطبري/٢/٥١٢.

[5] السيرة/ق٢/٧٥، تاريخ الطبري/٢/٥٢٢.

[6] السيرة/ق٢/١٦٥.

[7] ديوان حسان/٢٠٩.

وإذا ما فقد القوم فارسهم وحامي ذمارهم سارع شاعرهم إلى نعيه، فهذا **لبيد بن ربيعه** يفقد أخاه أربد فيحس بالفاجعة والألم، فيسارع إلى رثائه مرتجزاً[1]:

انع الكريم للكريم أربدا	انع الرئيس واللطيف كبدا
يحذي ويعطي ماله ليحمدا	أدماً يشبهن صواراً أبدا
السابل الفضل إذا ما عددا	ويملأ الجفنة ملأ مددا
رفهاً إذا يأتي ضريك وردا	مثل الذي في الغيل يقرو جمدا
يزداد قرباً منهم أن يوعدا	أورثتنا تراث غير أنكدا
غباً ومالاً طارفا وولدا	شرخاً صقوراً يافعاً وأمردا

وبهذا نرى أن الرجز لم يقصر عن القصيد في معالجته للأغراض التي يتناولها القصيد بل نراه يتناول أكثرها. وخاصة ما كان منها ذا علاقة بظروف الحرب والقتال كالفخر والحماسة والمديح والرثاء والهجاء والمناقضات. ونكتفي هنا بما أوردنا من شواهد على أن نعود إلى إثبات شواهد أخرى عند حديثنا عن موضوعات شعر الصراع بعد قليل.

ولئن كان الرجز في أصله شعراً بدوياً محضاً –لغة وموضوعاً - وأداره الرجاز على الموضوعات المألوفة عند سكان البراري ،وملؤوه ألفاظاً غريبة خاصة لأهل البادية وبعيدة عن متعارف أهل الحضر[2] فقد أصبح يتناول أغراض القصيدة كلها - وإن ظل الغريب من سماته - ويتردد على ألسنة الشعراء بدوهم وحضرهم. ومعظم ما بين أيدينا من أراجيز الصراع إنما هي من قِبَلْ الشعراء الحضريين الذين عاشوا في مدينتي: مكة والمدينة، أو في أماكن قريبة منهما ووثيقةِ الصلة بهما. ولا شك أن هذه الحياة الحضرية قد أثرت في لغة الرجز تأثيراً مباشراً فَخلصَتْ هذه اللغة من خشونة البداوة وغرابتها، يدل على ذلك قول **عبد المطلب بن هاشم** في يوم الفيل[3]:

يا رب لا أرجو لهم سواكا	يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا	إنهم لن يَقْهَروا قواكا

---

1 السيرة/ق٢/٥٧٢.

2 نالينو/ تاريخ الآداب العربية/ ٢١٧.

3 تفسير القرطبي/٢٠/١٩١.

ولما جاء الإسلام زاد ألفاظه تهذيباً ورقة فخلت -نوعاً - من التعقيد والإغراب كما نرى في قول على بن أبي طالب[1]:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيه قائماً وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

وقول **عامر بن الأكوع الأنصاري** في قتال اليهود من أهل خيبر[2]:

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

على أن أراجيز شعر الصراع لم تتخلص تماماً من الألفاظ الغريبة - وإن حاول الشعراء التخفف منها – فقد ظل بعض شعراء القبائل يتمسكون بالغريب، فهذا **عبد الله بن الأعور** أعشى بني مـــازن يمدح رسول الله ويعوذ به أن يرد عليه امرأته الناشز التي عاذت **بمُطَرِف بن نهضل** فيقول[3]:

يا سيد الناس وديـــان العرب ينمى إلـــى ذروة عبد المطلب

تلك قروم سادة قدمـــاً نجب إليك أشكو ذربة من الذرب[4]

كالذئبة الغباء في ظـــل السرب أخلفت العهد ولطت بالذنب

وتركتني وسط عيص ذي أشب تود أني بين غيض مؤتشب

أكمه لا أبصر عقدة الكـــرب تكد رجلي مسامير الخشب

وهن شر غالب لمن غلب

أما معاني الرجز فليس فيها خيال سائغ ولا تشبيهات تدل على سعة التصور وعمق الفكر، وإنما هي معان ضيقة محدودة تعكس البيئة التي لم تكن توحي برقة أو عذوبة ولا بخيال رائع، وتناســـب ظروف القتال التي تتسم بالحركة والاضطراب وتحمل الشاعر على الارتجال لملاحقة الأحداث دون ما محاولة للتنميق والمعاناة التي يصطنعها مقصد القصيد عادة، فهل -ثمة - من بساطة وسطحية أكثر من قول المسلمين[5]:

---

[1] السيرة/ق١/٤٩٧.

[2] صحيح مسلم/٥/١٩٥.

[3] مسند أحمد بن حنبل/١١/١٢١.

[4] ذربة: كناية عن فسادها وخيانتها وأصله من ذرب المعدة وهو فسادها، وقيل: ذرب لسانه: إذا كان حادّ اللسان لا يبالي.

[5] السيرة/ق٢/٢١٧.

سماه من بعد جُعَيلٍ عمراً   وكان للبائس يوما ظهرا

يرتجزون يوم الخندق برجل يقال له جعيل سماه رسول الله عمراً. وهل هناك من عفوية أكثر وضوحاً من ارتجاز امرأة من المسلمين في يوم حنين[1]:

غلبت خيل الله خيل اللات   وخيله أحق بالثبات

كل هذا يجعل الرجز تعبيراً صادقا عن كل ما يشعر به قائلوه دون تكلف وصورة واضحة للبساطة والعفوية التي طبعت بها بيئتهم وحياتهم.

ثانياً: القصيد

أما الشكل الثاني من أشكال شعر الصراع فهو القصيد، قال ابن جني وسمي بذلك لأنه قصد واعتمد، والقصيدة ما زادت على عشرة أبيات أو خمسة عشر بيتاً، أما ما دون ذلك فهي قطعة أو مقطوعة، فالمقطوعة إذن أبيات من الشعر لا تزيد عن عشرة[2].

وقد حملنا هذا الرأي على القيام" أولاً" بإحصاء ما بين أيدينا من شعر الصراع فوجدنا أن ما توافر لدينا منه يقرب من أربعمائة و ثمانين من القصيد، ثم قمنا " ثانيا" بالوقوف على هذه النصوص والتحقيق من عدد أبياتها وإذا ما اعتبرنا أن المقطوعة هي النص الشعري الذي تقل أبياته عن عشرة فإننا نجد أنفسنا أمام نوعين من القصيد في شعر الصراع: أولهما: **القصيدة** وهي ما زادت أبياتها على عشرة. وثانيهما: **المقطوعة** وهي ما كانت أبياتها دون ذلك.

وعندما وقفنا على القصائد وجدنا أنها تقرب من مائة قصيدة وخمس عشرة قصيدة، منها القصائد الطويلة نوعاً وهي ما كانت بين عشرة أبيات وعشرين بيتاً، وهذه تستغرق الغالبية العظمى من القصائد، إذ تبلغ زهاء تسعين نصاً، ومنها القصائد المتوسطة الطول وهي ما كانت بين عشرين وثلاثين بيتاً، وهذه لا تزيد عن ست عشرة قصيدة. ومنها القصائد الطويلة وهي ما زادت على ثلاثين بيتا، ومثل هذه القصائد قليلة جداً في شعر الصراع فهي لا تتجاوز عدد أصابع اليدين معاً[3].

---

[1] نفسه/٤٤٩.

[2] مادة"قصد"/ لسان العرب.

[3] السيرة/ق١/٢٧٢، السيرة/ق٢/١٣٢ ديوان كعغب بن زهير/٢٦- ٤٠، السيرة/ق٢/٦٦٦، ديوان حسان/٤٠٤.

وعدد القصائد في شعر الصراع قليل إذا ما وازنا بينه وبين عدد المقطوعات التي تصل إلى ثلاثمائة مقطوعة وستين مقطوعة. ونظن أن سبب قلة عدد القصائد عن المقطوعات في شعر الصراع، إنما يرجع قبل كل شيء إلى طبيعة الفترة التي قيل فيها هذا الشعر، فالفترة كانت فترة قتال عنيف وصراع مبدئي حاد، وفي مثل هذه الظروف الطارئة يفتقد الشاعر حالة الاستقرار النفسي التي تعينه على التقاط أنفاسه وتوفر له وقتا كافياً لنظم القصائد الطويلة فيجري لاهثاً مسرعاً ليواكب الأحداث ويعيش ظروف الحرب التي يعيشها قومه فتفور عاطفته بمقطوعات قصيرة يودعها مشاعره وأحاسيسه ويصور فيها مواقفه.

أما بعد القتال فيلتقط الشاعر أنفاسه ويتمكن من التعبير الوجداني الهادئ فيشيد بشجاعة قومه ويهون من قدر أعدائه ويصطنع الحجج الدامغة للرد على خصومه، كل هذا يحمله على اختيار فكرته، وانتقاء ألفاظه ومعانيه وإطالة النظر في الصياغة فيطول بذلك نفسه. وطبيعة الشاعر هذه تحملنا على الظن بأن القصائد الطويلة أو أكثرها إنما نظمت بعد انتهاء القتال والْتقاطِ الأنفاس.

والظاهرة التي تثير الاهتمام أن القصائد المنسوبة إلى شعراء المشركين أقل بكثير من تلك القصائد المعْزُوَّة إلى شعراء المسلمين، فهي لا تزيد على خمس وأربعين قصيدة، وتنحصر أبيات معظمها ما بين عشرة إلى ثمانية عشر بيتاً[1]، وقل أن نجد قصيدة منها تزيد على عشرين بيتاً[2]، بينما نجد قصائد شعراء المسلمين تصل إلى سبعين قصيدة، وليس هذا فحسب وإنما قصائد كثيرة منها تزيد أبياتها عن عشرين بيتاً[3]، بل وثلاثين بيتا أحياناً[4]. ونرجح أن سبب ذلك يعود إلى ضياع شعر المشركين وطمسه وبخاصة ما كان من شعرهم فيه تعريض بالإسلام أو بالرسول وأصحابه وقد بينا في الفصل الأول من هذا الكتاب أن الرواة كانوا يتحرجون من رواية أشعار المشركين، بل إن بعضهم **كأبي عبيد** قد حرم رواية نصف بيت من هذا الشعر، وكره كثير من أهل العلم فعل ابن اسحق في إدخاله الشعر الذي نيل فيه من رسول الله في السيرة[5]. وحتى هذا الشعر القليل الذي وصلنا من شعر المشركين قد لحقه الإسقاط والتغيير، فكثيراً ما تطالعنا صفحات السيرة وغيرها بترك

---

[1] السيرة/ق١/٥٩٣، السيرة/ق٢/١٠، ١٣، ٢٦، ١٤٦.

[2] السيرة/ق١/٣٨٦، السيرة/ق٢/٣٠، ٣٤، ١٢٩.

[3] السيرة/ق٢/١٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٧، ١٥٩، ٢٦١، ٢٦٣، ٤٢١.

[4] السيرة/ق٢/١٣٢، ١٥١، ٥٥٧، ٦٦٦، ديوان حسان/ ٤٠٤.

[5] الروض الأنف/٢/٥٧.

قصيدة[1] أو أبيات أو بيت لأن الشاعر قد أقذع فيها[2] أو نال من أصحاب رسول الله[3] أو لأن فيها كفراً بليغاً[4]. وبهذا لا نستغرب أن نجد ما نسب من قصائد إلى شعراء المشركين قليلاً.

فإذا ما انتقلنا إلى صور هذه القصائد، وجدنا أنها على نوعين:

نوع نهج فيه شعراء الصراع إلى استعمال المقدمات التقليدية كما كانوا يفعلون في الجاهليـــة، ونوع آخر تحرروا فيه من قيود هذه المقدمات والمقدمة عند شاعر الصراع إما غزلية كقول عباس بن مرداس السلمي[5]:

تقطع باقي وصـــل أم مُؤَمـــّلِ بعاقبـــة واسْتبَدلَتْ نيـــة خلفـــا

وقد حلفت بالله لا تقطع القوى فما صدقت فيه ولا برت الحلفا

خفافية بطـــن العقيق مصيفها وتحتل في البادين وجـــرة فالعرفا

فإن تتبع الكفـــار أم مؤمـــل فقد زودت قلبي على نأيها شغفا

وإما طللية كقول **حسان بن ثابت**[6]:

أهاجـــك بالبيداء رسم المنازل نعم قد عفاها كل أسحم هاطل

وجرت عليها الرامسات ذيولها فلم يبق منها غير أشعث مائل

ديـــار التي راق الفؤاد دلالها وعز علينا أن تجـــود بنائل

وإما حربية كقول **عباس بن مرداس السلمي**[7]:

إمـــا تري يـــا أم فروة خيلنا منهـــا معطلة تقـــاد وظلـــع

أوهى مقارعة الأعـــادي دمها فيها نواخذ مـــن جراح تنبع

فلرب قائلة كفـــاهـــا وقعنـــا أزم الحروب فسر بها لا تفزع

لا وفد كالوفد اللي عقدوا لنا سبباً بحبل محمـــد لا يقطع

---

[1] السيرة/ق٢/٣٨.

[2] السيرة/ق١/٥٩٤، السيرة/ق٢/٢١٣.

[3] السيرة/ق٢/٣٢.

[4] البداية والنهاية/٣/١٨٦.

[5] السيرة/ق٢/٤٦٤- ٤٦٥.

[6] الديوانت/٣٦٩.

[7] ديوانه/٧٧.

ومقدمة شاعر الصراع لا تزيد عن وقفة طائر، فهو لا يكاد يلم بالديار الدارسة أو يناجي طيف الحبيبة الجافية، أو يستعرض خيل قومه التي أضعفتها قسوة الحرب، حتى يندفع إلى غرضه اندفاعاً، فيصف القتال ويفتخر بالنصر ويسوغ الهزيمة ويهدد بأخذ الثأر ويشيد بشجاعة الفرسان ويتصدى لهجاء الخصوم، ثم يقف على قتلى قومه فيبكي ويكثر البكاء.

وعلى هذا فشاعر الصراع مشغول عن العبث والمجون والحديث عن نفسه – إلا نادراً - بقضايا قومه المصيرية، فوقته كله ملك لقومه، ولذلك فسرعان ما يتَخلَّصُ من إلمامته بالديار، وحديثه مع حبيبته ليفزع إلى ساحة المعركة ويعيش أحداث الصراع. ومن هنا كانت المقدمة عند شاعر الصراع قصيرة فهي لا تكاد تتجاوز الأربعة الأبيات[1] إلا في القليل النادر[2].

وأطول هذه المقدمات جميعاً هي تلك المقدمة التي افتتح بها **كعب بن زهير** قصيدته اللامية المشهورة التي أنشأها لمديح الرسول، فهو قد وقف فيها مع سعاد في ثلاثة عشر بيتاً وخص ناقته بتسعة عشر بيتاً، فعل ذلك قبل أن ينتهي إلى موضوع المديح الذي أنشأ قصيدته من أجله.

ونظن أن سبب هذه الإطالة في التقديم إنما هو مرتبط بالظرف الذي نظمت فيه القصيدة، فهي لم تنظم في ساحة القتال، وإنما قالها كعب بعد انتهاء الصراع بين الإسلام وخصومه، وبانتهاء هذا الصراع تزول الأسباب والدوافع التي كانت تحمل شاعر الصراع على تقصير مقدمته أو التخفف منها، ويتوافر له الوقت الكافي لإطالة النفس وتعدد الموضوعات. ومن هنا فقد هُيّأ لكعب بن زهير في قصيدته هذه التي تبلغ خمسة وخمسين بيتاً ما يعينه على النسيب ووصف الناقة، بينما لم يتهيأ ذلك للشاعر في غمرة الأحداث، فقد وجدنا شاعراً كأبي طالب ينظم قصيدة طويلة جداً تصل عدة أبياتها إلى أربعة وتسعين بيتاً[3] دون أن يقدم لها، فقد حملته ظروف الصراع على الدخول في موضوعه رأساً.

على أن هذه المقدمة القصيرة التي كان شاعر الصراع يصطنعها أحياناً لم تكن لهواً وعبثاً ومضيعة للوقت، بل كانت في الغالب ذات صلة وثيقة بموضوعه الذي سيتحدث عنه، فهو –

---

[1] ديوان حسان/ ٧٠- ٧١، السيرة/ق٢/ ١٢٩، السيرة/ق٢/ ١٣٦، ١٤١، ١٥٧، ٢٥٧.

[2] السيرة/ق١/ ٣٨٦، ديوان حسان/ ٤١٨ -٤١٩، ديوان كعب بن زهير/٦- ٢٤.

[3] السيرة/ق١/ ٢٧٢- ٢٨٠.

مثلا - يلم بالديار فيندب رسمها الذي أمسى خلقاً، ويأسو لقفرها من ساكنها الذي كان بـــالأمس يملأ عرصاقا حياة وحيوية، ويقول كما يقول حسان في مقدمة قصيدة[١]:

فأمسى رسمها خلقاً وأمست   يباباً بعد ساكنها الحبيب

ليتغنى بالانتصار الذي أحرزه قومه وليشتفي بالقتلى الكثيرين من خصومه الذين شط بهم الموت عن ديارهم واصم آذانهم عن السماع وأخرس ألسنتم عن النطق بالحقيقة الـــتي يعنيهـــا حـــسان بقوله[٢]:

يناديهم رسول الله لمـــا   قذفناهم كباكب فـــي القليب

فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا   صدقت وكنت ذا رأي مصيب

وهو يشكو الأرق الذي يُلِمُّ به في الليل الحالك، فيصرف عينه عن النوم إلى مراقبة النجم المتألق في كبد السماء لا لمرضٍ أصاب هذه العين، وإنما لما ينصبُّ منها من جائِلِ الدمع، أو كما يقول **ضرار بن الخطاب**:

ألا من لعين باتَتْ الليل لم تنم   تراقب نجماً فـــي سوادٍ من الظلم[٣]

كأن قذىً فيها وليس بها قذىً   سوى عبرةٍ من جائل الدمع تنسجم

وهذا الدمع الجائل في عينه ينسكب جزعاً:

على هالكٍ أشجى لؤيّ بن غالبٍ   أتته المنايا يوم بدر فلم يرم

هكذا كانت مقدمة القصيدة عند شاعر الصراع تناسب موضوع الفخر أو الرثاء أو غيرهما من الموضوعات التي يعالجها في شعره.

وكان شاعر الصراع يحسن التخلص من مقدمته ويجيد الانتقال منها إلى الموضوع الذي أنـــشأ قصيدته من أجله، فإذا ما عاود **حسان بن ثابت** ليل عسير وهَمٌّ مانع من النوم ودافع إلى البكاء:

تأوّبني ليلٌ بيثرب أعسر   وهمٌّ إذا ما نوّم الناس مسهر[٤]

فإنما ذلك[١]:

---

[1] ديوانه/٧١.

[2] الديوان/٧٣.

[3] السيرة/ق٢/٢٧.

[4] الديوان/٢٣٥.

لذكرى حبيبٍ هيّجت ثم عبرةً سفوحاً وأسباب البكاء التّذكر
بـــلاء وفقدان الحبيب بلية وكم مـــن كريم يبتلى ثم يصبر

وبعد هذه المقدمة الحزينة انتقل حسان إلى موضوع الرثاء فأحسن التخلص من مقدمته حينمـــا قال:

رأيت خيار المؤمنين تواردوا شعوب وقد خلّفت فيمن يؤخّر

وإذا ما وازنّا بين القصائد ذات المقدمات التقليدية وتلك التي تخففّت من وطأها وتحرّرت مـــن قيودها نجد أها قليلة، فبينما تقرب الأولى من خمس وأربعين قصيدة، تصل الثانية إلى سبعين تقريباً[2]، واختفاء المقدمات من هذه القصائد يكاد يرتبط -فيما نظن- بسببين:

أولهما: أن تكون هذه المقدمات قد ضاعت عبر الطريق الطويل الذي قطعته القصائد قبل أن تنتهي إلينا أو تكون قد أهملت فلم تحظ بعناية الرواة والناقلين، أو تخفّف منها النّسّاخ والمدوّنون لأنهـــا لا تعضد الخبر الذي يَهِمّ أولئك أو لا تخدم الغرض الذي يعني هؤلاء.

وثانيهما: أن تكون هذه القصائد قد نظمت دون مقدّمات، كأن يكون الموضوع الذي أنشئت من أجله القصيدة لا يحتاج إلى مقدمة، مثال ذلك قول **حسان بن ثابت يهجو بني سهم بن عمرو بن هصيص وعمرو بن العاصي** في قصيدة مطلعها[3]:

لاطت قريش حياض المجد فافْتَرطَتْ سهم فأصبح منه حوضها صفرا
وأوردوا وحياض المجـــد طامية فذل حوضهم الوراد فَانْهَـــدَرا

أو لأن طبيعة الصراع قد حملت الشاعر على التخفف من إطالة الشرح ومن كل ما يعيقه عـــن ملاحقة الأحداث، ويلهيه عن الإسراع في تصويب سلاحه البتار إلى خصومه والمبادرة في الرد على شعرائهم إن هم حاولوا النيل من قومه، وكثيراً ما كان يدفعه هذا الموقف إلى الارْتِجَـــال. فكـــان بديهياً أن يعزف أحياناً عن كل ما يَشْغلهُ عن غرضه الُملحّ من مقدمات وتمهيدات، أما حديثه عن نفسه فيمكن أن يصل إليه من خلال الحديث عن بلاء قومه.

---

[1] الديوان/٢٣٥.

[2] السيرة/ق١/٢٦٧، ٢٨٣، ٣٥٢، السيرة/ق٢/٣١، ٣٤، ١٨١، ١٩٥.

[3] الديوان/٢٨٠.

ويبدو التخفف من المقدمات واضحاً في تلك المناقضات التي اضطرمت نارها بين شعراء الصراع، فقد وجدنا كثيراً منها دون مقدمات[1] وهذا يدل على مسارعة الشاعر في الرد على خصومه.

والمتحقق من قصيدة شعر الصراع يجد أنها -من حيث الموضوعات - نوعان: **قصيدة متعددة الموضوعات**، تتناول أبياتها أكثر من موضوع كالفخر والمديح والهجاء وغيرها، وأخرى تتناول موضوعاً واحداً يستغرق أبياتها جميعاً كالفخر أو الهجاء مثلاً[2].

وإذا ما بحثنا عن هذين النوعين في شعر الصراع، وجدنا أن القصائد المتعددة الموضوعات تكاد تصل إلى ستين نصاً، بينما تبلغ القصائد ذات الموضوع الواحد خمساً وخمسين قصيدة تقريباً. وقد وجدنا أن القصيدة المتوسطة الطول[3] أو الطويلة[4] هي في الغالب قصيدة متعددة الموضوعات، وهذا يحملنا على الظن بأنها كانت تنظم بعيداً عن أرض المعركة، سواء أكان ذلك قبل القتال أم بعده. فعندما تهدأ ثورة الشاعر ويلتقط أنفاسه يقوم باستعراض وقائع المعركة واستقصاء أحداثها، ثم يفرغ هذه الوقائع والأحداث في قصيدة متوسطة الطول أو طويلة، فإذا ما أحرز قومه النصر نهج إلى الحديث عن نفسه أو الفخر بقومه والإشادة بشجاعتهم وبطولتهم، ثم ينتقل إلى موضوع آخر كالمديح أو الهجاء أو الوصف، وقد ينتهي إلى تهديد عدوه بغارة عنيفة تنال من قوتهم وتستأصل شرهم، وربما قدم لموضوعات قصيدته بمقدمة طللية أو غزلية أو حربية بحيث تناسب المقام وترتبط بأحد هذه الموضوعات أو جميعها.

ويحسن بنا أن نُلمَّ بقصيدة من هذه القصائد ثم نقف عندها قليلاً لنرى كيف يعالج شاعر الصراع موضوعات قصيدته، ولنقف – مثلاً - عند هذه القصيدة اللامية التي يفتتحها حسان بن ثابت بقوله[5]:

لك الخير غضي اللوم عني فإنني   أحب من الأخلاق ما كان أجملا

---

[1] السيرة/ق١/٥٩٦، ٥٩٧، السيرة/ق٢/١٠، ١١، ١٢، ١٣، السيرة/ق٢/١٣٧، ١٤٥، ١٤٦، ١٩٩، السيرة/ق٢/٥٢، ٧٥، ٢١٢، ٢٧٣، ٤٧٩.

[2] السيرة/ق٢/٤٢٤، ٤٥١، ديوان حسان/ ٢٨٠، ٣١٩، ٣٤٢.

[3] السيرة/ق١/٣٧٨، ٣٨٦، السيرة/ق٢/١٢٩، ١٩٩، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣، ٤٢١، ٤٥١، ٤٧٩.

[4] السيرة/ق١/٢٨٣، السيرة/ق٢/٣٠، ١٣٢، ٥٠٣.

[5] ديوانه/٤٠٤.

ذريني وعلمي بالأمور وشيمتي فما طائري يومـاً عليك بأخيلا

ثم تحدث عن نفسه في أربعة أبيات أخرى، فافتخر بصفاته الحميدة وانتقل بعد هذا الحديث إلى وصف ناقته فاقتطع لها أربعة أبيات قال في واحد منها[1]:

مروعة لو خلفها صر جندب رأيت لها من روعة القلب أفكلا

ثم قفز عن متن ناقته إلى قومه فأطال الحديث عنهم، تحدث عن صفات سيدهم، وتحدث عن تواضعهم الجم لشيوخهم ثم غلا في فخره فقال[2]:

فنحن الذرى من نسل آدم والعرا تربـع فينا المجـد حتى تأثلا

بنى العز بيتاً فاسْتَقَرَّتْ عمـاده علينا فأعيا الناس أن يتحولا

وإنك لن تلقى من الناس مَعْشَراً أعز من الأنصار عِزّاً وأفضلا

وبعد هذا الفخر العصبي وقف على رجال قومه جميعاً، سادة وشيباً وشباناً وخطباء وشعراء فأسبغ عليهم ما جادَتْ به قريحته القوية من صفات حميدة، وبعد أن خصهم بسبعة عشر بيتاً، انتَقَلَ إلى وصف المدينة –هذا الوصف الذي لم يكن شائعا في عصره– فقال[3]:

لنا حـرة مأطـورة بجبالها بنى المجـد فيهـا بيته متأهـلا

بها النخل والآطـام تجري خلالها جداول قد تعلـو رقاقاً وجرولا

إذا جدول منها تصرم مـاؤه وصلنا إليـه بالنواضـح جدولا

على كل مفهاق خسيف غروبها تفرغ في حوض من الصخر أنجلا

له غلل في ظـل كـل حديقة يعارض يَعْبُوباً من المـاء سلسلا

وانتهى من هذا الوصف إلى قوله:

نصرنا وآوينا وقوم ضربنا له بالسيوف ميل من كان أميلا

و لكنه لم يزد على هذا البيت فلم يطل الحديث عن الإسلام، ولا عن دور قومه في نصرته، وإنما عاد إلى التغني بالأمجاد العصبية في أربعة أبيات أخرى كان آخرها[4]:

نجير فلا يخشى البوادر جارنا ولاقى الغنى في دورنا فتمولا

---

[1] الديوان/ ٤٠٦.

[2] الديوان/٤٠٧- ٤٠٨.

[3] نفسه/ ٤٠٩ -٤١٠.

[4] الديوان/٤١١.

وهكذا عالج حسان موضوعي الفخر والوصف في قصيدته هذه فأبرز فرديته أولا، ثم وصف ناقته على عادة الشعراء في الجاهلية، ووصف مدينته هذا الوصف الجديد، ولكن موضوع الفخر الذي أنشأ من أجله القصيدة كان طاغياً فاستغرق أكثر من نصف أبياتها.

وكما تعددت موضوعات قصيدة حسان تعددت موضوعات قصائد غيره من شعراء الصراع كأبي طالب[١] والأعشى[٢] وأمية بن أبي الصلت[٣] وكعب ابن مالك[٤] وعباس بن مرداس[٥] وغيرهم[٦].

أما القصائد ذات الموضوع الواحد فهي كثيرة، إذ تصل إلى خمس وخمسين قصيدة كما بينا. وعندما وقفنا عند هذه القصائد وقمنا بحصر عدد أبياتها وجدنا أن معظمها من القصائد الطويلة نوعاً، وهي التي تقل عدة أبياتها عن عشرين، بل وجدنا أن كثيراً منها دون خمسة عشر بيتاً، ونظن أن وحدة الموضوع هذه، مردها إلى الظرف الذي نظمت فيه القصيدة، كأن تكون قيلت في ساحة المعركة وعند فورة العاطفة، وفي مثل هذه الحال النفسية يقيم الشاعر عند موضوع واحد ليؤدي رسالته ويبلغ أربه في أسرع وقت ممكن. ويعزز هذا الظن اختفاء المقدمات التقليدية من نصف عدد هذه القصائد تقريباً[٧].

وأكثر الأغراض التي تناولتها القصيدة في شعر الصراع بعامة هي النقائض[٨] والفخر[٩] والهجاء[١٠] ولكن هذا لا يعني أن شاعر الصراع قد أهمل الموضوعات الأخرى، بل هو قد عالج جميع الموضوعات التي عرفها الشعر العربي في عصره.

وبعد هذه الإفاضة في الحديث عن القصائد ،نلتقي بالنوع الثاني من القصيدة وهو المقطوعة.

---

[1] السيرة/ق١/٢٧٢.

[2] نفسه/ ٣٨٦.

[3] السيرة/ق٢/٣٠.

[4] نفسه/ ١٣٢، ٢٦٣.

[5] نفسه/٤٥١.

[6] السيرة/ق٢/٢٧٣، ٤٠١، ٤٢٠، ٤٢٤.

[7] السيرة/ق١/٤٧٣، ٥٩٧، ٦٣٩، ٦٦٤، السيرة/ق٢/٢٣، ٢٧، ٧٥، ١٤٥، ١٩٥، السيرة/ق٢/٤٦٢، ٤٦٦، ٥٥٤، ٥٦٩ - الواقدي/ ١٩٠ – ديوان حسان/ ١٨٩، ٢٨٠، ٣٤٢.

[8] السيرة/ ق١/٥٩٢، ٥٩٦ - السيرة/ق٢/١٢، ١٢٩، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٦، ١٩٩، ٢١٢.

[9] السيرة/ق٢/٣٦، ١٤٩، ١٥٩، ١٦١، ٤٤١، ٤٥١، ٤٦٢، ٤٦٦، ٤٧٤.

[10] السيرة/ق٢/٢٦ – ديوان حسان/ ٢٨٠، ٢٥١، ١٨٩.

والمقطوعات في شعر الصراع كثيرة تصل عدها إلى ثلاثمائة وخمسين نصاً تقريباً. ومعنى هذا أنها تكاد تبلغ ضعف عدد القصائد والأراجيز معا.

وحين قمنا بحصر أبيات هذه المقطوعات وجدنا أن فيها ما يقرب من مائة وعشرين مقطوعة فقط تزيد عدة أبياتها عن خمسة، أما المقطوعات المتبقية فمنها زهاء خمس وأربعين مقطوعة ذات خمسة أبيات[1]، وثمان وخمسين ذات أربعة أبيات[2] وخمس وستين ذات ثلاثة أبيات[3] وتهبط المقطوعات الأخرى إلى البيتين بل والبيت الواحد أحياناً[4].

وشيوع هذه المقطوعات في شعر الصراع يضع الباحث أمام تساؤلات عدة هي: هل هذه المقطوعات أصيلة أم هي مبتسرة؟ وإذا كانت أصيلة فما علة شيوعها بهذه الكثرة؟ وإذا كانت مبتسرة فأين الدليل على ابْتِسَارها؟.

وعندما نحاول الإجابة عن هذه التساؤلات، ينبغي ألا يفوتنا ما سبق وقلناه من أن الفترة التي نظم فيها هذا الشعر الذي ندرسه -ومنه هذه المقطوعات– كانت فترة حرب واقْتِتَال، وأن شعراء هذه الفترة أو أكثرهم قد شاركوا في هذه الحرب بسيوفهم وأشعارهم، ولذلك، فلم يكن شاعر الصراع يملك الحرية التي تعينه على اختيار الألفاظ والمعاني والوقت الكافي لتقليب النظر في النظم والصياغة، وإنما كان هذا الشاعر يلهث من كثرة الأحداث وعنفها، فكان مضطراً إلى الإسراع في نظمه ليتمكن من متابعتها، فمن البديهي إذن أن يعزف عن كل ما يشغله عن غرضه المُلِحّ من مقدمات وتمهيدات وإطالات وشرح، فانطلق لسانه بمقطوعة قصيرة أو مقطوعات تستقل كل منها بموضوع واحد يعبر فيه عن موقفه تعبيراً سريعاً أو مرتجلاً[5].

فعندما يقول حسان:

ألم تر أن طلحة من قريش	يعد من القماقمة الكرام
وكان أبوه بالبلقاء دهراً	يسوق الشول في جنح الظلام
هو الرجل الذي جلب ابن سعد	وعثماناً من البلد الشام
هو الرجل الذي حدثت عنه	غريب بين زمزم والمقام

---

[1] السيرة/ق١/٣٣٢، ٤١٤، ٤١٥، ٤٢٦، السيرة/ق٢/١٦، ١٩، ٢٥، ٣٩، ٨٥، ١٦٣، ١٨٩، ٢٢٧، ٣٧٦، ٤٣٣.

[2] السيرة/ق١/٤٧٢، ٤٩٠، ٥٠٠، السيرة/ق٢/٢٣، ٥٣، ١٥٨، ١٦٧، ١٨٠، ٢٢٥، ٢٦٨، ٣٠٧، ٥٢١، ٦٣٧.

[3] السيرة/ق١/٤١٢، ٤٨٧، ٥٢٥، ٦٤٩، السيرة/ق٢/١٨، ٥٩، ١٥١، ١٦٦، ٢٦٨، ٣٤٧، ٤٣٥، ٤٥٦، ٥٧٣، ٥٨٨.

[4] السيرة/ق١/٣٢١، ٤٧١، ٦٥٦ - السيرة/ق٢/١٠٠، ٣٠٥، ٤١٧، ٥٩٢، ٦٣٤.

[5] الديوان/ ٤٦٤.

ولا يزيد، فذلك لأنه مشغول بتوزيع أنصبة الهجاء على المنتفعين بها من خصوم الإسلام، فَـالمنُّ علـى **طلحة بن أبي طلحة** بأربعة أبيات خير كثير، فهناك **أبو لهب**[1] **وأبو سفيان بن الحارث**[2] **وأبو جهل بن هشام**[3] **والمغيرة بن شعبة**[4] **وأبو سفيان بن حرب**[5] **وعبد الله بن الزبعرى**[6] وغيرهم من المنتفعين بهذا الهجاء من قريش وغير قريش ينتظرون دورهم[7].

وعندما يكتفي **أبو سفيان بن الحارث** بقوله[8]:

ألا من مبلغ حسان عني   خلفت أبي ولم تخلف أباك

ويردّ عليه حسان بمثل قوله[9]:

لأن أبي خلافته شديد   وأن أباك مثلك ما عداك

فلأن أبا سفيان وحساناً وغيرهم من شعراء الصراع كانوا يلهثون من كثرة الأحداث فلم يتمكنوا من إطالة النفس والإفاضة في الشرح والحديث، وبهذا يتضح السبب الذي أدى إلى شيوع المقطوعات وانتشارها في شعر الصراع.

على أننا نستبعد أن تكون كل هذه المقطوعات الكثيرة أصيلة وحقيقية، وأنها وصلتنا كما صدرت من أفواه منشئيها، وخاصة ما صدر منها عن شعراء المشركين واليهود وغيرهم من الشعراء الذين عارضوا الإسلام ونابذوه، فلا بد من أن يكون قد لحق بعضها العبث والتفريط الذي عودنا عليه الرواة، والشواهد على هذا الزعم كثيرة، وأبسط صورها توجد في هذه المقطوعات التي تأتلف من بيتين، وفي الأبيات اليتيمة التي وردت في مواطن الاستشهاد.

مثال ذلك قول أبي طالب يوصي أخاه أبا لهب بالنبي[10]:

---

[1] نفسه/ ٤٦٥.

[2] الديوان/ ٣٤٩، ٤٦٥، ٤٦٦.

[3] الديوان/ ٤٠٠.

[4] الديوان/ ٣٣٢.

[5] نفسه/ ٢٨٥.

[6] نفسه/ ٤١٦، ٤٥٩.

[7] الديوان/ ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٨، ٢٩٥، ٣٢٥، ٣٤٧، ٣٩٣، ٣٩٧، ٤٠٠، ٤٥٧، ٤٦١.

[8] ديوان حسان بن ثابت/ ٣٥٤.

[9] الديوان/ ٣٥٤.

[10] تفسير القرطبي/ ٢٠/٢٠٢.

فلا تتركنه مــا حييت لمعظم وكن رجلاً ذا نجدة وعفاف

تذود العدا عن عصبة هاشمية إلا فهم في الناس خير إلاف

فاقتران أداة النهي "بالفاء" يوحي بأن هذه المقطوعة مبتسرة من قصيدة أو علــى الأقــل مــن مقطوعة تزيد عدداً عن هذين البيتين.

أما الأبيات التي وردت يتيمة فالشواهد عليها كثيرة، منها قول **حسان بن ثابت**[1]:

إذاً والله نرميهم بحرب تشيب الطفل من قبل المشيب

فتصدير البيت بكلمة "إذا" هذه يدل على أنه مبتسر من مقطوعة أو قصيدة، كما أن في مخاطبة عبد الله بن الزبعرى لأميمة في قوله[2]:

ليس في الحق يا أميمة ريب إنما الريب ما يقول الجهول

ما يوحي بأن هذا البيت مبتسر من مطلع قصيدة أو مقتطع من عدة أبيات، وكذلك حــديث **عبد الله بن رواحة** عن الشهداء[3]:

إنهم عند ربهم في جنان يشربون الرحيق والسلسبيلا

يشير إلى أن بيته هذا كان ضمن قصيدة، وغير هذا كثير[4].

ونظن أن سبب هذا الابتسار والعبث يرجع:

أولاً: إلى إهمال الرواة كأن يكونوا قد اختاروا من أبيات لقصيدة ما يفي بغرض الغزوة أو الحادثــة التي يؤرخونها. أو اقْتَطَعُوا منها ما يعزز الخبر الذي يثبتونه. أما سائر أبيــات القــصيدة فأهملوهــا فضلت طريق الوصول إلينا. وفي بعض المصادر التي أرخت لفترة الصراع إشارات إلى ذلك، منها: أن ابن هشام قد روى أبياتاً في السيرة لبديل بن عبد مناف بن أم أصرم، ثم عقب عليهــا بقولــه: "**وهذه الأبيات في قصيدة له**"[5].

---

[1] الديوان/ ٩٤.

[2] تفسير القرطبي/٢٠/١٥٩.

[3] كتاب سيبويه/١/١٨٩.

[4] حماسة أبي تمام/٢/٣٠٠، اللسان. مادة "قتل" ديوان حسان/ ٣١٨، ٣٩٠، ٤٠٢، ٤٨٢، المبرد/ الكامل/ ١٨٩، جمهرة ابن دريد/١/١٤٨، كتاب سيبويه/١/١١١، أنساب الأشراف/١/٢٩٧، ديوان كعب بن مالك/٢٧١، ٢٨٩، صحيح البخاري/٥/٢٢١.

[5] السيرة/ق٢/٤٢٥.

وثانياً: إلى نسيان الرواة، فقد وصلهم شعر الصراع وغيره في وقت كانت وسائل حفظ الشعر فيه تتم في الأغلب الأعم بالرواية الشفوية فتكلفوا لذلك حفظ مئات القصائد والمقطوعات والأراجيز لشعراء كثيرين، فليس يبعد إذن أن يكونوا نسوا قسما من هذا الشعر، أو اختلطت عليهم نسبته وخاصة ذلك الشعر الذي لا يتصل بحادثة أو خبر، ومن مظاهر الاختلاط نقرأ هذا البيت لحسان[1]:

ديار التي كادت ونحن على منى   تحل بنا لولا نجاء الرواحل

ونقرأ البيت مرة أخرى **لقيس بن الخطيم الأوسي**[2]:

ديار التي كادت ونحن على منى   تحل بنا لولا نجاء الركائب

ومن ذلك أن ابن هشام روى أبياتا **لعمرو بن معد يكرب الزبيدي** ثم عقب عليها بقوله: "ولم يُعْرَف سائرها"[3]، وروى أبياتاً لأمية ثم قال: "**هذه الرواية مختلطة**"[4].

ولا نظن أن الأمر لا يعدو توافق الخواطر، ووقوع الحافز على الحافر وإنما هو من خلط الرواة ونسيانهم.

وثالثاً: إلى سهو الناقلين، فربما سها بعضهم عن إثبات القصيدة بأكملها أو نسخ منها ما يرضي ذوقه، أو نقل منها ما له علاقة بخبر يهمه أو قصة تعجبه، وأقرب دليل على هذا ذلك الاختلاف الذي نجده في بعض الألفاظ للمقطوعة الواحدة بين مصدر وآخر، مما يوحي بأن بعض هؤلاء النساخ كانوا يُدَوِّنونَ ما يناسب أذواقهم في بعض الأحيان إذا أمكن الاستشهاد بمقطوعة. قال ابن طباطبا العلوي:" وربما وقع الخلل في الشعر من جهة الرواة والناقلين له فيسمون الشعر على جهة ويؤدونه على غيرها سهواً، ولا يتذكرون حقيقة ما سمعوه منه"[5]، وقال الحطيئة[6]: " **ويل للشعر من الرواة السوء**".

فإذا ما انتقلنا إلى استقصاء **الموضوعات التي تناولتها المقطوعة**، وجدنا أنها ذات الموضوعات التي طرقتها القصيدة، ذلك أن شاعر الصراع قد استخدمها في جميع الموضوعات التي كانت شائعة في

---

[1] الديوان/ ٣٦٩.

[2] ديوان قيس بن الخطيم/ ٣٤.

[3] السيرة/ق٢/٥٨٤.

[4] السيرة/ق٢/٣٣.

[5] عيار الشعر/ ١٢٤.

[6] الشعر والشعراء/١/٣٢٢.

عصره، وإن قصرت عن القصيدة في شيء ففي هذا الاستقلال بموضوع واحد دون غيره، فقلما نجد مقطوعة قد عالجت أكثر م موضوع[1]. ومرد ذلك كما بينا أن هذه المقطوعات أو أكثرها قيلت في ساحة القتال حيث مجالات السرعة والاضطراب والارتجال. فهي شعر حرب – إن صح التعبير - ومن هنا فقد صدرت من أفواه منشئيها لتعبر عن مواقفهم وتصور عواطفهم تجاه موضوع طارئ كتسويغ فرار أو قتل عزيز أو أسر زعيم، أو طلب مَنّ إلى غير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بظروف القتال. وأكثر الموضوعات دوراناً في شعر المقطوعات هي ما كانت وثيقة الصلة بالقتال كالهجاء والفخر والرثاء والنقائض والمديح وغيرها. وقد استقل موضوع الهجاء بما يقرب من مائة مقطوعة، واستقلَّ الفخر بزهاء ست وخمسين وانفرد الرثاء بسبع وأربعين، والنقائض باثنتين وثلاثين، والمديح بعشرين مقطوعة. أما باقي المقطوعات التي توافرت لدينا من شعر الصراع، فموزعة على جميع الموضوعات الأخرى. وإذا نظرت في قوافي " الدال" والراء واللام، والميم" فقط من ديوان حسان بن ثابت فستلقاك مقطوعات كثيرة، وإذا أنت أحصيت موضوعاها عددا، وجد لديك منها ما يزيد على ستين مقطوعة في الهجاء وحده تترواح عدة أبياها بين تسعة أبيات وبيت واحد، ووجدت أن معظمها ما بين ثلاثة أبيات إلى خمسة وسوف نورد بعض هذه المقطوعات سهلة يسيرة تخلو من التعقيد والإغراب غالباً، كما تخلو من التعمل والصنعة في أكثر الأحيان فقول **أبي سفيان بن الحارث**[2]:

لقد علمت قريش غير فخر	بأنا نحن أجودهم حصانا
وأكثرهم دروعاً سابغات	وأمضاهم –إذا طعنوا– سنانا
وأدفعهم لدى الضراء عنهم	وأبينهم –إذا نطقوا– لسانا

يدل على البساطة والعفوية التي تخلو من التعمل والتقعر، وتدل أيضاً على السهولة التي طبع بها شعر الصراع في مجال الفخر والحماسة ويغرها من شعر الحرب.

على أن قول **حسان بن ثابت** من مقطوعة في هجاء هند بنت عتبة[3]:

تسعى إلى الصياح معولة	يا هند إنك صلبة الحرد
فإذا تشاء دعت بمقطرة	تذكى لها بألوَّة الهند

---

[1] السيرة/ق٢/٢٢، ٢٥، ٢٨٧، ٢٨٨، ٤٢٦، ٤٨٧ – تفسير القرطبي/١٠/٢٤٥.

[2] الاستيعاب/٤/١٦٧٦.

[3] ديوان حسان/ ٢١٣.

غلبت على شبه الغلام وقد بَانَ السواد لحالك جعد
أشرت لكاع وكان عادهًا دق المشاش بناجز جلد

توحي بأن هذه الخصائص ليست عامة ولا شاملة لجميع شعر المقطوعات، فقد يـــشذ شـــاعر الصراع أحياناً كما فعل حسان بن ثابت فيميل إلى الإغراب والتعقيد نوعاً[1]، ولكن هذا قليل نادر، إذ أن طبيعة الصراع تجعل الشاعر يفضي في موضعها عندما نتحدث عن موضوعات شعر الصراع بعد قليل ولغة الممقطوعات سهلة يفهمها المتلقي دون عناء أو إجهاد.

الشعر مجهول القائل:

ومن الظواهر التي تثير الانتباه في شعر فترة الصراع هذه، هو شيوع الشعر المجهـــول القائـــل، فعندما قمنا بإحصائية لهذا الشعر وجدناه يقرب من ثلاثين نصاً تتنازع قسمته المقطوعات القصيرة والأراجيز.

ويذهب بعض الباحثين[2] مذهب الشك في هذا الشعر، ويقررون أنه منحول بفعـــل تـــأثيرات مختلفة – حصروها في العصبيات والسياسة والدين وفعل القصاص. ونحن نخالف هؤلاء الباحثين في مذهبهم - ونرى أن هذا الشعر يحمل سمات الفترة – وينطبع بطابعها، فمعظمه لا يـــشيد بعـــصبية كذلك الشعر الذي يُنْسَب إلى هواتف الجن، وإنما قاله ناظموه لنقل أحاسيسهم ومشاعرهم نحـــو الإسلام، أما بعضه الآخر فهو وثيق الصلة بالصراع، لأنه قيل في ساحة القتال ومجال الصراع بـــين الإسلام وخصومه من قبائل العرب.

ولهذا – فنحن لا نشك في صحة نسبة هذا الشعر إلى فترة الصراع أما إغفال نسبته إلى قائليه، فربما يرجع إلى إهمال الرواة أو نسيانهم، وربما يرجع أيضاً إلى سهو الناقلين والنساخ، لأن هـــؤلاء وهؤلاء كانوا يحفلون بالشعراء المشهورين فيدونون أشعارهم، وأما الـــشعراء المغمـــورون الـــذين أنطقتهم الأحداث، فلم يلتفتوا إليهم إلا بقدر صلة أشعارهم بالأحداث، أو علاقتها بأخبار الإسلام وظهور دعوته، فكانوا يسجلون الشعر الذي يعضد الخبر أو الحادثة دون أن يكلفوا أنفسهم بإثبات قائلة.

والشعر المنسوب إلى الجن كثير - وهو في جملته يسجل عواطف العرب نحو الإسلام وعقيدتـــه كالتبشير بظهور النبي ودعوة العرب إلى قبول الدين الجديد، ونقل انتصاراته على أعدائه وتصوير

---

[1] .السيرة/ ق٢/ ٥٩٨، ديوان حسان/ ١٠١، ١٢٨، ٢٠١ – ٢٠٢، ٢٠٨، ٢١١ - ٢١٢

[2] طه حسين/ في الأدب الجاهلي/١١٦- ١٦٨.

مشاعر العرب نحو الأصنام، وخاصة بعد ظهور الإسلام. وقصة إسلام **عباس بن مرداس السلمي** لا تزال تتردد في أذهاننا، والشواهد على ذلك مبثوثة في كتب التاريخ والسير، من ذلك ما روي عن عروة عن أبيه أن نفراً من قريش منهم ورقة بن **نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث** كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه قد اتخذوا ذلك من كل سنة عيداً كانوا يعظمونه، وينحرون له الجزور ثم يأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عله، فدخلوا عليه في الليل فرأوه مكبوباً على وجهه، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً، فأخذوه فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة، فلما رأوا ذلك اغْتَمُّوا له وأعظموا ذلك. وقد حدث هذا الأمر في الليلة التي ولد فيها الرسول، فأخذوا الصنم فردوه إلى حالة فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول[1]:

تردى لمولود أنارت بنوره ... جميع فجاج الأرض في الشرق والغرب
وخرت له الأوثان طراً وأرعدت ... قلوب ملوك الأرض طراً من الرعب
ونار جميع الفرس باخت وأظلمت ... وقد بات شاه الفرس في أعظم الكرب
وصدت عن الكهان بالغيب جنها ... فلا مخبر عنهم بحق ولا كذب
فيا لقصي ارجعوا عن ضلالكم ... وهبوا إلى الإسلام والمنزل الرحب

فلما سمعوا ذلك خلصوا نجياً فقال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، فقالوا: أجل[2] وعلى الرغم من أن الأبيات قيلت يوم مولد النبي – عليه السلام –كما يروي ابن كثير - وأشارت إلى الأحداث العظيمة التي صاحبت هذا المولد كتردي الأصنام وإنارة فجاج الأرض، وخبو نار الفرس، وامتناع الجن عن إخبار الكهان، إلا أن البيت الأخير منها يشير إلى موقف قريش من الإسلام ويهيب بهم أن يؤمنوا به وهذا يدل على أن الأبيات إنما قيلت بعد انتصار الإسلام وانتشار دعوته بين العرب.

وثمة شاهد آخر يسجل هزيمة المشركين يوم بدر أن قريشاً حين توجهت إلى بدر لحرب الرسول مر هاتف من الجن على مكة في اليوم الذي أوقع بهم المسلمون، وهو ينشد بأنفذ صوت ولا يرى شخصه[3]:

---

[1] البداية والنهاية/٢/٣٤١.

[2] البداية والنهاية/٢/٣٤١.

[3] المغازي/١١٣-١١٤، إمتاع الإسماع/١/٧٢.

أزار الحنيفيـــون بدراً وقيعة سينقض منها ركن كسرى وقيصرا
أبادت رجالاً من لؤي وأبرزت خرائـــد يضربن الترائب حسرا
فيا ويح من أمسى عدو محمد لقد جار عن قصد الهـــدى وتحيرا

ونسبة الشعر إلى الجن ظاهرة شائعة عند العرب ترجع في تاريخها إلى الجاهلية. وقد يرجع ذلك إلى ما كان راسخاً في أذهان العرب أن الجن يعلمون الغيب، ويسترقون السمع مـــن الـــسماء، ثم يتصلون بالشعراء والكهان والسحرة اتصال تعليم وتلقين من حيث لا يُرَوْنَ ولا يُـــشْعَر بمـــادقم، فشياطين الجن تتسمع إل السماء وتلقن القول وتتزل به على الشعراء فيصدر عنهم بليغ القـــول. وكانوا لذلك يعتقدون أن لكل شاعر شيطاناً من الجن يلقنه ما يقول من الشعر. وذهبـــت بعـــض الروايات إلى تسمية شياطين بعض الفحول من الشعراء. ولعلهم كانوا يردون فحولة الشاعر وقوة شعره إلى ذلك الشيطان وبلاغته وقدرته[1]. وقد نظم الجاهليون شعراً كثيراً عن علاقة الجن بالشعر والشعراء[2]. ومما عزز هذا المعتقد عند العربي ما جاء في القرآن الكريم من آيات تقرر بأن الجن قـــد استمعوا للنبي وهو يقرأ القرآن فآمنوا به، وعادوا إلى قومهم فدعوهم إلى الدين الجديـــد، وأنهـــم كانوا يصعدون في السماء يسترقون السمع فرجموا بالشهب وانقطعت أخبار السماء عـــن أهـــل الأرض.

واستغل الرواة والقصاص هذه المعاني فأفرطوا في مزاعمهم عن الجن فوضعوا عليهم الحكايات والأساطير، ونسبوا غليه كل غريب، وزعموا أنهم أنذروا ببعث النبي إلى النـــاس كافـــة[3]،وأنهـــم كشفوا تآمر قريش على النبي ودعوته وحذروا من تحدثه نفسه بذلك[4]، وأنهم ناحوا على المـــوتى[5] ولم يقلوا في بلائهم عن المسلمين من صحابة رسول الله.

ونحن نستبعد نسبة هذا الشعر إلى الجن، ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نرفضه قبـــل أن نقوم بدراسته والتحقق من هويته، فإن الأمانة العلمية تلح علينا بالتزام الحيطة والحـــذر في بـــسط

---

[1] دروزة: عصر النبي/ ٣٧٩.

[2] محمد لطفي جمعة: الشهاب الواصد/ ٢١٢.

[3] جمهرة أشعار العرب ٤٥- ٤٧، الإصابة ١/٢٤٦، ٢٦٤، ٢٨٤، ٢٨٥، خزانة الأدب/١/٢٦٣، ٢٦٤، الأغاني/٨/١٠٢.

[4] الإصابة/١/٢٠٣.

[5] الاشتقاق/١/١٤٢، الأغاني/٨/١٠٢.

أحكامنا، وتفرض علينا التثبت من أمرنا قبل التورط في إصدار هذه الأحكام. واتساقاً مع هذه الأمانة نمضي إلى التحقق من هذا الشعر في منابعه ومصادر روايته، - فما أجمعت عليه المصادر الموثوق بمؤلفيها وروي عن رواة أثبات من شيوخنا قبلنا أصالته بنسبته لفترة الصراع، ولكننا في الوقت نفسه نرفض نسبته إلى الجن.

وعلى هذا نميل إلى الاعتقاد بأن الأصيل من هذا الشعر، إنما قاله شعراء مغمورون عاشوا في عصر النبي وعاصروا أحداث دعوته، فالمعاني التي ذهبت إليها المقطوعتان تصور لنا مكانة النبوة في نفوس العرب لما يرون فيها من شرف، ولما يرون في النبي من قدرة في السيطرة على دولتي الفرس والروم اللتين كانتا تنشران الرعب في قلوبهم. ويعزز ما نزعمه ما أشار إليه القرآن الكريم من أن العرب كانوا يتمنون أن يبعث الله لهم نبياً ويعدون أنفسهم أن يكونوا أهدى من إحدى الأمم. وهذا بدوره يوحي بأن هذا اللون من الشعر مطبوع بطوابع شعبية متأثرة بقواعد معينة يخضع لها تفكير العامة من العرب[1]. فلم يجد قائلوه من وسيلة تصبغه بهذه الصبغة إلا الجن، فنسبوه إليهم كوسيلة لروايته وذيوعه كما فعل شعراء الإفرنج **كغوته وشكسبير ودانتي وميلتون** عندما انطقوا الجن في دواوينهم[2].

على أن هناك نوعاً آخر من هذا الشعر المجهول القائل، وهو الشعر الذي قيل في ساحة القتال ولم يحفل الرواة بتدوين أسماء قائليه، لأنهم لم يكونوا من الشعراء المشهورين، وإنما أنطقتهم الأحداث بمقطوعة أو رجز، أو لأن الرواة يهمهم الشعر الذي يتعلق بسياق الخبر الذي يحملونه دون العناية بمنشئه. ومن أمثلة هذا الشعر أن شاعراً من المسلمين قد آلمه قتل أمراء جيش المسلمين يوم مؤتة فمضى يذكر بلاءهم في قتال العدو بقوله[3]:

كفى حزناً أني رجعت وجعفر	وزيد وعبد الله في رمس أقبر
قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم	وخلفت للبلوى مع المتغير
ثلاثة رهط قدموا فتقدموا	إلى ورد مكروه مع الموت أحمر

ومن أمثلته أيضاً هذا الرجز الذي ينسب إلى رجل من جذيمة يعلن فيه إصراره على حرب المسلمين ويفخر ببلائه في حربهم فيقول:

---

[1] النعمان القاضي: شعر الفتوح/ ٢٩٥.

[2] محمد لطفي جمعة/ الشهاب الراصد/ ٢١٣.

[3] السيرة/ق٢/٢٨٨.

قد علمت صفراء بيضاء الإطل يحوزها ذو ثلة وذو إبل[1]

لأغنين اليوم ما أغنى رجل

وهذا رجل من بني سليم يسمع بمسير **خالد بن الوليد** لهدم العزى، فيعلق عليها سيفه ويرتفع في الجبل الذي هي فيه ويقول[2]:

أيا عز شدي شدة لا شوى لها على خالد ألقي القناع وشمري

أيا عز إن لم تقتلي اليوم خالداً فبوئي بإثم عاجــل أو تنصري

وهكذا يمضي هذا اللون من الشعر فيشارك في أحداث الصراع ويطرق نفس الموضوعات التي طرقها الشعر المعروف القائل. فهذا رجل من بني جذيمة يبكي قتلى قومه ويذكر ما أصابهم من محنة على أيدي المسلمين، فيرد عليه رجل من بني ليث بقوله[3]:

دعونا إلى الإسلام والحق عامراً فما ذنبنا في عامــر إذ تولت

وما ذنبنا في عامــر لا أبالهم لأن سفهت أحلامهم ثم ضلت

ومعنى هذا أن الشعر المجهول القائل قد نظم في النقائض، ونظم في الفخر والحماسة وفي غيرهـا من موضوعات الشعر العربي، وإن كانت له من ميزة، ففي أنه أراجيز ومقطوعات قصيرة.

ويبدو أثر الإسلام واضحاً في هذا الشعر، مما يوحي بأن أكثر قائليه كانوا مـسلمين، أو ممـن تأثروا بروح الإسلام وأفكاره.

أما لغة هذا الشعر فسهلة بسيطة تتناسب وثقافة البيئة التي كان يعيش فيها قـائلوه، ولـذلك كانت أفكاره ومعانيه تنقل أحاسيسهم ومشاعرهم دون ما إبهام أو تعقيد.

أما ألفاظه فتخلو من الصعوبة والإغراب إذ لا نجد في ما أوردنا من شواهد ما يـستغلق علـى الفهم، كما أنه يكاد يخلو من الصور البيانية كالتشبيهات والاستعارات والكنايات الـتي تتطلـب معاناة وجهداً من الشاعر. ومرجع هذا أنه شعر قتال انطلق من أفواه قائليه في ظروف حرجـة لم يكن فيها الشاعر يملك وقتاً للتنميق والزخرفة وإطالة النفس، وهو بالتالي صـدر عـن شـعراء مغمورين لا يهمهم أن يروى شعرهم بقدر ما يهمهم التعبير عن عواطفهم ومشاعرهم في مواقـف القتال.

---

1 السيرة/ق٢/٤٣٥، الإطل: الخاصرة. الثلة: القطيع من الغنم.

2 السيرة/ق٢/٤٣٧.

3 السيرة/ق٢/٤٣٥.

موضوعات شعر الصراع:

موضوعات قديمة متطورة

وليس من شك أن الشعر الجاهلي، هو مصدر أكثر الموضوعات التي عرفها شعر الصراع في عصر النبوة، ذلك أن أكثر شعراء هذا العصر قد نضجت عقلياهم، واستوت أساليبهم الشعرية في الجاهلية كما بينا، وتناول شعرهم هذه الموضوعات جميعها.

ولما احتدم الصراع بين الإسلام وخصومه، كان من الطبيعي أن يشارك الشاعر فيه باعتباره فردا من أحد طرفي الصراع – وأن يتناول في هذه المشاركة تلك الموضوعات التي ألفها وعرفها كما عرفها غيره من سائر شعراء عصره كالفخر والحماسة والوعيد والرثاء والمديح والوصف والهجاء المناقضات، فهذه الموضوعات هي سلاحه الذي كان لا بد من أن يستخدمه في مهاجمة أعداء قومه والنيل منهم إذا انتصروا، وهي عتاده الذي يجب أن يفزع إليه للدفاع عن أحسابه وبكاء قتلى قومه إذا هزموا.

ولم يكن الإسلام نزوة وقتية، ولا حدثاً بسيطا، وإنما كان نظاماً شاملاً، وعقيدة إلهية هزت عقيدة الجاهلية من أساسها، ثم باشر عملية اقتلاعها من الجذور، ولهذا فإن مفاهيمه الغريبة على المجتمع العربي آنذاك بدأت تسلك سبيلها إلى الأسماع والنفوس، وأخذت تغزو نظام الشعر التقليدي المعروف، فحملت إليه مادة خصبة من المعاني والمفاهيم، فأصبحت موضوعاته تكتسي بكساء الذين الجديد، وتتزين بمثله وأفكاره وإن ظل هذا الأمر يختلف باختلاف الشعراء كما يختلف باختلاف علاقتهم بالإسلام كما أشرنا قبل قليل.

وقد قامت هذه الموضوعات من جانب المدينة بالفخر والاعتزاز بالدين الجديد والتغني بنصرة دعوته وإيواء نبيه، ونهجت إلى هجاء قريش ومن لف لفها من سائر العرب وتعييرهم بالشرك والوثنية والهزائم، وإبراز مصير قتلاهم وما ينتظرهم من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، ولهجت بالإشادة بالشهادة لاقترانها برضوان الله، وسلكت سبيل الوعيد والتهديد لقريش واليهود ومن ناصرهم وشد من أزرهم.

أما من جانب مكة وغيرها فقامت هذه الموضوعات بالتعريض بالنبي ودعوته وهجاء المهاجرين والأنصار والفخر بالأحساب والأنساب والتغني بالبطولات، وبكاء القتلى والإشادة بمكانتهم وماضيهم والمفاخرة بالمصائب –وخاصة عند النساء - والوعيد بالثأر.

ومن هنا نرى أن شعر الصراع يكاد يدخل كله في باب الحماسة والفخر إذا أردنا بهما ذلك الشعر العنيف الذي يقال في ساحات القتال ليصف عنف المعارك ويمجد البطولات وينشر المثالب ويهدد الخصوم ويبكي القتلى، وبهذا نرى أن سائر الموضوعات كالوصف والمديح والرثاء والوعيد والهجاء والنقائض تنفذ من هذه الباب أيضاً.

ونجد أنفسنا مضطرين لدراسة هذه الموضوعات لنقف على مدى مساهمة كل منها في أحداث الصراع ،وقدرة كل منها على تصوير ظروف القتال، ففي هذه الدراسة إتمام لبناء هذا البحث وتوضيح لملامح صورته.

الفخر والحماسة:

العرب شعب يمجد البطولة ،ويفخر بالأحساب والمآثر، ولهذا كانوا يحتفلون بالفروسية والشعر، فالفارس يقع عليه عبء التشييد والبناء، فهو يقاتل لإحراز الانتصار وفرض سلطان القبيلة، ويدفع عن السيادة والشرف، ويصنع الأمجاد والأحساب. أما الشاعر فعليه أن يمجد هذه الأفعال وأن يشيد بالأنساب، وعليه أيضاً أن يتصدى للخصوم وأن ينال من أمجادهم، بل عليه أن يهجوهم فيوجعهم ويدمي عزهم.

ومن هنا كان الفخر كالهجاء كلاهما شديد الصلة بالصراع، فكما أن الفخر صدى اعتزاز الشاعر بنفسه وبقومه وعقيدته، فالهجاء صدى شعور العداء الذي يكنه هذا الشاعر لأعْدَائه ومعارضيه.

وقد درج شعراء الحرب على الفخر وحرصوا على أن يضمنوا فخرهم عبارات الحماسة لأنها وسيلتهم إلى إلهاب العزائم وإذكاء روح القتال في المحاربين ورفع معنويات المقاتلين. وعلى هذا نرى أن الفخر والحماسة موضوع واحد يصعب فصله، ولذلك آثرنا دراستهما كموضوع واحد قائم برأسه من موضوعات شعر الصراع.

وطبيعي أن يشيع الفخر والحماسة في شعر الصراع وأن يطرقهما معظم الشعراء المشاركين فيه فقد فرضتهما ظروف القتال وأحداثه فكانا متنفس الشعراء في التعبير ووسيلتهم إلى النظم.

والدوافع إلى الفخر كثيرة في شعر الصراع، لعل أبرزها عند شعراء الأنصار خاصة هو شرف السبق إلى نصرة الإسلام وحماية دعوته، وإيواء النبي الكريم ومنعه. على أن هنالك دوافع أخرى كثيرة منها: إحراز النصر، وما يتركه من شعور بالعزة والقوة، وما يستتبعه من أسر الخصوم أو فرارهم، ومنها أيضاً قتل زعيم سياسي أو بطل عسكري أو ملأ أشراف، بل وربما أدت الهزيمة إلى

الفخر أحيانا، إذ يفزع الشاعر إلى التغني بأمجاده الغابرة، واستنفار بطولات قومه، لتسويغ الهزيمة وسد الثغرة ورد الاعتبار.

وقد نهج شاعر الصراع مناهج عدة في الفخر والحماسة، فقد يعمد –مثلاً- إلى الفخر بشجاعته والإشادة ببطولته، وإبراز شدته على أعداء مبدئه لإظهار دوره في المعركة على شاكلة قول علي بن أبي طالب يوم خيبر[1]:

أنا الذي سمتني أمي حيدره ضرغام آجام وليث قَسْوَرَة[2]

أضرب بالسيف رقاب الكفرة أكيلهم بالسيف كيل السَّنْدَرة

أو كما يقول سلمة بن دريد بن الصمة[3]:

إن تسألوا عني فإني سَلَمهْ ابن سمادير لمن توسمه[4]

أضرب بالسيف رؤوس المسلمة

والفارس عنصر قوة في القتال، وقتله أو أسره أو فراره فرصة ذهبية لشاعر الخصوم ينتهزها للتعريض بجبن أعدائه والتدليل على شجاعة قومه والفخر بقدرتهم على القتال.

ومن هنا نرى شاعر الصراع يبرز قوة خصمه وشدته في المبارزة، ليتخذ قتله وسيلة إلى الفخر بثباته والتغني بشدة بأس قبيلته كقول **المجذر ابن زياد** في يوم بدر[5]:

إما جهلت أو نسيت نسبي فأثبت النسبة أني من بلي

الطاعنين برماح اليزني والضاربين الكبش حتى ينحني[6]

أنا الذي يقال أصلي من بلي أرزم للموت كإرزام المري[7]

فلا ترى مجذراً يفري فري[8]

---

[1] خزانة الأدب/٢/٥٢٤.

[2] السندرة: مكيال، يريد: أقتلكم قتلاً واسعاً كثيراً.

[3] تاريخ الطبري/٣/٨٠.

[4] توسمه: استدل عليه وعرفه.

[5] السيرة/ق٢/٦٣٠.

[6] اليزني: رماح منسوبة إلى ذي يزن، وهو ملك من ملوك اليمن، والكبش: رئيس القوم.

[7] أرزم: أحِنّ، والإرزام: رعاء الناقة بحنان، والمري: الناقة التي يُستنزل لبنها على عسر.

[8] يقال: فرى يفري فرياً: إذا أتى بأمر عجيب.

وكما يفخر الشاعر بقتل الفارس من أعدائه فإنه ينفذ إلى الفخر أيضاً إذا ما أسر زعيماً سياسياً وبخاصة إذا كان هذا الزعيم ذا مكانة في قومه كما نرى في قول **مالك بن الدخشم** عندما أسر سهيل بن عمرو يوم بدر[١]:

أسرت سهيلاً فلا أبتغي ... أسيراً به من جميع الأمم

وخندف تعلم أن الفتى ... سهيل فتاها إذا يظلم[٢]

ضربت بذي السيف حتى انحنى ... وأكرهت نفسي على ذي العلم

وقد يذهب الشاعر إلى الفخر بقومه ليشد لهم رأيهم، وليحدبوا معه على أمره كما فعل أبو طالب حين مدح بني هاشم عندما اجتمعوا إليه، وقاموا معه على حماية النبي – عليه السلام - من قريش حيث يقول[٣]:

ونحمي حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أجحارها من يرومها[٤]

بنا انتعش العود الذّواء وإنما ... بأكنافنا تندى وتنمى أرومها[٥]

وربما ينتظر الشاعر حتى تنجلي المعركة ويحصل على نتائجها حتى يعدد قتلى أعدائه ويشير إلى مكانتهم وفضلهم، ثم يذكر مصيرهم المظلم ليتخذ ذلك مسرباً إلى الفخر ببأس قومه وشدهم عند اللقاء على شاكلة قول حسان بن ثابت في يوم بدر[٦]:

قتلنا أبا جهل وعتبة قبله ... وشيبة يكبو لليدين وللنحر[٧]

فكم قد قتلنا من كريم مرزأ ... له حسب في قومه نابه الذكر[٨]

تركناهم للعاويات ينبنهم ... ويصلون ناراً بعد حامية القعر[٩]

لعمرك ما خامت فوارس مالك ... وأشياعهم يوم الْتَقَينا على بدر

---

[1] المغازي/ ١٣٨ – أنساب الأشراف/١/٣٠٣.

[2] يظلم: أي يراد ظلمه.

[3] السيرة/ق١/٢٦٩.

[4] أجحارها: حصونها ومعاقلها.

[5] الذواء: الذي جفت رطوبته.

[6] ديوانه/ ٢٤٣.

[7] يكبو: يسقط.

[8] مرزأ: كريم يصاب منه كثيراً.

[9] العاويات: الذئاب والسباع. وينبنهم: أي يأتونهم مرة بعد مرة.

والقيادة الحكيمة عنصر هام في حياة العربي وكثيراً ما يرجع إليها الفضل في انتصاره. ولـــذلك فكثيراً ما يلهج بها ويشيد بدورها في القتال، ولعل أفخر الشعر -كما يقول **دعبل بن علي** - هو فخر كعب بن مالك بقيادة جبريل الملك وقيادة محمد النبي وذلك بقوله يوم بدر[1]:

وببئر بدر إذ يرد وجوههم   جبريل تحت لوائنا ومحمد

والهزيمة شيء كريه لدن شاعر الصراع وغيره، فقد يحس هذا الشاعر بالحرج عند هزيمة قومـــه ويخشى أن يرمي بالجبن، وأن يتهم بالفرار فيسارع إلى الفخر بنفسه والإشادة بشجاعته والكشف عن بلائه ونجدته لأبناء قومه ليزيح عن كاهله مسؤولية الهزيمة، كما نرى في قول **أبي أسامة معاوية بن زهير** يوم بدر[2]:

وكنت إذا دعاني يوم كرب   من الأصحاب داع مستضيف[3]

فأسمعني ولو أحببت نفسي   أخ فـــي مثل ذلك أو حليف

أرد فأكشف الغمى وأرمي   إذا كلح المشافر والأنـــوف[4]

وربما تنسيه الهزيمة حاضره وتنأى به عن واقعه فيفزع إلى ماضيه ويقيم علـــى تـــاريخ قومـــه يتصفحه ويعيد النظر فيه، فإذا ما وجد مفخرة سارع إلى التشبث بها ليصوغ منها مادة فخره. فهذا **حسان بن ثابت** تصدمه هزيمة المسلمين يوم أحد فيفزع إلى ماضيه وماضي قومه يتكئ عليه ليرد على خصومه ويقول[5]:

إن خالـــي خطيب جابية الجـــو   لان عند النعمان حين يقوم[6]

وأنا الصقر عند باب ابن سلمى   يوم نعمان في الكبول مقيم[7]

وسطت نسبتي الذوائب منهم   كل دار فيهـــا أب لي عظيم[8]

---

[1] العمدة/٢/١٤٤.

[2] السيرة/ق٢/٣٧.

[3] مستضيف: ملجأ مضيق عليه.

[4] الغمى: الأمر الشديد وكلح: عبس، والمشافر: الشفاه لذوات الخفّ، وهي الإبل فاستعارها هنا للآدميين.

[5] ديوانه/ ٤٣٣ – البيان والتبين/٢/٣٢٥.

[6] خاله: مسلمة بن مخلد بن الصامت والجابية من أعمال دمشق.

[7] الصقر: السيد. وابن سلمى: هو النعمان بن المنذر اللخمي. ونعمان: هو ابن مالك بن قوقل وكان حبسه النعمان بن المنذر فوفد فيه وفي غيره حسان فأطلقوا لأجله.

[8] الذوائب: الأشراف.

وأبي فـــي سُمَيحَةَ القائــــل الفا صل يوم التقت عليه الخصوم[1]

تلك أفعالنا وفعـــل الزّبَعـــْرى خامـــل فـــي صديقه مذمـــوم

وقد يعمد الشاعر إلى تسويغ الهزيمة فيعزوها إلى كثرة عَدُوِه وشدة بأسهم، ثم يذكر ثبات قومه وشدهم وينفذ سريعاً إلى ماضيه فيقف على أحساب قومه كما نرى في قول **كعب بن مالك** يوم أحد[٢]:

فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع[٣]

ونحـــن أناس لا نرى القتل سبة على كل من يحمى الذمار ويمنع

بنو الحرب لا نعيا بشيء نقوله ولا نحن مما جرت الحرب نجزع

وقمة الفخر عند شاعر الصراع أن يكون لقبيلته سبق إلى الإسلام، وبلاء في حمايته، فهذا **حسان بن ثابت** يتخذ من هجرة النبي ونصرته وحمل دعوته والقتال من دونها سبيلاً إلى الفخـــر بقومـــه، ومسرباً لتمجيد أفعالهم فيقول[٤]:

فلما أتانـــا الرسول الرشيد بالحق والنور بعد الظلم

وقلنا صدقت رسول المليك هلـــم إلينا وفينا أقم

فنشهد أنـــك عبد الإله أرسلت نوراً بدين قيم[٥]

فإنـــا وأولادنـــا جنـــة نقيك وفي مالنا فاحْتَكم[٦]

وناد بمـــا كنـــت أخفيته نداء جهـــاراً ولا تكتم

فسار الغـــواة بأسيافهم إليه يظنـــون أن يُختَرَم[٧]

وقمنـــا إليـــه بأسيـــافنا نجالد عنه بغـــاة الأمم

---

[1] سميحه: اسم بئر في المدينة تحاكمت عندها الأوس والخزرج في حروبهم إلى ثابت والد حسان أو إلى جده المنذر.

[2] السيرة/ق٢/١٣٥.

[3] الحاسر: الذي لا درع عليه ولا مغفر.

[4] ديوانه: ٤٣١.

[5] قيم: مستقيم ليس فيه اعوجاج.

[6] جنة: وقاية.

[7] يخترم: يموت ويستأصل.

وقد يتخذ الشاعر من إسلام قبيلته ودورهم في الجهاد سبيلا إلى تمجيد أفعالهم والإشادة بفضلهم وبأسهم وتجسيد بلائهم على شاكلة قول **عباس بن مرداس**[1]:

قوم هم نصروا الرحمن واتَّبعوُا	دين الرسول وأمر الناس مشتجر[2]
الضاربون جنود الشرك ضاحية	ببطن مكة والأرواح تَبْتَدر[3]
ونحن يوم حنين كان مشهدنا	للدين عِزّاً وعند الله مدخر
إذ نركب الموت مُخَضَرّاً بطائنُهُ	والخيل ينجاب عنها ساطع كدر[4]
فما ترى معشراً قلوا ولا كثروا	إلا قد أصبح منا فيهم أثر

هكذا سار شعراء الصراع في فخرهم فاستغلوا هذا الموضوع في ميدان القتال وفي ظروف السلم، وصوروا به أحاسيسهم تجاه نفوسهم وتجاه قبائلهم وتجاه الإسلام.

على أن الفخر عند شاعر الصراع قد اتجه وجهتين: **وجهة جماعية** تلهج بذكر الإسلام والمسلمين أو القبيلة والعشيرة وهي الوجهة العامة والغالبة في شعر الصراع، **ووجهة أخرى فردية**، وصورة هذا الفخر قليلة نادرة تكاد تستتر عند شعراء المسلمين لتظهر عند بعض شعراء المشركين، وبخاصة الشعراء الفرسان **كأبي أسامة معاوية بن زهير وضرار بن الخطاب وهبيرة ابن أبي وهب وما لك بن عوف النصري**، ولكنها على أية حال لم تكن تتجاوز عدة أبيات. ومعنى هذا أن شخصية شاعر الصراع تكاد تذوب في شخصية قبيلته أو قومه أو جماعته ومبدئه. ومرد ذلك أن أحداث الصراع قد دفعت هذا الشاعر إلى التكتل والاتحاد إما مع الإسلام وإما عليه.

وحرص شعراء الصراع أن يستقلوا مادة فخرهم من ذلك الصراع المحتدم وأن يفيدوا من سير المعارك وأحداثها ونتائجها، فقام فخر شعراء المشركين على ذكر الأحساب والأنساب والفضائل والإشادة بالعصبية والتعريض بالإسلام.

وقام فخر شعراء المسلمين على ذكر الفضائل والأحساب على طريقة الجاهليين، وأيضاً على الإشادة بالدين الجديد، وتسجيل دورهم ودور قومهم في نصرته وحمل لوائه والجهاد في سبيل نشره، وافتخروا بالتسابق إلى نيل الشهادة وحسن المثوبة عند الله.

---

[1] السيرة/ق٢/٤٦٦- ٤٦٧.

[2] مشتجر: مختلف من الاشتجار وهو الاختلاف وتداخل الحجج بعضها في بعض.

[3] ضاحية: منكشفة بارزة في أشعة الشمس.

[4] ساطع: غبار متفرق. وكدر: متغير إلى السواد.

وهذا يعني أن الفخر قد صبغ بصبغة جديدة لم يعرفها في تاريخه الحافل، إذ ظهرت عليه مسحة من الإسلام حين أخذ الشعراء يستوحون معانيه السامية ويفيدون من أفكاره الجديدة.

والفخر هو منطق القوة والاعتزاز عند الشاعر، فكان بديهياً لذلك أن يحرص شاعر الصراع على استعمال الألفاظ القوية والمعاني المؤثرة، وأن يتجه إلى التركيز على المثاليات التي من شأنها أن ترفع القبيلة أو الجماعة وتسمو بها، وأن ينهج إلى اصطناع الأوزان والصور التي تتناسب مع لهجة الفخر القوية ليكون قوي التأثير.

التحريض والوعيد:

وهذا موضوع آخر من موضوعات شعر الصراع، وهو موضوع قديم تمتد جذوره إلى أعماق الجاهلية، وتتشعب في أنحاء الجزيرة العربية. ولهذا لا نستطيع أن نعده موضوعاً جديداً، فقد شاع شيوعاً واسعاً في شعر الأيام.

والتحريض والوعيد موضوع شديد الصلة بالصراع ويكاد يكون صدى لموضوعي الفخر والهجاء، فكثيراً ما يسلم إليهما أو يسلمان إليه. وقد أفردناه بحديث خاص لأنه يختلف عنهما في كونه لا يسجل أحداثاً وقعت –إلا نادراً - وإنما يتمسك بالناحية المعنوية ويصطنع أسلوب الإثارة ويجنح إلى الإفصاح عن الخطة التي يعدها الشاعر أو قومه لضرب خصومهم.

وتبرز الدوافع إلى التحريض والوعيد –أكثر ما تبرز - عند الهزيمة إذ نرى الشاعر يتوعد لأخذ الثأر والانتقام، أو لتثبيط عزائم خصومه أو للتأليب عليهم والنيل من معنوياتهم. وقد يقوم بإثارة الخلاف بين طرفين من أعدائه فيحرض أحد هذين الطرفين على الآخر، فهذا **حسان ابن ثابت** تتسرب إليه أنباء قتل **هشام بن الوليد بن المغيرة لأبي أزيهر الدوسي**– وكان أبو أزيهر -رجلاً شريفاً محالفاً لأبي سفيان –فينبعث محرضاً في دم أبي أزيهر ومعيراً أبا سفيان خفرته فيقول[1]:

غدا أهل ضوجي ذي المجاز كليهما	وجار ابن حرب بالمغمس ما يغدو[2]
ولم يمنع العير الضروط ذماره	وما منعت مخزاة والدها هند[3]
كساك هشام بن الوليد ثيابه	فأبل وأخلف مثلها جددا بعد
قضى وطراً منه فأصبح ماجداً	وأصبحت رخواً ما تخب وما تعدو[1]

---

[1] السيرة/ق١/٤١٤.

[2] الضوج: جانب الوادي وما انعطف منه، والمغمس: موضع بطريق الطائف.

[3] العير: الحمار: وهند: هي بنت أبي سفيان.

فلــو أن أشياخاً ببدر تشاهدوا   لبل نقــال القــوم معتبط ورد[2]

ولئن أراد أن يضرب قريشاً بعضهم ببعض في رجل من دوس، فإنه راح يحرض دوســاً علــى قريشٍ ليجهض قوة قرشي ويضعف من شأنها ويلهيها في حرب جانبية على شاكلة قوله[3]:

يا دوس إن أبا أزيهر أصبحت   أصداؤه رهن المضيح فاقْدَحي[4]

حرباً يشيب لهــا الوليد وإنما   يأبى الدنية كــل عبد نحنح[5]

فابكي أخاك بكل أَسمر ذابل   وبكل أبيض كالعقيقة مصفح[6]

إن تقتلــوا مائة بــه فدنية   بأبي أزيهر مــن رجال الأبطح

وهذا **كعب بن مالك** يثيره غدر **عامر بن الطفيل** بأصحاب بئر معونة من المسلمين —وكانوا في جوار **أبي براء ملاعب** الأسنة - فيعير بني **جعفر بن كلاب** بإخفار الذمة، ويحرضهم على عامر وعلى بني سليم بقوله[7]:

تركتم جاركم لبني سليم   مخافة حربهم عجزاً وهونا[8]

فلو حبلاً تناول من عقيل   لمــد بحبلها حبلا متينا[9]

أو القرطاء ما إن أسلموه   وقدما ما وفوا إذ لا تفونا

وعندما يحس الشاعر أن مكانة قومه قد أخذت بالهبوط والتدني وأن الهزيمة قد نالــت منــهم وكشفت عورهم يلجأ إلى توعد عدوه وتهديده لإعادة الثقة بقومه ولرد اعتبارهم بين القبائل كما نرى في قول **هند بنت عتبة** بعد هزيمة بدر[1]:

---

1 تخب: من الخبب وهو ضرب من السير.

2 يعني بالمعتبط الورد: الدم العبيط وهو الطري.

3 ديوانه/ ١٣٠ -١٣٣.

4 أصداؤه: جمع صدى، وهي على أوجه منها ما يبقي من الميت في قبره وهو جثته ومنها حشوة الرأس يقال لها الهامة والصدى. والمضيح: ماء لبني البكاء. واقدحي: أثيري حرباً يشيب لها الوليد.

5 النحنح: اللئيم الخسيس.

6 أسمر ذابل: هو الرمح. وأبيض: السيف. والعقيقة: البرق إذا رأيته في وسط السحاب كأنه سيف مسلول: وعقيقة البرق: ما أنعق منه أي تسرب في السحاب. ومصفح: عريض.

7 السيرة/ق٢/١٨٩.

8 الهون: الهوان، لغة الحجازيين.

9 يعني بالحبل: العهد والذمة.

لنهبطـــن يثربـــه بغَـــارةٍ منشعبـــه
فيها الخيول المقْرَبةْ كل جواد سلهبه[2]

ولعل الأخذ بالثأر من أهم الدوافع إلى الوعيد، فإذا ما أصيب الشاعر بقتل عزيز لديـــه، فإنـــه يسارع إلى تهديد عدوه وتوعده على غرار قول **الحارث بن هشام** بعد غزوة بدر[3]:

فإلا أمت يا عمرو أتركْكَ ثائراً ولا أبق بقيا في إخـــاء ولا صهر[4]
وأقطع ظهرا من رجال بمعشر كرام عليهم مثل ما قطعوا ظهري

وربما فشل قوم الشاعر في النيل من خصومهم وعجزوا عن إحراز النصر عليهم، وحينئذ يعمد هذا الشاعر إلى بعث الثقة في نفسه ونفوس قومه وزرع الخوف والريبة في قلوب أعدائـــه علـــى شاكلة قول **ضرار بن الخطاب الفهري** يوم الخندق[5]:

وسوف نزوركم عما قريب كمـــا زرناكـــم متوازرينا
بجمع مـــن كنانة غير عزل كأسد الغاب قد حمت العرينا

وقد يكون الوقوف ضد الدعوة الإسلامية، وقتل بعض دعاتها سبباً من أسباب الوعيد، إذ يلجأ الشاعر إلى توعد أعدائه وتهديدهم مثل قول **حسان بن ثابت** يوم الرجيع[6]:

يا أيها الراكب الغـــادي لطيته أبلغ لديك وعيداً ليس بالكذب[7]
بني فكيهة إن الحرب قد لقحت محلوبها الصـــاب إذ تمرى لمحتلب[8]
فيها أسود بني النجار يقدمهم شهب الأسنة في معصوصب لجب[9]

وقد يكون الكفر بالله وبنبوة محمد – عليه السلام - مسرباً ينفـــذ منـــه الـــشاعر إلى توعـــد المشركين بإعلان الجهاد كقول **عباس بن مرداس السلمي** في يوم حنين[1]:

---

[1] جمهرة ابن دريد/١/٢٧٢.
[2] المقرب من الخيل: الذي يقرب من البيوت لكرمه. والسلهبة: الفرس الطويلة.
[3] السيرة/ق٢/١٠.
[4] ثائر: ذو ثأر.
[5] السيرة/ق٢/٢٥٥.
[6] ديوانه/ ١١٠.
[7] الطية: ما انطوت عليه النية من الجهة التي يتوجه إليها.
[8] بنو فكيهة: قبيلة. ولقحت: ازداد شرها، ومحلوبها: يعني لبنها. والصاب: العلقم. وتمري: تمسح.
[9] المعصوصب: (هنا) الجيش الكثير. واللجب: الكثير الأصوات.

وإن لم يسلمــوا فهم أذان بحرب الله ليس لهم نصير

كما حكت بني سعد وحرب برهط بني غزية عنقفير[2]

ولم يتوعد شاعر الصراع باستخدام سلاح القوة فحسب، بل نهج إلى التهديد باستعمال سلاح آخر ربما كان أشد وْقعاً على نفس العربي من السيف الحاد، ذلك السلاح هو الكلمــة أو بقــول كالجلاميد كما يقول حسان بن ثابت[3]:

يا آل تيم ألا ينهى سفيهكم قبل القذاف بقول كالجلاميد[4]

من هذا نرى أن الصراع كان النبع الثر الذي أستقى منه شاعر الصراع مادة موضوعه هــذا، فاتَّجه إلى استعمالِ أسلوب التحريض والوعيد الذي يرتكز على القوة ويستند إلى العنف، ودفعــه هذا الأسلوب إلى انتقاء ألفاظه ومعانيه بحيث تتناسب مع روح هذا الموضوع وطبيعته.

ويبدو أن هذا الموضوع ينجم –في أغلب الأحيان - من شعور الشاعر بــالانْهِزَام وإحــساسه بالخذلان، وأنه يأخذ مضمونه من هذا المفهوم فأكثر صدوره كما رأينا من الشواهد عــن شــاعر موتور هزم قومه فرفض الهزيمة، وتجاوز الاعتراف بها إلى التهديد والوعيد واستعراض العضلات.

وتطور هذا الموضوع قليلاً في ظل الإسلام حيث كساه كسوة جديدة وغير هدفه وغايته، ذلك أن شعراء المسلمين قد سخروه لخدمة الدعوة الإسلامية، فكان طبيعياً أن يُوَشّحُوهُ ببعض المعــاني التي جدت على واقعهم الفني وعرفوها في الدين الجديد.

أما عند شعراء المشركين من قريش وغير قريش فلم يحدث فيه شيء من التَّطوُّر، بل ظل يــسير على ذلك النهج التقليدي الذي دان له عند الجاهليين.

ويظهر الاتجاه السياسي واضحاً في موضوع التحريض والوعيد مما يبيح لنا أن نظن بأن شــاعر الصراع قد دخل المعترك السياسي من أوسع أبوابه، فكان يراقب الوضع السياسي ويرصد ما يجدُّ من تطورات ثم ينتهز الظروف القائمة فيستغل التحريض في المناورات السياسية، وافتعال الأزمات بين الخصوم ويسخره لإذكاء روح العداء فيما بينهم، ويستغل الوعيد في الحرب النفسية التي مــن

---

1 السيرة/ق٢/٤٥٢.

2 عنقفير: داهية.

3 ديوانه/١٩١.

4 الجلاميد: جمع جلمدٍ وجلمود وهو الصخر.

شأنها أن تزعزع ثقة العدو بنفسه، وهو ما يسمى بالحرب الباردة –إن صح التعبير - في وقتنا هذا. ومن هنا كان هذا الموضوع سياسياً في هدفه وغايته، بل وفي مفهومه أيضاً.

الوصف:

ولئن كان التحريض والوعيد موضوعاً سياسياً –كما بينا - فقد كان الوصف موضوعاً عسكرياً ذلك أنه كان صحيفة الحرب السيارة التي تنقل أخبار المعارك والغزوات كرصد تحركات الجيوش وبلاء الفرسان وتساقط القتلى وإعلان النتائج.

ولما كان الجيش هو عدة القبيلة أو الجماعة، ودرعها الحصينة، فقد حرص شاعر الصراع –أول ما حرص– على وصف جيش قومه وإبراز قدرته على القتال ولفت النظر إلى كثرته والإشارة إلى خطر فرسانه. فهذا عبد الله بن الزّبَعْرى يصف تحرك جيش قريش إلى المدينة ويبرز قوة الجيش المهاجم ويكشف عن خوف المسلمين من بأسه فيقول[1]:

ومجنبنا جرداً إلى أهل يثرب	عناجيج منها متلد ونزيع[2]
عشية سرنا في لهام يقودنا	ضرور الأعادي للصديق نفوع[3]
نشد علينا كل زعف كأنها	غدير بضوج الواديين نقيع[4]
فلما رأونا خالطتهم مهابة	وعاينهم أمر هناك فظيع
وودوا لو أن الأرض ينشق ظهرها	بهم وصبور القوم ثمَّ جزوع

ويصور **كعب بن مالك** سرعة جيشه في مفاجأة الخصوم ويصف استعداد هذا الجيش لكل طارئ، فأفراده يلبسون الدروع الكاملة ويحملون في أيديهم سيوفاً خفيفة يبادئون بها الشاغبين أو كما يقول[5]:

نعاجلهم إذا نهضوا إلينا	بضرب يعجل المتسرعينا
ترانا في فضافض سابغات	كغدران الملا متسربلينا[1]

---

[1] السيرة/ق٢/١٤١.

[2] مجنبنا: قودنا يقال: جنبت الخيل: إذا قدتها ولم تركبها، والعناجيج: الطوال الحسان، والمتلد: الذي ولد عندك. والنزيع الغريب.

[3] لهام: جيش كثير.

[4] الزعف: الدروع اللينة، والضوج: جانب الوادي. ونقيع: مملوء بالماء.

[5] السيرة/ق٢/٢٥٦.

وفي أيماننا بيض خفاف ... بها نشفي مراح الشاغبينا[2]

وكثيراً ما يقف شاعر الصراع على أخبار المعركة ليصف حال عدوه في أثناء سير القتال **فهبيرة بن أبي وهب المخزومي** يرى رؤوس المسلمين تتدحرج عن أجسامهم يوم أحد كقشر بيض النعام الذي نفته عن الموضع الذي تبيض فيه أو كما يتدحرج الحنظل الذي حركته الرياح السوافي فيقول[3]:

كـأن هامهـم عند الوغى فلق ... من قيض ربد نفته عن أداحيها[4]

أو حنظل ذعذعته الريح في غصن ... بال تَعَاوَدَهُ منهـا سوافيها[5]

وقد يقف الشاعر على أخبار المعركة ليصف حال عدوه بعد انتهاء القتال وانجلاء الموقف.

فحسان بن ثابت يرى أن أعداء المسلمين بعد انتهاء القتال يوم بدر بين اثنين: مأسور يشد عليه الوثاق وصريع لا يستجيب لدعوة أو كما يقول[6]:

من كل مأسور يشد صفاده ... صقر إذا لاقى الكتيبة حامي[7]

ومجدل لا يستجيب لدعوة ... حتى تزول شوامخ الأعلام[8]

ويتجه شاعر الصراع في أغلب الأحيان إلى الاحتفال بالنتائج دون الحديث عن المعركة. ومرد ذلك أن وصف حيثيات المعركة وجزئياتها قد يطول فيؤخره بالتالي عـن إعـلان النتيجـة، ثم إن الإطالة والوقوف عند الجزئيات من شأن المؤرخ، أما الشاعر الذي يعيش أحداث الصراع فالإيجاز أمر مهم عنده، لأن ظروفه تقتضي السرعة. ولهذا لم يتجه **ضرار بن الخطاب الفهري** إلى وصف معركة أحد وصفاً شاملاً وإنما قال[9]:

---

[1] الفضافض: الدروع المتسعة. وسابغات: كاملة. والملا: المتسع من الأرض. ومتسربلون: لابسون الدروع.

[2] المراح: النشاط.

[3] السيرة/ق٢/١٣٠- ١٣١.

[4] الهام: جمع هامة وهي الراس والفلق: جمع فلقة وهي القطعة من الشيء. والقيض: قشر البيض الأعلى. والربد: النعام لأن ألوانها بين البياض والسواد، وهو اللون الأربد. والأداحي: جمع أدحى وهو الموضع الذي تبيض فيه النعام.

[5] ذعذعته: حركته. وتعاوده: تتداوله. والسوافي: الرياح التي تقلع التراب والرمل من الأرض.

[6] الديوان: ٤٢٠.

[7] الصفاد: الغل والقيد. الصقر: السيد.

[8] الدعوة: النداء. والشوامخ: الأعالي. والأعلام: جمع علم وهو الجبل العالي.

[9] السيرة/ق٢/١٤٠.

فدسناهم ثم حتى انثنوا سوى زاهق النفس أو مُخَرجِ

ولكن هذا الإيجاز الذي يحفل به شاعر الصراع لم يكن ليفقد الصورة دلالتها وإنما يكسبها إطارا قوياً من التركيز والتأثير. وهل هناك من إيجاز مركز أكثر من وصف **كعب بن مالك** لمصير المشركين في يوم بدر حين قال[1]:

فأتاك فل المشركين كأنهم والخيل تثفنهم نعام شرد[2]

وكما وصف شاعر الصراع سير المعارك وتعقب حال العدو، فإنه قد وصف حال القتيل أيضاً وأكسب وصفهُ صورة من التجسيم والتشخيص، فحين نقرأ قول **ضرار بن الخطاب** الفهري في قتـل **حمزة بن عبد المطلب** يوم أحد[3]:

وحمزة القومُ مصروع تطيف به ثكلى وقد حزمنه الأنف والكبد[4]

كأنه حين يكبـو في جديته تحت العجاج وفيه ثعلب جسد[5]

حوار ناب وقد ولى صحابته كما تولى النعام الهارب الشرد[6]

نحس كأننا نشاهد مصرع حمزة وسقوطه تحت الغبار مخضباً بدمه، ونحس أيضاً أننا نرى فرسـان المسلمين وهم يفرون من حوله كما يفر النعام الهارب النافر.

ولم يكتف شاعر الصراع بوصف القتيل ووصف سقوطه في ساحة القتال، وإنما دفعته دقتـه إلى وصف الطعنة التي يطعن بها خصمه. وليس غريباً أن يفعل ذلك، فهو مشترك في القتـال ويطعـن أعداءه الطعنة النجلاء التي تعوي وتَهِرُّ أو كما يقول **مالك بن عوف النصري**:

وأطعن النجلاء تعوي وتهر لها من الجوف رشاش منهمر[7]

وثعاب العامل فيها منكسر[1] تفهق تارات وحينا تنفجر[2]

---

[1] نفسه/ ١٥٨.

[2] الفلّ: المنهزمون. وتثفنهم: تطردهم وتتبع آثارهم.

[3] السيرة/ق٢/١٦٥.

[4] القرم: السيد. وخز: قطع.

[5] يكبو: يسقط. والجدية: طريقة الدم. والعجلج: الغبار. والثعلب (هنا) ما دخل من الرمح في السنان. وجسد: قد يبس عليه الدم.

[6] الحوار: ولد الناقة. والناب: المسنة من الإبل. والشرد: النافرة.

[7] النجلاء: المتسعة. وتعوي وتهر: أي التي يسمح لخروج الدم منها صوت كالعواء والهرير. والرشاش: ما يخرج من الدم متفرقاً. ومنهمر: منصب.

وحرص شاعر الصراع على وصف عدة الحرب أيضاً فوصف الخيل[3]، ولـسيوف والـدروع وغيرها من الأدوات التي شهدت معه ساحة المعركة، فالدروع التي يرتديها المسلمون محكمة النسج ومحكمة السرد ومساميرها كحدق الجنادب، وهي كالغدير الذي تصفق مياهـه الـريح فيجـيء ويذهب كما يقول **كعب بن مالك**[4]:

في كل سابغة تخط فضولها ... كالنهي هبت ريحـه المترقْرقِ[5]

بيضاء محكمة كأن قتيرها ... حدق الجنادب ذات شك موثق[6]

جدلاء يخفرها نجاد مهند ... صافي الحديدة صارم ذي رونق[7]

وطبيعي أن يحظي السيف باهتمام شاعر الصراع، فهو أهم أدوات الحرب، وهـو الأداة الـتي يصلتها المحارب على عنق عدوه، فالسيوف التي بأيدي محاربي قريش كما يقول **ضرار بن الخطاب**[8]:

بأيدينا صوارم مرهفات ... نقد بها المفارق والشؤونا[9]

كأن وميضهن معربات ... إذا لاحت بأيدي مصلتينا[10]

وميض عقيقة لمعت بليل ... ترى فيها العقائق مستبينا[11]

على أن هذا الوصف عند شاعر الصراع كان غالباً ما يتسم بالإيجاز والتركيز كما قلنـا، لأن القتال لا يساعده على التأني والإطالة فوصفه قصير كوقته. أما بعيد المعركة فهو يملـك الوقـت

---

1 جمهرة اللغة/ ٣/١٣٩، الاشتقاق/١/١٥٨ – الثعاب: ما دخل من عصا الرمح في السنان. والعامل: أعلى الرمح.

2 السيرة/ق٢/٤٤٧ – تفهق: تنفتح. وينفجر: يسيل منها الدم.

3 السيرة/ق٢/١٤٧.

4 نفسه/ ٢٦١.

5 تخط فضولها: ينجر على الأرض ما فضل منها. والنهي الغدير من الماء والمترقرق: الذي تصفقه الريح فيجيء ويذهب.

6 القتير: مسامير الدروع. والجنادب: ذكور الجراد. والشك: إحكام السرد.

7 الجدلاء: الدرع المحكمة النسج، ويخفزها: يرفعها ويشمرها. والنجاد: حمائل السيف. والرونق: اللمعان. وصارم: قاطع.

8 السيرة/ق٢/٢٥٥.

9 الشؤون: مجمع العظام في أعلى الرأس.

10 المصلت: الذي جرّد سيفه من غمده.

11 العقيقة: السحابة التي تشق عن البرق.

الطويل، وهذا الوقت يسعفه بإطالة النفس والإسهاب، فيعرض صورة المعركة عرضاً مفصلاً على شاكلة قول **كعب بن مالك**[1]:

وقد حشدوا واسْتَنفَروا من يليهم	من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا	بأجمعها كعب جميعاً وعامر
وفينا رسول الله والأوس حوله	له معقل منهم عزيز وناصر[2]
وجمع بني النجار تحت لوائه	يمشون في الماذي والنقع ثائر[3]
فلما لقيناهم وكل مجاهد	لأصحابه مستبسل النفس صابر
وقد عريت بيض خفاف كأنها	مَقَامِسُ يزهيها لعينيك شاهر[4]
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا	وكان يلاقي الحين من هو فاجر[5]

وحرص شاعر الصراع –أحياناً– على الإسهاب في سرد الأحداث، وتعقبه للجيش منذ خروجه إلى أرض المعركة حتى عودته إلى حِماهُ وتسجيله للأعمال التي قام بها، والصعاب التي واجهها والنتائج التي أدركها. كل هذا يوحي بظهور ملامح قصصية مخافته[6]، ولكن ذلك كان قليلاً، لأن عناية شاعر الصراع كانت مُنْصَرِفَةً إلى الإيجار، ومنصبة على التشخيص والتجسيم، والاحتفال بالصور التي تهيئ له الدقة والوضوح. مسايرة منه لظروف الصراع التي يعيشها.

وهكذا عالج شاعر الصراع موضوع الوصف، فكان عنده وصفاً للقتال وتصويراً لمعاركة ونقلاً لأحداثه، ومعنى هذا أنه لم يحفل بهذا الوصف التقليدي للصحراء وطبيعتها وحيوانها وطيرها وسمائها – كما كان يفعل في السلم – إلا بمقدار ما يخدم غرضه ويعينه على إدراك غايته. ولم يكن هذا النهج عاماً ولا شاملاً فقد وجدنا بعض شعراء القبائل يحرصون على وصف الناقة والفرس والغراب والذئب وغيرها كما كانوا يفعلون في الجاهلية، وأشهر هؤلاء: **كعب بن زهير المزني والنابغة الجعدي**. وتفسير ذلك **أولاً**: أنهم لم يشاركوا في ساحة القتال ولم يشهدوا مصارع الفرسان، وإنما كانوا يسمعون بنتائج المعارك وهم بعيدون عن أرضها. **وثانياً**: أنهم قالوا هذا الوصف بعد انتهاء

---

[1] السيرة/ق٢/١٤ -١٥.

[2] المعقل: الموضع الممتنع.

[3] الماذي: الدروع البيض اللينة.

[4] يزهيها: يستخفها ويحركها.

[5] أبدنا: أهلكنا.

[6] الواقدي: المغازي/ ١٩٠ – سير أعلام النبلاء/١/٢٤٦ - السيرة/ق٢/١٣٢ – ١٣٥ – ١٤١.

القتال وفي أثناء وفادهم على الرسول الكريم، وبهذا لم يعد هناك ما يشغل عن اللهو بالصحراء وما يدب فيها. **ثالثاً**: أن الشعراء الذين وقفوا عند وصف الصحراء كانوا من شعراء القبائل –كما بينا - وشعراء القبائل بعامة مغرمون بذكر الصحراء وحريصون على الالتزام بعمود الشعر الذي عرفوه عند آبائهم، أما شعراء المدن كالمدينة ومكة والطائف فإنهم كانوا منصرفين إلى متابعة أحداث الصراع، ثم إن حياة الاستقرار في المدينة قد نأت بهم عن ذكر الصحراء وأمرها إلا بقدر ماله مساس بحياتهم.

والوصف موضوع قديم، غير أنه تطور عند شعراء المسلمين، فتزود بثروة محدودة من المفاهيم الإسلامية الجديدة كالتوحيد والنبوة والجهاد والشهادة، والشرك والفجور وغيرها، أما عند شعراء المشركين فلم يحدث فيه ثمة تغير إلا في غايته وهدفه وبيئته أما شكله ومضمونه فبقيا على حالهما الذي عهدناه عند شعراء الجاهلية.

واتجه الوصف عند شاعر الصراع إلى إبراز قوة الجيش وإظهار مدى استعداد للحرب والإشادة بشجاعة فرسانه، كما اتَّجه إلى وصف عدة القتال التي يستخدمها المحارب، وزاد شعراء المسلمين ذكر الصبر على البلاء والثبات على نصرة الإسلام والاستعداد للتضحية.

المديح:

وكما افتخر شاعر الصراع وتوعد ووصف، فإنه لم ينس أن يمدح أيضاً، ذلك أنه عاش في عصر يستدعي تسجيل المآثر والإشادة بالشجاعة والبطولة. وهذا يعني أن مديحه كان وثيق الصلة بالقتال ونتائجه، فكان عليه أن يلاحق أخبار المعارك ليشيد بأفعال القادة والزعماء ويدعو إلى التآلف ونبذ الخصام ويمجد الفضائل التي عرف بها القتيل، إلى غير ذلك مما تتطلبه ظروف الحرب.

وقد حفل شاعر الصراع بتسجيل الانتصار فكان طبيعياً لذلك أن يبادر إلى مديح قائد الجيش الذي حقق هذا الانتصار، ليدفعه إلى المزيد من البذل والتضحية، فهذا **عبد الله بن الزِّبَعْرى** يثني على قيادة أبي سفيان بن حرب وعيينة بن حصن، ثم يجعلهما كالبدرين اللذين أصبح فيهما غيث الفقير وملجأ الهراب أو كما يقول[1]:

جيش عيينة قاصد بلوائه ... فيه، وصخر قائد الأحزاب

قرمان كالبدرين أصبح فيهما ... غيث الفقير ومعقل الهراب[2]

---

[1] السيرة/ق٢/٢٥٧.

[2] قرمان: فحلان سيدان.

وكثيراً ما تحمل نتيجة المعركة على مديح القتيل والإشادة بكرمه وتمجيد أفْعَاله الحميدة على شاكلة قول **أمية بن أبي الصلت** في قتلى بدر من المشركين[1]:

القائلين الفاعلين الآمرين بكل صالح

المطعمين الشحم فوق الخبز شحماً كالأنافح[2]

وهب المئين من المئين إلى المئين من اللواقح[3]

لكرامهم فوق الكرام مزية وزن الرواجح

وقد يكون خلاف أشراف القبيلة سبباً في مديحهم، فهذا **أبو قيس بن الأسلت** يرى وقوع الخلاف العنيف بين بطون قريش بعد ظهور دعوة الإسلام في مكة فبادر إلى نصحهم بنبذ هذا الخلاف، ولا يجد وسيلة لذلك سوى المديح، فيقف على مناقبهم ومآثرهم يحصيها ويعددها ويذيعها في العرب، لعلها تشدهم إلى الصلح وتحملهم على إزالة أسباب الفرقة فيقول[4]:

وأنتم إذا ما حصل الناس جوهر لكم سرة البطحاء شم الأرانب[5]

تصونون أجساداً كراماً عتيقة مهذبة الأنساب غير أشائب[6]

ترى طالب الحاجات نحو بيوتكم عصائب هلكى تهتدي بعصائب

لقد علم الأقوام أن سراتكم على كل حال خير أهل الجباجب[7]

وربما كان المديح تداركاً لموقف أو رداً لاعتبار، من ذلك أن **كعب بن زهير** المزني قام يمدح النبي الكريم، ويمدح المهاجرين، وأغفل مديح الأنصار، وعندما ذكر بهم تدارك موقفه وأقبل على مديحهم والثناء عليهم فقال[8]:

دربوا كما دربت أسود خفية غلب الرقاب من الأسود ضواري[1]

---

[1] السيرة/ق٢/٣١.

[2] الأنافح: جمع أنفحة، وهي شيء يخرج من بطن ذي الكرش داخله أصفر، فشبه به الشحم.

[3] اللواقح: الإبل الحوامل.

[4] السيرة/ق١/٢٨٥.

[5] سرة الشيء: خيره وأعلاه. والأرانب: جمع أرنبة وهي التي فيها ثقب الأنف.

[6] غير أشائب: غير مختلطة يعني أنها خالصة النسب.

[7] الجباجب: المنازل مفردها جبجبة.

[8] ديوانه/٢٨ -٣٠.

وهم إذا خوت النجـــوم فإنهم   للطائفيـــن السائليـــن مقـــاري[2]

والمنعمون المفضلـــون إذا شتوا   والضاربـــون عـــلاوة الجبـــار[3]

لا يشتكون الموت إن نزلت بهم   شهبـــاء ذات معاقـــم وأوار[4]

من هذا يتضح لنا مسلك شاعر الصراع في مديحه، فالشواهد تشهد على أنه كان يقف علـــى الفضائل والخصال المحمودة التي يحبها العربي كالشجاعة والنجدة والوفاء والكـــرم والـــدعوة إلى الصلح وغيرها فيسبغها على ممدوحه. غير أن هذه المعاني القديمة لم تقعد به عن الإفادة من معـــاني الدين الجديد، فقد حرص على تضمين عبارات مديحه أحيانا بعض المفاهيم التي جاء بها الإسلام، مما هيأ لشعر المديح حظاً وافراً من التطور والتجديد. ولا نكاد نجانب الصواب إذا قلنا بأنه كان أكثر الموضوعات القديمة تأثراً بالإسلام، وذلك لسبب بسيط، وهو أن معظمه قد قيـــل بعـــد انتـــصار الإسلام وفرض سيادته على الجزيرة العربية، فكان من الطبيعي أن تشيع فيه روح الإسلام وبخاصة ما كان منه في مديح الرسول الكريم وآل بيته وأصحابه **فحسان بن ثابت** –مثلاً - يتخذ من مديحـــه لعائشة أم المؤمنين سبيلاً لتبرئة نفسه من حديث الإفك ولا يفوته أن يضمن مديحه بعـــض المعـــاني الإسلامية وذلك حيث يقول[5]:

حصان رزان مـــا تزن بريبة   وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[6]

حليلة خير الناس ديناً ومنصباً   نبي الهدى والمكرمات الفواضل

مهذبة قد طيب الله خيمهـــا   وطهرها من كـــل سوء وباطل[7]

---

[1] دربوا: اعتادوا والدربة: العادة. وخفية: موضع كثير الأسد. والغُلْب: الغُلُظ الرقاب. والضواري: اللواتي قد ضرين بأكل لحوم الناس والواحد: ضار.

[2] خوت النجوم: سقطت ولم تمطر في نوئها والطارقون: الذين يأتون بالليل. ومقاري: جمع مقراة وهي الجفنة التي يُصنَع فيها الطعام للأضياف.

[3] العلاوة –هنا - العنق والجمع علاوى، والجبار: الشديد.

[4] معاقم: العقم. والشهباء: الكتيبة التي يبرق حديدها وسلاحها. والأوار –هنا - الغبار الذي يثورُ من الحوافر لشدة وقعها.

[5] ديوانه/ ٣٨٠ -٣٨١.

[6] الحصان: العفيفة. والرزان: الملازمة موضعها التي لا تتصرف كثيراً، وامرأة رزان إذا كانت ذات ثبات ووقار وعفاف. وغرثى: جائعة. الغوافل: جمع غافلة يريد أنها لا ترتع في أعراض النساء.

[7] مهذبة: صافية مخلصة. والخيم: الطبع والأصل.

رأيتك وليغفر لك الله حـــرة   من المحصنات غير ذات غوائـــل

وقد يكون المديح مسرباً لتسجيل مواقف بعض الصحابة وإبراز دورهـــم في حمـــل الـــدعوة الإسلامية وإظهار مكانتهم من رسول الله[1]. وقد يكون المديح لشيء غير هذا، فربما عمد شـــاعر الصراع إلى إعلان الإسلام والانضواء تحت لوائه، فيحمله هذا إلى استعطاف رســـول الله بمدحـــه ومدح دينه كما نرى في قول **سلمة بن عياض الأسدي**[2]:

رأيتك يـــا خير البرية كلهـــا   نشرت كتابا جاء بالحق معلما

شرعت لنا فيه الهدى بعد رجعنا   عن الحق لما أصبح الأمر مظلما

وهذا مسلمة بن هزان الحداني يعلن إسلامه فيبادر إلى مديح الرسول – صلى الله عليه وســـلم - فيقول[3]:

حلفت برب الراقصات إلى منى   طوالع مـــن بين القصيمة بالركب

بأن رسول الله فينا محمـــداً   له الرأس والقاموس من سلفي كعب

أتانا ببرهـــان مـــن لله قابس   أضاء بـــه الرحمـــن مظلمة الكذب

أعز به الأنصـــار لمـــا تقارنت   صدور العوالي في الحنادس والضرب

على أن شعر المديح في فترة الصراع لم يبلغ شأو الفخر والهجاء والرثـــاء ووصـــف المعـــارك، وسبب ذلك أنها أكثر التصاقاً منه بظروف القتال وساحة الحرب.

وقل المديح بصورة خاصة عند شعراء الأنصار، فلم يزد عن أربعة أبيات عنـــد عبـــد الله بـــن رواحة[4] وبضعة عشر بيتاً عند كعب بن مالك[5] أما حسان بن ثابت فكان أوفر حظـــاً فيـــه مـــن صاحبيه، ولعلّ تمرسه في فني: الفخر والمديح في الجاهلية قد هيأ له ســـبيل الاســـتمرار فيهمـــا في الإسلام ومن قوله يمدح الرسول الكريم[6]:

والله ربي لا نفارق ماجـــدا   عف الخليقة ماجد الأمجاد

---

[1] الاستيعاب/١/٣٩٤.

[2] الإصابة/٣/١١٨.

[3] نفسه/٦/٩٨ – حسن الصحابة/١/١٥٢.

[4] السيرة/ق٢/٣٧٤.

[5] نفسه/١٥٧، ٣٤٩، ٣٨٦، ٤٨٠.

[6] ديوانه/ ١٣٧.

متكرما يدعو إلى رب العلا بذل النصيحة رافع الأعماد

مثل الهلال مباركاً ذا رحمة سمح الخليقة طيب الأعواد

وقد اتخذ مديحه للرسول صفة الفخر بالمسلمين جميعاً وخاصة الأنصار، والرد على المشركين ومهاجاتهم[1]، وبهذا طغى الفخر على المديح في شعره.

وقام موضوع المديح عند شعراء المشركين بعامة على تمثل الفضائل والمثل، فأسبغوا على ممدوحيهم صفات الشجاعة والكرم والوفاء وغيرها. أما شعراء المسلمين فقد استطاعوا أن يطوروه إذ لم يقتصروا على ما اقتصر عليه شعراء المشركين فحسب، بل استطاعوا أن يتمثلوا بعض المعاني التي عرفوها في دينهم كالنور والتقوى والرحمة والهداية والتوحيد وغيرها، واتجه أكثر مديحهم إلى شخص الرسول الكريم ودينه.

وحين دانت مكة وغيرها لسلطان النبي وقدمت وفود العرب إلى المدينة مسلمين، اصطبغ أغلب شعر الشعراء بصبغة المديح، وبهذا أصبح موضوع المديح تعبيراً عن مشاعر العرب وعواطفهم تجاه الإسلام ونبيه.

ومديح شاعر الصراع يخلو في معظمه من التزلف والملق، وسبب ذلك أن قائليه لم يقولوه طمعاً في الكسب ونيل العطاء على عادة بعض الشعراء في العصر الجاهلي كالأعشى والنابغة الذبياني والحطيئة وغيرهم، وإنما قالوه في سبيل تحقيق أهداف وغايات وأفكار آمنوا بها واضطلعوا بمهمة الدفاع عنها وعملوا جاهدين لإظهارها وانتصارها. فلم يكونوا إذن يركضون وراء منافع مادية، وإنما كانوا يسعون لإدراك الانتصار وتحقيق الظهور.

الرثـــاء:

الرثاء هو بكاء الميت والتحسر لفقده والأسى على فراقه وتسجيل مآثره وتجسيم الخسارة التي نجمت عن فقده.

وقد شاع هذا الفن في شعر الصراع فصاحب الموضوعات الأخرى منذ بدء القتال إلى نهايته، وكان يدور حول الغزوات ويكثر في مجال الهزيمة حيث يكثر القتل وتوجد المصائب. على أن شعر الرثاء لم يتوقف بتوقف القتال، بل مضى يصور ما بعد القتال من أحداث جسام فتمثَّلَ فقد الرسول الكريم وجسم مصاب المسلمين نتيجة ذلك.

---

[1] سيد حنفي: حسان بن ثابت/١٧٤.

والدافع إلى الرثاء هو هذا الحزن العاصف الذي يسيطر على عاطفة الشاعر ويعم أرجاء نفسه ويدفعه إلى القول والتعبير دفعاً. فإذا افتقد الشاعر زعيما سياسياً أو سيداً فاضلاً أو فارساً مغواراً أو غاب عن حياته أخ أو أب أو ابن، أو قتل من قومه نفر كثير، بادر إلى إعلان مشاعره، وخف إلى نقل أحاسيسه تجاه الملمة المؤلمة.

وافتقاد الزعيم السياسي يعتبر كارثة عظيمة للقبيلة أو الدولة، لأنهم يفتقدون فيه المدبر لأمورهم والمسير لسياستهم والمدافع عن كيانهم. وليس غريباً لذلك أن يقف شاعرهم يبكي هذا الزعيم ويدعو إلى الصبر على افتقاده ويحرض على الأخذ بثأره على شاكلة قول **ضرار بن الخطاب الفهري** في يوم بدر[1]:

فآليت لا تنفك عيني بعبرة	على هالك بعد الرئيس أبي الحكم
على هالك أشجى لؤي بن غالب	أتته المنايا يوم بدر فلم يَرِمْ[2]
فلا تجزعوا آل المغيرة واصبروا	عليه ومن يجزع عليه فلم يُلَمْ
وجدوا فإن الموت مكرمة لكم	وما بعده في آخر العيش من ندم

وكما يحزن القوم لافتقاد الزعيم فإنهم يحزنون كذلك لمقتل الفارس الشجاع لأنهم يفتقدون شجاعته وقوته فيفزع الشاعر إلى قوافيه يودعها ما يحس به من حزن عميق ليبرز مكانة القتيل في قومه ومدى الخسارة التي لحقت بهم لمقتله مثل قول **كعب بن مالك** يرثي **حمزة بن عبد المطلب**[3]:

بكت عيني وحق لها بكاها	وما يغني البكاء ولا العويل
على أسد الإله غداة قالوا	أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعاً	هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلي لك الأركان هدت	وأنت الماجد البر الوصول[4]
عليك سلام ربك في جنان	مخالطها نعيم لا يزول

وإذا كان الشاعر يحزن لفقد رجل من رجالات قومه أو فارس من فرسانهم، بل إذا كانت المرأة تبكي لبعير أضلته، فما أجدر الوالد الثاكل أن يبكي فيكثر البكاء، فهذا الأسود بن المطلب يفقد

---

[1] السيرة/ق٢/٢٧.

[2] لم يرم: لم يبرح ولم يَزُل.

[3] السيرة/ق٢/١٦٢.

[4] أبو يعلى: هو حمزة بن عبد المطلب.

ثلاثة من ولده في يوم بدر فيحترق جوفه ويفيض حنينه ويرتفع أنينه، ثم لا يلبث أن ينفجر باكيـــاً فيقول[1]:

أتبكي أن يضل لهـــا بعير ... ويمنعها مـــن النوم السهود

فلا تبكي على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود[2]

وبكي إن بكيت على عقيل ... وبكي حارثاً أسد الأسود

وبكيهم ولا تسمي جميعـــاً ... وما لأبي حكيمة من نديد[3]

وهكذا كان ينفعل شاعر الصراع فيصب انفعاله في قوالب شعرية مشجية، كأن يبكـــي أخـــاه وولده وسائر قتلى قومه فيبكي من حوله من الناس.

وكان فقد الرسول الكريم رقَّمة الحزن عند المسلمين جميعاً، فلما أحس الشعراء بموته —وكانوا في جملتهم مسلمين - بادروا إلى رثائه والتفجع عليه بشعر كثير. وكان الأنصار أسرع النـــاس إلى بكاء نبيهم كما كانوا أسرع الناس إلى نصرته ومنعه والمنافحة عنه فقومهم آووه ونصروه في ساعة العسرة وشاركوه في شرف الجهاد في سبيل الله وحاربوا تحت لوائه الأحمر والأسود ورأوا فيه قائداً محنكاً وزعيماً عبقرياً ونبياً مرسلاً، فحري بهم أن يجزعوا لفقده، وأن ينفعلوا لموته وحري **بحسان بن ثابت** أن يبكيه برائع الشعر فيقول[4]:

يبكون من تبكي السموات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد[5]

وهل عدلت يوماً رزية هالك ... رزية يـــوم مـــات فيـــه مـــحمد

تقطع فيه منزل الوحي عنهم ... وقد كان ذا نـــور يغـــور وينجد

إمام لهم يهديهم الحق جاهداً ... معلم صدق إن يطيعـــوه يسعدوا

وكأن المصيبة قد عقدت لسان كعب بن مالك فكادت تصيب شاعريته بالمحل والجفاف، ذلـــك أنه لم يكثر القول كصاحبه، ولكنه نطق على كل حال فزفر زفرات حرى، من ذلك أنه قال[6]:

---

[1] أنساب الأشراف/١/١٤٩ -تاريخ الطبري/٢/٤٦٤.

[2] البكر: الفتي من الإبل.

[3] ولا تسمي: أي ولا تسأمي، والنديد: الشبيه والمِثْل.

[4] ديوانه/١٤٧ -١٤٨.

[5] أكمد: أحزن من الكمد وهو الحزن.

[6] الإشبيلي: الذخائر والأعلاق/٢٢٣.

فُجِعْنَا بخير الناس حيّاً وميتاً   وأدناه من رب البرية مقعدا

وأنشد بعض الأنصار فقال[1]:

الصبر يحسن في المواطن كلها   إلا عليك فإنه مذموم

ولئن بكاه شعراء الأنصار وبكاه شعراء المهاجرين وبعض شعراء مكة الذين أسلموا بعد الفتح[2]، فقد بكاه بعض شعراء القبائل أيضاً، فهذا **عامر بن الطفيل بن الحرث الأزدي** يصور وقع المصيبة على نفسه فيقول[3]:

بكت الأرض والسماء على النور   الذي كان للعباد سراجا

من هدينا به إلى سبل الحق وكنا   لا نعرف المنهاجا

أما **أبو ذؤيب الهذلي** فقد عبر عن أساه بقوله[4]:

لما رأيت الناس في عسلاتهم   ما بين مَلْحُودٍ له ومضرَّح

فهناك صرت إلى الهموم ومن يبت   جار الهموم يبيت غير مروح

كسفت لمصرعه النجوم وبدرها   وتزعزعت آطام بطن الأبطح

وتزعزعت أجبال يثرب كلها   ونخيلها لحلول خطب مفدح

وإذا ما انتقلنا إلى النساء الشواعر نجد أنهن قد صورن انْفعَالاتِهنَّ فندبن القتلى وذرفن عليهم الدموع الغزيرة، فحين يقتل الزوج لا تستطيع الزوج الشاعرة أن تكبت مشاعرها نحوه وتدفن حزنها عليه فتندفع لذلك إلى تصوير انفعالها وإظهار حزنها العميق، **فأسماء بنت عميس** مثلاً لم تستطع أن تكبت شجوها على زوجها جعفر الطيار فما أن بلغها مقتله في يوم مؤتة حتى كشفت عن ألمها فانطلقت تقول[5]:

فآليت لا تنفك نفسي حزينة   عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

فلله عينا من رأى مثله فتى   أكر وأحمى في الهياج وأصبرا

---

[1] نفسه/٢٢٣.

[2] الطبقات الكبرى/٢/٣١٩-٣٣٣ والذخائر والأعلاق/٢٢١-٢٢٥.

[3] الإصابة/٤/١٠.

[4] الروض الأنف/٢/٧٨ والاستيعاب/٤/١٦٥٠.

[5] البداية والنهاية/٤/٢٥٣.

وإذا ما غاب الابن عن الحياة يلم بأمه الشاعرة ألم عميق وينتابها أسى شديد ،ولكن ألم كبيشة بنت رافع الأنصارية ابن معاذ يفوق كل ألم وحزنها يزيد على كل حزن، فكل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ كما يقول الرسول الكريم[1]، وها هي ذي ترى نعش ابنها سعد قد احتمل فيعلو صراخها وتصيح[2]:

ويل أمّ سعد سعدا	صرامة وحدا
وسؤددا ومجدا	وفارسا معدا
سد به مسدا	يقد هاما قدا

وعندما يفقد الأب تحس الشاعرة باليتم والقطيعة فتبادر إلى سكب انفعالاتها المتأججة بقالب شعري مؤثر على شاكلة قول **قتيلة بنت النضر بن الحارث** حين تناهى إليها خبر قتل والدها صبراً في يوم بدر[3]:

أمحمد يا خير ضنء كريمة	في قومها والفحل فحل معرق[4]
ما كان ضرك لو مننت وربما	من الفتى وهو المغيظ المحنق[5]
فالنضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبية تنوشه	لله أرحام هناك تشقق[6]
صبراً يقاد إلى المنية متعباً	رسف المقيد وهو عان موثق

وليس غريباً أن تشارك النساء الشواعر في بكاء الرسول، وليس غريباً أيضاً أن يندبنه بشعر كثير[7]، فقد كان براً رحيماً بالنساء، عطوفاً عليهن ويوصي الرجال بهن خيراً. والمرأة تجل من يحسن إليها ويعطف على وضعها ويقوي من ضعفها، ثم إن محمداً لم يكن رجلاً عادياً، وإنما كان نبياً

---

1 السيرة/ق٢/٢٥٢.

2 نفسه/٢٥٢ – الطبقات الكبرى/٣/٤٢٩.

3 أنساب الأشراف/١/١٤٤ – العمدة ١/٣١- ٣٢.

4 المعرق: الكريم. والضنء: الأصل.

5 المحنق: الشديد الغيظ.

6 تنوشه: تتناوله وتشقق: تقطع.

7 الطبقات الكبرى/٢/٣٢٥-٣٣٣، أنساب الأشراف/١/٥٩٤، تفسير القرطبي/٤/٢٢٤، الروض الأنف/٢/٣٨٠.

مرسلاً. وعلى هذا فعاطفة المرأة نحوه تختلف عن عاطفتها نحو فرد عادي، لأنه كان الرجاء الـــذي يتطلع إليه كل مسلم ومسلمة، أو كما تقول **صفية بنت عبد المطلب**[1]:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنا براً ولـــم تـــك جافيا

وكنت رَحِيماً هادياً ومعلمـــاً ... ليبك عليك اليوم من كان باكيا

صدقت وبلغت الرسالة صادقا ... ومت صليب العـــود أبلج صافيا

عليك مـــن الله السلام تحية ... وأدخلت جنات من العدن راضيا

وتبكيه أم أيمن فتقول[2]:

وأبكيا خير مـــن رزئناه في الدنيا ومـــن خصه بوحي السماء[3]

فلقد كان مـــا علمت وصولا ... ولقد جـــاء رحمة بالضياء

ولقد كـــان بعد ذلك نوراً ... وسراجا يضيء في الظلماء

طيب العود والضريبة والمعدن ... والخيم خـــاتم الأنبيـــاء[4]

من هذا يتبين لنا كثرة شعر الرثاء وشيوعه في فترة الصراع، مما يوحي بأن الصراع كان عنيفـــاً آنذاك، فالرثاء يأخذ صوره وبواعثه من نتائج المعارك ومصارع القتلى. والرثاء في شعر الـــصراع لونان:

أولهما: رثاء قام في ظل المعارك والغزوات فنقل أحاسيس الشعراء والشواعر تجاه القتلى وســـجل انفعالاتهم في ساعات الحزن والألم. واقترن هذا اللون من الرثاء بالعنف والوعيد كما اقترن بالتعيير بالهزائم فكثيراً ما نرى شاعر الصراع يبكي فقيده بانفعال صادق ثم يلتفت إلى عدوه مهدداً بأخـــذ الثأر أو معيراً إياه بالهزائم التي ألحقها به. وكان موقف الرثاء هذا يتطلب من الـــشاعر أن يظهـــر جلده وصبره على المحنة وأن يتحمل وقع المصيبة وأن يجند إمكاناته لأخذ الثأر، ومن هنا لم يكـــن هذا اللون من الرثاء على صدقه وحرارته عميق الحزن والأسى، إلا ما كان صادراً عـــن النـــساء، وحتى هؤلاء كن يتجلدن في مواقف كثيرة خشية اشتفاء الخصوم وتعييرهم.

---

[1] الاستيعاب/١/٤٩- أنساب الأشراف/١/٥٩٤.

[2] الطبقات الكبرى/٢/٣٣٢-٣٣٣.

[3] رزئناه: أصبنا بفقده.

[4] الخيم: الرائحة.

وثانيهما: رثاء قام في ظل السلم فصور انفعالات شعراء الصراع وشواعره عند مـوت الرسـول الكريم وترجم أحاسيسهم بالفجيعة لفقده فتميز هذا للون بالتأني والتأمل والمعاناة، كما تميز بتلـك الملامح السياسية، إذ كان الشاعر يرى في الرسول قائداً عسكرياً وزعيماً سياسياً ونبياً رسولاً.

وقام الرثاء عند شعراء المشركين على ذكر الفضائل فأبرز صور البطولة والشجاعة التي كـان يتحلى بهما المحارب وتحدث عن حلم الميت وكرمه ووفائه، وسلك سبيل الشرح والتفصيل لـبعض جوانب حياته.

ولم يقتصر الشعراء المسلمون على تسجيل فضائل الميت فحسب، بل تأثروا بالإسـلام تـأثراً ملحوظاً فأودعوا رثاءهم ألفاظاً جديدة كالنور والهداية والجنة والنار والشهادة وغيرها.

وتوثقت علاقة الرثاء بالدين الجديد عند موت الرسول – صلى الله عليه وسلم -، فشاعت فيه معانيه ومفاهيمه، إذ كان على الشاعر أن ينعت الرسول الكريم بالنبوة والتقوى والرحمة والهدايـة، وكان عليه أن يعرض للكتاب السماوي الذي أنزل عليه، وأن يمجد هذا الدين الذي أنزل عليـه ودعا إليه.

وكان هذا النهج عاماً عند شعراء الصراع، إن شعراء المسلمين أو شعراء مكة الذين أسـلموا بعد الفتح أو شعراء القبائل الذين وفدوا على رسول الله مسلمين.

وصمت شاعر الصراع عن تفسير ظاهرة الموت والوقوف على كنهها، إذ لم يكن يعنيه سـوى المظاهر المادية لتعزية النفوس، والتخفيف من وقع المصيبة.

والرثاء في شعر الصراع يمتاز بصدق العاطفة، فشاعر الصراع إنما يرثي شخصاً عزيزاً عليـه أو وثيق الصلة به أو قريباً من نفسه أو مدافعاً عن شرفه وكرامته، ولذلك سقطت الدوافع التي كانت تحمل الشاعر على تزييف مشاعره، فصدر شعره صادقاً معبراً عن دواخل نفسه دونما تكلـف أو تعمل. وأصدق شعر الرثاء هو ما كان صادراً عن النساء، إلا أن هذا الرثاء كان مقـصوراً –في معظمه - على ذوي القربى، فقل أن يتعداهم إلى رثاء غيرهم من قتلى القبيلة أو الدولة.

الهجـاء:

ولئن قامت موضوعات الفخر والمديح والرثاء في شعر الصراع على القيم الأخلاقية والفضائل الاجتماعية كالكرم والشجاعة والوفاء واتصال السؤدد بالأجداد، ومنعة القبيلة وشدة بطـشها، وعزة الدولة والدعوة لأفكارها، فإن الهجاء قد قام على عكس هذه الفضائل جميعاً، فالهجاء هـو ظاهرة السخط والسخرية، يتخذ معانيه من سوءات المهجو أو مثالب قومه. ومن هنا رأينا شـاعر

الصراع يهجوا خصومه بخمول النسب كما يهجوهم بالقعود عن الثأر وذهاب الهيبة بين الناس والفرار من المعارك. وكان هذا الهجاء جماعياً في معظمه، إلا أن شاعر الصراع كان يسدد سهام هجائه إلى الأفراد أحياناً، فيخص أصحاب الباع الطويل في الوقوف ضد أفكاره ومعتقداته وتقاليده وعاداته ومصالحة بنصيب وافر من هذا الهجاء.

والباعث على الهجاء في عشر الصراع يكمن في ذلك العداء الذي نشب بين الإسلام والشرك وما نجم عنه من تحريض وتآمر، وقتال وقتل، وهزيمة ونصر وتعريض بالمثل وانتهاك للحرمات.

وقد قام الهجاء عند شاعر الصراع على معان كثيرة، فقد يتهم خصومه بالجبن والخور عند اللقاء ويصفهم بالجزع في القتال على شاكلة قول **كعب بن مالك** في يوم بدر[1]:

لعمر أبيكما يا ابني لؤي ... على زهو لديكم وانتِخاءُ[2]

لما حامت فوارسكم ببدر ... ولا صبروا به عند اللقاء[3]

وربما يتجه إلى زعيم خصومه فيجرده من الفضائل ويعريه من الصفات الحميدة ويرميه باللؤم ويغمزه في نسبه، يفعل كل ذلك ليزعزع الثقة بقيادته، وليترل به عن مستوى المسؤولية **فأبو جهل** كان زعيم المشركين من قريش والرأس المدبرة للكيد والتآمر، فكان لا بد من أن يرميه **حسان بن ثابت** بقوله[4]:

لقد لعن الرحمن جمعاً يقودهم ... دعي بني شجع لحرب محمد

مشوم لعين كان قدما مبغضاً ... يبين فيه اللؤم من كان يهتدي

فدلاهم في الغي حتى تهافتوا ... وكان مُضِلاً أمره غير مرشد[5]

وتقصير الخصوم عن حماية لوائهم رذيلة، ومن هنا اتخذه شاعر الصراع سبيلا إلى هجاء خصومه، والتشكيك في قدرتهم على القتال، فهذا **كعب بن مالك** يتهم أعداءه بالجبن والخيانة ويرميهم بالضعف والتخاذل، وسبب ذلك أنهم قصروا عن حماية اللواء أو كما يقول[6]:

---

[1] السيرة/ق٢/٢٦.

[2] الانتخاء: الإعجاب والتكبر.

[3] حامت: امتنعت من الحماية وهي الامتناع.

[4] ديوانه/٢٠٦.

[5] تهافتوا: تساقطوا وأكثر ما يكون التهافت في الشر.

[6] السيرة/ق٢/١٣٥.

عمدنا إلى أهل اللواء ومن يطر بذكر اللواء فهو في الحمد أسرع

فخانوا وقد أعطوا يداً وتخاذلوا أبى الله إلا أمره وهـــو أصنـــع

ويشمت شاعر الصراع بقتل أعدائه، وتزيد شماتته إذا تناهى إليه بكاء النساء لذويهن ورثـــاء الشعراء لقتلاهم فيفزع إلى شعره يصوغ منه صوراً مؤلمة وعبارات موجعة تنال من النفوس، وتعمق الجراح. فهذا **ضرار ابن الخطاب** يعلم أن **كعب بن مالك** قد أقام على رثاء حمزة وغـــيره مـــن شـــهداء المسلمين فيبعث إليه يقول[1]:

فقولا لكعب يثني البكاء وللنيء مـــن لحمـــه ينضج

لمصرع إخوانه في مكر من الخيل ذي قسطل مرهج[2]

ولا يقف شاعر الصراع عند هجاء الرجال من خصومه، بل يتعدى ذلك إلى بعض النساء أيضاً وبخاصة أولئك اللواتي يحرضن على القتال ويشتركن في المعارك ويمثلن بالقتلى وقـــد يفحـــش في هجائه أحياناً فيكشف عن عورات المرأة ويَدْمَغُها بالزنا ليهز شرفها وينال من قومها، وقد لا يكتفي بهجائها وحدها، وإنما يجمع معها زوجها فيصبُّ عليهما معاً من قوافيه سَوْطَ قذفٍ وتشهير، كمـــا نرى في هجاء **حسان بن ثابت لهند بنت عتبة** في يوم أحد حيث يقول[3]:

لعن الإله وزوجهـــا معها هند الهنـــود عظيمة البظر

أخرجت مرقصة إلى أحد في القوم مقتبة على بكر[4]

أخرجت ثائـــرة مبادرة بأبيك وابنك يوم ذي بدر

وبعمك المستوه من ردع وأخيك منعفرين في الجفر[5]

ونسيت فاحشة أتيت بها يا هند ويحـــك سبة الدهر

زعم الولائد أنها ولدت ولداً صغيراً كان من عهر[6]

---

[1] نفسه/ ١٤٠.

[2] القسطل: الغبار. والمرهج: المرتفع.

[3] تاريخ الطبري/٢/٥٢٥ -٥٢٦.

[4] الإرقاص: أن يُحمل البعير على الخبب.

[5] المستوه: المضروب في أسته. والردع: الدم. والجفر: البئر.

[6] العهر: الزنا والفجور.

غير أن شاعر الصراع لم يكن ليضن على عدوه بالإنصاف على الرغم من حرصه على هجائـه وإذلاله، وإحراز الانتصار عليه، ولهذا كثيراً ما نراه يبرز مكانته، ويشيد بقدرته وشجاعته، فهذا **أبو سفيان بن حرب** يتشفى بقتل المسلمين يوم أحد ولكنه لا ينسى أن يبرز قيمة خصومه ومكانتهم فيقول[1]:

فآبوا وقد أودى الجلابيب منهم	بهم خدب من معطب وكئيب[2]
أصابهم من لم يكن لدمائهم	كفاء ولا في خطة بضريب[3]

والشاعر عامل مهم في الصراع فشعره يبعث الحمية في نفوس قومه ويحملهم على التضحيات وينال من أحساب أعدائهم. وليس غريباً لذلك أن يتجه شاعر الصراع إلى هجاء شاعر الخصم، ليحط من قيمته ويفسد فاعلية سلاحه الشعري ويرميه بما يسكته، وقد يفحش في هجائه ليدمي شرفه ويجرح كرامته فها هو ذا **كعب بن مالك** يوجه شيئاً من هذا إلى **عبد الله بن الزبعرى** شاعر خصومه فيقول له[4]:

سألت بك ابن الزِبَعْرى فلم	أنبأك في القوم إلا هجينا
خبيثا تطيف بك المنديات	مقيماً على اللؤم حيناً فحينا[5]
تقول الخنا ثم ترمي به	نقي الثياب تقياً أمينا[6]

واتّهام العربي في نسبه أكثر إيلاماً لنفسه من وقع السيف وأشد وجعاً من طعنة الرمح. ومن هنا نشط شاعر الصراع فيه فمضى يتسقط مثالب عدوه ويبحث عن عيوب نسبه فيصوغها في قوالب شعرية مؤلمة ثم يدفع بها إلى خصمه فيؤذيه. ولما كانت **بنو أسد بن خزيمة** قد أمعنوا في عداوتهم

---

1 تاريخ الطبري/٢/٥٣٣ - السيرة/ق٢/٧٦.

2 الجلابيب: جمع جلباب. وهو –هنا - الإزار الخشن وكان مشركو مكة يسمون من أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: الجلابيب يلقبونهم بذلك. والخدب: الطعن النافذ إلى الجوف والمعطب: قال أبو ذر: هو الذي يسيل دمه. والكئيب: الحزين.

3 الخطة – هنا - الخصلة الرفيعة. والضريب: الشبيه.

4 السيرة/ق٢/١٦١.

5 المنديات: المخزيات يندى منها الجبين، والأمور الشنيعة.

6 الخنا: الكلام الذي فيه فحش.

لرسول الله، وساهموا في محاربته والتحضيض عليه، رأى حسان ابن ثابت أن يجرحهم وينال منهم، وحين راح يتسقط أخبارهم ويبحث عنهم في سجل أنساب قريش تبين له أُنهم[1]:

قبيلة تذبذب فـــي معد   أنوفهم أذل من السبيل

تمنى أن تكون إلى قريش   شبيه البغل شبه بالصهيل

على أن شاعر الصراع لم يكن يوجه سهام هجائه كلها إلى خصومه، بل إن لسانه كان ينال من رجالات قومه أحياناً، فقد يتعرض لزعيم من زعمائهم أو شاعر من شعرائهم، إن هم عرضوا بـــه وآذوه في رجولته. فهذا **الحارث ابن هشام** يسمع أبياتاً من الشعر **لأبي سفيان بن حرب** فيظن أنه يعرض به فيتصدى له بقوله[2]:

وإنك لو عاينت ما كـــان منهم   لأبت بقلب مـــا بقيت نخيب[3]

لدى صحن بدر أو لقامت نوائح   عليك ولم تحفل مصاب حبيب

ولئن كان شاعر الصراع يثأر لكرامته ويتأذى ممن يعرض به من قومه فإنه كان يثأر لهؤلاء القوم ممن يشق عصا الطاعة عليهم ويفارق جماعتهم ويخرج على دينهم ومعتقداتهم، فهذا **عبد الله بن أبي سرح** يرتد عن الإسلام ويفر هارباً إلى مكة فتطارده قوافي حسان بنار حامية من الـــشتم والـــتحقير حيث يقول[4]:

أعبد هجين أحضـــر اللون فاقع   موتر علباء القفا قطط جعد[5]

وكان أبو سرح عقيماً فلم يكن   له ولـــد حتى دعيت له بعد

ولم يجمد شاعر الصراع على المعاني التقليدية في هجاء خصومه، بل حاول أن يضيف إليها شيئاً جديداً، فوجد هذا الشيء الجديد في الإسلام الذي أمده بثروة طائلة من الألفاظ والمعاني التي كان يجهلها ولم يكن لها وجود في حياته الفنية السابقة. وجد **كعب بن مالك** –مثلاً- أنه يمكـــن أن يهجـــو قريشاً بالكفر والضلال فيقول[6]:

---

[1] الديوان/ ٤٠٠.

[2] تاريخ الطبري/٢/٥٢٣.

[3] النخيب: الجبان الفزع.

[4] الديوان/ ٢٠٥ -٢٠٦.

[5] الهجين: العربي ابن الأمة. والعلباء: عصب العنق. والقطط: شعر الزنجي وقطط جعد: أي قصير.

[6] السيرة/ق٢/٢٦٣.

إن الذين يكذبون محمداً   كفروا وضلوا عن سبيل المتقي

ووجد أنه يمكن أن ينذرهم بسوء المنقلب فيقول[١]:

شتان من هو في جهنم ثاوياً   أبداً ومن هو في الجنان مخلد

ووجد **حسان بن ثابت** أنه يستطيع أن يقول[٢]:

وفوا إذ كفرتم ياسخين بربكم   ولا يستوي عبد وفي ومضيع

أمابعد، فإن أكثر صور الهجاء التي التقطناها من تلك البيئة الحربية قد سارت في ذات الطريق الذي عبده شعراء الجاهلية من قبل، فقامت على عكس الفضائل والمثل التي كان يعتز بها العربي، ولم يكن هذا النهج مقصوراً على شعراء المشركين فحسب، وإنما تعداهم غلى شعراء المسلمين أيضاً حتى وجدنا الرسول الكريم يوجه شعراءه هذه الوجهه فيبعث بهم إلى من يتولى تعليمهم حديث المشركين وأيامهم وأحسابهم ليستمدوا منها مادة هجائهم[٣].

ومن هذا كان لابد من أن يستفيد شعراء المسلمين مما عرفوه في دينهم، وأن يضيفوا إلى مادة هجائهم معاني جديدة كالتعبير بالكفر والشرك والضلال وسوء المصير. ومعنى هذا ان موضوع الهجاء عند شعراء المسلمين قد سار في طريقين:

أولهما: قديم برز في هذا الالتزام للنهج التقليدي الذي عرفوه ومرنوا عليه في الجاهلية كالمعارضة بالوقائع والأيام والمآثر والتعيير بالمثالب.

وثانيهما: جديد برز في هذه الألفاظ والمعاني التي عرفوها في الدين الجديد.

والهجاء عند شاعر الصراع إما مختلط بالموضوعات الأخرى كالفخر والحماسة والوعيد، حيث كان الشاعر يتجه إلى الفخر أحياناً قبل أن يتناول خصومه بالهجاء أو يتبع هجاءه بالوعيد والتهديد، وإما مستقل بموضوع الهجاء فحسب، وبرز هذا -أكثر ما برز- عند **حسان بن ثابت** وكان في معظمه مقطوعات قصيرة.

وقد أدت حدة الصراع وعنفه إلى كثرة شعر الهجاء وغزارته عند شعراء الصراع، فهو قد تسلل إلى أكثر شعرهم، واتخذ في أكثره صورة النقائض التي دامت بين شعراء الإسلام وخصومهم إلى ما بعد الفتح.

---

[1] نفسه/ ١٥٨.

[2] نفسه/ ١٤٣.

[3] الأغاني/٤/٤.

وكان طبيعياً أن يؤدي عنف الصراع والعداء الشديد بين الخصوم إلى نوع من الإقذاع والشتم عند بعض شعراء الصراع. وكان **حسان بن ثابت** حامل هذا اللواء، فقد هجا المشركين بشعر كثير جنح في معظمه إلى الإفحاش والسباب وتناول فيه جميع خصوم الإسلام فوزعه عليهم، غير أنه خص قرشاً بالنصيب الأوفر ففرقه في بطونها وزعمائها كما فرقه في جميع القوافي[1]. ونظن أن هذا النمط من الإقذاع لم يكن معروفاً في الجاهلية إلا قليلاً، فالحطيئة -مثلاً- على الرغم من شهرته الواسعة في الهجاء لم يعرف عنه إقذاع كثير[2]، وحتى هذا الإقذاع لا يعد شيئاً إذا ما وازنا بينه وبين ما عند حسان من هذه الثروة الوفيرة.

وبهذا نجد أن نغمة الهجاء قد كانت من أكثر النغمات تردداً على ألسنة الشعراء، ولا نجد تفسيراً لذلك سوى شدة العداء التي عمت أرجاء النفوس فأنطقت شعراء الصراع بهذا الهجاء الكثير.

النقائض:

واتَّخذ الهجاء في شعر الصراع صورة المناقضة غالباً، والمناقضة في الشعر تعني أن ينقض شاعر ما قاله شاعر آخر، ويجئ بضد ما جاء به الأول[3]، فحين جاء الإسلام كانت سيرة الرسول الكريم ومغازيه، بيئة خصبة لنمو هذا الفن ودافعاً هاماً لرواجه، فالمعركة حامية طويلة وجبهات القتال فيها متشعبة، والشعراء فريقان مُتَهَاجيان **أحدهما** مع الرسول ودعوته **والآخر** عليهما.

وطبيعي أن تقوم بين هؤلاء الشعراء جميعاً حرب كلامية تتخذ في أغلب الأحيان صورة المناقضات الشعرية وفي بعض الأحيان صورة المراجزات، فالشاعر كالفارس سواء بسواء، هذا يغير على الأعداء فيرديهم بضربات سيفه، وذاك يغير عليهم فيرميهم بسهام شعره ويرد على شعرائهم ما يقولون، بل ربما كان سلاح هذا الشاعر أكثر فتكاً وأشد تأثيراً على العداء من ضربة سيف الفارس.

وأهم ما يعتمد عليه شاعر الصراع في نقائضه هو نقض معاني شعر شاعر خصومه، وذلك بإفساد ما يقرره ذلك الشاعر، أي أنه يكذب ما يَدَّعي أو يضع إزاءه ما يقابله أو يفسره لصالحه أو

---

[1] ديوانه/ ١٨٩، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٣-٢٠٨، ٢١٢-٢١٥، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٨، ٣٢٢-٣٢٧، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٠-٤٠٣، ٤٥٨-٤٦٣.

[2] ديوان الحطيئة/٨٢.

[3] لسان العرب/ مادة "نقض".

يقلل من أهميته. وقد حمله هذا المذهب على أن يقوم بدراسة وافية لبيئة خصمه وحياته وسلوكه ومهنته ومهنة أبيه وما إلى ذلك.

وتبعاً لهذا اتخذ موضوع النقائض منهجاً محدداً في شعر الصراع، إذ قام الشاعر المسلم يعير المشركين بالكفر والإلحاد وسوء العاقبة ومعاداة النبي الكريم وخذلانه فيرد عليه الشاعر المشرك هذا الاتهام ثم يبادر إلى الدفاع عن عقيدته ويهاجم الإسلام بتهم شتى، وربما زاد على ذلك فعمد إلى الفخر أو التهديد أو المديح أو غير ذلك من الموضوعات الأخرى. وقد يشترك في المناقضة أكثر من شاعرين، كأن يتصدى شاعران مسلمان للرد على الشاعر المشرك[1] أو يتصدى شاعران مشركان للرد على الشاعر المسلم[2].

وقد سلك شعراء الصراع عدة طرق في مناقضاتهم ومن هذه الطرق: القلب والمقابلة أو الموازنة والتوجيه والتكذيب أو تنازع المآثر والوعيد والشماتة[3]، فهذا **أبان بن سعيد بن العاص** يلوم أخويه عمراً وخالداً على إسلامهما –وكانا أسلما وهاجرا إلى الحبشة وكان أبوهما **سعيد بن العاص بن أمية** قد هلك بالظريبة من ناحية الطائف - ويعيرهما بإطاعة النساء وإعانة المسلمين على قومهما فيقول[4]:

ألا ليت ميتاً بالظريبة شاهد ... لما يفتري في الدين عمرو وخالد[5]

أطاعا بنا أمر النساء فأصبحا ... يعينان من أعدائنا من نكايد

فيرد عليه أخوه خالد فيلومه على سوء مقالته وينعى عليه عجزه وتواكله ثم يسلك معه مسلك التوجيه فيدعوه إلى حزم أمره على الإسلام حيث يقول[6]:

أخي ما أخي لا شاتم أنا عِرْضَهُ ... ولا هو من سوء المقالة مقصر

يقول إذا اشْتَدَّتْ عليه أموره ... ألا ليت ميتاً بالظريبة ينشر

فدع عنك ميتاً قد مشى لسبيله ... وأقبل على الأدنى الذي هو أفقر

---

1 السيرة/ق٢/١٢٩، ٢٥٧.

2 نفسه/ ٧٥، ١٤٥، ٢٧٢.

3 أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي/ ٢٨.

4 السيرة/ق٢/٣٦٠.

5 الافتراء: الكذب.

6 السيرة/ق٢/٣٦٠.

وهذا **أمية بن خلف** يسمع هجاء **حسان بن ثابت** لقومه فيتوعده ويشهر بأبيه تشهيراً فاضحاً حـــين يقول[1]:

ألا من مبلغ حسان عني ... مغلغلة تدب إلــى عكــاظ[2]

أليس أبوك فِيناً كان قَيناً ... لدى القينات فسلا في الحفاظ[3]

يمانياً يظــل يشد كيراً ... وينفــخ دَائِباً لهب الشواظ[4]

فيستنكر حسان أسلوب أمية ويسوءه أن يعرض بأبيه وينهض للثأر لكرامته، فيبادر إلى تهديده بسلاحه الشعري الحاد لينشر مخازيه على العرب أجمعين في مجامع سوق عكاظ ويجلله بالعار والشنار فيقول[5]:

أتاني عن أمية ذرو قــول ... وما هو بالمغيب بذي حفاظ[6]

سأنشر إن بقيت لكــم كلاماً ... ينشر في المجامع من عكاظ

قوافي كالسلام إذا استمرت ... من الصم المعجرفة الغلاظ[7]

تزورك إن شتوت بكل أرض ... وترضخ في محلك بالمقــاظ[8]

مجــلــلــة تعممــه شناراً ... مضرمــة تأجج كالشواظ[9]

تغض الطَّرفَ أن ألقاك دوني ... وترمي حين أدبر باللحاظ

---

1 ديوان حسان/ ٢٩٧، تفسير القرطبي/ ١٧/ ١٧١.

2 مغلغلة: رسالة.

3 القين: الحداد والصانع وقان الحديد يقينها عملها وسواها، وقان الإناء: أصلحه والقين أيضاً: العبد والقينات: جمع قينة وهي الجارية. والحفاظ: المحافظة على العهد والذبّ عن المحارم، والفِسْلِ: الرذل النذل الذي لا مروءة له ولا جلد.

4 الكير: كير الحداد وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات ينفخ فيه الحداد، والشواظ: اللّهَبُ الذي لا دخان فيه.

5 ديوانه: ٢٩٨.

6 ذرو قول: طرف من قول لم يتكامل، والحفاظ: المحافظة على العهد.

7 السلام: الحجارة، والمعجرفة: الغليظة، واستمرت: قويت.

8 ترضخ: تدق وتكسر، والرضخ: كسر الرأس، والمقاظ: أراد المقيظ وهو الموضع الذي يقام فيه وقت القيظ، والقيظ: صميم السيف.

9 مجللة: معممة، والشنار: العار، والشواظ: اللهب بلا دخان.

وكثرت المناقضة في يوم أحد وتشعبت موضوعاها وكثر شعراؤها وتضاعف نشاط شعراء المشركين، فهذا عبد الله بن الزبعري يقف في ذلك اليوم فيتغنى بانتصار قومه ويفتخر ببطولتهم ويتشفى بقتلى المسلمين ومصيرهم ويذكر آثار قريش في المسلمين فيجعل المهراس إزاء القليب، وهو في هذا كله يوجه قوافيه إلى خصمه حسان بن ثابت فيقول[1]:

يا غراب البين أسمعت فقل	إنما تنطق شيئاً قد فُعِلَ
وإن للخير وللشر مَدَى	وكلا ذلك وجه وقبل[2]
والعطيات خساس بينهم	وسواء قبر مثر ومقل[3]
كل عيش ونعيم زائل	وبنات الدهر يلعبن بكل[4]
أبلغن حسان عني آية	فقريض الشعر يشفي ذا الغلل[5]
كم قتلنا من كريم سيد	ماجد الجدين مقدام بطل
فسل المهراس من ساكنه؟	بين أقحاف وهام كالحجل[6]
فقتلنا الضعف من أشرافهم	وعدلنا ميل بدرٍ فاعْتَدلْ

ولم يكن أمام حسان غير انتصار بدر فاستمد منه مادة رده، ووازن بين الانتصارين واتخذ الموازنة سبيلا لتقليل شأن انتصار المشركين ثم عاد فوصف آثار المسلمين في قريش يوم بدر، وزاد على ذلك اعتزاز المسلمين بالدين وإطاعة النبي وتصديقه فقال[7]:

ذهبت يا ابن الزبعري وقعة	كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم	وكذاك الحرب أحياناً دول
نضع الأسياف في أكتافكم	حيث نهوي عللاً بعد نهل[8]
إذ تولون على أعقابكم	هرباً في الشعب أشباه الرسل[1]

---

[1] السيرة/ق٢/١٣٦، وديوان حسان/ ٣٥٧.

[2] المدى: الغاية، والقبل: المقابلة والمواجهة.

[3] خساس: حقيرة.

[4] بنات الدهر: حوادثه.

[5] الغلل: جمع غلة وهي حرارة العطش.

[6] الأقحاف: جمع قحف، والهام: الرؤوس.

[7] السيرة/ق٢/١٣٧، ديوانه/ ٣٥٨.

[8] العلل: الشرب الثاني، والنهل: الشرب الأول ويريد: الضرب بعد الضرب.

إذ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل[٢]
ضاق عنا الشعب إذ نجزعه وملأنا الفرط منه والرجل[٣]
برجال لستم أمثالهم أيّدوا جبريل نصراً فنزل
وعلونا يوم بدر بالتقى طاعة الله وتصديق الرسل
وتركنا في قريش عورة يوم بدر وأحاديث المثل

أما **عمرو بن العاص السهمي** فيصور خروج قريش إلى المدينة ويفتخر بجيوشهم المتراصة المتلاحقة ويشيد بثباتهم وشجاعتهم، ثم يمضي إلى أعدائه فيستهين بشجاعتهم ويشير إلى عجزهم عن إدراك النصر فيقول[٤]:

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا مع الصبح من رَضْوَى الحبيك المنطق[٥]
تمنت بنو النجار - جهلاً - لقاءنا لدى جنب سلع والأماني تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة كراديس خيل في الأزقة تمرق[٦]
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قباباً أومنت قبل ما ترى إذا رامها قوم أبيحوا وأحنقوا[٧]
كأن رؤوس الخْزرجّينَ غدوة وإيمانُهمُ بالمشرفية بروق[٨]

ويرد عليه كعب بن مالك الأنصاري فيذهب مذهب التوجيه والموازنة، فيصور صبر المسلمين عند اللقاء ويشيد بعادة الأنصار في السبق إلى الغابات، ثم يعتز بقيادة النبي وشمائله المحمودة فيقول[٩]:

ألا أبلغا فهراً على نأي دارها وعندهم من علمنا اليوم مصدق

---

[1] الرسل: الإبل المرسلة بعضها في إثر بعض.

[2] أجأناكم: ألجأناكم.

[3] نجزعه: نقطعه عرضاً، والفرط: ما علا من الأرض، والرجل: جمع رجلة وهو المطمئن من الأرض.

[4] السيرة/ق٢/١٤٣- ١٤٤.

[5] الفيفا: القفر الذي لا ينبت شيئاً، ورضوى: اسم جبل، والحبيك: الذي فيه طرائق، والمنطق: الحزم.

[6] الكراديس: جماعات الخيل، وتمرق: تخرج.

[7] أحنقوا: أغضبوا.

[8] بروق: نبات له أصول تشبه البصل.

[9] السيرة/ق٢/١٤٤.

بأنا غداة السفح من بطن يثرب   صبرنا ورايـــات المنية تخفـــق[1]
صبرنا لهـــم والصبر منا سجية   إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق[2]
على عادة تلكـــم جرينا بصبرنا   وقدما لدى الغايات نجري فنسبق
لنا حومة لا تستطاع يقودهـــا   نبي أتى بالحـــق عف مصدق[3]
ألا هل أتى أفناء فهر بن مالك   مقطع أطـــراف وهـــام مفلق[4]

وعندما توالت انتصارات الرسول أخذ بعض شعراء القبائل يغيرون مواقفهم ويعلنون إسلامهم فصاروا مع الرسول مؤيدين بعد أن كانوا مع قريش معارضين. ولما تمت هزيمة هوازن يوم حنين قام **أبو ثواب زيد بن صحار** أحد بني سعد بن بكر فنسب الانتصار إلى قبيلة قريش لا إلى لإسلام، ومضى يفتخر ببطولات قومه في الجاهلية، ويذكر قريشاً بما لحقهم من جموع هوازن في حرب الفجار ثم أخذ يتحسر على مصير قومه في حنين فقال[5]:

ألا هل أتـــاك أن غلبت قريش   هوازن والخطوب لها شروط
وكنـــا يـــا قريش إذا غضبنا   يجيء من الغضاب دم عبيط[6]
فأصبحنـــا تُسَوِّقُنَـــا قريش   سياق العير يحدوها النبيط[7]
فلا أنا إن سئلت الخسف آب   ولا أنا إن ألين لهـــم نشيط
سينقل لحمهـــا في كـــل فج   وتكتب في مسامعها القطوط[8]

فسارع **عبد الله بن وهب** إلى الرد عليه، فسلك طريق التكذيب والقلب، فعزا النصر إلى وعد الله ونسبه إلى المسلمين ثم مضى إلى الموازنة فافتخر بشجاعة المسلمين وأظهر الشماتة بقتل سراة هوازن في ذلك اليوم فقال[9]:

---

[1] تخفق: تضطرب وتتحول.
[2] الأبرام: اللئام الواحد برم. ونرتق: نسد ونصلح.
[3] الحومة: الجمة، والعفّ: العفيف.
[4] أفناء القبائل: المختلط منها.
[5] السيرة/ق٢/٤٧٦.
[6] الدم العبيط: الطري.
[7] النبيط: جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق، ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامهم – المصباح المنير.
[8] القطوط: جمع قط وهو الصك أو الكتاب الذي تحصى فيه الأعمال.
[9] السيرة/ق٢/٤٧٧.

بشرط الله نضرب من لقينا كأفضل ما رأيت من الشروط
وكنا يـــا هوازن حين نلقى نبل الهـــام مـــن علق عبيط[١]
بجمعكـــم وجمـــع بني قسي نحك البرك كالورق الخبيط[٢]
أصبنا مـــن سراتكـــم وملنا بقتل فـــي المباين والخليط[٣]
بـــه الملتاث مفترش يديـــه يمج المـــوت كالبكر النحيطِ[٤]
فإن تك قيس عيلان غضاباً فلا ينفك يرغمهم سعوطي

وهناك مناقضات أخرى ذات علاقة بالصراع كتلك التي قامت بين شعراء بكر أحلاف قريش وشعراء خزاعة أحلاف الرسول، ذلك أن بكراً قاتلوا خزاعة فأدخلوهم مكة وحبسوهم الحـــرم وأكثروا فيهم القتل، فلجأ الخزاعيون إلى دار **بديل بن ورقاء** ودار مولى لهم يقال له رافـــع، فعـــلا صوت الأخزر بن لعط الديلي يفتخر بشجاعة قومه، ويعتز بأخذ الثأر من الخـــزاعيين، ويعيرهـــم بالجبن والاستسلام، ثم يبرز الإغارة عليهم بقوله[٥]:

ألا هل أتى قصوى الأحابيش أننا رددنا بني كعب بأفوق ناصل[٦]
حبسناهم في دارة العبد رافـــع وعند بديل محبساً غير طائل[٧]
حبسناهم حتى إذا طـــال يومهم نفحنا لهم من كل شعب بوابل[٨]
نذبحهـــم ذبـــح التيوس كأننا أسود تبارى فيهم بالقواصل[٩]
هم ظلمونا واعتدوا في مسيرهم وكانوا لدى الأنصاب أول قاتل

---

[1] العلق: الدم.

[2] البرك: كلكل البعير وصدره الذي يدوك به الشيء تحته، والورق الخبيط: الذي يضرب بالعصا ليسقط فتأكله الماشية.

[3] المباين: المفارق وهو المنهزم، والخليط: الذي لا يزال في المعركة يخالط الأقران.

[4] الملتاث –هنا -: اسم رجل، والنحيط: الذي يردد النفس في صدره حتى يُسمع له دَوِيّ.

[5] السيرة/ق٢/٣٩٢.

[6] الأحابيش: كل من حالف قريشاً ودخل في عهدها من القبائل، والناصل: الذي زال نصله، أي: حديدته التي تكون فيه.

[7] الدارة: الدار. نفحنا: وسعنا، والشعب: المطمئن بين جبلين.

[8] والوابل: المطر الشديد.

[9] القواصل: الأنياب.

كأنهـــم باجـــزع إذ يطردونهم بفاثور حفـــان النعام الجوافل[1]

ويرد عليه بديل بن أم أصرم فيستخف ويسخر من افتخاره، ثم يقابل الفخر بالفخر، ويستعرض دور قومه في إذلال بني الديل وينتهي إلى تكذيبه ونقض معانيه فيقول[2]:

تفاقد قوم يفخـــرون ولم ندع لهم سيداً يندوهـــم غير نافل[3]

أمن خيفة القوم الألى تزدريهم تجيز الوتير خائفـــاً غير آئل[4]

وفي كل يوم نحن نحبو حباءنا لعقل ولا يحبى لنا في المعاقل[5]

ونحن صبحنا بالتلاعة داركم بأسيافنا يسبقن لوم العواذل[6]

ويوم الغميم قد تكفت ساعياً عبيس فجعناه بجلد حلاحل[7]

أأن أجمرت في بيتها أم بعضكم بجعموسها تنزون أن لم نقاتل[8]

كذبتم وبيت الله ما إن قتلتم ولكن تركنا أمركم في بلابل[9]

وتبدو روح الجاهلية واضحة في هذه المناقضة من حيث أسبابها البعيدة وانتهاك بني الديل حرمة مكة، ولكنها اتَّصَلَتْ بأحداث الصراع وأتت في قصة الفتح حيث كانت مساندة قريش لبكر على خزاعة أحلاف الرسول نقضاً لصلح الحديبية وبالتالي سبباً مباشراً لفتح مكة.

وقد تكون المناقضة محلية كأن يتعرض شاعر من شعراء الفريق الواحد لصاحبه فيهجوه وينـــال منه فيبادر صاحبه إلى الرد عليه ونقض معانيه وربما زاد على ذلك بأن يشهر به ويُشكّك في أمره، وربما اتجه إلى الفخر بنفسه والإشادة بدوره في قتال العدو. من ذلك أنه لما قدم رسول الله المدينـــة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية —وكان ممن حبس بمكة من المستضعفين - فكتب فيه أزهر بن عبد عوف الزهري والأخنس بن شريق الثقفي إلى الرسول، وبعثا رجلا من بني عامر ابن لؤي ومعه

---

[1] الجزع: ما انعطف من الوادي. وفاثور: موضع بنجد. وحفان النعام صغارها. والجوافل: المولية المسرعة.

[2] السيرة/ق٢/٣٩٣.

[3] يندوهم: يجمعهم في الندِيّ، وهو المجلس.

[4] الوتير: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة.

[5] نحبو: نعطي. والعقل: الدية.

[6] التلاعة: ماء لبني كنانة بالحجاز.

[7] الغميم: موضع بين مكة والمدينة. وتكفت: حادَ عن طريقه، وعبيس: رجل والجلد: القويّ. والحلاحلِ: السيد.

[8] الجعموس: العذرة. أجمرت: رمت به بسرعة.

[9] البلابل: اختلاط الهمّ ووساوسه.

مولى لهم، فأشار الرسول على أبي بصير أن ينطلق إلى قومه حفاظاً من المسلمين على العهد، فانطلق مع الرجلين حتى إذا كان بذي الحليفة عدا على العامري فقتله فقام **سهيل بن عمرو** يطلب بدية العامري فسفهه أبو سفيان بن حرب ووقع خلاف بين قريش[1] فعمد موهب ابن رباح أبو أنيس حليف بني زهرة إلى توعد سهيل وتهديده وانتهى إلى الفخر عليه والحط من شأنه فقال[2]:

أتاني عن سهيل ذرء قول　　فأيقظني وما بي من رقاد

فإن تكن العتاب تريد مني　　فعاتبني فما بك من بعادي

أتوعدني وعبد مناف حولي　　بمخزوم ألهفاً من تعادي

أسامي الأكرمين أبا بقومي　　إذا وطئ الضعيف بهم أرادي[3]

هم منعوا الظواهر غير شك　　إلى حيث البواطن فالعوادي[4]

لهم بالخيف قد علمت معد　　رواق المجد رفع بالعماد[5]

فرد عليه **عبد الله بن الزبعرى** السهمي فوضع من مكانته الاجتماعية ليترل به عن سهيل بن عمرو ثم انتقل إلى توعده والتشهير بأبيه فقال[6]:

وأمسى موهب كحمار سوء　　أجاز ببلدة فيها ينادي

فإن العبد مثلك لا يناوي　　سهيلاً -ضل سعيك- من تعادي[7]

فأقصر يا ابن قين السوء عنه　　وعد عن المقالة في البلاد

ولا تذكر عتاب أبي يزيد　　فهيهات البحور من الثماد[8]

والمناقضة -هنا- بين رهطين من قريش بمكة، لأن القاتل قد لحق بالمدينة بموافقة قريش -بعد أن ضيق عليها في تجارتها- فبقي الأمر بين عامر بن لؤي وسائر قريش.

---

1 تاريخ الطبري/٢/٦٣٨.

2 السيرة/ق٢/٣٢٤.

3 أسامي: أعاني. وأرادي: أرامي.

4 الظواهر: ما علا من مكة، والبواطن: ما انخفض منها. والعوادي: جوانب الأودية.

5 الخيف: موضع بمنى. والرواق: ضرب من الأخبية.

6 السيرة/ق٢/٣٢٥.

7 لا يناوي: لا يعادي.

8 الثماد: الماء القليل.

وكما تناقض بعض شعراء المشركين أحياناً، فكذلك فعل بعض شعراء المسلمين، فعندما قــال **سلمة بن الأكوع**[1]:

لم يغذها مد ولا نصيف ولا تميرات ولا تعجيف[2]

لكن غذاها اللبن الخريف المحض والقارص والصريف[3]

ظن **كعب بن مالك** أنه يعرض به فبادر إلى نقض معانيها وقلبها بقوله[4]:

لم يغذها مد ولا نصيف لكن غذاها الحنظل النقيف[5]

ومذقة كطرة الخنيف تنبت بين الزرب والكنيف[6]

وهكذا راج فن النقائض في شعر الصراع وشارك فيه شعراء المسلمين والمشركين مــن قــريش والقبائل العربية كما شارك فيه شعراء اليهود أيضاً. وقد نشط شعراء كل طرف من هؤلاء فقاموا يدافعون عن أفكارهم ومعتقداتهم ويهاجمون خصومهم ومعارضيهم ويصطنعون الحجج التي تؤيــد وجهات نظرهم، وتخدم قضاياهم وتدمغ خصومهم.

وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن القرآن الكريم قد سبق إلى أسلوب المناقضة منذ بداية الــدعوة فطرح كثيراً من القضايا الفكرية كالألوهية والنبوة والبعث وغيرها وأثار حولها الجدل والنقاش ثم تولى الرد على المشركين، وقام بتحديهم ليثبت قصورهم وعجزهم. ولم يقف عند مشركي مكــة فحسب، بل تولى الرد على اليهود والنصارى أيضاً ففضح أمرهم وكشف عوراهم. وقد سلك في جدله ونقاشه لهؤلاء جميعاً سبلاً منوعة أشرنا إليها فيما سبق من هذا الكتاب.

والنقائض في شعر الصراع كثيرة، وقد دفعنا هذا إلى الوقوف عليها وحصرها فكــشف لنــا إحصاؤها أنها ثلاث وأربعون نقيضة ما بين قصيدة ومقطوعة وأرجوزة تتنازع أوزانها ثمانية من بحور الشعر العربي هي: الطويل والوافر والكامل والمتقارب والرجز والسريع والبسيط والرمل، وقد فاز

---

[1] جمهرة اللغة/٣/٨٣.

[2] مُدّ: مكيال قديم، وتعجيف: من عجف نفسه عن الطعام: إذا حبسها عنه.

[3] المحض: الخالص، والصريف: الشراب يُمزَجُ.

[4] الأغاني/١٦/٢٣٠.

[5] النقيف: المنقوف.

[6] مذقة: اللبن الممزوج بالماء، وطرة: طرف كل شيء وحرفه، والخنيف: الناقة الغزيرة اللبن، والكنيف: الساتر، والزرب: المدخل.

الطويل بنصفها تقريباً. وعلى هذا فهي ثروة أدبية طائلة إذا ما روعي فيها قصر المدة التي قيلت فيها، حيث بدأت بعد الهجرة وسكنت أو كادت بعد فتح مكة.

وحافظ فن النقائض على النمط الجاهلي، كالمعارضة بالوقائع والأيام والطعن بالأحساب والأنساب والتعيير بالمثالب والمغامز، وهذا أمر طبيعي ما دامت فترة الصراع هي فترة انتقال وتحول. على أن هذا النمط لم يكن عاماً ولا شاملاً، ذلك أن الشاعر المسلم استطاع أن يستمد من دينه مادة جديدة حيث أخذ يُعِيرُ المشركين بالكفر والإلحاد ويتوعدهم بسوء المنقلب.

وطرق شاعر الصراع في نقائضه الموضوعات نفسها التي شاعت عند أسلافه الجاهليين كالفخر والحماسة والتهديد والوعيد والرثاء والهجاء والمديح وغيرها. وقد تتداخل بعض هذه الموضوعات في النقيضة الواحدة أحيانا فنرى الشاعر يفخر ثم يهدد ثم يرثي ثم يهجو، ثم يعود إلى الفخر وهكذا.

وقد حول الشاعر المسلم غايات موضوعات نقائضه واتجاهاتها، فسخرها لخدمة الدعوة، وجعل منها سبيلاً لإخراج الناس من ضيق الكفر إلى سعة الإسلام، ثم أكسبها ثروة –وإن تكن زهيدة- من المعاني الإسلامية كالكفر والإيمان والجنة والنار والوحي والملائكة والشهادة وحسن المثوبة وغيرها.

أما الشاعر المشرك فإنه استغلها لحماية العصبية والحفاظ على التقاليد الموروثة واتخذها وسيلة لسيادة القبيلة وتسلطها.

والنقيضة في شعر الصراع لم تلتزم بجميع القيود التي فرضت عليها في العصر الأموي حيث وصل فن النقائض إلى أوج كماله، فشاعر الصراع يلتزم بالموضوع والقافية والبحر –وإن شذ بعض الشعراء في أقل الأحيان فلم يلزموا أنفسهم بالبحر ولا بالقافية[1] – أما المعاني فلم يكن يلزم نفسه بنقضها الواحد تلو الآخر، وإنما كان يحاول نقض المعاني العامة الواردة في نقيضة خصمه. ومرد ذلك أن شاعر الصراع كان في عجلة من أمره، فهو يريد أن يلاحق الأحداث الطارئة، وكثيراً ما حملته هذه الملاحقة على الارتجال، ولذلك فهو لم يكن ليجد الوقت الكافي الذي تهيأ للشاعر في العصر الأموي، حيث كان عصره عصر قتال وحرب بينما كان عصر الشاعر الأموي عصر أمن واستقرار.

[1] السيرة/ق٢/١٣٢، ١٤٥ -١٤٨، ٤٧٩ -٤٨١.

ونقائض شعر الصراع تكاد تخلو من الفحش وجرح الأعراض وكشف العـورات وانتـهاك الحرمات كالذي رأيناه في الهجاء وبخاصة في هجاء حسان بن ثابت. وإذا قيض لهذه النقائض مـن يدرسها دراسة نقدية مستأنية فسيجد في ألفاظها وروحها واتجاهها وصياغتها خواص معينة تميزهـا من سواها[1].

موضوعات جديدة:

الشعر الديني

إن الشعر الديني الذي عبر عنه شعر الصراع كان نتيجة طبيعية لحياة العرب في ظـل الـدين الجديد، وإحساسهم بالنقلة من حالة الفوضى والاضطراب والقبلية إلى حياة الاستقرار والاطمئنان ونظام الدولة الواحدة فأخذ الشعراء يصدرون في شعرهم عن روح الإسلام ومفاهيمه ويعبرون عن عواطفهم نحو النبي ودعوته، ويكسون أشعارهم بما عرفوه من معانيه السامية. من ذلك أن **عمرو بن الجموح الأنصاري** -وكان سيداً من سادات بني سلمة - كان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يعظمه ويطهره كما كانت الأشراف يصنعون، فلما أسلم فتيان بني سلمة - ومنهم ابنه معاذ بن عمـرو - كانوا يدلجون في الليل على الصنم فيحملونه فيطرحونه منكساً في بعض حفر بني سـلمة، فيغـدو عمرو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقـوه يوماً فغسله وطهره ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فـإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك، فعمد الفتيان إلى الصنم فأخذوا السيف مـن عنقـه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها فضلات الناس، فلمـا رآه عمرو وأبصر شأنه أسلم وحسن إسلامه، فقال يشكرالله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمـى والضلالة[2]:

والله لو كنت إلهاً لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر في قرن[3]
أف لملقاك إلهـاً مستدن ... الآن فتشناك عـن سوء الغبن[4]

---

[1] درسها الدكتور عبد الله مقداد للحصول على درجة الماجستير.

[2] السيرة/ق١/٤٥٣.

[3] القرن: الحبل.

[4] قال أبو ذر: مستدن: ذليل مستعبد، وقال السهيلي: مستدن: من السدانة وهي خدمة البيت وتعظيمه.

الحمد لله العلي ذي المنن   الواهب الرزاق ديـــان الدين[1]

بأحمد المهدي النبي المرتهن

وتبدو روح الإسلام واضحة في شعر الأعشى ففيه إشارات واضحة إلى العقيدة الإسلامية وفيه ذكر للحلال والحرام، الأمر الذي لم يكن معروفاً في الجاهلية كما نرى في قوله[2]:

فإيـــاك والميتـــات لا تقربنهـــا   ولا تأخذن سهما جديداً لتفصدا[3]

وذا النصب المنصـــوب لا تنسكنه   ولا تعبد الأوثـــان والله فاعبدا[4]

وذا الرحـــم القربـــى فلا تقطعنه   لعـــاقبـــة ولا الأسير المقيـــدا

وسبح على حين العشيات والضحى   ولا تحمد الشيطان والله فاحمـــدا

أما أبو جندل بن سهيل بن عمرو القرشي فيأبى أن يقيم على الفتنة في مكة بعد أن طرحه أبـــوه في حديد، فلما أفلت لحق بأبي بصير الثقفي بذي المروة على ساحل البحر، وكان مـــع أبي بـــصير سبعون رجلاً من المسلمين يقطعون على من مر بهم من عير قريش وتجارتهم ويصور موقفه من دين الشرك بقوله[5]:

أبلغ قريشاً من أبي جندل   أنا بذي المروة بالساحل

في معشر تخفق أيمـــانهم   بالبيض فيها والقنا الذبل[6]

يأبون أن تبقى لهم رفقة   من بعد إسلامهم الواصل

أو يجعل الله لهـــم مخرجاً   والحـــق لا يغلب بالباطل

فيسلم المـــرء بإسلامه   أو يقتل المـــرء ولم يأتل[7]

والشعر الديني واضح في شعر الأنصار ومرد ذلك أنهم أسلموا مبكرين فإن عبد الله بن رواحة **وكعب بن مالك** قد أسلما قبل الهجرة فهما قد شهدوا بيعة العقبة الثانية أما حسان فأسلم عند الهجرة، ولهذا فقد تأثروا بالدين تأثرا واضحاً، من ذلك قول كعب بن مالك[1]:

---

[1] قال السهيلي: وقوله"ديان الدين": الدين جمع دينة وهي العادة، ويقال لها دين أيضاً.

[2] البداية والنهاية/٣/١٠٢ – نهاية الأرب/١٨/٧١ – ديوانه/١٨.

[3] الفصد: قطع العرق ليشخب الدم.

[4] النصب: الأصنام. والنسك: الذبح لها.

[5] الاستيعاب/٤/١٦٢١ – نهاية الأرب/١٧/٢٤٧.

[6] الذبل: الدقيقة اللاصقة القشر.

[7] لم يأتل: لم يقصر.

إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا والقتل في الحق عند الله تفضيل

وإن روا أمرنا في رأيكم سفهاً فرأي من خالف الإسلام تضليل

ولئن عرض **كعب بن مالك** للشهادة والضلال، فقد تناول **حسان بن ثابت** العقيدة الإسـلامية كالتوحيد والنبوة والرسل وعرض بالشرك واستفاد من القصص القرآني عن الأنبياء فذكر زكريـا ويحيى وعيسى وهوداً عليهم السلام حيث يقول[٢]:

شهـدت بإذن الله أن محمـداً رسول الذي فوق السموات من عل

وأن أبـا يحيى ويحيى كلاهمـا لـه عمـل فـي دينـه متقبـل

وأن التي بالسد مـن بطن نخلة ومن دانهـا فـل مـن الخير معزل[٣]

وأن الذي عادى اليهود ابن مريم رسول أتى من عند ذي العرش مرسل

وأن أخا الأحقـاف إذ يعذلونه يجاهـد فـي ذات الإلـه ويعدل[٤]

وتركت النبوة ومعجزاتها أثراً عميقاً في نفوس المسلمين، وعمقت جذور الإيمـان في قلـوبهم فجعلتهم يدركون صدق المبدأ وصحة العقيدة، فهذا **كعب بن مالك الأنصاري** يذكر معجـزة موسـى ومعجزة سليمان عليهما السلام، ثم يذكر معجزة محمد في إسرائه فيقول[٥]:

فإن يـك موسى كلم الله جهرة على جبل الطـور المنيف المعظم

فقد كلـم الله النبي محمـداً على الموضع الأعلى الرفيع المسوم

وإن تك نمل البر بالوهم كلمت سليمان ذا الملك الذي ليس بالعمي

فهـذا نبي الله أحمـد سبحت صغـار الحصى في كفـه بالترنم

وأخذت المعاني الدينية تشيع في موضوعات الشعر العربي وتصبغها بالصبغة الإسلامية أحيانـاً، فأصبح الشاعر المسلم يسفه أحلام الذين يعبدون الأصنام ويفتخر بعبادة الله ونصرة نبيـه علـى شاكلة قول علي بن أبي طالب عند قتله **لعمرو بن عبد** ود يوم الأحزاب[٦]:

---

[1] خزانة الأدب/٢/٥٤٠.

[2] ديوانه/٣٧٥-٣٧٦.

[3] بطن نخلة: موضع بين مكة والطائف، التي بالسد: هي العزى، وفل من الخير: أي لا خير فيه.

[4] أخو الأحقاف: سيدنا هود عليه السلام، والأحقاف: ديار عاد.

[5] سامي العاني/ ديوان كعب بن مالك/٢٧٠.

[6] تفسير القرطبي/١٤/١٣٤.

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ونصرت دين محمد بضراب[1]

نازلته فتركتــه متجــدلاً كالجذع بين دكادك وروابي[2]

لا تحسبن الله خــاذل دينه ونبيه يــا معشر الأحــزاب

وأصبح الشاعر يتجه في مديحه إلى الإسلام ونبيه بعد أن كــان يتجــه في مديحــه إلى الملــوك والأمراء، فهم الشاعر المسلم أن ينال رضوان الله وأن يحظى بعطائه، فالكَسْبُ عنده هو كــسب الآخرة كما نرى في قول **عبد الله بن رواحة**[3]:

فلم أر كالإسلام عزاً لأمة ولا مثل أضياف الأراشي معشراً

نبي وصديق وفاروق أمة وخير بني حــواء فرعاً وعنصرا

وهذا **كعب بن مالك** يمدح آل البيت فلا يجد خيراً من ذكر النبوة ونزول القرآن الكريم علــيهم، فبهما عصم الله المؤمنين من النار فيقول[4]:

قوم بهم عصم الإله عبادة وعليهم نزل الكتاب المترل

أما **حسان بن ثابت** فيجعلهم أولياء الله ففيهم النبوة وفيهم الكتاب المطهر أو كما يقول[5]:

هم أولياء الله أنزل حكمه عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر

من هذا نرى مدى تأثير الإسلام في الشعراء فقد اغترفوا غرفات من مفاهيمه السمحة وأفكاره الصحيحة ما استطاعوا أن يعبروا به عن أحاسيسهم وعواطفهم ويضيفوا إلى الموضوعات التقليدية التي عرفوها موضوعاً جديداً هو الذي أطلقنا عليه الشعر الديني.

والشعر الديني -كما قلنا- موضوع جديد طارئ، فنحن لم نجد مثل هذا الموضوع في الــشعر الجاهلي - على كثرة الأصنام وسعة انتشارها في طول الجزيرة العربية وعرضها - اللهم إلا أبياتــاً قليلةً متناثرةً على صفحات كتاب الأصنام لابن الكلبي[6]. وحتى هذه الأبيات لا نراها تمثل العقيدة

---

[1] الحجارة –هنا- : الأصنام.

[2] متجدلاً: لاصقاً بالأرض، والجذع: فرع النخلة، والدكادك: جمع دكداك وهو الرمل اللين، والروابي: جمع رابية وهي الكدية المرتفعة.

[3] تفسير القرطبي/٢٠/١٧٥.

[4] السيرة/ق٢/٣٨٦.

[5] ديوانه/ ٢٣٧.

[6] انظر كتاب الأصنام لابن الكلبي.

الدينية عند الجاهليين، فهي لا تدل على إيمان العربي بالأصنام ولا توحي باقتناعه بها، بل ربما صورت شكلَّة بقدرها وكفره بألوهيتها، ومن أدلة هذا الشك قول الشاعر الجاهلي[1]:

أرب يبول الثعلبان برأسه   لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وغير هذا كثير[2].

وأمثلة الشعر الديني كثيرة في شعر الصراع، وهو يبدو أكثر وضوحاً عند شعراء الأنصار والشعراء المهاجرين، ولكنه في الأغلب الأعم يقتصر على المعاني العامة في الدين الإسلامي، وقل أن نجده يعالج فكرة عميقة. ولعل سبب ذلك هو انصراف الشعراء إلى تمثل أحداث الصراع وتناولهم ما كان ذا صلة بها من مفاهيم الإسلام.

والشعر الديني لم يأت مستقلاً بقصيدة أو مقطوعة إلا قليلاً، وإنما جاء أكثره متداخلاً مع بعض الموضوعات التقليدية -كالفخر والهجاء وغيرها في القصيدة الواحدة، بل ربما يلبس شاعر الصراع أحد هذه الموضوعات لباس الإسلام ويبعث فيه روحاً جديدة من معانيه فيكسبه بذلك حيوية وجدة.

حصار المدن:

وثمة موضوع آخر جديد في شعر الصراع، ذلك هو حصار المدن، فهذا الموضوع لا نكاد نعلم بوجوده في الشعر الجاهلي، وسبب ذلك أن الصحراء كانت مسرح القتال الوحيد في حروب الأيام، أما في حرب الصراع بين الإسلام وخصومه فالأمر يختلف، ذلك أن الخصومة نشبت بين مكة والمدينة –أكبر مدينتين في الحجاز - وشاركتهما في هذه الخصومة الطائف والقرى اليهودية. فمن الطبيعي إذن أن تكون هذه المدن والقرى مجالا للغزوات ومسرحاً للصراع وموضوعاً لشعر الشعراء.

وكان حصار بني النضير أول حصار قام به المسلمون ذلك أن اليهود قد تحصنوا من الرسول الكريم في الحصون فأحاط بهم المسلمون يقطعون نخيلهم ويحرقون فيها حتى خضعوا للنبي – عليه السلام - فأجلاهم عن المدينة وإلى هذا الإجلاء يشير رجلٌ من المسلمين فيقول[3]:

فخلاهم ثم قال اظعنوا   دحوراً على رغم الآنف[1]

---

[1] تفسير القرطبي/ ١/١٣٧.

[2] ابن الكلبي: الأصنام/٣٥، ٣٧ – أديان العرب/ ١٨٥.

[3] السيرة/ق٢/١٩٧.

وأجلى النضير إلى غربة   وكانوا بدار ذوي زخرف

على أن هؤلاء المسلمين الذين حاصروا بني النضير قد امْتحِنوا بغزوة الأحزاب ولما أعيتهم الحيل وأدركوا أن لا قبل لهم بالغزاة، فكروا بتحصين المدينة فشرعوا بحفر الخندق حولها. وكان حفر الخندق أسلوباً بارعاً من أساليب الدفاع في الحرب، فقد أكسب المدينة مناعة وتحصناً، فأعيت على فرسان المشركين وجنودهم، فلم يستطيعوا دخولها ووقفوا حول الخندق عاجزين، ووقف شاعرهم **ضرار بن الخطاب** الفهري يقول[2]:

فلولا خندق كانوا لديه   لدمرنا عليهم أجمعينا

ولكن حال دونهم وكانوا   به من خوفنا متعوذينا

ولئن فشل المشركون في اختراق الخندق وعجز فرسانهم عن تخطيه، وأقاموا حوله أربعين يوماً دون ما طائل، فإن قوافي شعرهم قد عبرته، وأغارت على صفوف المسلمين تعيرهم بالاحْتِمَاء بالخندق، وتَصِمُهُمْ بعدم القدرة على المواجهة، وتفخر عليهم بالقوة والشجاعة، أو كما يقول **عبد الله بن الزِّبَعْرى**[3]:

شهراً وعشراً قاهرين محمداً   وصَحابهُ للحرب خير صحاب

لولا الخنادق غادروا من جمعهم   قتلى لطير شغب وذئاب[4]

أما شعراء المسلمين فجعلوا يفخرون بحصانة مدينتهم ويعتزون بقدرتها على الثبات والصمود ولكن **كعب بن مالك** لا يحصر حصانة المدينة بوجود الخندق حولها فحسب، وإنما يردها إلى هؤلاء الأسود الذين يرابطون بباب الخندقين[5]:

بباب الخندقين كأن أسداً   شوابكهن يحْمينَ العرينا[6]

ويردها أيضاً إلى هذه البسالة التي أبت على الأعداء فيقول[7]:

أعيت أبا كرب وأعيت ثبعاً   وأبت بسالتها على الأعراب[1]

---

[1] الدحور: الذل والهوان. على رغم الآنف: على المذلة والآنف: جمع أنف.

[2] السيرة/ق٢/٢٥٥.

[3] نفسه/ ٢٥٨.

[4] سغب: جائصة.

[5] السيرة/ق٢/٢٥٦.

[6] الشوابك: التي يتشبث بها فلا يفلت.

[7] السيرة/ق٢/٢٦٠.

ويوافقه **حسان بن ثابت** على رأيه فيقول[2]:

جعلنا لها أسيافنا ورماحنا   من الجيش والأعراب كهفاً ومعقلا
نصرنا بها خير البرية كلها   إمـــامـــاً ووقـــرنا الكتاب المنزلا

فشل الحصار إذن ورجع المشركون إلى مكة، وخرج المسلمون إلى هؤلاء الذين نقضوا العهـــد، وحالفوا جنود الشرك. خرجوا إلى يهود بني قريظة فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة، وأقاموا حول حصونهم بصفوف كثيرة كما يقول **حسان بن ثابت**[3]:

فما برحوا بنقض العهد حتى   فلاهم في بلادهم الرسول
أحاط بحصنهم منا صفوف   له من حر وقعتهم صليل[4]

ولئن حاصر المسلمون بني قريظة فضيقوا عليهم، فإن بكراً قد حاصـــرت خزاعـــة –حلفـــاء الرسول – صلى الله عليه وسلم - بالوتير. وليس هذا فحسب، بل نالوا منهم نيلا شديداً فقتلوهم ركعاً وسجداً، ولعل هذا المصير هو الذي دفع شاعرهم **عمرو بن سالم** أن يفـــزع إلى رســـول الله يقول[5]:

هم بيّتونا بالوتير هجدا   وقتلونا ركعاً وسجدا[6]

أما الطائف فقد جعلت منها ثقيف مدينة حصينة وأخذت تعدها للصمود ضد الإسلام، فها هما ذان **عروة بن مسعود وغيدن بن سلمة** يذهبان إلى جرش ليتعلما صنعة الدبدبات[7] والمجانيق[8] والـــضبور[1] وها هي ذي نساء ثقيف يرتجزن حين حاضرهم الرسول الكريم فيقلن[2]:

---

[1] أبا كرب وتبع: ملكان من ملوك اليمن، وبسالتها: شدتها.

[2] ديوانه/ ٤١٠.

[3] السيرة/ق٢/٢٧٢.

[4] فلاهم: قتلهم بالسيوف.

[5] تفسير القرطبي/٨/٦٥.

[6] الوتير: اسم ماء بأسفل لخزاعة، والهجد: النيام.

[7] قال السهيلي: الدبابة آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها. وقال أبو ذر: الدبابات: آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود ويدخل فيها الرجال ويتصلون بحائط الحصن.

[8] والمجانيق: جمع منجنيق وهي من آلات الحصار يرمى بها الحجارة الثقيفة ونحوها.

نحن قسي وقيساً أبونا   والله لا نسلم ما حيينا

وقد بنينا حائطاً حصينا

ولكن **كعب بن مالك** ينذر نساء ثقيف ورجالهم بأن النبي – عليه السلام - قد أتاهم بزحف عظيم يحيط بسور حصنهم حتى يثوبوا إلى أمر الله فيقول[٣]:

وأنا قـــد أتيناهم بزحف   يحيط بسور حصنهم صفوفا

رئيسهم النبي وكان صلباً   نقي القلب مصطبراً عزوفا

أما **بجير بن زهير المزني** فيرى أنهم لم يستطيعوا الثبات للمسلمين، ولذلك فهم قد تحصنوا ببـــاب مغلق خوفاً من جند الله الذين تعرضوا إليهم لكي يخرجوا للقتال، ولكنهم لم يفعلوا أو كما يقول[٤]:

لم يمنعوا منا مقاماً واحـــداً   إلا جدارهم وبطن الخندق

ولقد تعرضنا لكيما يخرجوا   فتحصنوا منا بباب مغلق

أمابعد فلم يكن هذا الموضوع قائماً برأسه، وإنما كان ضمن أبيات القصائد والمقطوعات. وهو في أغلب الأحيان يدخل في موضوع الفخر والحماسة، فهو قد قيل في ساحات القتـــال وحلبـــات الصراع، ولذلك نراه يمتاز بسرعة النفس وقوة النبرة، إذ يحس الشاعر بنشوة النصر فيـــسارع إلى تصويره وإذاعته.

وهذا الشعر على قلته في فترة الصراع يعتبر رائداً لشعر حصار المدن وفتحها الذي عرفه الشعر العربي فيما بعد.

[1] الضبور: مثل رؤوس الأسفاط يتقى بها في الحرب عند الانصراف. وفي اللسان: هي الدبابات التي تقرب للحصون لتنقب من تحتها.

[2] أنساب الأشراف/١/٣٦٧.

[3] السيرة/ق٢/ ٤٨٠.

[4] نفسه/ ٤٨٧.

الملامح الفنية:

الأوزان والقوافي

لئن كانت أكثر الأوزان شيوعاً عند الجاهليين هي البحور الطويلة النفس كالكامل والوافر والطويل والبسيط والمُنْسَرِج والمتقارب والرمل والسريع[1]، فإن هذه الأوزان نفسها قد شاعت عند شاعر الصراع أيضاً. فإذا نحن استثنينا الرجز الذي أكثر شعراء الصراع النظم فيه، فإننا نلاحظ أن هؤلاء الشعراء قد آثروا استخدام البحور الكثيرة المقاطع، فأكثروا من النظم في الطويل والبسيط والكامل. وتفسير ذلك: **أولاً**: أن شاعر الصراع قد عشا جانباً من حياته الفنية في الجاهلية، وليس غريبا لذلك أن يستعمل الأساليب نفسها التي ثقفها ومرن عليها وانْضَبَط عليها نفسه وأساغتها أذنه الموسيقية **وثانياً**: أن مجال المنافرة والمناظرة يتطلب طول النفس في الإنشاد[2]. وبرزت هذه الظاهرة –أكثر ما برزت - في المناقضات الشعرية التي قامت بين شعراء أطراف الصراع[3].

وحين قمنا بتحليل الأوزان لمائتين وخمسين نصاً ما بين قصيدة ومقطوعة، وجدنا أنها تخضع لأوزان ثمانية من بحور الشعر العربي هي: الطويل والكامل والوافر والبسيط والمتقارب والخفيف والسريع والرمل. وكان الطويل أكثر هذه الأوزان دوراناً عند شاعر الصراع، فقد استخدمه ما يقرب من تسعين مرة، ويليه الكامل الذي استخدم حوالي خمسين مرة، والوافر الذي استعمل سبعاً وأربعين. أما البسيط فقد استخدم ثماني عشرة مرة والمتقارب سبع عشرة. ويأتي بعد ذلك دور الخفيف والسريع والرمل والهزج التي كان استعمالها قليلاً جداً، ومن هنا نلاحظ أن شاعر الصراع قد أهمل البحور الأخرى أو كاد فيما وصلنا من شعر الصراع.

وحرص شاعر الصراع على إقامة الوزن، فاضطره هذا الحرص أحياناً إلى مزج حرف الجر" من" مع كلمة أخرى ليستقيم له الوزن كما فعل **أبو قيس بن الأسلت** حين قال[4]:

فبيعوا الحراب مِلْمُحارِبٍ واذكروا　　　حسابكم والله خير محاسب

ومثلما فعل **كعب بن مالك** عندما قال[5]:

---

[1] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي/ ٥٣.

[2] إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر/ ١٩١ – مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢/١٩٥٢م.

[3] انظر موضوع النقائض من هذا الفصل.

[4] السيرة/ق١/٢٨٥.

[5] نفسه/ ٤٤٥.

وسعد أخو عمرو بن عوف فإنه ضروح لما حاولت ملأمر مانع

ومثل قول **حسان بن ثابت**[1]:

لما رأى بدراً تسيل جلاهه بكتائب ملأوس أو ملخزرج

وقد يضطره هذا الحرص إلى فك الأدّغام في بعض الأحيان على شاكلة قول أبي طالب[2]:

نشأنا بها والناس فيها قلائل فلم نَنفككْ نزداد خيراً ونحمد

ويبدو أن ظروف الصراع وما يصاحبها من سرعة وعفوية وارتجال هي التي حملت شاعر الصراع على مثل هذا المزج فهو مشغول بالأحداث ومضطر لملاحقتها. وعلى هذا، لا يجد وقتاً للتَّعَمُّل وإعادة النظر في قوله فيطلقه كما يجيش في صدره.

وما كان لشعر الصراع أن يخلو من بعض عيوب الوزن الشائعة، فهو كالشعر الجاهلي الذي سبقه تنتشر فيه الزحافات والعلل،و من ذلك قول حسان بن ثابت[3]:

سائل قريشاً وأحلافها متى كان عوف لها ينسب

ولكن هذه الزحافات لا توهن من قيمة شعر الصراع في جملته، فهي توجد في شعر الفحول من الشعراء، وإن شعراً نقل إلينا بوسائل مختلفة، وقطع رحلة طويلة قبل أن ينتهي إلينا، لا يستغرب أن تظهر فيه مثل هذه العيوب.

والقافية: هي تكرار عدة أصوات في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة، وتكررها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقا الشعرية، لأنها بمثابة الفواصل الموسيقية التي يتوقع السامع ترددها. والقافية كما يرى الدكتور شوقي ضيف هي أهم البقايا التي احتفظ بها من ظاهرة الغناء والموسيقا[4].

وللقافية عدة عيوب، لعل من أبرزها في شعر الصراع هو **الإقواء** وهو اختلاف حركة الروي كقول الأسود بن المطلب[5]:

---

[1] ديوانه/١٢٥.

[2] السيرة/ق١/٣٧٨.

[3] ديوانه/ ١١٨.

[4] العصر الجاهلي/ ١٩٤.

[5] السيرة/ق١/٦٤٨.

أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود

وفيها:

وبكي إن بكيت على عقيل وبكي حارثاً أسد الأسود

وكقول **عمرو بن سبيع** في وفادته على النبي الكريم من أبيات مطلعها[1]:

إليك رسول الله أعملت نصها تجوب الفيافي سملقاً بعد سملق

وفيها:

على ذات ألواح أكلفها السرى تخب برحلي مرة ثم تعنق

والإقواء ظاهرة واضحة في شعر الصراع لم يسلم منها حتى حسان بن ثابت أشعر أهل المدر كما قيل[2]. ونظن أن هذا القلق الذي يلحق بقوافي شعر الصراع أحياناً، إنما هو مرتبط بظروف الصراع القلقة التي كان يعيشها الشعراء.

ومن عيوب القافية أيضاً **الإيطاء**: وهو تكرار كلمة بعينها في أبيات القصيدة، هذا التكرار الذي يوحي بافتقار الشاعر إلى الثروة اللفظية، ويدل على عجزه عن الإتيان بلفظة تناسب قافية القصيدة، فيحمله هذا العجز على تكرار اللفظة ذاتها التي استخدمها في بيت سابق من قصيدته. والإيطاء في شعر الصراع قليل. ومنه قول **ضرار بن الخطاب الفهري**[3]:

وبالنفر الأخيار هم أولياؤه يخافون في اللأواء والموت حاضر

وكرر كلمة " حاضر" مرة أخرى فقال:

ويدعى أبو حفص وعثمان منهم وسعد إذا ما كان في الحرب حاضر

ومن الإيطاء ايضاً قول **كعب بن مالك**[4]:

فَمهَمَا يهم الناس مما يكيدنا فنحن له من سائر الناس أوسع

وعاد كعب إلى كلمة "أوسع" التي ودعها قبل قليل فاستضافها في موضع لاحق من قصيدته:

فنلنا ونال القوم منا وربما فعلنا ولكن ما لدى الله أوسع

---

1 ابن سعد: الطبقات الكبرى/١/٣٤٥.

2 ديوانه/ ١٣٢، ٤٠٠.

3 السيرة/ق٢/١٤.

4 نفسه/ ١٣٣.

وثمة عيب آخر من عيوب القافية ذلك هو **السناد**، وهو اختلاف الحروف في قوافي القصيدة، وأمثلة هذا العيب كثيرة في شعر الصراع، منها ما نراه عند **أبي أسامة** حين يقول[1]:

ألا من مبلغ عني رسولا ... مغلغلة يثبتها لطيف

وفيها:

ألم تعلم مردي يوم بدر ... وقد برقت بجنبيك الكفوف

فاختلف الحرف الذي قبل الروي، فهو في بيته الأول "**الياء**"، وفي الثاني: "**الواو**". ومن السناد أيضاً ما نجده في قول **كعب بن مالك** هذا[2]:

إنكِ عمرَ أبيكِ الكريم أنْ تسألي عنكِ من يجْتَدينا

وفيها:

بخرس الحسيس حسان رواء ... وبصرية قد أجمن الجفونا

فاختلف الحرف الذي قيل الروي أيضاً، فهو في البيت الأول، "**الياء**" وفي الثاني: "**الواو**".

أما **الروى في شعر الصراع** فموزع على أكثر حروف الهجاء، وقد تناولنا دراسة مائة وثمانين نصاً منه فوجدنا أن رويها على ستة عشر حرفاً. وأكثر هذه الحروف دوراناً في شعر الصراع هي: الباء واللام والراء والدال والميم حيث اسْتخدِمَ كل حرف منها ما يزيد على عشرين مرة. أما حروف القاف والعين والهاء والفاء والنون والحاء فزاد استعمال كل منها أكثر من خمس مرات وأما الكاف والجيم والهمزة والتاء فقل استخدامها عن ذلك في هذه النصوص.

الخيال والصورة:

الشعر صناعة معقدة تخضع لقوانين صارمة دقيقة بحيث لا يملك الشاعر أن ينحرف عنها أو يحيد عن التزامها. ولعل هذا التعقيد، هو الذي جعل العرب منذ القديم يقرنون قوة الشاعرية بالشيطان ويتصورونها نوعاً من الإلهَامِ. وفي اتهامهم للنبي بأنه شاعر ما يصور مدى فهمهم لطبيعة الوحي وطبيعة الشعر. وقد تحدث بعضهم عن آثار هذه القوة في نفسه وكيف أنها تغيب وترجع، فإذا ما غابت أصبح قلع الضرس أهون من قول بيت واحد من الشعر، وقرنوها أحياناً بأزمنة وأوقات

---

[1] السيرة/ق٢/٣٧.

[2] نفسه/ ١٥٨.

صالحة للتلقي والإبداع، وتحدث بعضهم عن الرئي والتابع الذي ينفث على لسانه شعراً[1]. وفي قول الفرزدق[2]: ((**أنا أشعر تميم وربما أتت علي ساعة ونزع ضرس أسهل علي من قول بيت**)) ما يدل على أن الإبداع عند الشاعر يتم في أوقات معينة.

والشعر من غير المجاز يصبح كتلة ميتة تفتقد الحيوية والتأثير، فالمجاز تكييف لغوي هام للشعور الحقيقي بحيث تبعد المسافة بين الشعور وما انتهى إليه[3]. ولا بد للإنسان –شاء أم لم يشأ – من أن يتكلم به، لا من أجل أنه لم يستطع أن يكبح جماح خياله، بل لأنه بذل غاية الجهد ليظفر بالتعبير الملائم لحاجاته الروحية المتزايدة. وعلى ذلك ينبغي أن يفهم التعبير ويؤخذ على أنه بسبيل النقل اللفظي من شيء إلى شيء، فهذا هو المعنى المتأخر للمجاز الذي يعد ثمرة للخيال، في حين أن المجاز القديم كان في الأغلب والأعم ضرورة من الضرورات[4].

والأساس النفساني في المجاز هو وضع صورة أو معنى أو حالة مكان أخرى، وتندمج في المجاز فكرتان – تدل الكلمة عليهما - بدلاً من فكرة واحدة فأساسه المعنى المزدوج ولذا يسميه بعضهم الشعور المزدوج، ومرجع هذا الاندماج أو المزج إلى الخيال والوجدان ثم إلى إبراز عملهما بصورة لغوية. والشعور المجازي راجع إلى أصلين: عمل العقل الباطن وما يصوره الخيال[5].

وهناك فرق كبير بين الإيهام والخيال فالإيهام يتعلق بما ليس حقيقاً، أما الخيال فلا يهمه إن كان الشيء حقيقياً أو غير حقيقي. وفي الإيهام يحاول الإنسان أن يتغلب على عدم الرضى بالواقع الذي يكون فيه. أما الخيال فليس فيه هذا الواقع لأنه تستوي عنده الحقيقة وعدمها، بل تستوي عنده الرغبة في الشيء وعدمها[6].

وعالم الخيال هو هذه الصورة الذهنية التي ترتسم على صفحات عقولنا وتختزن في ذاكرتنا وهي التي منها ننشئ الجديد من الأشكال والمظاهر، والمنفذ الذي تنفذ منه هذه الصورإلى عقولنا هو الحواس، فهي منابع المعرفة ووسائلها في الإنسان، وبها يدرك ما يحيط به وينفذ عن طريقها إلى العالم.

---

1 إحسان عباس: فنّ الشعر/ ١٤٣.

2 الشعر والشعراء/١/٨١.

3 مصطفى ناصف: دراسة الشعر العربي/٣١٨.

4 لطفي عبد البديع: التركيب اللغوي/٢٦ – مكتبة النهضة ط١/ ١٩٧٠م.

5 عبد الحميد حسن: الأصول الفنية للأدب/ ١١٩- ١٢٠.

6 إحسان عباس: فن الشعر/ ١٥٥.

والمدركات الحسية ترتسم صورها في العقل، وتسجل كما تسجل آلة التصوير الشمسي صــورها، ثم تحفظ إلى أن يحتاج الإنسان إليها فيعيدها إلى ساحة الشعور كما تعاد صــورة الخيالــة. وهــذه المجموعة من الصور العقلية هي الذخيرة النفسية التي يستخدمها الإنسان في تفكــيره، وبــدونها لا يقوى على الحكم والتعليل والاستنباط. واستعادة هذه الصور إذا كانت من غير تغيير أو تبــديل، فهذا النوع هو الخيال الحضوري أو الذاكرة، وإذا كانت مقرونة بالتغيير والتبديل بحيث تنشأ عــن ذلك صورة جديدة، فهذا هو الخيال الاختراعي وهو النوع الذي يفهم من كلمة الخيال.

والصورة العقلية لا تستقر في الذهن منفصلا بعضها عن بعض، أو خالية من الارتباط بما يتصل بها ولكنها تتجمع أو تتنافر على قاعدة التوافق وما بينها من انسجام، فما تعارف منها ائتلف ومــا تناكر منها اختلف. واستعادة هذه الصور كذلك تسير طبقاً لقوانين التشابه والتــضاد والاقتــران الزماني أو المكاني أو السببي فشبيه الشيء منجذب إليه، وكذا ما يقترن من المحسوسات أو الخواطر بوسيلة من وسائل الاقتران[1].

والخيال قوة لا تسير الحياة العقلية بدونها، وله في الفن عامة وفي الأدب خاصة قيمة كبيرة، وذلك أن الفن كالمرآة التي نرى فيها صور الحقائق وظلالها لا الحياة نفسها. والشاعر يحاول إظهــار مــا يشعر به لا ما يراه أو يسمعه، فهو إنما يعبر عما ارتسم على صفحات نفسه ويعمد إلى تصوير الأثر الذي أحس به.

ويبدو أن الميل إلى التصوير فطري في الإنسان، فهو بطبيعته شغوف بأن ينقل إلى غيره ما عساه يكون قد سبق إليه من مشاهد، أو تعرض له من تجارب. وقد وجدت هذه النزعة متنفساً عند الأمم القارئة الكاتبة فظهر التصوير ممتزجاً بالكتابة عند أول الأمر ثم استقل بعد ذلك وفي كلتا الحــالتين استغلت تلك الأمم أيديها لتصوير تجاربها ومشاهداتها، ولكن الشعب العربي لا يكتب ولا يرســم، وهو مع ذلك محتاج كغيره من الشعوب إلى نقل تجاربه، بل هو أشد حاجة إلى ذلك لقوة المشاركة الوجدانية عنده، ولم يجد وسيلة إلى ذلك سوى بضاعته الأولى وهي الشعر، يرسم فيه صوراً دقيقة لكل ما يقع تحت سمعه وبصره من مناظر وتجارب[2]. قال ابن طباطبا: " والعرب قد أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها، وأدركه عيانها ومرت به تجاربها وهــم أهل وبر، صحونهم البوادي وسقوفهم السماء، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيهــا. وفي

---

[1] عبد الحميد حسن: الأصول الفنية للأدب/٩٩.

[2] الكفراوي: الشعر العربي بين التطور والجمود/ ١٤.

كل واحدة منهما في فصول الزمان على اختلافها: من شتاء وربيع وصيف وخريف ومن ماء وهواء ونار وجبل ونبات وحيوان وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن، وكل متولد من وقت نشوئه وفي حال نموه إلى حال انتهائه، فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها، فشبهت الشيء بمثله تشبيها صادقاً على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادتها"[1].

وعلى هذا لم تكن الصورة شيئاً جديداً، فإن الشعر قد قام عليها منذ أن وجد حتى اليوم، ولكن استخدام هذه الصورة يختلف بين شاعر وآخر، فقد يتخذ شكلاً بسيطاً عند شاعر، بينما يتعقد تعقداً شديداً عند آخر.

وقد شاع التصوير في شعر الصراع، فاستخدمه الشاعر للإقناع بوجهة نظره وإنما بطريقة غير حاسمة -إذ ليس فهي قوة المنطق الذهني، ولكن له بعض القدرة على التأثير المقنع - إلا أن شاعر الصراع لم يخرج في تصوره وخياله إلى أبعد من حدود بيئته، ولم يتخيل إلا ما كان يراه من حوله وماثلاً أمامه، فلم يستطع أن يتخيل صورة معقدة مركبة من عدة صور، بل كانت صورة وأخيلته حسية واضحة لا غموض فيها أو أشراك ذهنية نضل في ممراتها وشعبها الفكرية، ولا نجد تفسيراً لذلك إلا طبيعة الحياة القلقة التي كان يحياها، وظروف القتال الحرجة التي كان يعيشها وكانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعالم الحس والمادة.

فمقتضيات الصراع وظروف الحرب، حملته على الفزع إلى عالمه المادي لينتزع منه الصور والأخيلة التي تعينه على نقل انفعالاته وترجمة أحاسيسه واصطناع حججه، ولكن اقتصار شعره على ظروف القتال قد حصر معانيه في هذه الدائرة الضيقة المحدودة فلم يملك أن يخرج عليها ولم يستطع أن يتعدى حدودها.

وإذا كان النقاد قد عدوا مثل هذا الخيال المحدود عيباً، فإنه كان خيراً على شعر الصراع، فهذه المعاني الضيقة، وهذا الخيال المحدود حملا شاعر الصراع على التفنن في عرض الصورة الواحدة، وأتاحا له التدقيق فيها ومحاولة كشفها وجلائها ثم صبغها بأكثر من لون من ألوان الطبيعة التي تحيط به، والحرص على أن يضفي عليها شيئاً من شخصيته.

---

[1] عيار الشعر/ ١٠-١١.

وحتى نقف على طريقة شاعر الصراع في عرض صورة نتناول صورة منها **كصورة الخيل** -**مثلاً**- **عند شعراء مختلفين** لنرى كيف تم تصويرها وعرضها عند كل منهم **فضرار بن الخطاب** يرى أن صورة الخيل وهي ترفل بالأبطال وترفق في سيرها شبيهة بصورة الحدأ[1]:

واجرد ترفل بالأبطال شازبة　　　كأنها حدأ في سيرها تؤد

ويرى **هبيرة بن أبي وهب** أن صورة فرسه وهو يسبح في جريه شبيهة بصورة الحمار الوحشي المُعَضَّض الذي يجري في الغَلاَة ليلحق بحمر الوحس ويقوم على حمايتها[2]:

كأنه إذ جرى عير بفدفدة　　　مكدم لاحق بالعون يحميها

أما عبد الله بن الزّبعرى فيرى أن الخيل التي تم إعدادها لحرب المسلمين هي خيل طويلة سريعة، وهي بهذا شبيهة بالذئب الذي يبادر غفلة الحراس[3]:

من كل سلهبة وأبيض سلهب　　　كالسيد بادر غفلة الرقاب

ولكن الشيء الذي أثار انتباه **كعب بن مالك** لم يكن سرعة هذه الخيول وإنما هو انتشارها في الفضاء، فهذا الانتشار في خيال كعب شبيه بانتشار الجراد الذي تتلاعب به الريح عندما تهب[4]:

وخيل تراها في الفضاء كأنها　　　جراد صبا في قرة يتريع

ومن هذا العرض لصورة الخيل نلاحظ أن كل شاعر من هؤلاء الشعراء قد حرص على إضافة شيء للصورة أو التركيز على جانب منها معتقداً أن هذا الجانب أشد تأثيراً في النفس، ونلاحظ أيضاً أن هؤلاء الشعراء قد نزعوا في جميع هذه الصور منزعاً حسياً جعلهم لا يتغلغلون في خفايا النفس الإنسانية ولا حتى في أعماق الأشياء الحسية، وهم بالتالي قد انتزعوا صورهم وتشبيهاتهم من مناظر الطبيعة التي تحيط بهم، فلم يجهدوا أنفسهم بالبحث عن صور وتشبيهات مركبة، كما نلاحظ أنهم توخوا الإيجاز في عرض الصورة، هذا الإيجاز الذي يتلاءم مع ظروف المعركة، ولكنهم مع ذلك لم يعرضوها جامدة، بل بثوا فيها قسطاً وافراً من الحركة، وأودعوها شيئاً كثيراً من الحيوية.

---

[1] السيرة/ق٢/١٦٤. الجرد: الخيل العتاق. وضامرة: شديدة اللحم. والحدا: جمع حدأة. تؤد: ترفق وتمهل.

[2] نفسه/ ١٣٠. العير: الحمار الوحشي. الفدفدة: الغلاة. المكدم: المعضض، عضته: أتته. العون: جمع عانة من حمر الوحش.

[3] نفسه/ ٢٥٧. السلهبة: الطويلة. السيد: الذئب.

[4] نفسه/ ١٣٤. الصبا: ريح شرقية. القرة: البرد، يتريّع: يجيء ويذهب.

ولكي نرى أن هذا النوع من التصوير كان عاماً في شعر الصراع نزيد صورة أخرى، وهي صورة"السيف" لنرى تصوير بعض الشعراء لهذه الأداة التي تصاحب كل محارب، فالسيوف عند **الحارث بن هشام** تلمع في الأكف مثلما يلمع ضوء البرق[1]:

بمطردات في الأكف كأنها وميض تطير الهام بينة الأثر

والسيف عند معاوية بن زهير أبيض كالغدير[2]:

وأبيض كالغدير ثوى عليه عمير بالمداوس نصف شهر

ولون هذا السيف شبيه بلون الملح في البياض كما يراه محيصة[3]:

حسام كلون الملح أخلص صقله متى ما أصوبه فليس بكاذب

أما ضوء هذا السيف عندما عري من غمده فهو شبيه بضوء حريق سريع شب في أجمة كثيفة الشجر على شاكلة قول **عبد الله بن الزِّبَعْرى**[4]:

وقد عريت بيض كأن وميضها حريق ترقى في الإباء سريع

ونظن أننا بعرض هذه الصورة نستطيع أن نطمئن إلى ما سبق وقلناه من أن شاعر الصراع كان ينزع في صُورِهِ منزعاً حسياً، فلا يتجاوز في خياله حدود الواقع الذي يعيش فيه، كما تجعلنا نطلع على أشياء آخر، وهي هذه البساطة والسذاجة والإيجاز التي يعالج بها الشاعر صُورِهِ، إلى جانب اهتمامه بكل جزئية من الصورة، وحرصه على أن يضفي عليها شيئاً من شخصيته.

وكان التصوير وسيلة أساسية من وسائل التعبير عند شاعر الصراع، ولذلك فقد أكثر من **التشبيهات والاستعارات والكنايات** على اختلاف في كمها غير أن خياله لم يكن ليتجاوز حدود بيئته كما قلنا، وإنما كان مقصوراً على أجواء المعركة التي تدعو إلى الإيجاز والتركيز، وهذا ما يفسر لنا سبب إكثاره من التشبيهات بصفة خاصة باعتبار التشبيه أبسط أشكال الصنعة الفنية، ولأنه لا يتطلب جهداً ومعاناة، فما على الشاعر إلا أن يفزع إلى البيئة التي يعيش فيها ليستوحي منها صُورِهِ وأخيلته فيشبه شيئاً من واقعة المادي الذي يحس به بشيء آخر –يشاهده غالباً - من تلك البيئة في

---

[1] السيرة/ق٢/١١. بمطردات: أي بسيوف مهتزات. الوميض: ضوء البرق.

[2] نفسه/ ٣٦. عمير: اسم صيقل. المداوس: جمع مدوس وهي الأداة التي يصقل بها السيف.

[3] نفسه/ ٥٩.

[4] السيرة/ق٢/١٤١. الإباء: الأجمة الملتفة الأغصان.

صورة جديدة أو باستعمال التشبيه العادي ووجه الشبه فيه ظاهر، او باستعمال الاستعارة ووجه الشبه فيها ضمني.

ويرى قدامة أن التشبيه من أشرف كلام العرب وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف كلما كان بالشعر أعرف وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحذق أليق[١].

وقد نظر علماء البيان إلى التشبيه من جهة الصورة والشكل واللون والهيئة، ومن جهة ما يدخل تحت الحواس، ومن جهة الغريزة والطباع إلى غير ذلك. وكان أساهم في كل هذا هو الاسترشاد بما يعمله العقل من انتزاع الصورة الجديدة من شيء واحد أو من عدة أشياء يجمع بعضها إلى بعض سواء أكان ذلك في حالات التشبيه والتمثيل أم فيما يبنى عليه من مجاز أو استعارة تصريحية أو مكنية أو تمثيلية، وسلكوا في شرح كل هذا طريقة تدل على الدقة في البحث والاهتمام بالإحاطة بأطراف المسائل واستكمال جميع ما فيها من تقسيم وتفصيل[٢].

والشعر -كما يقول سيدني - يقوم على صناعة التشبيه وإعطاء الأمثلة المحسوسة أكثر مما يقوم على التفكير المجرد والقياس، وعلى هذا تكون وظيفة الشاعر هي إعطاء ضرب من الصدق قريب من صدق الفلاسفة[٣].

وينفرد الدكتور مصطفى ناصف بنظرة خاصة في طريقة تأمل الشاعر الجاهلي وما يسمى التشبيهات المتلاحقة عنده، فهو يرى أن هذه التشبيهات يجب أن تفسر تفسيراً أعمق من هذا الاصطلاح البلاغي الغامض، فالتشبيهات المتلاحقة –كما يقول - تكون - بتلاحقها - رمزاً دينياً والرمز الديني في الشعر –إن صح هذا الوصف – يستقيم مع فكرة الملامح التي تأخذ طابع القداسة والغرابة[٤].

ولئن صدقت هذه النظرة على الشعر الجاهلي أو على نماذج معينة منه، فإنها لا تصدق على شعر الصراع، فشاعر الصراع كان في غنى عن الرمز، ونظلمه ظلما شديداً إن نحن جعلنا منه فيلسوفاً، لأنه كان في وضع حربي لا يمهِلُهُ لهذا الأمر، كما كان باستطاعته التعبير عن عواطفه في

---

[1] نقد النثر/ ٥٨.

[2] الأصول الفنية للأدب (عبد الحميد حسن/ ١٤٢).

[3] مصطفى ناصف: دراسة الأدب العربي/ ٣٢٨.

[4] نفسه/ ٢٤٨.

صدق ووضوح في معظم الأحيان، بالإضافة إلى أن معظم شعر الصراع كان مقطوعات قصيرة تتناول موضوعات متعلقة بظروف المعركة ومقتضياتها، ومثل هذه المقطوعات لا تحتاج إلى الرمز إذ هي انفعال لاهب وتعبير مركز مضغوط.

والتشبيه لا يحتاج بعداً في الخيال ولا عمقاً في التصوير. وهو لون مفرد، بل هو صبغ من أصباغ لون مفرد وهو لون التصوير[1]. ولكن هذا لا يعني أن صور التشبيهات متشابهة، فهي تختلف في التعقيد والبساطة، كما تختلف في العمق والسطحية من صورة لأخرى، وربما اتَّسَعَتْ أطراف التشبيه وتعددت جوانبه فاستغرق من القصيدة عدة أبيات. ولو عرضنا صورتين لفكرة واحدة لاستطعنا من خلال هذا العرض أن نقف على الفرق بينهما في السطحية والعمق وفي التعقيد والبساطة وفي اقتصار بعضها على بيت واحد، واحتياج الأخرى إلى أكثر من بيت، فصورة الجيش عند **عمرو بن سالم** الخزاعي تبدو بسيطة لا عمق فيها عندما يشبهه بالبحر[2]:

فيهم رسول الله قد تجردا　　　في فيلق كالبحر يجري مزبدا

ولكن صورة هذا الجيش تبدو أكثر عمقاً في قول **هبيرة بن وهب**[3]:

ثمت رحنا كأنّا عارض برد　　　وقام هام بني النجار يبكيها

فتشبيه الجيش بالسحاب الذي فيه برد تبدو أكثر دقة وعمقاً من تشبيهه بالبحر، وحتى نزيد الأمر وضوحاً نورد صورة أخرى **لكعب بن مالك**[4]:

ودفاع رجل كموج الفرا　　　ت يقدم جأواء جولاً طحونا

ترى لونها مثل لون النجو　　　م رجراجة تبرق الناظرينا

فالتشبيه هنا لم يقتصر على بيت واحد وإنما احتاج إلى بيتين.

وفي حالة ورود تشبيهات غريبة ومعقدة، فإن ذلك لا يتعدى حدود الطبيعة والبيئة، وعلى هذا فإن الأمر يحتاج إلى جلاء غموض بعض المفردات والدلالة الحسية والمعنوية لها، فتتضح الصورة ساعتئذ وتصبح سهلة، فعندما نقرأ قول **كعب بن زهير** في ناقته[1]:

---

[1] شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي/ ص١٤٥ – دار المعارف بمصر، ط٥/ ١٩٦٥.

[2] تاريخ الطبري/٣/٤٥.

[3] السيرة/ق٢/ ١٣٠. العارض: السحاب، البَرِد: الذي فيه برد.

[4] نفسه/ ١٥٩. دفاع: ما يندفع من السيل. الرجل: الرجالة، جأواء: كتيبة لونها السواد والحمرة من كثرة السلاح. الجول: الكتيبة الضخمة. الطحون: التي تهلك ما مرت به. الرجراجة: التي يموج بعضها في بعض.

كأن أوب ذراعيها وقد عرقت   وقد تلفع بالقور العساقيل

شد النهار ذراعا عيطل نصف   قامت فجاوبها نكد مثاكيل

نرى فيه صورة غريبة وغامضة ولكن هذه الصورة ستغدو واضحة جلية إذا ما عرفنا مدلولات الكلمات الصعبة التي وردت فيها، فأوب: هي سرعة التقليب والرجوع، وتلفع: تلحف، والقور: جمع قارة وهو الجبل الصغير، والعساقيل: السراب، وشد النهار: وقت ارتفاعه، والعيطل: الطويلة، والنصف: المتوسطة في السن، والنكد: جمع نكداء وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد، والمثاكيل: جمع مثكال وهو الكثير الثكل.

وبعد أن زال غموض الكلمات نستطيع أن نقول بأن كعباً في هذه الصورة يشبه حركة تقليب يدي ناقته ورجوعها في أثناء سيرها في وقت الهاجرة، وفي أثناء انتشار السراب فوق صغار الجبال، بحركة تقليب يدي المرأة المتوسطة في السن ورجوعها وهي تلطم على وجهها لشدة حزنها على ولدها ويجاوبها نسوة لا يعيش لهن أولاد، فوجه الشبه بينهما هو السرعة، ذلك أن المرأة الثاكلة يشتد فعلها ويقوى ترجيع يديها عند النياحة لرؤية حزن غيرها وشدة لطمهن.

ولم تكن تشبيهات شاعر الصراع مجرد تسجيل بارد لوجوه الشبه المادية التي يحس بها، وإنما كان يستعين بها لنقل عاطفته وترجمة مشاعره للسامع في تمام قوتها وحرارتها ويستخدمها للإقناع بطريقة مؤثرة، فعندما يشبه **أبو قيس بن الأسلت** الحرب بالهلاك الذي يلتهم القريب والغريب في قوله[2]:

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة   هي الغول للأقصين أو للأقارب

يهدف إلى إقناع قريش بإزالة بواعث الخلاف فيما بينهم، وليصور لهم بشاعة الحرب.

والتشبيهات التي وردت في شعر الصراع كثيرة، وهي في أكثر أوضاعها أخيلة منتزعة **من مظاهر بصرية أو سمعية أو شكلية من الألوان والأحجام والأصوات**، وغير ذلك مما يتصل بالحواس. واستعمال التشبيهات على هذا النحو مظهر من مظاهر البساطة والسذاجة والرغبة الملحة في الإيجاز –كما بينا - حيث لا يستطيع الشاعر ذكر تفاصيل المنظر الذي يريد تصويره فيكتفي بذكر شيء شديد الشبه به ومعروف لكل من القائل والسامع مستغنياً بذكره عن التعرض لدقائق الموصوف. ولعل السبب في هذا الاتجاه أن أدب القصة وأدب الأسطورة لم ينل نصيبه من عناية الشعراء الذين قصروا اهتمامهم على فنون الشعر المعروفة في العصر الجاهلي.

---

[1] الديوان/ ١٦- ١٧.

[2] السيرة/ق١/ ٢٨٤. الغول: الهلاك.

وإذا ما تتبعنا شاعر الصراع وهو يتنقل بنا من منظر إلى آخر، واضعاً بين أيدينا الصورة الـــتي انطبعت في ذهنه عند رؤية هذا المنظر أو ذاك، ثم قمنا بحصر صورة وتشبيهاته والتـــدقيق فيهـــا، وجدنا أن الصورة البصرية تشكل أغلب هذه التشبيهات، وسبب ذلك أن هذا الشاعر إنما ينقـــل صوراً من بيئته يراها بعينه، وينقلها لأناس يستطيعون رؤيتها بعيونهم أيضاً، وما يرى بالعين لا يحتاج إلى تحليل وتعليل وإفاضة في الشرح.

واستمد شاعر الصراع صورة المرئية من بيئته الصحراوية الواسعة، من حيوانها ونباتها وغدرانها وسيولها ونجومها إلى غير ذلك، فعبيدة بن الحارث يشبه المسلمين بالأسد[1]:

لقيناهم كالأسد تخطر بالقنا نقاتل في الرحمن من كان عاصيا

وكعب بن مالك يشبه المسلمين بالأسد بينما يشبه المشركين بالنمر[2]:

كنا الأسود وكانوا النمر إذ زحفوا ما إن نراقب من إلٍّ ولا نسب

أما **ضرار** فَيُشبّه خصومه المنهزمين بالنعام الهارب[3]:

حوار ناب وقد ولى صحابته كما تولى النعام الهارب الشرد

وتشبيه الدرع بغدير الماء كثير، منه ما نراه في **قول هبيرة**[4]:

هذا وبيضاء مثلُ النّهيِ محكمة نيطت علي فما تبدو مساويها

وفي قول **كعب بن مالك**[5]:

في كل سابغة كالنهي محكمة قيامها فلج كالسيف بهلول

وفي **قول بجير بن زهير**[6]:

في كل سابغة إذا ما استحصنت كالنهي هبت ريحه المترقرق

[1] السيرة/ق٢/ ٢٤.

[2] نفسه/ ١٦١.

[3] نفسه/ ١٦٥. الحوار: ولد الناقة. الناب/ المسنة من الإبل. الشرد: النافرة.

[4] السيرة/ق٢/ ١٣٠. يريد بالبيضاء: الدرع. النهي: الغدير من الماء. نيطت: علقت.

[5] السيرة/ق٢/ ١٤٨. السابغة: الدرع الكاملة. فلج: نهر. بهلول: أبيض.

[6] السيرة/ق٢/ ٤٨٨. المترقرق: المتحرك.

والصور التي أخذها عن السحاب والنجوم والقمر والنور كثيرة جداً، لما لهذه الأشياء المحسوسة من أهمية في حياة العربي، ولما تحس به بيئته من رهبة الظلام في الليل، **فحسان يهدد هذيلاً** بغارة سريعة تشبه السحاب المبكر بقوله[1]:

فإلا أمت أذعر هذيلاً بغارة كغادي الجهام المغتدي بإفاء

وكعب بن مالك يرى نقباء العقبة مثل النجوم في جوف الليل المظلم[2]:

أولاك نجوم لا يغبك منهم عليك بنحس في دجى الليل طالع

وتشبه **عاتكة بنت عبد المطلب** لمعان ظباة السيوف بضياء الشمس المشرقة[3]:

كأن ضياء الشمس لمع ظباتها لها من شعاع النور قرن وحاجب

أما **قطن بن حارثة العليمي** فيرى في وجه الرسول بدراً[4]:

أغر كأن البدر سنة وجهه إذا ما بدا للناس في حلل العصب

وهكذا يمضي شاعر الصراع متنقلاً من صورة مرئية إلى أخرى، فالألوان مثلاً شيء مرئي مثير للاهتمام، وعلى هذا فقد صبغ بها بعض موصوفاته ليضفي عليها جاذبية ورونقاً من ناحية، وليثير اهتمام السامع من ناحية أخرى. وقد أكثر من استعمال اللون الأبيض وبلغ من احتفاله بهذا اللون أن وصف به رسول الله على شاكلة قول **كعب بن مالك**[5]:

ومواعظ من ربنا نهدى بها بلسان أزهر طيب الأثواب

وكما استخدم شاعر الصراع اللون الأبيض استخدم غيره من الألوان كالأزرق فكنانة ابن عبد ياليل يشبه دروع قومه بلون السماء المزينة بالنجوم في قوله[6]:

علينا دلاصٌ من تراث محرق كلون السماء زينتها نجومها

---

[1] السيرة/ق٢/١٨٢. الغادي: المبكر، الجهام: السحاب الرقيق. الإفاء – هنا -: الغنيمة.

[2] السيرة/ق١/٤٤٥.

[3] البداية والنهاية/ ٣/٣٤٠.

[4] المرزباني: معجم الشعراء/ ٣٣٠.

[5] السيرة/ق٢/٢٦٠. الأزهر: الأبيض.

[6] السيرة/ق٢/٤٨١. دلاص: دروع لينة ومحرق: - هنا - هو عمرو بن عامر، وهو أول من حرّق العرب بالنار.

على أن شاعر الصراع لم يغفل ذكر الإبل فهي –كما يقول الدكتور مصطفى ناصف - مُعَـوِذّةٌ مُزُوَدَةٌ بقوى كثيرة، والتشبيه المتلاحق في خدمتها عند العربي إنما هو تعبير عن حلم الشاعر العربي ورغبته في خدمة الإحساس بوفرة الحياة، فكأن هذا الشاعر يريد أن يراها قادرة على كـل عـدو وكل نازلة[1].

ومن هذا التشبيه تشبيه **كعب بن مالك** الحرب بالناقة كلما شد عليها ضرعها درت أكثر، يريد شدة الحرب بقوله[2]:

ألسنا نشد عليها العصا   ب حتى تدر وحتى تلينا

وإذا ما وقفنا على التشبيهات التي عرضها شاعر الصراع وجدنا أنه يسوق التـشبيه لتحقيـق واحد من الأغراض الآتية أو أكثر من غرض في آن واحد وهي:

الإيضاح والبيان

وقد ساق الشاعر مثل هذا التشبيه ليزيل اللبس والغموض عن المعنى وليجلوا المشبه للأنظـار ويقربه إلى الأذهان كما فعل **كعب بن زهير** -مثلاً - في تقريب صورة حلق الدروع عندما قال[3]:

بيض سوابغ قد شكت لها حلق   كأنها حلق القفعاء مجدول

والمبالغة

وهي أمر بالغ الأهمية في أوقات الحرب، إذ يلجأ إليها الشاعر لإظهار شجاعة قومـه وتجـسيم قوتهم كسبيل لإرهاب العدو والنيل من معنوياته، وقد يلجأ إليها في غير هـذا الغـرض أيـضاً. والتشبيه مجال رحب لذلك، إذ يستطيع الشاعر أن يحقق به هـذا الغـرض، فهـذا **سماك اليهودي** يقول[4]:

كأنهم عتائر يوم عيد   تذبح وهي ليس لها نكير

---

[1] مصطفى ناصف/ دراسة الأدب العربي/ ٢٤٧.

[2] السيرة/ق٢/١٦٠، العصاب: ما يَعصِب الضرع.

[3] الديوان/ ٢٤، بيض: مجلوة صافية مصقولة. السوابغ: الطوال السوابل، وشكت: دخل بعضها في بعض. والقفعاء: ضرب من الحسَك، وهو نباتٌ له شوك ينبسط على وجه الأرض تشبه به حلق الدروع. مجدول: محكم الصنعة.

[4] السيرة/ق٢/٢٠٠. العتائر: جمع عتيرة وهي الذبيحة.

وهذا **كعب بن مالك** يبالغ في وصف طعنات رماح المسلمين، فيشبهها بفم السقاء الذي يتدفق ماؤه ويسيل ليبين سعتها فيقول[1]:

تكر القنا فيكم كأن فروعها   عزالى مزاد ماؤها يتهزع

وثالث هذه الأغراض: **تقرير حال المشبه في النفس:**

فالتشبيه يمكن الشاعر من تثبيت شكل المشبه في الذهن وتعميق معناه والإلحاح عليه بالتشبث، وهو بالتالي يرسم صورة واضحة المعالم في ذهن السامع وبذلك يحقق الشاعر هدفه، وهو محاولة التأثير على السامع وإقناعه بالحقيقة التي يقررها، فقد شبه شاعر الصراع الفرسان بالأسد لما عرف عنها من شجاعة وقوة **كقول حسان**[2]:

كأنهم في الوغى والموت مكتنع   أسد ببيشة في أرساغها فدع

وشبه تحرك مشاة الجيش الكثير بالسيل الذي يأتي من بلد إلى بلد، فيدفع أمامه ما يعترضه على شاكلة قول **عباس بن مرداس**[3]:

على الخيل مشدوداً علينا دروعنا   ورجلا كدفاع الأتي عرمرما

وشبه الشباب بالسيوف المصقولة مثل **قول أبي طالب**[4]:

شباب من المطيبين وهاشم   كبيض السيوف بين أيدي الصياقل

وشبه محمداً بموسى بالنبوة مثل قول أبي طالب أيضاً[5]:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا   نبياً كموسى خط في أول الكتب

أما رابع هذه الأغراض **فهو الإيجاز والاختصار:**

وهو أبرز ما كان يهدف إليه شاعر الصراع لأنه يريد إيصال الصورة إلى السامع بأوجز عبارة ومن أقصر طريق فلا أهمية عنده للإطالة فغايته هي الدعاية لقومه والتصدي لخصومهم **فمعاوية بن زهير** يكتفي بإثبات نتيجة المعركة بأوجز عبارة عندما يقول[6]:

---

[1] السيرة/ق٢/١٣٥. الفروع: الطعنات المتسعة. وعزالى: جمع عزلاء وهي فم المزادة. يتهزع: يتقطع.

[2] الديوان/ ٣٠٧. مكتنح: دانٍ قريب. بيشة: موضع تنسب إليه الأسود. فدع: عوج وميل في المفاصل.

[3] الديوان/١٠١. رجلاً: مُشاة، والأتي: السيل يأتي من بلد إلى بلد، ودفاع: ما يدفعه أمامه وعرموم: كثير شديد.

[4] السيرة/ق٢/٢٧٩.

[5] السيرة/ق١/٣٥٢.

[6] السيرة/ق٢/٣٧. الحدج: الحنظل الواحدة: حدجة، والنقيف: المكسور.

وقد تركت سراة القوم صرعى		كأن رؤوسهم حدج نقيف

وقد يلجأ شاعر الصراع إلى الإطالة والاتّساع في صورته أحياناً إذا كان ذلك يخدم الغاية التي ينشدها، والهدف الذي يسعى لتحقيقه، فصورة الدمع المنحدر من العين تحتاج إلى مزيد من الجلاء كما يرى **عباس بن مرداس**[1]:

عين تأوبها من شجوها أرق		فالماء يغمرها طوراً وينحدر

كأنه نظم در عند ناظمة		تقطع السلك منه فهو مئتثر

وصورة المعركة في حاجة إلى مزيد من الإيضاح والوصف، مما حمل **أبا طالب** على الإطالة في قوله[2]:

ولما تبن منا ومنكم سوالف		وأيـد أترت بالقساسية الشهب

بمعترك ضيق ترى كسر القنا		به والنسور الطخم يعكفن كالشرب

كأن مجال الخيل في حجراته		ومعمعة الأبطال معركة الحرب

وبعد أن أطلنا الحديث في التشبيه ننتقل إلى شكل آخر من أشكال الصورة وهي:

الاستعارة

وليست الاستعارة إلا وسيلة للتعبير عن موقف المتكلم من الموضوع الذي يتحدث عنه أو من الجمهور الذي يتحدث إليه، وهي الوسيلة العظمى التي يجمع الذهن بوساطتها في الشعر أشياء مختلفة لم توجد بينها علاقة من قبل وذلك لأجل التأثير في المواقف والدوافع. وينجم هذا التأثير عن جمع هذه الأشياء وعن العلاقات التي ينشئها الذهن بينهما، فهي وسيلة شبه خفية يدخل بوساطتها في نسيج التجربة عدد كبير من العناصر المتنوعة[3].

والاستعارة واردة في شعر الصراع، ولكن استعمالها لدى الشعراء يومئذ لم يكن بالكم الذي استعملوا فيه التشبيه، ولعل السبب يكمن في طبيعة الاستعارة نفسها، فهي تحتاج إلى أناة وجهد

---

[1] الديوان/ ٥٣، تأويها: جاءها مع الليل، والشجو: الحزن، والسلك: الخيط الذي يُنْظَمُ فيه. ومئتثر: متفرق.

[2] السيرة/ق١/٣٥٣. أتِرَّتْ: قطعت والقساسية: سيوف تُنسَبُ إلى قساس وهو جبل لبني أسد فيه معدن الحديد، والطخم: السود الرؤوس، ويعكفن: يُقِمْنَ ويُلازمنَ، والشرب: الجماعة من القوم يشربون والحجرات: النواحي.

[3] إ.ا.رتشاردز: مباديء النقد الأدبي/ ص٣١٠ – ترجمة الدكتور مصطفى بدوي/ المؤسسة العصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر/ ١٩٦١م.

وتتطلب من الشاعر الدقة في التفكير، والجهد في الصياغة لأنه، مطالب بأن يجمع في ذهنه أشياء مختلفة من عالمه، وأن يبرز العلاقة التي تجمع بينها.

وحين تستخدم الكلمة استخداماً مجازياً فإنها تكتسب قوة لم تكن فيها قبل هذا الاستخدام، وفي الاستعارة نضطر إلى التعبير عن إدراكات غير حسية باصطلاحات وحدود حسية، وبمعنى آخر تصور العواطف والانفعالات بأشياء من العالم المادي، فحينما أراد **كعب بن مالك** أن يصور " **هداية الإسلام**" لم يجد كلمة أدل على هذه الهداية من كلمة " **النور**"، فالهداية كلمة معنوية ذات مدلول معنوي، وعواطف السامعين نحوها معنوية أيضاً، ولذا لم يجد بداً من تصويرها بالنور الذي يهدي السارين تحت جنح الليل المظلم، وبهذا تتضح الصورة للسامع لأنه قادر على تصور النور وأثره[1]:

وأشياع أحمد إذ شايعوا على الحق ذي النور والمنهج

وقطف الرؤوس أمر بعيد عن التصور إلا عندما ينقله لنا الشاعر في صورة ثمرة، وهذا ما فعله **عباس بن مرداس** حين شبه لنا الأعناق المقطوعة بالثمار التي تم قطفها، واستعار كلمة "**قطف**" لتحقق له غرضه[2]:

ببيض نطير الهام عن مستقرها ونقطف أعناق الكماة بها قطفا

"والعناق" كلمة معنوية واستعمالها على الحقيقة قد لا يثير الاهتمام الكبير ولكن استعارتها للقتال قد أكسبتها حيوية وجدة، وأمدتها بقوة مؤثرة، ولفتت إليها انتباه السامع عندما قال **عباس بن مرداس**[3]:

طوراً يعانق باليدين وتارة يفري الجماجم صارماً بتاكا

وكلمة "**الملل**" عادية لا يرى فيها السامع جديداً ولكن استعارتها للحرب أمر يشد إليها الانتباه كما نرى في قول **أبي طالب**[4]:

ولسنا نَمَلُّ الحرب حتى تملنا ولا نشتكي ما قد ينوب من النكب

وهكذا استخدم شاعر الصراع الاستعارة، واستعملها في المواقف التي تخدم أغراضه فدارت أكثر صورها على الحرب ومقتضياتها، ولكن ورودها في شعر الصراع أقل من ورود التشبيه بكثير،

---

1 السيرة/ق٢/١٣٩. شايعوا: تابعوا. المنهج: الطريق الواضح.

2 الديوان/ ٨٩.

3 الديوان/ ٩٣/ يفري: يقطع، بتّاكٌ: قاطع.

4 السيرة/ق٢/٣٥٣.

وسبب ذلك أنها تحتاج من الشاعر إلى كد ذهني لا يحتاج إليه التشبيه، وهذا الكد يؤخر الشاعر عن متابعة الأحداث التي تتطلب السرعة والارتجال.

وكما استخدم شاعر الصراع التشبيه والاستعارة استخدم الكناية أيضاً. **والكناية -كما عرفها البلاغيون** - لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي مثل قول **ضرار بن الخطاب**[1]:

بل ضاربين حبيك البيض إذ لحقوا   شم العرانين عند الموت لذاع

كناية عن العزة.

وأكثر علماء البيان يعدون الكناية من أنواع المجاز خلافاً **لابن الخطيب الرازي**، فإنه قد أنكر كونها مجازاً وزعم أن الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى ثانياً هو المقصود[2].

والكناية تعبير لا يراد منه الدلالة الحرفية للألفاظ في وضعها اللغوي وإنما هي دلالات يفهم المقصود منها بطريق غير مباشر، إما بطريقة التلازم أو بطريق المفهوم أو بطريق السياق. والكناية شأنها شأن الرمزية من حيث الوضوح والغموض، ومرجع ذلك إلى ما تنوي عليه الرموز اللغوية من المعاني ومدى ما هناك من صلة بين الرمز ومدلوله. وهي على كل حال لون من ألوان التعبير الذي يجمل في موضعه ويبعث على التفكير وإعمال الذهن[3]، وهذا ما يفسر لنا سبب قلتها في شعر الصراع، فهي أقل وروداً من التشبيه، بل ومن الاستعارة أيضاً. وشاعر الصراع لم يكن يقصد إليها قصداً، وإنما كانت تنطلق على لسانه بشكل عفوي، وسبب ذلك أنه كان في وضع نفسي مضطرب، فلا تمهله ظروف القتال للتفكير وإعمال الذهن.

وقد استخدم شاعر الصراع الكناية لتحقيق واحد من الأغراض التالية:

أولها: التعريض وهو خلاف التصريح وهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، أو هو المعنى الحاصل عند اللفظ به، أو هو ما أشير به إلى غير المعنى بدلالة السياق على شاكلة قول **مالك بن عوف**[4]:

قد نفد الضرس وقد طال العمر   قد علم البيض الطويلات الخمر

---

[1] السيرة/ق٢/١٤٥. الحبيك: الأبيض طرائقه، والعرانين: الأنوف. وشم: مرتفعة.

[2] عبد الحميد حسن: الصورة الفنية للأدب/ ١٩٩.

[3] عبد الحميد حسن: الصورة الفنية للأدب/ ٢٠٣.

[4] السيرة/ق٢/٤٤٧، الخمر: جمع خمار وهو ثوب تغطي به المرأة رأسها.

كناية عن التجارب.

وثانيها: التلويح: وهو كناية كثرت فيها الوسائط بين اللازم والملزوم بلا تعريض مثل قول **حسان**[1]:

إذ تمتطي سرح اليدين نجيبة　　　مرطى الجراء خفيفة الأقراب

كناية عن الفرس السريع العدو.

وقول **أبي طالب في مديح الرسول**[2]:

طويل النجاد خارج نصف ساقه　　　على وجهه يُسْقَى الغمام ويسعد

كناية عن طول القامة.

وثالثها: الرمز: وهو كناية قلت فيها الوسائط مع خفاء اللزوم بلا تعريض على شاكلة قول **حسان**[3]:

أتحب يهدان الحجاز ودينهم　　　-كبد الحمار - ولا تحب محمدا

وذلك كناية عن بلادة أهل الدين اليهودي.

وقول كعب بن زهير[4]:

حرف أبوها أخوها من مهجنة　　　وعمها خالها قوداء شمليل

كناية عن قوة ناقته وصلابتها.

ورابعها: الايماء والإشارة: وهو كناية قلت وسائطها مع وضوح الدلالة بلا تعريض مثـــل **قـول كعب بن مالك**[5]:

جريء المقدم شاكي السلاح　　　كريم النثا طيب المكسر

كناية عن كرم الأصل.

وحسن شعر الصراع بطائفة من ألوان البديع ومحسناته إذ حرص الشاعر أحياناً علـــى تـــزيين شعره بألوانه وبخاصة الطباق والجناس، فمن رائع الطباق قول **كعب بن مالك**[6]:

---

[1] الديوان/ ١٠١، سرح: سريعة ونجيبة: عتيقة كريمة، وباجري قوية خفيفة سريعة، ومرطى: سريعة، والجراء: الجري، والأقراب: جمع قرب وهي الخاصرة.

[2] السيرة/ق١/٣٧٩.

[3] الديوان/٢٠٣.

[4] الديوان/١١ الحرف القطعة الخارجة من الجبل، والحرف أيضاً الناقة الضامرة، والمهجنة: الكريمة الأبوين من الإبل، والقوداء: الطويلة الظهر والعنق، وشمليل: الخفيفة السريعة.

[5] السيرة/ق٢/٢٥، شاكي السلاح: حادّ السلاح، والنثا: ما يُتحدّث به عن الرجل من خير وشر.

[6] السيرة/ق٢/١٥٧ وضمرية: نسبة إلى ضمرة وهي قبيلة.

ودعت فؤادك للهوى ضمرية   فهواك غوري وصحوك منجد

ومن الطباق أيضاً قول **هند بنت عتبة**[1]:

ألا رب يوم قد رزئت مرزءاُ   تروح وتغدو بالجزيل مواهبه

ومن أمثلة الجناس قول **كعب بن مالك**[2]:

حوش الوحوش مطارة عند الوفى   عبس اللقاء مبينة الإنجاب

وقول **أمية بن أبي الصلت**[3]:

بالمقربات المبعدات الطامحات مع الطوامح

ولكن هذه الأصباغ البديعية لم تكثر في شعر الصراع، وإنما وردت قليلة، فهي لم تكن غاية تنشد لذاتها عند شاعر الصراع، بل كانت تجري على لسانه طبيعية بلا تكلف ولا صنعة. وقد كانت هذه الألوان البديعية بسيطة بساطة عصرها ووضوحه، فهي تحمل روحه وتصور ذوقه.

أمابعد، فقد أطلنا الوقوف عند الصورة الفنية التي عرضها شاعر الصراع وهو يتنقل من حدث إلى حدث، ولكنا قبل أن نتركها نوَدُّ أن نكرر ما سبق وقلناه من أن عرضه لهذه الصورة لم يكن لذاتها، وإنما كان يسوقها خدمة لأغراضه وتحقيقاً لأهدافه، تلك الأغراض والأهداف التي أثارت أحاسيسه وحركت عواطفه وأنطقته بالشعر والرجز.

والصورة الفنية عموماً ضرورة شعرية كضرورة الخط للرسام فكل الأحداث والأفكار والرؤى والأحلام تتحول إلى جملة من الصور الفنية الدالة أو الرامزة أو المشبه بها. وعلى هذا كان طبيعياً أن تنطلق من أفواه شعراء الصراع لتصور الأحداث التي عاشوها والأفكار التي قاموا يدافعون عنها، فقد كانت وسيلتهم لتوضيح مواقفهم وسبيلهم للإقناع والتأثير.

السمات العامة لشعر الصراع:

لقد أتاح لنا ما عرضناه من شعر الصراع في ميادينه المختلفة أن نتبين في وضوح طائفة من السمات الفنية العامة التي تسم هذا الشعر في مجموعة، وتوضح معالمه وقيمته التاريخية وتسلكه – من ثم - في مكانه الجدير به من تاريخ الأدب العربي.

---

[1] نفسه/ ٣٩.

[2] السيرة/ق٢/ ٢٦٠. الحوش: النافرة، والمطارة: المستخفة، والإنجاب: الكرم والعنق.

[3] السيرة/ق٢/ ٣٢، المقربات: الخيل التي تقرب من البيوت لكرمها، والمبعدات: التي تبعد في جريها أو في مسافة غزوها والطامحات: التي ترفع رؤوسها.

وأولى هذه السمات: **أن شعر الصراع الذي ندرسه شعر ملتزم** فلم يكن له إلاَ أن يكـــون أثـــراً للفكرة الإسلامية. وقد عرفنا من الفصول السابقة أن الصراع قد أشتدَّ بين مؤيدي هذه الفكـــرة ومعارضيها، وأن هذا الصراع لم ينحصر في ميادين القتال فحسب، وإنما تعداها إلى ميادين الفكـــر والأدب أيضاً، فوقف شعراء المسلمين في موقف التزموا فيه بالدفاع عن الإسلام والإشادة بأفكاره، ووقف شعراء المشركين واليهود في موقف معارض التزموا فيه –إلى حين- بمعارضة الدين الجديـــد ومهاجمة مفاهيمه.

ولئن كانت مهمة الشاعر الجاهلي أن يمجد الظلم والعدوان والحرب إذا كان هذا ممـــا يخـــدم مبادئ قبيلته ويتفق مع عصبيتها وطبيعة حياتها، ولئن كانت مهمته أيضاً أن يبرز النقائض الفرديـــة في صاحبها كالخوف والهرب في الحروب وغير ذلك[1]، فإن هذه المهمة قد تغيرت في الإسلام، ذلك أن القرآن الكريم قد حدد رسالة الشعر[2] فوجهه لأول مرة في التاريخ توجيهاً صحيحاً. وكان من أثر هذا التوجيه أن انْتَظَم الأدب العربي في نهضة تقدمية كبرى تحول الشعر فيها من خدمة المجتمـــع الصغير الذي يسمى القبيلة إلى خدمة الأمة جميعها.

وقام الرسول الكريم بوضع الخطوط العريضة لقول الشعر، وأوضح السبيل الصحيح للشعراء فنهى عن هتك الأعراض وسقط القول ورغب في الخير، وحث على نصرة الدين الجديد وتـــشديد الحملة على خصومه[3]. والتزم الشعراء من جانبهم طريق الخير وجندوا أنفـــسهم لخدمـــة المبـــدأ الإسلامي العتيد، فجعلوا ينادون بالجهاد في سبيل الله والحق ويشيدون بالمثل القويمة التي جاء بهـــا التنزيل ويسعون إلى تثبيت المعتقدات الفكرية النامية، ودعم الوعي النـــاهض وتقويـــة الأســـس والروابط التي يقوم عليها المجتمع.

وبدت آيات هذا الالتزام واضحة جلية في أشعارهم، فهذا **عبد الله بن أنيس** يقول[4]:

وكنت إذا هم النبي بكافر		سبقت إليه باللسان وباليد

وهذا **كعب بن مالك** يقول[5]:

---

[1] إحسان عباس/ فن الشعر/ ١٦٨.

[2] سورة الشعراء/ ٢٢٤ -٢٢٧.

[3] الأغاني/٤/ ٤ -٦، تفسير القرطبي/١٣/ ١٥٠.

[4] السيرة/ق٢/ ٦٢١.

[5] السيرة/ق٢/ ١٣٣.

مجالدنا عن ديننا كل فخمة مذربة فيها القوانس تلمع

ويبدو الالتزام بمفاهيم الإسلام أكثر وضوحاً في تهديد **حسان بن ثابت لمسافع التيمي** حيث يقول[1]:

لولا الرسول فإني لست عاصيه حتى يغيبني في الرمس ملحودي

لقد رميت بها شنعاء فاضحة يظل منها صحيح القوم كالمودي

لكن سأصرفها جهدي وأعدلها عنكم بقول رصين غير تهديد

وبهذا صار للشعر في الإسلام مفهوم جديد يكاد يكون التزاماً بغايات معينة جند الشعر في خدمتها لا يتجاوزها ولا ينحرف عنها، بل لا يمكن له أن ينحرف عنها، فمغبة انحرافه لا تهدد كيان المجتمع فحسب، بل تهدد أيضاً فكرته وعقيدته وما تدعو إليه في البيئة العربية التي تولي الشعر قيمة خاصة وتحتفل به أيما احتفال.

وهكذا كانت النظرة الإسلامية الخالصة ترى تجريد الشعر من موضوعاته التي قد تؤثر في المجتمع تأثيراً يبعده عن روح الدين، إذ لم يكن بد لهذه الجماعة الإسلامية من أن تَنْزِع إلى توجيه الشعر هذه الوجهة، وأن تعتبره أداة اجتماعية ملتزمة بخدمة المبدأ والغايات التي يسعى إلى تحقيقها.

وقد كان مقياس المواطنة الإسلامية في الحياة العربية الجديدة أن ينهج الفرد مناهج السلوك التي رسمها الإسلام، وكان مقياس الصحة والسداد في القول أن يقول الفرد ما يصلح أن يكون دافعاً للفكرة الإسلامية ومبشراً بها ومذيعاً لمفاهيمها ومثلها. وكان مقياس الشاعرية المسلمة أن يُستَثنى صاحبها من الذين يتبعهم الغاوون والذين يهيمون في كل واد ويقولون مالا يفعلون.

وبناء على هذا الالتزام كانت أهم الموازين النقدية آنذاك هي الاتفاق مع العقيدة وغاياتها ومثلها[2].

ولئن التزم شعر المسلمين بمفاهيم الإسلام، فقد التزم شعر المشركين في أول الأمر بمعارضة هذه المفاهيم، وبسبب هذه المعارضة اشتعلت نار الهجاء بين شعراء الفريقين، وتقاذفوا بمناقضات التزم كل فريق فيها بالدفاع عن مبدئه والدعوة له ومهاجمة أفكار خصومه. وقد نزع شعراء المشركين إلى هجاء الرسول ومعارضة دعوته والتحريض عليه، ونهضوا للدفاع عن الأحساب والأنساب والمآثر وحماية دين الآباء. وبهذا انتظمت علاقة هؤلاء الشعراء بمجالهم الاجتماعي حيث برز لديهم الشعور

---

[1] ديوانه/ ١٩١.

[2] النعمان القاضي/ شعر الفتوح/ ٣٠٤.

" **بالحاجة إلى النحن**"، حتى أبو طالب الذي تولى أمر الدفاع عن النبي – عليه السلام - في مكة. أعلن عن حمايته له لم يستطع أن يخرج على سنة أشياخه كما يقول[1]:

فو الله لولا أن أجيء بسنة   تجر على أشياخنا بالمحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة   من الدهر جداً غير قول التهازل

ويرى **مصطفى سويف** أن انتظام الشاعر بمجاله الاجتماعي ناتج عن عدة أسباب في المجال، ومن بين هذه الأسباب الاستعداد الفطري ويتمثل في درجة مطاوعة المادة النفسية التي تظهر في ازدياد نسبة التهويم في الإدراك. وربما شدة الارتباط بين الجهاز الحسي والجهاز الحركي، وحركة الشاعر كلها هي حركة لإعادة تنظيم "**النحن**" يمضي فيها بخطوات ينظمها إطاره الشعري[2].

وهكذا التزم شعر المشركين بمعارضة الإسلام ولكن هذا الالتزام قد تحول لصالح الإسلام بعد الفتح، فحين انتصر الإسلام انتظم الشعر العربي كله في خدمة الدعوة فتحول من تمجيد الغارات والصفات الحربية ومعتقدات الفروسية القبلية، والإشادة بدين الآباء والمآثر والأحساب إلى تصوير الحياة الجديدة وإبراز نواحي نشاطها ومواطن جمالها.

ولا ريب أن هذا الالتزام كان يخضع لأفكار الإسلام ولرقابة السلطان، وقد بينا فيما مضى الكتاب موقف الإسلام من الشعر والشعراء في شيء من التفصيل. وأوردنا أيضا مواقف الرسول من بعض الشعراء المجيدين، فهو قد استحسن شعر النابغة الجعدي[3] واستحسن شعر لبيد بن ربيعة[4]، وأثنى على شعراء الأنصار: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة[5]، وعجب من شعر كعب بن زهير[6]، لأن هؤلاء الشعراء جميعاً قد تمثلوا أفكار الإسلام السمحة وصدروا عنها في أشعارهم.

وظل الشعر يلتزم هذا النهج طيلة حياة الرسول، بل إن هذا الالتزام ظهر واضحاً في عصر الراشدين فقد أعلنوا رضاهم عن كل شعر يشيد بالإسلام وبالمثل العليا التي أقرها وأبدوا سخطهم

---

[1] السيرة/ق١/ ٢٨٠.

[2] الأسس النفسية للإبداع الفني/ ٣٣٧- ٣٣٨، دار المعارف/ ط٣، ١٩٦٩م.

[3] الشعر والشعراء/١/ ٢٨٩.

[4] صحيح مسلم/٧/ ٤٩.

[5] الأغاني/ ٤/ ٦.

[6] الشعر والشعراء/ ١/ ١٥٥.

على كل شعر يخالف روح العقيدة ومفاهيمها،من دعوة إلى رذيلة أو إشـاعة لفاحـشة أو هتـك لأعراض المسلمين[1] أو هجاء مقذع[2].

ومن هنا وجدنا أن طابع الالتزام الذي طبع شعر الصراع قد جعله سلاحاً من أسلحة المعركـة وأداة في خدمة المثل الإسلامية والغايات والمبادئ التي يدعو إليها. وكان لهذا الالتزام أكبر الأثر في الموضوعات التي طرقها هذا الشعر،ـ فقد صبغ هذه الموضوعات بأصباغ جديدة وأضاف إليهـا حصيلة مستحدثة من المعاني الإسلامية، وأوجد موضوعات جديدة كالشعر الديني وحصار المدن مما يتفق وهذا الالتزام.

وثاني السمات الفنية التي يتسم بها شعر الصراع هي الإيجاز والقصر.

وقد بينا عند حديثنا عن أشكال هذا الشعر أن القصائد فيه قليلة إذا ما قيـست بالمقطوعـات والأراجيز، فهي لا تزيد على خمس عشرة قصيدة ومائة قصيدة بينما تقرب المقطوعات القـصيرة والأراجيز من أربعمائة وأربعين نصاً. وهذا يعني أن أكثر شعراء الصراع مقطوعات قصيرة وأراجيز ويعني أيضاً أن الإيجاز والقصر سمة عامة من سماته.

وقد بينا أن سبب هذا القصر والإيجاز يرجع إلى طبيعة الفترة التي قيل فيها هذا الشعر، فحالـة الحرب وظروف القتال لا تدعو إلى استقرار، ولا تساعد على تشقيق للكلام أو توليـد للمعـاني، وإنما تدفع إلى الإيجاز والاختصار، بل وتضطر إليه اضطراراً، فالشاعر المحارب سواءً كان فارساً أو غير فارس مشغول بأمر القتال ومنصرف إلى لقاء الخصوم، وهو بالتالي يريد أن يلاحق الأحـداث ويثير حمية المقاتلين ويلهب حماس الفرسان فينطلق لسانه بأبيات قليلة أو رجز قصير يتناسـب مـع اللحظة الحادة التي يعيشها إذ يلقيها دونما إطالة أو تنسيق. ومن هنا كانت النتيجة هذه الأبيـات القصيرة والأراجيز المرتجلة –غالباً - يُنْفَس فيها عن انفعالاته الحادة وعواطفه الملتهبة الـتي تـشبه الضربات المتلاحقة في غير امتداد في النفس أو تمهل في النظم.

وقد حمله هذا الإيجاز في الشكل على الإيجاز في عرض الصورة فألقى بها قصيرة موجزة، فقلمـا نجد صورة تتجاوز البيت لواحد، وسبب ذلك أن ظروف الحرب تدفع هذا الـشاعر إلى إيـصال صورة تشبيهاته بأوجز العبارات، فلا أهمية عنده للإطالة، لأن هدفه الأساسـي الدعايـة لقومـه والتصدي لخصومهم، ولا يلجأ إلى الإطالة إلا إذا كانت تحقق له شيئا،فالصورة عنده لم تكن غايـة

---

[1] الشعر والشعراء/١/٣٥٠.

[2] نفسه/ ٣٢٨.

تنشد لذاتها، وإنما هي وسيلته للتعبير والإقناع ومحاولة التأثير. وتسلمنا هذه السمة إلى سمة أخـــرى واضحة يتسم بها شعر الصراع وهي **الصدق الفني والواقعية فيه**.

والواقعية بمفهومها اللغوي تعني تصوير الواقع والتعبير عنه. والأدب الواقعي هو ذلـــك الأدب الذي يصور الحياة الطبيعية المألوفة ويتجه إلى الحقائق الخارجية التي تستدعي الحواس ويمر بها الناس في حياتهم[١].

وقد نشأ المذهب الواقعي في فرنسا حوالي الخمسينات من القرن التاسع عشر، معبراً عن الضيق بطغيان الفردية والانتهازية ومتأثراً بالتقدم العلمي مستعيناً بمنهجه في دارسة المشكلات العـــصرية ومرتكزاً على الحيدة في نقد الواقع دون اندفاع وراء العاطفة وتأثر بالأفكار السابقة[٢].

والشاعر حين يقول الشعر عن عاطفته نحو ما رآه وما تأثر به ثم رغبة في وضع هذا فإنما يقوله رغبة في التنفيس في صورة تثير في كل من يتلقاها نظير عاطفته. والشاعر حينما ينقل إلينا شيئاً من الواقع الذي يعيشه أو يعيشه قومه، فإنما ينقله وينقل معه عاطفته التي ثارت تجاه هذا الواقع.

والفنان في رأي النويهي لا يحاول تصوير الواقع كما هو، بل كما يراه ويعتقده. وهو لا يصف جزئيات الطبيعة في تمام حرفيتها، بل ممزوجة بعاطفته ومن خلال مزاجه الخاص.

ولكن ليس معنى هذا أن تطلق حريته في التصور إلى حد الانفصام التام عن الحقيقة المادية وإلا صار ضرباً من تصورات المس[٣].

فالصدق عند النويهي يكمن إذن في صدق الأديب في التعبير عن عاطفته التي أحس بها فعـــلا وإعلان عقيدته التي يعتقدها، وليس معناه أن يكون نقلاً حرفياً للواقع الخارجي في كل حـــذافيره. أما وظيفة الأدب عنده فهي أن يصور عاطفة الإنسان نحو واقع ما، ونظرته الخاصة الشخصية إليه وموقفه منه ورد فعله عليه. وبمعنى آخر، فإن الصدق الذي يعنيه هو إخلاص الأديـــب لعاطفتـــه وتجربته الانفعالية، فهو مطابقة الكلام لعقيدة المتكلم[٤].

---

[1] عبد الحميد حسن: الأصول الفنية للأدب/ ١٥٧.

[2] محمد مفيد الشوباشي: الأدب ومذاهبه من الكلاسيكية الإغريقية إلى الواقعية الاشتراكية/ ص١٢١ – الهيئة العصرية العامة للتأليف والنشر – ١٩٧٠.

[3] وظيفة الأدب/ ٦٠.

[4] وظيفة الأدب/ ٤٩- ٥٠.

وهو في هذا الرأي يكاد يلتقي مع العقاد الذي يرى أن الصدق يتمثل في تعبير الشاعر عن عاطفته بغذاء من حرارتها لا بوقود من خارجها[1]، إذ الصدق الفني عنده هو صدق الشعور الذي يعبر عنه الشاعر، وصدور ذلك الشعور منه عن مزاج أصيل لا تكلف فيه ولا اختلاق[2].

ويفرق العقاد بين الصدق في التجربة ومطابقة الواقع فيرى أن الأول هو النفاذ إلى روح الموضوع والإحاطة بأصوله ومقوماته، أما الثاني وهو مطابقة الواقع فهو لا يزيد عن جمع معلومات خارجية حول هذا الموضوع لا تمس روحه ولا تدخل في مقوماته[3].

ويقيم **محمد غنيمي** هلال وزناً خطيراً للصدق الفني أو الأصالة فيرى أنه الأساس في تقدم الفنون جميعاً، وأن الفصل بين العمل الفني والصدق بنوعيه: الفني والواقعي فيه مساس خطير بأسس الفن الجوهرية، إذ لا يستطيع فنان أداء رسالته إلا بالتزام الصدق الواقعي على حسب ما يراه هو أو يفكر فيه كما يعتقده أو ما يشعر به، ثم بالتزام الصدق الفني بالتعبير عن حقيقة أصيلة يرجع في تصويرها إلى ذات نفسه لا إلى ما حفظ من عبارات وسرق من جمل. وهو يرى أن هذا الصدق من الفنان قد يتطلب منه أن يتحرر في فنه وأدبه من عقائد سائدة أو مزاعم أخلاقية واجتماعية قائمة[4].

ومن يتحقق من الشعر الجاهلي يجد أن التزام الحقائق ظاهرة من ظواهره الواضحة.ولم يكن هذا الالتزام من الشعراء مراعاة منهم لدين أو خضوعاً لشريعة، ولكنه كان أثراً من آثار حياتهم الساذجة التي تكتفي بقدر الضرورة من كل شيء في المأكل، بل وفي المشرب والملبس،وتدع الفضول والمبالغات جانباً.

وقد فطرهم على ذلك صراحتهم مع أنفسهم، تلك الصراحة التي لا بد أن تكون قد تسللت إلى نفوسهم من حياة البادية الواضحة المكشوفة التي لا أدغال فيها ولا أحراش، ومن تلك الخيمة التي تلقنهم دروساً لا تنتهي في الصراحة والوضوح والعفوية، وذلك بفضل حوائطها الرقيقة التي لا تكاد تخفي عن أعين الناس شيئاً. وتبدو آثار تلك النزعة في البعد عن المبالغة والإغراق وتوخي القصد في المدح والفخر[5].

---

[1] مطالعات في الكتب/ ٢٨٨.

[2] عباس محمود العقاد: شاعر الغزل/ ص٨٦ –دار المعارف - سلسلة اقرأ، العدد الثاني، ١٩٥٥م.

[3] ساعات بين الكتب/ ٤٣.

[4] في النقد الأدبي/٢٢٤.

[5] الكفراوي: الشعر العربي بين الجمود والتطور/١٠.

وجميع شعراء الصراع عاشوا في الجاهلية، إذ لم يكن ثمة فاصل زمني بين هذا العصر وعصر مجيء الإسلام الذي شاركوا في أحداثه، بل إن معظم هؤلاء الشعر اء قد استوت أساليبهم الشعرية في الجاهلية وبزغ عليهم فجر الإسلام وهم يقولون الشعر، فليس غريباً -والحالة هذه- أن يحمل شعرهم بعض السمات التي كان يحملها الشعر الجاهلي كالصراحة والوضوح والصدق والواقعية، بل إن شعرهم قد التزم بهذه السمات أكثر مما التزم بها الشعر الجاهلي، ذلك أن الإسلام لم يكن مجرد دعوة عقيدية فحسب، وإنما كان دينا وتنظيما سياسياً وتشريعاً اجتماعياً واقتصادياً، ودعوة تهذيبية وتثقيفية وإلزاماً بالتمسك بفضائل الأخلاق. وعلى هذا فقد هذب شعرهم، وسوى أساليبهم وجنبهم الشطحات والإغراق في الغلو والمبالغات التي ربما لجأ إليها الشاعر الجاهلي حينما يجمَعُ خياله، فهذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم - يرى أن **النابغة الجعدي** قد تجاوز حدود الصدق والواقع حين قال[1]:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فيقول له: " إلى أين يا أبا ليلى؟" فيبادر النابغة إلى استدراك الأمر - وقد لاحظ الكراهة في وجه الرسول – فيقول: إلى الجنة يا رسول الله، فتطمئن نفس الرسول لهذه الغاية العظيمة التي يطمح إليها الشاعر، فيقول له: " لا يفضض الله فاك".

وليس هذا فحسب، بل هناك أخبار تواترت عن الرسول تشير إلى أنه كان يحث الشعراء على توخي الصدق والواقعية كما كان يشيد بالشعر الصادق، من ذلك أن كلمة **لبيد بن ربيعة**[2]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

عند الرسول الكريم: "**أصدق كلمة قالها شاعر**".

وقد سار خلفاؤه الراشدون على هذا النهج **فزهير بن أبي سلمى** أشعر الشعراء –في نظر عمر بن الخطاب - لأنه لم يكن يعاظل بين القول ولا يتبع حوشي الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه[3].

وهكذا قام الإسلام بتوجيه الشعر توجيهاً صحيحاً، وحدد له رسالته الحقيقية ففرق بين الأدب الوهمي الذي يتيه أصحابه في كل واد، وينحرفون عن الواقع والحق فيقولون ما لا يفعلون وليفقد قولهم كل قيمة، إذ لا يستمدونه من الأفعال، بين الأدب الذي آمن أصحابه بالدعوة التقدمية

---

[1] الشعر والشعراء/١/٢٨٩، العقد الفريد/٣/٣٨٣، خزانة الأدب/٣/٣٢٢.

[2] صحيح البخاري/٢/٢٠٤، تفسير القرطبي/١/٣٤١.

[3] الشعر والشعراء/ ١/١٣٨.

الجدية وانتصروا للحق ومضوا مع العاملين على تأييد المعتقدات السليمة المناقضة للعسف والظلم والباطل.

وإذا كان الصدق الفني يعني مطابقة الشعر لما يعتقده الشاعر أو ما يحس به –كما يقول **مصطفى ناصف**[1] وغيره[2] - فإن شعر الصراع بعامة كان صادقاً، فهو من جهة يترجم تعصب كل شاعر لعقيدته وقومه وينقل مشاعره الصادقة نحوهم،وهو من جهة ثانية شعر حرب واقتتال.وصدق العاطفة سمة عامة في مثل هذا الشعر، لأنه يسيل على ألسنة الشعراء في ميدان القتال، وعند فورة العاطفة والانفعال، ويتدفق من أفواههم وهم في حالات نفسية مضطربة ليصور ما تأثروا به من أحداث طارئة، وما أحسوا به من وقائع المعارك. ومن هنا فلا يملك الشاعر وقتاً لتزييف مشاعره، فهو يقول الشعر ليبكي أباه أو أخاه أو عزيزاً لديه قد سقط في ساحة المعركة أو ليصور شجاعته وبأسه، لأنه قتل فارساً شجاعاً من فرسان خصومه أو ليهدد هؤلاء الخصوم الذين نالوا من قومه، ومثل هذه المواقف لا تحمل على الكذب ولا تدفع إلى التزيد والإغراق في المبالغة، فحرارة الصدق تبدو مرتفعة ارتفاعاً ملموساً في قول قتيلة ترثي أباها القتيل يوم بدر[3]:

أبلغ بها ميتاً بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني إليك وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعني النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق

وتبدو حرارة هذا الصدق أكثر ارتفاعاً في قول حسان يرثي رسول الله[4]:

متى يبد في الداجي البهيم جبينه ... يلح مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من يكون كأحمد ... نظام لحق أو نكال لملحد

ثم هل قول أبي أحمد بن جحش[5]:

وكنا وأصحابا لنا فارقوا الهدى ... أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا

---

[1] دراسة الأدب العربي/ ٣٠٩.

[2] العقاد: مطالعات في الكتب/ ٢٨٨ – النويهي/ وظيفة الأدب/ ٦٠، هلال: النقد الأدبي/ ٢٢٤.

[3] العقد الفريد/ ٢/١٧٢.

[4] الديوان/ ١٥٧. الداجي: الليل، نكال: ما نكلت به غيرك من نكل به تنكيلاً إذا عاقبته في جرم أجرمه عقوبة تنكل غيره عن ارتكاب مثله. الملحد: العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه.

[5] السيرة/ق١/٤٧٣.

كفوجين: أمـــا منهما فموفق   على الحق مهدي وفوج معذب

غير تقرير لواقع الانقسام السياسي في مكة حينئذ، ونقل للحقيقة التي واجهها أبو أحمد وغيره من صحابة رسول الله عندما كانوا يواجهون المشركين بالأفكار الإسلامية الجديدة؟

ومن يمعن النظر في قراءة شعر الصراع تطالعه أمثلة كثيرة تشهد على صـــدق هـــذا الـــشعر وواقعيته، لعل من أبرزها هذه النقائض الكثيرة التي تراشق بها الفريقان خلال فترة الصراع الـــتي تحدثنا عنها عندما عالجنا موضوعات هذا الشعر. فتصدّي خصوم الشاعر له ونقضهم لمعانيه يجعله يتوخّى الصدق والواقعية ويلتزم القصد والصراحة في شعره، لأنه يخـــشى أن يفـــضحه خُـــصومه ويكشفوا كذبه.

فشعراء الصراع كانوا يتحرّون الصدق والدقة في التعبير عن عواطفهم وفي تصوير واقعهـــم، فقد تحاشوا كل تهويل وكل مبالغة فلم ينطلقوا وراء شطحات الأوهام ولم يجعلوا من وقائع حروبهم خوارق ومن فرسانهم آلهة أو أنصاف آلهة أو مردة أو عمالقة، بل وصفوا الأشياء على حقيقتـــها الموضوعية، وصوّروا الأحداث على نحو ما تحدُثُ في الواقع، فكان شعرهم مرآة لحياتهم العقلية ولما جرى لهم من أحداثٍ ولما جاش في صدورهم من مشاعر.

وليس أدلّ على صدق هذا الشعر وواقعيته من إنصافه للخصوم وإعطائهم حقهم مـــن البـــأس والشجاعة وكرم الأصل، **فضرار بن الخطاب** يعترف بهزيمة قومه أمام المسلمين في غزوة بدر فيقول:

فإن تظفروا في يوم بدرٍ فإنما   بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر[1]

ويعترف **حسان بن ثابت** بانتصار المشركين في غزوة أحد بقوله[2]:

لقد نلتم ونلنا منكم   وكذاك الحرب أحياناً دول

ويوقن **أبو عزة الجمحيّ** بأن الرسول يدعو إلى الصدق والهدى ويدرك أن الإسلام دين الحق[3]:

وأنت امرؤٌ تدعو إلى الحق والهدى   عليك من الله العظيم شهيد

ويشبه **كعب بن مالك خصومه بالأسود** فيقول[4]:

فساروا وسرنا فالْتَقينا كأننا   أسود لقاء لا يرجّى كليمها

---

[1] السيرة/ق٢/ ١٤.

[2] الديوان/ ٣٥٨.

[3] طبقات الشعراء/ ٩٩.

[4] السيرة/ق٢/ ٢٥.

وإدراك شاعر الصراع لخطورة الصدق ومدى تأثيره في النفس حمله على الإشادة بالشعر الصادق على شاكلة قول **حسان**[1]:

وإن أصدق بيتٍ أنت قائله بيتُ يقال إذا أنشدته صدقا

ولكنا مع ذلك لا نعدم أن نجد في شعر الصراع شعراً مزيفاً كاذب العاطفة، فهذا أمر بدهي في فترة ازدهر فيها الشعر وكثر فيها الوضع على الشعراء، ولكن مثل هذا الشعر الكاذب قليل، وإذا بحثنا عنه نجده في مثل هذه القصيدة الدالية التي قالها الأعشى للتكسب ونيل العطاء[2]، ونجده في بعض شعر الوفود الذي قيل لاسترضاء النبي كتلك الأبيات التي قالها **عمرو بن معد يكرب الزبيدي**[3].
أما هذه الأبيات القليلة المتناثرة التي غرقت في المبالغة كقول حسان[4]:

تناول سهيلاً في السماء فهاته ستدركنا –إن نلته - بالأنامل

فلا تخرج بهذا الشعر عن صدقه وواقعيته، بل نجد بعض العلماء يرى أن المبالغة ضرورية، فقد ذهب الجرجاني[5] إلى أن الاستعانة بها لا تمسّ بحالٍ قضية الصدق في الأدب والفن إذا كان الكاتب يقصد بإيرادها توكيد المعنى، ويرى العقاد[6] ألاّ تعارض بين المبالغة وبين تضمّن الشعر الصحيح لها، وهو ينعى على الشعراء فهمهم لاجتناب المبالغة بأنه التزام الصحة العلمية والنظم في العلم والتحقق لا في الخيال والأوهام، فالمبالغة كما يقول العقاد ليست عيباً في الشعر ما دام الشاعر ملتزماً للحقيقة الفنية.

وهكذا كان شعر الصراع في جملته صادق العاطفة بعيداً عن التكلف والصنعة لأنه كان ثمرة سائغة للانفصالات العاطفية دون شحذٍ أو صقل، واستجابة نفسية للمشاعر الخالية من الصنعة المستأنية.

وينتهي بنا هذا الطابع من الصدق والواقعية إلى سمة أخرى تَسِمُ شعر الصراع وهي **ظهور الشعر الديني** فيه. وهذا اللون من الشعر يكاد يكون حصيلة جديدة تضاف إلى ذلك الرصيد التقليدي

---

[1] الديوان/ ٣٤٨.

[2] الديوان/ ١٧- ١٨.

[3] السيرة/ق٢/٥٨٤.

[4] الديوان/ ٣٧٠.

[5] أسرار البلاغة/ ٢٣٨ -٢٣٩.

[6] ساعات بين الكتب/ ١٢٠.

من الألوان الشعرية التي تلوَّن بها الشعر العربي. ذلك أن هذا اللون لم يكن معروفاً عند الجاهلين إلا بصورة أبيات قليلة متناثرة قد سهر **ابن الكلبيّ** على جمعها أو جمع أكثرها في كتاب الأصنام[1]. وحتى هذه الأبيات لم نجد فيها ولاء وإخلاصاً للعقيدة الوثنية، بل وجدنا في بعضها ما يعبر عن كفر بواح بهذه العقيدة[2].

ولئن أثر الإسلام في نفوس العرب وأحدث انقلاباً جذرياً في مجتمعهم وحياتهم وجمعهم على كلمة التوحيد وأمدّهم بمعينٍ ثرٍّ من الفكر المستنير، فإنه قد أثّر في شعر الشعراء كذلك، فأمدهم بألفاظٍ عرفوها لأول مرة في حياتهم كالكفر والنفاق والإيمان والإسلام والصلاة والصيام والحج والزكاة وغيرها[3]. وزودهم بمعان كثيرة كانت من قبل في عالم الغيب، فأنقذهم بها من هذه الضائقة في المعاني التي كان يشكو منها شعرهم، فمضى بعضهم يستطلع معاني آيات القرآن البينات ويستفيد منها في نظمه فأصبحت الشخصية الإسلامية في الشعر تتميز عن الشخصية الجاهلية فيه. وقد أوردنا شواهد كثيرة على هذا التأثير في مطلع هذا الفصل.

وعلى هذا يكون شعر الصراع في ظل الإسلام أدقّ أنموذجٍ وأصدقه للنتاج الشعري الإسلامي، فهو يعتبر بحقٍّ المجال الطبيعي البكر لاستبانة أثر الإسلام في الشعر والشعراء. وانطلاقاً من هذا المفهوم نُبيحُ لأنفسنا أن نزعم بأنّ تطوراً بفعل هذا الأثر وتجديداً بباعث منه قد لحقا بالشعر العربي، فقد واكب هذا الشعر أحداث الدعوة الإسلامية وتطور مع أهدافها وغاياتها ومُثُلِها وصوّر أكثر غزواتها وجدّد أغراضاً وقيماً وموضوعات مستحدثة وتطور بموضوعات قديمة معروفة.

ولكن تصوير هذا الشعر للأحداث لم يبلغ شأوَ تصوير القرآن الكريم لها. وهذا لا يعني أننا نطالب شاعر الصراع بأن يرتفع إلى مستوى القرآن في المعالجات فهذا ما لا يمكن أن يكون، وإنما كنا نطمح لو استطاع هذا الشاعر أن يفيد الفائدة المرجوة من معالجة القرآن للوقائع وإثارته للقضايا، ومن وصفه لبعض الغزوات الهامة، ومن تصويره لنفسيات المقاتلين ورفعه لمعنويات المسلمين وكشفه لألاعيب المنافقين واليهود.

ومهما يكن من أمر فقد قَصَّر شعر الصراع عن تصوير بعض الأحداث وصمت عن ترجمة بعض المواقف. ونظن أن سبب هذا التقصير إنما يعود –وقبل كل شيء- إلى ما لحقه من العبث

---

[1] انظر كتاب الأصنام لابن الكلبي.

[2] كتاب الأصنام/ ٣٥، ٣٧.

[3] المزهر/١/٢٩٤-٢٩٥.

والضياع، فالقسم الذي وصلنا منه لا يكاد يُعبّر عن حقيقة الصراع وواقعه تعبيراً دقيقاً وشـــاملاً، إذ أن معظمه لشعراء المسلمين، أما شعر أطراف الصراع الأخرى كالمشركين واليهود والمنـــافقين فما بين أيدينا منه قليل قلة ظاهرة ولافتة للنظر، بحيث لا يستطيع الباحث من خلاله أن يعــرف – بدقة - مواقف هؤلاء الخصوم من الدعوة التي قاوموها، وعارضوا رســولها ونابـــذوه وأخرجـــوه وظاهروا من ثَمَّ على إخراجه وحربه.

وفرق كبير بين نقل هذا الشعر لأخبار الصراع وأحداثه وتأريخ كتب التفسير والتاريخ والسير والأدب لها، فالمؤرخ يعني بنقل الوقائع نقلاً مفصلاً، وقد يورد الخبر الواحد بروايـــات متعـــددة[1] فينقل إعداد أطراف الصراع للحرب ويتعقب تحركات جيوشهم ويصف ســير المعـــارك وصـــفاً مسهباً، ثم يحصي خسائر الفريقين. فالمؤرخ إذن يهتم بدقائق الأمور ويعني بالجزئيات، أما الـــشاعر فلم يكن يفعل فعل المؤرخ، وإما كان يكتفي في معظم الأحيان بإعلان نتيجة المعركة ويهتم بـــإبراز مواضع النصر وقلّ أن نجده يميل إلى التفصيل.

ولا نجد تفسيراً لذلك سوى ظروف القتال التي تحمله على الإيجاز والقـــصر، وتـــضطره إلى الاكتفاء بإعلان النتائج، وقد يجد الشاعر فرصة في أعقاب المعركة يستشعر فيها عواطفه على مهل ويتأمل ذاته تأملاً مستأنياً، فيميل إلى الإسهاب والتفصيل ولكن ذلك كان نادر الحدوث[2].

وإذا ما وقفنا على شعر غزوة واحدة كغزوة بدر مثلاً، وقمنا بدراسة هذا الشعر والتحقق من طريقة معالجته لأحداث هذه الغزوة، نجد أن معظم هذا الشعر قد عني بإعلان نتيجة المعركة وإبراز مواضع النصر فيها، ويبدو ذلك أكثر وضوحاً في موضوع الرثاء[3].

ولو أعدنا قراءة هذا الشعر مرات عديدة فلن تعطينا هذه القراءة صـــورة مفـــصلة ودقيقـــة لأحداث غزوة بدر كتلك الصورة الواضحة الملامح التي جادت علينا بها كتب التاريخ والـــسّيَر التي أرَّخَت لها، وإنما نستطيع –مطمئنين أن نحصل منه على صورة واضحة لنتيجة المعركة، ومثـــل هذا القول عن شعر غزوة بدر، يكاد ينسحب على سائر شعر الصراع تقريباً.

ولكننا بالرغم من ذلك نستطيع أن نعتمد على شعر الصراع الذي واكب أكثـــر الغـــزوات والسرايا ،كوثيقة تاريخية عاطفية لهذا الصراع الذي صاحب الدعوة الإسلامية الخطـــيرة، فعلـــى

---

[1] انظر تاريخ الطبري.

[2] السيرة/ ق٢/٨، ١٤، ١٣٠، ١٤١، ٢٥٦، ٢٥٧، ٤٥١.

[3] السيرة/ ق٢/١٥، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١.

الرغم من قِصَر المدة التي قيل فيها هذا الشعر، فإنه قد أفلح في إعطائنا بعض الملامح البارزة لطبيعة الصراع وصَوَّر جوانب هامة من حياة العرب في عصر النبوة وما صاحب هذه الحياة من تغيُّر ماديّ ومعنويّ شمل شؤونها جميعاً.

فشعر الصراع –كما بينا - يتّسم بسمات مخصوصة تميزه عن غيره من الشعر العربي فهو يختلف عن الشعر الجاهلي الذي جاء قبله، وعن ذلك الشعر الأموي الذي جاء بعده في طوابعه وروحه ومقوماته، بل وفي أهدافه وغاياته أيضاً – اختلافاً واضحاً فالنقائض التي يستوعبها هذا الشعر، إنما نُظِمَت في ظروف القتال المرير لتُعبّر عن وجهة النظر الجماعية، وهي في هذا تختلف عن هاتيك النقائض الأموية التي قالها قائلوها للتسلية ومَلء الفراغ وكانوا يحتفلون عند إنشادها بثيابهم وزينتهم[1]، أي أنها لم تكن متأثرة بنزعة سياسية خاصة أو حزب سياسي، وإنما كانت تعبيراً عن وجهة النظر الفردية وتحقيقاً لمنافع شخصية[2] فسميت بأسماء مُنْشِئيها حيث قيل:

نقائض الفرزدق والأخطل وجرير. وتختلف عنها في شيء آخر أيضاً وهو أن مسرح النقائض الأموية كان سوق المِرْبَدِ في البصرة حيث يَتحلّق الناس من حول الشاعر ليستمعوا إلى شعره بين الصياح والتهليل[3]، بينما كان مسرح النقائض الإسلامية تلك المعارك والغزوات العنيفة التي احتدمت نيرانها بين المتحاربين على أرض الحجاز.

وصفوة القول، فإن شعر الصراع له صورة مميزة، وشخصية أدبية واضحة يختلف بهما عن غيره من الشعر العربي. فهو يعتبر بِحَقٍّ معبراً طبيعياً ومنطقياً عبر عليه الشعر العربي من الجاهلية إلى ما أعقبها من عصور. وعلى هذا فنحن نعتبره حلقة لا يمكن إغفالها أو إغفال أثرها من حلقات الشعر العربي أو هي عصر من عصوره الهامة كما عودنا مؤرخو الأدب أن نقول.

---

[1] العصر الإسلامي/ ٢٤١.

[2] محمود غناوي الزهيري: نقائض جرير والفرزدق/ ص١٦٨ رسالة دكتوراه/ جامعة القاهرة.

[3] العصر الإسلامي/ ٢٤٤.

خاتمة البحث

أمابعد،

فقد تناولت هذه الدراسة موضوع: ((شعر الصراع بين الإسلام وخصومه في عصر النبــوة))، ذلك العصر الذي استغرق زمانه ثلاثاً وعشرين سنة ممتداً من ظهور الدعوة الإسلامية في مكة حتى قبض الرسول الكريم في المدينة، وهو عصر يُعَدُّ فترة انتقال كبرى من عهد الــشرك والوثنيـــة إلى عهد الإسلام والتوحيد.

وكان طبيعياً أن تنال الفترة عناية الدارسين ورعايتهم سواءً أكانوا مسلمين أم غير مـــسلمين، فأقبلوا على دراستها دراسة شاملة، واستقصوا جميع النشاطات التي قامت فيها. ولكـــن الناحيـــة الأدبية فيها لم تلقَ العناية الكافية، إذْ قامت حولها دراسات تناولت جوانب معينة منـــها، وذلـــك نتيجة الظروف التي أحاطت بالشعر الذي قيل فيها، تلك الظروف التي جعلت الباحثين يتـــهيّبون الإقدام على دراسته لما اختمر في أذهانهم من أن الإسلام يحارب الشعر والشعراء، ولما صاحب هذا الشعر من الشك والانتحال.

وحين وقفت على شعر الفترة، رأيت أن هذا الشعر مرتبط بالأحداث التاريخية الهامة، ومرتبط بشيء آخر أهم منها، وهو هذا الدين الإسلامي الجديد الذي ظهر على أرض الجزيرة العربية فغيّر معالم الحياة وطرق التفكير، وأثّر في نفسيات العرب وعقلياتهم فأحالهم بذلك خلقاً جديداً. ومـــن هنا، كان لابُدّ أن ينظر لهذا الشعر من ناحية ارتباطه بالإسلام، سواء في تمثُّل الفكـــرة الإســـلامية والدعوة لها والسعي في سبيل تطبيقها، أم في معارضة هذه الفكرة ومناوأتها والوقـــوف في ســـبيل انتشارها.

وقامت هذه الدراسة لشعر الصراع من ناحية تأثره بالإسلام، وارتباطه بالأحداث التي نتجـــت عن هذا الدين الحنيف. وبدأت بتمهيد عرضت في أوله تلك الجهود التي بُذِلَت في سبيل دراســـة جانب أو أكثر من الجوانب الأدبية للفترة، ثم وقفتُ بعد ذلك على موقف الإسلام مـــن الـــشعر والشعراء، فوجدتُ أن القرآن لم يمنح الشعر كل الشعر، وكل ما فعله أنه نزّه الرسول الكريم عن

قول الشعر، ونزّه نفسه عن أن يكون شعراً، ثم عمد إلى تحديد رسالة الشعر، فحمل على الغاوين المُضِلّين من أولئك الشعراء الذين وقفوا ضد الدعوة الإسلامية.

وكان الرسول الكريم يستحسن الشعر ويستنشده، وربما يُثِيب عليه، كما كان يحثُّ الشعراء على قوله انتصافاً لأعراض المسلمين، وانتشاراً لدعوة الحق، وبلغ من احتفاله به ما حمل بعض العلماء على الزعم بأنه قد قال بيتاً أو بيتين، وأنه أنشد بيتاً صحيح الوزن. وسار الصحابة الكرام على نهج نبيهم فاستمعوا لقول الشعر وأُعجبوا به، بل إن منهم من كان يقوله. من كل هذا تبين لنا أن الإسلام لم يحظر قول الشعر أو يقف في سبيل الشعراء.

ويرى الدارس لشعر الصراع أن هذا الشعر قد تنازعته عوامل الشك والاختلاط والضياع، وألصقت به تهمة الضعف. ويلوح للدارس أن الدوافع إلى الانتحال في هذا الشعر تبرز في رغبة قريش وغيرها إلى التزيد من التراث الشعري لتضيف جديداً إلى مناقبها ومآثرها، وفي مَيْلِ الوضاعين إلى اختلاق الأشعار ليزينوا بها قصصهم وأخبارهم وبخاصة ما كان منها ذا علاقة بالنبي الكريم ودعوته، كمولده وبعثته وصراعه مع خصومه وإبراز فضل آل بيته وإظهار دور صحابته في حمل الدعوة. ويجد الدارس مظاهر هذا الانتحال في تنازع نسبة النص الواحد أحياناً.

وتنازع نسبة النص بين شاعرين أو أكثر ظاهرة مألوفة في شعر الصراع. وأسباب هذا التنازع كثيرة، ترجع إلى كثرة الأحداث في فترة الصراع وإلى تعدّد أطراف الصراع، وكثرة الشعراء المشاركين فيه، وصدور بعض هذا الشعر عن شعراء مغمورين. ويجد الدارس أسباباً أخرى وثيقة الصلة بالشعر نفسه كاتّحاد قصيدتين أو مقطوعتين في وزنهما وقافيتهما، ووحدة الموضوع عند شاعرين وتشابه أسمائهما. وتلوح مظاهر هذا الاختلاط في اشتراك نصّين في بيت أو أكثر، وفي نسبة النص الشعري بكامله لأكثر من شاعر.

وأُبِيدَ قسم من شعر الصراع، وأوضح الأدلة على هذه الإبادة تظهر في شعر الشعراء أنفسهم، وتظهر في الإشارات الكثيرة التي تناثرت على صفحات المصادر التي عنيت بروايته. وتكمن أسباب ضياع بعض هذا الشعر في ما استشعره قائلوه من الندم على ما فرّطوا في جنب الله، وبخاصة بعد أن، عرفوا رحمة الإسلام وسعته. وتكمن أيضاً في تحرج الرواة من نقل ذلك الشعر

الذي فيه تعريض بالرسول الكريم ودعوته. ولا شك أن اندفاع المسلمين للجهاد، وانشغالهم التام بالحرب والفتوح، واهتمامهم بالحفاظ على القرآن والحديث وروايتهما، ومشاركة الرواة والحفّاظ في الحروب التي اشتعلت بين الإسلام وخصومه كحروب الردة وغيرها التي أدت إلى موت كثيرين منهم قبل أن يُدركوا عصر التدوين، لا شك أن كل هذه الأمور وغيرها قد أدت إلى ضياع قسم من شعر الصراع وطمسه.

على أن هنالك أسباباً أخرى مهمة منها ذَمّ القرآن والحديث للشعراء الذين تناولوا رسول الله بالهجاء والتعريض، وإهدار النبي الكريم لدَم مَن هجاه من الشعراء، وأخيراً تلك الرحلة الزمنية الطويلة التي قطعها شعر الصراع قبل أن يصل إلى صفحات الكتب.

وعلى الرغم مما لحق شعر الصراع من ضياع فإنه قد بدا قوياً مزدهراً. فشعراء الصراع لم يضعفوا ولم يتوقفوا عن قول الشعر، لأنهم لم يفقدوا الدوافع إلى القول، تلك الدوافع التي تكمن في ذلك القتال العنيف الذي دام منذ الهجرة إلى ما بعد الفتح. ومظاهر ازدهار الشعر في فترة الصراع تبرز في المصادر التي نقلت لنا هذا الشعر ككتاب المغازي والسيرة النبوية وتاريخ الأمم والملوك، وأنساب الأشراف وكتب الطبقات وغيرها. وديوان حسان بن ثابت وحده يزخر بالشعر الذي قيل في هجاء المشركين وفي الذبّ عن حياض الإسلام وعقيدته، وتبرز أيضاً في النقائض الكثيرة التي قالها الشعراء المشاركون في الصراع.

وحملتني بواعث الشكّ في بعض شعر الصراع إلى محاولة توثيقه، فسلكتُ في سبيل هذا التوثيق نهجين: وقفت في **أولهما** عند طرفي هذا الشعر: الرواة والنصوص. وبمعنى آخر عكفت على دراسته **خارجياً وداخلياً**، خارجياً من حيث تعقب أولئك الذين اضطلعوا بروايته، والتّحقّق من أسانيدهم وحظهم من التوثيق، والوقوف على المصادر التي أخذوا عنها وقيمتها وحظها من التوثيق. ولما كان شعر الصراع يفتقر إلى الدواوين التي اعتمدها العلماء الأثبات، لم أَجِد أمامي من سبيل سوى اعتماد النصوص التي وردت في بعض المصادر الموثوق بمؤلفيها.

وداخلياً: من حيث الوقوف على أفكار هذا الشعر وألفاظه ومعانيه، ومدى مطابقته لروح العصر واتساقه مع الحدث التاريخي وموافقته لمفاهيم الدين الإسلامي الحنيف. أما النهج الثاني

فقصرته على استقصاء الجهد الذي بذله ابن هشام في توثيق الشعر الذي ورد في كتاب السيرة – باعتباره يحتفظ بأكبر قدر من شعر الصراع - ثم قمت بمناقشة هذا الجهد فتبيّن لي أن عبارات الشك التي اصطنعها ابن هشام قد وردت في ثلاثة وستين موضعاً. وحين وقفتُ على هذه العبارات، وجدتُ أن ابن هشام قد أطلقها دونما تحديد أو تخصيص كقوله مثلاً: "وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له". وبدا لي من منهجه أنه قد اعتمد في توثيقه لما توافر لديه من شعر الصراع على علماء البصرة وحدهم، فدفعني هذا النهج إلى عرض النصوص التي شكّ فيها على المصادر التي عاصرت كتابه أو سبقته أو جاءت بعده بفترة وجيزة، فوجدت أن نصوصاً منها يمكن الاطمئنان إلى صحة نسبتها، لأنها رُوِيَتْ عن رجال لا يقِلّون عنه ثقة وأمانة.

ولدى مناقشتي عبارات شكه تبيّن لي أن بواعث الشك عنده لا تنسحب في الغالب الأعم على أصالة النصّ بالنسبة لفترة الصراع، وإنما تنسحب على نسبة هذا النص إلى الشاعر. ودليلنا على ذلك بعض إشاراته التي تدل على تنازع نسبة النص بين شاعرين من شعراء الصراع، وأيضاً ما أعلنه في أول كتابه من أنه تاركٌ أشعاراً لم يَرَ أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها. وهذا يعني أنه أثبت الأشعار التي صحّت نسبتها لديه وكذلك التي ثبتت له أصالتها، وإن ظلّ أمرُ نسبتها مجهولاً أو مختلطاً.

ورافقتُ في الفصل الثاني شعراء المدينة وعشتُ معهم جهادهم في سبيل الله، فوقفتُ -أول ما وقفت - على أحوال مدينتهم في ظل الفكر الجديد، فوجدتُ أن نصرة قومهم للرسول الكريم، واستعدادهم لحمايته ومنعه واستماتتهم في سبيل نشر دينه كان إيذاناً بنشوب القتال بين هؤلاء الأنصار، وأولئك الذين خذلوا الإسلام وقاوموا دعوته ونابذوا نبيه.

وفي ظروف الحرب والقتال وجد شعراء المدينة متنفساً للتعبير عن عواطفهم وعواطف المسلمين وسبيلاً للإفصاح عن مواقفهم وموقف جماعتهم، فتصدوا لحمَاةِ الشرك وشعرائهم يصلونهم ناراً حامية من هجائهم وطعنهم، ويَذُبّون بألسنتهم وسيوفهم عن حياض دولتهم ودينهم.

وكان **حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة** أبرز هؤلاء الشعراء جميعاً فنشطوا في معارضة شعراء قريش، واتجهوا في هجائهم وجهات مختلفة الأساليب متفقة الغاية والهدف، فتولى

حسان وكعب معارضتهم بالوقائع والأيام والمآثر وتعبيرهم بالمثالب إلا أن حساناً كان يُقبِل على الأنساب بينما يقبل كعب على التخويف بالحرب. واختلف ابن رواحة عن صاحبيه فكان يعير أعداء الإسلام بشركهم وكفرهم، فكان هجاؤه أهون الهجاء عليهم قبل الإسلام، وأشده وأعنفه بعد أن أسلموا.

وكان **حسان بن ثابت** أكثر إيذاء للمشركين من صاحبيه، ومن سائر شعراء المسلمين، فكأنما قد زاد الله في لسانه زيادة ظاهرة، فكان ظاهراً على أعداء أمته جميعاً. ومن هنا، كان رائداً للشعر السياسيّ والديني وشعر النقائض.

وشارك في الصراع شعراء وشواعر كثيرون من المهاجرين والأنصار، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ حسان وصاحبيه، ولم يشتهروا شهرتهم، لقلة إنتاجهم وعدم نضوج شاعريتهم.

وجدّت أحداث سياسية كثيرة أهمها: البيعة والهجرة والنفاق ووفادة بني تميم. ونهض الشعراء يُعبرون عن مشاعر المسلمين تجاه هذه الأحداث الهامة، إذ لم يكن يسهل على الشعراء المؤمنين أن يقبعوا في زوايا بعيدة، وأن يصمتوا عما يدور من حولهم، فجعلوا يذكرون البيعة والهجرة، ويفخرون بنصرتهم للدين الجديد، ويعبرون عن فرحتهم وفرحة قومهم بهجرة النبي الكريم ويُبَكّتونَ أولئك الذين خذلوه وأخرجوه.

وعلى الرغم من خطورة المنافقين على كيان الدولة، وتآمرهم على أمنها وسلامتها وكيدهم لنبيها واتفاقهم مع أعدائها. على الرغم من كل ذلك، فإن الشعر قد قصّر عن تمثّل أمرهم. وخفت صوت الشعراء فلم يَعْلُ إلا عند الردّ على بعض شعرائهم، ونقض ما يقولون في الإسلام ورسوله الكريم. وكان جديراً بهؤلاء الشعراء أن يُفيدوا من تصدّي القرآن الكريم للمنافقين وكشفه لأمرهم وفضحه لتآمرهم ووصفه لنفسياتهم، ولكنهم لم يفعلوا. وتبيّن لنا أن تقصير شعراء المسلمين في هذا المجال مرتبط بصلة القربى التي كانت تربطهم بالمنافقين، إذ كان أكثرهم من الأوس والخزرج، وهجاء شعراء الأنصار –وهم من الخزرج- لمنافقي الأوس –مثلاً- من شأنه أن يبعث الضغائن ويثير الأحقاد. وهناك شيء آخر مُهم هو أن النبي الكريم كان يعفو عن إساءات المنافقين

أحياناً، وما دام الرسول - صلى الله عليه وسلم - يفعل ذلك، فأولى بالشعراء أن يغضوا الطرف عن هذه الإساءات.

ولَئِن قصر الشعر عن هجاء المنافقين، فإنه قام بدوره في وفادة بني تميم، فبسط حسان بن ثابت سياسة الدولة، وكشف عن موقفها من الشرك بأنصاره، وأشاد بشجاعة رجالها في القتال، مما أدى إلى إسلام الوفد واعتناقهم لدين الله. ومن هذا تبين لنا أن شاعر الإسلام كان أداة هامة ووسيلة ممتازة لنشر الإسلام وحمل لوائه بين العرب أجمعين.

وقبل أن أقف على نشاط شعراء المدينة في الغزوات، وقفت قليلاً عند مفاهيم الإسلام التي غرست في نفوس المسلمين حب الجهاد، ودفعتهم إلى الإعداد وتوفير أسباب القوة، وعلمتهم استعمال المكيدة ومفاجأة العدو، فرأيتُ أن العقيدة الإسلامية قد أمدهم بطاقة هائلة من قوة الإيمان وصدق النيّة في جهاد الخصوم.

وحين انتهيت إلى الغزوات تبيّن لي أنها تختلف في أسبابها ودوافعها، فحملني هذا الاختلاف على تقسيمها إلى أربع: غزوات وسرايا استطلاعية وغزوات هجومية وثالثة تطهيرية ورابعة دفاعية.

وصاحبتُ شعراء المدينة في جهادهم، ورصدت ما سال على ألسنتهم من شعر في الغزوات وما جادت به قرائحهم في ساحات القتال فتبيّن لي أن نشاطهم في الغزوات الهجومية والدفاعية بصفة عامة كان أكثر منه في غيرهما. ولكن هذا النشاط قد اختلف –قلة وكثرة - تبعاً لأهمية الغزوة ونتيجتها. ومن هنا، رأيناهم يُكثِرون القول في بدر وأحد والخندق، ويُقلّون القولَ في غيرها.

وقصر شعر المسلمين في الغزوات التي لم يحدث فيها قتال كالحديبية والفتح وتبوك. ومردّ ذلك أن الشعراء قد فقدوا الحافز الرئيسي على القول، فشعر الفخر والحماسة والرثاء والهجاء إنما ينشط في أجواء القتال والكَرّ والفرّ والهزيمة والنصر.

وعلى الرغم من أن اليهود كانوا ألدّ أعداء الإسلام، وكانوا دائبي النشاط في التآمر والكيد وإثارة الشكوك والدسّ، فإن ما قاله الشعراء فيهم، كان قليلاً وهو في مجموعه لا يكاد يساوي ما قاله **حسان بن ثابت** وحده في يوم كالرجيع. وأرجعتُ هذه القِلّة إلى الوضع السياسي لليهود فهم لم

يكونوا قوة يمكن أن يُعتَدّ بها ويحسب حسابها، فلم يكترث الشعراء بـأمرهم إلا قليلاً ورأوا أن يَصرفوا جلّ جهدهم إلى قريش وغيرهم من الخصوم والمناوئين.

وحين تحولت من المدينة إلى مكة وجدت شعراء المشركين المكيين يقفون في الصف المناوئ للإسلام، فوقفت لأستطلع وجهات نظرهم، وأستقصي نشاطهم، ذلك لأن شعرهم حلقة مهمة في سلسلة البحث.

وبدأت صلة شعر المشركين بالأحداث بعد بيعة الحرب حيث بات مؤكداً أن أمر الدعوة الإسلامية لن يقفَ عند حدَّ الجدل والنقاش، وأن هذه النصرة التي أعطاها الأوس والخزرج للرسول الكريم إنما تعني حماية الإسلام بالسيف، وليس هذا فحسب، بل وقتال كل من يقف في سبيله أو لا ينضوي تحت رايته.

وتأججت شاعرية الشعراء عند بدء القتال، وأصبح الشعر في غُزّة قيام حكم الإسلام ذا شأن عظيم عند أهل مكة كأنه من وسائلهم السياسية.

وكان **عبد الله بن الزِّبَعْرى وأبو سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب** أهم هؤلاء الشعراء جميعاً، وأنشطهم في التصدي للإسلام وشعرائه ومناصريه والدفاع عن المآثر والأحساب والتقاليد. وشاركهم في مهمتهم شعراء كثيرون، منهم من كان بارزاً على سطح الحياة السياسية والعسكرية **كالحارث بن هشام وهبيرة بن أبي وهب وأبو سفيان بن حرب وهند بنت عتبة وأبو عزة الجمحي**. ومنهم من كان مغموراً فشارك بنصّ أو نصّين أو ثلاثة، فكان ذلك كافياً ليُقيّد اسمه في سجل الأحداث وهؤلاء يومئذ كثير، منهم أبو بكر بن شعوب الليثي وطالب بن أبي طالب وصفية بنت مسافر وقتيلة بنت الحارث وغيرهم.

وأكثر شعر المشركين قيل حول الغزوات وبسببها، تلك الغزوات التي تمثّلت من حيث دوافعها وأسبابها باثنتين: هجومية ودفاعية، وتمثّلت الغزوات الدفاعية في يومي بدر والفتح، فأذكت هزيمة بدر مشاعر الشعراء وحركت عواطفهم وبعثت الحياة في قرائحهم. وغلبت على ما قيل فيها من شعر روح الانهزام والسلبية، حيث اتّجه في جمهرته إلى البكاء والنواح والتعزية وتأبين القتلى.

وكُسِف الشعر القرشي يوم الفتح وبعده، وصمت شعراء قريش أو أُريد لهم أن يصمتوا، وعاد الشعر الذي هُجِيَ به المسلمون سُبّةً وعاراً على قائليه، فأُبيد ذلك الشعر، وعمل المسلمون على ضياعه وطَمسه، وفَتَلاشى بذلك صوت العداء في مكة فلم نَعُد نسمح من خصوم الأمس غير إسلام واعتذار وتوبة.

وذهبنا إلى الغزوات الهجومية التي تمثّلت في غزوتي: أحد والخندق، ويحدونا الأمل في أن نجِد فيهما غناءً، ولكنا على العكس من ذلك وجدنا أن ما قيل فيهما من شعر كان قليلاً، وهو لا يتناسب وروح العداء الشديد الذي كان يُكنُّه المشركون للإسلام ودعوته غير أنه على كل حال كان أغزر مما قيل في الغزوات الدفاعية.

ومن يقرأ شعر المشركين المكيين كله، لا يكاد يصطدم فيه، أو في بعضه باعتزاز وفخر بدينهم، وإعلان التمسك بعقيدتهم اللهمّ إلا ذلك الضرب من الاعتزاز بدين الآباء والتمسك بموروثات الأجداد. ولا نكاد نجد فيه تعريضاً بمبدأ الإسلام وعقيدته أو مجادلة أو مَحاجّة لشعراء المسلمين. وسكوت شعراء المشركين عن التعريض بالإسلام أمر غريب، وصمتهم عن تمجيد دينهم أمر أكثر غرابة وهم أصحاب البيت وسدنة الكعبة وحراس الآلهة وحماة الأوثان. وليس من المعقول بداهة أن يتعرض شعراء المسلمين لدين قريش وأصنامهم، وينالوا منها ويعيبوها ويبقى شعراء قريش صامتين. من هذا كله وأكثر منه، تبين لي أن صورة كفاح شعراء المشركين قد شُوّهت، فما توفر بين أيدينا من أشعارهم لا يكاد ينقل ملامح الصورة الحقيقية لشعراء موتورين، ولا يعقل أن يكون المعبّرَالحقيقي عن موقفهم العدائي من الإسلام. ومن هنا، دفعنا هذا الواقع الذي يعيشه شعر المشركين إلى أن نُرجّحَ بأن قسماً كبيراً من هذا الشعر قد ضاعَ وطُمِسَ.

وتناولتُ في الفصل الرابع شعراء القبائل فتبين لي أن هؤلاء الشعراء قد خضعوا للظروف السياسية التي كانت تتغيّر على أرض الجزيرة من حين لآخر. وقد دفعتهم هذه الظروف المتغيرة إلى المشاركة في الصراع راضين أو كارهين وفرضت عليهم من ثَمَّ أن يتّجِهوا في شعرهم وجْهتين متناقضتين وجهة مع الإسلام، والأخرى عليه.

وحين اسْتقصَيَتُ الشعر القبلي الذي شارك الصراع وجدت أنه قليل وموزّع على الغـزوات، فهو لم يكثر في غزوة معينة ويقِلّ في أخرى كما هو الحال في شعر المسلمين والمشركين، وإنما هـو مبعثر بعثرة مرتبطة بمناسبات القول ودوافعه ومسوغاته فهو مشارك لموقف قريش حيناً ومؤيـد لموقف الرسول الكريم حيناً آخر. وعلى هذا قمتُ بدراسة هذا الشعر من ناحية موقف شعرائه من الإسلام معه أو عليه.

وشعر المعارضة قليل بصفة عامة، ولا نكاد نجد له أثراً في القبائل التي كانت تسكن حول المدينة أو قريباً منها واكتوت بنار الصراع منذ اشتعالها كهذيل وسليم ومزينة وغطفان وبني عامر. وقلـة شعر المعارضة دفعتنا إلى الظن بأن الشعر الذي فيه تعريض بالإسلام قد دُفِن وطُمِس، فليس يُعقَل أن يترع شعراء القبائل عن الإشادة بدين الآباء والأجداد، وأن يصمتوا عـن التعـريض بـالفكر الإسلامي الجديد. وبدا ذلك واضحاً في شعر **كعب بن زهير** حين عنّف أخاه بجيراً على مخالفته لـدين آبائه وفي معاتبة زوج العباس بن مرداس حين ذهب زوجها لِيُسْلِم وفارقَ إخوان الصفا والـصنائع كما تقول.

وبدا الأمر أكثر وضوحاً عند **أمية بن أبي الصلت** فعلى الرغم من أنه كان من الأحناف، وكـان أكثر شعره في ذكر الآخرة، إلا أن قصيدته التي يبكي فيها أصحاب القليب من قريش ليس فيهـا شيء من ذكر الآخرة والدين ومجادلة المسلمين.

وما وصلنا من شعر اليهود قليل، وهو بالتالي لا يتناسب مع حِدّة الصراع التي قامـت بينـهم وبين المسلمين. وهذا ما دفعنا إلى الظن بأنّ شعرهم قد ضاع وأُبيدَ، فـاليهود أصـحاب كتـاب وتراث ديني قديم، وأحبارهم كانوا يُحاجّون النبي الكريم ويسائلونه يريدون إحراجـه، وزعزعـة الثقة بدينه. وإذا وقفنا على شعرهم القليل هذا، لا نجد فيه أثراً لتلك الُمحاجّةِ ولا نجد في اعتـزازاً بدينهم وتراثهم، ولا تعريضاً بالإسلام أو مفاضلة بين دينهم وبينه. ومن غير المعقـول أن يكـون الأمر كذلك، فإذا كنا نُرجِعُ خلوّ شعر مكة والقبائل من أثر الدين إلى أنهم لم يكونوا متمـسكين بدينهم، فهذا لا يكون سبباً راجحاً في تطبيقه على اليهود. على أن شعر المعارضة قد كثر نوعاً بعد الفتح، فقد نشط شعراء بني جذيمة الكنايين، وبعض شعراء هوازن وثقيف، غير أن ما وصلنا مـن

شعرهم كان قليلاً بعامة، فهو لا يكاد يتناسب مع عنف القتال الذي نشب بين المسلمين وكنانة، ثم بينهم وبين هوازن وثقيف من ناصرهما فيما بعد.

وحين وقفنا على الشعر المؤيد للدعوة وجدنا أنه بدأ بعد غزوة أحد مما يدلّ على أن القبائل كانت في ريب من أمر الدين الجديد وتريّثت ملياً قبل أن تحدد موقفها منه. وقد ظل شعر التأييد مقصراً عن أداء دوره الطليعي في الصراع حتى تَمَّ الفتح، حيث بدأ من يومئذ دوره الحاسم في تمثّل الأحداث وتبنّي قضايا المسلمين وتصوير انتصاراتهم.

ويكاد ينحصر الشعر المؤيد للدعوة في قبائل: سليم وخزاعة ومزينة غير أن شعراء سليم كانوا أكثر مشاركة من غيرهم، حيث كان **عباس بن مرداس السلمي** الشاعر المجلي في ميدان الصراع، فقال شعراً كثيراً في غزوات: الفتح وحنين والطائف.

وشعراء القبائل الذين شاركوا في الصراع كثيرون، منهم **أمية بن أبي الصلت وكعب ابن زهير والعباس بن مرداس ومالك بن عوف النصري ولبيد بن ربيعة العامري وكعب بن الأشرف اليهودي وغيرهم. وأسلم هؤلاء الشعراء جميعاً ما عدا أمية وكعب بن الأشرف والأعشى**، ومعنى هذا أن الشعراء الذين أسلموا عاشوا حياتين فنيتين: **حياة في الجاهلية** كانوا فيها حرباً على الإسلام، **وحياة أخرى** في ظل الدين الجديد جنّدوا فيها أنفسهم للدفاع عن الإسلام ومحاربة مناوئيه. وهذه الظروف المضطربة المتناقضة التي عاشها هؤلاء الشعراء قد دفعتنا إلى الظن، بأن ما قالوه من شعر ضد الإسلام قد طمس. وربما يكونون هم أنفسهم قد أبادوه، فنحن نستبعد أن يحتفظوا أو يحتفظ بعضهم بشعر يجرُّ عليهم نقمة الله يوم القيامة.

ووقفتُ في نهاية هذا الفصل على شعر الوفود الذين قدموا على رسول الله مسلمين، فاتضح لي أن شعرهم لا يخلو من بعض الوضع والافتعال، لأن أمر الوفادة أصبح مفخرة من مفاخر القبائل. ومن هنا لا نستبعد أن تلجأ بعض القبائل إلى اختلاق الشعر لتضيف إلى مفاخرها مفخرة السبق إلى الإسلام، وشرف صحبة الرسول الكريم. وبدا لي أيضاً أن شعر الوفود كان كثيراً، فما من وفد قدم على الرسول – صلى الله عليه وسلم - إلا ومعه شاعره أو شعراؤه، وذلك على عادة العرب حين كانوا يفدون على الملوك والأمراء.

وبعد أن درستُ شعر الصراع على هذا النمط، حاولت أن أكشف عن ملامحه الأدبية التي تميزه عن غيره من الشعر العربي. وحين وقفتُ على أصول هذا الشعر ومقوماته وطوابعه، تبينَ لي أنه مطبوع -في معظمه- بطابع الجاهلية، إذ لم يكن يسهل على شاعر الصراع أن ينسلخَ عن المواهب الفنية الأصيلة التي رسخت في النفوس، فتغيُّر ملكات الشعر ومواهبه كتغيّر الطبائع والعادات لا يتم إلا على يد جيل جديد. وعلى هذا كان الشاعر المسلم يعبر عن حاجات الجاهلية التي نشأ عليها وأَلِفها واستجاب لها وصارت جزءاً من تكوينه الفكري والخلقي والفني، وحاجات الإسلام الجديدة التي أصبحت جزءاً من حياته، وضرورة تُمْلِيها عليه أفكار الإسلام. وكان لا بد لهذا الشاعر أن يوفق بين الحاجتين، فهو لن يستطيع أن يَنْزَع عنه موروثات الجاهلية وآثارها -حتى لو أراد- وهذا أمر طبيعي إذا ما نظر للظروف العامة التي تحيط به. ومن هنا نجد استمرار النَّفس الجاهلي في شعر المسلمين وبخاصة أول العهد بالدين الجديد.

ومن طبائع الأشياء أن يتأثر شعراء المسلمين بدينهم ولو بقدر، وأن يقوى تأثرهم به بتقادم العهد. وعلى هذا تناول شعرهم ألفاظاً ومعاني لم يتناولها الشعر القديم كالجنة والنار والجهاد والشهادة والنصرة والتوكل على الله وغيرها من المعاني التي جدّت على حياهم الفنية.

ولئن حافظ شعراء قريش على النفس الجاهلي -شكلاً ومضموناً- وهم على صلة بالإسلام ومفاهيمه ومُثُله، يسمعون القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار ويحاجّون النبي الكريم وأصحابه، فأولى بشعراء القبائل البعيدين عن موطن الصراع الفكري أن يصمتوا عن ذكر الإسلام وأن تحملهم حياة البادية على التمسك بأساليبهم والتشبث بالنمط الجاهلي المألوف.

ولم يبق شعراء قريش وغيرهم من القبائل في معزل عن أثر الإسلام وتأثيره، فهو قد أثّر في شعرهم تأثيره في نفسياهم. وبدا أثر الدين واضحاً في شعر مَن أسلم منهم **كأبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزبعرى وبجير بن زهير وعباس بن مرداس وغيرهم**.

والمتحقق من شعر الصراع يجد أنه ينقسم إلى نوعين كبيرين من حيث الشكل الفني هما: **الرجز القصيد**. وللرجز أهمية خاصة في القتال والمفاخرة، ومن أجل ذلك كان أداة كثير من الشعراء

المغمورين الذين عبّروا عن أنفسهم تعبيراً بسيطاً ومرتجلاً يصطنعونه للتحميس وإلهاب الحمية وشَحْذِ العزائم.

والقصيد في شعر الصراع نوعان: **قصيدة ومقطوعة** والمقطوعات كثيرة تكاد تبلغ ضعف عدد القصائد والأراجيز معاً. وسبب ذلك ظروف الحرب التي عاشها شاعر الصراع فلم يكن يملك الحرية التي تُعينُه على الْتقَاط أنفاسه.

وجال شعر الصراع في موضوعات كثيرة،هي ذات الموضوعات القديمة كالفخر والحماسة والتحريض والوعيد والوصف والمديح والرثاء والهجاء والنقائض. واستطاع الشاعر المسلم أن يتطور بهذه الموضوعات جميعاً، فَضمّنها ما استطاع من مفاهيم الإسلام وأفكاره واستغلها لخدمة الدعوة الإسلامية.

ويرى الدارس لشعر الصراع موضوعات جديدة كالشعر الديني وحصار المدن. وظهر الشعر الديني أول ما ظهر عند شعراء المسلمين المهاجرين والأنصار ويقتصر في الأغلب الأعم على المعاني الإسلامية العامة، وقَلَّ أن نجده يعالج فكرة عميقة. أما حصار المدن، فلا نكاد نعلم له وجوداً في الشعر الجاهلي، غير أنه لم يكن موضوعاً قائماً برأسه وإنما يأتي ضمن أبيات القصيدة أو المقطوعة.

ومن يقف على الخيال والصورة في شعر الصراع، يَجِدْ أن الشعراء قد أكثروا من التشبيهات بصفة خاصة باعتبار التشبيه أبسط أشكال الصنعة الفنية. وأكثر تشبيهات شاعر الصراع منتزعة من مظاهر بصرية أو سمعية أو غيرهما مما يتصل بالحواس. واستخدم شاعر الصراع الاستعارة والكناية والجناس والطباق ولكنه لم يكثر منها لأنها تتطلب جهداً ومعاناة.

واتَّسَمَ شعر الصراع بِسماتٍ عامة تسمعه في مَجْموعِةٍ وتوضح معالمه وقيمته التاريخية. وأولى هذه السمات أنه شعر ملتزم، فلم يتهيأ له إلا أن يكون أثراً للفكرة الإسلامية. وثاني سماته هي القِصَر والإيجاز وهذه السمة مستمدة من ظروف القلق والاضطراب والحركة الدائبة في ميادين القتال. وثالث هذه السمات هي الصدق والواقعية، ذلك أن الإسلام لم يكن عقيدة فكرية فحسب، بل هو دعوة تهذيبية وتثقيفية، وهو إلزام بالتمسك بمكارم الأخلاق، فكان طبيعياً أن

يتمسك الشاعر بهذه القيم. وعلاوة على هذا، فشعر الصراع شعر حرب واقتتال، ومثـــل هـــذا الشعر لا يحتاج إلى الكذب وتزييف المشاعر.

وعلى هذا يكون شعر الصراع في ظل الإسلام أدق أنموذج وأصدقه للنتاج الشعري، فهو يعتبر بحق المجال البكر لاستبانة أثر الإسلام في الشعر والشعراء. وهو إلى جانب هذا مرآة للعصر الـــذي بُعِثَ فيه النبي يمكن أن يبتغى فيه تبين صورة الحياة الإسلامية وأثر الفكر الإســـلامي في النفـــسية العربية، ويأخذ بهذه القيمة مكانه بين عصور الأدب المختلفة كمعبر من العصر الجاهلي إلى ما يليه من عصور بما اكتسب من طوابع إسلامية تطورت فيه تطوراً محدوداً وامتد تطورها من بعد، فكأنه خلّص الشعر أو كاد من هذه العصبية الضيقة ثم أسلمه إلى العصور اللاحقة لتتطور فيـــه تطـــوراً ملحوظاً. وهو لهذا كله يُمثّل سِجلاً وافياً يُصحّح الحوادث التاريخية في بعض الأحيـــان ويعطينـــا صورة لحياة المسلمين وغير المسلمين في فترة الصراع.

فهرست المصادر والمراجع

١ - ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري

أ - أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الشعب، ١٩٧٠م.

ب -الكامل في التاريخ، المطبعة المنيرية، ١٣٥٦هـ.

٢ - إحسان عباس، فن الشعر. دار الثقافة – بيروت، ط٣/١٩٥٩م

٣ - أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، شرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر/١٩٤٦م.

٤ - أحمد الشايب

أ - تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، ط٣/١٩٦٦م.

ب -تاريخ الشعر السياسي، مطبعة الاعتماد – مصر/١٩٤٥م.

٥ - أحمد بن علي بن الحسين بن علي بن مهنا بن عتبة، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، بمبى/١٣١٨هـ

٦ - الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، أخبار مكة، وما جاء فيها من الآثار، المطبعة الماجدية، مكة المكرمة/ ١٣٥٢هـ.

٧ - الإشبيلي، أبو الحسن سلام بن عبد الله بن سلام الباهلي، الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق، المطبعة الوهبية، مصر، ١٢٩٨هـ.

٨ - الأشنانداني، أبو عثمان سعيد بن هارون، معاني الشعر، جمعية الرابطة الأدبية – دمشق، ١٩٢٢م، ١٣٤٠هـ.

٩ - الأعشى، ديوانه، تحقيق الدكتور محمد محمد حسين، مكتبة الآداب – الاسكندرية/ ١٩٥٠م.

١٠ - البخاري: عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، الجامع الصحيح، مطبعة الحلبي، ١٣٤٥هـ.

١١ - بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، تعريب عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، ط٢/١٩٦٨م.

١٢ - ابن بشار الأنباري، تاج اللغة محمد بن القاسم محمد، الأضداد في اللغة – تصحيح الشيخ أحمد الشنقيطي، المطبعة الحسينية بالقاهرة.

١٣ - البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب ألباب العرب، المطبعة الأميرية، بولاق – ط١.

١٤ - الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر/ ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م.

١٥ - البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ ١٣٧١هـ، ١٩٥١م.

١٦ - البكري، محمد توفيق، أراجيز العرب، مصر، ط١/ ١٣١٣هـ.

١٧ - البكري، أبو المكارم شمس الدين البكري، الدرة المكللة في فتح مكة المشرفة المبجلة، مصر/١٢٧٨هـ.

١٨ - البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي

أ - أنساب الأشراف، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف، ١٩٥٩م.

ب -فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة النهضة بمصر/١٩٥٦م.

١٩ - بلاشير، ريجيس، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي – تعريب الدكتور إبراهيم كيلاني، دار الفكر – بيروت/ ١٩٥٦م.

٢٠ - البهبيتي، نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري. مطبعة دار الكتب، ١٩٥٠م.

٢١ - أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، مطبعة التوفيق، مصر – ١٣٢٢هـ.

٢٢ - البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي، أنوار التتزيل وأسرار التأويل – القاهرة، المطبعة الخيرية ١٣١١هـ.

٢٣ - جابي زاده، علي فهمي جابي زاده، حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة، استانبول، ١٣٢٤هـ.

٢٤ - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر.

أ - البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، القاهرة، والهلال – بيروت، والمكتب العربي – الكويت، ط٣/١٩٦٨م، ١٣٨٨هـ.

ب -رسائل الجاحظ، مكتبة الخانجي، القاهرة/ ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

٢٥ - الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد

أ - دلائل الإعجاز، مطبعة المنار، ط٢/ ١٣٣٠هـ.

ب -أسرار البلاغة في علم البيان، مصر ١٣١٩ - ١٣٢٠هـ.

٢٦ - الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط١/ ١٣٥٧، ١٩٣٨م.

٢٧ - ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكفاني:

أ - الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة/ ١٣٢٣هـ.

ب -تهذيب التهذيب/ ط١/ حيدر أباد - الهند/ ١٣٢٥هـ.

٢٨ - حسان بن ثابت الأنصاري، ديوانه، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، مكتبة الأندلس، بيروت، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م.

٢٩ - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة/ط٥/ ١٩٥٩م.

٣٠ - حسين نصار، يونس بن حبيب، سلسلة أعلام العرب "٧٥" دار الكاتب العربي - القاهرة/ ١٩٦٨م.

٣١ - الحطيئة، جرول بن أوس بن مالك العبسي، ديوانه، مطبعة التقدم/ القاهرة.

٣٢ - الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، تفسير الخازن - لباب التأويل في معاني التنزيل، مطبعة المويلحي/ القاهرة، ١٢٧٨هـ.

٣٣ - الخشني، أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود، شرح السيرة، مطبعة هندية بمصر، ١٣٢٩هـ.

٣٤ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، المقدمة، مطبعة التقدم/ مصر، ١٣٢٢هـ.

٣٥ - ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت/ ١٩٦٨م.

٣٦ - ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي

أ - الاشتقاق، مطبعة السنة المحمدية/ ١٩٥٨م، ١٣٧٨هـ.
ب -جمهرة اللغة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط١/ حيدر أباد/ ١٣٤٥هـ.
٣٧ - درمنغم، أميل، حياة محمد، تعريب: عادل زعيتر، مطبعة عيسى الحلبي، ط٢/ ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م.
٣٨ - دروزة، محمد عزة، عصر النبي وبيئته قبل البعثة، مطبعة دار اليقظة – دمشق/ ١٣٦٥هـ، ١٩٤٦م.
٣٩ - دينيه، إيتين، محمد رسول الله، مكتبة نهضة مصر – القاهرة/ ١٩٥٦م.
٤٠ - الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان
أ - تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، طبعة عن نسخة دار الكتب المصرية، نسخة كمبريدج – مطبعة السعادة، مكتبة القدس، القاهرة/ ١٣٦٧هـ.
ب -سير أعلام النبلاء، معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف.
ج - ميزان الاعتدال، مطبعة عيسى الحلبي/ ١٩٦٣م.
٤١ - الرازي، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي، المطبعة الشرفية/ القاهرة – ١٣٠٨هـ.
٤٢ - الرافعي، مصطفى صادق
أ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المطبعة الرحمانية بمصر، ط٢/ ١٣٤٥هـ، ١٩٢٦م.
ب -تاريخ آداب العرب، مطبعة الاستقامة، القاهرة ط٢/ ١٩٤٠.
٤٣ - ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر بن رستة، الأعلاق النفسية، ليدن/ ١٨٩١م.
٤٤ - ابن رشيق أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – مصر/ ١٣٢٥هـ، ١٩٠٧م.
٤٥ - روم لاندو، الإسلام والعرب، دار العلم للملايين – بيروت، ط١/ ١٩٦٢م.
٤٦ - الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، مطبعة عيسى الحلبي، ط١ – ١٣٧٨هـ، ١٩٥٨م.
٤٧ - الزركلي، خير الدين، الأعلام، مصر، ط٥ – ١٩٥٤ – ١٩٥٩.
٤٨ - الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، المطبعة البهية – القاهرة، ١٣٤٣هـ.

٤٩ - أبو زهو، محمد محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون، مطبعة مصر، ط١ – ١٣٧٨هـ، ١٩٥٨م.
٥٠ - أبو زيد، محمد بن أبي الخطاب القرشي، جمهرة أشعار العرب، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٣م.
٥١ - السجستاني، أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان البصري، كتاب المعمرين من العرب، دار السعادة – مصر، ١٣٢٣هـ، ١٩٠٥م.
٥٢ - السدوسي، مؤرج بن عمرو، كتاب حذف في نسب قريش، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد، دار العروبة – القاهرة/ ١٩٦٠.
٥٣ - ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري، الطبقات الكبرى، مطبعة دار صادر، ودار بيروت – لبنان/ ١٩٥٧م، ١٣٧٦هـ.
٥٤ - ابن سلام، أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين، مطبعة دار السعادة، القاهرة، ١٩٢٠م.
٥٥ - السمهودي، نور الدين علي بن عبد الله بن أحمد بن الحسين، وفا الوفا بأخبار دار المصطفى، مطبعة الآداب المؤيد، بمصر سنة ١٣٢٦هـ.
٥٦ - سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكاتب العربي – القاهرة/ ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
٥٧ - سيد حنفي حسانين، حسان بن ثابت شاعر الرسول سلسلة أعلام العرب رقم "٣٠" وزارة الثقافة والإرشاد القومي – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
٥٨ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي
أ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها، مطبعة عيسى الحلبي بالقاهرة.
ب - بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة، مطبعة عيسى الحلبي بالقاهرة ط١/ ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.
ج - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة – مطبعة دار الوطن – مصر/ ١٢٩٩هـ، ١٨٦٤م.

٥٩ - السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، الروض الآنف، المطبعة الجمالية، مصر/١٣٣٢هـ، ١٩١٤م.
٦٠ - شاكر الجودي، المامه بالرجز في الجاهلية وصدر الإسلام، بغداد/ ١٩٦٦م.
٦١ - شوقي ضيف
أ - العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط٢/ ١٩٦٥م.
ب - العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر/ ١٩٦٣م.
ج - الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية:
- ج١ في المدينة، دار الفكر العربي، القاهرة/ ١٩٤٩م.
- ج٢ في مكة، دار الفكر العربي، القاهرة/ ١٩٥٣م.
د - التطور والتجديد، دار المعارف بمصر، ط٢/ ١٩٦٥م.
٦٢ - الشيباني، أبو بكر أحمد بن عمرو النبيل أبي عاصم الضحاك، كتاب الديات، مطبعة التقدم، ط١ – مصر، ١٣٢٣هـ.
٦٣ - ابن طبا طبأ، محمد بن أحمد العلوي، عيار الشعر، المكتبة التجارية/ ١٩٥٦م.
٦٤ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير
أ - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٢/ ١٩٦٨م.
ب - تفسير الطبري، المطبعة الميمنية بمصر، ١٣٢١هـ.
٦٥ - طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م.
٦٦ - طه الحاجري، في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية، العصر الجاهلي والقرن الأول الإسلامي، مطبعة رويال، الإسكندرية/ ١٣٧٢، ١٩٥٣م.
٦٧ - طه حسين
أ - في الأدب الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط١٠/ ١٩٦٩م.
ب - حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر/ ١٩٢٥م.
٦٨ - ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر البغدادي، بلاغات النساء وأشعارهن في الجاهلية والإسلام، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول – القاهرة، ١٣٢٦هـ، ١٩٠٨م.

٦٩ - عباس محمود العقاد
أ - ساعات بين الكتب، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة/ ١٩٢٩م.
ب - مطالعات في الكتب والحياة، ط٢، المكتبة التجارية الكبرى/ القاهرة/ ١٣٤٣هـ، ١٩٢٤م.
٧٠ - عباس بن مرداس السلمي، ديوانه، تحقيق يحيى الجبوري، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، دار الجمهورية – بغداد/ ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
٧١ - ابن عبد البر، جمال الدين عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ تحقيق: علي محمد البحاوي، مطبعة نهضة مصر/ القاهرة.
٧٢ - ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، المطبعة الأزهرية، ط٢ – ١٣٤٦هـ، ١٩٢٨م.
٧٣ - ابن عبد الكافي – عبد الله بن عبد الكافي، شرح المضنون به على غير أهله، مطبعة السعادة، ط١/ ١٣٣١هـ، ١٩١٣م.
٧٤ - أبو عبيد، القاسم بن سلام، الأموال، دار الشرق للطباعة – القاهرة، ط١/ ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
٧٥ - أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمي، مجاز القرآن، الخانجي، القاهرة، ط١/ ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤.
٧٦ - عبد الحميد حسن، الأصول الفنية للأدب، مكتبة الأنجلو، ط٢/ ١٩٦٤م.
٧٧ - عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية – بيروت/ ١٩٦٠م.
٧٨ - ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي – القاهرة/ ١٣٥١هـ.
٧٩ - أبو الفرج، علي بن الحسين بن محمد الأصبهاني
أ - الأغاني، المطبعة الأميرية – بولاق، ١٢٨٥هـ.
ب - دار الكتب ١٩٥٠م.
٨٠ - الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، المطبعة المصرية، ١٩٣٣م.
٨١ - فيليب حتى، تاريخ العرب، ترجمة نافع مبروك، مطبعة العالم العربي، ١٩٤٩م.

٨٢ - أبو القاسم، علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين، أمالي السيد المرتضى، مطبعة السعادة، ط١ – ١٣٢٥هـ، ١٩٠٧م.
٨٣ - ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
أ - عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب، ١٣٤٣هـ، ١٩٢٥م.
ب - الشعر والشعراء، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م.
ج - المعارف، دار المعارف بمصر، ط٢ – ١٣٨٨هـ، ١٩٦٩م.
٨٤ - قدامة بن جعفر أبو الفرج البغدادي، نقد النثر، مطبعة دار الكتب، القاهرة – ١٣٥١هـ، ١٩٣٣م.
٨٥ - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة لدار الكتب المصرية – دار الكاتب العربي، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.
٨٦ - القشيري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، الصحيح، دار الطباعة، القاهرة – ١٣٢٩هـ، ١٩٣٢م.
٨٧ - القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، مطبعة دار الكتب المصرية – ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.
٨٨ - القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة في المطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي/ القاهرة.
٨٩ - القنوجي/ صديق البخاري، أبجد العلوم، طبعة بهوبال/ الهند/ ١٢٥٩هـ.
٩٠ - قيس بن الخطيم، ديوانه، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار العروبة – القاهرة، ط١/ ١٣٨١هـ، ١٩٦٢م.
٩١ - كعب بن زهير، ديوانه، صنعه أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب/ ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠م – الدار القومية – القاهرة.
٩٢ - ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، ط١/ ١٣٥١هـ، ١٩٣٢م.
٩٣ - كحالة، عمر رضا
أ - أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، دمشق، المطبعة الهاشمية، ط٢/ ١٣٧٨هـ، ١٩٥٩م.

ب -   معجم المؤلفين، مطبعة الترقي، دمشق – ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.

٩٤ - كعب بن مالك الأنصاري، ديوانه، تحقيق سامي العاني، مكتبة النهضة – بغداد / ١٩٦٥م.

٩٥ - ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد السائب، الأصنام، تحقيق أحمد زكي، مطبعة دار الكتب، ط٢/ ١٣٤٣هـ، ١٩٢٤م.

٩٦ - الكناني، محمد بن جعفر، الرسالة المستظرفة، بيروت/ ١٣٢٢هـ.

٩٧ - لبيد بن ربيعة العامري، ديوانه، تحقيق الدكتور إحسان عباس، وزارة الإرشادة الأنباء – الكويت، سلسلة التراث العربي – ٨ – /١٩٦٢م.

٩٨ - لجنة من أدباء الأقطار العربية، فنون الأدب العربي – الهجاء – ٦ – دار المعارف بمصر.

٩٩ - مارون عبود، أدب العرب، دار الثقافة، بيروت ١٩١٠م.

١٠٠ - الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة الحلبي، ط٢/ ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م.

١٠١ - المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، ليبزج/ ١٨٦٤م.

١٠٢ - محمد أحمد خلف الله، دراسات في الأدب الإسلامي – لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م.

١٠٣ - محمد الخضر حسين، نقض كتاب في الشعر الجاهلي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٥هـ.

١٠٤ - محمد ذهني، مشاهير النساء، دار الطباعة – القاهرة/ ١٢٩٤هـ.

١٠٥ - محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت الأنصاري، دار المعارف بمصر.

١٠٦ - محمد عبد العزيز الكفراوي، الشعر العربي بين التطور والجمود، دار نهضة مصر للطبع والتشر، ط٤/ القاهرة/ ١٩٦٩م.

١٠٧ - محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين، مكتبة وهبه – القاهرة، ط١/ ١٣٨٣هـ، ١٩٦٣م.

١٠٨ - محمد غنيمي هلال، في النقد الأدبي الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية/ ١٩٦٩م.

١٠٩ - المقدسي، مطهر بن طاهر المقدسي، البدء والتاريخ، ترجمة كليمان هوار ١٨٩٩م.

١١٠ - محمد لطفي جمعة، الشهاب الراصد، مطبعة المقتطف والمقطم، ط١/ ١٣٤٤هـ، ١٩٢٦م.

١١١ - محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، المطبعة النموذجية، القاهرة/ ١٩٤٨م.

١١٢ - محمد نعمان الجارم، أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة، ط١/ ١٣٤١هـ، ١٩٢٣م.

١١٣ - محمد النويهي، وظيفة الأدب، معهد الدراسات العربية/ ١٩٦٧م.

١١٤ - المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، معجم الشعراء، تصحيح كرنكو، مكتبة القدسي – القاهرة/ ١٣٥٤هـ.

١١٥ - ومعه: المؤتلف والمختلف، للآمدي، مكتبة القدسي – القاهرة/ ١٣٥٤هـ.

١١٦ - المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي

أ - مروج الذهب، المطبعة البهية المصرية، ١٣٤٦هـ.

ب - التنبيه والإشراف، ليدن/ ١٩٦٧هـ.

١١٧ - مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

١١٨ - المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، إمتاع الأسماع لما للرسول من الأنباء والأموال والحضرة والمتاع، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة/ ١٩٤١م.

١١٩ - ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.

١٢٠ - مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مطبعة مصطفى الحلبي – القاهرة، ط٢/ ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م.

١٢١ - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط٢/ ١٩٦٢م.

١٢٢ - نالينو، كارلو، تاريخ الآداب العربية، دار المعارف، ط٢/ ١٩٧٠م.

١٢٣ - ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب، الفهرست، المكتبة التجارية/ ١٣٤٨هـ.

١٢٤ - النشار، علي سامي، شهداء الإسلام في عصر النبوة، مطابع دار الكتاب العربي، مصر/ ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م.

١٢٥ - النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة/ ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.
١٢٦ - النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.
١٢٧ - النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي/ ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
١٢٨ - الهذليين، ديوان الهذليين، نسخة مصورة عن دار الكتب – الدار القومية – القاهرة، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.
١٢٩ - ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه، مطبعة الحلبي، القاهرة، ط٢/ ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م.
١٣٠ - الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف داود، صفة جزيرة العرب، مطبعة السعادة، مصر سنة ١٩٥٣م.
١٣١ - هوروفيتس، يوسف هوروفيتس، المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، مطبعة الحلبي، مصر، ط١ – ١٩٤٩م، ١٣٦٩هـ.
١٣٢ - الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، المغازي، كلكتا، ١٨٥٥م.
١٣٣ - ولفنسون، اسرائيل، تاريخ اليهود في بلاد العرب، نشر لجنة التأليف والترجمة – مصر/ ١٩٢٧م.
١٣٤ - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي:
أ - معجم الأدباء، مطبعة دار المأمون – الطبعة الأخيرة – ١٩٣٦م، ١٣٧٥هـ.
ب - معجم البلدان، مطبعة السعادة، مصر – ط١، ١٣٢٤هـ، ١٩٠٦م.
١٣٥ - ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش بن محمد، شرح المفصل، المطبعة المنيرية، القاهرة.
١٣٦ - يحيى الجبوري:
أ - شعر المخضرمين، مكتبة النهضة – بغداد/ ١٩٦٤م.
ب - الإسلام والشعر، مكتبة النهضة – بغداد/ ١٩٦٤م.

المخطوطات

١٣٧ - حماسة الخالديين، أبو عثمان وسعيد، الأشباه والنظائر، دار الكتب، ٥٨٧ أدب.

١٣٨ - مجموعة من شعر العرب والمولدين، لا يعلم جامعها، دار الكتب، ٢٤٨ أدب.

تم بحمد الله